ج. أحمد البوعيـاشي

حرب الريف التحريرية
ومراحل النضال

الجـزء الأول

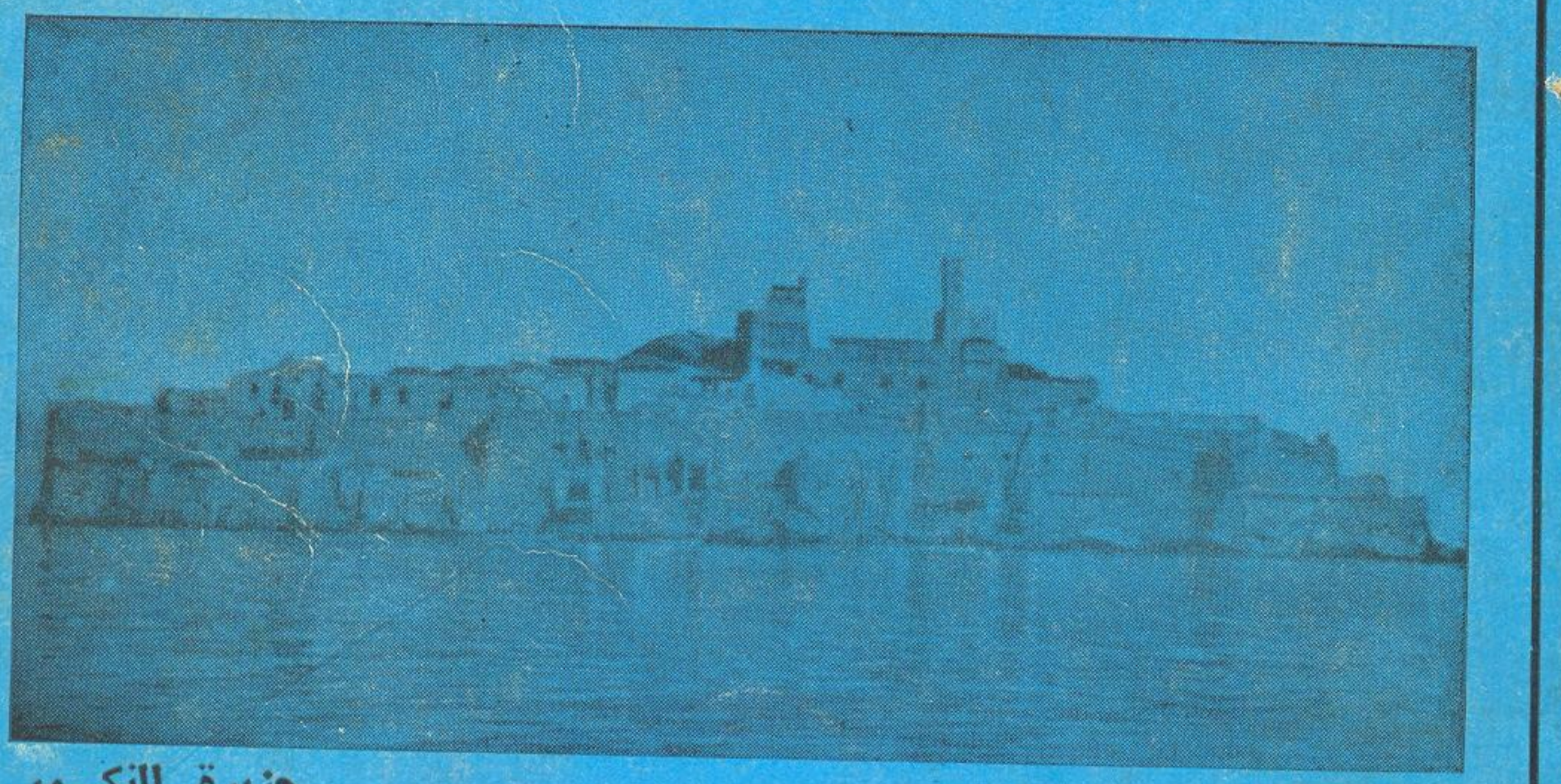

جزيرة النكـور

نشر عبد السلام جسوس وسوشبريس

كتـــــاب

حزب الريف للتحرير
ومراحل النضال

وهى حلقـــة من حلقات الوحـــدة الوطنية الكبـــرى

عبـــر تـــاريـــخ المـــغـــرب

الجـــزء الأول

تـــألـــيـــف :

الاســـتـــاذ البحـــاثـــة :

ج. احمد عبد السلام البوعيـــاشـــى

حقـــوق الطبـــع محفوظـــة للمؤلـــف

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم حمدا يلهمنا السداد فى أعمالنا ويفتح للتدبير فى صروف الدهر مجال عقولنا .

ونصلى ونسلم على سيدنا محمد الذى ملأت قصص حياته تاريخ العزة والسؤدد والمثل العليا ، وعلى آله وأصحابه الذين درجوا الى المعالى بهمة شماء .

أما بعد : فان هذا الكتاب المتواضع «حرب الريف التحريرية ومراحل النضال» نقدمه للقراء عن حسن نية، وعسى أن يجدوا فيه فائدة تذكر ولكاتبه تشكر .

وما توفيقى الا بالله وعليه توكلت .

طنجة فى :
رمضان المعظم 1394
اكتوبر سنة 1974

احمد البوعياشى

الاهـــــــداء

الـــى روح المنـــاضـــل الاول

محمـــد الخـــامـــس

تغـــدس الله روحـــه

والـــــى

سائـــر المناضلـــين الاحـــرار

وعلى رأسهم ابن عبد الكريم الخطابى

البطـــل التـــاريخـــى

كلمـــــة

كنت بدأت أنشر أبحاثا تاريخيا فى الريف وحضارته ، وقد وسمت البحث عن مدينة النكور وامارة العرب فيها بأنه الحلقة الاولى، كما وسمت بحثا آخر يتعلق بقصة الثائر بوحمارة بأنه الحلقة الثانيـــة، وقد رأيت الآن أن يكون موضوع هذه الابحاث فىكتاب متكامل ، للاحداث التاريخية فى نواحى الشمال ، وبالاخص نواحى الريف، التى كانت الى حد الآن محل اغفال أو تغافل، أما لانها جهة نائية تتخطاها الاعين الى حاضرات المغـــرب الاخرى الزاخرة بالعمران والحضـــارات التى تدفقت عليها من بغـــداد والقيروان شرقا، أو غرناطة وقرطبة شمالا، وأما لانها عاقتها عن الالتفـــات الى هذا الصقع الشاطىء، سلسلة جبال جعلتهـــا الطبيعـــة حاجزا منـــع الاتصالات الحضرية التى أهم أسبابها التنقيب عن المعالم، وتدوينها فى السجـــلات الحافظـــة لهـــا .

ولهذه الاسباب بقيت جهات الريف غفـــلا من حظوظها التدوينيـــة الا ما يعثر عليه لماما فى كتب التاريخ ، لا يمر عليها الا مر الكرام، بمناسبة أو أخرى وبالاخص اذا كـــان الميدان ميدان الجهاد والنضـــال .

وقد حفزنى هذا التغافل ان أنقب جهد المستطاع بين طيات الكتب التاريخية، والمراجع الدينية، وفى خبايا صناديق حفظ الوثائق الشخصية التى تحتفظ بها كل عائلة من عائلات تلك الجهـــات، وبالاخص الظهائـــر الملكية، وسلاسل الانساب الشريفة كأعز ما تملك، فوجدت أنه اذا كـــان هناك فرق بين جهات المغـــرب من حيث التـــراث الحضـــرى، والامجـــاد القومية، فان الفرق نسبى ضئيل، الا ما كان من الفرق البين الذى تختص

به بداوة الريف، فهى بـــداوة متحضرة لها انسابها المسلسلة المحفوظـــة، حتى فى صدور القوم، وقد تغلغل فيهم الكيان الاسلامى، تغلغلا استولى على مشاعرهم، فهم لا يقبلون فيه مساومـــة .

كما تغلغل فيهم احفاظ على الشرف والعرض الا ما اباحته الشريعة السمحـــاء، فهم فى بداوتهم يتأثرون بمشاعر الآيـــة الصادقة «لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلهـــا» .

ويراعون أشدها سلسلة المحارم من غيرها، وفى حياتهم الاجتماعية يسيرون مع الاخلاق الحافظة حذو النعل بالنعل من كرم الضيافة وقراها وسماحـــة النفس ، وحفظ الجار ، والنجدة عند الحاجـــة ، الى غير ذلـــك مما طبع عليه القوم ارثا أبا عن جد، تلك تربية ميزت بها البادية هناك .

وعلى ذلك، فان ما يمكن أن يقال فى حق حواضر المغرب من المآثـــر العمرانية، والعلمية، يمكن أن يوصف به وأو نسبيا بادية الشمال، أعنـــى سلسلة جبال الريف، مع الفارق البسيط فى طبيعة خشونة البادية، وليونة أهـــل الحاضرة، مما انفصل عنه العالم الاجتماعى ابن خلدون .

وهذه الخصال هى التى حفـــزت هؤلاء المجاهديـــن لدحر الثائـــر بوحمـــارة، كما حفزتهم لرد عاديـــة الغازيـــين الاستعماريين الاسبانـــى والفرنسى، فى ذلك الصراع البطولى الذى خصصنا له القسط الاكبر من صفحات هذا الكتاب، مع بسط بعض الاحداث التى جرت على هذه الجهة، لكى يمكن للقـــارىء أن يلمس الوضع التاريخى بكاملـــه، ولهذه الغايـــة ولجمع شتات تلك الاحداث بسلكها فى وحدة متناسقة، توجب علينـــا أن نعيد فى طى هذه الصفحات نشر مضمون الحلقتـــين معا اللتين كنـــت نشرتهما مستقلة الاولى تحت عنوان «الريف بعد الفتح الاســـلامى» والثانية تحت عنوان «الثائر المهـــزوم» .

ولئن عمدت هنا الى التنويه بهذه البادية بالخصوص، فان الباعث ليس النيل من باديات المغرب الاخرى، أو العصبية القبلية التى تقول:

وما أنا الا من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية أرشـــد

بل القصد من ذلك، اننى أثير كوا من الباحثين، ليتعدى قلمهـــم تلك الجبال الشاهقة التى يحتضنهـــا جبل تدغين فى علو 2.400 متـــر، الى

حيث حاضرات ساحلية، كانت يوما ما مهدا لامارات، كمدينة النكـــور ورباطات لصلحاء طفاحل كمدائن باديس، والمزمه، وتكساس، وغساسه، وبوسكور، وترغه، وسبته، ومدينه، التى بنيـــت عى انقاض مدينـــة روساديـــر الفنيقيـــه، علاوة على اصدار هذه المدن وباديتهـــا، للمجاهدين الباحثين عن جنه الفردوس تحت ظلال السيوف، فى اقطار الاندلس، يوم كانت مثار النقع تسابق الشجعان الصالحون بين غبارها، الذى لا ينفضونه عن جسدهم تبركا به، وفى جهات أخرى من نواحى المغرب، لفك أسـر مدن العرائش، وأصليـــه، وطنجة، وسبتة، وغيرها مما شهد لها التاريخ.

وانى اذ أبين فى هذا البحث شيئا مما عثرت عليه بعد البحث والتنقيب فانا اعتزم أن أضعه نواة قد تكـــون بدايه انطلاقه ليتنقلوا بين مواقـــع المعارك، التى شهدتها كـــل بقعة من الشمال، من بوغاز جبل طـــارق الى المدينة المغراوية (1) بأقصى مشـــرق المغرب، ومـــن شواطىء البحـــر المتوسط الى ضواحى فاس، وتازة، ووزان، ليسجلوا أى أمجاد تشهـــد بها تلك المواقـــع فى سبيـــل النعـــرة الدينيـــة أولا، وفى سبيل الوحـــدة الوطنية ثانيا، والذب عن العـــروش المتعاقبة على المغـــرب التى تعمـــل لحفظ كيانه من السقوط فى مهاوى الاطمـــاع .

تلك شئنة سار عليها سيرا حثيثا فى احضان هذه الدولة العلوية، والدوحة النبوية، التى ورثت كل مزايا دولة ذات سيادة ونجدة، كفلتـــا للمغرب التقدم فى مضمار الرقى والازدهار، الذين تشهد الدلائل الحثيثة انها تسابق الركب الحضرى العصرى، بقيادة ابن تلك الدوحة، والعتـــرة الطاهرة جلالة الحسن الثانى نصره الله، وما الحرب الريفية الا جزء مـــن تلك الانتفاضات المتسلسلة، التى تجلت فيها الوحدة الوطنية الكبرى بكـــل مظـــاهـــرهـــا .

وانى اذ أهيب بحاملى الاقلام، للالتفات الى هذه الجهـــة، فانى أضمن لهم أن يجدوا مجالا واسعا، وميدانا فسيحا، وتربة ثرية، وصيـــدا

---

(1) وهى وجدة، بناها زيزى بن عطية المغـــراوى، اختطها فى شهر رجـــب 384 هـ. (الاستقصاء ج.ل.ص. 195) .

ثمينا، فالاعلام التاريخية لا زالت بكرا لم تطـرق بعد، وسلسلـة من المجاهدين الذين لاقوا حتفهم فى معارك الشـرف ضد المغيرين المعتديـن لا زالت فى ذمة التاريخ، والحملات الصليبية التى تضافـر عليها العـزاه، لم تنشر بعد اسبابها، ودواعيها، والمجالات الفلسفية للسياسه الاستعماريه والاستراتيجية الحربية لم تدرس بعد دراسة كافية، والحرب التحريرية الريفية التى رفعت رأس المغرب عاليا، والتى سمع دويها العالم المستعمر فى عقر داره، وذهل لها أيما ذهول، كما سمعها العالم المتعطـش للحرية، فباركها وطرب لها، لازالت سرا فى صدور الرجال، الا ما كتب عنها لمامـا سطحيا لم ينفذ الى عمق أوارها، ومع انى بحول الله سأتتبع هذه الابحاث الى نهايتها، لكى انشل منها ما قدرت على نشله، وانفض العبـار الـذى تراكم على احداثها، فان الجهد الفردى مهما استنفذ قواه فلن يصل الـى اعماق الاعماق المتوخاة فى كـل بحـث .

ولذا فانى أقدم هذا البحث المتواضع عن حرب الريف التحريريـة الذى استلزم ان اكشف النقاب عن وسط هذه الجهات من حيث الازدهـار العلمى والاجتماعى، والتى كانت يوما ما زاخـرة بالحضارات فى العلـم والصلاح، والتى لم يكن حظها من عوادى الدهر اقل من حظوظ غيرها من مدن الشواطىء المغربية، التى تعرضـت للقرصنة البحرية، فعفى عنهـا الزمان بسبب تلك الهجمـات .

كما ألم الما ما بوضعية اقلاع الخمسة التى قدر لها ان تبقى فى الاسر الى اليوم، واتبع ذلك بنبذة عن وادى الذهب والساقية الحمراء.

ونظرا الى ان تاريخ جهة ما يشمل الاحـداث التى وجدت فيـه أو فى الجهات التى تتأثر بهـا .

ونظرا الى أن هذه الجهة قد ازدهرت فى ايام الادارسة والموحدين، وكانت منتجعا للدولة المرينية من بعدهم، التى كان تكوينها الاساسى فى الجهة الشرقية للمغرب، فقد عرجت على بعض الاحداث التى تأثرت بها هذه المنطقة فى أيامهم .

وقد أدرجت فى الكتاب مخطوطا ورد فى احد العلماء الصالحين عاصر جل القرن السابع وجزء من القرن الثامن (640—734 هـ) وهو ابو يعقوب

البادسي، لما توخيناه فيه من القاء ضوء على الحياة العامة والخاصة فى ذلك العصر . ولاجل اخذ الفائدة المتوخاة من فقراته فقد بوبناها بعناوين متـــلاحقـــة .

ونظرا الى الاغلاط التى يطالعنا بها بعض الكتاب حتى من المغاربة فيما يخص الحرب الريفية التى كانت فى مبدئها الاصيل هو الدفـــاع عن العرش والوطن والعقيدة ضد الغزاة الاجانب، الذين تكالبوا لاحتلال الوطن.

وقد جاء فى افكار بعض هؤلاء الكتاب، ما ينم عن انهم غير مطلعين على احوال جهة الشمال، وبالاخص الريف، فاعتمدوا على مؤلفات الاجانب المشحونة بالسموم كمراجع، واما انهم تهافتوا على من هب ودب، ممـــن هم بعيدون عن تقييم الحقائق تقييما واقعيا، ينبع عن الاطلاع الصحيح، لا عن الشائعات المفقة تلفيقا، والمروجة ترويجا استعماريا .

فانى تحريت جهد الامكان أن أضفى على هذا العمل صفة الحقائق التاريخية التى تستلزم استبعاد العاطفة فى تقييم الوقائـــع المجردة، لكى تبدو واضحة، ضاربا بعرض الحائط ما كان لفق لصالح جانب أو آخر .

واذ عنونت هذا الكتاب «بحرب الريف التحريرية» فان القصد من الريف هـــو ما يشمـــل قبائل سلسلة جبال الريف، تمشيا على أن الريـــف من سبتة وطنجـــة الى وجدة، وسنجد ضمن صفحاتـــه، أن المعـــارك التى جرت فى كل القبائل، كانت أشـــد وقعا على الغـــازين فى تحركاتهم، ممـــا خلفت له مآسى حزت من كبريـــائهـــم .

ولذا تتبعتها واحدة فواحدة على الجبهات الاربع. الشرقية والغربية والجنوبية، والشمالية، مراعيا فى ذلك التسلسل التاريخى حسب الوقائع، فانتقل من جبهة الى جبهة أخرى، ثم ارجع الى الاولى، حسبما يتجـــدد من الاصطدام بين المتحاربين، فىفترة معينة مـــن الزمن، واذكر القـــواد المحليين الذين خاضوا المعارك، محليا اياهم بما كان يحليهم به اخوانهـــم، من صفات الاستبسال فى النضال، وحسن القيادة، كما لا أغفل عن صفـــات الضعف والخور التى وسم بها الاخرون، ممن قعدت بهم سجيتهم، فلـــم يفلحوا او كانت لهم بواعث غير سليمة فيما قصدوا .

أما قطب رحى هذه المأثرة، الذى هو الزعيم محمد بن عبد الكريم

الخطابى، الذى أوقد أوارها على النسق الصحيح، حتى ايقظ سبات العالم الذى لم يألف من احد أن يعرقل اكتساح الاستعمار الغربى، لاقطار الشرقيين، فاننا سايرنا احداثه، وتحركاته، وما أثر عنه من مزايا القائد الماهر الذى يشهد بها شهود عيان من أبناء غير أبناء جلدته، فى نفس الوقت بل ذات التاريخ .

ومع ان صفات القائد تلك، لم تكن من خلق معركة أنوال فحسب، بل لم تكن معركة أنوال الا بداية لانطلاقة عارمة، شملت جهات الشمال باسرها، فان الكتاب والمؤرخين الذين قصروا تلك البطولة على هذه المعركة، التى يبدو من صنيعهم كأنها الاولى والاخيرة، فانهم لم ينسجموا مع الواقع الصارخ، ولم يوفوا للرجال كيله، كما لم يوفوا للشهداء الذين أراقوا دماءهم فى كل شعب من شعاب الشمال، وهضابه وأدغاله .

ولذا كان لزاما علينا أن نستقصى ما استطعنا تلك الصور الرائعة، على أن لا يمنعنا ذلك من كبح جماح بعض الكتاب الاجانب، الذين راحوا يتملقون هذا الطرف، او ذاك، من المتحاربين، لنرد الامور الى نصابها.

هذا، وان أولئك الكتاب الاجانب، اطبقوا على ان يطلقوا على ابن عبد الكريم، اسم عبد الكريم تارة، وكريم تارة أخرى .

وسبب ذلك ما اختلط عليهم من اسماء العائلة الخطابية، لان أب العائلة اسمه عبد الكريم، والولدين القائدين، احدهما محمد بضم الميم، والاخر محمد بفتح الميم، والجميع له صيت فى النضال .

ولاجل تفادى هذه الاخطاء، فانى أقيد ما ورد من اسم عبد الكريم بالاب، واسم الولد الكبير بابن عبد الكريم كما هو معروف به عند الاهالى، وعلى أخيه محمد الخطابى تمييزا لكل واحد منهم عن الاخر، مع التمشى على الاسماء الحقيقية .

وعلى كل، فانى جعلت نصب عينى ان لا اتوانى فى ذكر الحقائق ولو مرة بعض الاحيان، حتى اجعل القارىء يلمس ملابسات تلك الحرب التحريرية التى يتلهف بالطبع أن يطلع عليها ــ وقد ضن بها الكتاب الذين تناولوا الموضوع ــ واذا كان التاريخ يدون لاستخلاص العبر منه، فان العبرة التى تتضمنها حرب الريف تتجلى فى الزمان والمكان والبيئة

والامكانيات اللائى قامت تحت وطأة ثقلها مجموعة، ومع مرور خمسين عاما عليها، فان جدتها بقيت مصونة لم يطرقها البلى، ولذا عملت على نشر كل تلك الملابسات التى كان معظمها صعابا ذللت بفضل المثابرة والحصافة التى استخدمت كأساس لنجاح المهمة .

واذا تمكنت من سرد تلك الاحداث الآن مصوغة فى قالب تاريخ متكامل، فانه كان عملا متواصلا جرى بالاحتكاك مع معظم الذين عاشوا تلك المعامع، اذ تمكنت من استيقاء اخبارها من شاهدى عيان فى حالات شتى، وعلى الاقل فيما يخص الحالة الداخلية للثورة، فضلا عن مراجعة المراجع التى تمت الى الكتاب بصلة .

كما يستلزم ان الم ببعض العائلات التى ثبت نسبها والظروف التى عاشت فيها مع تأثرها فى المجتمع، مع العلم بأنى لا أذكر الا قليلا جدا من تلك العائلات نظرا الى انى اضرب الامثال فقط، وقد يكون تركت من هو أكثر شهرة، معتذرا بان الكتاب لم يوضع اساسا لاحصاء تلك العائلات، لان ذلك يقتضى دراسة أخرى مستفيضة، كما ان فترة من الزمن مرت على هذا الشمال بعد هذه الحرب التحريرية والتى عرفت بفترة الحماية الاسبانية التى تستلزم هى بدورها تسجيل احداثها فى اطار معطياتها التى جاء نتيجة لتلك الحرب الاستعمارية الضروس وذلك للكشف عن تلك المعطيات السلبية والايجابية التى تخضع لعقلية استعمارية عامة ذات برنامج موحد فى جميع الاقطار المكبوتة، الا ما كان من الفروق البسيطة فى وسائل التطبيق .

وقد يكون من المفروض علينا وقد اخذنا على عاتقنا ادبيا أن نسير فى خطوات التنقيب والتسجيل لاحداث هذا الجزء من الوطن، ان لا ندع هذه الفترة دون تدوين تلك الاحداث، وبالاخص انى تحاككت ردحا من الوقت مع تلك الاساليب بفضل المركز الذى كنت احتله كقاض لبنى وريا غل: القبيلة التى اندلعت منها شرارة تلك الحرب التحريرية .

أما اذا تخطينا هذه الحقبة من تاريخ المغرب العليل، الى حقبة رفع الحجر عنه، عندما انتزع استقلاله بالحديد والنار، من يد أولئك الحماة، فان احداثا تاريخية ذات أهمية فى ميادين الحياة المختلفة المناحى، سياسية

كانت أو اقتصادية أو عسكرية، دلت على تبلـــور الوحدة الوطنية، التـــى قادها عاهلان عظيمان متشبعان بروح الشهامة واصالة الرأى، ومؤهـــلان لقيادة الامة الى عصرها الذهبى، فـــان تدوين تاريخهـــا يكـــون حافـــلا بعظائـــم الامـــور .

فقد مهد المغفور له جلالة محمد الخامس أسس الوحدة الوطنيـــة المتراصة الاركان، لكى يتمم وارث ســـره جلالـــة الحسن الثانى، ذلـــك البناء الشامخ الذى تخطى به من الوحدة الوطنيـــة، الى وحدة القوميـــة العربية فى مظهرها العملى الشجاع الخارق للعادة، فكان صدى الزحـــف التاريخى المقدس، لاستخلاص الشام وبيت المقدس، من براثين الصهيونية يعبر تعبيرا صادقا عن مواهب قيادية عصرية، ذات مردود تاريخى لامجاد المغرب الخالدة، والتى أحيت فى النفوس ذكريات الامجاد الاصيلة التى يستوحى منها المسلمون عند اقدامهم على كل أمر ذى بال، اسرار الفائدة المتوخاة، والتى منها ما خلده الرسول محمد بن عبد الله (صلعم) فى نجدة الشام بنجدات عسكرية لاستخلاصها من يـــد الطغاة المستعمرين .

المؤلـــف

مناضل من بلادى

ابن عبد الكريم الخطابي بلباس الميدان سنة 1921

الزعيم ابن عبد الكريم الخطابى
أمير المجاهدين والبطل التاريخي

لا نجد صيغا نعبر بها عن المواهب التى خلقت مع الرجل أدق وأصح من الاوصاف التى صاغها فى حقه أولئك المراسلون لمختلف الصحف الذين شدوا الرحال لاكتشافه فى ابان المعامع، والذين كفونا التعريف به وبأوصافه، التى ان انشدناها نحن قد تفسر بالاطراء الشعرى المعروف، مثلما انشد شاعر عربى حينما أطرى كريم قومه (1) هرم بن سنان، فقال:

دع ذا وعد القول فى هرم

ذلك لان الحق ما شهدت به الاعداء .

ولان ما كتب عنه فى ذلك الوقت، كاف للتعريف بالرجل واخلاقه البطولية، وشجاعته الوطنية. وقد تواردت المراسلون على وتيرة واحدة، الا مكابرة مكبوتة من المراسل «ولتير هاريس» مراسل التيمس الذى كان آنئذ ينتقل فى ربوع المغرب، والذى تأثر كثيرا بأساطين العسكريين الفرنسيين، وقد وصف الامير فى احدى مراسلاته، «بأنه يشتهى الانتقام من الاسبانيين، الذين ازدروه لما زجوا به فى السجن بمليلية، وان له عيوبا تتمثل فى ابتغائه الحصول على الثروة الشخصية، وعلى السلطة المطلقة، وان مطلبه باستقلال الريف كان لاجل اشباع شهوته فى الانتقام الشخصى» .

على انه لما كان الواقع فى قرارة نفسه غير ما لمزه به، فانه فى مراسلة أخرى ابان عن الواقع المتواتر لدى جميع المراسلين، فقد جاء فيها، «ان ابن عبد الكريم لم يكن منظما جيدا ومقاتلا رائعا فحسب، بل كان منشىء مراسلات ممتازا وبارعا، وقد تعلم ان يتحدث اللهجة التى كانت أوربا قد ألفتها فى البرقيات المتعلقة بالانتدابات، وما شابه ذلك مثل: الدحض ـ الجريح ـ الكبرياء ـ للبواعث الخاطئة ـ الاحتجاج المداهن ـ

---

(1) من عرب الجاهلية، يضرب به المثل فى الكرم .

بالنيات الخالية من الاثرة ــ الى غير ذلك، ثم قال: «أن ابن عبد الكريم رجل لا يتورط فى آية مغامرة، قبل ان يدرس جميع احتمالاتها» .

وهنا نترك الرد على هذا المراسل لمراسلين آخرين تجردوا من تلك الصفات المشينة، فقد وصفوا ابن عبد الكريم أدق وصف، وكان «فنسينت شيان» مراسل جريدة «شيكاغو تريبيون» الامريكية، يرافق الامير عند تفقده الخطوط الامامية للمجاهدين، على القمم التى تطل على خليج الحسيمة، الذى ملأت عرضه البوارج الحربية للاعداء، وهو فى مرحله عسيرة حيث كانت جيوش العدو تدق أبواب عاصمته بأجدير .

فقد قال هذا المراسل: «كان يجسد شعبه فى أفضل خصاله، وكان يعبر عنه ويعرفه بصورة أعظم، لاى انسان فرد، أن يفعل فى المجتمعات الاشد تعقيدا، وكانت عبقريته هى عبقرية شعبه، وقد رفعت الى قوة أعلى»

«وعلى الرغم من معرفته العظيمة بحضارة أوربا وأفكارها، فانه لم يشاهد لحظة واحدة قط، العالم أو مشاكله الخاصة فيه، من وجهة نظر رجل أوربى، كان يراها كما يمكن لاى ريفى أن يراها، وكان تفوقه يقوم على الواقع التالى: الا وهو انه كان فى مقدوره ان يراها بوضوح أعظم وان يهاجمها بشجاعة اكثر، وبذكاء أشد براعة، وكانت أفكاره السائدة واغراضه فى الحياة قليلة جدا، وانه يمكن ارجاعها جميعا، الى غرض واحد، الا وهو «استقلال الريف المطلق» .

«ولقد كان فى استطاعته أن يدافع عن هذا الضيق الظاهرى فى الرواية بكلمات «سافونارولا»، لقد كانت أغراضى عظيمة» .

«وفى بلاد كبلاده، حيث لا يكاد التنظيم الاجتماعى يتجاوز المرحلة البدائية، لابد أن يكون طموح البشر الاول نحو الحريه دائما ولابد أن يكون الواجب الاسمى للقائد فيما بينهم هو تأمين هذه الحرية، ولم يكن وحدانية غرض عبد الكريم، فى هضاب شعبه الخاص، وديانه فى تلك اللحظة المحددة من تاريخه، دليلا على قصر البصر، بل كانت دليلا على العظمة» .

«وما كان يمكن ان يبدو قط وجها أكثر بطولة مما بدا لى خلال تلك الايام، ان أفضل سياسى أوربا التافهين ليتراءون أشبه بالدمى تلقاء

صفاته، ولو أنه أتيح لى أن أبقى فى أجدير وأن أتأمل هذه الظاهرة وقتا اطول، فلقد كان ايمانى يتجدد فى قدرة الجنس البشرى على الارتقاء فوق ذات قدرته على ان يبلغ مهما تكن المناسبات نادرة، القمم التى تشير الى امكانية الوصول اليها» .

وعندما اراد شيان بعدما رحل ابن عبد الكريم منفيا ان يطرى أحد قادة العالم الاسلامى، وهو المفتى (1) الاكبر للقدس فقال: «انه يذكرنى من حين لآخر بعبد الكريم» وقال: «انه لا يعرف اطراء أعظم من هذا الاطراء» .

واضفى غيره من المراسلين أوصافا تجعله معجزة العصر، وفى هذا الصدد، قال أحدهم وهو أمركانى ممن زاره فى آيت قمرة سنة 1924 بعد حوار معه .

«ياله من رجل خرج من ذلك المكتب المظلم الصغير، الذى يمارس فيه المحاماة، (يعنى القضاء فى مليلية» الى المركز الفريد فى بلاده، اتراه دجالا باركه الحظ؟، أم أنه أحد أبطال الملاحم أو سيف الاسلام المسلول؟ تلهبه حمية الفاتحين الاولين الذين خرجوا من الجزيرة العربية؟، لعل فيه شيئا من الخصال الثلاث لكنه قبل كل شىء ابن اريب للقرن العشرين، ورجل ذكى كفؤ، وواسع الحكمة، فضلا عن ذلك، ليس ثمة عبقرية هنا، بل ثمة ما هو أفضل من العبقرية، القدرة على تقدير القوى الجماعية وتوجيهها، ورغم انه لا تظهر فى طليعته كثير من النبالة، الا أنه حذر حصيف، وكان يملك الشىء الاساسى، وهو القدرة على التركيز، وبعد النظر، وانه بعد ذلك يقدم الاسطورة للعالم، بايقاظ الطاقة البربرية من رقادها» .

وقال مراسل جريدة «نيويورك تايمس الامريكية»، «ان كثيرا ممن يجهلون الحقيقة عن شخصية ابن عبد الكريم يبخسون حقه ولا يقدرونه التقدير اللائق بالمقام الذى ناله بباده وجهده، واكسبه براعة وكفاءة، فهو أحد الذين بيث الله فيهم روح الزعامة، ويمنحهم القوة والشجاعة ليتولوا

---

(1) الحاج أمين الحسينى، أكبر زعيم اسلامى ورئيس اللجنة العربية العليا لتحرير فلسطين .

قيادة شعوبهم وابناء عشيرتهم، فى طريق الاستقلال والحرية وتحقيق الامانى القومية، وهذا علاوة على انه مصاح كبير وعسكرى قدير، وله فى بلاد الريف تأثير لا يضارعه تأثير» .

وقالت جريدة «الدوتشى تسيتانغ الالمانية»، انواسعة الانتشار، «ان ابن عبد الكريم رجل قدير، ذائع الصيت، وزعيم متعلم، وقائد ماهر ومنظم حاذق، وسياسى حكيم، وهو زعيم منطقة قل أن ذاقت مرارة الحكم الاجنبى، حتى أن الرومان الذين أخضعوا الالب، واذلوا الالبان، لم يقتحموها» .

وقالت جريدة «الديلى اكسبريس الانجليزية»، «يعد الامير ابن عبد الكريم من مشاهير رجال العالم، ومن الذين لا تقرء سيرتهم الا فى الروايات، وهو شديد الحذر والانتباه، ولا يبوح بخطته الا عند تنفيذها، وقد عبأ جيشا من احدث النظام، ودرب رجاله على أساليب القتال» .

وقالت جريدة «الطان الفرنسية»، «ان كثيرا من الفرنسيين الكتاب الذين كتبوا عن ابن عبد الكريم صوروه كأحد دعاة الكماليين (يعنى أحرار الاتراك) والسفييت والالمان، ولم يظهروه قط بمظهره الحقيقى، بمعالجة نفسيته المغربية، حتى انك لا تجد من الالقاب التى لقبوه بها، من قاطع الطريق الى رئيس الجمهورية، لقبا ينطبق بها عليه وعلى حركته، مع أنه ليس فى ابن عبد الكريم وثورته ما يبعث على الدهشة والاستغراب، فقد اعتادت بلاد المغرب، ان تنجب من وقت لآخر رجلا ثائرا» .

أما أحدوثة الاكبار عند قادة العالم الاسلامى، فان الامير شكيب أرسلان تكفل بترجمة آرائهم فيه، فى حاضر العالم الاسلامى حيث قال :

«لا نبالغ اذا قلنا أن الامير محمد بن عبد الكريم متولى كبر الثورة على الاسبانيول، فى شمال سلطنة المغرب، هو فى الثورة الحاضرة بطل الاسلام وأسده الضرغام والعلم المفرد، الذى سار بذكره القاصى والدانى، والخاص والعام، لابد اذا نظر الناس بعين الانصاف، يجدونه بطل العصر الحاضر بين جميع الامم، لا بين المسلمين وحدهم» .

أما ما هو معروف به لدى مواطنيه، فالرجل كما وصفه كثير منهم، وطنى مخلص، شهم، له مبادىء قارة فى جميع اطوار حياته ولو

بعد غربته النائية الطويلة، ولم تملكه ايام الحرب بهاريج الدنيا وملذاتها فقد كان حلس التنقلات، تصل به المتاعب احيانا الى مستواها اللاذع، كما أنه لم يخطر بباله قط أن يضع شـــارات مميزات عن اخوانـــه، كما لـــم يستعل عنهم فى مكان مأموريته، التى خضعت للتقاليد المحلية المتعارفة من السداجة والبساطة، وكان فى تنقلاته التى يصحبه فيها أركان حرب الثورة عندما يجن الليل يبيت معهم فى دارة واحدة وعند وقت الصلاة يخرج الى العراء ليؤم المجاهدين، ثم يعقد جلسة عمل فى نفس العراء، ليحدثهم عن فضائل الجهاد، وعن المآسى التى تنتظرهم ان لم يطردوا العدو الغازى، كما يحثهم على النبـــل فى معاملة العدو، عندما يسقط أسيرا وعند الغلبـــة فى أية معركة وأى دليل أنصع من كف جمهـــور المجاهدين المتحمسين مـــن افتحام مليلية عندما كانوا على أبوابها، وهم فى نشـــوة الانتصار، بينمـــا العدو فى هوان الانكسار، الذى احدث له فوضى لم تدع له مجالا للدفاع عنها، أكان ذلك رحمة بالاولاد والعجزة والنساء، أم كان جبنا منه،؟ وهـــو الذى قاد المجاهدين من نصر الى نصر فى أقصر مدة، الم تكن هذه المدينة هى منطقة مهانته عندما زج به فى السجن،؟ وهـــو قاضى القضاة فيهـــا، ولم يكن هناك حائل لاشباع شهوته من الانتقام، اذا كان كما يتخيله ولتير هاريس، ارضاء لمن كان يتصل بهم ويسهلون عليه مأمورية التنقل مـــن أساطـــين الغـــزاة .

وأما فى الجبهة الجنوبية فانه لما كان المجاهدون فى نوفمبر سنـــة 1924، على ابواب احتلال فاس، وكان الكورونيل كمباى، يرى الاجلاء عن تازا تحت ضغط المجاهدين، وحاول الجنرالان شمبرون وهوش تحصينات فاس، وما كادا، فان ابن عبد الكريم الخطابى لم يشأ ان تصبح المدينتـــان حطاما محطمة على رؤوس مواطنيه، عند اقتحامها من طرف المجاهديـــن الذين انتشوا بنشوة الانتصارات الباهرة، فأمر بالكف عن الهجوم عليهما لا جبنا منه، ولكن لاعتبارات انسانية، لم تجـــد هذه الانسانية محلها عند القادة الامركانيين عندما حطموا مدينتى «هـــيروشيما، وناجازاكى» على السكان اليابانيين العزل بوسائل الدمار المبيـــدة، والتى لا زال الاحيـــاء يعانون منها الى الآن، وقد تملكت النشوة أعظم قائد فى ذلك التاريـــخ

وهو الرئيس تشرشل نفسه، عندما أخبر من طرف مستشاريه، بولادة «الطفل سانما» (عبارة عن القنبلة الذرية)، قال فى مذكرته عن الحرب العالمية الثانية، انه وأركان حرب الحلفاء، لم يعترض أى واحد منهم فى القائها، كما كان نصيب مدينة كولون الالمانية ذات المعالم الاثرية التاريخية ان اندثرت تلك المعالم تحت قنابل الدمار .

نعم هناك كتاب آخرون، كانت ارتساماتهم عنه ابلغ، حتى قال عنه الملازم البحرى مونتان، وقد كان ضمن الوفد الفرنسى الذى ذهب من تركيست الى زاوية اسنادة لمفاوضة ابن عبد الكريم للاستسلام وهو فى اللحظة الاخيرة من جهاده الذى كرس حياته لاجله، «كان عبد الكريم يبدو خلال الساعات المؤثرة فى نظر أولئك الذين حاولوا اقناعه بعدم جدوى الاستمرار فى الصراع، يبدو كرجل دولة بربرى حقيقة مدرك لمسؤولياته وواجباته» .

وعن أهدافه التى يعمل من أجلها مستميتا، فقد وصفه آخرون «بأنه كان زعيما وطنيا لحركة تحريرية وطنية، فى اقليم معين من أقاليم الوطن العربى الكبير، وانه رجل مبادىء لم تتغير منذ عمليات كفاحه فى العشرينات، برغم نفيه عن بلاده أكثر من عشرين سنة» .

وهو وصف صحيح، عمل من أجله، ولم يرتض عنه بديلا من الجمهورية، والسلطة، لان ذلك يعتبر فى حقه خدشا فى وطنيته الصادقة حتى أنه بمجرد أن وطئت قدماه ارض الكنانة، عمل على تأليف لجنة تحرير الشمال الافريقى وترأس مأموريتها، وكانت أقطار الشمال الافريقى تحت نير الاستعمار المباشر، فعمل على لم شعث الوطنيين الذين شردتهم تلك السلطات، وكان له الفضل كل الفضل فى اندلاع المقاومة المتلاحقة فى تلك الاقطار، الى أن أحرزت على حريتها .

ولما كانت عقيدته مبنية على الواقع السليم، فانه يرى ان لا شىء من العبادات يوازى تلك المقاومة التى تحمل فى طياتها عقيدة الجهاد، وسيادة الاسلام، ولذا فانه فى مواسيم الحج عندما يكون لزاما على

الحجيج أن يمر مركبهم فى قناة السويس، ان تنـــزل شخصيات المركـــب لزيارته فى القاهرة، قبل أن يتابعوا طريقهم الى البقاع المقدســـة :

ويحكى أنه لما زاروه، وكانت حرب الجزائر مع فرنسا فى عنفوانها، سأل الزوار الى أين تسيرون؟ ومن الذيـــن فى ركبهم؟ فاجابوه بأنهـــم يتوجهون على الحجيج من المغاربة لاداء فريضة الحج فقال لهم الا توجد الجنة على خطوات منكم، تحت ظلال السيوف؟ فتعرضون عنها، وتطلبونها فى غيرها، قـــد توفون بحقـــه وقـــدلا» .

وزاد قائلا «ان الشريعة الاسلامية تجعل الجهاد فرض عين، ولا تجعل الحج فرضا الا مع الاستطاعة، وأين الاستطاعة مع اذلال العـــدو لبلد مسلم، لا يجهر بشعائره فى احضانه؟ » .

ومع ذلك فقد يبدو غريبا ونحن الآن فى مراحل طوت صفحـــات ذلك الجهاد الخالد، ان تفرض علينا الشعارات ذات المناسبات التى تتكرر تكرر الاغراض السياسية، والتى تلجأ الى تحوير الاحداث ولبسها لباسا براقا، والتى جعلت ابن عبد الكريم هدفا تلوكه الالسن، بعـــد أن قضى نحبه، واصبح فى ذمـــة التاريـــخ .

الوحـــدة الوطنيـــة فى مظهرهـــا العملى

وهنا يجدر بنا ان نلقى اضواء ولو خافتة على الجهاد المقـــدس الذى حول الآن، وبمناسبة مرور خمسين سنة، على بدىء الانتصـــارات الباهرة انطلاقا من معارك مثلث الموت: انوال ــ اعرويت ــ اغريين، فى قبائل الريف العاتية، ومثلث آخر: الوطاء الحمـــراء ــ تغزوت ــ دار بن قريش، فى قبائل جبالة، الى مثلث ثالث: البيبان ــ تاونات ــ بنى دركون، بقبائل نهر ورغة الى شعارات سياسية .

واذا كان هذا الجهاد قد اثار صدى بعيد المـــدى لدى الدوائـــر العالمية فانما ذلك، لانه كان بوحى من الايمان بالله وبالوطنية، وليـــس ذلك لغرض الاستلاء على الحكم، باحداث الانقلاب فى النظام الداخلـــى لدولـــة المغرب التى كانـــت تعتبر ذات كيان دولى ، ولو حاولت الـــدول

الاستعمارية طمس ذلك الكيـــان ، بل كان ذلك أطرد الغزاة الأجانب، اذى كان هو الهدف الاول والاخير .

ومن الاجدر التذكـــير بالموقف التاريخى البطولى لهذا الاقليم الابى الذى لم يرض أن يساومه احد عبر تاريخه الطويل، اى منذ بـــداب مطامع الاوربيين تحوم حول امتلاك المغرب، فهب رجاله لرد عادية المغيرين على هذه الشواطىء، للغيرة على الوطن ودولته، وطلبـــا للشهادة، جعلتهم يهرعون، فكـــان الفوز والحمد لله حليف المجاهدين فردوا الاعداء علـــى اعقابهم، واذا ما تجاوزنا هذه الاحقاب الى حقبه توقيع الاتفاقيات بـــين الدول المتكالبة على المغرب سنة 1904، وما بعده، فاننا نرى رجالا نبغـــوا قبل الامير ابن عبد الكريم الخطابى، ومنهم سيدى محمد امزيان الشريف الحسنى البطل الذى كان القوم يشبهون بطولته ببطولة خالد بن اوليـــد سيف الاسلام، لانه كان حلس فرسه فى المعامع، الذى لما سقط شهيـــدا فى حدود قبيلة قلعية المتاخمة لقبيلة بنى سعيد، فى معركة حامية، قيـــل أن فرسه لم يشأ ان يفارقه، رغم مطاردة الجيش الاسبانى له، للقبض عيه حيا، فكان يذهب بعيدا ثم يرجع الى صاحبه الشهيد يقبله برأسه، فلمـــا أعى الاعـــداء اردوه قتيـــل مع صاحبـــه .

ومنهم سيدى عبد الكريم الخطابى، (الاب) الذى قاد حملتين اثنين: احداهما ضد الاجيش الفرنسى على قبائل تازة، والاخرى ضد الجيـــش الاسبانى بتفرسيت، حيث سقط شهيـــد الغدر به، من طرف أحد عمـــلاء الاسبان، الذى دس له السم هناك، فحمل الى داره حيث قضى نحبـــه .

ومنهم المجاهد القاضى السيد محمد العزوزى الذى كان يعـــرف بقاضى الشباب لحماسه، واعتماده على الشباب فى اثـــارة غريزة الجهـــاد بأسلوبه الدينى المتوقد، وكان يتنقل من قبيلة الى قبيلة، ومن ســـوق الى سوق فى خفـــة المؤمنين المحتسبين أعمالهم لله، وقد اقض مضجع حاميـــة جزيرة الحسيمة فاشترت ضمير عميل من قبيلته الذى أطاق عليه الرصاص عندما رجع من احدى رحلاته الجهاديـــة، فارداه شهيـــدا .

واذا كانت حالة الريف فى هذه الحقبة من التاريخ، كانت كالمرجل يغلى، فان جهاد ابن عبد الكريم لم يكن ابن وقته، بل هو تركة خلفها لـــه

من كان قبله، فقام هو ليتم نفس المهمة التى رسخت فى عقيدة القوم، فلم يكن عمله ارتجاليا، يسعى من ورائه كسب شهرة أو جاه، بل كان مستوحى من تلك العقيدة التى حمل مشعلها وهو يدرس فى جامعه الفرويين، بينما الاخرون من الاوربيين يتقاسمون الغنيمه، وعندما فكر، اهتدى مع والده ان يستكمل معلوماته السياسيه والعسكرية، فغامر بمخالطه الاسبان فى ملياليه، بصورة مستعارة، وهى القضاء الذى لم يحفل به لان الغرض كان من وراء ذلك، كما غامر ببعث اخيه الى قلب اسبانيا لدراسه الهندسه والأضطلاع باشياء أخرى .

وهكذا كانت المراحل الاولية التى استكمل فيها دراسه الاشياء عن كثب، فلما حان الوقت قاد اخوانه الذين كانت تعوزهم تلك القيادة المحنكة، فكانت الجولات فى مثلثات الموت .

والحقيقة أن ابن عبد الكريم، وجد الريف فى حالة فراغ، فمن جهة تعتبر البلاد بلادا لا تصل اليه يد السلطة العليا للدولة ومن جهة ثانية، فان زعماء المجاهدين الذين هم السيد عبد الكريم الاب وسيدى محمد أمزيان والسيد محمد العزوزى، قد نقوا حتفهم شهداء، فكان لزاما عليه أن يسد هذا الفراغ، وقد سده بنجاح .

وبعد هذا الانتصار كان ضروريا تنظيمات عصرية للثورة التى أصبحت أمرا واقعيا فرضته البطولة القتالية عند الارياف، لانه اكتشف أن تلك الطاقة ليس من التدبير اهمالها، أو تركها على حالة تفتت تقاتل أحيانا وتهدأ أحيانا أخرى، فعمل على جمع شملها، جمعا يتلاءم والمهمة التاريخية الكبرى، التى وضعت على كاهله، كقائد ثورة عصرية، قامت لمحو شنار الاستعمار الذى لطخ سمعة المغاربة أجمعين .

فما كان من عمله المبارك، الا أن التأم الجمع، والتفوا حوله وكانت المدلهمات التى احاطت بالقوم، هى التى سهلت مهمته الشاقة فاستطاع أن يضمن تأمين حياة القوم المتنافرين للضغائن الدموية التى كانت مستفحلة بين العشائر .

وقد فرض عليه موقفه هذا أن ينظم قيادة الثورة، فكون المجلس الوطنى ووزع مسؤولية القيادة على الابطال، حسب قاعدة ثورات الدنيا، واصبح مركزه الذى يحتله بين هذه المجموعة المحمودة المساعى، يتطلب

اسما يحتاج فى صياغته الى أصفاء الفخامة عند سماعه .

وقد اهتدى القوم، ومنهم علماء أجلاء، غرفوا من جامعه القرويين تلك الجامعه التى اضاء اشعاعها ربوع الريف، من مدى اجيال، اهتدوا الى كلمة الأماره، تمشيا مع الالقاب العربيه المعتاده فى تسميه قائد المجاهدين باسم الأمير ــ اى امير الجهاد ــ، وتحت هذا اللقب سار على بركه الله، فاتسعت رقعه الانتصارات شرقا وغربا، مما ازعج الاستعمارين، الاسبانى والفرنسى، ومن ورائهما أمله المسيحيــه، التى تندب حظها فى تنصــير افطار أخرى اسوة بالأندلــس .

ونظم المقاتلين تنظيما فى مستوى المسؤولية تاريخية واوطنيــه فسلك السكان قاطبة فى سلك مقاتلين مستنفرين على الدوام .

وعند ما وصل الحد الى هذه الدرجه، فان الاسبان هموا وصاروا يصربون اخماسا فى أسداس، واذ لــم تنفعهم الوسائل الجهنميــه التى استخدموها ضد السكان، بما فيهم القرى والمداشر التى تحتضن النســاء والعجزة والأطفال، فانهم عمدوا الى وسيلة الدعاية الكاذبة، ينشرونها فى جرائدهم واذيتهم، مفادها أن ابن عبد الكريم نصب نفسه سلطانــا على الريف، هكذا سلطانا، راجع كتاب المغرب ومراحل التهدئة «للجنرال غوديد» الذى يعد أهم كتاب نشــره أحد العسكريــين الــذين شاركوا فى غــزو المغرب، وسمى الجمعية الوطنية الثورية، المخزن الريفى وقادة الثــورة وزراء .

وقد ضربت الدوائر الفرنسية على نغمة الجمهورية الريفية تــارة والمخزن الريفى تارة أخرى، فعندما يكون الامر خاصا بأنديتهم فان الصيغة التى يعطونها للثورة، هى الجمهورية الريفية، وعندما يكون الامر يتعلــق بالمغرب وملكه، فانهم يسمون ابن عبد الكريم سلطان الريف، وان غرضــه انسعال الحرب من اجدير الى أكديــر .

وقد نشط أحد رجال المخابرات الفرنسية الذى كان مراقبا فى توريرت، المدعو «غابرييلى» الذى كان ينفث سمومه فى الدوائر المغربيــة بتقاريره المستوحاة من الكراهية التقليديــة الاستعمارية، حتى عمد الــى طبع بعض الاوراق تحت عنوان الجمهورية الريفيــة، وأشاعها فى المــدن والقــرى .

أما الصحفيون الأجانب الذين زاروا الريف فى ذلك الوقت، وجهم أمريكان، من مختلف الجنسيه، فتارة يسمونه سلطانا، وتارة يسمونه زعيما وتارة رئيس جمهورية

وهو أمر يدل على التهافت المريب، فلم يهتدوا الى صيغة واحدة، فدلت القابهم انها القاب مستوحاة من الكراهيه، لان من تتبع الاحداث وعرف أساليب الاستعمار، يعلم أن كل هذه الاوصاف مدسوسة ضد الثورة الريفية، لشل حركتها وتشويه سمعتها .

لان هؤلاء الذين يتكلمون بلسان الاستعمار الذى يضفى دائما على نفسه وصف المتمدن المترفع، ينعت الشرقى اذا ما أتى بمأثرة تاريخية من نوع مشرف، وكان الاستعمار عاجزا عن كبح جماحها بوسائل الدمار الوحشيه يصير الى حبك أساليب الدعاية الخادعه، لتغطية قضية انهزامه أمام أولئك الذين يعنونون كتبهم عندما يؤلفون عن تلك المآثرة بالعناوين اللا انسانية، فمثلا كتب أحدهم وهو «كون الامريكى» عن حرب الريف تحت عنوان «لحم الثور الوحشى» يعنى به الريف، أليس بمجرد سماع هذا العنوان تشمئز النفوس من العبارة الجارحة، لشعب يدافع عن شرفه ازاء المفترسين الذين يصح التعبير عنهم بالثور الوحشى .

ومن هذا النمط، وصف ابن عبد الكريم بسلطان الريف، ورئيس جمهورية الريف، وذلك يعنى بلغة الاستعمار المتمدن أن الثورة الريفية لم تقم على مبدأ وطنى، تسعى بكل وسائلها المادية الضعيفة، معتمدة على وسيلة معنوية قوية، وهى الايمان بقضيتها العادلة، للتضحية، وانما قامت لغرض سافل بسيط، وهو الاستلاء على الحكم، أو الانقلاب الجزئى، فى اقليم من أقاليم المغرب، ليعطى حسب هواه الوصف الغير اللائق بعظمة المبادىء الوطنية الصحيحة من طرد الاجنبى، ودفعه الى البحر، ليعود من حيث أتى، مستوحى ذلك من مأساة الاندلس التى لا تمحى عن ذاكرة المواطن المغربى .

وذلك لاجل الحط من قيمة القائد التاريخى الخالد ابن عبد الكريم الخطابى، وتنظيماته العصرية الدقيقة، والطعن فى ذكائه الخارق، ووطنيته الصادقة، فأثاروا هدفا لا يتلاءم والاعراف الوطنية، العالمية المتحضرة، التى تجعل تطهير الوطن من الاحتلال الاجنبى هو الهدف الاساسى

والاسمى، وأما الاستلاء على الحكم بالقوة اثناء الثورة، فهو رذيلة محطمة لفضيلة الجهاد والعمل الوطنى، وعنوان على مطامع شخصية غير سالمة من الوجهـــة الوطنيـــة .

ولهذه المبادىء التى أصبحت مبادىء مسلمة عالميا، ولما يتحلى به هذا القائد من الترفع على المكاسب الشخصية، فان الدوائر الحكوميـــه لكل من أسبانيا وفرنسا، طالما راودته عن منح الريف الاستقلال الذاتى، تحت رئاسته مع العلم بأن الدوائر المذكورة، كانت تسعى لحفظ ماء وجهها أمام العالم المتمدن لاجل أن تقنعه بأنها وصلت الى حل مشرف لها .

وكان ابن عبد الكريم يعلم حق العلم، هلع الجيوش الغازية مـــن قضية الريف، وان التذرع بأسلوب الاستقلال الذاتى ما هو الا تهرب من الواقع المفروض عليهم ليصمد القتال، ولو أن الاستعمار يريد أن يتـــرك سقوط الريف الى عامل الزمن، حيث تهن العزائم، ويدب الخلاف، وحينئذ ينقض من جديد، فانه ابت عليه شهامته، ووطنيتـــه الصادقة، ان يلطـــخ اسمه البطولى، واحتفظ لنفسه الى آخـــر الرمق بنقاء الضمير، ونظافـــة الطوية، مما هو مشهور عنـــه .

فلم يفاوض الا على الاستقلال المطلق، أى جلاء الاجنبى عن الوطن وهذا المطلب لا يتعارض مطلقا مع سيادة العرش العلـــوى، وليس هنـــاك بديل للمفاوضة عليه منطقيا مطلقا، لان المخاطب (بفتح الطاء) هو المستعمر والخطاب هو اجلاءه عن الوطن ويتركه لذويه، حتى ولو فى جزء منـــه، وقد يكون ذلك أضعف الايمان، ومع ذلك فانه ليس فى مقدرة ابن عبد الكريم غير ذلك، ومطلب الاستقلال التام هو دستور الجميـــع بما فيهـــم الاحزاب السياسية التى ما فتئت منذ انشائها تطالب بالاستقلال للوطـــن لان الاستقلال هو عـــزة للجميـــع .

ومن ناحية مبدأ وطنى آخر، فان فصم اقليم من الوطن الكبـــير وهو المغرب، يعد سبة ايضا فى الكفاح الوطنى، وهذا المبدأ مقدس وطنيا، وابن عبد الكريم يعى ذلك وعى مجرب خريت، ومتشبع بروح المصلحـــة العليا للوطن، ومع ما وصف به من طرف المراسلين الذين زاروه حتى قال بعضهم وهو «فونسنت شيان»، «انه أعجوبة الزمن وهبة الاهية خارقة» فان تفكيك الوحدة توصمه أيضا بوصمة عـــار مدى الاجيال، وهـــو الذى يحفظ لنفسه شرف الشهامة والنبـــل .

ان الذى ثبت تاريخيا، أنه فى آخر لحظة من المفاوضات التى كانت تجرى بين وفده المتركب من السيد محمد أزرقان والسيد احمد تسدى وحدو الاحل، وبين الوفد الأسبانى والفرنسى، فى مدينه وجدة، برئاسه «الجنرال موجان»، كان وفد الريف مزودا بوكاله من ابن عبد الكريم بامضائه تحت ذمه أمير الريف، وهو مرجع يرفع كل التباس:

(نسخة فتوغرافيه من الوكالة)

على أن الفرنسيين والاسبانيين معا قد منحوا لقب الامير لابن عبد الكريم فى مشروع صلح، كانوا أزمعوا أمرهم على انهاء مشكله الريف بطريقه سلمية، (25–1926) .

ذلك أن رئيس وزراء فرنسا «مسيو بانارفيه» نشر بيانا بتاريخ أكتوبر 1925، عرض فيه على الريف حكما ذاتيا، على أن يمنح ابن عبد الكريم لقب الامير تحت السلطة الروحية لسلطان المغرب، وجاء عقبه وزير الخارجية «المسيو بريان» فأكد شروط الصلح التى وافقت عليها الدولتان، الاسبانية والفرنسية، على أساس ان يقوم بالوساطة الانجليزى «غوردون كاننغ»، وكان ضابط فرسان، برتبة نقيب قبل ذلك، وفى الوقت ذاته كان رئيس لجنة الريف التى انشئت فى يونيو 1925 بالاشتراك مع اللجنة الامريكية التى يرأسها «هاربرت مايون» الامريكى، وكان غوردون يعطف على القضية الريفية عطفا خاصا، عندما منعه الاسبان سنة 1924 من ايصال معونة طبية الى الريف، بصفته ممثلا لجمعية الهلال الاحمر .

ومن البديهى ان الانجليزى، لم يتدخل فى اجراء الصلح الا بايعاز من الدولتين معا، فدخل الريف فعلا، واستقبله السيد امحمد الخطابى فى ترجيست، وأبلغه عرض فرنسا واسبانيا على الريف الحكم الذاتى تحت رعاية سلطان المغرب، وأكد له أن رئيس وزراء فرنسا والمقيم الفرنسى بالمغرب، «مسيو تيدور ستيغ» قد وافقا مبدئيا على منح ابن عبد الكريم لقب الامير .

وبعد مناقشة حررت صيغة مشروع الاتفاق الذى تضمن من جملة ما تضمن قبول لقب الامير لابن عبد الكريم، وتسيير شؤون الريف تحت سلطة السلطان .

الحمد لله وحده ... «تعميم» 14 ربيع 1926

انا محمد بن عبد الكريم الخطابي امير السكان المتمدنين بنط
وما عداهم من الجبل والريف المشهد على تعميم تشكيلي ا
صف تسعين اوناكر حا رجسا السير عمر بن محرار رحلة ا
اكزه مع نواب دولتي مريسه اولمسا نسلاوعقد الصلح والبرام
مع الدولتين بموجبها تحولة المحاربة وسمع الامور السارة
لعقد الصلح والسلام محمد عبد الكريم
الخطابي
ع

الحمد لله وحده :

إلى حضرة السيد كمل أزرفان المساعد السياسي لمدينة

ورتة سلام الله وبعد بمقتضى الوفاق
الذي وقع بيننا وبينكم أمرنا بانعقاد
الهدنة من تاريخ السادس عشر أبريل
سبعة عشر بن سكوم صادرة
أخبرت مندوبنا بواسطة بالريز
وتقبلوا بقبول اعتبار الفائق
ربيع النور 16 أبريل 1926
عبد الكريم الخطابي

رسالة بامضاء الزعيم ابن عبد الكريم الخطابي لاعتماد الوفد ناظر الخارجية تحت امضاء الامير .

جواب رئيس الوفد الافرنسي بموافقة على الهدنة .

وبعد تحرير الاتفاق فى تسعة بنود، سافر غـوردون كانننغ الى تماسنت لمقابلة ابن عبد الكريم ليحرز على موافقته شخصيا، فاتصل بـه واعطاه مبدئيا الموافقة على المشروع الذى كان مطمئنا على مراحل المباحثه مسبقا، قائلا له انه لا حاجه لمزيد من الايضـاح .

ولاجل الرغبة فى انهـاء القضيـه بالسرعه المتطلبـة، فقـد زود الانجليزى برساله مؤرخـه بـ 16 جمادى 1344، يعلم فيهـا الحكومـة الفرنسيه، بانه يفوض الانجليزى بأن يستلم من فرنسا واسبانيا شروط الصلـح .

وبعد رجوع غوردون الى باريس، تلقى رسالة من طرف المقيـم العام الفرنسى بالمغرب «مسيو ستيغ» بتاريخ 10 دجنبر 1925، يهنئه فيها على انجاح الذى أحرزه فى مسعـاه .

وعليه فان لقب الامير كـان هو اللقب المتعارف عند الدولتـين الغازيتين، آخذا مما هو متعارف لدى رجال الثورة بالريف، وما عدا ذلـك من الالقاب المدسوسة، فانها كانت للدس والتشويه، مثل التشويه الـذى جرى فى استصدارهم ظهـيرا بتمرد الريف، ذلك الظهـير الذى جـاء على نسقه بعد الظهير البربرى، لاجل أن تتمسك بهما فرنسا عند الحاجة وتلغى العمـل بها عند حاجة أخـرى .

فالمفاوضة وعرض لقب الامـير على زعيم الثـورة، كان اعطـاء المشروعية للعمل الثورى، الذى أسـس على نهـج صحيح تحـت سلطـة السلطان الذى كشفت عنه تلك المفاوضة والذى قامت عليه الثورة، وهـذا القدر من الحقيقة هو الذى عنـد الدوائر الوطنيـة بالمغرب، التى تـزن الامور بمقياسها الصحيح، وقد عبر عن هذا الرأى رائد من روادها، وزعيم من زعماء مناهضة عموم الاستعمـار، والمفكـر الخريت، الاستاذ عـلال الفاسى، الذى يغوص بتفكيره فى العمق، اذ قال فى كتاب الحركة الاستقلالية فى المغرب العربى، صحيفة 119، «ولقد حاول الفرنسيون فى دعايتهم أن يجعلوا من الريف، مجرد ثائر، راغب فى الملك أو ناقم يطالب بالسلطـان وكان الامير لم يتأخر عن التصريح فى الوقت المناسب، بأنه لا يرغب الا فى تحرير البلاد، وانه لم يثر ولن يثور أبدا على العرش المغربى الذى ظل أسلافه مخلصـين له دائمـا» .

«كما أكد الامير بمجرد وصوله لبور سعيد، انه دائم الولاء لجلالة ملـــك المغـــرب الاقصى» .

. وكما أسلفنا، فان لطخ سمعـــة المجاهد ابن عبد الكريم، كـــان حربا نفسانيا اعتمدها أساطين الاستعمار، للتأثير على الرأى العام العالمى وبالاخص لبث الشقاق بين ملك المغرب واحد اقاليـــم مملكتـــه، فراحـــوا ينشرون ان الامير يحاول من وراء الحرب ضد الجيش الفرنسى على نهر ورغة ان يدخل فاسا للنداء عليه هناك سلطانا على مراكش، ونظرا لجهلهم بمقومات السلطة الروحية والزمانية فى المغرب، شاعوا بان ابن عبد الكريم فى تفجير الحرب على ورغة بالذات فى أشهر الصيـــف، الاولى التى كـــان يوافق منها ثانى يوليو 1925، يـــوم عيد الاضحـــى، ان ينحر فى فـــاس كبش الاضحية الذى هو من حق السلطان وحده .

وقد ضربوا صفحا ان يذكروا الاسباب الحقيقية التى أوحاها القلب الكبير المملوء انسانية، فتجنب احتلال العاصمة العلمية التى تشع العلـــم والنور، ولانها تضم بين جدرانها رفاة سلالة من السلالات النبوية التـــى عملت على رسوخ مبادىء الاسلام فى هذا البلد العزيز، وحافظت علـــى أستقلاله الوطنى، الا وهو مولانا ادريس الثانى، كما تضم رفاة ملـــوك علويين من نفس السلالة ورفاة علمـــاء وصلحـــاء .

فكان على قائد مسيرة الثورة، أن لا يلطخ شرفها باحتلال مدينـــة مقدسة يعلم مسبقا ان الاحتلال سيجر عليها وبالا ودمارا، لان الاعـــداء لا يتركونها لقمة سائغة من دون أن يعرضوهـــا للخراب بوسائل الابـــادة الجهنمية ، فتجنب احتلالهـــا .

واذا كـــان تجنب احتلال مدينـــة مليلية عندما وقفت جماهـــير المجاهدين على ابوابها وأرادت اكتساحها فى عنفـــوان الحماس المنقطـــع النظير، فكبح جماحهم بعد لاى، لاسباب الانسانيـــة، التى تمنعـــه من أن يتعرض خمسون ألف من الاطفال والنساء والعجزة للهلاك، ولان الميثـــاق الوطنى تركها خارجة عن منطقة الريف، اعتبارا لوضعيتها الخاصـــة التى هى عليها، فان الاجدر بذلك مدينة العلم والعرفان والصلاح الذى ينبو من يتعرض للدمار عن مائة الف من أبناء جلدته من المسلمين .

وعلى كل، فان الانسانية عند دوائر الاستعمار تختلف باختلاف الأغراض، فاذا كانت من انسان الشرق سميت ضعفا، واذا كانت من انسان الغرب، دعيت شرفا ونبلا، وبالعكس، فان ما يرتكبه الانسان الأول من الدفاع عن الشرف والنفس، سمى قرصنة، وما يقوم به الانسان الثاني، فهو خدمة الانسانية، ومن قبيل الاول الذى يستملح التذكير به هنا كمثال، ان أحد المخافر فى شهر يناير 1925 وكان يدعى «بنى دركول» الواقع على نحو 8 أميال بالشمال الغربى من مركز بيبان المشهور، بقبيلة مزيات حوصر من طرف المجاهدين، وكان رئيس المخفر المدعو «بول لاباير» برتبة ملازم، قد انهكه الحصار، اذ يتساقط افراد المخفر أمامه واحدا فواحدا، فكان يرسل بمعلوماته الى المركز الواقع فى جنوبه مباشرة، فكان يصف المجاهدين الذين يردون اغارة الجيش الفرنسى الاجنبى بالقراصنة والاوغاد، وهنا يجدر أن نتساءل، من هم القراصنة والاوغاد ؟

أما ما هو من قبيل الثانى فهو ما أسلفناه عن الرئيس «تشرشل» عن الحرب العالمية الثانية، عندما رميت هيروشيما بالقنبلة الذرية، وقال ان القاء القنبلة لم يكن موضع نقاش بين اركان الحرب الامريكية والانجليزية، ولم يثر احد أى اعتراض .

وهكذا يظهر التناقض المكشوف الذى لا يبدو غريبا، عندما نسمع من أساطين الاستعمار الضرب على هذا الوتر، ولكن يكون غريبا عندما يقلده الكتاب العرب الذين يكتبون عن حرب الريف التحريرية بذلك الاسلوب الذى يقلدونه من دون تمحيص، واذا كنا لا نلوم أعداء المغرب الذين أناخوا عليه بجيوشهم الجرارة وآلاتهم المدمرة، فانما ذلك لان الحرب النفسانية والدعائية هو أسلوب آخر، من أساليب الغزو ولكن الذى يحز فى النفس أن يطالعنا كتاب العربية العرباء بالضرب على تلك النغمة، فيما يخص تلك الحرب التحريرية التى كانت فى مبدئها الاصيل هو الدفاع عن الوطن والعقيدة والعرش، ضد الذين تكالبوا لاحتلال الوطن واهانة المقدسات .

لكن على المرء أن يبحث عن الحقيقة ولا ينى، وان يحكم عقله فى الملابسات التى تكتنف القضية أية قضية، حتى يرد ويصدر عن بينة.

وهنا يجدر ان ننقل فى الموضوع كلاما للزعيم علال الفاسى فى نفس

المصدر صحيفة 122، فقد جاء فى عرضه لمواد الميثاق القومى الذى أقـــره المجلس الوطنى الثورى، التى منها :

1) ــ عدم الاعتراف بأى معاهـــدة لها مساس بحقوق البـــلاد المغربية وخاصة معاهدة 1912 .

2) ــ جلاء الاسبان عن المنطقة الريفية التى لم تكن فى حوزتهم قبل ابرام المعاهدة الاسبانية الفرنسية سنة 1912 .

ثم عقب على ذلك فقال: «واذا فالحرب الريفية كانت مع تمسكها بوحدة التراب المغربى فى ظل العرش العلوى، ترمى الى أمرين: استقلال البلاد، وتمتيعها بالحكم الدستورى» .

«وقد ظل هذان الامران غاية المواطنين المغاربة عند فجر القـــرن العشرين الى اليـــوم» .

ثم جاء فى صحيفة 121 «ولكنهم فى الحقيقة لم يكونوا يستطيعون الكلام باسم ملك المغرب، الذى جعلته ظروفـــه القهرية فى منطقة النفـــوذ الفرنسى، ولم يريدوا أن يقعوا فى الخطأ الذى وقع فيه الهبة ووالده ماء العينـــين، حينما أعلنا نفسيهمـــا ملكين، بعد أن كانـــا مخلصين للعـــرش والمدافعين عنـــه» (1)

«وذلك فقد وجدوا (زعماء الريف) حلا وسطا، هو تأسيس نظام موقت يمكنهم من تنظيم الادارة، وتدريب الجمهور على أن يحكم نفســـه

---

(1) الواقع أن الشيخ ماء العينين وولـــده الهبة من بعده كانا خليفتـــين للسلطان، ومجاهدين كبيرين، ويكفى للاستدلال على ذلك ما جاء عـــن المؤرخين الاسبان أنفسهم أمثال فيكراس وباروخا وغيرهم، فقد جاء عنهم أن ماء العينين كان يتلقى التعليمات مباشرة من السلطان، وهكذا ففى سنة 1873 زار مولاى محمد فى مراكش وفى سنة 1887 زار مولاى الحسن فى مراكش أيضا ثم زار مولاى عبد العزيز سبع مرات فى مراكش وفاس، أما واده الهبة الذى خلف والده فى الجهاد فقد اتسع عمله من واد الذهب وموريطانيـــا الى مراكش لرد الزحف الاكبـــر الاستعمارى عن المغرب وكان الجهاد الشغل الشاغل له .

بنفسه، ومتى تم التحرر الكامل لسائر أبناء الوطن، سلموا البلاد المحررة لصاحب العـــرش» .

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فقد قرأت للكاتب البحاثة، الاستاذ محمد الخطيب التطوانى مقالا قيما فى الموضوع، نشره فى مجلة التضامن بتاريخ يناير 1970 عدد 2، جاء فيه «ذلـــك التنظيم الذى أعطى للثـــورة المدلول المتكامل، بما فيه تنظيم الهيأة المشرفة عليها، اذ الى جانب سهره بنفسه على جوانب العمل، قام بتكوين هيـــأة وزع بينها شؤون التسيـــير المتطلب، واختارها كعادته، رجالا صدقوا فيما عاهدوه وعاهدوا الله عليه» .

«وعين زيادة على من سبق ذكره (وهما أخو الامير السيد امحمد الخطابى، وعمه السيد عبد السلام الخطابى) السيد (1) عبد السلام الحاج موحند، الذى كلفه بالشؤون الحربية، قبل اسنادها الى السيد احمد بودرة، والسيد اليزيد بن الحاج حمو الـــذى كلفه بالشـــؤون الداخلية، والسيـــد حدو المعلم، الذى عينه مفتشا عاما للبحرية، والسيد احمد أكرود كناظـــر عام للاوقاف، والسيد عمر بن محمادى ناظرا للجبايات والسيد محمد بـــن صالح عينه قاضى القضاة، والسيد محمد بوجبار متصرفا عاما للماليـــة، والسيد عبد الكريم بن حدو قائدا للمشور، والسى اعلى بن محمد (المدعو السى على فطومة) مديرا للمدفوعات فى الخزينة» (ان هذه اللائحة ذكرها الجنرال غوديد فى كتابه المذكور آنفا) .

«وبجانب هؤلاء، قام بتوزيع الاعمال واختيار القضاة، والقواد المحليين وقواد النواحى، توزيعا محكما» .

ثم عقب الكاتب قائلا «وبهذا الشعور، وهذا الحب، نستطيع أن نفهم حقيقة نظام الثورة الريفية، وعـــلاقاتها بالهيكل الشرعـــى للدولة، فالذين يقولون بأن الحركة الريفية، كانت نظاما يعيش على هامش النظام العام للمغرب من الوجهة القانونية، ليشوش عليهم فى ذلك الاعتقاد ما كان من شأن بعض الظواهر والتسميات، كلقب الامير، واطلاق لفظ الجمهورية على النظـــام» ؟

ثم زاد فقال «وتأويل الشبهة، أما أن يكون تأويلا بسوء النيـــة،

---

(1) والـــد المؤلـــف .

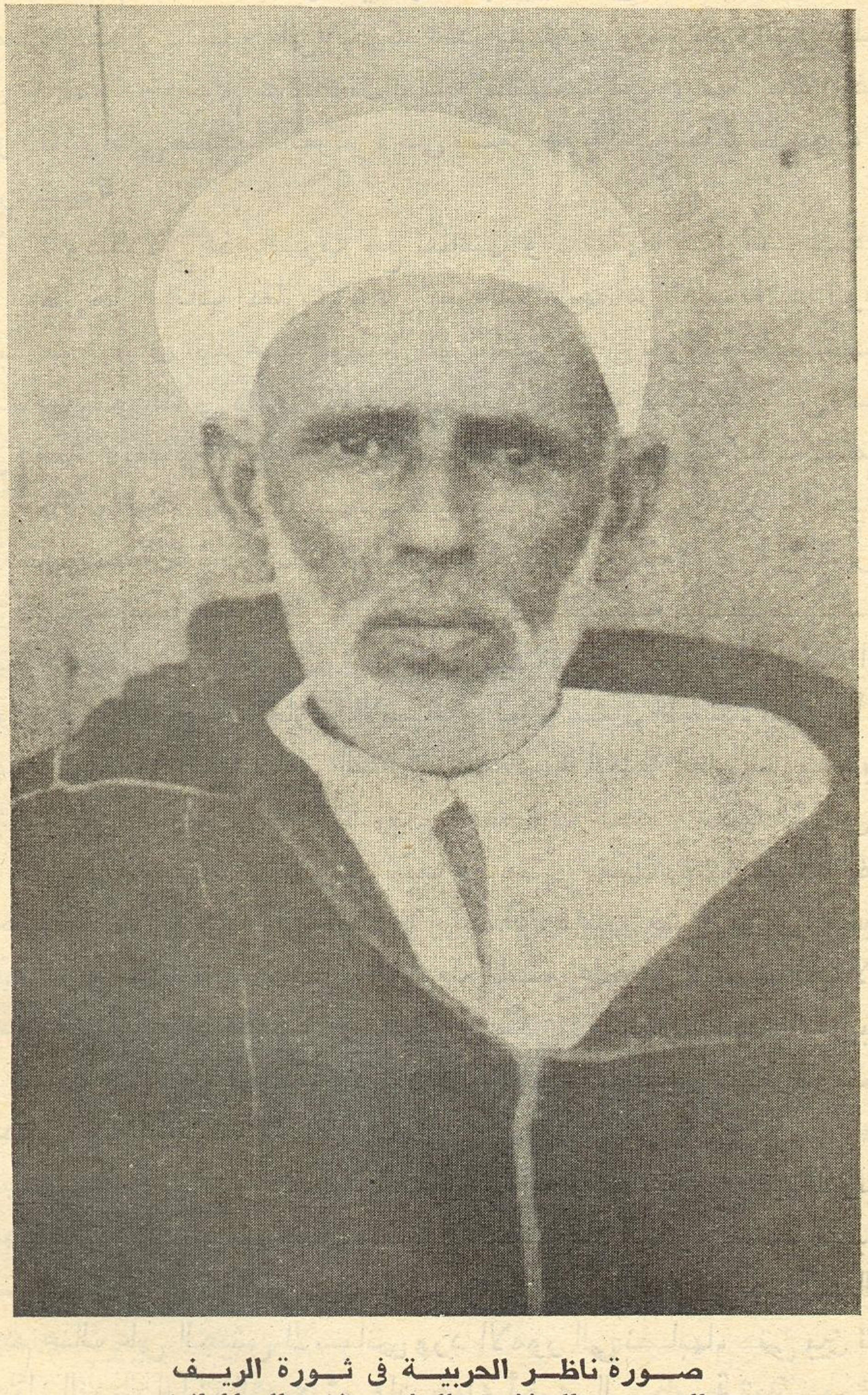

صـــورة ناظـــر الحربيـــة فى ثـــورة الريـــف
السيد عبد السلام بن الحاج محند (والد المؤلف)

فيكون ذلك من مظاهر الاستغلال، وهو ما وقع بالنسبة لخصوم الثـــورة، وفى مقدمتهم السلطات الفرنسية والاسبانية، التى كانت تجد بكل سبيل لتعميق الشعور بالنقمة على الحركة عند الجمهـــور المغربى، الذى تعلمـــه من بعد تمسكه بنظام حكمه، بل أنهـــا استهدفت من ورائها شيئا آخـــر، وهو التأثير على صاحب العرش، كى يشعر هو الآخر ببعد الخطورة عى مـــركـــزه» .

وذلك لان هذه الحرب مع نظافتها وقداستها، قد تركت عقدة غلط عند بعض من الكتاب المغاربة، وكان مفروضا عليهم من ناحية المبدأ الوطنى أن يضعوهـــا فى اطارهـــا الوطنى الواقعـــى، وان يدرؤوا عنها شبهـــات الاستعمار، وبالتالى دحض ما جاء فى تلك المؤلفات الاجنبية، التى ضربت على نغمة الانتقام السياسى، والاعـــلامى، بعدما عجزت مدافعهـــم، ان تنال منالا مشرفا لهم، ولو أنهم تغلبوا بعد لأى، وبعد أن بكوا مآسيهـــم فى أدغال الشمال، فانما ذلك لطغيان الجحافل البرية والجوية والبحريـــة التى حشرت فيها طاقة دولتـــين أوربيتين فى عنجهيـــة عظمتهما، وحـــداثة تجهيزها، واذا كان الجنرال «منويل غوديد»، وكان من جملة أولئك الذين جروا جحافل الجيش الغازى الاسبانى، لغزو شمال المغرب، أبدى وأغرب فى قلب الحقائق عندما تمس الحادثة السياسية العامة التى سارت عليهـــا اسبانيا ابان الحرب وحاول تشويه سمعة قادة الحرب عندما قال عن ابن عبد الكريم، ما معناه: «انه رجل شجاع سياسى محنك مقتدر لقيادة القبائل وتنظيمها، الا أنه خانه الحظ عندما استسلم، فابدى غـــير ما عرف عيلـــه اذ أدركه ضعف العزيمة، فكان الواجب المحتم عليه أن لا يستسلم، لانـــه كزعيم مسلم يعتقد بالقضاء والقدر، أن يبقى فى خندق الجبهة الحربيـــة، مع المناضلين الذين آزروه، ولا يتركهـــم وراءه للمصير المنتظر، وينجـــو بجلده وجلد عائلتـــه» .

وقال عن أخيه امحمد الخطابى «أنه رجل متخرج من المدرســـة الهندسية بمدريد، ويبدو بطلا محاربا عندمـــا قاد الهجوم ضـــد الجيـــش الاسبانى فى جزيرة بادس، وجحافل المحاربين الارياف، الى جبهة جبالـــة، فهجم هناك على الجيش الاسبانى ورد الامور الى نصابها، حتى بين تلـــك القبائل التى حاولت التمرد ثم قاد حملة أخرى الى جهـــة قبائل ورغـــة،

حيث اصطدم مع الجيش الفرنسى، يقول الجنرال المذكور: «ومع ذلك فانه يبدو عكس أخيه، اذ أن هذه الاوصاف تستدعى أن يكون شهما بالمعنى الحقيقى، ولكن الذى يأمر بقتل الضباط الاسبانيين فى الاسر، لا يمكن أن يتحلى بالشهامة والبطولة». وهذه العبارات التى نمقها، تعتبر مدسوسة والا فان الاول لم يستسلم الا بعد انتهاء الحرب نهائيا، اذ استسلم فى تركيست، حيث اطبق عليه الجيشان، الاسبانى والفرنسى، وكان الاول وصل الى مغاور بوصالح المتصلة رأسا مع تركسيت، وكان الثانى يزحف على جبال بنى عمارت، وصنهاجة، ووصل الى تركيست، بينما الاساطيل البحرية تشد الخناق على السواحل، تغدو وتروح فى فخامتها، التى تكونت مما يزيد على مائة بارجة ومدمرة، فلم يبق له الا الاستسلام، والا كان عنيدا منتحرا، وان ايمانه بالقضاء والقدر هو الذى هداه لان لا يلقى بنفسه الى التهلكة من دون طائل، الا أنه مما زاد امتعاض الاسبانيين عليه، أنه لم يرد أن يستسلم بيدهم، بل فضل أن يستسلم الى الفرنسيين، وقد صرح لدى الصحفيين عقب ذلك، بأسباب تحز من كبريائهم، وذلك ما ازدادهم خنقا عليه .

أما أخوه امحمد فان وصفه اياه بأنواع البطولات، كان صحيحا، ولكن الضباط الاسبانيين الاسرى بعكس ما قال، فانهم لقوا عناية فائقة فضلا عن أن يأمر باعدامهم .

ان الجنرال نبارو الذى كان أخد بمعركة جبل عرويت، كان من جملة الاسرى الضباط، وقد أطلق سراحه مع الجنود الاسبانيين مقابل فدية أدتها اسبانيا للريف، فقد صرح عقب تحريره، بما يخالف ما زعمه هذا المؤلف، بل أدت أريحية الامير امحمد الاخطابى، ان منح له سرير نومه احتراما لرتبته العسكرية، وحفظا على نبل المسلم، أما غير الجنرال، فان احدى الاسيرات، وهى ازبيلا، افحمت أحد الصحفيين الاجانب، عندما قال لها: هل تخافين هنا؟ فأجابت مم أخاف؟ وصرحت للمراسل «بول سكوت مورور» أنها تتلقى معاملة طيبة وليس لديها ما تشكوه به .

وأخرى وهى «سيبريانا» بعد ما فديت مع الاسرى رجعت الى الريف وسكنت فى الحسيمة، وعندما نزل ابن عبد الكريم فى القاهرة سنة

1947، بعثت اليه برسالة تهنئه بسلامة الوصول، وتشكره على المعاملة الطيبة التى لقيتها خلال السنوات الخمس التى قضتها فى الاسر .

وقد زاد هذا المؤلف فى الضرب على هذه النغمة، فوصف ابن عبد الكريم بسلطان الريف تارة، ويصف قادة الحرب بمخزن الريف تارة أخرى (1) .

الا أنه عندما ينسى النزعة الاستعمارية، يذكر الاشياء كما هى، فقد قال فى نفس الكتاب (2)، أنه عند تنظيم الثورة بتاريخ 1922 كان بعض الاشخاص وسماهم السيد عبد الكريم بن الحاج على اللوه من بقيوة، والشريف التجانى، يحاولان زج ابن عبد الكريم فى مأزق تنصيبه سلطانا على الريف، وكان ذلك من وحى أفكارهما الخاصة، على أن تدعى المنطقة المحررة «منطقة الريف»، ويكون مركز السلطة أجدير، وتضم القبائل التالية: بنى وريا غل ـ بنى بوفراح ـ بنى يطفت ـ بقيوة، ولم يتكلم عن باقى القبائل التى كانت محررة، وهى: تمسمان، وبنى توزين، وبنى وليشك، وبنى سعيد شرقا، وقبائل تركيست بنى عمارت، بنى مزدوى، زرقت، صنهاجة الشمالية، كتامة، بنى اكميل، مسطاسة غربا، وقال الا أن ابن عبد الكريم اختار طريقة أخرى، وهى التفاوض مع سلطان المغرب مولاى يوسف والدولة الفرنسية بالمغرب .

وحقيقة، فان هذه الشهادة التى أتت من أحد أساطين الغزاة، كانت هى احدى قواعد الثورة الاساسية، وتطبيقا لها فان الامير ابن عبد الكريم، كلف الفقيه ابن على المدعو ببولحيا، والقائد حد الاكحل من بقيوة، لاجل تنفيذ مشروع المفاوضة، وقد اختار الرجلين، لان الاول كان مكلفا بشؤون القضاء، والثانى له علاقة مع احد المراقبين الفرنسيين وهو مراقب توريرت بناحية وجدة المدعو «غابرييلى» .

ومما نعلم، فان الاول اتصل كتابيا مع وزير العدل فى ذلك الوقت، وهو الشيخ الامام، الشريف الحسنى سيدى عبد الرحمن بن القرشى،

---

(1) كتاب المغرب ومراحل التهدئة المطبوع عام 1932، صحيفة 83 .
(2) نفس المصدر صحيفة 86 .

وهنا نترك الرواية بهذا الاخير، فقد كان يروى فى مجالسه، أنه توصل بكتاب من ابن عبد الكريم ببنقته (1) بالمشور بالرباط ، يطلب منه استدخل لدى السلطان مولاى يوسف، لاجل اصدار رضاه على العمل الحربى للجهاد فى سبيل الله، وان ابن عبد الكريم هو جندى للدوله المغربيه، وانه لا يطب الا أن يكون أحد المجاهدين، وأميرهم الحربى لاجل اجلاء الاسبان عن الشمال، وانه عند طردهم يبقى خاضعا للدولة، يسير طبق ظهائر الدولة وأوامرها، قال سيدى عبد الرحمن ابن القرشى، انه طلب مقابلة السلطان مولاى يوسف، وحمل اليه الرسالة، وأطلع على فحواها فأطرق مولاى يوسف مليا، ثم قال لى، ماذا تقول أنت؟ فقلت يا مولاى: ان هؤلاء الارياف معروفون باخلاصهم للدولة، وانهم دائما كانوا جندا لاسلافكم المقدسين، فهذا جدكم مولاى اسماعيل، حاصر بهم العرائش وأصيلا، حتى أجلوا الاجناب عنهما، وتخليدا لعملهم أمر ببناء حومة فى كل من المدينتين، مع مسجد وحمام وفرن، واسكنهم فيها، وهذا جدكم مولاى محمد بن عبد الله، حاصر بهم مليلية وسبتة، وانه تفقد شواطىء الريف وانهم لم يقوموا الآن بما يقومون به الا من ذلك القبيل، فقال له ولكن السيف كلخة .

وهذه الحكاية التى رواها شيخ الاسلام بالمغرب، تعطى الدليل القاطع على فشل المرشال اليوطى، الذى حاول مع السلطان أن يجره الى اعتبار ثوار الريف خارجين عن الطاعة واستصدار فتاوى بعض المعممين ممن يدعون بالعلماء وما هم بالعلماء .

وفى صدد هذه الوحدة الوطنية، ننقل ما نشره الاستاذ الخطيب فى المجلة المشار اليها «وقد ثبت أن هذا التخوف كان على جانب كبير من الواقعية، وتأكد ذلك بعدة رسائل، التى كان ابن عبد الكريم يوالى توجيهها لجلالة الملك يوسف يدعوه فيها للوقوف فى وجه الحماية والاحتلال» .

«ولو حدث ذلك، لوقع تحول كبير فى مجرى الحياة المغربية، وهو

---

(1) عبارة مغربية عن مكتب الموظف فى ذلك الوقت بالمشور .

ما كان ابن عبد الكريم يقصد اليه، اعتقادا منه كسائر المغاربة، بأن العرش هو الذى يجمع شتات الامة، ويوحد كيانها» .

أما الشخص الثانى وهو القائد حدو الاكحل، وكان هذا الرجل يحسن كثيرا من اللغات وبالاخص الفرنسية، وكان فى القطر الجزائرى، وهو الذى جلب أدوات التنقل، كالطائرات والسيارات، فقد اتصل بادوائر الفرنسية، وأظهرت استعدادا مشوبا بالحذر، لان الدعاية التى كان يروجها أعداء الثورة من عسكريين وصحفيين، الذين يخوضون فى الماء العكر، ان نوايا ابن عبد الكريم هى تحرير المغرب من أجدير الى أكدير .

والذى يتمعن فى هذه الجملة الدعائية، يدرك مغزاها العميق، فقد نسق هؤلاء الدعاة كلمتى (أجدير وأكدير) المتشابهتين اللفظ والمعنى، ومن المعروف أن رجال الصحافة حربين أو غيرهم، يختارون جملا رنانة للاستغلال، والاخذ بعقول القراء وتصديقها .

ورغم هذه الدعاية ، فان ابن عبد الكريم، بقى وفيا للمفاوضات التى كانت تجرى بينه وبين تلك الدوائر التى كانت فحواها، ان يشيروا على السلطان، مولاى يوسف، بأن يصدر رضاه على عمله، باعتباره أحد رعاياه، على أن لا يجرى أى عمل ضد فرنسا، بل يترك شأنها للسلطان، ويعمل لاجلاء الاسبانيين فقط .

الا أن الجيش الفرنسى تحرش بقبائل ورغة، فاحتل بنى زروال، وجهز حملة من المغاربة الى مرنيسة لحماية القائد عمر بن احميدو، ورغم ذلك، فانه التزم بمبدأ المفاوضة، فكتب الى رئيس ناحية فاس العسكرى مستلفتا نظره، ولكن هذا رد عليه رد المستعلى اذ قال فى جوابه، ان كل قبيلة تطلب منه أن يحتلها فانه يفعل .

وهكذا ، فان عبد الرحمن الدرقاوى الغمارى، رئيس الطائفة الدرقاوية ببنى زروال طلب منه حماية زاويته ببنى زروال من الاعتداء عليها فقد احتلها، وان القائد عمر بن احميدو طلب منه الحماية فحماه.

وعندئذ عمل ابن عبد الكريم بما يقتضيه الموقف، فاحتل مرنيسة وبنى زروال وعين عائشة وبوعادل وغيرها .

على أن الذى يتمعن فى ملابسات الاحداث فى الريف قبل ذلك،

فانه يرى انه لم يكن مضى الا وقت قصير من القضاء على الثائر بوحماره، بوحى من تلك العقيدة الوطنيه، دفاعا عن العرش وعن الوطـــن، مهم مى تصرفاتهم كلها ضده، لم تكن الا لاجل هذا المبدء، حسبما ياتى، وقد كـــان من اساطين رؤساء القبائل الفقيه السيد عبد الكريم الخطابى (واللـــده) ، فحيف يتصور ان القوم نفسهم والعبار المتطاير من تلك المعارك لم ينفـــص بعد، ان يقلبوا ظهر المجن بين عشيه وضحاها، والحال ان فرصه بوحماره بتمرد كانت اسهل لأنه لم يكن هناك هجـــوم خارجى، فهم فى مامـــن من الانكسار أو الفشل، أكثر من هذه الفرصه التى هى مزروعه بالاشـــواك، ففرنسا قد احتلت المغرب الجنوبى، وهى التى تعهدت لاسبانيا باحتلالهـــا الشمال، وتعتبر حليفتها بالطبع، لان الذى يصيب الثانيه لم يكن ليخطىء الاولى، مهما تقوى المغاربة الذين رضخوا تحت الاقدار والقوه، وهذا الفهم صحيح، وليس العكس، ولكن ليس موجها ضد المغاربه بعضهم البعض، بل ضد من طعن سيادة المغرب فى الصميم فوزعها وزيعـــة .

وعلى كل، فانه ليس هناك سذاجة أفدح، اذا اعتبرنا أن فى هـــذه الظروف المحيطة، يفكر أى واحد كيفما كـــانت بساطتـــه أن يعمل بوحـــى التفرقة التى لا ترجع بالاوبال الا على المغاربة أنفسهم، بينما العدو يكون بمنجـــاة .

أما قبل هذه الحقبة، فان الريف بوحى من وطنيته آزر السلطان العظيم مولاى محمد بن عبد الله، لما حاصر مليلية وسبتة، كما أن بعض المناضلين من الارياف قبل ذلك استمروا فى حصار سبتة مدة طويلة، وقـــد بنى بعضهم دارا فى الجهة الامامية، لا زالت اطلالها هناك، وعندما عقـــد السلطان مولاى محمد ابن عبد الله الهدنة مع اسبانيا برفع الحصار عـــن مليلية، بقى المجاهدون هناك، ولكن فى حدود التقيد بالاوامر السلطانيـــة ، خوف أن يصدر منهم تمـــرد عن تلك الاوامر، لان السلطـــان اعتبر عمـــل اسبانيا باطلاق أسرى المسلمين بادرة تستوجب العناية .

ان هؤلاء المجاهدين أنفسهم ابناء أولئك الذين لو نبغ فيهم شاعر، لكان قمينا أن ينشد فى حقهم مثل ما انشد الفرزدق مفاخرا :

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم اذا جمعتنا يا جرير المجامع

أو مثل ما أنشد شاعر آخر متحمس :

قبائل من سام وحام تجمعت وما جمعت الا الأسود الضواريا

وإذا التزموا بالأوامر، ولم يتمردوا لأن أعمالهم كانت نابعة عن عقيدة دينية صميمة، تتمثل فى أن عصيان المَلَك الشرعى، هو مروق من من الدين الذى يعضون عليه بالنواجد، ولا يقبلون فيه مساومه ولا مساسا.

ان المرء ولو لم يكن خبيرا عندما يجوب قبائل هذه الجهة، ويطلع على معتقدات القوم من الولاء الخالص الغير المشوب بلعب البهلوان الذى لا تعرف سجيتهم، حقا هذا النوع من اللعب، يجد ان كل عائله تقريبا، تشمل خزائنها المتواضعة، مثل مزود وصندوق من خشب وقصب مجوف، على ظهائر ملكية يتنافسون فى استصدارها من الملوك العلويين المتعاقبين، ويحفظونها مع أعز تراث أمجادهم، ولا يسمحون بها لاحد ولو باعارة لوقت ما .

على أنه يجب أن لا يغرب على البال، ان سكان هذه الناحية امتزج دمهم بالدم العربى، امتزاجا قد يكون متساويا .

وذلك لان السكان الاصليين، كانوا يعمرون الجبال الشاهقة، والاراضى العالية، عن الشواطىء فرارا من القراصنة الذين كانوا يجوبون البحار ويغيرون على السواحل، لاخذ الاولاد الصغار لتنشئتهم بحارة، فلما وفد العرب اليمنيون على سواحل الريف، عمروا هناك مدنا، مثل مدينة النكور، ومدينة المزمة، ومدينة بادس، وقرية بوسكور، ومدينة تمسامان بوادى امقران، ومدينة فساسة قرب مليلية بقبيلة بنى بوغافر.

ثم أن الاشراف الادارسة، وجدوا ملجأ فى هذه الناحية بعدما اجلتهم عن قاعدة ملكهم (فاس) فتن موسى بن أبى العافية، عدوهم اللدود، وأسسوا امارات بحجرة النسر وتيكسان بغمارة ومدينة بادس بالريف، كما أسس الحموديون امارة أخرى بمليلية، وبفعل هذا التوافد على الشمال، انتشر الدم العربى، وكان للادارسة القسط الوافر من الامتزاج مع كل قبيلة أو قرية، واندمجوا مع السكان اندماجا بدون فارق يذكر، فهم ريفيون باللغة والتزاوج والعوائد، وهؤلاء الاشراف معلومون الآن، بنسبهم المتواتر وانه لا يطلب منهم فوق هذا من حجة، لان التواتر قطعى

فى ثبوت الانساب الشريفة على ما انفصل عليه الونشريسى فى معياره وسيدى المهدى الوزانى فى نوازله: الجزء —11— صحيفة 121 الى 125، من ان الشرف يثبت بالسماع الفاشى، كما يثبت شرف من يدعى بالمرابط ان أدعى الشرف، حسبما انفصل عليه المصدر الثانى — نفس الصفحة — .

وبهذا يعتبر ما نشر فى بعض المؤلفات (1) من أن النسب الشريفى فى الريف مشكوك فيه، كلام من لا يزن الاقوال بمقاييسها الاساسية .

وهنا يجدر نقل طريقة وقعت لامير المؤمنين، المأمون العباسى، فقد ذكر القاضى عياض فى كتابه ترتيب المسالك لمعرفة اهل مذهب مالك (2).

انه: لما ورد المأمون الى مصر، جمع العلماء، وكان منهم سعيد بن عفير (وكان محاورا لاذعا)، صاحب الامام مالك، وبعد حوار فى شأن بلاد مصر التى قال فيها الله تعالى: «ودمرناها تدميرا»، سأل المأمون سعيد بن عفير عن عاملين وردت شكاية بهما، فقال سعيد، انهما ظلومان غشومان، فقال المأمون هل عصباك أو ظلماك؟ فقال سعيد لا، فقال كيف تشهد عليهما؟ فقال سعيد كما أشهد بأنك أمير المؤمنين قبل أن أراك (يعنى أن التواتر حجة قاطعة على الشىء المتواتر) .

وعليه، فان انساب الشرفاء بالشمال، ثابتة ثبوتا شرعيا بما لا مزيد عليه، فكل عائلة تواتر شرفها بين تلك القبائل، فهى مثبوتة النسب، وكذلك من شاع شرفها سماعيا فاشيا مستفيضا، أو المرابطين الذين يدعون النسب، على ان كل عائلة شريفة، صغرت أو كبرت لها ظهائر ملوكية ..

فكل الانساب محفوظة لدى القوم، حفظها عند العرب الاقدمين فى الجزيرة العربية سواء .

وقد أوردنا قصة الاشراف، لنعطى الدليل على أن الريف، بصفة خاصة، والشمال بصفة عامة، كان للاشراف فيها تأثير دينى قوى، لانهم من العترة النبوية، ولهم حرمة، والحال أنهم يكونون سوادا له اعتباره الخاص، ومن هؤلاء، عائلة الخطابيين، فهم فى تصرفاتهم مستوحاة من

---

(1) كتاب الزعيم ابن عبد الكريم، لمؤلفه محمد العلملى — طبعة سلا —.
(2) صحيفة 272 طبعة وزارة الاوقاف بالمغرب .

الشريعة السمحاء التى تمنع عليهم فتق الفتـــوق فى الاسلام وبالاخـــص دولة شريفة ذات رسوخ فى دفع العوادى عن الوطن، مثل الدولة العلويـــة، فكان طبيعيا أن يكبحوا جماح من سولت له نفسه غير ما أمرت به السنـــة النبوية، من طاعة من صحت بيعته ولو عبدا حبشيا، فكيف ممن ينتمى الى سلالة ذات طهر وأمجاد، فلم يكن لقوم عرفوا فى دوائر الدولة المغربيـــة فى أحقاب متتابعة بالمجاهدين وأبناء المجاهدين، أن يتنكروا لهذه المنقبة ولو لحظة، والحال أن ذلك يعتبر عزا لهم ارثا أبا عن جد، وكان الملوك العلويون، عندما يعطون الاوامر لسد ثغر من الثغور يقولون أدعوا المجاهدين، وافعلوا بالمجاهدين كذا، وعندما حز بهم أمـــر بوحمـــارة، كان الرئيس العـــلامة، المعروف بقاضى الشباب السيد محمد بن احمد العزوزى، يحـــث الهمـــم بابتكار رسائل ملوكية كأنها مبعوثة من السلطـــان، مولاى عبد الحفيـــظ، فيشحد العزائم، وكان لذلك تأثير فعال فى هزيمة بوحمارة .

واذا كان مبلغ الاخلاص الخالص وصل بالقوم الى هذه الدرجة فانه يصعب على المرء المتبصر أن يصدق ما حفلت به كتب الاجانب وقدت من بعض المغاربة عن حسن نية أو عن قصد غير سليم، على أنه أعوزهم أن يأتوا ولو بصورة مصغرة لوثيقة من الوثائق التى تعتبر عادة أساســـا لكل عمل من هذا القبيل، أما وثيقة بيعة من طرف أولى الامر فى الريـــف، ومنهم العلماء الذين كثيرا ماهم فى تلك الاصقاع، كما سنبين بعد، ومنهم الاشراف الذين وصفنا مكانتهم عند القوم، ومنهم رؤساء القبائـــل التى كانت تأتمر بأمرهم، وان يأتوا بصـــورة ما عن تلك البيعـــة، والا كيـــف يطلقون الكلام على عواهنه فى أمر له خطورته ويشغل بال الرأى العام.

وأعجب ما قرأت فى كتاب الجنرال غوديد المذكور (1)، ما ذكره من أن ابن عبد الكريم، كان اتفق مع انجليزى قال: انه معروف بالمغرب، ولم يذكر اسمه (2)، على أن يطبـــع عملة مالية خاصة بالدولـــة المزعومة، فى لندن بانكلترا، وجعل يصفها بتدقيق، مثل لونها أخضر، عرضها كذا وطولها

---

(1) صحيفـــة 93 .

(2) وهو غرادنى الانجليزى الذى كان يتاجر فى تهريب السلاح الى الريف.

كذا، ..؟ الخ، وانه كان بصدد أن ينشىء بنكا ريفيا مقره بأجدير، وانه قدم مشروعا يتضمن جميع التجهيزات العادية التى تحتاجها كل عملية بنكية، ثم عقب الجنرال على ذلك بأنه فشل آخر الامر، لانه لا يتوفر على الضمانة من رصيد النقاض .

ان كل من يتأمل هذه الخرافة التى ينمقها كاتب محارب فى نفس الجبهة، يعلم مدى الدسائس المحاكة ضد رجل قام بجهاد فى سبيل الله، عسى أن ينال شهادة الموت ليدفن فى ثيابه، وهى منقبة خاصة بالشهداء .

انه من المعروف، أن ابن عبد الكريم، خبر الاساليب العصرية، وهو من الافذاذ فيها، بشهادة اعدائه أنفسهم، وفوق ذلك، فهو سياسى مجرب، وله فراسة قوية، فاذا كان بهذه المثابة من اليقظة فان تفكيره فى مشروع كهذا، ينتج العكس، لان انشاء عملة لا تكون الا للتعامل بها، فمن الذى يتعامل بها؟ فى جهة ضيقة محاطة بسياج من الاعداء الاجانب احاطة فكى كماشة، وما هو المقصود من العملة؟ اذا كان لا يشترى ولا يباع بها مع الخارج، وحتى فى المغرب، لان له عملته الشرعية القارة .

وانه اذا كان يعرف كأى واحد أنه لا يتوفر على الضمانة النقدية، فلماذا هذا الاستهلاك من الوقت الثمين؟ الذى لم يترك له الغازون أية دقيقة للراحة، مع العلم بأن المشروع مثل هذا، يستنزف الطاقة العقلية لمدة غير قليلة .

على أن المشروع نفسه يحتاج الى الاختصاصيين فى الموضوع، ومن هم هؤلاء الاختصاصيين الذين حضروا المشروع؟ وهم بصدد تنفيده.
ان كل هذه المعلومات لا وجود لها الا فى مخيلة من يكيد كيدا، فاضفاء الاوصفاف على العملة المزعومة انما ذلك تنميق لتصديق فريته، وهى لا تخفى على كل متبصر .

ولابد أيضا من القاء نظرة وجيزة هنا على الظروف التى كانت تحيط بابن عبد الكريم، قبل أن يتولى زعامة الحرب من 1921 الى 1926، وعلى حالة القبائل فى تلك اللحظة .

ان قبائل الريف كانت فى نضال مع الاسبان على حدود مليلية، لما كان ابن عبد الكريم هناك، وفى هذا الوقت بالذات، كان الشريف الادريسى سيدى محمد أمزيان، يقوم بزعامة المحاربين المجاهدين، يؤازره فى قبيلة بنى ورياغل، شريف آخر، هو قاضى الشباب، وان رياسة القبائل كانت موكولة لامغارن، وأمغار فى لغة البلد، هو رئيس القبيلة أو الفخدة أو الخمس (1)، ويكتسب هذا اللقب بما يكون يتوفر عليه من النجدة وسداد الرأى والقوة الفعلية والسياسة القبائلية، ولا يكون عجوزا كما يحلو لبعض الكاتبين أن يفسروه (2)، لان العجوز، مشتق من العجز وهى صفة لا تتناسب ومهام أمغار .

واذا كانت القبائل، كانت تعيش تحت تأثير رؤسائها، وهى فى حالة حرب مع مليلية التى يوجد فيها السيد ابن عبد الكريم، فانه كان يصعب عليه أن يرضخ له أولئك الرؤساء، بدون أن يتوفر على الوقت، وبدون أن يظهر الاخلاص فى جهاده، مع العلم بأن أباه، طيلة وجود بنيه عند الاسبان أما للعمل معهم أو للدراسة، كان محل اتهام من طرف القبائل، ولولا عصبيته التى له فى قرية أجدير من أعمامه وأصهاره الذين يؤازرونه كلما هبت عاصفة هوجاء، لكانت العاقبة غير محمودة، ولم يهدأ باله الا عندما عزم ولداه على الرجوع الى الوطن، وكان سجن ولد محمد بمليلية، وما كان يقوم به من أعمال سرية ضد الاسبان، هو الذى كان شفيعا ما حيا لما علق فى الاذهان: اذهان جماهير المجاهدين، مع الحنكة التى يعتبر مفوها فى هذا الميدان .

ورجل بهذه الصفة، وفى هذه الظروف، كيف يمكن أن يظهر أمام هؤلاء المومنين بمظهر غير المظهر الذى عاهدهم عليه، والا يكون نكوثا منه عن العهد، ونكوصا على أعقابه، فيؤدى ذلك الى نزع الثقة منه، فترجع القبائل الى عهدها السابق .

ان وصفه بالزعيم أو الامير، لم يكن متعارفا أيام الحرب الريفية

---

(1) تقسم القبيلة الى خمسة أخماس، والخمس هو الفرقة، أوسع من الفخدة . (2) كتاب السيد محمد العلمى «زعيم الريف»

الاولى، وانما كان ينعت فى مبدأ قيامه، بالفقيه، وهو لقب فى ذلك الوقت سام، لا يحمله الا المتضلع فى العلوم المتداولة، لانه يحمل فى مغزاه، العقل والرزانة وسداد الرأى، ولم نكن نسمع من آبائنا ونحن شبان نتحاكك معهم ونتحبب سماع أخبار الجهاد والمعارك، منهم كرؤساء المجاهدين، عندما يرجعون من مهامهم، لا نسمع منهم الا أمر الفقيه، وفعل الفقيه ابن عبد الكريم، ثم لما تطورت المعارك الى انهزام الاسبان، فى الجبهة الشرقية، ابتداء من معركة «دهار ابران» ومعركة «أنوال»، سمعنا كلمة الرئيس، تطلق، ويراد بها ابن عبد الكريم فقط، أما باقى قادة الحرب، فسموا قوادا .

وانما أول ما سمعنا كلمة الامير، كان عندما حفظنا النشيد الحماسى الذى ألفه الشريف سيدى الحسن القادرى التلمسانى، الذى رحل عن تلمسان الى الريف، ليساهم فى الحرب التحريرية، بتجاربه وقلمه الحماسى، الملتهب، وبنصائحه الخالصة، التى تصدر عن المؤمن الصادق الايمان، وذلك لاجل استقبال السيد امحمد الخطابى عند دخوله الى شفشاون. كما سنبين فيما بعد .

فقد ألفه نشيدا للحرب الوطنية، ومن مقتطفاته :

ريفنا كالعرين نحن فيه الاسد ريفنا نحميه
فى ثنايا العجاج والتحام السيوف بينما الجوداج والمنايا تطوف
يتهادى نسيم فيه أزكى سلام نحو عبد الكريم الامير الهمام

الى أن قال :

فلنذوق الزعاف بالضبى والاسال فلنعلى الهتاف بالامير البطل

ان هذا النشيد، يعتبر حجة تاريخية أوصف الامارة، مع العلم بأن انشاده كان يوم دخول الامير امحمد الى شفشاون بتاريخ 10 دجنبر 1924 كما سيأتى، أى بعد تقولات الاعداء عن الجمهورية الريفية وسلطان الريف على أنه من مزايا حركة الريف، انها لم تكن عميلة لدولة أجنبية ما، فقد استمرت تكافح رافعة رأسها، فلم تطلب معونة من أحد، سواء فى المعدات، أو غيرها، ولو من اعداء اعدائها، كالمانيا مثلا، فاكتفت بما

تكسبه من عملها بل أن ابن عبد الكريـــم، بقى وفيا لمبدئه حتى عندمـــا نقلته فرنسا من منفاه السحيق بجزيرة رونيون، بالمحيط الهنـــدى، لكى تجرب حظها معه، فى التهديد به فى القضية المغربية الكبرى، وهنا يبـــدو الرجل لم تفارقه العصامية التى يتحلى بها، ولو بعد عشرين سنة ونيف من الغربة المطبقة، فقد التجأ الى مصر فى ظروف شبه مستحيلة وسقط فى يد اعداء المغرب مرة أخرى كما سقط فى يدهم لما رفع السلاح ضدهم، وحتى فى الحرب العالمية الثانية، لما حاول هتلر ان يختطفه من منفـــاه، وحضرت اليه هناك غواصة، رفض أن يستعمـــل كوسيلـــة للتهديد به فى المعارك الحربيـــة .

ونحن اذا راعينـــا التسلسل التاريخى نجـــد :

أولا : ان ابن عبد الكريم انحدر عن سلالة كانت اليد اليمنى فـــى الريف للدولة العلوية، فان عمه القائد زيان، كـــان واليا للسلطان مـــولاى محمد بن عبد الله على قبائل الريف الوسطى، ثم خلفه من بعده القائـــد السيد بوبكر وشان، وهو من العائلة الخطابية، ومن صناديدها، فكان واليا للسلطان مولاى الحســـن الاول .

أما قبل الدولة العلوية، فان القصـــة التى نثبتها هنا وهى قصـــة تاريخية سيأتى تفصيلها، تستوجب الوقوف عندها، لانها تفيد ان الريف جند للدولة المغربية تلقائيا، ولم يشذ عن هذه القاعدة فى يوم مـــا .

ذلك أنه فى أيام الدولة المرينيـــة، وبالضبط لما توفى السلطـــان يعقوب المنصور المرينى بالاندلس فى 12 محرم 685 هـ. قام شخص مـــن قبيلة بنى كميل على شاطىء الريف الغربى، وكان يدعى الحاج العبـــاس ابن صالح الكميلى، وكان ينتسب الى التصوف، فقام بدعوى للفاطميين وقد تحين فرصة موت يعقوب المنصور المرينى فى فاتح 685 هـ. أى 12 محرم بالجزيرة الخضراء، بالاندلس فى جوازه الرابع الى الاندلس برسم الجهاد فمرض ، فاغتنم هـــذا الثائر الفرصة مستغلا الفتـــن التى قامت اثر تولية ولده يوسف بن عبد الحق، اذ قام عليـــه محمد بن ادريس بـــن عبد الحق ولحق بجبال ورغة داعيا لنفسه، وكما استغل تنقل السلطان يوسف

المذكور الى مراكش لضبط الامور فاعلن الحاج العباس المذكور الدعـوة يـوم عاشـوراء سنـة 688 هـ.

وبعدما استولى على بادس وجبالها تبين له الانتصار فأراد اخضاع الريف جميعـه فجمع جموعه وذهب لاحتلال مدينة المزمة بسهول بنى وريـاغل، الا أن ابناء القبيلـة صمدوا له، وعندما هجـم على المدينة قتـل الثائـر وبقتلـه انتهـى أمـره .

فجز رجال بنى وريـاغل رأسه وأرسلوه الى السلطان يوسف بن يعقوب المنصور الموجود فى مراكش، وبعدما طيف به فى مدن المغرب علـق على باب المحلة بمراكش، أما جثته فقد صلبها أهالى القبيلة بباب المزمـة.

وعلى كل فان الذى ينبغى أن يوصف به عمل الحرب التحريريـة الريفية التى صدمت الاجانب، انها كانت انطلاقة للنهضة الوطنية الاولى، والتى اكتسحت فيما بعد شمال افريقيا، وانها كانت طبيعية، تماما، كمـا كانت طبيعية بالذات مقاومة الاقطار الاسلامية الاخرى فى المشرق العربى مثل تركيا أتاتورك، وسعد زغلول بمصـر، ومجاهدين آخرين فى أطلـس المغرب، وان الحرب العظمى الاولى كـانت أصداؤها خير حافز للقيـام بالمجهود الوطنى ولو الى حدود ما وبالاخص مقاومة الاقطار التى أصابتها شظايا تلك الحرب أو أصبحت ترزح تحت نير الغازين، فكان من الطبيعى أن تتداعى لذلك الصدى الاقطار التى تنتظر نفس المصير، وبالاخص أن المشرق العربى كـان يرسل شواظا من نار كتاباته الوطنية وكانت الحركة الوطنية فى مصر قد تأججت بعد ثورة 1919، وتفاعلت مع الزمن ورفعت رأسها شامخا تحت زعامة زعيم مثالى وهو سعـد زغلول، حيث وضـع مسلك بريطانيا الاستعمارى فى المقيم المعقـد .

من هم الخطابيون وما هى أطوار حيـــاة ابن عبد الكريم قبـــل تفجـــير ثـــورة 1921

اعتاد الكتاب أن ينسبوهم الى عمر بن الخطاب، وذلك أخذا مـــن كلمة الخطابى، لتوافق الكلمتين، وشهرة اسم الخطاب الذى ينتمى اليـــه أعظم خليفة فى الاسلام لرسول الله (طعم) «أما عمرو أبو نصر فى كتابه «بطل الريف»، فقد روى عن ابن عبد الكريم نفسه، قوله:

«انه ينتمى الى محمد بن عبد الكريم الحجازى الاصل، وان عائلته نشأت فى بلدة ينبع من أعمال الحجاز، غادرت هذه البلدة فى القرن الثالث الهجرى، وانها أقامت فى قبيلة بنى وريغل من الريف الواقعة بين البحر وتركيست، وهى موطن العائلة منذ ألف ســـنـــة» .

يبدو أن ابن عبد الكريم لم ينســـب نفسه لعمر بن الخطـــاب، لسبب بسيط، وهو أنه لم يثبت تاريخيا أن عائلة سيدنا عمر بن الخطـــاب اشتهر منها أفراد فى الريف، لانه لو رحلت عائلة منها لتضافر المؤرخـــون عن ذكرها، وتتبع رحلاتها ورحلات أفرادها .

وتبسط ذلك تبسيطا يتلاءم ومقـــام الخليفة الثانى لرسول اللـــه (صلعم) لماله من ذكر خالد فى صلب الاسلام وعند المسلمين قاطبة، فـــلا يعزب عنهم نزوح عائلة تنتمى اليه، والحال أنهم تتبعوا رحلات عائـــلات أدون منها درجة فى الاعتبار فوسعوهـــا بحثا وتنقيبا، فضلا عن عائلـــة انحدرت عن الذى سمى فاروقا لتفريقه بين الحق والباطل، والذى قـــال فى حقه سيد المرسلين (صلعم) :

(ما سلك عمر فجا الا سلك الشيطان فجا غيره) :

ولكن رغم كل ما ذكر ورغم ما نقله عنـــه عمرو ابو نصر، فـــان الخطابيين بالمغرب يوجدون على عائلتين اثنتـــين: احداهما بربريـــة وهى الخطابيون الصنهاجيون الذين كانوا يسكنـــون ضواحى فاس، ومنهـــم

العالم «ميمون الخطابى» الذى عرف به الاستاذ السيد عبد الله كنون فى سلسلة «مشاهير رجال المغرب».

وثانيتهما الخطابيون الشرفاء الادريسيون الذين منهم عائلة السنوسيين فى طرابلس الغرب والذين كان منهم الملوك السنوسيون فى العهد الاخير والذين قاوموا الاستعمار الايطالى فى بسالة نادرة بليبيا.

كما كان لهم ملك أولاد زيان الشرفاء من تلمسان وتقدامت بالصحراء قبل ذلك.

وهؤلاء ينتسبون الى الشريف الخطاب بن على بن يحيى بن راشد بن احمد بن المرابط بن حنداش بن عبد القوى بن عبد الرحمن بن يوسف (1) بن زيان — واليه ينسب الزيانيون — بن زين العابدين بن يوسف بن حسن بن ادريس بن سعيد بن يعقوب بن داود بن حمزة بن على بن عمران بن مولاى ادريس الاصغر (2) دفين فاس ومؤسسها.

والخطاب الذى تنتمى اليه هذه العائلة عرف به صاحب الدرر السنية (3) فقال :

(العلامة الهمام، القدوة الامام جد آل خطاب قاطبة، وقبره مشهور، مزار هناك بملتقى وادى شاف وواد مينة (بالجزائر)، فهو والد الشريف الابر القطب الاكبر السيد عبد الله النقابى المذكور، المتولى القطبانية، وهو دفين ثغر بلاد مستغانم الكائنة بساحل البحر المعروف بالمطمر وما عمرت تلك البلاد الا بعد حلوله بها.

وقد ذكر ابن خلدون «أن أصل الشرفاء الزيانيين هم من الريف، انتقل أحد أجدادهم من بين حسن ويعقوب الى قصبة «تاوت» بأعلى الصحراء بنواحى وادى سسلم، ونهر واصل، وصارت هذه القصبة مقرا لاسلافهم، ولهم بها قدر عظيم، وجاه جسيم، تولوا هناك الملك، مما يزيد

---

(1) الى هنا انفرد به كتاب الدرر السنية.
(2) والى هنا شارك فيها ابن خلدون.
(3) صحيفة 107.

على مائة سنة، ومع ذلك فانهم لم ينسوا مقرهم بقصبة «تالوت»، فعندما قضى على ملكهم الوطاسيون فى تلمسان، رجعوا الى قصبتهم».

وقبل الوطاسيين كان بنو مرين الاصليون (احترازا من بنى مرين الفرعيين وهم الوطاسيون) كانت لهم وقائع مع الملوك الشرفاء الزيانيين فى تلمسان، فقد كان تولى الملك من هؤلاء الشريف احمد بن زيان ومكث سلطانا على تلمسان ثلاثين سنة ثم خلفه ابنه يوسف وتولى الملك عشر سنين، وفى عهده استولى بنو مرين على تلمسان وقتلوه واستباحوا قصبة الشرفاء فى تلمسان، ففروا الى قصبة «تالوت» الى أن أعادوا الكرة واستولوا على تلمسان وأجلوا بنى مرين، وتملك الشريف احمد بن يوسف بن احمد بن زيان، وخلفه أحد موالى زيان بن زيان وبقى سلطانا لمدة أربعين سنة، حيث أعاد الكرة بنو مرين الفرعيون فهجموا على تلمسان بمعونة العرب والبربر من جميع القبائل، فحاصروها مدة أربع سنوات حيث انهكوا تلمسان وضاعت بالجوع، فانهزم الشرفاء الزيانيون وهرب من فلت من الموت الى جهات مختلفة، وقصد جلهم قصبة «تالوت» وانقرض ملكهم بتلمسان .

والملوك الزيانيون هؤلاء غير ملوك تلمسان الزيانيون المعروفون ببنى عبد الواد، فهؤلاء زناتيون فى الاصل، وكانوا ملوك تلمسان قبل الشرفاء الزيانيين المذكورين، وقد انقرض ملكهم فى حدود أواخر المائة الثامنة الهجرية وهم أولاد زيان بن يوسف بن محمد بن زكرياء، وقد قال المقريزى فى (قلائد العقيان من انساب عرب الزمان) .

ومن زناتة بنو عبد الواد ملوك تلمسان القائمون بها الآن وهم بنو عبد الواد بن بار بن رميك بن واسيرا ... الخ .

ثم أن الخطابيين أولاد بنى زيان، انتشروا فى الافاق، فمنهم السنوسيون الذين منهم الامام السنوسى صاحب العقائد، ومنهم سيدى محمد بن سيدى على السنوسى مؤلف «الدرر السنية فى أخبار السلالة الادريسية» وهو من جعبوب، بلد الزاوية الجعبوبية بايبيا، ومنهم ملوكها.

ومنهم الخطابيون الذين نزحوا من تلمسان الى الريف الذى هو أصلهم الاول، ففى الدرر السنية (1) فى أخبار السلالة الادريسية .

«أما محل أسلافه (يعنى جدهم عبد القوى الحسنى الادريسى الزيانى التالوتى، أحد ملوك اقليم مدينة (تقدمت) قاعدة المغرب الاول، كما كان سياق كلامه) وقرار أوائله فهم أهل قصبة تاوت باقليم الصحراء باعالى أواسطها بنواحى وادى سسلم ونهر واصل وما يلى ذينبك من أطراف اقليم تلك النواحى، فهى مقر أسلافهم وأوائلهم بعد انتقالهم من محل أسلافهم الاولين مولاى عمران ابن ادريس وبنيه الذى هو الريف وبادس، حصته مع اخواته العشرة، حيث قسمها بينهم أخوهم الامير مولاى محمد بأمر جدتهم» .

وبناء على ما ذكر وعلى ما كان يروى عن عبد الكريم الاب من أن أسلافه جاءوا من تلمسان واستقروا بنى ورياغل، فانه يرجح أن يكونوا من هذه السلالة والله أعلم وبالاخص أن اسم الخطابيين لم يكن يعرف فى تواريخ مدن المزمة وباديس والنكور وهى تواريخ لم تترك قبيلة ولا قرية ولا موضعا الا ذكرتها باسمها المعروف فى ذلك الوقت فى سياق ذكر الاحداث السياسية أو الدينية التى تصدت لها باسهاب، الامر الذى يدل على ان الخطابيين لم ينزحوا من تلمسان الا بعد انقراض ملكهم أيام الوطاسيين، حيث رجعوا الى موطنهم الاصلى، كما نزح غيرهم الى الجهة الشرقية، فاستقروا بليبيا الى غير ذلك .

---

(1) صحيفة 102 طبعة الشباب بمصر .

عائلــة الخطابيــين حــالا

أما الخطابيون فى بنى وريا غل الآن، فهم مشهورون ولهم جــذور عريقة فى رياسة القبيلة الروحية والعملية وهم يستحودون على القطاع الجغرافى الممتد على خليج الحسيمة وجزيرة النكــور، وينقسمــون الى فرقتين اثنتين هامتين، تسمى احداهما بآيت يوسف وعلى، ومنها عائلــة ابن عبد الكريم الخطابى والثانية تعرف بآيت على ويظهر من التسمية أن الجدين المنسوب اليهما الفرقتان هما اخوان، تفرقا، فسكن الاول هضــاب أجدير وآيت قمرة وما اليها وسكن الثانى بسهل أمزورن، والفرقتان الآن قد تصل نسمات سكانهما الى حوالى 30.000 نسمة، الا أن الذى يجــب اعتباره أنه ليس كل من هو موجود الآن فى هاتين الفرقتين من أصل عائلة الخطابيين، بل اختلط بهم غيرهم بفعل الهجرات من الجبال الى السهــول حيث العيش والمواصلات متوفرة، فقد رحلت عائلات وعائلات واختلطت هذه بتلك، وتلك بهذه، بفضل التصاهر والسكنى، كما كان شأن الشرفــاء أيضا فى نفس الفرقتــين .

والخطابيون الاصليون هم سكان أجدير المنقسمون الى الافخــاد التــاليــة :

فخذة آل زرعة، وهى فخذة الزعيم ابن عبد الكريــم، وفخذة آل مسعود ايوسف هكذا بضم الهمزة وآل محند أبو بكر وآل على أعيسى ؛

ومما يستملح ذكره فى أوصاف هذه الافخــاذ ما كان يروى عن الوالى الصالح سيدى امحمد بن موسى الغلبزورى، قال فى بعض أوصاف هذه الافخاد ما يلى :

ينكب آل مسعود أيوسف على قراءة القرآن، فهم أحلاس المساجد، وتزوج نساؤهم للفخفخة والكبرياء الفارغــة .

أما آل على أعيسى فانهم لا يقدرون على نزال الاقران، ولذا يكثر فيهم الرجال ويعمرون، ونساؤهم يتزوجن للكسب ونماء المال .

وأما آل زرعة فهم الشجعان الذين لا يبلـــغ منهم رجالهم ســـن الشيخوخة لكثرة خوضهم المعـــارك، واذا أردت امـــرأة اعرابية فعليـــك بنسائهم فهن حصن الدار وموطن العائلة .

أجدير وموقـــع القـــريـــة :

كلمة أجدير فى الاصل بربرية تطلق على مخزن الحبوب فى المطامر (المرسى)، لان السكان فى القرية أى قرية كانت، كانوا يختارون محلا لـــه طبيعة خزن الحبوب، بحيث لا تتسوس، وذلك بالتجربة والاختبار، فتحفر كل عائلة مطمورة (بئرا بلا ماء) تضع فيها محصولها الفـــلاحى الســـنوى (الحبوب خاصة) وتأخذ منها شيئا فشيئا حسب الحاجة ويدعى هذا المحل أجدير، ولا زال أهالى الاطلس يدعونه كذلك، أما فى الريف فلم يبق هـــذا الاسم الا علما على القرى، فتوجد فى الريف عدة من القرى تدعى بأجدير، مثل أجدير بنى بوقياضا، وأجدير تمسامان وغيرهمـــا .

تقع قرية أجدير مسقط رأس الزعيم على هضبات حجرية تلتطـــم لديها أمواج البحر الابيض المتوسط، عند خليـــج الحسيمة وانها فرضـــة اثمرى والسوانى وتسامت جزيرة النكـــور، التى دعيت عند الاسبـــان «بالا وسيماس»، ومنها أخذت الحسيمة اسما لمدينة الحسيمة .

وفى التاريخ القديم كانت قرية أجدير تقبع على كتف مدينة المزمة التى ذكـــر البكـــرى بأنهـــا كانت محل تسويق محصـــولات الواديـــين: غيـــس والنكـــور .

ولهضاب القرية استراتجية خاصـــة منقطعة النظير، بحيـــث أن قليلا من التحصينات تجعلها قلعة حصينة منيعة، تبدو مثل خلايا النحـــل ترسل لسعاتها الموجعة الى كل دخيل يريد هتك حصانتهـــا .

ففى حرب التحرير، كانت كل قمة من تلك القمم الصخرية موضع مدفع أو مدفعين أو ثلاث، يسيرها طبجيون ريفيون ماهرون، كما سيأتى تفصيله، وقد ضاقت جزيرة النكور: القلعة المأســـورة بيد الاسبان ذرعـــا من هذه التحصينات التى تتحدى مدفعيتها الثقيلـــة المصوبة الى القريـــة والى سهول الخليج والتى كانت ترمى بدون هوادة لما كانت وحدها فـــى

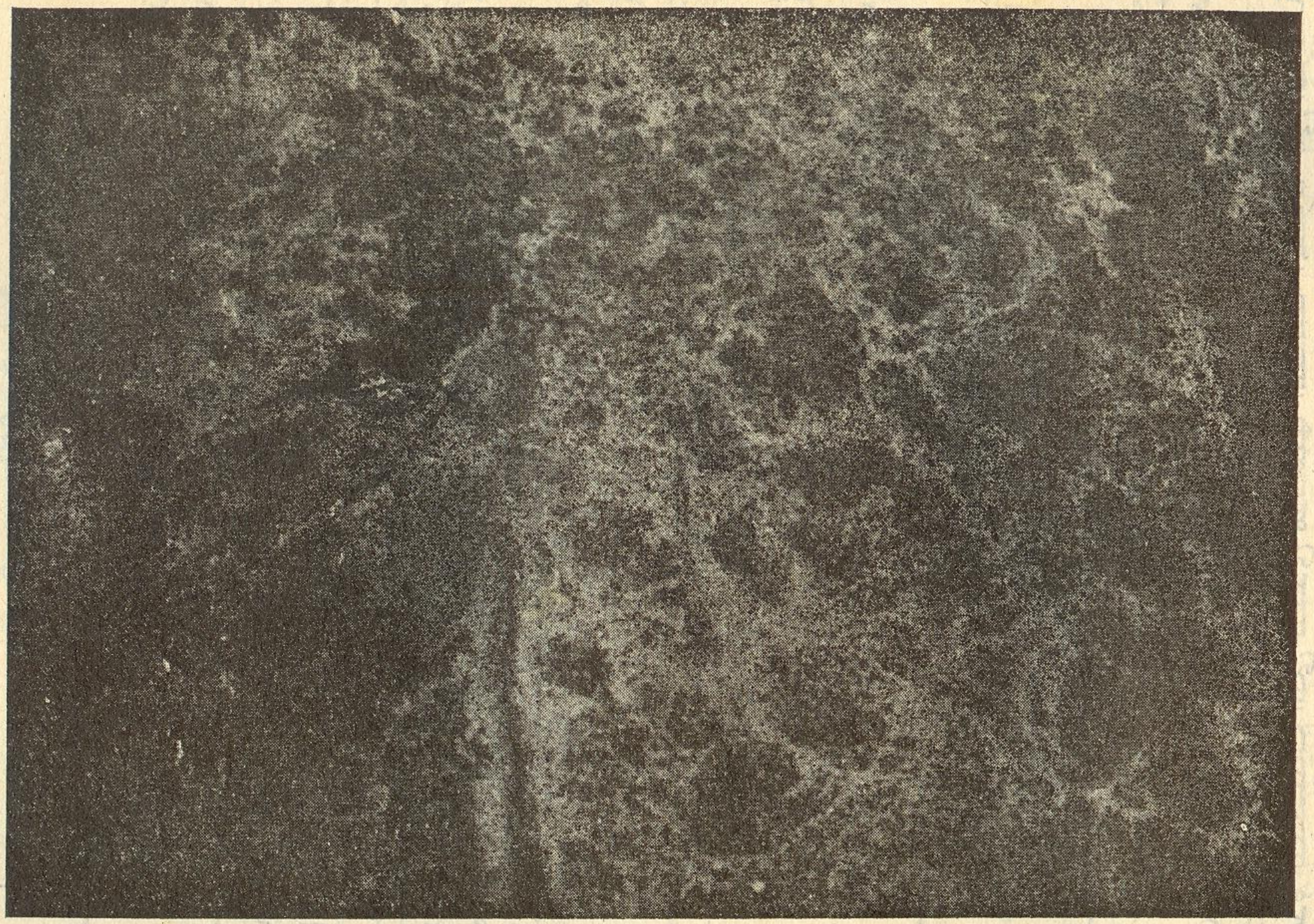

المدافع الريفية فى هضاب أجدير ضد جزيرة الحسيمة والبحر وهى مختبئة فى الاعشاب

الميدان، أى قبل غنم مدافع العدو فى المعارك المختلفة فى الجبهات فكانوا يرسلون بعض الكلاب فى الادغال الموازية للجزيرة، فتتحرك الاشجار، وحينئذ تصب الجزيرة جام غضبها وحقدها فتنفث ما فى صدرها من الغيض، بينما السكان يتفرجون على تلك المناظر من الهضاب والقمم الذين يكونون قد انبطحوا عنها، ليشاهدوا ذلك المنظر المتكرر الذى يروقهم ويتفكهون به، ثم يرهفون الاسماع بعد ذلك ليلتقطوا اشارات لاسلكية تثبت نتائج المعارك ضد الكلاب، بأنها قذفت صوب المقاتلين الاهالى فقتلت وفتكت وخربت .

ان هذه الهضبات الحجرية المنيعة الصلدة المحيطة بأجدير والتى يقابلها مثلها من قمم سيدى شعيب المفتاح بتمسامان (رأس كليطو)، جعلت المنظر أمام المغيرين رهيبا ورهيبا حقا، ذلك أن المقاتلين الارياف، كانوا فى تلك القمم بمأمن من كل هجمات العدو برا وبحرا وجوا، بحيث أنه قل أن تصيب قذائفه أى هدف بالذات، فهى ترجم رجم الغيب، لانها حباها الله كما حبا شواطىء الريف من مرتيل الى مليلية بمناعة قل أن يكون لها نظير، لان فرضها التى يخلقها الوديان قليلة، فما عدا فرضة خليج الحسيمة وفرضة وادى لو وبعض الفرض الاخرى الصغيرة فيما بين هذين الموقعين، توجد الجبال الشاهقة المطلة رأسا على البحر كأنها صوامع حراسة ذلك ما جعل المغير من جهة البحر ييأس من استعمال تلك الشواطىء لاغراضه الهجومية، فعندما يحاول أن يزج بنفسه فى أية مغامرة، فانه يقع فى مصيدة نصبت الطبيعة الجيلوجية شراكها فى حين يقبع الاهالى المقاتلون على رؤوسها مطلين بعيون الصقور وخفة الغزلان ووثبة الاسد.

قبيلة بنى وريا غل مسقط رأس الزعيم

تقع هذه القبيلة ما بين قبائل أخرى منيعة، فمن جهة الشرق تحدها قبيلتان، هما قبيلة بنى توزين التى تعمر منطقة ذات تضاريس

جبلية وعرة المسالك يجرى بينهما وادى النكور الذى ينزل على رفيديـــن، احداهما غربى ينبع من جبل ورغة، والآخـــر شـــرقى ينحـــدر من أزرو أقشار من كزناية، وقد جعلته الطبيعة فاصـــلا بين القبيلتين، وثانيتهمـــا قبيلة تمسامان وهى أيضا تحتل منطقة نسخـــة طبق الاصل من الاولى، ما عـــدا تفتحهـــا البحـــرى .

ويسكن القبيلتين معا أهالى ذووا نجدة ورسوخ فى الشهامة وهم من بطون زناتة (1) من قبائل بطيـــوة، فاسم بنى تـــوزين محـــرف عن بنى توجين، أما تمسامان فكانت تسمى، بنى ورتدا، وآولاد بلند، وكلها أسماء زناتية، وقد تأثرتا كما تأثر جميـــع أهالى الريف بالهجرات التـــى انصبت على الناحية من أشراف وعرب اخرين ولغتهما تمازيغت منحرفه النطق عن لغة بنى وریاغل، ومن جهة الشمال يحدهـــا خليج الحسيمـــة المنبسط من مصب نهر النكور الى قمة سيدى العابد على رأس مدينـــة الحسيمة، كما تحدها قبيلة بقيوة التى تقع هى أيضا على هضبات ذات أحجار كلسية ممتدة من رأس سيدى العابد الى فرضة مدينـــة بادس، وهى تختص بموقع استراتيجى لا نظير له، حيث تشرف على البحر رأسا ويعمرها أهالى يرجع نسلهم الى صنهاجة، وقد كونتهـــم طبيعة الارض أن يكونوا ذوى نجدة وصلاح معا، فهم من ناحية خوض غمار المعـــارك البحرية لا يجارون، ولذا كثرت من قديم التاريخ فيها رباطات المجاهدين الصالحين، ومن ناحية أخرى فالقبيلة تعد مقبرة الصلحاء، ولغتها تمازيغت لها نطق حلـــو خفيـــف .

ومن جهة الغرب هناك قبيلة بنى يطفـــت وأهاليها من صنهاجـــة أيضا وهى متصلة قديما بمدينـــة بادس وتختص بفرضة قلعة طريـــس التى خلفها وادى قصبة سنادة التى تعتبر محـــور القبيلة والتى احتلت فى نفس التاريخ مكانة عند الاهالى، بجعل الشرفاء الوزانيين مقرا لهم، أسسوا فيها زاوية، فانحشرت القبيلة اليها، ولغتها الاساسية هى العربيـــة الدارجة مع اتقانها للغة تمازيغـــت .

---

(1) الاستقصاء ــ الجزء التاسع صحيفة 205 ــ

كما تحدها من هذه الجهة قبائل ترجيست أيضا، وهى لها مركز صلة الوصل بين سكان سواحل البحر وسكان صلب الجبال التى هى المقر الاصلى لقبائل صنهاجة الريفية الاصلية والتى يأوى اليها الشرفاء انخمليشيون اذين أسسوا مركزا رئيسيا فى تلك القبائل، فانصاعت اليهم كلية وكانت تصدر وترد على توجيههم حيث أسسوا زاوية ذات اشعاع صلاحى نبغ فيهم فى هذه الفترة من التاريخ الشريف سيدى محمد اخمايش الذى استحوذ على تلك الجهة بالصلاح وسداد الرأى ولغة تلك القبائل اللهجة العربية مع تمازيغت، قد لا يفهما أهالى القبائل الاخرى ويحدها من جهة الجنوب قبيلة بنى عمرت، وهى قبيلة من صنهاجة أيضا، وهم يعتبرون أخوة لقبيلة بنى وريأغل، ويسكنون فى أعالى الجبال المتاخمة لجبل حمام، وهم ذوو نجدة لهم قدم معروف فى الحروب، يتكلمون تمازيغت ويوجد من بينهم الشرفاء الخمليشيون، الا أنهم من أواسط السكان، كما تحد أيضا من نفس الجهة بقبيلة اكزناية التى تصل اطرافها الى مدينة تازة، قاطنة فى جبال وعرة لها مواقع حربية هامة وهى التى اندلعت فى أرضها الثورة الريفية على فرنسا أخيرا التى كان من مشاهر معاركها، مثلث الموت بين بوزينب وتيزى وسلى وبورد، ولغتها تمازيغت.

أما قبيلة بنى وريأغل، فسكانها أيضا من صنهاجة وهى تحتل منطقة لها تفتحات على البحر وعلى سهل النكور، وأغلبها جبلية وفى تقسيماتها الداخلية تسير على نهج تخميس الاخماس، خمس الخطابيين، خمس المرابطين، خمس بنى بوعياش، خمس بنى عبد الله، وخمس بنى حذيفة .

وهذه الاخماس هى التى تكون سياسة القبيلة تحت رؤسائها (امغارن) .

ان هذه القبيلة فى هذه الحقبة من التاريخ كانت محور الريف الاوسط وبالاخص حقبة حوادث بوحمارة التى لم تأخذ منها منالا رغم خضوع قبائل الريف الشرقية لترهاته، ولذا قال الاستاذ: دافيد هارت

الامريكى (1) ولما كان بنو وریاغل یشكلون القبیلة الاشد باسا، فقد كانوا یوجهون سیاسة الریف، ولعل عدم خضوعها له من أول وهلة ومناوشاتها المستمرة ودفاعها المستمیت لصالح العرش المغربی، اكسب لها نفوذا تكون

---

(1) یلاحظ أن الاستاذ دافید هیرت الامریكانی یطلق علی بنی وریاغل كلمة آیت وریاجل، وقد جرت بینی وبین الدكتور دائل ایكلمان الامریكانی الاستاذ فی العلوم الاجتماعیة بجامعة نیویورك. محاورة كتابیة اقتطف منها ما یـأتی :

س ــ هل كان البعض من أقاربك من كبار آیت وریاجـل ؟

ج ــ قبل الاجابة أشیر الی أن كلمة آیت وریاجل التی وردت فی السـؤال غیر مستحبة، انما الصحیح أن یوضع مكانها كلمة بنی وریاغل التی تعرف بها القبیلـة .

أولا ــ لانه الاطلاق الذی تعرف به فی فترات حیاتها حسبما هو موجـود فی الوثائق العریقة فی القدم من ظهائر الملوك ورسوم التعامل وكتـب التاریخ، وبالاخص تاریخ ابن خلدون والمسالك والممالك للبكـری وغـیرهـا .

ثانیـا ــ ان كلمة بنی أخف ولها أصل فی اللغات الحیة، أما آیت فغـیر معروفة الا فی اللسان البربری الاطلسی التی لا تتقید به جهـات الریف التی تنطق بلهجة تمازیغـت .

ثالثـا ــ انی أعرف أن كلمة آیت تبناها الاستاذ دافید هارت فی كتابـه (دراسة اثنوغرافیة قبیلة آیت وراجل الریفیة) المطبوع عام 1954 وانی أفهم أن سبب تبنیه لهذه الكلمة هو تأثره بالبحث عن الالفاظ الغریبة البعیـدة عن الكلمات العربیـة حتی یعطی صفة البربریـة للریف فی جمیع مظاهرها، مع أن التاریخ الصحیح لا یوافقه علی ذلك فان الریف تقبل العرب والعربیة فی المد الاول وكان صلة الوصل لتدفق العرب علی الشمال الافریقی مجتازین الی الفردس المفقود وقـد حافظ الریف علی اصالة اللغة العربیة فی مظاهرها الثقافیة والدینیة بكل أمانة، مما جعل أسماء القبائل كلها جاءت علی أسماء عربیـة

بما رسخ فى أذهان أوساط الريف من قدرتها البطولية فى حوض غمار المهالك من دون مبالات .

ويمكن أن تكون حادثة الباخرة الاسبانية التى غرقت قبالة جزيرة

الا قليلا سواء التى تبدأ ببنى، فمثلا بنى توزين جاءت فى تاريخ ابن خلدون هكذا بنى توجين كما جاءت بنى وریاغل فيه كذلك ومثل ذلك بنى بويحى وبنى سعيد وبنى بويفرح وبنى اكميل وبنى عمرت كما جاءت الاسماء الاخرى وفقا لقواعيد اللغة من أسماء الأعلام مثل كبدانة وقلعية ومطالسة وبقيوة وكتامة، وهكذا سردها أيضا البروفيسور كارلتون كون فى كتابه (قبائل الريف)، لانه من المعلوم أن الاسماء التى تختم بهاء التأنيث هى أسماء عربية، نعم ان الاسماء التى أصلها بربرى تكون مختومة بتاء، وقد احتفظت بها بعض القبائل، مثل تركيست وتماسينت وتافرسيت، الا أن هذه الالفاظ ليست مقصورة على الريف، بل توجد فى قبائل جبالة، مثلا توجد بقبيلة بنى سعيد وادى لو، تمرابت تمرنوت وتزروت فى بنى عروص. كما لاحظت فى كتابه المذكور، عدم التفريق بين تامازيغت وتاشلحيت فجعلها لغة واحدة، مع أن الواقع هى لهجات مختلفة، فالشلوح، هم سكان الاطلس، وأمازيغان أى أبناء مازيغ هم سكان الريف، وهؤلاء لا يتفاهمون مع أولئك الا بواسطة العربية، وفضلا عن ذلك، فان الاستاذ هارت ذكر بنى وریاغل هكذا آيت وریاجل بالجيم، وهو الاسم الذى يحاول اطلاقه على القبيلة اغراقا منه فى الابتعاد عن العربية، وهنا أؤكد ان الرجل لو سار من تطوان الى وجدة شاقا وسط سلسلة جبال الريف، يسأل اين جاءت قبيلة آيت وریاجل، لما استطاع أن يحصل على جواب بالاثبات، لان هذا الاسم غير معروف، ولو حتى لعجائز التى يستعمل آيت بمعنى الاهل، فيقال مثلا آيت فاس آيت تطوان، ولا يقصد بها أن يسمى فاس آيت فاس .

وبناء على ما ذكر، فان السؤال يجب أن يكون كما يأتى :

هل كان البعض من أقاربك من كبار بنى وریاغل ؟

بادس بسبب اغارة أهالى تلك الشواطىء عليها عام 1311 هـ. عاملا آخر. حيث بقيت قبيلة بنى ورياغل بعيدة عن الحادثة، التى كلفت الدولة المغربية تعويضا ماليا لاسبانيا، مبلغه أربعة آلاف ريال، اضطر السلطان مولاى الحسن الاول لارسال الباشا الشهير بوشتى البغدادى لتأديهم، واستخلاص المال منها، فنزل بقبيلة بنى ورياغل بوطء أجدير قرب ضريح سيدى امحند وعلى، ووجه عساكره الى تلك الجهة .

فضلا عن ما تقدم، فهناك حادثة قضائها على الثائر الكميلى أيام الموحدين، ولهذه الاحداث وأحداث أخرى محلية كثيرة يسردها الاهالى، كانت أساسا متينا لتبوء المركز أمام القبائل الاخرى .

البيئة التى نشأ فيها الزعيم ابن عبد الكريم

وفى هذه الحالة، فان ابن عبد الكريم تكون كما يتكون عامة الشعب، معتمدا على نفسه، له أسلوب حياة الشدائد من دون التمتع ببحبوحية الرفاهية المترفة، بل يقنع كما يقنع اترابه بشظف العيش، ان دعى الحال وشاع فى ذلك الوقت أن من العادات المستقبحة أن يستسلم المرء لمذات بطنه ولا يساهم فى الفروسية، كما تكون عن عادة حمل السلاح من فترة الطفولة، واستعماله باتقان، يتبارى به مع أقرانه فى ضرب الاهداف واقتناص الصيد، بل وحتى ضرب الاعداء عند الضرورة .

ونظرا الى تفتق ذهن والده عن الاحداث الدولية العامة، وعدم قصور نظره على الاحداث المحلية التى يراها تكبيتا لهمم الرجال الاشداء، الذين ينبغى أن ينظروا الى مرامى شاسعة الاغراض، فانه جعله يزيد بيئة أخرى الى بيئته التقليدية، وقد ساعده على ذلك أن الريف كان يتمتع علاوة على الحياة الآنفة الذكر، بحياة اجتماعية ذات تقاليد عامة، فى تثقيف العائلات لابنائها، بثقافة علمية دينية وشرعية، وبالاخص العائلات التى لها مركز الرياسة فى القبائل .

وقد وجد ابن عبد الكريم حياته تتقاذفها تيارات ثلاثة، دينية وعلمية وسياسية، حسب الحياة العادية فى ذلك الوقت بين قبائل الريف .

وقد جمعنا هذه التيارات، لان طبيعتهـا فى ذلك التاريخ يصعـب فصل احداها على الآخر، وقد بدأنا بالاولين لنتفـرغ الى التيار الاخـير، الذى هـو موضع هـذا البحث بالذات، وهـو التيار السياسى المحلـى والخـارجى .

ان التيار الدينى يتمثل فى هذه الزواوى المنتشـرة فى أصقـاع الريف، بحيث انها تعتبر جزءا مهما من حياة السكان، يرجعون اليها فـى ملماتهم الدينية والدنيوية، وهى مقصدهم عندما يفرغـون من متاعـب الحياة المعيشية، وهى مفزعهم اذا ادلهمت الامور بين قبيلـة وأخـرى، أو بين جماعة وأخرى، لما أحيطت بها فى معتقداتهم من القدسية والحصانة الخلقية، ولما ابداه مسيروها من الاشراف والصلحاء من كمال التهذيـب الربانى تارة، والنفوذ العملى الذى اكتسبوه على مر الاجيال تارة أخرى .

ولاجل التدليل على انتشار هذه الزوايا، فاننا نأتى بأمثلة لتلـك الزوايا هنا، فى القبيلة التى احتك بها أكثر من غيرها، مع العلم بأن القبائل الاخرى مثلهـا أو أكثـر .

ففى بنى وريـاغل كانت توجد فى هذا العهد: عهد عائلة عبد الكريم الخلابى، زاوية سيدى يوسف، وهى أعظم زاوية تتوسط القبيلة، حتـى أطلق اسمها على القرية بأجمعها، التى سكانها من ذرية هذا الولى الصالح سيدى يوسف الغابزورى، وقد تمسكـوا بالصلاح، وكانت محط أنظـار القبيلة يلجأ اليها أفرادها لرتق الفتوق عندما يحتد الخلاف بين أفرادهـا، وكثيرا ما فضت مشاكل عويصة قد تؤدى الى هلاك خلائق ؟

زاوية سيدى عيسى بن عبد الكريم، وكانت هذه هى الاصل عـن الاخرى، ورغم أن مؤسسها من عائلة واحدة، لان الاول حفيد الثانى، فان الرياسة فى الفترة التى قضى فيها على بوحمارة وبـدء زحف الجيـوش الاسبانية من مليلية، كانت رجعت لاى هـذه، بفضل نبوغ أحد أفرادهـا المجاهد الشهم السيد محمد بن احمد العزوزى، الذى ستأتى ترجمتـه ضمن الثلاثة أشخاص الذين جاد بهم الزمان قبل ابن عبد الكريم .

زاوية سيدى امحمد الصغير بقرية آل هشام، وهى زاوية فضلا

عن وظيفتها الدينية ، كانت لها جولات فى السياسة المحلية، بفضل حفيده سيدى احمد بورجلـــة .

زاوية سيدى الحاج مسعود الكمونى بوادى توريرت، وهى زاوية كانت الافخاد التى تسكن جبال بنى بوعياش وتمرزكى وتوريرت، تلجـــأ اليها بفضل صلاح أهلها، الذين حافظوا على الصبغة الدينية لعلاقاتهـــم مع الاهالى، وبالاخص زوية بوعلمة التى نبع فيها ولده الشريف المعروف بسيدى احمد بوعلمـــة .

زاوية سيدى احمد مروى، أسفل جبل حمـــام .

زاوية سيدى احمـــد اقنيـــا .

زاوية سيدى الحاج عبد السلام بتشيتيو الى غير ذلك .

مع العلم بأن هذه الزوايا لا تتبع طريقـــة من الطرق الصوفيـــة، وانما منحاها الصلاح والاصلاح لحد ذاتهمـــا .

ذلك أنها كانت بحد ذاتها، تكون مجموعة سكنية تنحدر من الرجل: رئيس العائلة الذى اشتهر بالصلاح، والذى اختار المحل مقرا له ومسقط رأس ذريته من بعده، فتكونت منهم قـــرى ذات ثقل من وسط المجتمـــع المحدودة الذى يحيطها، لان أولئك الاحفاد حافظوا ولو نسبيا على سمعـــة الصلاح والاقتداء، فكانوا خير واسطة لفض النزعات القبليـــة .

لاجل اعطاء مثال، نورد هنا حادثة من نوع التدخلات ذات نفـــس المقصد، ففى حوالى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى، حدث فى بنى بوعياش (قرية الرابطة) أن أحد الاشخاص قتل غيلة أحد أعمامنا، ثم أن القاتل رحل الى قرية بنى بوستة، وهى قرية يسكنها الشرفاء البوستاويون وكان رئيسها يدعى الحاج امحند، الذى كان فى نفس الوقت صديقا لجدنا الحاج محمد الربضاوى الذى اغتيل ولـــده .

وقد سكن القاتل عند صديقه، ولم يبد جدى أى غضاضة، احتراما لصديقه، ولم يشأ أن يمسه بسوء ما دام محتميا به، ولكن، ان أحد أولاد الرئيس البستاوى كان يصاحب القاتل أحيانا عن طريق السوق، ذلـــك ما أغاض أولاد جدنا، وهم شباب، فما كان منهم الا أن ترصدوا للقاتل فـــى الطريق، فضربوه، ولكن اخطأوه وأصابوا ولد الصديق، فأردوه قتيلا، وقد

سبب ذلك فى خلق جو غير ملائم بين الصديقين، فاستدعى جدنا شرفاء راوية سيدى يوسف لاصلاح ذات البين بادائه الدية لصديقه، فاجتمعوا وكونوا مسيرة ضخمة بطقوسهم الدعائية وصلواتهم المسترسلة وتلاوتهم القرآنية، الامر الذى استدعى أنظار القبيلة بأسرها مترقبة نتيجة التدخل الاصلاحى، فكان القوم يترقبون للحاج امحند الـ.وستاوى احدى الخصلتين، أما رضى الشرفاء أو سخوطهم، فى حال عدم الاذعان، وكانت شجيته تحمله على الثانية، نظرا لغلظ قفاه، وفعلا امتنع من قبول الصلح باطنيا واستخف بالشرفاء ولم يعتن بهم .

ذلك ما دعا جدنا أن يأوى الشرفاء الى داره ثلاثة أيام، اعتبرها الشرفاء بادرة تقديرهم عكس الآخر، فاغدقوا عليه من الدعاء ما اعتبره الاهالى عزا له ولذويه من بعده، أما الآخر فقد تهاوت سمعته وخبت رياسته، فلم تقم له قائمة .

هذا هو الاعتقاد السائد فى ذلك الوقت، وهو اعتقاد لا نريد هنا أن نشرح مدى صحة جوهره، ولكن هو فى الواقع اعتقاد يعتبر تيارا يجرف معتقدات القوم التى خلفت استقرارا فى الحياة لا يستهان بها من حيث تأثيرها فى التوجيه المعنوى للقوم، ولهذا فان الجماعات من القوم الذين نشأوا عن هذه التربية وهى منتشرة فى نقط مختلفة من القبيلة بسهولها وجبالها وحولت اليها أنظار المتساكنين، قد جعلت ابن عبد الكريم يتأثر بها، لا لانه يعتقد كما يعتقد عامة القوم فى تأثير دعواتها لتحويل الاقدار الالهية عن مجراها الطبيعى، ولكن لانه لا بد أن يقرأ الحساب لهذا الاسلوب من الحياة مدا وجزرا .

وهى كما انتشرت فى قبيلة بنى ورياغل، انتشرت أيضا فى قبائل أخرى .

ففى قبيلة تمسامان مثلا، زاوية المرابطين بوسويقة ـ ينطق بها الاهالى بالزاى ـ .

وزاوية المرابط احمد وزاوية سيدى بويعقوب، وزاوية تمزغنين وزاوية سيدى بوداود، وزاوية أولاد عبد الوهاب، الى غير ذلك، وفى بنى

توزين زاوية سيدى الحاج على، زاوية بوجداين، زاوية اجـــار مرواس، زاوية غلبون الى غير ذلك، وفى بقيوة زاوية سيدى الحاج حسون بادوز، وفى بنى يطفت زاوية الشرفاء الوزانيين باسناده، وفى تركيست زاويـــة الخمليشيين ، الى غير ذلـــك .

أما التيار العلمى فكان يتمثل فى الاشعاع العلمى المستمد مـــن جامعة القرويين حسب التـــالى :

اشعـــاع جامعـــة القـــرويـــين :

من هذا المزيج الصالح الذى غمر هذه الجهة، والذى أعطى دمـــا لشرايين الحياة فيها، وهو مزيج العلماء الذين غرفوا من معين مدينة مولاى ادريس التى تحتضن جامعة اسلامية فريدة من نوعهـــا، وهى جامعـــة القرويين الذى ظهرت كمعجزة بركة آل النبى (صلعم) والتى ازدهـــرت ازدهارا لم يزدها مرور الايام وكر العصور الا تقدما الى الامام، فأضاءت اشعاعا حضاريا وعلميا بلغ شأنا كبـــيرا، كانت دائما محج قاصديها مـــن مشرق الارض ومغربها، والآية الكبرى لكل المتطلعين الى المعارف حتى من غير المسلمين، فاسدت للعرفان ما لا يمكن لقلم أن يحصيه وقد أحصـــاه الزمان بما حوى فى طياته من فطاحل طوى تاريخهم فى السجلات المأثورة، ولا زالت الى الآن تسدى من معينها الفيـــاض .

وقد انقلب هؤلاء العلماء من القرويين يممون الشمال فى الريف وغمارة والجبالة، حاملين الشعلة التى لا تنطفىء ـــ وما كان لنور الله أن ينطفىء ـــ وقد تمكنوا مما تعلموا، فاضاءوا من تلك الشعلة هذا الصقـــع المبارك، وقد هداهم ايمانهم ولوجه الله فقط أن يبثوا ما تعلموا فى صدور أبنائهم واخوانهم، نيلا للمأثورة النبوية، اذا ما مات المرء، انقطع عملـــه الا من ثلاث : علم يبثه فى الصدور الخ. أو كما قال (صلعم) أما الشـــق الثانى من ذلك المزيج، فهو ما اسلفناه من آل البيت النبوى الذى غمـــرت بهم صدور القوم عزة وحبورا، وكان منهم من الصنف الاول (العلمـــاء) النصيب الافر، ثم يأتى الشق الثالث من ذلك المزيج وهو رجال التصـــوف الذين وجدوا فى هذه الجهة تربة ثرية تنبت نباتا حسنا من يحمل تلـــك

التعاليم الالهية التى تصقل النفوس وتهذب الطبائـــع وتأمر بالمعـــروف وتنهى عن المنكر، فأسدت خيرا كثيرا للانسانيـــة الفطرية فى توجيهها، لما فيه صلاح المعـــاش والمعـــاد .

وقد تسابق هؤلاء المتصوفون فضربوا فى جهات الارض يبتغـــون فضلا من الله على يد المشاييخ الفطاحل، وكان للطريقة الشاذلية الفضل الاكبر، وهى تتمثل فى الطريقة الدرقاوية فى المغرب التى كانت الى ذلك التاريخ ناصعة العمل، نظيفة المعتقد، سنية المأخذ، لا تغلو فيما قصدته من تهذيب النفوس وتنوير الاذهـــان .

وسنذكر نبذة عن صلحاء الريف المتصوفين وجماعة من الشرفـــاء، كأماثة حية عن الحياة الصلاحية والعلمية فى مختلف الاوقات لكى يتمكن القارىء من أخذ فكرة واقعة متلمسة لا تدع مجالا للتخمين والجزاف .

وبفضل هذا المزيج المتعاون نشأت فى مختلف قبائل الريف معاهد علمية، وهى تعتبر فروعا كاملة عن جامعة القرويين، وقد ظهرت فوائدها الجمة، فتسابقـــت الجماعات لفتح مساجدهـــا للطلبة ورتبت الفقهـــاء المقتدرين فى تلك المساجد، باجازة مالية من حبوب الغذاء، وكـــان يعنى أن الجماعة تشترط على الفقيه أن يقوم بامامة المصلين جماعة وجمعة ويرتب الطلبـــة للتعليـــم .

وذلك لاجل تهىء الطلبة للتوجه الى القرويين لاستكمال معارفهم، فهو فى الواقع مرحلة ابتـــدائيـــة .

وقد أدى هذا العمل خدمة جلى لسكان الشمال، وأظن أن هـــذه الجهة قد انفردت بهذا العمل عن بوادى المغرب، الا ما كان من بلد سوس البلد الذى لا يفترق عن الشمال فى شىء، فهما توأمان فى العوائد والاخلاق والمقاصد الحسنة، وأغلب ما كان الطلبة يتباذاون الرحـــلات بـــين الريف وغمارة وجبالة، وذلك لتعلم العلم فى الغربة، لانها أى الغربة تعينهم على الانكباب على التحصيل من دون أن يعوقهم عائق شواغل الاهل والخلان، فكانت توجد هذه المعاهد فى قبائل الريف قاطبة، وهى عبارة عن المسجـــد الجامع فى القرية التى تتكون هيأة بنيانها من غرف متعددة للسكنـــى ومن غرفة كبيرة فى صدرها المحراب ومقياس القبلـــة والمنبر ان كانت لصـــلاة

الجمعة، وهى التى تدعى مسجد الصلاة، لا يدخلهـا الا من كان طاهـرا الطهارة الكبـرى، وعلى المتقين الطهارة الصغـرى أيضا، وفيها تعطـى الدروس العلمية من الصباح الى الغروب على حسـب استطاعة الفقيـه، وتكوين الطلبة وهؤلاء ينكبون على المطالعة والمراجعـة ومناقشة بعضهـم بعضا، بحيث أن الايام كلها تعتبر ندوات علميـة .

أما معاش الطلبة فهو على الجماعة بأسرها، عند غروب الشمـس ينقسم الطلبة على جهات الجماعة لاخذ الكمية التى تعطيها كل دار ويدعى (المعروف)، وهو وان كان الاسم يقتضى فى الاصل تبرعا ولكن فيما بين الجماعة اجبارى حسب الاتفاق فيما بينهم، فمن لم يؤدى المعروف يلزمه لوم من الجماعة، أو حرمان من منافع القرية، الى غير ذلك من الاساليب، وانما كـان الطلبة يذهبـون بعد الغروب بالخصـوص صونا لمحـارم السكان التى هى قاعدة مأثـورة .

أما الفقيه فمعاشه على الجماعة بالتناوب، ويدعى (النوبـة) ولا يمكن التخلف عنها من أى أحد والا تعرض لعقوبة صارمة، وهذا المعاش داخل فى الشرط، ويلزم أن يكون وافرا، بحيث يتعدى معاشه منها الـى الطلبة، وهذه المعاهد انتشرت انتشارا متزايدا فى جميع القرى، وسنذكر منها بعضا على سبيل المثال، ورحلات الطلبة الى مختلف المعاهد تدعـى بالتخنيشة، وقد يكون أخذا من الخنش الذى يجمع فيه الطالب حوائجه.

ومع العلم بأننا نؤرخ لفترة ما بـين أول القرن العشـرين الى تاريخ الحرب الريفية، فاننا نأتى بأمثلة دلالـة على الحياة فى وجههـا العلمى، وهو عنصر لمعرفة البيئة التى كونت المناضلين .

ففى بنـى وريـاغـل :

1) مسجد أجدير وهو مسجد عامر يقصده الطلبة من القبائـل وكـان يقوم بمهمة التدريس فيه الفقيـه البركة النوازلى السيـد على الاجديرى وهو من فخذة آيت مسعود ايوسف .

2) مسجد زاوية سيدى يوسف كان يتولى فيها التدريس الفقيه العلامة السيد محمد القاضى العبد الهـادى، وهو شريف غلبـزورى من

نفس القرية، كان كاتبا مشهورا كلفـــه ابن عبد الكريم فى أيام الحـــرب بتقييد وقائـــع الاحـــداث .

3) مسجد زاوية سيدى عيسى، كان يتولى التدريس فيها الفقيه العلامة المشارك من السلف الصالح السيـــد احمد بن القاضى وهو مـــن قرية آل القاضى الشندوريين، وهو الذى تصاهر الى السيد عبد الكريـــم الخطابى الأب ببنته تيمونت وهى أم الزعيم الخطابى .

4) مسجد الرابطة، كان يتولى التدريس فيهـــا الشريف البركـــة سيد الحاج شعيب بن سيدى الحاج عمر صاحب ضريح الربضة، وكـــان صوفيا وشيبة الحمد، وكان يجمع الى دراسة العلم تولى الاشـــراف على قراءة القرآن بقراءة ورش وحمزة، وهو متبحر فيها ومن ثم خلفه بنفس القرية الفقيه العلامة النحوى الاصولى سيـــدى محمد بن الحاج احمـــد بوزيان من قبيلة بنى توزيـــن وبعده خلفه سيـــدى محمد بن محمـــادى الطلحاوى التوزانى صاحب الجد والاجتهاد، علامة زمانه فى النحو، الذى لا يجارى فيه يقدر أنه قرأ الفية ابن مالك مائة مرة، وفضلا عن ذلك فلـــه باع فى التصوف وعلم الكلام، وله كتابات فى هذا الموضوع، توفى رحمـــه الله عـــام 1958 م.

5) مسجد تزورخت، كان يتولى التدريس فيها العلامة السيـــد محمد بوزلماط من عائلة الشركيين من بنى توزير قرية تعمرت .

6) وفى بنى بويخلف الفقيه العلامـــة سيدى امحمـــد بن الحـــاج مسعود من قرية بنى بوستة، كان يشرف على طلبة القرآن أيضا ثم تولى التدريس فيها سيدى محمد بوزيان المذكور آنفـــا .

7) وفى زاوية آل هشام كان يتولى التدريس فيها الفقيه القاضى النوازلى السيد محمد الشركى عميد عائلة الشركيين .

8) قرية الطاعة، كان يتولى التدريس فيها أبو يعقوب يوســـف الطاعى وهو علامة مشـــارك ، وكـــان نحويا بارعـــا له منظومة اعـــراب لا اله الا اللـــه .

وفى بنى توزيـــن :

1) مسجد ايجار مرواس، تولى التـــدريس فيها العلامة اللغـــوى

سيدى احمد بن الصديق من نفس القرية كان لغويا يحفظ جل أبـواب القاموس المحيط، وكان يجيب ببداهة عن الاسئلة التى تلقى عليه مـن مختلف العلوم وكان قبله يتولى التدريس فيه السيد محمد بودهر، وكان علامة زمانه تولى شرح قصيـدة السيد محمد العزوزى فى لحن القـراء فى تـلاوة القـرآن .

2) مسجد زاوية سيدى الحاج على كـان يتولى فيها التدريس الفقيه العلامة الشجاع المفتى المجاهد سيدى محمد على بولحيا التوزانى من شرفـاء بنى وكيـل .

وفى تمسـامـان :

1) مسجد سيـدى أبو يعقـوب .

2) مسجود تمرغتـين .

وفى قلعيـة ببنى سيـدال :

1) مسجد تانوت الرمان، كان يتولى التدريس فيه الفقيه العلامة السيد الوليد ثم خفله من بعده البركة القدوة المشارك سيدى علال التنوتى.

2) زاوية سيدى ورياش، كان الفقيه العلامة السيد محمد واحمد يتولى التدريس فيها، وكان قاضى القضاة بالناضور أخـيرا .

وفى بنى عبد الله ـ ببنى وريـاغـل ـ :

1) مسجد سيدى أبو يعقوب بمدشر آيت زكرى، تولى التدريس فيه السيد محمد بن الصديق الموساوى من مدينة تيلكوزين، كان علامـة فى الفقـه والنحـو .

2) مسجد سبعة أبواب ـ هكذا تسمى ـ ، تولى التدريس فيـه العلامة العابد لله محمد بن السيد محمد السكاكى من مدشر اغلط .

وفى بنى حنيفة من بنى وريـاغـل :

1) مسجد مشكور، تولى التدريس فيه السيد محمد الخمليشى، كان عالما متضلعا فى النحو والفقه والتوحيـد .

وفى تـركيسـت :

1) مسجد سيدى بوثمن، تولى التـدريس فيه الفقيـه العلامـة السيد عبد السلام الخمليشـى .

وفـــى زرقـــت :

1) مسجد سيدى الوافى، كان يتولى التدريس فيه العلامر السيد الحاج على الزرقتى جد القاضى السيـــد محمد الزرقتى، وكـــان يتولى التدريس فيه أيضا الفقيه الطنـــاز .

وفى بنى يطفـــت :

1) مسجد سمار واعمـــار، تولى التدريس فيه الفقيـــه السيـــد احمـــد مشبـــال .

2) مسجد اغبال احمد، كان يتولى التدريس فيه الشريف سيدى محمـــد الخمليشـــى .

وفى بنـــى بويفـــرح :

1) مسجد عبد الله وشعيـــب .

وفى بقـــيـــوة :

1) مسجد تلا يوسف، تولى التدريس فيه العلامة المتفنن الموقت السيد شعيب التمسمانى .

2) زاويـــة ادوز كان يتولى فيها التدريس مولاى على الخمليشى، وكان علامة نوازليا فرضيا تولى مهمة قاضى القضاء بالحسيمة أخيرا .

أما فى جبالة، فمشهور فيها معاهد مهمة يقصدها الطلبة من كـــل جهة، وبالاحص المساجـــد التى يدرس فيها العلامـــة السيد بن يرمـــق، والعلامة المجلاوى فى بنى كرفط فى قرية بومعدة فى زاوية تازروت، مركز الزاوية الريسونية، والعلامة سيدى المفضل، وفى غمارة بزاوية أولاد بن صالـــح بمزيات .

وهذا عدا المساجد التى هى خاصة لحفظ القرآن بقرآته السبـــع المختلفة، فانها انتشرت كذلك فى القرى والقبائل، وعلى كل فان من يتجول فى ذلك الوقت فى ربوع الشمال يأخذه العجب مشوبا بالاغتباط والانشراح، فأين ما توجه لا يجد الا جوا مملوءا بالتحصيل وتجويد القرآن ومناظرات علمية مفروض فيها استقصاء الحجج والبراهين عن طريق التصوف أو عن طريق العلم الظاهر أو عن طريق القرآن، وكل حزب بما لديهم فرحون .

وهذه المؤسسات الدينية أو العلمية مضمونة من جميع الأذى ولو عثر أى شخص على عدو من أعدائه فى تلك المعاهد، فانه لا يأخذ أى ثار، والا تعرض لعقاب القبيلة التى ينتمى اليها بالتغريم والتخريب، بل والتحريق .

وهذه الجهات كلها مأمونة فى سبيل من يقصدها، وكثيرا ما يقصد المتصوفون والعلماء من الجنوب، فتراهم يتنقلون من زاوية الى أخرى ومن معهد الى معهد فى ضيافة وكرم .

ان هذا الاسلوب من الحياة النادر فى هذه الجهة يعتبر حافظا للعلائق الوشيجة بينها وبين جهات المغرب الاخرى التى تعتبر معينا يغترفون منه كفاس وسلا ومراكش ومكناس وطنجة وتطوان وشفشاون، مع العلم بأننا نؤرخ هنا البادية التى أثرت هذه المعاهد فى اثارة الحماس الجهادى فى أرض الريف، على أن الذى يلفت النظر من كل ذلك، ان هذه المعاهد كانت العنصر الهام فى توجيه الناس لتعلقهم بالعروش المتعاقبة على المغرب، فمن مبادىء التعليم الاساسية وكذلك مبادىء التصوف، ان الفتق على الملك يعتبر مروقا من الدين، وبالاخص ان صلاة الجمعة تعتبر منبرا للبيعة اما تحتوى الخطبة الثانية من الدعاء لامير المؤمنين، ففى كتب التاريخ عندما نجد أن شخصا ما عندما يخرج عن الملك مثلا يقال، انه خطب به على المنابر فى صلاة الجمعة، فالخطبة فى الجمعة بالملك تعتبر مبايعة له وتجديدا لها، واستمرارا للتعلق بالملك .

وفى هذا المضمار تمسكت جهات الشمال بالعرش العلوى، ولم ينفض أبدا، يده من يده رغم ما كانت عليه الحالة، مما يعتبر البلاد بلاد السيبة كما يقولون، ولكن اذا أردنا أن نحلل كلمة السيبة، نجدها كلمة تطلق على عواهنها، لان القوم رغم ضعف السلطة المركزية عن ايصال الاوامر المشددة اليها، فان الناس بقوا على ما عاهدوا عليه من الحفاظ على الولاء والاخلاص لملكهم ودينهم، فهم أشد حفظا حتى من الذين كانوا تحت السلطة الفعيلة المباشرة .

وذلك اننا اذا تفحصنا التاريخ، نجد أنه بتاريخ كذا خرج فلان فى جهة كذا، وبايعه الناس هناك، وان الملك الشرعى سير اليه أما بنفسه

أو بأحد قواده للقضاء على الفتنة، وذلك ما هو مشحون به كتب التاريخ، أما جهة الشمال، فاننا لا نجد شيئا يذكر، بل أن من سولت له نفسه أن يفعل شيئا من هذا القبيل كان حتفه على يد القبائل تلقائيا، مثل الكميلى (1) وبوحمار (2) وزيطان (3) وغيلان 4) الى غير ذلك، لان العلماء غرسوا فى النفوس هذه العقيدة، وقد ملئوا بها كتبهم لمن قدر له أن كتب .

وفوق ذلك، فان هذه المعاهد هى التى انجبت زعماء الحرب التحريرية، لان الجهاد فى سبيل الله كان ولا زال من أهم الاغراض الدينية التى تتعلق بها النفوس والتى كانت بالطبع تحرض عليها تلك المعاهد وتعاليم الصوفية، وسنذكر فيما بعد زعماء ثلاثة كان لهم اليد الطولى فى قيادة المجاهدين ضد الاسبان قبل البطل سيدى محمد بن عبد الكريم الخطابى .

قصة وجود ابن عبد الكريم فى مليلية :

تكلم الذين كتبوا على وجود ابن عبد الكريم فى مليلية واسره هناك بشتى التأويلات المستوحات اما من تلقى الاخبار الاسطورية التى يحكيها الاهالى بعضهم لبعض، فيحرف هذا أو يطنب الآخر، حتى ابتعدت الرواية الصحيحة عن واقعها الحقيقى، أما جملة أو فى بعض فصولها، وأما عن كراهية نابعة عن الحقد الدفين الذى يسيطر على أفئدة العاجزين ليأتوا بالمأثرة التاريخية فيحاولون الحط ممن تخطى صعاب الزمان، لخلق تلك المفخرة التى تبقى خالدة، وهكذا، فان القول بأن ابن عبد الكريم كان يساير الاسبان فى أعمالهم فى شمال المغرب، بما كان ينشره فى بعض الجرائد، مثل «تلغراف الريف»، وان القول، بأن سبب أسره بمليلية هو لاجل النزاع الذى كان بينه وبين الجنرال سلفسترى، وان هذا الاخير صفعه على خذه، لانه لم يمتثل أمرا كان كلفه القيام به فيما يتعلق بالوساطة التى كان يقوم بها بين الاسبان وبين زعماء قبائل الريف، وان

---

(1) فى قبائل صنهاجة الريف، (2) فى سهول بنى وريا غل بالريف،
(3) فى قبائل الاخماس بجبالة، (4) فى قبيلة بنى كرفط بنواحى العرائش.

القول بأنه اقترح على سلفسترى بأن يأتى له برئيس الثوار مقابل مائة ألف بسيطة، تدفع للقائد الثائر وان الجنرال لما سمع هذا القدر الضخم من المال دفعه غضبه أن يصفعه على خده بعدما شتمه باللص، هى أقوال مدسوسة من توافه الاخبار التى صدرت فى الاصل عن المؤرخين الاسبان مثل الجنرال «منويل غوديد» الذى استسقى الرواية الخاصة بحياة الزعيم ابن عبد الكريم عن رجل من الريف، وقد وصفه الجنرال المذكور فى كتابه «المغرب ومراحل التهدئة» المطبوع بتاريخ 1932 بصديق اسبانيا (1) وقد أفاض هذا الشخص فى التنكر لمبادىء الشهامة التى كانت مفروضة فى المناضلين الاحرار الذين لم يأخذوا السلاح الا دفاعا عن تلك الشهامة كى لا يلطخون بالنذالة الا أن المطلع على خبايا الامور يعرف لماذا تنكر لمثل الرجولة ليتسنى له أن يحمل لقب صديق اسبانيا الحميم بدلا من لقب المناضل الشريف، وقد اعتقد أنه شفى غليله بعد ما نفث فى روايته الملفقة كل سموم الحقد الدفين الذى كان منطويا تحت جناحه والذى يقال فى مثله أن القوة تظهره والجبن يخفيه وقد نسى أن التاريخ لا يرحم، وان سنن الخلق فى هذا المضمار تسير على وتيرة واحدة تظهر ناصعة ولو بعد أجيال وأجيال بالتنقيب والتمحيص من دون فتور، فتدحض الخزعبلات مهما غطيت، تلك سنن التاريخ، فاذ كان الرجل ينتقم لنفسه ويعرض صفحا عن الحقائق عندما اختلى بالجنرال الغازى ليملى عليه ما أملاه بدواعى الانتقام، حينما حامت حوله شكوك فى قبيلة من قبائل الجبالة التى طلب أن يعين حاكما على ذلك الخط، فاستدعى من قبل الزعيم وجرد من المسؤولية، ثم اختفى والتحق بطنجة ليحمل اسرار الثورة، فان هذا الانتقام لا يجديه عندما يرجع الكيد فى نحره .

أما حقيقة الامر فى وجود ابن عبد الكريم فى مليلية، فان ذلك كان مبدأ مقررا بين الولد ووالده لخطة مدروسة شريفة، وان الاسر كان أيضا لسبب شريف، حسبما سنقصه نقلا عن رفقاء ابن عبد الكريم فى مايلية وفى الريف .

---

(1) صحيفة 86 .

ان المؤامرات الاستعمارية ضد المغـــرب كانت سلسلة متصلـــة الحلقات بعدما كشر الاستعمـــار الاوربى عن انيابه وأصبـــح لا يخفـــى النوايا المبيتة لاحتلال شمال افريقيا، فبعد ما نزلت الجيوش الفرنسيـــة فى الجزائر، وبعـــد ما استولى الاسبـــان على مليلية وسبتة والاسافـــين الشمالية، وبعد ما خاض المغاربة المعامع ضـــد البرتغال والانجليـــز على شواطىء الاطلس من المغرب، فام يبق هناك سر لما يبيت لهذا الوطـــن، وبالاخص فى جهة شمال المغـــرب التى خاضت نضالا شريفا مع الثائـــر «بوحمارة» الذى وجد دعما من محتلى الجزائر، ومن الجدير هنا ســـرد بعض الحقائق التاريخية باجمال، ولو قد تكون معروفة عند الباحثين لاجل التخلص الى قصة قاضى قضاة مليليـــة الذى كانت مهمتـــه الاساسيـــة ايداع المجرمين فى السجن والتى انعكست الآية فزج به فى السجن ولكـــن ليس على يد القضاء، بل على يد البوليس العسكرى الاسبانى لتهمة وطنية شريفة، الا وهى تحريكه للعمل النضالى بالاستعانـــة بممثلى منسمـــان اخوان، المؤسسة الالمانية للتنقيب عن المعادن، التى كانت تعمل فى معـــدن جبل وكسان غربى الناضور وجنوب اسغنغـــان، ومن يكون فى موقفـــه المحرج لما يرى تكالب الاعداء على وطنه له الحق فى ان يتعامل ولو مـــع الشيطـــان .

وللتدليل على حقيقة حادث سجنه ننقل هنا نبذة من مقال نشـــر فى الكتاب الاسبانى «عشرون سنة من التاريخ»، جاء فيـــه :

«ان عبد الكريم ــ اعتاد الاجانب أن يعبروا عنه بعبد الكريم وهو اسم أبيه وعليه فالقصد هو ابن عبد الكريم ــ عرف أنه وصلت ساعتـــه وذلك للرد على التحدى الاسبانى، وكان يتمشى فى خطته على مخطط سيدى محمد أمزيان الذى قطع الطريق عام 1911 عن القوات الاسبانية فى خط الرجعة ــ أى فى معركة الثعلب ــ ، كما تتبـــع خطتـــه فى اثارة القبائـــل الخاضعة للجيش الاسبـــانى .

وعبد الكريـــم الذى ولد فى أجديـــر عام 1882 ودرس فى كليـــة

القرويين، انتهى به الطواف عام 1909 ان يسكن فى مليليـــة، حيث كـــان يشغل وظيف قاضى، ثم فى سنة 1914 عين قاضى القضاة مع عملـــه فى الصحافة، وكان يتمتع باحترام من طرف الجميع، وفى سنة 1917 وقعت له خلافات مع الكرونيل «خوان خيل خيل»، وعند قيام الحرب الاوربيـــة الكونية، كان عبد الكريم مستعمـــلا من طـــرف المانيا مما جعل الحكومـــة الاسبانية تودعه فى السجن بالضغط الملح من طرف فرنسا، وسرعـــان ما هرب من السجن، حيث القى عليه القبض من جديد، وبعد الحرب خرج من السجن ولكنه كان قد تغيـــر» .

وسيأتى تفصيل الكـــلام عن تحرك الالمـــان فى الريف، وعمل عبد المالك حفيد الامير عبد القادر الجزائرى ونتائج ذلـــك .

أما الاحداث التاريخية التى غمرت عواصـــم أوربا ضد المغـــرب فقد تكونت عن احتلال البرتغال والاسبان لمدن طنجة وسبتة ومليلية وجزر بادس والنكور، التى تدعى عند الاجانب بلاوسيماس (الحسيمة) والجزر الجعفرية (جزر كبدانة) ومن انتقال مدينتى طنجة وسبتة من البرتغـــال الاولى الى انكلترا، كهدية بمناسبة زواج أمير انجليزى بأمـــيرة اسبانيـــة والثانية الى اسبانيا بعد استفتاء سكانها الاجانب بالطبع .

الا أنه فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشـــر استفحلت اطماع الاوربيين فى الاستيلاء على شـــواطىء شمال المغـــرب، نظرا لقربه من أوربا أولا، ولانه يحتل مكانة طبيعية استراتيجية جغرافية، حباه الله بها، ثانيا، وبعد ما كانت اطماع هـــذه الامم قبل هذا التاريـــخ منشغلة بشواطىء الاطلسى التى عاركوا من أجلها مع الاهالى، اضطروا أخيرا الى الرحيل عنها .

وهكذا حاولت فرنسا أن تحصل على رخصة قانونية من سلطـــان المغرب لاكتساب قواعد عسكريـــة على شواطىء شمـــال المغرب وكانـــت رغبتها الاكيدة الاستيلاء على الجزر الجعفرية وجزيرة الحسيمة التى لـــم تحصل على مبتغاها باباء من السلطان سدا لما عسى أن يقع من تسربهـــم الى الريف الذى كانت الرقابة عليه غير تامة وبالاخص سكان هذه الجهـــة

من طبيعتهم التى فطروا عليها ركـــوب المخاطر، والولوع بالرماية، فهـــم عشاق الاسحة التى تظهر مستحدثـــة .

ولما لم تحصل على هذا الاذن توجهت أطماعها صوب الجزائـــر التى احتلت منها مدينة الجزائر عام 1830، وابتداء من هذا التاريخ كان على شمال المغرب أكثر من جنوبه أن يأخذ العبـــرة بما حدث، لارتبـــاط القطرين بأواصر شتى، جوارا واقتصاديا وجغرافيـــا، وعليه ان يتبنـــى مساعدة النضال الجزائرى الذى خاضه ابناؤه البواسل تحت قيادة بطـــل مجاهد ممن يندر أن يجود بهم الزمان، وهو الامير عبد القادر الجزائـــرى الذى نظم الدفاع عن بلاده، فلم يتقدم الغـــازون الا شبرا بشبر، وكـــان تنظيمه يظاهى تنظيم الامير الخطابى الـــذى نؤرخ له فى الاعتمـــاد على الاسلوب العصرى من تنظيمات المجاهدين على غرار تنظيمات العدو نفسه.

واذا كانت رغبة السلطان المولى عبد الرحمن، قد تطورت لتأييـــد المجاهدين الجزائريين، بمالا مجال فيه للجـــدال، اذ قدم المعونة اللازمـــة التى تظاهى شهامة المناضلين، فان العبأ الاكبر من تلك المساعدة، كانـــت تأتى من سكـــان الشمال الذين تقاطـــروا للتطوع للجهاد بباعث الديـــن والقومية العربية، وحينما طال نضـــال الجزائريين دخل عنصر تثبيـــط العزائم بالضغط من طرف فرنسا من جهة واثارة الشكوك لدى السلطـــان من جهة ثانية ازاء الامير عبد القادر مع العنصر الاقتصادى الذى استفحل نتيجة الحصار على الحدود بين الجزائر والمغرب من جهة ثالثة، ولما اشتد الهجوم عليه من قبل الجيش الفرنسى، دخل الى جهة الريف الى أن وصل الى تفرسيت، جاعلا اياها مقر عملياته العسكرية، الى أن ارتحل لملاقـــاة السلطان، حيث حيكت له دسائس، ولا شك أنها من نمط تلك الدسائس التى استعملها الاستعمار لخلق البلبلة بين الاشقاء فكانت الواقعة التى تواجـــه فيها الفريقـــان حسبما يأتى :

وكان من نتائج القضاء على ثورة الامـــير عبد القادر ما شهـــده المغرب بعد ذلك من هجوم الفرنسيين بقيادة الجنرال بوجو على وجدة فى وقعة اسلى المشهورة التى كانت نذير الشؤم للمغرب عام 1844 ولـــولا تدخل بريطانيا لمصالحها الخاصة لتوغل بجيوشه الى ما شاء .

أما الاسبانيون فقد تحرشوا مع الاهالى فى مليلية، اذ بدأوا يتقدمون الى داخل البلاد فى 20 شتمبر 1909، حيث اصطدمت القوة الاسبانية التى حاولت تأمين السكة الحديدية التى تمتد الى منجم الحديد باكسان، وفى الشمال الغربى خرجت القوة الاسبانية من سبتة لاحتلال تطوان ومصب نهر مرتيل فى ابريل سنة 1911، واحتلوا الشواطىء ما بين طنجة والعرائش فى نفس السنة، وقد كانت اسبانيا سنة 1860 احتلت مدينة تطوان، فلم تخرج منها الا بعد ما أرغمت المغرب على دفع غرامة حربية باهضة واهتبلتها فرنسا فرصة لغل المغرب بقروض وضعت على كاهل المغرب وضعية اقتصادية شاذة، الامر الذى جعل فرنسا تدخل ميدان التنافس فى المغرب متذرعة بهذه المديونية المدسوسة التى أقلقت بال كل من المانيا وانجلترا، الاولى لانها تحتاج الى أسواق لترويج منتوجاتها الصناعية، والثانية لان شمال المغرب يقع على فم مضيق جبل طارق فهى لا يهدأ لها بال اذا تفوقت عليها المانيا فى نفوذها فى المغرب، وبالخصوص بوغاز جبل طارق الذى لها فيه احتكاك مباشر، وقد تزايد قلقها عندما رأت غليوم فى موكب حافل فى طنجة راكبا الجواد وسط جمع من شخصيات المغرب فى حفل شبيه بحفل سلاطينه .

وأمام هذه المؤامرات تمخض الحل، لكن لم يكن للمغرب فيه لا ناقة ولا جمل، بل الحل كان على ظهره، وهى النكبة التى جرت ما جرته عليه، اذ رضيت بريطانيا على أن تسكت عن فرنسا باحتلالها للمغرب، على أن تحتل شماله اسبانيا، فتمخض الامر على معاهدة الحماية سنة 1912 بعد مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1906، ثم الاتفاق بين فرنسا واسبانيا، والى هذه الدرجة فانه لم يبق الا تنفيذ الاحتلال، أما فرنسا فانها سارت على منوال آخر غير منوال اسبانيا التى تعثرت، لان المنطقة التى وكل أمرها اليها، تعتبر خلية الزنابر لسعها أشد ايجاعا «ولابد دون الشهد من ابر النحل» .

هذه الاحداث كلها يعيها عبد الكريم الاب على ظهر قلب، فهو الذى يعنيه الامر أولا وبالذات، لانه المسؤول الاول من حيث مركزه فى الريف، ومن حيث احساسه الوطنى، ولكن لابد له من اعداد عدته، وها هو ولده

البكر محمد قد كرع من العلم من منبعـــه الصافى بفاس، حتى تبـــرز فى العلوم الاسلامية وأطلع على أسرار المؤامرات وعلى الوصاية اللا شرعية التى وكلت الى اسبانيا على بلد هو مسقط رأســـه .

ومع ما كان أبوه متميزا به من احترام المجلس العائلى الذى يرأسه بحكم مركزه الابوى فيه، فانه رحل الى فاس، حيـــث كان ولده يستكمـــل دراسته ما بين سنة 1905ـــ1909 لعقد احـــد المجالس العائلية فى احـــدى حجرات مدرسة الشراطين التى كان يسكنها الابـــن .

وقد تمخض هذا الاجتماع عن دراسة الاتفاق الفرنسى الاسبانى حول الشمال عام 1904 اذ وضعت فيه الخرائط الاولية لحدود الشطريـــن التى كانت آنئـــذ حدودا وهمية، نظرا لعدم اكتشاف ادغال تلك الحـــدود بعد من طـــرف الدولتـــين .

ويقول بعض المؤرخين، ان الولد لم يكن رد الفعل من طرفه يتسم بالاهتمام، نظرا الى أنه كان يرى أن الاحتلال الاجنبى قد يأتى بخير لبلده الذى يفتقر الى استقرار وتمدن وانه لم يتغير رأيه الا بعـــد الاختلاط مع الاسبانيين فى مليلية اذ اختبر نواياهم السيئـــة .

وقد يكون هذا التفسير صحيحـــا لو أن الطالب فى صدد دراســـة الاوضاع بكامل جوانبها، والواقع أن أشغـــال الدراسة كانت تحـــول دون التعمق فى الامر، فلا يمكن اصدار قـــراره النهائى، على انه من المبـــادىء القارة التى يسير عليها والتى أطلع عليها بواسطة قراءته للكتب الوطنيـــة التى ترد على جامعة القرويين من جامعـــة أخرى مثلها، وهى الازهـــر فى مصر، هى أن الاستعمار لعنة على الامـــم المستضعفـــة .

ونظرا الى أن معالم طريق الكفاح المجدى لم تكـــن واضحة أمـــام أنظار الوالد والولد معا، فان القرار الذى اسفر عنه الاجتماع هو أن يرجع الولد الى الريف لكى يتجه وجهة أخرى، لسبـــر غور القضية من منهلهـــا الاصلى، وهو الاختلاط مع الاسبانيين بأية وسيلة كانت، مع تهيىء الولـــد الثانى امحمد الذى كان يبلغ عام 1909 حوالى 18 سنة، لانه من مواليـــد 1892 لاستكمال دراسته فى اسبانيا أيضـــا .

وان الاب كان قد خطط لهذا الامر قبل الاجتمـــاع فى فاس، اذ ان

جزيرة الحسيمة التى هى على قدر رمى الحجر من اليابسة، كانت أبوابها مفتوحة على مصراعيها لاهالى الريف، وبالاخص أهالى أجدير الذين تقع الجزيرة تحت أنظارهم مباشرة، وقد جعلها الاسبان سوقا رائجة يقتنى منها الاهالى حاجياتهم من السلع الاوربية التى عز نظيرها عندهم فى ذلك الوقت لعدم اتصالهم الخارجى، وكان أهالى القرى الشاطئية يروحون ويغدون يوميا حاملين معهم بنادقهم التى يلزم أن يدعوها عند مدخل الجزيرة تحت أنظار الحراس ليذهبوا الى داخلها يجوبون دروبها، وكان الجنود الاسبان يعرفون كل واحد منهم كمعرفتهم لابناء جلدتهم، وبالاخص الحاكم العسكرى الكولونيل سيبانطو المكلف فى ذات الوقت بالشؤون السياسية التى هى وظيفته الاساسية، التابع الحاكم العسكرى بمليلية، وكان يتكلم اللغة المحلية باتقان، وكان من مبادىء السياسة التى ينهجها لفتح الريف سلميا التسامح مع الاهالى حتى حدث ذات يوم أن واحدا من اعيان أجدير يدعى عزى بن بوطاهر ضرب ضابط الصف الاسبانى المكلف بالحراسة بهراوة الى رأسه وأسقطه أرضا بسبب خصومة تطورت الى عنف، وريثما تأتى الاغاثة واعلام الحاكم، كان نزل من سلم الجزيرة الى حيث تودع البنادق، فأخذ بندقيته وخرج من دون ان يلحقه أذى، وما كان من الكولونيل الا أن حمل مسؤولية الحادثة لضابط الصف الذى أبعده عن الجزيرة نهائيا .

الا أنه ومع تفتح الجزيرة على الاهالى، فان عامتهم لم يكونوا راضين بالذهاب اليها، وكانت السلع التى تقتنى من الجزيرة وكان أغلبها السكر والدقيق والثياب، لا يمكن بيعها فى أسواق القبائل والا تعرض بائعها للانتقام من الاهالى بتغريمه واحراق داره، وكان على الذين يأتون بها، أن يدعوها فى دارهم لعولتهم .

وقد لعبت سياسة هذه الجزيرة دورا كبيرا، فقد اشترت ضمائر بعض المتعاونين معها ورتبت لهم مرتبات شهرية، وتدعى العمولة التى يأخذونها «بالراثب»، هكذا بالثاء، وقد انتشر هذا الداء كثيرا واشترك فيه جمع من رؤساء الجماعات والاعيان الذين كادوا أن يعقدوا حلفا مضادا لحلف المجاهدين، وقد افتتن الناس افتتانا كاد أن يلحق التفرقة بين العشرة

والعشيرة، وقد أدى الحال الى اغتيال رئيس المجاهدين، القاضى السيد محمد بن احمد العزوزى، الذى سيأتى توضيح حياته وجهاده .

وفى خضم السياسة الاستعمارية جاء ابن عبد الكريم من فاس ملتحقا بعائلته بأجدير حسب الاتفاق مع أبيه، وقد وجد بندقية الموزير (الخماسية) فى الدار التى تعتبر من أولى المعدات التى يحملها من بلغ سن التسلح، ترافقه فى الحل والترحال، لا تفارقه طرفة عين، وفى الايام التى قضاها فى أجدير كان يحملها ليذهب الى الوطاء وهو سهل غيس، حيث جنات أهالى أجدير، ليقضى فيها وقتا ما لرياضة الرماية بالبنادق، مع أصدقائه وبنى عمومته وعندما يرجع الى الدار يجد والده قابعا خلف حجرة ملساء أو تحت شجرة فيحاء يطلق بصره الى ما بعد الافق فى تأملات الشيخ الذى اثقلت كاهله المسؤوليات الجسام : العائلية والوطنية والقضائية، ولا يستفيق الا عندما يسمع المؤذن يؤذن لصلاة العصر أو المغرب، فيقوم ليؤدى الواجب نحو الله .

واذا حضر الابن هش فى وجهه ويسأله أسئلة من لا يحمل أى ثقل على قلبه، وكما سيأتى، فقد كان سريع البديهة، طيب المعشر، لطيف النكتة، لا يتركها تمر فى أحاديثه، بل يطعمها بها كل ما سنحت، مما يضفى على المسامرة معه بهجة وسرورا، الى نفوس محدثيه، وبعد صلاة العشاء وكثيرا ما تكون فى بيت الضيوف، وهو بيت تكون بوابته مفتوحة الى خارج الدار، وهو لازم فى بنايات الاهالى، لكل دار تحفظا من التكشف على ربات البيوت فى خدورهن، وهذا البيت لا تطرقه الاناث الا عند تنظيفه وترتيب أثاثه. وعلى الذين يكونون ــ الاولاد ــ قد بلغوا سن التكليف الشرعى أن يحصروا صلاة العشاء مع والدهم الذى يؤمهم، واثر الفراغ منها كان على الذين لم يبلغوا سن الرشد السياسى أن يذهبوا ويبقى معه الآخرون، لكى يجروا حوارا ويستعرضوا الاحداث التى جرت أو التى تهم العائلة.

وهنا لا يمكن الضبط كم قضى الابن فى أجدير قبل أن يلتحق بمليلية عن طريق الجزيرة، الا أنه حسب الروايات المتداولة لم يطل مقامه فى أجدير بل ذهب الى مليلية، حيث عين أستاذا فى المدرسة التى فتح فيها قسم للغة العربية استدراجا للاهالى لارسال أولادهم الى

المدرسة التى تعتبر اللغة العربية فيها اغراء لهم وبعد ما أصبح معروفا عند الاسبان بمزاياه الشخصية، سمح له فى تحرير صفحة باللغة العربية فى جريدة «تلغراف الريف» وهى الجريدة التى يصدرها المكتب السياسى الاسبانى فى مليلية تحت رئاسة الكولونيل «مـوراليس» الذى قرب اليه ابن عبد الكريم طمعا فى أن يكون عونا لتوعية أهالى الريف بالفوائد المتوخاة من الحملة الاسبانية، ولكن الرجل لم يأبه قط لمرامى هذا الكولونيل، كما لم يأبه لغيره ممن هو أعلى منـه .

ويجدر هنا أن أروى بتدقيق وجود عائلة عبد الكريم الخطابى لدى الاسبانيين فى حال حياته، فكان ولـده محمد بمليليـة مدرسا ثم قاضى القضاة محررا فى الصفحة العربية من جريدة «تلغراف الريف»، وولـده امحمد طالبا فى قسم الهندسة بمانقة ثم مدريد، وأخوه من الاب عبد السلام الخطابى كاتبا مع حاكم جزيرة الحسيمة، ذلك أن القيادة العليا الاسبانية فى تطوان، كانت خططت تخطيطا لاحتلال شمال المغرب على الاسلوب التالى:

1) أن تخضع القبائل الجبلية وتثبت اقدامها فى الجهة التى توجد فيها مدن الشمال: تطوان، وشفشاون، وأصيلا، والعرائش، والقصر الكبير، المحتلة من قبلها، وان يمتد نفوذها على القبائـل التى تشرف على هـذه المدن، واعتمدت فى هذه الجهة على متزعم كان يبدو لها أنه قوى يتزعـم تلك القبائل وهو مولاى احمد الريسونى، وكان هذا يتقلب حسب مصلحته تارة وحسب الضغط من طرف المجاهدين تارة أخرى، وقد جرت معارك فى تلك الجهات ما بين تطوان والقصر الكبير سيأتى تفصيلها .

2) واذا ما انهت هذه الجهة، فانها تلقى بثقلها على الجبهة الشرقية التى كانت تجرى فيها معارك محلية فى قبيلة قلعية تحت قيادة سيدى محمد أمزيان، على أن لا يتوغل الى قلب الريف، الا بعد انهاء الجبهة الغربية.

3) وفى أثناء هذه المرحلة يجب أن تكسـب أنصارا فى قبيلـة بنى وياغل التى هى القلب النابض فى الريف وقد رأت ان عبد الكريـم الاب هو أقوى رجل وأصلح، يمكـن أن تعتمد عليه وبالاخص فانه أقـرب الى جزيرة الحسيمة التى استعملت كل وسائلها الاغرائية، كالمال والسـلاح، ولكن يجب أن تختار زعيما له وزنه ومكانته لدى القبيلة، ولـم يكن أولى

من قاضى بنى ورياغل الذى ينحدر من عائلة كانت لها الرياسة فى عهد الموالى محمد بن عبد الله ومولاى الحسن الاول، فاتصل به حاكم الجزيرة التى كانت مهمته الاصلية هى رياسة قسم المخابرات، على أن يعمل واسطة بينها وبين أهالى القبيلة ويكون صلة الوصل مع العلماء الذين يختارهم لاخذ المال كمرتب شهرى، على شرط أن يعطى لولده الاول مكانا مرموقا فى مايابة، وتقوم اسبانيا بفتح المعاهد لولده الاصغر، ويوظف أخوه من الأب كاتبا مع حاكم الجزيرة العسكرى وقد درس عبد الكريم مع ولديه وأخيه هذه العروض وما يمكن أن يستفيدوا منها، كما درس العواقب التى يمكن أن يتعرض لها مع أهالى القبيلة الذين سيفسرون ذلك على أنه مروق من الدين والوطنية وتتعرض حياته العائلية الى أوخم العواقب، وقد وازن بين الفوائد التى ستجنيها العائلة والخسائر التى يمكن أن تتكبدها. فاسفر الرأى على المجازفة بقبول هذه العروض التى تكون من فوائدها

1) انه اذا تأخر عن قبول العروض المقدمة اليه فان الاسبان، سيتخطونه الى شخص آخر من القبيلة الذى يفترض أن يعمل معهم باخلاص، فتكون الكارثة على الريف وعلى كل حال فان المال الذى سيتدفق من الجزيرة على القبيلة سيجد قلوبا ضعيفة الايمان لا تتورع أن تجر الويل بكل موبقاته على هذه القبيلة التى تعتبر القلعة المنيعة فى وجه الغزو الاستعمارى

2) فانه من الاحسن الظهور للاسبانيين بمظهر المتعاونين معهم سدا للطريق على الغير من بنى الجلدة .

3) ان المخطط الذى خططاه فى فاس والذى لا محيد عنه من أخذ الاهبة لاستقبال كوارث الغزاة يقتضى أن تخرج العائلة الخطابية من العزلة المميتة بين أهالى القبيلة الذين لا تعدو مخططاتهم الضحلة أن يستميتوا فيسقطوا شهداء واحدا بعد واحد الى أن تنقرض النخبة المؤمنة ، فيبقى الجو العملاء المرتشين .

4) وعليه، فانه يجب أن يستفيدوا من هذه الفرصة التى واتت لكى يزيدوا خبرة بالاساليب العسكرية والسياسية، ويزيدوا وعيا للقضية

الوطنية الكبرى ويتخبروا الاعداء عن كثب ليعرفوا أى سياسة يخططون لها لكى يأخذوا الامر من معينـــه .

5) وللابقاء على الاتصال بأهالى، فانه يبقى الاب رئيسا للعائلة فى مسقط رأسه رغم ما يتوقعه من المصاعب التى سيحدثه هذا المخطط الذى يفسره الاهالى على ظاهـــره ولكن لابد ليوم ما فى القريـــب العاجـــل أن ينجلى الغبار على المخطط، فيرجع الاعتبار فى أعين الاهالى كامـــلا .

6) انه بهذه العمليـــة الجريئة ستبقى جزيرة الحسيمة وجزيـــرة بادس مفتوحتين أمام السكـــان لشراء المواد الغذائية التى تستحضرهـــا اسبانيا كجزء من مخطط الاغراء، ولشـــراء الاسلحة من المهربين الذيـــن يتغافل عنهم الجيش الاسبانى عمدا لاجل أن يتقاتل الاهالى فيما بينهـــم لاخذ الثأر الدموى بين عشيرة وأخرى حتى اذا انهكت قواهم بذلك سهلـــت الحملة لاكتساح تلك الربوع المنشغلة على استئصال جذور بعضهم البعض نتيجة الضغائن الدموية المستحكمة فى العائلات، ولكن رأى عبد الكريم الاب أن نفعها فى المستقبل للمعارك الحاسمة ستكون أكبر من ضرها، اذ علـــم أن الريفى مهما تجاهل ضد أخيه، فانه لا يقف ذلك حائلا فى حين ساعـــة الجهاد الاكبر فى الغزاة، وهم يعتزون بأن الشهيد يصبح بعد موته حمامـــا من حمائـــم الفـــردوس .

7) ان بقاء المراكب البحرية مفتوحة أمام الاهالى سيوفر البسيطة الاسبانية، وبالاخص من البعثات المنقبة على المعادن التى اعتبرت أن جبال الريف كلها براكن لمختلف المعادن بعد اكتشاف المعدن الحديدى فى اكســـان قرب الناضور، وذلك ما دعا بعض الاسبان أن يقترحوا على عبد الكريـــم الاب أن يهىء ولده الاصغر للتخصص فى هندسة المعادن .

أما المتاعب التى وضعها فى الميزان فانهـــا :

1) انحطاط سمعة عائلة الخطابى أمام القبيلة التى كانت تعتبرها الرئيس المدبر لها والصادق الايمان بمبادىء الجهاد والشرف والشهامـــة وبالتالى ضياع تلك الثقة العمياء التى أولوها اياهـــا .

2) وقد يتعدى ذلك الى الهجوم على العائلة الخطابية من الجمهور المتحمس، وقد لا تحمد عقبى تلك الغضبة الجماهيرية التى لا تتحكـــم الى

استعمال فلسفة اللعبة التى لا يمكن على أى حال البوح بها، والا فسدت تلك المخططات وقتلت فى مهدها قبل أن تأتى ثمارها .

وعلى كل فقد وازن بين الخطتين وقارن بين المنافع والمضار لكل منهما واستقر رأى العائلة على الخطة الاولى، لانها أكبر فوائد مهما كانت مخاطرها عظيمة، تاركين ذلك الى رحمة الاقدار التى تعامل الانسان على نيته .

وختم عبد الكريم الاب مجلسه بالحديث المشهور : «من كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه» .

وهنا انتفض الجمع واعقب ذلك تنفيذ الخطة، فالتحق الابن الاكبر بمليلية، كما تقدم، والتزم العمل بكل وصايا والده، فلم يتطرق اليه أى فتور فى سبيل المخطط الذى يعمل بكل الحاف ليدركه حتى انى سمعت ممن حدثوا عنه من أقرانه فى ذلك التاريخ، أنه كان يأتى أحيانا الى جزيرة الحسيمة عن طريق البحر لاستطلاع أحوال القبيلة وبالاخص أهالى أجدير الذين يغدون ويروحون الى الجزيرة وانه كان لا ينزل الى اليابسة لزيارة عائلته، بل يبقى فى الجزيرة، حيث عمه السيد عبد السلام الخطابى كاتبا، وقد حكى لى المجاهد السيد حمادى غياية، أنه وجده ذات يوم فى الجزيرة، فلما سلم عليه سأله ماذا تصنع هنا فى هذه الجزيرة التى يحتلها الكفار مع أنك مسلم، فاندهش غياية لهذه العبارة المعنفة له، وأجابه فاذا كنت أنا أجىء من دار الاسلام أحيانا، فانك ساكن معهم فى مليلية، بل أنت موظف مع الكفرة، فأجابه ابن عبد الكريم، حقا أنا موظف فى مليلية، ولكن لى بصيرة أنظر بها الامور، على حقيقتها ولا خوف على أما أنتم الفلاحين السدج فان أدنى أحبولة ينصبها لكم العدو تقعون فريسة الكفر، الامر الذى يضيع معه اسلامكم .

أما القصة الاخرى التى حكاها لى أحد أعمامه أن الكرونيل مورليس كان قربه اليه وسماه قاضى القضاة للاهالى عام 1913، وكانا يشتركان العمل فى مكتب واحد، يحتل الكرونيل زاوية ويحتل ابن عبد الكريم زاوية أخرى، وكان عندما يزور الكرونيل أحد الاهالى لتبليغ خبر أو طلب

أمر يستغفل الكرونيل ويقول للعميل انتظرنى خارج المكتب، وعندما يستفسره عن الخبر الذى أتى به، وربما نهاه بصريح الكلام كى لا يتكرر منه ذلك وربما أعمى عليه بحكاية ملتوية زرعا للخوف فيه، واذا استعظم أحد مركزه كقاضى القضاة سفهه بصريح العبارة اذا كان ممن يستحق الافصاح قائلا، ان عملى هذا لا يعدو أن يكون تخذيرا لكم أنتم الذين ترون عملى هنا احتراما لشعوركم، أما أنا فاعتبره تحديا لكم ولشعورى بنفسى، ولكن سأتناول مرارة ذلك، كما يتناول المريض مرارة دواء للشفاء.

وربما سأله بعضهم عن تحريره فى جريدة «تاغراف الريف»، وكان جوابه دائما اذا كان محدثه ممن يوثق به انه قرع الخديعة بالخديعة فرسائلى فى الجريدة لا يقرؤها أحد من المغاربة أو المشارقة، بينما الاسبان يعبئون التراجم لترجمة مقالاتى، التى لا تحمل أى معنى بالنسبة الى والى قرائى المغاربة، فعلى هذا فداك مما يقال فيه حبر على ورق، ولذا فان أى مجازفة فى القول الذى يحلو لبعض الكتاب أن يكتشفه بأن تلك المقالات التى كان ينشرها فى تلك الجريدة، كانت تبشيرا بعمل اسبانيا فى شمال المغرب (1)، ليس بصحيح، كما ليس بصحيح أن والده كان قاضيا بمليلية (2) بل تقصى حياة والده من أقرب العناصر التى كانت ترافقه فى حياته يفيد، انه لم تطأ قدمه مليلية أصلا .

وانما كانت له جزيرة الحسيمة معبرا أحيانا الى تطوان عندما يندلع ضده ما كان يتوقعه من غضبة الاهالى، وكان ينجو منها تحت حماية عصبية عشيرته من أجدير الى جزيرة الحسيمة، ومنها يرحل الى تطوان، ولم يرحل قط الى مليلية رغم الحاف الاسبان ليلتحق بولده هناك، الى أن تهدأ فورة الهيجان، فيرجع الى أجدير تحت مصالحته مع القبيلة بوساطة بعض زعماء عشيرته ليستأنف الحوار مع زعماء القبيلة التى لا تكاد تفهم مراميه التى لا يمكن أن يبوح بها كى لا يتسرب مراده الى الاسبان، فيفشل مخططه، وهو الامر الذى بقى يتحمل عبئه وحده، فيقع فى حيرة

---

(1) كاتب محمد بن عبد الكريم لمؤلفه الاستاذ العلمى صحيفة 17 .
(2) المصدر نفسه .

مكمومة، حتى اذا أعياه الكتمان صرح ذات يوم لزعماء القبيلة فى مجمع هام، بأربعاء سيدى أبى العفيف ـ على الضفة الشرقية لنهر غيس أحد النهرين اللذين يشقان قبيلة بنى وريا غل، ويصبان معا أمام جزيرة الحسيمة ـ صرح قائلا لهم: «انكم تسموننى بالنصرانى، أليس كذلك، فأجابوا بلى، ألست تخالطهم بأولادك وأقاربك؟ ومن خالط قوما فهو منهم» فيعقب على ذلك ويقول: «انى أنبئكم بأن الوطنية والاسلام مقبوران الآن فى ديار المغرب، ألا ما كان من دارى، وأنتم أنفسكم من يبقى منكم حيا فسيبحث عنهما فى دارى، هذه التى تهدمونها، عندما تثور ثورتكم» .

وفعلا فانه تحمل كل تلك الهجمات التى تجعله هدفا لها، ورغم أن جزيرة الحسيمة يلح عليه كلما وقع الهجوم عليه، ان ينزل جيوشه الى اليابسة لحمايته ورد عادية المغيرين عليه، فانه يمتنع ويقول له ان الوقت لم يحن بعد، لان الاهالى فى مركز الحماس والقوة، لا يجمل الاحتكاك بهم، وان اخلاءه داره والهجرة الى تطوان أسهل سبيل لرد عاديتهم .

وكان الغرض من كل ذلك أن يسوف الاسبان عن مراميهم حتى يستوفى أغراضه التى يعمل من أجلها من اخفاء مخططه الذى يأتى يوم لينفذه بكل جرءة وحماس المسلم الوطنى المحنك .

وقد اتضح للاسبان أنه يلعب بهم بعد ما نمى اليهم قولته المذكورة عن طريق عملائهم المبثوتين، واشتبهوا أيضا فى قاضى القضاة بمليلية، عندما غير أسلوب مقالاته فى جريدة «تلغراف الريف»، وقد استعمل فيها لهجة قوية الحماس ضد الاستعمار على العموم، وان لم ينص صراحة على الاستعمار الاسبانى، وأحيانا يندد بالاستعمار الافرنسى، كما بلغهم بعض التصرفات التى لا ترضيهم، وبالاخص اتصاله بممثلى مؤسسة «مانسمان اخوان» الالمانية، التى تنقب عن الحديد فى منجم اكسان، حيث أفاده هذا الاتصال للاطلاع على الوثائق الاسبانية السرية الخاصة بالتنقيب عن المعادن فى الريف، وبالخصوص فى جبل حمام من بنى وريا غل، وقد أطلع بذلك على المرامى الحقيقية لاسبانيا فى احتلال الريف، حيث لم تدع له انشك فى المرامى الاستعمارية .

الاسبـــاب الحقيقيـــة لسجنـــه :

وقد أعطت لهم هذه الاستعلامات نتائج مهولة، ضد قاضى القضاة وعائلته التى كانت الى حد الوقت يعتبرها الاسبان مفتاح الاحتلال، وذلك نظرا للاتصال المريب الذى كان يجريه مـــع هؤلاء الالمان من جهـــة، ثـــم استفحلـــت الربة عند ما جاء عبد الملـــك حفيد عبد القادر الجزائـــرى الى مليلية من طنجة صحبة الالمانى المدعو «الفار» اللذين راحا يعملان عميلين لالمانيا ضد فرنسا فى المغرب من جهة أخرى .

وقد جاء عبد الملك هذا الى المغرب عام 1902 م. ومن المظنون أنه كان يبحث عن ميدان للمغامرات القتالية التى كان تتشبع بها بروايات أخبار جده الامير عبد القادر الجزائرى، الذى خاض معارك بطولية فى الجزائـــر ضد الاستعمار الفرنسى، وقد يكون تأثر بهذه الاخبار التى رويت له فى الشام حيـــث ولد فى سوريـــا .

وقد حفزته هذه الاخبار أن يحضر الى المغرب ليفتح تلك المغامرات، بالانضمام الى ثورة بوحمارة فى الشمال الشرقى للمغرب، ولكنه سرعان ما انفصل عنه بعد ما أطلع فى عين المحل عن فشـــل عمل الثائر، وقد حمـــل هذا الانفصال المولى عبد العزيز الى أن يقربه اليه، الا أنه لما كان المولى عبد الحفيظ انتقض على أخيه فى المغـــرب فى شأن النـــزاع على العـــرش المغربى، فان عبد الملك هذا انضم فى هذا النزاع الى المولى عبد لحفيظ، ولما انتصر هذا الاخير عينه مكافأة له على رياسة الشرطة المغربية بمدينة طنجة.

وفى أثناء قيام الحرب العالميـــة الاولى 1914 م. وثق الاتصـــال بالالمانيين، وعملائهم الذين راحوا يبحثون عن العملاء الذين يكونون عونا لهم لخلق المشاكل ضد فرنسا فى المغرب، وفعلا اهتدوا الى عبد الملك هـــذا الذى جعل يتصل بهم سريا، وربما استعمل الاتصال بواسطة الهاتف بالقائم بأعمال المانيا فى طنجة، وقد تفطن الى هذه الاتصالات المخابرات الفرنسية وسجلت بعض تلك المخابرات الهاتفية التى تدينه، وسرعان ما علم بذلك عن طريق أصدقاء يعملـــون فى تلك المخابرات، فحزم أمـــره واختفـــى عن طنجة الى جهة الريف، حيث يكون فى مأمن من وصـــول يد فرنسا اليـــه،

وحيث يوجد ميدان للمغامرات الحربية التى هاجر من أجلها، والتى يكون العثور بين طياتها على الاموال التى يهفو اليهـا والتى لمس عن كثـب أن جيوب الالمان المنبثين فى طنجة مملوءة تبحث أين تطلق رنينها، وفعلا فقـد اتفق مع الالمانى المدعو «الفـار» الذى كان غرضه الاساسى اثارة القبائل الشمالية لنهر ورغة ضد فرنسا لحلق المصاعب، وقد التحقا بتلك القبائـل وتمكنا من اثارة حروب العصابات فى تلـك الجهة بعـد استمالة القبائـل بما أغدقه الالمانى الفار من الاموال عليهـم .

وفى هذا الوقت لم يكن المغرب دخل رسميا فى الحرب العظمـى رغم تجنيد الفرنسيين للمغاربة الذين انخرطوا بصفة شخصية، وبعثـت بهم الى ميادين القتال، الا أنه تحت الضغط انصاع السلطان مولاى يوسف لالحاف المرشال اليوطى، المقيم العام الفرنسى، فأعلن السلطان الحـرب ضد الالمان وتركيا، وبعد دخول المغرب رسميا محاربا فى صف الحلفاء، رأت القوة الفرنسية فى المغرب أن تشن حربا شعواء على قبائل شمال فاس التى لم تكن خاضعة، والتى تأثرت الى حد كبير بمناوشات عبد المالك والالمانى الفار، وبهذه الحملة الفرنسيـة فى تلك الجهة ، جعلت الحالة غير صالحـة لعبد المالك، ففكر هو والالمانى أن يحتموا بقبيلة بنى وريـاغـل، على أن يكون ذلك عن طريق قاضى القضاة بمليلية، وقد تنكر عبد المالك تحـت اسم مستعار، وهو هامان الالمانى .

وعلى أى حـال، فقـد اتصلا فى مليليـة ـ خفية عن أنظـار الاسبانيين ـ بابن عبد الكريم الذى كانا قصداه لطلب العون من قبيلـة بنى وريـاغل التى تأتمر بأمر والده والتى تعتبر القبيلة العاتية فى وسـط قبائل الريف، ولا سيما ما خبره عبد المالك منها فى قضية الثائر بوحمـارة من كونها كانت جماع أمر تلك القبائل المسلحة التى تهفو للقتـال .

وقد أجاب ابن عبد الكريم الذى رأى فى مطلبهما ما يوافق المخطط العام الذى خططه والده معه من محاربة الاستعمار، اينما ثقف، وان ذلـك يعتبر فرصة تتاح للريف، لاجل شحذ العزائم مرة أخرى، وقد اتفق الرأى بين الثلاثة، على أن يذهب عبد المالك والفار الى عين المكان بقبيلـة بنى

ورياغل، حيث يتصلان بأبيه الذى يهىء لهما اجتماعا عاما لزعماء القبيلة للاتفاق على الأسلوب والجهة الذين يفرضه الموقف عليهما .

ولاجل القيام برحلة تحت الستار فقد أختفيا فى لباس الاهالى : جلابة من الصوف من نسيج محلى الى أسفل الركبتين مغروزة بوردات من حرير فى مواضع التحامها بخيوط من حرير يدعى «برشمان» وعمامة بيضاء ملتوية عى الرأس مرات، وهو محلوق الشعر تماما، ونعل محلى، ورافقهما فى رحلتهما عى زورق صغير بالمجاديف والقلاع ثلاثة أشخاص، اثنان من أعمام ابن عبد الكريم وهما السيد محمد بن الحاج بودرة زوج أخته والثانى الرئيس محمد المدعو بوباطاطا (لازال حيا) كلاهما من أجدير وكان معهما تونسى كان حضر مع الالمانى افار، الذى يستعمله ترجمانا وقد ودعهم ابن عبد الكريم بعد ما زود عميه برسالة شفوية الى أبيه، وكانت الرسالة تحمل رموزا لم يفهم كنهها حتى حاملاها، امعانا فى التعمية، وهى تدور على أن الفرصة قد واتت وأن عليه — أى أبيه — أن يغتنمها، فالرجلان يحملان أفكارا ومالا معا، مع امكان استغلالهما لبدء تنفيذ المخطط العام لما يمكن أن يجابا من السلاخ، وودعهما فى مرسى غربى مليلية قرب رأس ورك، حيث امتطيا متن الزورق المستأجر من أربابه الذين يعملون حوذيين، والذين ظنوا أن السفر عادى وان المسافرين هم من أهالى الريف الذين طالما أوصلوهم الى شواطىء الحسيمة .

وعلى كل، فقد صار كل شىء على ما يرام، فقد ابحر الزورق بالاشخاص الخمسة ناشرا قلاعه فى اتجاه الريح، يتناوب اثنان من بحارته على المجادف، بينما الآخر يحرس القلاع، الى أن وصلوا الى شواطىء الحسيمة بساحل السوانى فى حالة الخفاء، حتى عن ربابنة الزورق، نظرا لاستعمال كل أنواع الايهام المضللة من عدم اثارة أى حديث الا باللغة المحلية ومن تعمد الشح مع الربابنة حتى لا يظهر عليهم أى ثراء غير عادى، كما تظاهر الضيوف بالدوخة التى تعترى بعض المسافرين، لكى لا يضطروا الكلام .

وقد سلكوا جميعا مسالك غير مطروقة الى أن وصلوا الى دار

السيد عبد الكريم الخطابى الأب، حيث بلغ الرسولان رسالة ولده التى لم يجد صعوبة فى فك رموزها التى كان أعتاد أن يتلقاهـــا ويفهم مرادهـــا، وبعد المحاورة التى كشفت له عن الدواعى والأسباب التى حملت الضيوف عن شد الرحال اليه، وبعدما أستقرأ عوامنها الايجابية والسلبية، وبعـــد ما استدعى أخاه من جزيرة النكور أن يزوره زيارة عادية، تقبل العمل مع الالمانيين، بشرط أن يعقد مؤتمرا مع زعماء قبيلة بنى وريأغل وبنـــى عمرت المتآخمة لقبائل ورغة والتى تعد أشجع قبيلة بين تلك القبائل .

ولاجل الابتعاد عن أنظار جزيرة الحسيمة التى ترقب كل حركات الاهالى، فقد اختار أن يكون المؤتمر فى قرية آيت قمرة، وهى بلدة تقـــع غربى أجدير، تحجبها عن أنظار الجزيـــرة كدية تامسقيذانت والجبـــل الكبير، وكانت الوفود كما يلـــى :

عن بنى بوعياش: السيد عبد السلام الحاج محمد (1) مع وفـــد يضم حدو بوقراب وشعيب بن حمو الطاعى وموح بن الطاهر الزكيرى .

وعن بنى عبد الله: محمد ابرقاش ومحمد بن عمر ابا موحنـــد والسى على بن السى المسنـــاوى .

وعن بنى حديفة: مـــوح بن صديق وبوطاهر مكـــوح والســـى عمـــر محمـــادى .

وعن المرابطـــين: السيد عمر بن سمحند والسى امحند بركـــان من تاشتيوين بجبـــل حمام، وشعيب بن الحاج تهامى والسيد بوقشوش من زاوية سيدى يوسف والسيد احمد بورجلة عن زاوية آل هشام .

وعن آيت يوسف وعلى: موح ابقوى والحاج محمد شدى والقائد سى بوبكر وشن وعلوش بن المدنى واشهبار بن بوعـــزة .

وعن آيت على: محمد بن الحاج محمد وحمو بن حد تقلعت .

وعلاوة على هؤلاء الرؤساء، فقد رافقهم زعماء ثانويون من كـــل خمس، حســـب مصطلحات القبيلـــة التى يصحـــب كل زعيم عصابتـــه التى تحميه والتى تكون فى يقظة دائمة تحتضن سلاحهـــا .

---

(1) والـــد المؤلـــف .

وعلى أى حال، فقد اجتمعوا فى ظل اشجار من التين المغطاة بأوراق الخريف والتام الجمع على أحسن ما يرام، مما اذهل الالمانى الفار ورفيقه عبد المالك، لما ابداه الزعماء من الحماس، واليقظة وقد خطب الالمانى فى الجمهور بواسطة الترجمان التونسى الذى كثيرا ما يمد اليه السيد عبد الكريم معونة توضيح بعض الفقرات باللسان المحلى (تمازيغت) .

وكان من جملة ما قاله الالمانى، أنه تخطى القبائل كلها من الجنوب والشرق وقصد هذه القبيلة الشجاعة العاتية، وانه كالمانى يحب الحرية كأفراد هذه القبيلة، فانه جاء ليضع نفسه رهن اشارتها بكل ما تحتاجه من مال وسلاح لكى تقوموا بمحاربة عدوكم وعدو المانيا، كذلك، وهى فرنسا التى استولت على جنوب المغرب وهى بصدد احتلال شماله، الامر الذى تأباه شجاعتكم الموروثة، وها أناذا بين أيديكم لازودكم بالمال والسلاح وما عليكم الا أن تشدوا من عزيمتكم، فتقوموا قومة رجل واحد.

وقد كان لخطاب الالمانى اثر فى النفوس وقد أحدث حماسا وبالاخص انه بين أن المال الذى سيدفعه هو البسيطة الاسبانية، ويمكن لهم استبداله بالريال الحسنى فى تطوان، التى كانت السوق الرائجة لاستبدال تلك العملة، كما كانت سوقا رائجة لشراء حبة الخرطوش لبناذقهم، وقد كان الاهالى مولوعين بالتجارة فيها حاملين اياها الى الريف بواسطة الزوارق، بحيث كانوا يذهبون الى تطوان فى قوافل ليشتروا الريال الحسنى بالريال الاسبانى الرائج فى الريف بواسطة ممثلى مؤسسة «منسمان اخوان» الالمانية، وقد راج تهريب الحبة والريال الحسنى بواسطة المهربين من تطوان وطنجة عن طريق مرتيل، حيث تسافر الزوارق بحرا .

وقد دار نقاش فى مؤتمر آيت قمرة وكان حادا حول الجبهة التى يجب أن تفتتح، هل مع الجيش الفرنسى أو مع الجيش الاسبانى الذى يتعمد احتلال مركز فمركز بصورة تدريجية ومن دون ضوضاء، وقد كان من رأى الالمانى أن تفتتح الجبهة فى قبائل ورغة ضد فرنسا، وان تترك جبهة الشرق مع الجيش الاسبانى الى وقت آخر، ذلك نظرا الى أن بقاءها مفتوحة يسهل جلب السلاح من هناك، وكذلك المال، ولكن الاهالى الحوا على فتح الجبهة مع الجيش الاسبانى أيضا لانه يتقدم خطوة فخطوة بعد

ما غزا قبائل قنعية، ويجب ايقافه عند حده وأخيرا وقع الاتفاق على فتح الجبهتين معا، على أن يقع الثقل الاكبر على جبهة الجنوب .

ووقع الاتفاق على أن يعطى للفارس ريالان وللراجل ريال واحد بالعملة الاسبانية، وهو أجر فيه كثير من الاغراء فى ذلك الوقت وان يكون الاداء على يد عبد الكريم الاب، الذى ينظم (الحركة)، وهكذا تكونت قوة من الاهالى تحت رياسة عبد الكريم وتوجهت الى قبائل كزناية ومرنيسة، حيث عسكروا هناك، ضد الجيش الفرنسى، مستنفرين قبائل ورغة، وقد تحمست القبائل الاخرى غير بنى وريا غل، فاستنفر زعماؤها أهاليها ، فحشدت قبيلة كتامة مقاتليها تحت رياسة السيد محمد كويسن كما فعلت تركيست مثل ذلك تحت رياسة الزعيم السيد محمد السليطن من الخمليشيين وكذلك قبيلة بنى توزين برياسة عبد السلام بن القائد بميضار، وولد أبو الخريف من فرقة اغربيا وحمو عمر كذلك، وقد تجمعت هذه القوات التى هرعت الى المراكز الامامية .

وفى هذا الحال، فقد انجلت للاسبانيين مرامى عبد الكريم الاب، وولده قاضى القضاة بمليلية، وعلى ضوء ذلك فقد فكر الاسبان أن يتحركوا سياسيا قبل أن يتحركوا عمليا بالجيش .

وقد اهتدوا الى أنه يجب تجاهل عبد الكريم وعائلته، والبحث عن أشخاص آخرين من قبيلة بنى وريا غل، حيث يخلق له ذلك مصاعب داخلية مع اغداق المال بالكثرة الكثيرة لاغراء بعض زعماء القبيلة للتحرك ضد عائلته التى لم تنفع فيها الى الآن الاساليب المتخذة معها، ولم يكن هناك ند لعبد الكريم الا السيد احمد بورجلة صاحب زاوية آل هشام، وكان من شرفاء بنى وريا غل نسبا، وكانت له سيطرة على خمس المرابطين الذى ينتمى اليه بعصبيته، وكان له دهاء خارق وثروة محلية لا بأس بها، ورغم ان المعتاد من رؤساء الزوايا أن يتجنبوا سياسة القبيلة ويدعو الى السلم بالتى هى أحسن، الا أن هذا الشريف كان لا يعبأ بهذا التقيد الذى يكبله، فراح أسوة بزعماء القبيلة يضرب فى كل ميادين الحياة العامة، يرأس فرقة المرابطين ويسهم فى مهام الحرب والسلم معا، وينافس عائلة عبد الكريم الخطابى فى الشهرة والمال، ورغم

قصوره من ناحية ميدان القضاء، الا أنه لم يقصر من ناحية استعمال دهائه لضمان رياسته واعتباره أحد الزعماء المرموقين، يحسب له حسابه.

وفضلا عن ذلك فقد كان له ولد اسمه عبد السلام بعثه الى تطوان للدراسة، وكان قد شب وترعرع وأكتسب قوة وحماسا وأخذ يتحمل قسطا من أعباء والده السياسيه وقد كان خير من يخلف عبد الكريم هو السيد احمد بورجلة الذى توفرت فيه مؤهلات أن يكون ندا له ولعائلته، وبالخصوص فقد شد أزره بالاصهار الى ولده عبد السلام هذا من عائلتين كبيرتين، احداهما من فرقة آيت على التى كان يقول فيها جده اسى امحند أموسى، مؤسس زاوية العائلة بأنه كلما سدد سهما الى هذه الفرقة، الا وكان الحاجز الذى يمنعنى من أن أنال منها منالا، هو الكرم الموصوفة به، فلا تبلغ سهامى الى رغيف كامل بل تكل عند نصف الرغيف ــ كناية عن بدل الطعام من طرف الفرقة ــ، والمراد السهم المعنوى، لانه كان يعتقد فى أسى امحند أموسى (الكرامة) وقد تزوج أخت حد بنعالية.

وثانيهما من فرقة أجدير عن السيد موح أبقوى الذى كان يعتبر زعيما بالدرجة التى تلى زعامة عبد الكريم الخطابى فى أجدير .

وكان غرضه من الاصهار بهاتين العائلتين، تقوية مركزه السياسى فى القبيلة .

وهكذا فقد برز السيد احمد بورجلة مع الحاج محمد شدى من فرقة آل مسعود يوسف، وكان يعتبر من زعماء تلك الفرقة وكان له جاه وثراء وعصبية من ابناء عمومته، ضد مخطط عبد الكريم «الاب»، وكان الداعى الحقيقى هو التنافس بين العائلتين والتسابق لكسب الانصار، وليس خيانة للوطن، لان السيد احمد بورجلة هذا قام فى قضية بوحمارة بمجهود كبير حسبما ذكرنا فى كتابنا الثائر المهزوم، وكما سيأتى فى ملخص تلك القضية، الامر الذى برهن به على تمسكه بالوحدة الوطنية .

الا أنه هاجت القبيلة ضدهما وهاجمتهما فى عقر ديارهما فى ثورة عارمة، تتجه اليهما فى جموع، فافترقت القبيلة الى فرقتين، احداهما تتجه الى دار السيد احمد بورجلة بزاوية آل هشام، والاحرى الى الحاج محمد شدى بأجدير، فما كان من الاول الا أن احتمى بضريح جده اسى

امحند أموسى بعائلته التى كانت القبيلة تقدسه لمكانته من الولاية والصلاح، فلم تجرأ أن تدنس حرمه، بل انثنت بعد طلقات نارية متقطعة، مات فيها بعض أفراد القبيلـــة .

أما الثانى وهو الحاج محمد بن شدى، فقد اعتصم مع عصبيته من ابناء عمومته بداره، مصوبين لدى القبيلة أفواه البنادق، فاعصوصب بداره، ولم يكن للقبيلة أن تزحزحه منها، وقد تبودل اطلاق النار لايام ولم تنـــل منه القبيلة أى منال، فانكفـــأت راجعة تاركة ايـــاه فى داره، الا أنه لـــم يستطع بعد ذلك أن يخرج من داره، ونظرا الى أنه فى تلك المناوشات التى جرت سالت دماء من القبيلة التى أصبحت تتطلب ثارا منه، حيث وجـــد وبذلك أصبح سجين داره الى أن تدخلت عناصر من زعماء فرقته للعفـــو عنه، لما ابداه من التوبة، ومع ذلك فقد كان عليه أن يحترس كل الاحتراس.

أما السيد احمد بورجلة الذى احتمى بضريح جده، كما أسلفنا فانه استغاث بأصهار ولده من أجدير، فجاؤوا اليه وضمنوه الى القبيلة وارسل الى ولده عبد السلام الذى كان فى تطوان والذى كان قد اشترى هناك ديارا للسكنى استعدادا لمثل هذه الطوارىء، فرجع الولد من تطوان وعند قيـــام الثورة كان سيدى احمد بورجلة من أنصارها الى أن اغتاله أحد الطائشـــين الذى لقى جزاءه على يد المجاهدين فى الحـــين .

احتجـــاج فرنســـا لـــدى اسبانيـــا

بعد هذه الاحداث التى جرت فى شأن تنظيم القبائل الريفية للعمل مع الالمانيين ضد فرنسا فان المقيم العام الفرنسى المرشال اليوطى الذى لم يكن خافيا عنه تحركات عبد الكريم وولده فى مليلية والذى يعتبـــر الـــى ذلك الوقت من أصدقاء اسبانيا، إحتج لدى المقيم العـــام الاسبانى فى تطوان الجنرال خوردانا، متهما اسبانيا بتواطؤها مع عبد الكريم والا لما تجرء أن يقود القبائـــل ضدها لاعانـــة الالمانيين على اثارة القلاقـــل فى قبائـــل ورغـــة .

واثر هذا الاحتجاج استدعى حاكم مليلية الجنرال اسبورو ذو الانف الاعوج بحضور الضابط رئيس القسم السياسى المكلف بسياســـة

قبيلة بنى ورياغل برتبة قائم مقام كرونيل يدعى «الريكارمى»، وبحضور ضابط آخر برتبة كبطان يدعى «بربيطا»، مكلف بقبائل كرط، ولما كان وقع لابن عبد الكريم خلاف مع الكورونيل «خوان خيل خيل» فى نفس الاتجاه فانه وبعد حوار مع ابن عبد الكريم، فى شأن سياسة اسبانيا ازاء قبائل الريف، وما تتحمله نتيجة الاتفاقات الدولية على هذه الجهة، التى وكل أمرها الى حمايتها والتى ترتبط بفرنسا فى القسم الجنوبى من المغرب، حسب تلك الاتفاقيات وبعد ما تطرق الى الاشتباهات فى سلوكه، ووالده مع اسبانيا، التى أسدت اليهما ثقتهما، ومع ذلك فان والده أثار قبائل الريف وجمعهما فى حلبة القتال، الامر الذى يعد خطرا على عملها من جهات: أولاها، اساءة علاقة اسبانيا مع فرنسا، ثانيها، تمرس القبائل على قتال الاجنبى مهما كان، ثالثها، تدفق السلاح على المقاتلين القبليين وعلى أى حال، فان عمل والده لم يكن الا بموافقته معه، وعليه فانه يطلب منه أن يكف على هذا الفعل، وان يوصى اباه بأن يرجع الى الجادة، والا استطاع هو أن يرده الى الجادة بوسائله الخاصة .

وهنا ثارت ثائرة ابن عبد الكريم، فخرج عن الحذر الذى كان لزمه الى ذلك الوقت، فنفث ما فى صدره من كمائن الاحقاد التى يخفيها للاستعماريين الفرنسى والاسبانى، واستمر فى فورة من الغضب الذى لم يملك بها نفسه حتى ابان عن كل الحقائق الوطنية وفى هذه المرحلة فان الحاكم اسبورو لم يتمالك نفسه من جهته فثار فى وجه ابن عبد الكريم وأمر بالزج به فى سجن مليلية، وكان ذلك عشية ذات يوم أربعاء من عام 1915 م. وسجن فعلا بقلعة البرج بمليلية واستمر مسجونا لمدة سنة، وكانت هذه القلعة على شكل القلاع الاثرية القديمة، بنيت على شاهق محاطة بخندق عميق مجصص بالاسمنت المسلح يتصل بابها الوحيد بقنطرة من الخشب ممتدة الى الطرف الخارجى للمرور عليها نهارا، فاذا غربت الشمس ازيحت القنطرة، فتبقى القلعة معزولة عن العالم .

وكان مكلفا بالحراسة على المعتقلين المجرمين جنود اسبانيون بقيادة ضابط برتبة الرائد، الا أنه ورغم هذه الحراسة، فقد استأنس على مرور الايام الجنود بما فيهم الضابط الرئيسى الى اخلاق السجين ابن عبد الكريم

وسهلوا له اتصال أفراد عائلته وأصدقائه، فكان الزوار يغدون ويروحون نهارا، وكان السيد محمد شراط وهو ولد موح ابقوى صهر عبد السلام بورجلة كثيرا ما يزوره فى السجن وكان شابا قويا وله نوع من ثقة الاسبانيين لعلاقة المصاهرة مع السيد احمد بورجلة، وكان يأخذ ورقة الزيارة من عند رياسة حراسة القلعة ليبقى معه كل النهار يؤنسه وقد حكى لى أنه عندما كان يزور ابن عبد الكريم يجده يدخن بحرارة ويسأله عن أحوال المجاهدين الذين فى الجبهة مع فرنسا ونتائج المعارك، ثم يتطرق الى سب اسبانيا، وكان يقول انها تآمرت عليه، لانها تعرف أن الدائرة تدور عليها، ولكن لابد من ذلك، وان ذلك اليوم آت عن قريب ولا ريب، ومن جملة من يزوره السيد عبد الكريم بن الحاج بودرة، وكان رجلا شجاعا سخيا وهو أخو السيد محمد بن الحاج بودرة زوج أخت ابن عبد الكريم الذى كان ذهب مع الالمانى الى بنى وریاغل، وكان يدخل عليه من أصدقائه الشريف اسماعيل الشاذلى من قبيلة قلعية، وقد اقترح عليه ذات يوم من سنة 1916 م. ان يهربه من السجن، فلما وافق ابن عبد الكريم على ذلك هيأ الشريف المذكور حبلا خبأه تحت جلبابه ودخل به اليه على أن يدليه من طاقة زنزانته ليلا فاذا نزل الى وسط الخندق مد اليه حبلا آخر من جانب الخندق الجارجى فيجذبه به هو وثلاثة رجال آخرون قد أعدهم لهذا الغرض، وفى الموعد المحدد القى ليلا ابن عبد لكريم الحبل وشده الى الطاقة وتدلى مع الحبل، ظانا أن الحبل وصل الى قاع الخندق، فلما وصل الى آخر الحبل، وكان بقى بينه وبين أسفل الخندق مسافة فسقط فى الخندق وكان كسب بدانة داخل السجن الذى أرغمه على عدم الحركات الرياضية وتكسر من رجله اليمنى ولم يستطع الشريف الشاذلى مع رفاقه أن يعملوا أى شىء لفائدته، وبقى هناك الى الصباح حيث التقطه جنود الحراسة وأرسل فورا الى المستشفى، حيث عولج بعناية الى أن شفى، وفى أول الامر اقترح عليه الاطباء قطع رجله، ولكنه امتنع نظرا الى أنه فهم أن ذلك بالايحاء من قادة الجيش، ثم رد الى نفس السجن وفرضت عليه تقنينات فيما يخص زيارة أهله وأصدقائه، وكان لا يدخل أحد الا بعد التفتيش الدقيق وقد كان يزوره من أجدير السيد

محمد شراط والسيد عبد الكريم بن الحاج بودرة، السالفا الذكر .

ولما يئسوا من أية حيلة للخروج به من السجن اقترحـــوا عليه أن يعمدوا الى طريقة التسامح من طرف الاسبانيين بواسطة عبد الســـلام بورجلة، وهو زوج أخت شراط، وعندما وافق ابن عبد الكريم على ذلـــك، فان الشخصين الوسيطين سافرا الى بنى وريا غل للاتصال بالسيد عبد السلام بورجلة الذى يوجد فى دار أبيه بزاوية آل هشام وكان سفرهما عن طريق البحر من مليلية الى جزيرة النكور (الحسيمـــة) على ظهر باخرة البريـــد التى تربط بين معاقل الجيش الاسبانى من مليلية فجزيرة الحسيمة فحجرة بادس وتنتهى الى سبتة، ثم تكر راجعة من حيث أتت، وذلك على رأس كل أسبوع، وعندما نزلا الى اليابسة بأجدير ذهبا توا الى الفقيه السيد عبـــد الكريم ــ الاب ــ ليعرضا عليه الفكرة، وقد استمهلهما الى غده لكى يخلـــو لنفسه ويوازن بين قبول العرض وعدمه وعلى كل حال، فان القاء القبض على ولده من جهة الاسبان قد ازاح عنه كثيرا من مصاعب القبيلة، فأصبح الاتهام متوجها الى أشخاص آخرين ينافسونه، فكان عليه أن يهتبل الفرص لوضع مركزهم مزعزعا وسط السكان، وكان من رأى الفقيه عبد الكريـــم، أنه قاد السفينة بين الانواء والصخور وأنه قرب أو كاد أن يصل بها الـــى شاطىء النجاة، مما يجعل مخططه يقترب شيئا فشيئا الى تحقيقه وان الظلام الدامس الذى خيم على ذلك المخطط الى ذلك الوقت أصبح ينقشع، ويبدو ضياء الفجر الذى سينير السبيل وان كان يغطى بقشع من السحب الملبدة التى تحجب النظر الى بعيد، ومع ذلك فان اليأس القاتل الذى ران على عقله أخذ ينحسر شيئا فشيئا، وقد خرج بالنتيجة التاليـــة :

1 ــ ان سجن ولده كان خيرا وبركة فى بعض الحالات، ولم يكـــن شؤمـــا كلـــه .

2 ــ وان محاولة هروبه التى خلفت له كسورا فى رجله، حيث عولج بعناية فائقة من طرف الاعداء، يعتبر ارهاصا بأن المخطط يسير الى الامام، ولا يتأخـــر قيـــد انملـــة .

3 ــ فان أنظار المجاهدين التى كانت قد تحولت عنه وتركته وعائلته

قد تسلطت عليه من جديد فى نظرة أخرى، وهى منحه الثقة واسترجاع ما كان ضاع منها .

4 ــ ان هؤلاء الجماعات من الذين اغراهم المال والسلاح، وهم أغرار سيرجعون الى الجادة بوحى من ضميرهم الوطنى .

وعليه، فان مصلحة المخطط أن يدع الوسطاء يعملون لاجل انقاد ولده الاكبر من السجن، لانه وقد استكمل المرامى التى من أجلها وضع موضع المخاطرة، فلم يبق الا أن يرحل الى حيث عرين الاسد للبدء فى المرحلة الشاقة الهامة .

5 ــ انه يعلم فى قرارة نفسه، وبوحى من الحساسية وفراسة المؤمن، ان السيد محمد شراط لم يذهب بالاقتراح الى ولده الا بعد أن اختلى بزوج أخته عبد السلام بورجلة، وان هذا الاخير لم يعط كلمة السر الا حفظا لماء وجه الجيش الاسبانى الذى أصبح تلوك الالسن غدرهم بالرجل الذى يحتل مكان قاضى القضاة، وهو مكان مرموق، فضلا عن وجود أفراد آخرين من العائلة نفسها تحت انظارهم، وفى بلدهم، وان تصرفهم هذا وضعهم موضع نزع الثقة منهم التى عملوا لاكتاسبها طيلة مدة مديدة، لم ينالوا منها الآن الا قسطا ضئيلا جدا عند جماعة لا ترن وزن عائلة الخطابى، رغم الصوائر الباهضة .

وفعلا فقد قر رأيه على أن يوافق على المسعى، وفى الصباح اذن للوسطاء أن يمضوا فى عملهم، فذهبوا توا الى دار السيد عبد السلام بورجلة بزاوية أبيه، فما كان من هذا الا أن حزم أمره للسفر عن طريق جزيرة الحسيمة فى الباخرة قاصدا سبتة، ثم تطوان، حيث دخل على المقيم العام الاسبانى الذى كان أشعر مسبقا من طريق حاكم الجزيرة، وبعد الحوار، قر رأى المقيم العام على القاعدة التالية لاطلاق سراحه :

أولا: ان يحاكم ابن عبد الكريم أمام القضاء العسكرى فى مليلية، الذى يصدر تبرئته بعدما يقدم ابن عبد الكريم ولو شبه اعتذار.

ثانيا: فاذا رغب فى المكوث فى منصبه فى مليلية، فان المقيم العام يرحب به، على أن يتعهد بعدم اثارة المشاكل أمام الجيش الاسبانى فى الريف .

ثالثا: اما اذا رغب فى اللحوق بأجدير بمسقط رأس عائلته، فانه يعطى رهائن ثلاثة من عمومته يمكثون فى مليلية، ولا يتحركون منها، ويوضعون تحت رقابة المخابرات العسكرية، على أن يتعهد بشرفه أن لا يحدث مصاعب امام سياسة اسبانيا ازاء الاهالى فى الريف، وبالاخص أمام الجماعة التى تعتمد عليها هناك، على أن لا يحمل معه أمواله المودعة فى بنك اسبانيا بمليلية، ورجع بورجلة هذا الى أجدير يحمل هذه المقترحات الى الفقيه عبد الكريم الخطابى، الذى أحاله على ولده فى مليلية، قائلا: انه يوافق عليها اذا هو راقته .

وحالما وصل بورجلة الى مليلية، فقد عرض على ابن عبد الكريم مشروع الاتفاق، ووافق حالا على البندين الاول والثالث — أى المحاكمة وبند الرهائن — كما وافق على الشطر الاول من البند الثالث الا أنه تردد فى الشطر الاخير من البند الثالث الذى يتعلق بالتعهد من قبله، وقد عرض عليه أن ينفح ألف ريال شهريا على أن يقبل هذا الجزء من هذا البند، وهو عدم اثارة المشاكل أمام جماعته، وقد وافق ابن عبد الكريم على عدم سحبه لامواله المودعة، ولم يقبل المال .

وضمن هذا الاتفاق فقد ألفت محكمة عسكرية لمحاكمته — ولو صوريا — فحوكم على تهمتين اثنتين: أولهما قيامه بأعمال تخل بالاتفاقيات المعقودة بين اسبانيا وفرنسا، وثانيهما محاولة الفرار من السجن. وقد اندفع الجنرال «الريكارمى» متطوعا للدفاع عن ابن عبد الكريم، فألقى دفاعا أمام القضاء العسكرى، ملقيا اللوم على قيادة الجيش، التى زجت به فى السجن قبل التحقيق، والحال أنه كان يحتل مركزا يجعله فى الحصانة القانونية، وأما عن التهمة الثانية، فان المسؤولية تقع على نفس القيادة اذ تركته فى السجن لمدة طويلة من دون محاكمته، ليعرف مدى المدة التى يقضيها مسجونا ولذا فان اليأس تسرب الى نفسه، وكان لزاما عليه أن يطرق أى حل يبدو متيسرا أمامه، وليس ذلك الا الفرار من السجن.

وعلى ضوء هذا الدفاع أصدرت المحكمة العسكرية تبرئته من التهمتين معا، وصرحت برد الاعتبار اليه كصديق لاسبانيا، حسب حيثيات الحكم، واثر ذلك شرع فى تطبيق البند الخاص بالرهائن، لرغبته ان يلحق

بعائلته بأجدير، وقد وقع الاتفاق بين والده وبين حاكم جزيرة الحسيمة بواسطة عبد السلام بورجلة، على تعيين الاشخاص الآتية أسماؤهم كرهائن فى مليلية وهم :

1) ولد السيد مصطفى أبودرثن، ومما تجب الاشارة اليه أن السيد مصطفى هذا من فخذة ءال زرعة وهى فخدة عبد الكريم .

2) امحند بن حدو ويكنى امغار من عائلة ابن عبد الكريم .

3) شخص آخر ولعله من أولاد حمادى غيابة .

وهكذا سافر الرهائن على متن باخرة البريد الى مليلية، واتصلوا بابن عبد الكريم، والقى اليهم كلمة السر «أن يصبروا فان انقاذهم دين عليه لازم» .

وحين سلمت الرهائن الى حاكم مليلية، رجع ابن عبد الكريم الى عائلته بأجدير، حيث تقاطرت القبيلة لتحمد له السلامة، كما اغتبط والده بجمع شمل العائلة، وعمل هذا الاخير على عقد الزواج لولده على بنت السيد محمد بوجبار من أجدير، وكان السيد عبد السلام بورجلة فى هذه الفترة كثير التردد على ابن عبد الكريم وقد شجعه على الزواج، فكان يوم العرس يوما مشهودا، حضره بورجلة هذا مع أعيان فرقة المرابطين، ومع جماعة أنصاره وقد حمل من الهدايا والذبائح شيئا كثيرا كما تبارى القوم فى اطلاق الطلقات النارية من بنادق (الموزر) الاسبانية التى يتنافس القوم فى اكتسابها وعلى أى حال، فان هذا الحفل خلف تساؤلات كثيرة، وكان سببا لكثير من التفكير الطويل الذى استوحاه موقفان متناقضان :

أولاهما: ظهور سنحة السجن على العريس التى تركته يعرج من رجله اليمنى مع سمنة غير معتادة ووجه وضاء مدور بلحية سوداء فى تفكير عميق، علامة على الاعباء الثقيلة التى توشك أن تقسم ظهر الجمل.

وثانيهما: ظهور موكب جديد من الجماعة الموالية للاسبان أمام الحاضرين من أهالى القبيلة التى حضرت الآن لان تبارك تلك العائلة التى لم يكن ما توسم به الا رجما بالغيب .

وقد جرت هذه التساؤلات الى تفكير آخر فى القضية الكبرى، الا وهى مرامى اسبانيا ازاء الريف فقد بدا للجمهور أن تبختر هؤلاء أمامهم

بهذا الوجه السافر، يعتبر تحديا القبيلة التى كانت بالامس تهرع للجهاد ثم الآن تختلط مع جماعة أخرى وجها لوجه، لا تحـــرك ساكنـــا، اذا ما هو الذى حصل؟ اتمالاءت العائلتان معا على قضية الريف، واقبر الجهاد؟، وفى خضم هذه الهواجس التى لا تخلو من الهمسات بين الزعماء بعضهم البعض.

وعلى كل، فان العريس يجب أن يترك وشأنه لقضاء شهر العسل، بعد طول المحن التى عاركته فصقلته واكتسب مرانا فى مدارس السياســة الاسبانية الملتوية، كما اكتسب خبرة فى مهامه الصحفية التى كانت تصلــه بوصفه ذلك، صحف المشرق العربى التى كانت تلهب حماسا عقب الحرب العظمى التى أعقبتها تلك الحركات المولدة لمطامــح الحرية فى الشعــوب التى احتكت بعواقب تلك الحرب، فهذه الجزيرة العربية تحت قيادة الشريف حسين الهاشمى تحبر احتجاجا تلو الآخر لدى الانجليز، الذين غــدروا بوعودهم المبذولة سخية من قبلهم، للشريف حسين وللعرب أجمعين، ابان المعامع لاستقلال البلاد العربية من الخليج الى قناة السويس.

وهذه تركيا الفتاة، تنهض بقيادة مصطفى كمال، بعد الهزيمــة التى منى بها الباب العالى.

وهذه مصر تحضن أمثال سعد زغلول، زعيم حزب الوفد والتى انجبت جمال الدين الافغانى ومحمد رشيد رضى تحمل أفكارهم العامة، مجلة العروة الوثقى، وجريدة المنار، الملتهبتان حماسا، هذا من جهة ومن جهة أخرى، فان ابن عبد الكريم بفضل مركزه الاجتماعى والسياسى وبفضل اتقانه للغة الاسبانية، كان يعرف ما يجرى فى مدريد بين المؤيدين لمواصلة الحرب فى الشمال والمعارضين لغزو تلك الاصقاع التى لا تأتى بربــح كبير بالنسبة للدماء الاسبانية التى تسيل هناك بغزارة، وقد رجع بذلــك من مليلية بغير الافكار التى رجع بها من فاس قبل ذلك، كما رجع أخوه السيد محمد الخطابى من مدريد باستدعاء من أبيه بدعوى حضور حفلــة زفاف أخيه الاكبر، وكما رجع عمهما من جزيرة الحسيمة، وقطع الجميع صلته مع الاسبان.

وفى هذه الاثناء كان الجيش الاسبانى المعسكر فى قبيلة قلعيــة التى خاضت معه ما ينيف عن مائة معركة برئاسة البطل الخالل الشريف

سيدى محمد أمزيـــان، والتى ابتدأت عام 1908 م. حيث قاد الجنـــرال «مارينـــا» حاكم مليلية المجندين الاسبانيين، فكبده المجاهدون هزيمـــة منكرة، قتل فيها من جملة من قتل الجنرالال «بينيطو، وفكرنو»، وعندما وصلت التعزيزات العسكرية من اسبانيا قام الريفيون فى كمين بسحـــق قافلة عسكرية عندما قام الكرونيل «بريمو ذى الرفيرا» بهجوم مضـــاد برى، ثم قام الجنرال مرينا بعدما وصلت التعزيزات الاسبانية بهجـــوم بجيش قوامه 40 ألف مقاتل مما اضطر المجاهدين الى التقهقر .

وكانت من أشهر تلك المعارك الدامية، هى معركة الديوانة ــ معركة احد بنى شيكار ــ معركة مرسى اركمام بكبدانة ــ معركـــة تنكمارت ــ معركة سلوان ــ معركة اسغنغان ــ معركة ازرورا ــ معركة ازروهمار ــ معركة الحمام ــ معركة وادى الكرت وأخيرا معركة تكرمـــين، وهى التى استشهد فيها سيدى محمد أمزيان، لما كان يخوض المعركة على جـــواده الازرق، وقد كلفت هذه المعارك اسبانيا ما يفوق عن مائة مليون بسيطـــة انتى تعد أضخـــم ميزانية حربيـــة فى ذلـــك الوقت، وقد ترتب عن ذلـــك هيجان (1) فى اسبانيا، نجم عنه اسقاط الحكومة الاسبانية، ولما خلفتهـــا حكومة أخرى وأطلعت على التكاليف الباهضـــة، أمرت بتجميد القتـــال فى الريف، نظرا لاقتناعها، بأن الارياف مقاتلون مغاور، لا يحتقرون فى ميادين المعارك، وقد عمد العدو بعد استشهاد هذا المجاهد البطل الى وقف القتال، معتمدا على أسلوب المراوغة واختلاس احتلال المراكز خفية وبدون ضجة، مع فتح الابواب الى الاهالى ليغدوا ويروحوا الى مليلية من دون رقابـــة تأنيسا لهم مع الفوائد المادية التى يدفعها بسخاء، فكان يرسل ثلة مـــن الجنود لاحتلال الموقع الذى يقرب الى معسكره، وعندما يهدأ الامر ينتقل الى مركز آخر بمعنى أنه ارتكب السطو على المراكز واحدا فواحدا، الى أن وصل الى تفرسيت، وهى قرية تعتبر عنق القنينة بالنسبة لكونها صلـــة

---

(1) وهو الهيجان الذى يسمى بأسبوع برشلونة الدامى الواقع فى بحـــر عام 1909 والذى ترتب عنه سقوط حكومة ماورة وصعود لموريـــط زعيم المعارضة الى رياسة الحكومة الاسبانية .

الوصل بين قبائل شتى، فشرقا توجد قبيلة مطالسة، وجزء من قبيلة بنى وليشك، وشمالا يوجد الجزء الآخر من هذه القبيلة بنى سعيد، وغربا توجد قبيلة تمسامان بجبالها العاتية، وجنوبا قبيلة بنى توزين التى تشرف بقمم هضابها عليها، بينما تحتضن عينا معينا من الماء يندفع من الاخدود، اندفاع الشلال، مما كسب لارضها خصبا تحولت الى جنات من عنب وزيتون وفواكه .

ولما وصل الى هذه القرية جمد حركاته منتظرا انفرص التى تسنح لكى يتحرك من جديد، لاستيصال البقية من القبائل، فى انتظار أمر حكام جزيرة الحسيمة التى تعد القبائل التى لم تحتل بعده من مشمولات سياستها العامة .

وفى غضون هذا الانتظار حدث حادث أقام الجيش الاسبانى وأقعده، ذلك أن زعماء قبيلة بنى وريا غل، قد استفزهم التعاظم الذى أظهره جماعة المتعاونين انطلاقا من حفلة عرس ابن عبد الكريم، فقد جعلوا ديدنهم أن يتنقلوا من قرية الى قرية، حيث يحلون على أصدقائهم الذين يعدون لهم الولائم الغير المألوفة لدى الاهالى، فيعمدون الى شراء الدجاج من الارامل والمعوزين، وقد سارت لدى الاهالى حفلات هذه الجماعه مضرب الامثال، وكانوا يكونون فى السوق الذين يؤمونه محط أنظار الاهالى، أما باحتقار من طرف المجاهدين، وأما بالتعظيم من طرف أصدقائهم المنضوين تحت لواء الريالات المغدقة عليهم .

وهكذا أتاحوا الفرصة لخصومهم وعلى رأسهم الفقيه عبد الكريم، فحزموا أمرهم لجمع شتات القبيلة من جديد بعد ما كانوا فقدوا البطل القاضى سى محمد العزوزى قبل ذلك، والذى ذهب ضحية عمله المتواصل للم ذلك الشتات ضد الغزاة، كما سيأتى :

وفى ذات أسبوع نمى الى زعماء القبيلة أن تلك الجماعة ستذهب الى سوق احد المرابطين بوادى تيسر، الذى كان يعد سوقا تحت سيطرة حمو بن الحاج عيسى من زاوية سيدى عيسى، وفضلا عمن ذكر، فان الجماعة كانت تتكون من موح اقزن لقبا، وموح بن علوش اقيعان، وعبد العزيز بن موح موحند، وحمادى بن عمر ابقيوى، وقد باتوا ليلة

الأحد بدار حمو بن الحاج عيسى وأبلغهم بعض أصدقائهم أن يتخلوا عن فكرة الذهاب فى غده الى السوق، لأن القبيلة لهم بالمرصاد، فأبى حمو بن الحاج عيسى أن يذعن لهذا التهديد، واعتبره تحديا له فى سوقه الخاص به، وحلف ليرد السوق مهما كانت النتيجة .

وقد تصدى لهم فى السوق جمهور الحاضرين تحت رياسة شعيب بن حمو الطاعى البوعياشى وعمر بن حمادى من آل امحند ايحيا، والسيد امحند اكروح، واستنفروا كل من فى السوق، وعندما انحدروا المنحدر الذى يصل الى الوادى، كانت جماعة المجاهدين قد استعدوا محتمين تحت اعشاب الغابات فما أن وصلوا على حافة الوادى حتى انهال عليهم الرصاص من كل جهة، فاندفعوا الى خربة بمقربتهم ينادون بكلمة العفو العفو، ولكن كان غضب الجماهير قد بلغ منتهاه، فلم يكن فى مقدور أحد أن يرحمهم، بل هرعوا جميعا لرميهم بالحجارة فى الخربة التى سقطوا فيها للاجهاز عليهم، وكان الواحد منهم اذا رمى بحجر عليهم يردفه بقوله: خذ هذه الرجلة من لحم الدجاج، أو هذه الصدرة ايها الصديق، ذلك تعريض بما كان يشاع عليهم من اختيار الدجاج فى حفلاتهم .

وبهذه المذبحة سقط فى ايدى الاسبان، كما سقط فى أيدى انصارهم، وقد كان حاكم جزيرة الحسيمة الذى كان يدعى «سيبانطو»، وكان برتبة كرونيل يساعده فى القسم السياسى ضابط برتبة كبطان يدعى «كنديدو»، وكان هذا الاخير يعرف اللسان المحلى كأحد أبناء الريف، وظف لهم مبلغ ثمانية آلاف ريال أسبانى شهريا، يوزعه على من يسير فى ركابه .

وقد تمكنت هذه الجماعة من استمالة جمع من زعماء القبيلة على النحو التالى :

ـ من فرقة المرابطين : حمادى بن الحاج شعيب وشعيب بن الحاج التهامى وسليمان أوراغ .

ـ ومن بنى عبد الله: عمر بن السمحند من تزاغن وغيره .

ـ ومن بنى بوعياش: موح أزرقان وحمادى مونة وسلام محمادى وموح بن حميش اصوفى وتهامى بن شعيب .

ـ ومن آيت على: امحند بن الحاج محمد ؛

ـ ومن آيت يوسف وعلى: الحاج محمد شدى وموح ابقوى والقائد السيد بوبكر .

ـ ومن بقيوة السى بيرا والسيد دادى بن حدو بن على وعبد الرحمن اطليلح وامحند بن الجيلالى وعلى بن الحاج التهامى .

ـ ومن بنى حديفة: روحند وعمر بن صديق وبو السندروس .

وبعد مذبحة سوق احد المرابطين، انكمش هؤلاء وقبعوا فى ديارهم محتمين بعصبية أقاربهم الخاصة، ينتظرون الدور المؤلم من غضبة الجماهير، ولكن الفقيه عبد الكريم أتجه بهذه الجماهير اتجاها آخر حتى لا تتحرك الضغائن الدموية مع أبناء جلدتهم .

وذلك انه بعد هذه الحادثة انقطع تظاهر اتباعهم فى الاسواق والقرى، فدعا القبيلة الى عقد مؤتمر باربعاء سيدى بوعفيف، وقد تقاطر الناس لسماع كلمة الاشارة التى سيتوجه بها الفقيه عبد الكريم اليهم اثر مرحلة الانتصار على جماعة جزيرة الحسيمة، وقد كانوا يظنون أن المرحلة الاخرى هى استئصال البقية الباقية، الا أنه لم يقتنع بهذا التفكير، بل وجههم وجهة أخرى وهى تجهيز الحملة الى العدو بتفرسيت التى لم يبق له الا مرحلة أو مرحلتان يقطعها، فاذا هو بسهول نهرى النكور وغيس، قائلا لهم ان العدو يسر كثيرا اذا نحن اشتغل بعضنا ببعض، وعليه، فان الآكد هو تولى وجهتنا اليه، وقد وجه نداءا اليهم بأن يقلعوا على صنيعهم ويلتفوا حول اخوانهم ووجد نداؤه آذانا مصغية، فجهز حملة توجه بها الى تفرسيت فعسكر على مشارف القرية من قبيلة تمسامان وبث قومه بين الشعاب والوديان، الا أنه لم يطل به المقام، فسقط مريضا، ويقال بأنه بفعل سم دس له فى طعام عند الشخص المدعو عبد السلام التفرسيتى، بايعاز من قيادة الجيش الاسبانى بتفرسيت، وجل من تحدث الى على ذلك لا يستبعدون ذلك، بل يؤكدونه، نظرا لان هذه الخديعة من الاغتيالات كان الاسبان يركنون اليها، ومن قبل حادثة سم الفقيه السيد عبد الكريم بنحو ثلاث سنوات، كانوا قد عمدوا الى اغتيال بطل آخر من نوع السيد عبد الكريم، وهو القاضى السيد محمد العزوزى، الذى ذهب ضحية اغتيال

باطلاق رصاصة من أحد أفراد عمومته الذين رشتهم قيادة جزيرة الحسيمة كمـــا أسلفنـــا .

وعلى كل، فان كل ما يقال عن هذه الجماعة التى سقطت فى الفخ ، انهم حدعوا للفراغ الذى كان موجودا فى هذه الجهة، والا فان الذين بقوا فى الحياة منهم أبلوا البلاء الحسن فى الجهاد، واستشهد من استشهد منهم رحمهم الله، فكانوا مثالا للوطنية الصادقة، والمجاهدين الابرار، وخلفـــوا ذرية لا يزالون يعملون فى الحقل الوطنى، حفظهم الله .

الوســـط الطبيعى والتاريخى لارضيـــة المعركـــة

قبل أن نتابع تحليل الاساليب الاستعمارية، التى دفعت اسبانيا، كدولة أوربية استعمارية الى غزو الشمـــال .

وقبل استقصاء أحداث المعارك التى جرت على الجبهات الاربـــع: جبهة كرط، جبهة الجبالة، جبهة ورغة، جبهة الحسيمة، يجدر بنا القـــاء ضوء ولو على الاجمال، على أرضية تلك البطولات، وصلا لحلقات حياتهـــا التاريخية، والحضارية، والاجتماعية، لكى يتسنى للقارىء أن يتعرف على تلك الاصقـــاع، التى قامت بواجب الجهاد، لحفظ الوحدة الوطنية عبـــر التـــاريـــخ .

ويعتبر هذا الفصل وما بعده مدخلا للأبحاث، التى تدور حول حـــرب الريـــف .

الوسـط التـاريخى والطبيعى لارضيـة المعركـة

الـريـــف :

ان حوضا منبسطا ما بين غمارة غربا وهضاب نهر ملوية شرقـا امتدادا على ساحل البحر الابيض المتوسط شمـالا ومشرفا على عتبـة تازة وسهل مسون جنوبا هو الذى يدعى بالريف، وفى فترات من التاريخ كان يدعى بالنكور، تسمية له باسم عاصمة امارته «مدينة النكور» وقـد حدد بالضبط لدى ابن خلدون بهذه الحدود كما فى بحثنا حول هذه المدينة، والتى نعيد نشره هنا توحيدا لمظان البحث من جهة وتجديد الطبع لها بعد نفاذ الطبعة الاولى من جهة أخـرى .

وحسب هذا التحديد، فانه يشمل قبائـل الريف الخالصة التى تستعمل اللهجات الريفية كلغة تخاطب، لا لغة كتابة أو تعلم، التى هى اللغة العربية الفصحى والتى يبرع فيها أبناؤه براعة، وهذه القبائل تبلـغ نيفا وعشرين قبيلة، منها ابتداء من الشرق بنى يزناسن ـ كبدانـة ـ قلعية ـ أولاد ستوت ـ بنى بويحيى ـ مطالسة ـ بنى سعيد الريفية ـ بنى ولشك ـ تفرسيت ـ تمسامـان ـ بنى توزين ـ كزنايـة ـ وهى قبائل بطيوة التى قال عنها صاحب المقصد الشريف (1) فى التعريف بصلحاء الريف: وقبائل بطيوة هم من وادى النكور من حوز المزمة الى وادى ملوية، وهذا هو الذى فى المعجب (2) أيضا اذ قـال فى صدد محمد ابن ادريس الملقب بالمستعلى بالله انه لما طرده بادس ابن حبوس عن مالقة عام 449 هـ. انتقل الى مليلية وبايعه شعب بطيوة (3) .

---

(1) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت عدد 110 قرأها ناسخها على مؤلفه، ومخطوط كان من ممتلكات الفقيه العلامـة السيد الحـاج احمد الرهونى وقد تبرع به قبل وفاته على خزانة تطوان .

(2) صحيفـة 68ـ204 .

(3) من برابرة زناتة حسبما فى روضة النسين فى دولة بنى مرين ص 5.

هجرة قبائل زناتـــة الى الريـــف :

وقد اختلط بهم قبائل من زناتة هاجروا اليها من المغرب الاوسط نتيجة انتهاء ملكهم بموت الكاهنة داهيـــة التى تملكت جبـــال أوراس، وكانت لها وقائع مع الفاتحين العرب، ففى ابن خلدون :

وافترق جراوة أوزاعا بين قبائل البربر، وكان منهم قوم بساحل مليلية، وكانوا آثر بين جيرانهم واليهم ابن أبى العيش لما غلبـــه موسى بن أبى العافية على سلطانه بتلمسان، أول المائـــة الرابعة (الهجريـــة) ، حسبما نذكر، فنزل عليهم وبنى القلعة بينهم الى أن خربت بعد ذلك .

«والفـــل منهم بذلك الوطن الى الآن لهذا العهد مندرجون فـــى يطوفت ومن اليهم من قبائل غمارة» (1) .

ولا زالت قبيلة بنى توزين تحتفظ الى الآن باسم أحد بطـــون زناتة مع تحريف فى حرف الجيم لقرب مخرجه من حرف الزاى، ويدعى هذ البطن من زناتة «ببنى توجين»، وهم أخوة بنى عبد الواد، ينتسبون الى بنى بادن بن محمد، وهم من قبائل بنى واسن التى كانت تسكـــن ضفاف ملويـــة، ففى ابن خلدون (2) «فذكر فيهم من كان على ملـــويـــة وصـــا (3) .

---

(1) صحيفة 18ـــج ـــ31 طبعة دار الكتاب اللبنانى .
(2) الجـــزء 31ـــص ـــ121 طبعة دار الكتاب اللبنـــانى .
(3) وادى صا (زا) شرقى توريرت يصب فى ملوية عند المحل الذى يعرف الآن بملتقى الوديان، توريرت هذه هى الآن مدينة عصرية وكانت قديما قصبة بناها السلطان يوسف المرينى، ففى الاستقصاء ـــ ج ـــ ث ـــ ص ـــ 76 وقد كانت تخما لبنى مرين وبنى عبد الواد (يعنى التلمسانيين) فنصفها للسلطان يوسف (المرينى) ونصفها لعثمـــان بن يغمراسن، ولكـــل واحد منهما عامل من ناحيتـــه، وفى سنة 694 هـ. خـــرج السلطان يوسف لغزو تلمسان فطرد عامل ابن يغمراسن وشـــرع فى بناء الحصن الذى هناك، فأدار سوره وشيده وركب أبوابه مصفحة بالحديد، وكان يقف على بنائه بنفسه من صلاة الغداة الى المســـاء،

من قبائـــل بنى واســـين» فذكـــر منهم بنى واسن، لان تلـــك المواطـــن هى مواطنهم قبل الملك، وفى هذه الطبقة منهم بطون، فمنهم بنو حريـــن وهم أكثرهم عددا وأقواهم سلطانا وملكا وأعظمهم دولة، ومنهم بنـــو عبد الواد يتاونهم فى الكثرة والقوة، وبنـــو توجين من بعدهم كذلك .

أما القبائل الريفية الاخرى وهى بنو ورياغـــل وبقيوة ــ وبنـــو يطفت ــ وبنو بويفرح ــ وبنو اكميل ــ ومسطاسة ــ ومتيوة الريـــف ــ وتركيست ــ وبنو عمرت ــ وبنو مزدوى ــ وزرقـــلت ــ وتعزويـــت ــ وبنو احمد ــ وكتامة فهى قبائل صنهاجة، وقد اختلط بهم زناتة أيضا لما تقدم عن ابن خلدون، فقد جاء عن المقصد الشريف، قوله غاب عن بلد بقيوة سائحا فى جبال صنهاجة من حوز بادس فمات فى جبل ببنى كميل وفى موضع آخر وقد قدم علينا رجل أحمق من بنى جميل من صنهاجة بادس .

الا أنه مما يلاحظ أن سكان ضفاف وادى النكور من العدوتين قـــد يسمون ببطيوة، فمثلا توجد حومة بمدشر اغميرا يدعون بطيـــوة الى الآن وهـــم فى قلب قبيلة بنى بوعيـــاش من بنى ورياغـــل قـــرب مدينـــة النكـــور التاريخية .

وهذا الاطلاق الذى عبر عنه المؤرخون الاقدمون، كابن خلـــدون والبكرى هو الذى كان يعرف بامارة النكور، وهو ما يعرف الآن بالريف، وهو يشمل اقليمين اثنين كاملـــين: هما اقليم الناظور واقليم الحسيمـــة ويشمل اجزاء من اقليمى تازة ووجدة، أما اقليم الناظور، فكان يسمى فى الاصطلاح الادارى أيام الاستعمار، بمقاطعة كرط، باسم الوادى الذى يخترق قبائل بنى توزين وبنى سعيد وقلعيـــة .

واقليم الحسيمة كان يسمى مقاطعة الريف، نظرا لوجود القبائل الريفية الخالصة وهى قبائل صنهاجـــة بادس على ما فى كتب التاريـــخ،

لا يغيب عن العملة الا فى أوقات الضرورة، وفرغ من بنائه وتحصينه فى رمضان من السنة المذكورة ولما تم شحنه بالعسكر والسلاح وعقد عليه لاخيـــه أبى بكر بن يعقـــوب وكنى أبا يحيى وانكفـــأ راجعـــا الـــى الحاضـــرة .

أما وجه التسمية بالريف، فقد قيل أن العرب الذين نزلوا بهذه الجهة سألوا زعيمهم أين يستقرون، فقال لهم ريفوا هنا ـ أى أرعوا غنمكم ريفا (1).

الاطلاق الثانى :

على أن كتب التاريخ المتداولة أيضا تطلق الريف على ما يشمل القبائل من مدينة سبتة وطنجة غربا وتلمسان شرقا، فتشمل أراضى سلسلة جبال الريف الممتدة على شكل قوس بساحل البحر الابيض المتوسط، والمشرفة عليه مباشرة، ففى المقصد الشريف قال: ثم أن الاديب المحقق المتفنن أبا الحجاج يوسف ابن الزيات أتى فى كتابه الموسم بالتشوف الى رجال التصوف، بآيات، وذكر أن الحامل على تأليف ذلك الكتاب ما أهمله من تقدم من المصنفين والكتاب من ذكر صلحاء المغرب الاقصى الى أن قال وبالغ فى ذكر المصامدة مظهر الكل شيخ محاسنه ومحامده، ولم يعرج فى تلك الاحياء عن ذكر احد من الاحياء، وغفل فيما آثر له من الحسن والاحسان عن الريف الكائن ما بين مدينتى سبتة وتلمسان، وهذا الاطلاق الثانى هو الذى تضافر عليه المؤرخون، كالاستقصا والمعجب اللذين يتعمدان تسمية دولة الادارسة بالبصرة بأنها دولة ريفية، فكلاهما قال الخبر عن دولة الادارسة الثالثة بالريف، وفى مكان آخر من الاستقصاء بصريح العبارة، حيث قال الريف البحرى كله من عمل عمر من تيكساس، وبلاد غمارة الى سبتة ثم طنجة .

وهذا الاطلاق الثانى هو الذى يوافق ما يعبر عنه جغرافيا بسلسلة جبال الريف، لان سكان هذه السلسلة امتزجوا ووحدت بينهم الطبيعة والاخلاق والبيئة والتناسل أيضا، فهم لحمة واحدة .

وعليه، فانه يزاد على القبائل الآنفة الذكر قبائل غمارة التى هى قبيلة بنى اسميح وقبيلة بنى اكرير ـ قبيلة بنى رزين ـ قبيلة بنى خالد ـ قبيلة بنى سلمان ـ قبيلة بنى منصور ـ قبيلة بنى زجل ـ قبيلة بنى زيات .

---

(1) المنجد فى مادة ريف قال «رافت الماشية» رعت الريف .

وقبائل جبالة وهى: قبيلة بنى سعيد وادلو ـ قبيلة بنى حسان ـ قبيلة بنى ليث ـ قبيلة بنى حزمر ـ قبيلة بنى يدر ـ قبيلة الاخماس العليا ـ قبيلة الاخماس السفلى ـ قبيلة بنى احمد ـ قبيلة حوز تطوان ـ قبيلة أنجرة ـ قبيلة بنى عروس ـ قبيلة وادراس ـ قبيلة بنى مصور ـ قبيلة فحص طنجة ـ قبيلة الغربية ـ قبيلة البدور ـ قبيلة الخلوط ـ قبيلة سماتة ـ قبيلة بنى كرفط ـ قبيلة آل سريف ـ قبيلة بنى يسف ـ قبيلة بنى زكار ـ قبيلة اغزاوة، وكذلك قبائل شمالى نهر ورغة.

اقليم الحسيمة :

كلمة الحسيمة هى اسم لمدينة الحسيمة وانما سمى الاقليم بها من باب تسمية الكل بالجزء المهم، وذلك لان هذه المدينة هى مركز الاقليم وعاصمته .

والكلمة حديثة الوضع حدوث المدينة نفسها، فقد أسست المدينة عند احتلال الاسبان لهذا الموقع فى الغزوة الكبرى التى غزوا بها هذه الجهة فى الحملة الصليبية التى شنها الاسبان والفرنسيون تحت قيادة الجنرال الاسبانى «سان خورخو» والتى شاركت فيها ما يزيد على مائة بارجة حربية مختلطة، لما انهكت كلا من الدولتين الحرب التحريرية الريفية فتوحدت كلمة المسيحية وانزلت قوتها بموضع الحسيمة فى تاريخ 8 غشت سنة 1925 م.

موضع المدينة ووجه التسمية :

وقبل الاحتلال كان الموضع رمالا رقيقة تدعى عند الاهالى «بتجذيت» (وهى اسم للرمال الرقيقة باللسان المحلى الريفى)، وهذا المحل لم يكن موضع مدينة ولا كانت فيه اطلال، بل كان ملكا جله الاكبر لرجال بقيوة من دشرة تيغنمين واجدر عياش، والبعض الآخر كان لاهالى أجدير من بنى وریاغل، وكان المالكون يزرعونه بالخضراوات الى حدود سنة 1925 م. والى حد الآن تسمع النساء وكذلك الرجال الطاعنون فى السن ينادى بعضهم البعض هلم بنا الى تجذيت أو قد جئت من تجذيت الى غير ذلك، وقد احتل الاسبان أول ما احتلوا فى هذه الجهة هذا الموقع، حيث نزلوا برأس سيدى عابد بمحل سموه «سابادیا» ولا زالت أرقام

التاريخ موجودة فى هيكل بنائى محاط بسلسلة ضخمة من حديد تخليدا لهذه الغزوة الاستعمارية، ولا أدرى ما وجه الاحتفاظ عليه .

ومما يلاحظ أن الاسم تغير مرات عديدة فى عهد الحماية، فعند انزال الحملة والقيام بتأسيس المدينة وضع لها الغزاة العسكريون اسم «بياسان خورخو» تخليدا لذكرى الغازى، وعندما قامت الجمهورية باسبانيا سميت «بيا لوسيماس» وعند قيام الحركة الوطنية الاسبانية بقيادة الجنرال فرانكو سميت بالاسم الاول، وبقيت كذلك الى أن وقع استقلال المغرب حيث رجعت الى الاسم الثانى، مع تغيير فى الكلمة، لتوافق العربية، فسميت بالحسيمة، وذلك فى أول زيارة قام بها رئيس الحكومة المستقلة امبارك البكاى، وخطب الاستاذ عبد الخالق الطريس معلنا محو الاسم العسكرى، كما محى اسم ميناء اليوطى عن القنيطرة، ومناء كباس عن قلاع بادس ببنى بويفرح .

أما الحسيمة، فانه مأخود من كلمة لوسيماس وهى اسم فى الاصل للنبات المعروف «بالخزامى» وهو نبات قال المنجد العربى «زهره أطيب الازهار» وفى كتاب التداوى بالاعشاب: عشبة يبلغ ارتفاعها 30—60 سنتيمترا كثير الفروع المنتصبة الى الاعلى أوراقها طويلة مستطيلة ملساء غير مسننة ازهارها عطرية الرائحة مرة المذاق زرقاء اللون بمجموعات كالسنابيل «تستعمل فى التطييب» وفى المنجد الاسبانى طبعة 1955 صفحتى 68—510 ما يلى :

> ALHUCEMA Espliego-Mata labiada, muy aroma tica de flores ozules, de las cuales se extrae un aceite esencial muy usado en perfumeria.

وقد كان الاسبان يطلقون هذا الاسم على جزيرة النكور، حيث تكثر هذه الاعشاب فى سواحلها على الشاطىء المقابل لها، كما كانوا يطلقون على جزيرة بادس «لا بنيون» .

ولما احتلوا محل الحسيمة سموها بلوسيماس، وبعد الاستقلال عرب الاسم الى الحسيمة .

ومن هذا البيان يتضح أن من يجعل اسم الحسيمة محرفا عن اسم المزمة الذى هو اسم للمدينة التاريخية، انما نشأ ذلك عن غلط فى

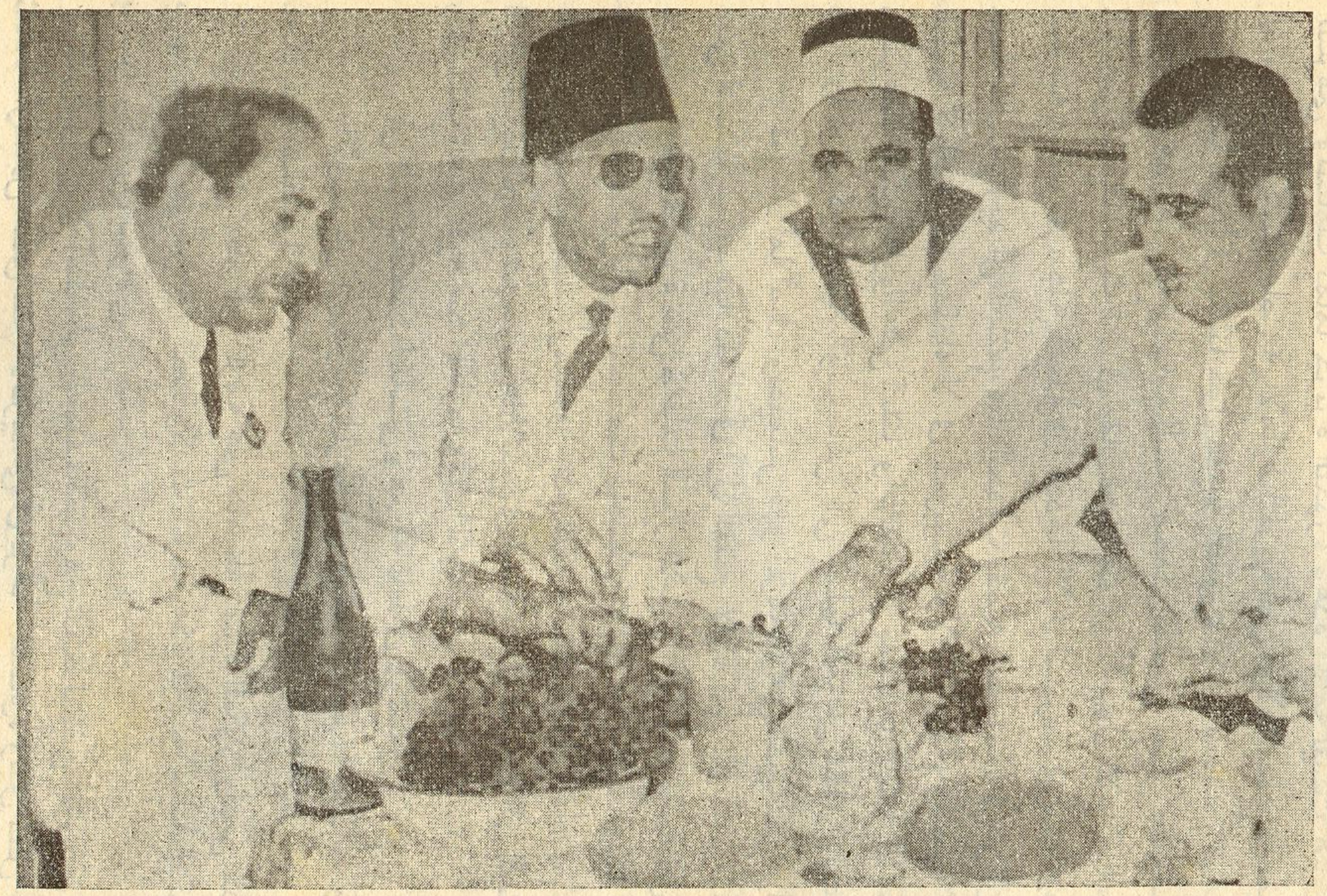

الصورة تمثل المرشال أمزيان، ورئيس الحكومة الاولى المستقلة امبارك المبكاى، والقيم على الشمال الاستاذ عبد الخالق الطريس، وبينهما قاضى بنى وريا غل مؤلف الكتاب، فى أول زيارة قاموا بها الى الحسيمة سنة 1956.

الموقعين، فمدينة المزمة موضعها حيث الآن نادى البحر الابيض المتوسط بالذات، وهى بعيدة عن الحسيمة بحوالى 11 كيلو ميترات على الجنوب الشرقى وتسامت تماما جزيرة النكور، وهذه المزمة ليست هى مدينة النكور التى كانت عاصمة الامارة العربية من أولاد صالح الحميريين، وقد فصلنا أمرها فى بحثنا حول مدينة النكور، الآتى بعده .

وهذا ما وقع بالذات للسيد محمد الفاسى عميد جامعة محمد الخامس سابقا، حيث قال فى مقال تحت عنوان «أصول الاعلام الجغرافية المغربية» نشرته مجلة البينة فى عددها الاول لشهر مای سنة 1962 م. حيث قال «وأريد أن أختتم هذا الحديث بقصة الحسيمة، وهى أن هذه اللفظة لا أصل لها مطلقا، لا فى العربية ولا البربرية، وانما هى من مخترعات الذين غاروا على لغتنا واعلامنا أن تفسدها الكنة الاعجمية، فارادوا ان يردوا لفظة الوسيماس الى أصلها العربى فقالوا الحسيمة».

ثم قال أما أصل اوسيماس فهو المزمة، وهى مدينة من أولى المدن التى أسسها العرب ببلادنا اذ فى أول الفتح الاسلامى تكونت قبل كل دولة عربية امارات صغيرة على ضفاف البحر الابيض المتوسط كانت من جملتها امارة بنى منصور التى اتخذت عاصمتها مدينة المزمة، ولما اتصل الاسبان بهذه الفرضات وسمعوا هذه اللفظة نطقوها على عادتهم فى نطق الزاى سينا المزمة، ثم حرفوها لاسباب لغوية يطول شرحها الى الوسيماس وكل كتب الجغرافية عند المغاربة وكل المؤرخين يسمونها المزمة .

ان السيد محمد الفاسى وقع له غلط فى موضعين :

الاول: ظن أن موقع المزمة هو موقع الحسيمة بالذات وليس كذلك كما أسلفنا .

الثانى: ظن أن المزمة هى عاصمة امارة النكور وليس كذلك، بل بينها مسافة حوالى 15 كلم، وكانت المزمة هذه فرضة لمدينة النكور منها يوسق محصول سواقى المزمة .

وانى لا آخذ على العميد، فقد وقع الغلط لبعض المؤرخين كالامير شكيب أرسلان الذى تبع الادريسى فى نزهة المشتاق، ولكن نحن الذين نعيش كلمات الاهالى ونعرف اطلاق الاسماء على المواضع والمدن

والسواقى الموروثة أبا عن جد، نعرف بالضبط الفرق الدقيق، أما قوله أن لفظة الوسيماس لا أصل لها مطلقا لا فى العربية ولا فى البربرية، فهو صحيح بالنسبة للعربية .

تقع مدينة الحسيمة فى درجة 3 غرب خط كرنيش من خطوط الطول، و23 درجة من خطوط العرض شمال خط الاستواء، ولذا فهى فى صميم الاقليم الرابع حيث الهواء معتدل والتربة خصبة والفصول متساوية سليمة من العوارض، وهى محفوظة من الارياح العكسية بهضبات حجرية تحوط بها من جميع جهاتها، فمن الشمال، تعلوها هضبة سيدى عابد التى تحرسها من هناك، ومن الغرب تحفظها جبال بقيوة العاتية المتصلة الامتداد الى سهول بنى بويفرح القصيرة، ومن الجنوب تحرسها هضبات أجدير المترادفة ذات الرؤوس الحادة الصلبة التى تخللها شعاب ضيقة تنساب فى انحدار الى البحر، أما من الشرق فهناك تنفرج عنها لتطل على خليج الحسيمة الذى ينبسط أمامها بعد أن تحرسها منه تلك الحافات الشاهقة من الصلب الجيرى الغائض فى مياه الخليج، وبينما تكون حاجزا مروعا تلتطم عندها الامواج، فمن حافات بوسكور الى حافات سيدى العابد وحافات الرأس القديم ثم حافات أجدير اذ بها تلتقى بمنبسط فسيح خصيب ذى تربة ثرية لا أثر للاحجار فيها تسقيها سواقى وادى غيس والنكور، حيث يبتدأ فجأة من سهول أجدير من موقع المدينة التاريخية المزمة الذى تطل عليه جزيرة النكور، كبارجة حربية راسية أمام ذلك المنبسط، ويمتد الى السوانى بتمسامان حيث ينتهى برأس سيدى شعيب ـ رأس كيلاطس ـ .

ولا يرتفع هذا المنبسط عن الماء الا قليلا، وذلك ما دعى علماء الجيلوجية الى القول بأنه فى فترة من الفترات الجيلوجية لطبقات الارض كان البحر يمتد الى هضاب أمزورن، ثم انحسرت عنه بفعل التقلبات.

وهذا التقدير قريب الى الحق، لان الذين يبحثون عن منابع الماء فى تلك الجهات لا يعثرون عن حجر ما، بل الارض طبقات من طين تكونت من رسوبات للطمى الذى تحمله السيول الهابطة من سلسلة جبال حمام وكزنايه وبنى توزين وغيرها .

حضارات تاريخيـــة عبـــر شواطىء الريـــف :

مدينة النكـــور تمهيـــــد : (1)

يطلق بلد النكور فى كتب التاريخ على الحوض المعروف الآن بالريف، ويمتد على الشاطىء الجنوبى للبحر الابيض المتوسط فيما بين قبيلـــة بنى يزناسن شرقا وغمارة غربا، ويحد جنوبا بورغة وحدده البكرى (2) فى مؤلفه المسمى المسالك (3) والممالك الذى ألفه حوالى عام 460 هـ. كما يأتى : «ذكر بلاد النكور وحده ينتهى من جانب الشرق الى زواغة جراوه الحسن ابن أبى العيش ويجاورهم من هاهنا مطماطة وأهل كبدان وينتهى من جانب الغرب الى قبيل من غمارة يعرفون ببنى مروان وبنى حميد ، اليهم تنسب الحميدية والى مسطاسة وصنهاجة ومن ورائهم اوربة حزب فرحون وبنى وليد وزناتة أهل تاجريد أو بنو مرسن حزب قاسم صاحـــب صاع والكدية المعروفة بتاوريرت» (4) .

ولا يخفى أن أهل كبدان هم قبيلة كبدانة وهـــم متصلون شرقـــا بقبيلة بنى يزناسن، وأما مطماطة، فهى قبائل تحـــد كزناية وهى الحـــد

---

(1) هذا هو الجزء الاول من البحث الذى كنا نشرناه تحت عنوان «الريف بعد الفتح الاسلامى» والجزء الثانى نشرناه عند الكلام على مدينـــة سبتة. (2) هو الوزير عبد الله بن عبد العزيز بن ابى مصعب البكرى ويعرف بابى عبيد توفى سنة 487 هـ. موافق 1094 م. (3) وصف فيه افريقيا الشمالية فى عهده وصفا دقيقا وخصوصا شواطىء البحر الابيض المتوسط، ألفه حوالى 460 هـ. وطبع بالجزائر عام 1274 هـ. موافق سنة 1857 م. وله عدا ذلك كتاب (المغرب) ـبضم الميمـ فى ذكر بلاد افريقيا والمغـــرب ـبفتح الميمـ ويعتبـــر جزءا من كتاب المسالك والممالك. (4) صحيفة 86 .

جنوبا الريف وقلوع جارة هذه هى التى أسست فيها مدينة مليلية عام 98، أسسها مليل (1) أمير بنى يفرن الذى كان مع ادريس بن صالح مؤسس مدينة النكور، وهذه القلوع هى التى تنسب اليها قبيلة قلعية وقد قال فيها البكرى: «انها حصن منيع لا متناول له ولا مطمع فيه (2). وذكر مرة لأخرى: (أن قلوع جارة هى لبنى ورتدى وانهم سكان مليلية (3)). وقبيلة قلعية هذه هى شبه جزيرة فى شمالى كرط يبلغ فيها جبل الكروكو البركانى 800 مترا، ولذا لما فتح مدينة مليلية عبد الرحمن الناصر لدين الله عام 314 هـ. وبنى سورها لأجل أن تكون معقلا لموسى بن أبى العافية، قال فيها الشاعر احمد بن محمد بن موسى الرازى :

والملك (4) الناصر (5) لدين الله — فيما يحوط الدين غير ساه
بنى لموسى عدة مدينة — منيعة شاهقة حصينة
ذلت لها تاهررت والا فارقة — ولم يطق بنيانها العمالقة

ولمناعتها لم يكن يدخلها أحد من التجار الا أن يكون على يد شخص من سكانها وقد كان ذلك بالاقتراع وكان يقترع السكان فيما بينهم على يد من تكون مراقبة تجارة الشخص القادم (6) «فمن اصابته قرعة الرجل منهم كان تجره على يده ولم يصنع شيئا الا تحت نظره واشرافه فيحميه ممن يريد ظلمه ويأخذ منه الاجر على ذلك والهدية لنزوله عنده».

---

(1) ذكر ذلك فى التعليق على القرطاس فى الطبعة على الحروف بسلا علم 1355 هـ. موافق 1936 م. كما ذكرها أيضا فى الترجمانة الكبرى لابى القاسم الزيانى صحيفة 79 طبعة وزارة الانباء بالمغرب. (2) المسالك ولاممالك صحيفة 88. (3) نفس الكتاب ونفس الصحيفة . (4) صحيفة 89 من الكتاب نفسه. (5) عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله صاحب مالقة. (6) المسالك والممالك صحيفة 89.

الوسط الطبيعى لهـذا البـلـد

فى الجنوب الشرقى من هذا البلد (يغلب نظام من طبقات بارزة) غير متواصلة اظهرها جبال كبدانة وبنى بويحيى، وفى هذه الكتل قيعان مقعرة كقاع كرواوة فى قبيلة بنى بويحيى وفى اراضى هذه القبيلة ترتفع كتلة (مسحوت) أو (مزكوت) كما يلفظ بها الأهالى وهى قرية مسطحه وجبل مزكوت معزز من سهل ماوية بجبل كليز البركانى، وهو يمتد غربا فى هضاب جيرية أهمها هضبتا (التدنى) و (النتدرى) اللتان تضمان الابار، والكهوف الطبيعية، وتلك الهضاب محفوفة بحافات من الصخور الوعره كصخور بوحجر التى تشرف على بوصواب على ارتفاع ألف متر وتباين كتل هذه الجهة تباينا واضحا بقية أجزاء السلسلة الريفيه بتكوينها واحوال تطورها فانتى وقعت بين كرط (1) وماوية قد بقى قسم كبير منها هادئا لم يتأثر الا ببعض الحركات وهى قليلة الارتفاع، فالقمم الشمالية لا تبلغ ألف متر ويبلغ جبل الكروكو فى قبيلة قلعية البركانى 800 مترا، وهى ذات تركيب غير بسيط أى مختلط لان امتداده ناتج عن اتصال اجزاء متوازية مختلفة الاصول والطبائع، سببتها الانكسارات والثورات البركانية، أما الجبال الجنوبية لهذه الجهة فتجاوز 1800 متر، كجبل (مزكوت)، وبفضل الانخفاضات التى سببتها المياه التاركة للاثقال المتراكمة، فاسفرت عن سهول داخلية فسيحة سهلت المواصلات فى هذه الجهة، ومن تلك الانخفاضات ذلك الذى يربط بين (المسون) و (الكرط) بسهول (بوصواب) وعين الاحمر، ومن ذلك الوادى الفسيح فى الكرط المتوسط فهو يتجه نحو الشمال الشرقى وينفتح على سهل سلوان .

أما ناحية الريف الاوسط فتتكون أراضيه من مجموع جبال معقدة التركيب تنتشر على شكل اكليل تتمركز فى خليج الحسيمة مفصولة عن بعضها، فسلسلة جبال بقيوة المنفردة على شاطىء البحر المشرفة عليه بحافاتها العظيمة ناشئة عن الصلب الجيرى الغائص فى البحر وهى مفصولة

---

(1) وادى كرط وماويه .

عن بقية السلسلة الكبيرة بسهول بنى ورياغل التى تتسع شرقا فى أراضى أجدير وتحمل فى منبسطها نهرى غيس والنكور، ويحدها شرقا بتمسامان وبنى توزين وباتجاه هذه السهول من الجنوب الى الشمال على شاطىء البحر تكون الطرف الشرقى لخليج الحسيمه ويحد جنوبا بجبل حمام وهى الكدية التى تشرف على توريرت التى ذكرها ابن خلدون (1) وهذا الجبل ينفصل انفصالا بينا عن السلسلة العليا وتطل على هذه الكدية قمة آزرواقشار، وهى جبل عال الارتفاع ينيف على ألفى متر، وهو أعلى جبل فى ناحية الريف الاوسط الذى تسكنه القبائل الريفية الخالصة ويشرف على مركز لتوزيع المياه يسترعى الانظار، فالمياه التى تذهب الى البحر الابيض المتوسط مباشرة تصب فى نهرى كرطط والنكور، والتى تتحدر اليه بطريق غير مباشر تصب فى السواعد العليا لنهر المسون، أما الذاهبة منها الى المحيط فتفرغ فى فرع نهر ورغة، وهذا الجبل جزء من الجناح الشرقى للسلسلة الريفية .

العرب والنكور

أول من نزل الريف من العرب هم الحميريون وقد جاءوا مع العرب الفاتحين للمغرب مع حملة موسى بن نصير وطارق بن زياد، ونتيجة لفتحهم فانهم قسموا المغرب أقساما جعلوا على رأس كل قسم منها عائلة من العرب، ونصبوا منها عليه أميرا وكان بلد النكور قسما منح للعرب الحميريين، وقد سماهم موسى بن نصير أمام الخليفة الاموى لما مثل عنده بدمشق (الابطال المغاور) (2) حين سأل عنهم وقد يكون لشجاعتهم منحوا

---

(1) فى تاريخه المعروف (بالعبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر) المطبوع بمطبعة بولاق على الحروف عام 1282 هـ. موافق سنة 1865 م. فى سبعة أسفار ماعدا المقدمة، وابن خلدون هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون المتوفى بمصر عام 808 هـ. موافق سنة 1405 م. وهو شيخ المؤرخين .

(2) المسالك والممالك.

سواحل البحر التى هى معرضة للاخطار التى تاتيها من البحر، وقد كانت قرصان المجوس تجوب عبابه من دون رقيب .

وأول من نصبوه أميرا عليهم هو صالح بن منصور اليمنى، وقد كان يعرف فيما بينهم بالعبد الصالح (1) وقد استمر فيها مستخلصا اياها لنفسه ثم رفع أمرها للخليفة الوليد بن عبد الملك الاموى، فأجابه هذا باقراره على الامارة فيها وذلك سنة 91 هـ. وأول موضع نزل فيه هو مرسى بتامسامان على البحر يدعى واد البقر، ولعله محرف عن واد امقران المعروف به الآن، وبين هذه المرسى ومدينة النكور عشرون ميلا وهى مرسى صيفية، ويقابلها من بر الاندلس، قال البكرى: (مدينة طنيانة) (2) واستوطن صالح هذا، بلد النكور ونشر الاسلام فيه وكثر نسله واجتمعت عليه غمارة وصنهاجة البربريه واسلموا على يده وخضعوا له وأيدوه، الا أنهم عادوا فثاروا عليه وخلعوه وولوا أمرهم رجلا من نفزة يعرف بالرندى، وسبب ثورتهم استثقالهم للتكاليف الشرعية التى رفضوها باخراج صالح، ثم رجعوا وعادوا الى الاسلام وأرجعوا صالحا الى امارته وبقى فيها الى أن توفى بتمسامان عام 123 هـ. قال (3) البكرى (ودفن بقرية يقال لها اقطى بتمسامان بواد البقر، وقبره يعرف الى الآن، وهذه القرية تعرف الآن بالقصبة السفلى بواد ولعله هو واد البقر، أو واد امقران، وهذه القصبة هى مدينة تمسامان على ما لابن خلدون، ولما مات صالح خلف من الاولاد المعتصم وادريسا وأمهما صنهاجية وعبد الصمد، وقد تولى امارة النكور بعد وفاته، (صالح) ابنه الاول المعتصم وقد سار مسيرة حسنة فى امارته، الا أنه توفى بعد أبيه بأيام يسيرة، وكان متدينا عفيفا يؤم الناس فى الصلوات الخمس ويخطب يوم الجمعة، وكان فوق ذلك شجاعا شريف النفس عالى الهمة .

الامير ادريس مؤسس مدينة النكور

ثم تولى بعد المعتصم شقيقه ادريس حفيد صنهاجة واختط مدينة

---

(1) ابن خلدون ج.س.ص. 312 . (2) المسالك والممالك صحيفة 91 .
(3) المسالك والممالك صحيفة 91 .

النكور ولم يتمها، ومات سنة 143 هـ. غير أنه لم ينتقل اليها، بل استمرت عاصمته هى مدينة تمسامان، كما كانت أيام أبيه وأخيه المعتصم والـدى جعلها (1) عاصمة لامارة النكور، هو الامير سعيد وهـذا يخالف ما جـاء فى ترجمانية الكبرى لابى القاسم الزيانى من أن مدينة النكور أسسـت عـام 80 هـ. (2) .

ومدينة النكور هذه تقع على الضفة الغربية لوادى النكور فى فرقة بنى بوعياش من قبيله بنى ورياغل حوالى 25و26 كيلو متر من الحسيمه، يشقها وسطا طريق السيارة العمومى الرابط بمليليه، ويقابلها من الضفة الاخرى حوض ماء يدعى عند الاهالى بحوض حواء وهو عين ماء غزيرة فى منبسط من الارض وماؤها عذب المذاق يجرى منها الى الوادى ثم تحمله السواقى الى الجنات لسقى خيراتهـا، وهى معلومـة بلذات الطعـم، ويقابلها أيضا شمالى الحوض ربوة كأنها صومعة لحراسة المدينة وفى رأس الربوة ضريح شخص يدعى بالسيد البرقى ولا يعرف شىء عن تاريـخ هذا الرجل، الا ما تدل عليه نسبته الى برقة الامر الذى يدل على أن الرجل رحل من برقة ويظن أنه أتى مع القافلة، وفى أسفل الربوة حجر يدعى بحجر العروس تحكى على السنة الاهالى خرافات فى تسميته بذلك، منها أنـه يوجد فى الحجر أثر قدمى عروس ومن حوض حواء كان آل صالح جروا ساقية الى المزمة، ولا زال أثرها موجوداً عندما تمر بقرية أمزورا، ويقال أن هذه الساقية كانت كبريد بين النكور والمزمة ترسل الكتب من النكـور مقفلة فى قصب مشمع ويؤخذ فى المزمة وقد اندثرت الآن معالم المدينـة وأصبحت اطلالا ولا زالت رسوم سورها المحيط بها ظاهرة والمحل أصبح أرضا حراثية نصفها يسقى بماء الوادى والنصف الآخر بعلى وعندما كانت العملة تشتغل فى تعبيد طريق السيارات عثروا على آثار مهمة من الحيطان وأوانى الخزف وغير ذلك، وقد كان بدىء فيها بالحفريات الاثرية فعثـر فيها على نقود ذهبية مهمة من الوجهة التاريخية، وعندما يكون الفلاحون يعمقون فى الخدمة يعثرون كذلك على الاوانى وغيرها، وقد استخرج بعض الفلاحين أخيرا رحى مائية صغـيرة .

---

(1) مدينـة النكـور. (2) صحيفـة 79 .

وقال ابن خلدون فى التعريف بمدينة النكور ما ياتى (1) : (تقع فى عدوة وادى النكور التى تقع بين الوادى المذكور وواد غيس ينبع الاول من كزناية من جبل نيركويس ويتحد منبعه مع منبع وادى ورغـــة والثانى ينبع من بنى ورياغل ويجتمعان فى آكام ثم يفترقان الى البحر)، وقـــال: (انها تسمى بهذا العهد المدة ومثله للبكرى وبين الاكام التى تجتمع فيها بأنها يقال لها أكدال) وزاد قائلا (وعلى (2) نهر غيس بنى سعيد ابن صالح مسجدا على صفة مسجد الاسكندرية بمحرابه وجميع منافعه، وعـــدوة غيس هذه يقال لها (تكراكرى) وهى منيعة وفيها يتناتج كراع آل صالح).

الامـــير سعـــيـــد

ولما توفى ادريس بن صالح الذى اختط مدينة النكور قام مـــن بعده ابنه سعيد، وأول عمل قـــام به اتمام مدينة أبيه فأتمها وانتقل اليها فى أول ولايته وجعلها عاصمة عمله بدلا من عاصمة أجداده قال ابن خلدون: (بعد (3) ان كانت مدينة تكسمان) أى تمسمان .

وقد ازدهر عمرانهـــا فى أول حياتها ثم طغت عليها موجة مـــن الحروب الى أن خربت كما يأتى مفصلا، وقد كان جمالها الطبيعى الذى اكسبته اياها العدوتان وحوض حواء الرقراق والواد الجارى الذى سطر بجنبيها الشرقى والشمالى سطرا ثعبانيا يلتوى بين الربى منحدرا الى المنبسط الفسيح الذى خلفه طفو الماء حاملا لاكداس الرمال حافزا لقرائح الشعراء فاذكوا قرائهم متغزلين بمحاسنها ومذكرين بمائها العذب ورزقهـــا المستطاب، فقال ابراهيم ابن أيوب النكـــورى :

أيا أملى (4) الذى أبغى وسؤلى ودنيـــاى التى أرجـــو ودينـــى
أأحـــرم من يمينك رى نفســـى ورزق الخلـــق من تلك اليمـــين

---

(1) العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ـ الجزء السادس صحيفـــة 212. (2) المسالـــك والممالك صحيفـــة 89 .
(3) الجزء السادس صحيفة 212. (4) المسالك والممالك صحيفة 91.

ويحجب عن يمينك لحظ طرفى ونور الارض من ذاك الجبين
وقد جبت المهامة من نكور اليك بكل ناجية (1) أمون (2)

ثم بدا دور الغزو فأول من غزاها المجوس بأساطلهم فى ولاية سعيد عام 144 هـ. وغلبوه عليها واستباحوها، قال ابن خلدون (تانيا) (3) ويظهر من ذلك أنهم غزوها مرة أولى غير اننا لم نعثر على غزوة أخرى للمجوس فى المصادر التى اعتمدناها، وزاد قائلا: وسبوا من فيها الا من هرب وكان من جملة من سبى أمة الرحمان وقنعولة ابنتا واقف بن المعتصم بن صالح ففداهما محمد بن عبد الرحمن واجتمع البرانس الى سعيد واعانوه على اخراج المجوس من مدينته فتم له ذلك وأخرجهم ولم يبقوا فيها الا ثمانية أيام وعادت غمارة فثارت على الامير سعيد بعد واقعة المجوس، هذا ما فى ابن خلدون والذى فى المراجع الأخرى (وقامت البرانس على ادريس بن سعيد) غير أن الذى يتبين من مساق الواقعة ترجيح ما عند الأول لانتظام أسلوبها، وانتقضت غمارة وولوا عليهم رجلا غماريا منهم اسمه (بسكن ـ بالباء، وفى المسالك مسكن بالميم)، الا أنهم لم يثبتوا فى حروبهم معه فتراجعوا واخضعهم وفرق جماعتهم وقتل مقدمهم (بسكن) واستوثق أمره الى أن توفى عام 188 هـ. لسبع وثلاثين، قال ابن خلدون من أيامه: والذى يتبين من تاريخ ابتداء امارته الذى هو 143 وتاريخ وفاته الذى هو 188 ان مدة امارته 45 عاما، الا أن يكون لا يعد له أيام استيلاء المجوس على امارته وأيام انتقاض غمارة عليه، وقد خلف من الاولاد منصورا وحمودا وصالحا وزيادة الله والرشيد وعبد الرحمن الشهيد، وسمى شهيدا قال البكرى (4) (لانه استشهد فى غزوة أبى العباس القائد، وكان فقيها على مذهب الامام مالك وتقيا، حج أربع مرات ومجاهدا عبر الاندلس للجهاد فقطع عليه ابن حفصون الطريق فقتل من كان معه وتخلص عبد الرحمن على فرسه) وخلف أيضا معاوية وعثمان وعبد الله وادريسا .

---

(1) الناجية، الناقة السريعة تنجو بمن يركبها. (2) المطية المأمونة العثار.
(3) الجزء السادس صحيفة 213 . (4) فى المسالك والممالك .

الامـــير صالـــح بـــن سعـــيـد

ثم تولى الامارة بعد سعيد ابنه صالح وكان شديد التمسك بمذهب سلفه فى الاستقامة، وكانت له مع آهالى النكور الاصليين حروب ووقـــائع، من تلك الحروب قال البكرى (1): (ما وقع له مع بنى وریاغل وكزنايـــه حيث انضموا الى أخيه ادريس (أصغر اخوانه) فانقضوا عليه والتقى معهم بجبل كزناية المعروف بجبل «كروين» ـ منبع وادى النكـــور وورغة ـ، ولم يثبت صالح امامهم، بل انهزم وتبعه أدريس ينهب معسكره وذهب الى فتح مدينه النكور مكتسحا للقرى ولما وصل اليها امتنع عليه والـــى المدينة الذى خلفه عليها صالح، ولما لم يتمكن من الدخول ارسل اليـــه بأن صالحا قد مات فلماذا تمتنع على، فأجابه الوالى بأنه اذا ثبت عندى مقتل صالح فانى لا أدافع عن المدينة، ولما لم يقم له الدليل على مقتـــل صالح تنكر ونزل الجبل المطل على المدينة (وهو الى الجهة الغربية لمدينة النكور فى رأسه قرية «بنى بوقياضا» ولما جن الليل جاء صالح ودخـــل المدينة خفية مع خاصة من أصحابه، وفى الغد ارسلوا الى ادريس ليتسلم المدينة، فاقبل ادريس على فرسه وعليه درعه وهو لا يدرى ما دبر لـــه، ولما توسط المدينة أحاط به فتيان صالح فأنزلوه عن الفرس وأرجلوه الى أن دخلوا به على صالح أخيه فأمر بحبسه فحبس فى داره ولم يكن يريد أن يقتله ولكن اقتراح قاسم الوسنانى صاحب «صاع والكدية» والحاحه عليه جعله يعدل عن الحبس الى القتل فأمر مواليه بقتله، وامتنع هؤلاء من تنفيذ الامر فأمر فتى من فتيانه يقال له عسلون فقتله .

ثم استعصت عليه مكناسة أيضا وامتنع أهلها من دفع المغاوم التى كانوا يدفعونها له فكتب اليهم كتابا يدعوهم فيه وختم الكتاب وجعله فى مخلاة وعلقها على حمار له كان معروفا عندهم وبعثه مع أحد ثقاته وأوصاه اذا توسط بلاد مكناسة فانه يترك الحمار بما عليه ففعل ذلك فأصابـــت مكناسة حمار صالح المعروف لديهم فأخذوا المخلاة، فلما قرأوا الكتـــاب ائتمروا على عقر الحمار والتمادى على الامتناع، وأخيرا عدلوا عن هـــذا

---

(1) نفس المصـــدر صحيفـــة 92 .

الرأى واجمعوا أمرهم على أن يجمعوا ما كان عليهم لصالح من المغارم، فجمعوا ذلك وجللوا الحمار بملحفة مروية وأتـــوا صالحا بالحمار مجلـــلا وبمغارمهم كاملة فاستعتبوه فأعتبهم واستمرت الفتن فى أيامه الى آن توفى عام 250 وفى تاريخ ابن خلدون (1) لاثنين وسبعين سنة من ملكه ولعله غلط مطبعى فى سبعين والا فالذى يبقى بعد اسقاط 188 من 250هـ و62 وفى البكرى ومات صالح بعد أن ملك ثمانية وعشرين عاما، غير أنه لم يذكـــر تاريخ وفاته، فالذى يظهر أن الصحيح هو الاول، لانه ذكر تاريخ التولية والـــوفـــاة معـــا .

الامـــير سعيـــد بـــن صالـــح

وقام بالامر من بعده ابنه سعيد وكان أصغر أولاده ونافســـه على الامارة أخوه عبد الله وعمه الراضى فثارا عليه ووقعـــت بينهم حـــروب ووقائع وبسبب تلك الفتن دخل عليه عبيده الصقالبة فسألوه العتق وأجابهم هو بأنهم جنده وأنهم كأحرار، غير أنهم لا يرثون ولا تجرى عليهم المقاسم فلم يقتنعوا بذلك وتمادوا فى الحاحهم وتمادى هو فى الامتناع، ولما يئسوا من اجابته طلبهم لحقه منهم جفاء وغلظة، فانتهزها أخوه عبد الله وعمـــه الراضى المكنى بابى على (وهذا الراضى لم يوجد من أولاد صالـــح فى المصادر المرجوع اليها) فرصة سانحة فانضمـــا اليهم مؤلبين عليه الجنـــد المكون من الصقالبة وزحفا بهم الى قصر الامارة فحاربهم سعيد من أعلى القصر مع فتيانه ونسائه حتى انهزموا وقامت عليهم العامة فأخرجوهم من المدينة الى قرية فوق المدينة تعرف بقرية الصقالبة وتحصنوا بها سبعة أيام فخرج اليهم سعيد مع القوم وظفروا بهم بعد حروب شديدة، والمراد بالصقالبة هنا هم الارقاء الذين صحبوا العرب اليمنيـــين فى فتحهم لانـــه فى القرون الوسطى كان الاسترقاق من الامة الصقلبية عادة وكان اســـم الصقلبى معناه الرقيق كما هو فى اللغات الافرنجية، وقد كان الاصـــل فى الصقالبة يطلق على أمة السلاف التى تسكن على شواطىء البحر الاسود وضفاف الطونة ومعنى السلاف الشرفاء، ثم انقلب عن معناه الاصلـــى

---

(1) الجـــزء السادس صحيفـــة 213 .

وجاء من لفظة السلاف لفظة اسكلاف ومعنها عبد، وأيام زحفة البرابرة الكبرى على الدولة الرومانية كان السلاف يقسمون الى سلاف غربيين وسلاف شماليين وسلاف جنوبيين وهم الذين سكنوا على شطوط بحر الادرياتيك وأول ما عرف العرب هذه اللفظة كان بسبب مجاورتهم للدولة البيزنطية وكان كثيرا ما تمد سلطانها على السلاف الجنوبيين، ولما كان العرب لا يوجد عندهم حرف الفاء الفارسية وكانوا يقلبونها باء فلفظوا لفظة الاسكلابيين اصقلابيين، ومنها جاءت لفظة صقلبى وصقالبة وقد جاء هؤلاء الصقالبة مع الفاتحين كجنود واسكنوهم قرية فوق المدينة دعوها قرية الصقالبة ولما عصوا أمر الامير وحاربهم انهزموا فقبض على أخيه وعمه الراضى المذكور فنفى الاول الى المشرق، قال البكرى (الى بلاد بكة وكل به من أوصله اليها وبقى فيها حتى مات) أما عمه الراضى فانه عفا عنه لما بينهما من المصاهرة، وهى أنه تزوج ابنته وطالت تحته وكان عفوه بعدما حبسه مع أخيه عبد الله فنفى هذا وعفى عن ذاك ولعل هذه الواقعة هى التى توجد عند الاهالى من أن عامل المزمة كان متزوجا بابنة أمير مدينة النكور ثم أنه وقع بينهما خلاف فخرج الاول مع خيله والثانى كذلك الى أن تلاقيا بالقرية المعروفة الآن بقرية بوكدارا الواقعة أسفل امزورا وايكدارا باللهجة المحلية الخيل مفردها اكيدار، فانهزم عامل المزمة أما الباقى من عمومته وأقاربه للذين كانوا انضموا اليهما أيام الفتنة فانه أعدمهم جميعا ومنهم الاغلب وأبو الاغلب ما عدا سعادة الله ابن هارون قال ابن خلدون (1) فانه لحق ببنى يصلتين أهل جبل ابى الحسن ودلهم على عوراته وبيتوا معسكره وأخذوا الآلة وقتل منهم وبسبب ذلك قال البكرى (2) انه لما قتل الاغلب وهو ابن عم سعادة الله وترك أخاه عبد الله وعمه الراضى مع أن ذنبهما واحد، امتعض سعادة الله وشكا ذلك لبنى يصلتين فى جبل ابى الحسن وهو فى تمسمان فالبهم عليه وعقد معهم على سعيد وهو لا يعلم بذلك، فلما أعلن بنو يصلتين بالخلاف على سعيد جمع اصحابه وخرج اليهم ومعه سعادة

---

(1) الجزء السادس صحيفة 213. (2) المسالك والممالك صحيفة 49 .

الله، فلما التحمت الحرب تحيز سعادة الله فيمن تبعه الى بنى يصلتين فخذل سعيدا فانهزم وأخذت بنوده وطبوله وقتلوا من مواليه نحو ألف رجل وأتوا مع سعادة الله حتى حاصروه بنكور واستجمع سعيد قواه وكر عليهم فهزمهم وأسر ميمون ابن هارون أخا سعادة الله وقتله وسار سعادة الله الى تمسمان وحرق سعيد دوره وخربها ثم صالح سعيدا فانصرف الى النكور، وفى ابن خلدون (1) تقبض — يعنى الامير سعيدا — على أخى سعادة الله ميمون فضرب عنقه ثم سار سعادة الله الى طاب الصلح فأسعفه وانزله معه مدينة النكور بعد الصلح (وهو كذلك لان بنى يطتين غلبوا أولا سعيدا وأخذوا بنوده وطبوله ثم استجمع قواه وتغلب عليهم وهرب سعادة الله الى تمسمان ثم صالحه وسكن معه مدينة النكور) .

وبعد ذلك جمع الامير سعيد قومه وأهل ايالته من غمارة وقام بغزو (بلاد بطيوة) (وتيصف) وقاوع جارة (وهى قبيلة قلعية) وبنى ورتدى (وهم أهل ملياية) وانه نهد بهم قال البكرى (الى مرنيسة وزناتة فقتل واستقاد له جميع ذلك البلد،) وقد انتصر فى هذه الغزوة التى قام بها بمختلف القبائل شرقا وجنوبا، لانه حارب أولا بلاد بطيوة وهى قبائل تمسمان وبنى وليشك وتفرسيت كما حارب قلعية وأهل ملياية ثم عطف على القبائل الجنوبية من مرنيسة واكزناية، وفى ابن خلدون ما يدل على أنه عقب هذه الغزوة سكنت ايالته والقت قيادة الطاعة فقال (انه توطد له الامر فى تلك النواحى (نواحى النكور) واصهر بأخته (أم السعيد) الى احمد بن محمد بن سليمان (ابن عبد الله بن الحسن بن الحسين (2) بن على) صاحبه وأنزله مدينة النكور، ولم يكدر عليه عيشه الرغد واستقراره المكين الا قيام عبد الله المهدى الشيعى مناوئا اياه، فكتب هذا اليه يدعوه الى الخضوع له وكتب فى أسفل الكتاب ينذره أن لم يستجب دعوته أبياتا كثيرة منها البيتان اللذان هما :

وان (3) تستقيموا استقم بصلاحكم ... وان تعدلوا عنى أرى قتلكم عدلا
وأعلو بسيفى قاهرا لسيوفكم ... وادخلها عفوا واملؤها قتلا

(1) الجزء السادس صحيفة 213. (2) كذا الاصل والصواب الحسن .
(3) تاريخ ابن خلدون الجزء السادس صحيفة 213 .

فأثر ذلك فيه وفى عائلته فأمر أخوه يوسف بن صالح شاعرهم الاحمس الطليطلى ان يجيبه، فاجابه بالمثل أو أشد فى أبيات كثيرة منها الابيات التالية :

كذبت (1) وبيت الحق ما تحسن العدلا
ولا علم الرحمان من قولك انفصلا
وما أنت الا جاهل ومنافق
تمثل للجهال فى السنة المثلى
وهمتنا العليا لدين محمد
وقد جعل الرحمان همتك السفلى

فأغضبت هذه الابيات الشديدة اللهجة عبيد الله المهدى الشيعى وكتب الى مصالة بن حبوس صاحب تهررت يأمره بغزو النكور فأغزاها سنة 304 غرة ذى الحجة ونزل من مدينة النكور على مسيرة يوم بموضع يقال له تاسفت (وهو موضع جبلى بقبيلة بنى توزين يسكنه ربع تاسفت المعروف بهذا الاسم الى الآن) فخرج اليه سعيد بن صالح فحاربه ثلاثة أيام متكافئا معه وكان مع سعيد رجل من شجعان البربر واعلامهم يقال له حمو بن العياشى قال فى المسالك «من بنى يطوفت» (وهى قبيلة بنى يطفت التى تقع فيها قصبة اسندة) (2) دعته نفسه الى أن يقصد معسكر مصالة فيفتك به فوافى المعسكر فى سبعة فوارس واقتحم على مصالة فتصايح الناس وكاثروهم فأخذ حموا سيرا ومن معه فأمر مصالة بضرب أعناقهم فقال حمو ليس مثلى يقتل فقال مصالة ولم؟ قال لانك لا تطمع فى سعيد الا بى وعلى يدى فاستبقاه وقربه والطف مكانه حتى أنس به ثم أعطاه قطعة من العسكر فقصد بها من جانب كان يعلم الغرة منه حتى دخل معسكر سعيد من المأمن من حيث لا يظن ففرق جمعه وغشى سعيدا مالم يأتأهب له، وتتابعت عليه العساكر فنظر أمرا لا يستطيع المقام عليه فبعث من مدينة النكور كل من كان فى قصره وما معهم وصاروا الى جزيرة فى مرسى النكور (وهذه الجزيرة هى التى تقع قبالة مسجد أجدير

---

(1) ابن خلدون الجزء السادس صحيفة 213. (2) المسالك صحيفة 95.

الناطح للسحاب بصومعته فى الفضاء على ربوة المزمة وهى على شكل بارجة حربية تسترعى أنظار ركاب السيارات المنسابة بين هضاب المزمة الملتفة التى يجدد شبابها وادى غيس بجداوله الممتدة بين اليمين والشمال، غادية ورائحة وهو منظر خلاب زاده رونقا المنبسط الفسيح ذو الاشجار بينما وادى النكور يقوم بقسطه الوافر ويسابقه فى اثارة الحياة مرسلا جداوله أيضا من مدينة النكور الى حيث يلتقى بجداول غيس فتتحد لمطحة واحدة وهى اخراج مخبئات الارض لخير البشر ويبلغ هذا المنبسط من الهكتارات تقريبا تسعة آلاف، والجزيرة بدورها تمدها من بحرها بالسمك الطرى اللذيذ، فاستقر فى الجزيرة آل سعيد ومعهم صالح وادريس والمعتصم أولاد سعيد وظاهر سعيد بين ذرعين هو وفتيانه وخاصته وقاتل حتى قتل واستبيح عسكره ودخل مصالة مدينة النكور يوم الخميس لثلاث خاون من المحرم عام 305 هـ. وعليه فقد بقيت بينهما الحرب سنة كاملة وسبعة وعشرين يوما) وانتهب مصالة مدينة النكور وسبى النساء والذرية وبعث بالفتح الى عبيد الله الشيعى وبعث برأس سعيد بن صالح ومنصور بن ادريس بن صالح وغيرهما من بنى صالح بن منصور فطيف بها فى مدينة القيروان ونصبت بمدينة رقادة وفى تلك يقول أبو جعفر احمد بن المروزى فى أرجوزة له :

لما (1) طغى الارذل وابن الارذل ... فى عصبة من الطغام (2) الجهل
من الاله كالحريق المشعل ... فحل أرضا طالما لم تحلل
حطم أهل كفرها بالكاكل (3) ... وجاء رأس رأسها المبذل
على القنا من الرماح الذبل (4) ... ذو لمة شاعثة لم تغسل
ولحية غبراء لم ترجل (5)

---

(1) الابيات فى المسالك والممالك صحيفة 95 (2) اوغاد الناس للواحد والجمع (3) الجمع: كلاكل وهى الجماعات ويطلق على الصدر أو ما بين الترقوتين (4) صفة للرماح يقال الرماح الذوابل أى الدقيقة.
(5) يقال رجل الشعر : سرحه

وقد كان النصر أولا حليف سعيد ثم تغلب مصالة أخيرا وقتل منهم وشرد وبعث الرؤوس الى رقادة وطيف بها كما تقدم .

أما البقية من أولاد سعيد فانهم قطعوا البحر من جزيرة النكور فارين الى مالقة وكان صاحبها اذ ذاك عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله فرحب بهم وتقبلهم أحسن قبول وبالغ فى اكرامهم وحباهم بالكسوة الرفيعة والصلات الجزيلة وخيرهم بين المقام بدار مملكته أو المقام بمالقة فاختاروا الاخيرة لقربها من بلدهم رجاء أن يجدوا غرة فيرجعوا اليها.

وبقى الفاتح مصالة فى عاصمة النكور ستة أشهر ثم قفل راجعا الى مقره (تهررت) وولى عليهم رجلا من كتامة يدعى دلولا وهو من أصحابه ولم يستعمل هذا التدبير اللازم مع جيشه فانفضوا حوله وكان بفارغ الصبر للانقضاض عليه .

الامير صالح بن سعيد

ولما بلغ الخبر الى اولاد سعيد الذين كانوا بمالقة وعلموا ثورة جنوده عليه، كانوا هم ثلاثة ادريس والمعتصم وصالح، وكان معهم قومهم بمالقة تلقوا الخبر بغاية الابتهاج فتسارعوا بقطع البحر فسبق صالح ونزل بمرسى تمسمان بوادى البقر ــ واد امقران ــ وهى القصبة السفلى المدفون فيها جدهم صالح المعروف ضريحه هناك قال البكرى (1) (وذلك أنهم اتفقوا على أن يركبوا فى ليلة واحدة ووقت واحد وبريح واحد، فمن سبق منهم فهو الذى يتولى امارة النكور خلفا لابيه، فسبق صالح وعاق الاخوين البحر فبقيا فى البحر شهرين، وهما يترددان ثم وصلا بعد ذلك سالمين الى «النكور» واجتمع البرابر اليه هناك، وبايعوه سنة 305 هب ولقبوه «بالقيم» لصغره هكذا فى ابن خلدون، والذى فى المسالك والممالك «باليتيم» من اليتم وهو الصحيح، لقول ابن خلدون لصغره فدل على أن لفظة القيم عنده تصحيف ومن هناك أى تمسمان) هجموا على دلول الكتامى قائد مصالة على النكور وانتصروا عليه وقبضوا عليه وأعدموه

---

(1) المسالك والممالك صحيفة 97 .

وصلبوه مع جماعة على ضفتى نهر النكور، وكتب صالح رسالة الى الناصر لدين الله صاحب مالقة وبشره بفتح بلاد آبائه وأعلمه بأنه يقيم الدعـوة له فقابله هذا بالشكـر وأرسل له هدايا وتحفا وآلة حربيـة كعربون على شكره ووصل الى صالح جميع أخوته وقومه الذين بقوا فى مالقة معلنـين له طاعتهم، وقد كان صالح هذا شديد الاقتداء بسلفه فى الظهور بالمظهـر الدينى الجدى واستمر كذلك الى أن توفى سنة 315 فتكون ولايته حسبما تقدم عشر سنين وفى ابن خلدون ما يأتى (1) (ولم يزل على هدى أوليـه من الاقتداء الى أن هلك سنة 15 (يعنى) وثلاثمائة فحاصره وتغلب عليـه فقتله واستباح المدينة وخربها سنة 17 (يعنى وثلاثمائة) ثم راجع اليهـا وقام بأمرهم أبوا نور اسماعيل بن عبد المالك ابن عبد الرحمان بن سعيـد بن ادريس بن صالح بن منصور واعاد المدينة التى بناها صالح ابن منصور وسكنها ثلاثا هـ؟ كلام ابن خلدون وفيه من الغموض ما لا يخفى .

أما أولا فلم يبين المحاصر (كسرا) من المحاصـر (فتحا) لانه كمـا ترى ويظهر من كلامه أن الواقعة كانت بعد موت صالح لقوله انه خـرب المدينة سنة 17 وموته سنة 15 وهل كان قام بالامر من بعده أخ من أخويه المار ذكرهما، ولما قتلهما قام بالامر من بعدهما ولد عمهما :

وأما ثانيا: فان قوله راجع اليها لم يلتئم مع قوله، وقام بأمرهم أبو نور اسماعيل الخ. لان هذا من عائلة الامراء اليمنيين، ولعل المقصود رجع عن المدينة وتركها لاصحابها الشرعيين .

وأما ثالثا: فان الذى بنى المدينـة هو ادريس بن صالـح كما مر والواقع فى كلامه هو صالح بن منصور ويمكن أن يجاب عن هذا بأن صالح ابن منصور كان صاحب فكرة بنائها فلذا يصح نسة البناء اليه مجازا .

مقتل الامير ابى أنور اسماعيل بن عبد الملك

وبعد أن تولى الامر الامير اسماعيل أوعز ميسور مولى أبى القاسم ابن عبد الله الى صندل مولاه عندما أناخ بفاس فجهزه بمعسكره وأمره بالتوجه لمحاربة امارة النكور، فتوجه صندل وحارب جراوة وعطف على

---

(1) الجـزء السادس صحيفـة 213 .

نكور، وكان اسماعيل استعد له فى قلعة أيرى وحصنها وشرع صندل يرسل له الرسل من طريقة يفاوضه للاستسلام، فغضب اسماعيل لذلك وقتل الرسل، فلما علم صندل بذلك أسرع المسير الى أن وصل الى القلعة وانشب الحرب معه واستمر القتال ثمانية أيام فظفر صندل به وقتله وأباح القلعة للجند فعاثوا فيها فسادا وسبوا النساء والذرارى وقتلوا الرجال وولى عليهم رجلا من كتامة اسمه مزمازو ورجع هو الى فاس ولكن أهل النكور لم يرضوا بالفاتحين فانتفضوا على الكتامى هـذا .

مـوسى بـن المعتصـم

وبايعوا موسى بن المعتصم بن صالح بن منصور اليمنى وكـان مقيما عند بنى يصلتين أهل جبل أبى الحسن (ولعله من بقية اللاجئين الى بنى يصلتين أهل جبل أبى الحسن عندما اضطهدهم أخوهم الامير سعيد ابن صالح بن سعيد كما تقدم) وموسى هذا كان يعرف بابن الرومى وقال صاحب (1) المقياس هو موسى بن رومى بن عبد السميع بن رومى ابن ادريس بن صالـح بن ادريس وقد انتقم الامير موسى من أعدائـه فظفر بمرمازو الكتامى ومن معه فقتلهم وبعث برؤوسهم الى الناصر لدين الله صاحب مالقة (يظهر أنه اقتدى بأسلافه فى الدعوة للناصر مكافأة لـه على تقبله لـه واحسانـه) .

الامير عبد السميع بن جرثم بن ادريس بن صالح

ثم أنه ثار على موسى بن صالح عبد السميع من أعيان بيته وخلعه وأخرجه من النكور سنة 329 وارتحـل موسى بأهله وولده وكثـير من عمومته ومعه أخوه هارون بن رومى الى الاندلس ونزل هو المرية، وأما قومه فمنهم من نزل هناك ومنهم من نزل فى مالقة، أما الامير عبد السميع فانه بقى فى امارته الى سنة 336 وفى هذه السنة ثار عليه أهل النكور وقتلوه.

الامير جريح بن احمد بن زيادة الله بن سعيد بن ادريس ابـن صالح بن منصـور

وبعد ما انتقضوا على عبد السميع وقتلوه استدعوا جريحا مـن

---

(1) نقلا عن تاريخ ابن خلدون الجزء السادس .

مالقة وولوه أمرهم، واستقر له الامر الى أن توفى آخر سنة 360 وكانت مدة ولايته 25 سنة وكان سلفيا شديد الاقتداء بأوليه متدينا على مذهب الامام مالك كأسلافه وبقيت الامارة متصلة فى أولاده الى سنة 406 فانقرضت دولتهم من النكور بعد أن استمرت 314 سنة من لدن تأسيسها فى تمسمان سنة 91 هـ. على يد صالح بن منصور المدفون ثمة، وقد كان سبب انقراضها أن ازداجة الذين تغلبوا فى نفس التاريخ على وهران والذين كانوا جيران امارة النكور أرادوا توسيع ملكهم فزحف الامير يعلى بن أبى الفتوح الازداجى على النكور واستولى عليها وخرب مدينة النكور وبقيت امارة النكور بعد فى أولاده قال، ابن خلدون (1) الى أعوام 460 ثم أن يوسف بن تاشفين وجه وجهته نحو بلاد الريف سنة 473 قال فى القرطاس (2) (وفيها فتح مدينة أجرسيف ومدينة مليلية وجميع بلاد الريف وفتح مدينة النكور وخربها ولم تعمر بعد) .

هنا نصل بهذا البحث عن قيمة هذه المدينة التاريخية التى كانت المحور الاساسى فى هذه الزاوية من المغرب طيلة قرون أربعة تقريبا.، وقد طاولت الايام فى استقرارها رغم الغزوات الموجهة اليها شمالا بغزو المجوس اياها بأساطلهم بحرا، فلم يمكثوا فيها سوى ثمانية أيام، كما غزاها عبيد الله الشيعى شرقا بواسطة قائده على تهررت مصالة ابن حبوس وكانت النتيجة اخراج عامله على النكور ودحره كما غزتها مكناسة ثم فاس جنوبا ولم يمكث عامل صندل عليها المدعو مرمازو الا قيلا وقبض عليه .

ولم يحل عقدتها الا الهرم الذى يعترى الامم والدول كما يعترى الافراد، فكان عونا لامراء ازداجة على القضاء على امارة النكور العربية وذلك بسبب الفتن الداخلية التى كانت تنشب ما بين فترة وأخرى سواء التى بين العائلة نفسها تارة وبين السكان والعائلة تارة أخرى ؛

---

(1) من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر الخ .
(2) لابى العباس احمد بن أبى زرع توفى فى بضع عشرة وسبعمائة .

وقد كانت نهاية الانقراض محتمة على هذه الامارة وذلك نتيجة تكوينها من عرب بدو لم يألفوا الحضارة ولم يصحبوا شيئا من قانون الحضارة تتمركز عليه امارتهم وتتسع دراسه برامجها باتساع نفوذها، بل اقتصرت فقط على الصبغة الدينيه التى أعتمدوا عليها فى حكم الاهليين، فكان سبب استقرار أحوالهم والتفاف السكان حولهم وقد تجلى ذلك فى التعريف بكل شخصية من شخصيات هذه الامارة التى أسلفنا ذكرها، فلا يكاد يخلو تاريخ أى فرد منها من وصفه بالمتدين المتمسك بأهدافه والمقتدى بسلفه فى المذهب، وهذه الصبغة الدينية كما عند (1) ابن خلدون هى السبب فى حصول الملك للامم المتوحشة .

ولذا اعتمد عليها كثير من الفاتحين للمغرب وكان سبب نجاحهم فى تأسيس امارة أو دولة وهى ظاهرة غالبة على أهل المغرب، فانهم انقادوا للاسلام انقيادا لم تزعزعهم عنه مطاولة العصور والاحقاب ومنه هذه الزاوية التى كان الفصل الاكبر للعرب اليمنيين فى ذلك، وقد دللنا بهذا البحث على قيمة هذه المدينة التى لم يترك منها الزمان الا رسوما بعد ما قوضها يوسف بن تاشفين تقويضا شأن اعماله فى التهديم لما بناه غيره ولو فى القطر الاندلسى الشقيق مهد الحضارة، ولو ترك يوسف بن تاشفين هذه المدينة وعمرها ونقل اليها الحضارة لما كان من شأنها معه الا تخليد ذكره، ووصل جنوب بلاده بشماله وضبطه بها ضفة هامة من البحر الابيض المتوسط، وأظهرنا هذه الامارة العربية التى ساست بلاد الريف، فكانت الشغل الشاغل للممالك المجاورة لها، وقد كان لها شبه استقلال فى ادارتها غير ما كانت تقوم به طوعا من الولاء ثارة للخلفاء الامويين فى الجزيرة العربية لانهم القائمون بالخلافة الاسلامية وهم فى درجة تقديس كبرى فى عقيدة الاسلام، وثارة لملوك الاندلس لحسن الجوار ولطف المعاملة كما تجلى فى مقابلة عبد الرحمن الناصر لدين الله بالاكرام والتجلة للعرب الفارين اليه أيام اضطهادهم .

ومن نتيجة الفتح المذكور ظاهرة أخرى غير ترسيخ العقيدة

---

(1) فى المقدمة .

الاسلامية فى الافئدة وهى ترك السلالة العربية تشارك السلالة البربرية وتمتزج بها امتزاجا تناسليا فتكون من سكان الريف العربى والبربرى والمزيج منهما رغم جهل أية نسبة من النسب تمت بها الآن السلالاة المذكورة وان كان يغلب على الظن أن السلالة العربية قوية أيضا لما انفصل عليه علم الاجتماع كما فى مقدمة ابن خلدون (من ان الرياسة لا تكون الا بالغلب والغلب انما يكون بالعصبية فلابد للرياسة من أن تكون عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة لان كل عصبية منهم اذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقروا بالاذعان والاتباع والساقط فى نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسبة انما هو ملصق لزيق) .

ولو كان عدد الفاتحين دون السكان لما كانت عصبيتهم تقوى على عصبية السكان فيكون لهم الغلب ثم الاستقرار ولو أنه بعد الاستقرار كان النجاح الاكبر راجعا الى العصبية الدينية، فانما ذلك بعد حين وبعد ذوق حلاوة الدين الفاتح، ويزاد على ذلك ان السلالة العربية قد تسللت الى الريف فسكنت بلاد النكور فى شخص بعض الاشراف الادريسيين فى حين دولتهم بعد انقراضها، (1) وسيأتى تفصيل ذلك .

مدينة بادس

ان اسم بادس يطلق فى التاريخ الاسلامى بحوض البحر الابيض المتوسط على مسميات أربع، اثنان منها لقائدين بربريين احدهما قائد صنهاجى بشمال افريقيا وهو بادس بن منصور بن بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى، وكان أميرا على صنهاجة افريقية الشمالية تابعا للفاطميين الذى تكونت دولتهم عقب انهيار الدولة العباسية فى هذه الاقطار، أسسها عبيد الله بن المهدى الشيعى الفاطمى نسبة الى فاطمة بنت رسول الله (ص) حسب ادعائهم، وكان ذلك بتاريخ 868 ميلادية ــ أى حوالى النصف الاول من القرن الثالث الهجرى ــ.

أما القائد الثانى فهو بادس بن حبوس أمير غرناطة الذى قضى على ملك الاشراف الادارسة المعروفين بالحموديين بمالقة عام 449 هـ. حيث

---

(1) هنا ينتهى الجزء الاول من بحث الريف بعد الفتح الاسلامى .

اضطر بعضهم الى الانتقال الى بطيوة بمليلية ونواحيها لمحاولة تأليف امارة الادارسة هناك عام 456 هـ. ولكن لم يحالفه النجاح .

أما الاسمان الآخران فأحدهما لموضع بالزاب قال فى معجم البلدان (1) قال السلفى سمعت الاصم النوتى يقول: الزاب الكبير منه بسكرة وقسطنطينية وطولقة وقفصة ونفزاوة وخطة وبادس .

وثانيهما لمدينة على ساحل البحر الابيض المتوسط قال فى الصدر المذكور (وبقرب فاس على البحر مدينة يقال لها بادس) وهذا الاخير هو الذى يعنينا هنا وهو اسم المدينة المدعوة بهذا الاسم، واضافة لهذا الاسم هناك جزيرة تصاقب المدينة تدعى عند جغرافيى العرب بجزيرة بادس، وتدعى عند الاسبان «بالبنيون» وهى احدى القلاع الخمس التى على شواطىء الشمال والتى لا زالت ماسورة باحتلال الاجنبى لها، وهى من الغرب الى الشرق حسب التالى: سبتة، جزيرة بادس، جزيرة النكور (الحسيمة)، مليلية الجزر الجعفرية (وهى ثلاث جزر متقاربة أعظمها جزيرة الكنغريس).

وقبل الكلام على مدينة بادس وتأسيسها يجدر أن نشير الى أنه وقع خلط عند بعض الكتاب، فلم يفرق بين المدينة وجزيرتها، فاعتبر أن الجزيرة هى نفس المدينة، حيث استشهد بقول المؤرخ الشريف الادريسى السبتى فى نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق .

«بادس مدينة متحضرة فيها أسواق وصناعات وهى آخر بلد عمارة، ويلجأ اليها أهل عمارة لقضاء حوائجهم) وسيأتى تفصيل ذلك عند الكلام على الجزيرة .

والواقع أن مدينة بادس التى ورد فيها نص المؤرخ المذكور هى غير جزيرتها التى سنخصها فيما بعد ان يسر الله بابحاث مستقلة نظرا للاحداث التاريخية المهمة التى تعرضت لها باستهدافها لصراع عنيف بين المغاربة من جهة واتراك الجزائر واسبانيا من جهة أخرى، الى أن انفصلت عن المغرب انفصالا جائرا .

ففى معجم البلدان (2) : بادس بكسر الدال المهملة وسين غير

---

(1) لياقوت الحموى ـ صحيفة 364 . (2) صحيفة 29 الجزء الثانى .

معجمة اسم لموضعين بالمغرب (المغرب العربى) قال أبو طاهـر احمد بن محمد سمعت أبا الحجاج يوسف بن عبدون بن حفاظ الزناتى بالاسكندرية يقول سمعت أبا عبد الله البادسى الفقيه وهو من بادس فاس لا من بادس الزاب وبادس فاس على البحر قرب فـاس» .

ومدينة بادس هذه تقع على الضفة الجنوبية للبحر الابيض المتوسط بين حافات جبال قبيلة بقيوة غربى مدينة الحسيمة ببعد حوالى 25 كلم بحرا وحوالى 45 كلم برا، وتقع جزيرة بادس قبالتها ولذا نسبت اليهـا ويفصل بينهما قنال من مـاء البحـر .

أجل كانت هذه المدينة بمثابة اكليل على هامة الشاطىء الشمالى للمغرب، وكانت صلة الوصل بين العدوتين الشمالية والجنوبية، فهنا المغرب تحت سلطان قادة برابرة عظام من مصامدة وصنهاجة وزناتة، وهنـاك الاندلس موطن الفاتحين الاولين من العرب الذين خلفهم فى نفس المهمـة أولئك البرابرة من المغاربـة، كما طار اليه صقـور قريش من الامويـين لتأسيس الحضارة العربية على الاسس المتينة نشرا لالوية الاسلام وفضائل القرآن الكريم ونقلا لحضارة الشرق من بغداد عاصمة العباسيين ومدينة أبى جعفر المنصور التى أسسها مدورة، والتى كانت تضم يوما ما مائـة مترجم لكتب الحكمة والفلسفـة مارة تلك الحضارة عن طريق القـيروان مدينة الفاتح العبقرى المتقشف «عقبة بن نافع الفهرى» بقصر تونـس لتصل تلك الحضارة الى الغرب العربى بالعـدوة الاخرى، حيث تستقـر بطليطلة وغرناطة وقرطبة واضرابها لاجل تعزيز صولة الفتح العسكـرى بالفتح الثقافى فى شبه الجزيرة الايبيرية شمالى بحر الزقاق وكان موقع بادس من الاندلس لا يقل أهمية من موقع سبتة، فاذا كانت هذه رابضـة على مدخل الممر المائى العالى الهائل، فان بادس معززة بجزيرتها كانت احد الروافد المغربية لذلك الاشعاع العربى الاسلامى الذى هاجر الى غرب أوربا، وفضلا عن ذلك فقد كانت الحارسة الامامية لذلك الممر المائى كـى لا يؤخـذ على غـرة .

وبالنسبة للمغرب فقد كانت مرفأ هاما لتصدير السلع وتوريدها من العدوة الاخرى واليها، ولتصدير المجاهدير الاشداء، وكانت الـزوارق

تجوب عباب البحر بهم حيث مواقع نقع السيوف التى يطلبون الشهادة تحت ظلالها ولرفع راية الاسلام هناك خفاقـــة .

ففى تواريـــخ بادس التى دونت أحداثها وعمرانها ــ وأغلبهـــا مخطوطات ذات أهميه ــ حبرها فطاحيل من علماء ذلك العصر من رجـــال نفس المدينة أو من غيرها يتبين الدور الرئيسى الذى قامت به بصالح العلم والعرفان والعمـــران الحضارى أسوة بسبتـــه وغيرها من مدن العـــور الاســـلامـــة .

وقد كانت ظاهرة تلك التواريخ الاساسية هى التى كانت سائـــدة فى بيئة ذلك العصر من تسجيل حوادث العلم والصلاح، وبالتالى همـــم الصلحاء الذين يستكملون صلاحهم بفضـــل الجهاد فى سبيل الله وســـد ثغـــور البـــلاد الاســـلاميـــة .

ويبدو منها أنها كانت تتأثر فى حياتها التاريخية بعوامل ثلاثـــة :

أولها: انها كانت كما أسلفنا معبرا للحضارة الشرقية الى أوربا.

ثانيها: انها كانت بابـــا مطروقا بل منفـــدا هاما ومرفئا للمغـــرب يستعمله لصلة الوصل بين العدوتين وبالاخص عن طريق فاس وتـــازا، ولاجل التدليل على ذلك نورد هنا قصـــة وردت فى مخطوط ألفـــه قاضى الجماعة بفاس الشيخ الجليل أبو عبد الله محمد الاورابى (ترجم لهـــذا المؤلف صاحب سلوة الانفاس صحيفة 301 وقال عنه: انه قاضى الجماعة العالم الجليل كما ذكر شيوخه الذين أخذ عنهم وتلامدته الذين أخذوا عنه، وكلهم من فحول علماء المغرب ومثله فعل صاحـــب نيل الابتهاج وجـــدوة الاقتبـــاس) .

وكان الغرض من تأليف هذا الكتاب التعريف بمناقب أبى يعقوب البادسى، ولهذا المؤلف قيمته التاريخية خصوصـــا وان مؤلفه من النقـــاد المتبصرين فقد قال فى حقه صاحب سلوة الانفاس (1)، «انه عارف بأحوال أهل زمانه خاصة وعامة وتواريخهم وانسابهم كثير الحكايات فى مجالسه، ناهيك وأنه أخذ عن الشيخ أبى الحسن الغرناطى وأبى عبد الله محمد بن

---

(1) الجزء الثانى صحيفة 29.

احمد يوسف الطنجاوى وأخذ عنه سيدى احمد السراج الكبير وأبو الوليد اسماعيل ابن الاحمر، وله فتاوى فى المعيار، ولد بتاريخ 701 وتوفى فى ليلة الاثنين 16 ذى القعدة عام 782 هـ ».

وهذه القصة التى نستدل بها تدل على كون بادس مرفأ للمغرب الداخلى، فقد جاء فيه (1) «أن السلطان أبا الحسن على بن أبى سعيد عثمان المرينى وجه خادمه غازى بن الكأس الى بادس برسم جواز المجاهدين الى الاندلس فى قاربين سمى احدهما باسم غراب والآخر باسم طريرة وعندما وصل الخديم الى قائد بادس لاعلامه بأمر السلطان تجمع هناك تجار يريدون أن يجتازوا بسلعهم الى الاندلس للاغراض التجارية، ولما لم يجدوا المراكب فقد تجمعوا وذهبوا الى أبى يعقوب البادسى أى بصفته وليا صالحا ورجل بادس الاوحد الذى يفزعون اليه فى ملماتهم حيث يهتم بشؤونهم، فتدخل أبو يعقوب لدى الخديم واعتذر هذا بأنه رسول فقط الى الوالى، فأرسل أبو يعقوب الى هذا الاخير وطلب منه تلبية رغبة التجار، فرفض الطلب وقال فى صيغة «مليح والله السلطان أمرنى على الاجفان (القوارب) برسم الجهاد وأنا أحمل فيها التجار» فغضب الشيخ أبو يعقوب وقال: «لابد أنهم يجتازون فيها فتوسل الى ربه وعلم السلطان بأمر التجار، فما لبث أن جاءت الاغاثة الالهية بأن أرسل السلطان يأمر الوالى بأن يحمل التجار، وهى منقبة حفظت للولى الصالح .

وفى المعجم التاريخى للاستاذ عبد العزيز بن عبد الله صحيفة 12 كانت بادس مدينة تجارية مهمة تعتبر ميناء لفاس على البحر الابيض المتوسط، وكان الاسطول التجارى البندقى يأتى مرة كل سنتين الى هذه الميناء .

أما العامل الثالث الذى تأثرت به المدينة، فهو هذا الحجيج من العلماء والصلحاء، سواء من الاندلس أو من المغرب، بل ومن المشرق، وهنا نكتفى بأن نورد عائلة مهمة من عائلات الاندلس العالمية التى اختارت هذه المدينة كما نأتى بعده بشهادة عالم ناقد مشهور، وهو لسان الدين بن الخطيب .

---

(1) أى فى المقصد الشريف .

أما العائلة الاندلسية فقد جاء فى مخطوط (المقصد الشريف فى التعريف بصلحاء الريف) وهو الذى ألفه أحد أفراد هذه العائلة وهو أبو محمد عبد الحق بن القاضى اسماعيل الخزرجى المتوفى أوائل القرن الثامن الهجرى، وعبد الحق هو اسمه أما كنيته فهو أبو محمد وليس كما جاء فى كتاب دليل مؤرخ المغرب من قوله محمد بن عبد الحق، وجاء فى هذا المخطوط تعداد أفراد هذه العائلة، ويتبين من ذلك أنها هاجرت من الاندلس فى زمن كان الاندلس لا زال فردوسا غير مفقود ونظرا الى أن بادس كانت نسخة طبق الاصل من حضارة الاندلس ومدنه، بل كان الاندلسيون يفضلونها لما اتسمت به من الصلاح وما يشاع عنها من أنها مقبرة الاتقياء، ولذا نزحت هذه العائلة وأمثالها .

وتنحدر العائلة فى الاصل عن قيس بن سعد بن عبادة اللخزرجى وهم أحد الذين آزرو النبى (ص) وأصحابه فى مطلع النبوة بيثرب التى دعيت فى الاسلام «بالمدينة المنورة» مع الحى الآخر الذى هو حى الاوس، وقد خلدوا جميعا أمجادا اسلامية أولى لما نبغ فيهم من الايمان الصادق عند ما جحدت قريش ونصبت العداء للدين الحق، فرفع الحيان راية النجدة وآوت النبى (ص) وأصحابه المهاجرين ضد طغيان بنى عمومتهم، ثم أسلاف هذه العائلة الخزرجية كانت تسكن فى مدينة غرناطة وقد دعاها سمعة بادس العلمية والصلاحية أن ترحل اليها، فاستقرت فيها .

ورغم أننا لم نعثر على الظروف التى نزحت فيها عن غرناطة ولا تاريخ استقرارها ببادس ولا من هو الرجل الاول الذى حل بها، الا أنه من المعروف جيدا حسبا يأتى، أن العائلة تركت شهرة فى العلم والصلاح والقضاء، كونها الاشخاص التالون الذين من عائلة بنى الاحمر الخزراجيين.

1) أبو العباس احمد بن الخضر الخزرجى الغرناطى :

كان فقيها واماما فى جامع بادس وهو الجامع الكبير .

وهذا القدر من التعريف به، هو الذى يؤخذ من المصادر المخطوطة التى بين أيدينا، ولا يعرف شىء عن ظروف حياته وتاريخها، الا ما يؤخذ من كون ولد أخيه الآتية ترجمته بعد، خلفه فى امامة المسجد ببادس وولد أخيه

هذا كان حيا فى النصف الاول من القرن السابع الهجرى، وعليه فيكون حيا فى أواخر القرن السادس الهجـــرى .

2) أبو العباس احمد بن محمد بن الخضر الخزرجى :

كان حيا فى أول القرن السابع الهجرى وتوفى عام 615 هـ.

حياتـــه اليوميـــة : روى عن بنته زينب (المترجم له) وكانت عجوز صدق، راوية للاخبار، وقالت كان أبى الفقيه أبو العباس يصوم النهـــار ويقوم الليل ويعلم كتاب الله، فلا يجالس أحدا ولا يخالطه أحد، ويومـــا الخميـــس والجمعة يلازم منزله فلا يخرج الا الى الصلاة، وهو كـــان الامام الخطيب ببادس بعد عمـــه أبى العباس احمد بن الخضر، وكـــان وافقه فى الاســـم .

حياتـــه العائليـــة : تزوج مرتين، أولا تزوج بنت عمه ـ أى أبى العباس بن الخضر المتقدم الذكر ـ وهى أم الفقيه حيون وابراهيم، ثـــم ماتت فتزوج ثانيا صفية بنت ستر بن مسعود، فولد له معها محمد وزينب واسماعيل (القاضى اسماعيل بعده)، وهذا الاخير كان أصغر اخوانه تركه أبوه رضيعا، والفقيه حيون أكبرهـــم .

صلاحـــه وتقـــواه: كان كثير التصدق، روى عن بنته زينب قالت: كان اذا خرج لقضاء مآربه فوجد انسانا عريانا كساه ثوبا من ثيابه التى عليه، وربما اعطى فى اليوم الواحد ثوبين أو ثلاثـــة .

وكان فى بعض الايام يصنع أبياتا من الشعر، ويكتبها فى كفـــه، ثم يكررها ويبكى، وكان لا يعمل شعرا الا فى الزهـــد .

ممـــاتـــــه: سبق أنه تـــوفى عـــام 615 هـ. وقـــد روت بنتـــه زينب المذكورة فى شأن موته، قالت وكنا ليلة نائمين فاستيقظ فقال لامى صفية، قرب الوقت، فقالت له وما ذاك، قال رأيت الساعة النبى (صلعم) وأبا بكر رضى الله عنه، فأبوبكر يمشط رأسى بمشط فى يديـــه، والنبى (صلعم) يصب الماء على رأسى، انما ذلك طهارة من الدنيا، قالت فأصبح متوضئا وتوالى وصاله، فمات دون سبع من ليلة تلك الرؤيـــا .

3) الفقيــه حيون بن أبى العبــاس :

لا نعلم عن حياته الا ما حلته به أخته من الاب زينب، لقولها الفقيه حيون، وهو أكبر أولاد احمد بن محمد ابن الخضر، ويليه ابراهيم وهــو شقيقه، ثم محمد وزينب واسماعيل أبنــاء صفية بنت ستر بن مسعــود كمــا تقــدم .

كما لا نعلم شيئا عن ترجمة ابراهيم ومحمد .

4) القاضى الشيخ اسماعيل بن احمد الخزرجى البادسى :

ولد بتاريخ عام 614 هـ. بمدينــة بادس، تركه أبوه ابن سنــة، ينتمى نسبه الى سعد بن عبادة الخزرجى وهو من علماء بادس الصالحين، تولى القضاء ببادس وكان مثال العدالة والنزاهة وكان كريما جوادا، كان أولا يقرأ القرآن للصبيان الى أن أجبر عن تولى القضاء، فتولاه بحقــه الا أنه تمسك بعادة تعليم القرآن، فقد قال ان ضيعت عيالى فأنا لما سواهم أضيع وذلك أنه يرى ان ترك أولاده وأقاربه بدون تعليم القرآن ضياع لهم.

فقهــه وورعــه: ويحكى عن نزاهتــه فى القضاء أعاجيــب، فمن ذلك أنه ذات يوم أتاه شخص بجــراب مملوء لوزا وأربعــة رؤوس من الدجاج وآنية من السمن وشيئا من البصل مظهرا أن ذلك هدية له لغــير سبب، ولكن القاضى رد عليه ذلــك، وامتنــع من أخذه بل زجــره، وبعد انصلاة فى ذلك النهار أتى بذلك الانسان شخــص فى دعوى دين له عليــه وثيقة بسكة قديمة غير السكة المتعامل بها حين المحاكمة، فقال له القاضى انما أتيت بما أتيت به الى من الهدية لاجل أن تقضى الدين بالسكة الحالية، ثم حكم عليه بأن يرد الدين بقيمة السكة القديمة ذهبا، لانها معلومة (وهو الوجه الشرعى فى مثل الديون الذهبيــة والفضية التى لا يجوز فيهــا التفاضل والنسا)، غير أنه أوصى رب الدين أن يحسن من التقاضى.

كراماتــــه: كان والى بادس فى وقتــه اراد أن يخاطــب له على شهادة زور فامتنع القاضى من ذلك، وكان هذا الوالى سلف للقاضى قبل أن يتولى القضاء خمسة عشر دينارا، جهز بها بعض بناته، الا أنه قاضــاه فى أجر تعليم أولاد الوالى القرآن سنة، وبرأه من الدين بوثيقة، ولكــن الوثيقة ضاعت من يد القاضى، فطلبه الوالى بخمسة عشر دينارا، منكرا

أن يكون قاضاه باقراء الاولاد، ولكن القاضى استنكف من اليمين، فما كان من القاضى الا أن عقد سلما فى شعير له بثمانية دنانير، ودفع الدراهم الى الوالى الظالم وصرها هذا فى طرف حزامه، وذهب الى البحر وقعد فى ظل قارب على الساحل لينفذ بعض أشغاله، فمال عليه القارب بدون سبب فشدخه وانكسرت يده وحمل على أسوء حال، ودراهم الشيخ مصرورة فى حزامه، وتعذب عذابا أليما، وتعطلت يده، ومع ذلك فانه لم يرجع الدراهم الى أن مات وأتى ولده الى القاضى حاملا الوثيقة التى أبرأه فيها والده.

ومما يحكى فى كراماته أن شخصا معروفا بالغصب والتعدى يدعى محمد بن جعفر، أقام عرسا فى داره، فأهدى حسب العادة بعض لحم لعائلة القاضى، ولم يكن عارفا بذلك، فقام من نوم القيلولة فرأى كأن نارا تخرج من تحت الاناء الذى يحلب فيه، فأفاق، وسأل زوجته عما تحت الاناء، فأخبرته بهدية محمد بن جعفر، فأمر الخادم برمى ذلك فى الزقاق.

وفاته: توفى رحمه الله فى العشر الثانى من ذى الحجة عام خمسة وثمانين وستمائة هجرية (685 هـ. ـالموافق 1286 م)، وفى أثناء مرضه الذى توفى به أخبر ولده العالم الجليل المؤلف الشيخ عبد الحق بوقت وفاته وذلك انه لما ثقل عليه المرض عاده جمع من الصالحين، فلما خرجوا من عنده، تعرضوا لصلاحه، وقالوا ان مرضه ثقيل عليه وربما لا ينجو من الموت، فسمعت بناته ذلك فجعلن يبكين فقال لولده قل لهن يسكتن ولا ينحن، فان يوم الاربعاء تقضى الحاجة، ثم أخذ فى النزع، فلما أصبح أفاق فقال لى ناولنى تراب التيمم لاصلى صلاة الصبح، فتيمم وصلى الصبح، ثم غاب غيبة عظيمة، فلما كان وقت الزوال فتح عينيه، وقال اسندنى الى الحائط ثم اضجعته فاستقبل القبلة ليتمدد وتشهد ومات، ولم نتمكن من دفنه ذلك اليوم بل الى غده، كما قال، وظهر على وجهه اشراق وضياء.

5) أبو محمد عبد الحق بن اسماعيل الخزرجى :

هو العالم العلامة المؤلف المتصوف المحقق صاحب كتاب القصد الشريف فى التعريف بصلحاء الريف، توفى أوائل القرن الثامن الهجرى وكان حيا بتاريخ 722 هـ.

وقد اختلط عن صاحب كتاب دليل المؤرخ فسماه محمد بن اسماعيل مع أنه أبو محمد كنية واسمه عبد الحق كما أشرنـــا .

مكانتـــه العلميـــة: ومن خلال تأليفه هذا يعلم باعه فى علم الحقائق وغوصه عن المعانى الرقيقة، واذا قال رأيا فى المسألة قال قولا سديدا، مع احاطته بما ورد فى الموضوع، ولاجل الايضاح نأتى بجمل من نظرياتـــه فى الجدال الذى يقع بين الائمة، ففى ميـــدان ما قاله الفيلســـوف ابن سبعين المرسى فى: أن الروح الكلى هو جوهر بسيط يلقى الى الاجسام البشرية من نوره ما تلقيه الشمس من شعاعها الى المرايا الصقلية، وقد تبـــع فى ذلك أبا حامد الغزالى الذى تبـــع عبد الجليل بن موسى القصـــرى. قال عبد الحق وما قاله أبو حامد وعبد الجليل باطل، وقـــد استند قائلـــه الى الحدس والتخمين ويتحقق بطلانه انه لو كان كذلك لما تميزت النفوس بعد موت الاجسام، ولا ترتب عليها حكم من ثواب وعقاب الخ...، ثم قـــال: والقائلون بالروح الكلى هم الفلاسفة، ولا دليل لهم على ذلك الا محـــض التحكم، وعندهم الاجساد لا تتعدد، وانما تتعدد الارواح، ثم قال الصحيح ان الارواح محدثة متعددة الاجسام، وانها باقية فى البرزخ الى حين النشر فتتقاد الى أجسامها وان أرواح السعداء منعمة وأرواح الاشقياء معذبة الخ.

وله تدخلات فى مواضع دقيقة بعد نقله المستفيـــض لما ثبـــت فى الموضوع من نصوص قرآنية وأحاديث نبوية أو كلام طفاحيل العلمـــاء فى الميـــدان أى ميـــدان كـــان .

حياتـــه العلميـــة والصوفيـــة :

من خلال كتابه هذا تبين قدم الرجل فى العلم والصلاح، فقد ألف هذا الكتاب، كتاب «المقصد الشريف فى التعريف بصلحاء الريف»، فى جزأين الاول يتضمن اصطلاحات الصوفية فى علوم العقائد، ومراحل الصـــلاح مبنية على ما ورد فى الموضوع من كتاب وسنة ورواية كبار الائمة وآرائهم المبينـــة على الشريعـــة .

وقد قسم كتابـــه الى أقسام ثلاثـــة، الاول فى مقامات الاوليـــاء وكراماتهم وما قيل فى ذلك عن علماء الميدان، بعد أن يأتى بما يستدل بـــه

على ذلك من القرآن الكريم وما ورد فيه من الاحاديث ثم أقوال القـــوم، وقد رتب هذا القسم على أربعة فصول، يذكر أول كل فصل المعنى اللغوى، ثم المعنى الشرعى ثم المعنى الاصطلاحى وهذه الفصول هى: الفصل الاول: الولاية، الفصل الثانى فى الفقر والفقراء، يعنى الفقر الاصطلاحى الذى هو لزوم طريقة من طرق التصوف، الفصل الثالث فى التصوف واصطلاحه ومأخذه وكيفيـــة ابتـــداء أمره الى غـــير ذلك، الفصل الرابع فى اثبـــات الكـــرامـــات للاوليـــاء .

أما الجزء الثانى فقد خصه لتراجم العلماء والصلحاء الذين كانوا فى الجزء الشمالى من المغـــرب الذى سماه بالريف وعينـــه من سبتة الى تلمسان، وفى ضمن هذا الجزء يأتى بتكييف الحياة الاجتماعية لذلك العصر مع ذكر اخبار استطرادية مهمة فى معرفة البيئة التى كانت سائدة وعلاقة بادس مع الاندلس ورحالات رجال بادس الى المشرق وما شاهدوه هناك، وذكر علاقة رجالها مع الدولة المغربية الى غير ذلك، مما يستفاد منه مـــن أحوال المغرب التى تأتى فى خضم التعريف بالصلحاء والعلماء، كما يستفاد منه أن للمؤلف مؤلفات أخرى منها ما سماه «بطبقات الاولياء» لم نعثـــر عليه الى الآن كما ذكر بعض مؤلفات لغـــيره .

وعلى كل فقد أتينا هنا بذكر هذه العائلة، لانها تتضمن سلسلة من الافراد انحدروا عن غرناطة وما ادراك ما غرناطة فى ذلك التاريخ، علـــى أنه هناك من هو أشهر وأغزر عرفانا وصلاحا منها، ونحـــن هنا نضـــرب أمثالا فقط لما توخيناه من ذكر الحضارة التاريخية لهذا الجزء، ولا يمكن أن نستقصى كل شىء الا أنه سيأتى الكلام عن حياة أفراد العائلة مفصلا ضمن تراجيم بعض رجال الشمال .

فمثلا نجد فيه قصصا فى مغامرة المجاهدين فى الاندلس، ولا تخلو تلك القصص من الطرافة والغرابة ذلك أنه جاء فيه أن المجاهـــدين كانـــوا يتعرضون للكلاب البوليس، فقد نقل عن أبى العباس احمـــد بـــن يحيى الزهيلى عن أبى على بن عمر الطنجى وكلاهما ممن عرف بهم فى الكتاب، قال: أى أبو على الطنجى توجهت الى الاندلس غازيا فخرجت فى سريـــة فدهمنا جيش عظيم فاسر من السرية أكثرها واستخفى بعضهم وكنـــت

ممن استخفى في شظية (الشظية ليست كلمة عربية فصحى والمراد هنا حفرة أما الفصحى كما في المنجد فتطلق على القوس وعلى عضم الساق وفلقة العود) غير ساترة كانت رجلال بارزة منها، وما قدرت الا انى ماسور، قال فكانت خيل الروم ـ القصد من الروم النصارى على العموم كما هو شائع عند القوم ـ تمر بى فلا يرانى أحد منهم، ووقفت بالقرب منى جماعة ولهم كلاب أرسلوها للبحث، قال: فلقد أتت تلك الكلاب حتى لحست قدماى ثم انصرفت عنى فسترنى الله وكنت أقرأ سورة «يس» فلما جن الليل خرجت ومشيت فيسر الله على فى اللحاق ببلاد المسلمين.

تأسيس مدينة بادس :

يبدو من نصوص بعض الكتاب أن تاريخ تأسيس مدينة بادس غامض، فقد قال الاستاذ المرحوم احمد المكناسى مدير الخزانة العامة بتطوان سابقا فى بحث القاه فى مؤتمر الاثارات بفاس تحت عنوان «المدن الاسلامية المندرسة فى الشمال» ان تاريخ تأسيس بادس يرجع الى زمن سحيق، وهى عبارة كما يبدو لا تفى بالمتطلب فى تحديد هذا الزمن السحيق، ويتبادر الى الفهم انها مدينة ازلية أى قبل الفتح الاسلامى، مع أن عنوانه بنفسه يقتضى انها مدينة اسلامية أى تأسست فى احضان الاسلام، وهو على كل حال زمن غير سحيق .

وقرأت لبعض الكتاب فى جريدة الميثاق أنها تأسست بعد فتح جبل طارق عام 92 هجرية، أسسها أحد أمراء لواته وهكذا كانت العبارة أيضا غامضة شيئا ما، وقد يكون مرجع الغموض لدى هؤلاء الكتاب أنهم لم يعثروا على النص الصريح فى تاريخ تأسيسها ولا شخصية مؤسسها بالضبط .

الا أن الثابت تاريخيا، حسبما جاء فى تاريخ الترجمانة الكبرى (1) فى أخبار المعمور برا وبحرا لمؤرخ الدولة العلوية أبى القاسم الزيانى، انها ثانى مدينة اسلامية تأسست فى المغرب بعد مدينة النكور، فقد قال:

---

(1) صحيفة 79 طبعة وزارة الانباء بالرباط بتاريخ غشت 1967 .

«وأما بعد ظهور الاسلام فأول مدينة بنيت بالمغرب مدينة (1) النكـور، أسسها ادريس بن صالح الحميرى عام ثمانين (هجرية)، وجهه حسان ابن النعمان الغسانى أمير عبد المالك ابن مروان بافريقيا لفتح المغرب فنـزل الريف وعليه اسلم قبائل لواتة وأقام بتلك البلاد وورثها أولاده من بعده الى أن انتقلوا أعوام الفتنة الى الاندلس» .

«ثم مدينة بادس أسسها أمير لواتة الذى كان مع ادريس بن صالح الحميرى واسمه بادس عام تسعين هجرية ثم مدينة ملياية أسسها أمير يفرن الذى كان مع ادريس بن صالح واسمه امليل عام 92 هـ.» .

وعليه فان تأسيسها وتاريخه ثابت لا غبار عليه ولا يخدش فى ذلك عدم ذكر اسم والد بادس مؤسسها، لانه يكفى أنه كان مع الامير ادريس بن صالح الحميرى أى ممن آزروه من قواد لواتة وهى شعب من برابرة المغـرب حسبما عند ابن خلدون حيث قال «وتفرع من البربر الاولـى: المصامدة، البرانس، صنهاجة، كتامة، اوربة، لواتة، زناتة كما آزره أمـير من بنى يفرن فكانت الحكمة أن يحمى كـل أمير منها جناحا من امارتـه فكان أمليل اليفرنى على الجناح الشرقى وبادس أمير لواتة على الجنـاح الشرقى فأسس كل منهما عاصمة امارتـه .

أما بادس بن منصور بن بلكين الصنهاجى قائد العبيديين فى شمال افريقيا فان دولة العبيديين الذين يدعون بالفاطميين والشيعيين لم تقـم الا سنة 868 ميلادية أى فى النصف من القرن الثالث الهجرى، وان بادس هذا تأخر كثيرا عن تاريخ قيام الدولة، ذلك أن جده بلكين كان قاد حملة فى زمن قائد الفاطميين جوهر الصقلى أحد قادتهم العظام الذى احتل مصـر وبنى القاهرة باسم المعز العبيدى الفاطمى قادهـا ضد المتأخريـن من الادارسة الذين كانوا تحصنـوا فى قلعة حجـرة النسر بشمال المغـرب، وبالضبط عند تولية أمر الادارسـة الحسن بن القاسم المعروف بكنـون، حسبما جاء فى تاريخ ابن خلـدون .

ومن المعروف أن مـولاى ادريس الثانى توفى عـام 213 هـ ،

---

(1) سبق الكلام مستوفى عن هذه المدينـة .

فقامت أمه كنزة البربرية الاوربية وقسمت اقاليم المملكة المغربية على أحفادها وان عمران ولد مولاى الادريس اختص ببادس كما جاء فى تاريخ الدرر السنية فى السلالة الادريسية للشريف سيدى محمد السنوسى الخطابى، وعليه فانه بتاريخ 213 هـ. كانت بادس موجودة ومعروفة .

فاذا كان بلكين جد القائد بادس الصنهاجى تأخر الى أواخر الادارسة، فان حفيده بادس يكون قد تولى أمر الفاطميين فيما بين 387–406 هـ.

وفى هذا التاريخ كانت بادس عامرة وكانت معروفة بهذا الاسم، أما بادس بن حبوس أمير غرناطة فهو مستبعد بالدرجة الاولى عن اعتباره له يد فى تأسيسها أو تسميتها لانه لم تكن له علاقة مع المغرب، عكس الصنهاجيين الذين آزروا الفاطميين الى آخر حياتهم التى امتدت قرابة ثلاثة قرون، وكان لهم فى المغرب بالذات صراعات وجولات وبالاخص مع الادارسة الذين وان كانوا أهل بيت النبوة وان الفاطميين قامت دولتهم حسب الظاهر للتشيع لآل البيت، الا ان هذا الصراع مع الادارسة أفادنا بأن المذهب الذى اعتنقوه كان لاجل الاستيلاء على أقطار شمال افريقيا فقط، وانهم لم يتأخروا ان يسفكوا دم المتشيع لهم، فقد جردوا لهم حملات متعددة تارة بقيادة العدو اللدوذ للادارسية وهو موسى بن أبى العافية المكناسى (من مكناسة تازا) وتارة بقيادة قائدهم على تهرورت بالجزائر مصالة بن حبوس .

ثم لما طمع موسى بن أبى العافية فى الاستبداد بالمغرب والولاء لعبد الرحمان الناصر لدين الله سيروا اليه حملة تحت قيادة حميد بن يصليتن المكناسى أيضا فاذاقه هزيمة لم تقم له قيامة من بعده، وذلك بتاريخ 321 هـ.

وهنا نرى أن الادارسة خضعوا بولائهم للعبديين وانضموا الى قائدهم ميسور الخصى .

وعلى كل فان المغرب كان مسرحا لصراعات عنيفة، وكان امراؤه من الادارسة ينقلبون وبالاخص عندما ضعف أمرهم لما تحصنوا بقلعة حجر النسر فى عهد يحيى بن ادريس بن عمر بن مولاى ادريس سنة

309 هـ. الى عهد ابراهيم بن محمد القاسم فتارة يدينون بالولاء للامويين بالاندلس وتارة للفاطميين، فاذا خطبوا للامويين كانت الحملات ضدهم غير رحيمة، ولا يتقيد الفاطميون بشعار التشيع للآل البيت .

وكان المغرب يتأثر بهذا الشعار أيضا حتى أننا نجد أحد المتصوفة من رجال بادس، وكان يدعى الحاج العباس الكميلى (من قبيلة كميل الريفية) حاول بتاريخ 685 هـ. اقامه نظام شيعى فى الريف تابع للفاطميين، فاستولى على قبائل صنهاجة بادس، واحتل هذه المدينة نفسها ثم جمع جموعه وحاول اخضاع مدينة المزمة التى كانت توجد بقبيلة بنى وريـاغل بساحل جزيرة النكور (الحسيمة) وهناك قتل فى 20 صفر الخير عام 686 هـ. وجز رأسه وبعث به الى مراكش عاصمة المرينيين زمن السلطان أبى يعقوب يوسف ابن يعقوب بن عبد الحق، فعلق الرأس بباب مراكش مع رأس أبى عامر عبد الله بن محمد بن على بن محلى البطيوى القائم بمراكش، أما جثته فقد صلبت بباب المزمة، كما سبق .

أما مساحة هذه المدينة أى بادس فاننا نجد أيضا قصة طريفة فى مخطوط المقصد الشريف تعطينا نظرة تقريبية عن المساحة المبنية فى أواخر القرن السابع الهجرى .

ويستفاد من القصة أن المدينة كانت عبارة عن حوالى 320 دارا، ذلك أنه فى هذا التاريخ كان يعيش فى بادس العالم الجليل التقى الورع الصالح وهو يوسف بن محمد بن عبد الله الزهيلى المعروف «بأبى يعقوب البادسى أصله من غرناطة» انتقل اسلافه الى بادس للاغراض السالفة الذكر، وكان صوفيا وعالما متبحرا قرأ القرآن على العالم القاضى اسماعيل الخزرجى المذكور آنفا وقرأ العربية والادب واللغة على الاستاذ أبى القاسم الاندلسى وقرأ الرسالة وتهذيب البرادعى على الشيخ أبى زكرياء المدفون ببقيوة، وقرأ ببادس تهذيب البرادعى على الفقيه العلامة أبى ابراهيم الاعرج الورياغلى جد الشرفاء الغلبزوريين بالريف ورحل الى فاس، وقرأ موطأ الامام مالك على قاضيها وامام الفرضيين فيها الفقيه المزدغى، ثم عاد الى بادس وظهرت عليه مخايل العرفان فى التصوف، حتى عرف بالولاية والصلاح، ألف فى مناقبه قاضى الجماعة بفاس الشيخ الامام أبو عبد الله محمد الاورابى المتقدم الذكر .

ومفاد القصة التى تروى عدد ديار بادس أن تلامذة أبى يعقوب البادسى الذين كانوا يجالسونه للاستفادة منه علما وعملا قالوا أنه قال لهم ذات يوم (ان الولى يشفع فى أربعين دارا امامه وأربعين خلفه وأربعين عن يمنه وأربعين عن يساره) ففهموا أن القصد من الولى هو نفسه بالذات، متسابقوا لعد الدور فالفوا أن ديار مدينة بادس كلها داخلة فى شفاعته.

وهنا يؤخذ من القصة أن أصحابه لو عرفوا أن الديار عن جهاته الاربع أقل من أربعين فبالضرورة لا يتسابقون لعدها، ولكن عندما أشتبهوا فى كثرتها ازالوا الشك بالعد .

وبالطبع فان العملية الحسابية التى تعطى النتيجة هى أن كلا من الخطين العمودى والافقى يتكون كل واحد منهما من 160 دارا، فاذا أضيف الى ذلك الديار التى يشغل الاضلاع التى بين العمودين، تكون الديار لا تقل عن 320 دارا، على أن الاضلاع تتسع لاكثر عند وسط ورأس العمودين.

أما المرافق الاخرى التى تتوفر عليها كل مدينة متحضرة فانها متوفرة أيضا فى بادس وكان فيها الجامع الاعظم الذى كان مقر التدريس وملتقى الرواد من علماء الاندلس وفاس وسبتة وغيرها من مدن المغرب، ويوجد كثير من النصوص فى المخطوطات التى تكفلت بحياة الصلحاء والعلماء الذين عاشوا فى مختلف الاحقاب فى المدينة، فمثلا قال المؤلف أبو الحسن على المراكشى أصلا البادسى قرارا فى مخطوطه الذى ألفه فى مناقب شيخ زمانه الحاج حسون البقيوى الادوزى، قال: «انى كنت جالسا بمدينة بادس أيام اقامتى بها عند الشيخ الابر الولى الصالح أبى، محمد عبد الله التستورى فى جامعها الاعظم، وكنا نتكلم مع أهل بادس عن كرامة الاولياء ».

وجاء فى مخطوط مناقب أبى يعقوب البادسى، قال: «أبو الحسن على خديم الشيخ ان والده كان فى المسجد الجامع ببادس جالسا مع سارية من سوارى المسجد والشيخ أبو يعقوب جالس مع الحائط» الى غير ذلك من النصوص وذلك لان المسجد الاعظم لا يتوفر عليها الا المدن المتحضرة والا فهناك مساجد أخرى مثل مسجد المقبرة وغيرها .

كما كانت تتوفر على دار للصنعة التى توسعت طبق حاجة العمران

حتى شملت رباطة، كانت تدعى رباطة ساحل البحر، ففى مخطوط المقصد الشريف، «كان أبو يعقوب البادسى يتعبد فى الرباطة التى على ساحل البحر خارج المدينة وهى التى ادخلت الآن بدار الصنعة» .

كما كانت تتوفر على قلاع مثل قلعة صنهاجة ورباطات للمجاهدين والاتقياء، وكانت توجد فى هذه المنطقة رباطة أم ايمن انشأتها امراه صالحة، ولذا دعيت بها، ورباطة تمدى (وكلمة تمدى تعنى النسر فى اللهجة المحلية)، ورباطة ساحل البحر، ورباطة للا منانة انشأتها هذه المراة الصالحة، ورباطة المزمة ولا زالت الى الآن تسمى بمسجد المجاهدين قبالة جزيرة النكور، ورباطة أبى داود، انشأها شيخ زمانه أبو داود البلندى التمسمانى، وله ضريح مشهور، ورباطة النكور، ورباطة الصيد ورباطة حجارة السودان، الى غير ذلك، ذلك أن شواطىء البحر كانت مملوءة بهذه الرباطات للعبادة والحراسة من طرق العدو البحرى للشواطىء .

ولتوضيع تلك المرافق عدا المسجد الاعظم نذكر هنا مقتطفات من تلك المخطوطات التى ذكرتها .

مسجد المقبرة : وكان فيها مسجد أخر يدعى مسجد المقبرة، ومن الاضافة يعلم أنه كان بمقبرة بادس ففى «المقصد الشريف» وكان على بن محمد النعجة اماما لمسجد المقبرة .

قصبة بادس : وكان فيها قصبة تدعى قصبة بادس كان محلا للتجارة والعمران، ففى المقصد الشريف وحدثنى بعض تلامذته أنه قال وجهنا الشيخ أبو عبد الله (اليستتشى) رحمه الله الى بادس لنشترى له زيتا، فقال اقصدوا بقصبة بادس تاجرا اسمه موسى بن عطار فاشتروا منه جرة زيت اشبيلى هى عنده فى قعر مخزن حانوته .

قلعة صنهاجة : ففى مكان آخر من المصدر نفسه قال «فلما كان وقت العصر نادى مناد على جبل العقبة المشرفة على بادس من جهة قلعة صنهاجة» .

دار الصنعة : كما كانت فيها دار للصنعة توسعت على ممر السنين بمقتضى الحاجة اذ دخلت فيها رابطة الساحل، ففى المصدر نفسه «بالرباطة التى على ساحل البحر خارج المدينة وهى التى ادخلت الآن

بدار الصنعة»، فيقتضى هذا النص دار الصنعة كانت خارج المدينة، حيث تكون بعيدة عن السكان، خوف اذايتهم واحتراما للسكنى .

رباطات المجاهدين على شواطىء البحر المتوسط :

ببادس لم نعثر فى كتب التاريخ الا على ثلاث رباطات، الاولى رباطة ساحل البحر، الثانية رباطة أم ايمن، الثالثة رباطة تمدى التى تخص بادس فالاولى كانت على ساحل البحر، وهى التى ادخلت بدار الصنعة وكان يتحنث فيها الشيخ أبو يعقوب البادسى بعد رجوعه من فاس واستقر ببادس، فكان يختلى فيها ويتصوف، ويقضى فيها الايام موحدا ربه الى أن لاحت عليه بوادر الحق، واعترته الحقائق الباطنية .

أما الثانية فكانت أيضا قرب البحر، ولها غرف كان يتعبد فيها العالم المؤلف أبو الحسن على بن محمد المراكشى .

وأما الثالثة رباطة أم ايمن، فانها انشأتها امرأة صالحة تدعى أم أيمن فنسبت اليها، وكانت فوق الجبل المطل على ساحل البحر المدعو ساحل مكرم .

وحدث عن الشيخ الصالح الرضى ابن العباس احمد بن سوسان انه قال: كان من عادة عباد بقيوة، وصلحائهم ومشايخهم أن يجتمعوا ليلة النصف من شعبان وليلة سبعة وعشرين من رمضان وليلة عاشوراء فى الرباطة المعروفة بأم أيمن الكائنة فوق الجبل المطل على ساحل مكرم وهى رباطة فاضلة أمرت ببنائها امرأة صالحة اسمها أم أيمن فعرفت باسمها» .

وعدا هذه الرباطات الثلاث فانه كان على طول ساحل البحر الممتد من بلاد الريف الى سبتة رباطات أخرى كانت بمثابة مركز حراسى يرابط فيها المجاهدون الصالحون لمراقبة أنفسهم ولمراقبة العدو المباغت بحرا.

وكانت القرصنة البحرية التى توجه غاراتها ضد البلاد لنهب المال وأخذ الاولاد تجوب خلال المراسى وقد أسس رباطة بتمسمان الشيخ

الصالـــح أبو داود البلندى (1) وكـــن هذا الشيخ من تلاميـــذ أبى مدين، ولما رجع من عنده الى بلده بتمسامان بنى هذه الرابطـــة .

وكانت اذ ذاك تدعى بنى ورتدا وكان موضع داره يدعى باحلاس على ساحل البحر الذى كان يدعى ساحل تيقلال، بنى على ساحل البحـــر بتقلال رباطة بينها وبين المزمة خمس فراسخ، يتحنث فيها مع أصحابـــه وتلامذته، وكانت فى مكان مخوف من عدو البحر المقاتل للمسلمين (2) .

وحدث عن أبى عقيل حفيد ابن داود قال: سمعت جدى الحـــاج أبراهيم يقول سمعت جدى الشيخ ابا داود يقول: كان موضع هذه الرابطه يعنى الرباطة التى أقام بناءها ملكا لبعض جيراننا فكنت أصلى فيه فاذا جاء ربه وجد فيه محرابا مبنيا، فيقول لى يا أبا داود من حل لك أن تبنى محرابا فى أرضى بغير أذنى، أتريد أن ترد أرضى مسجدا، فأقول له مـــا بنيت ولا أمرت به فيهدمه وينصرف، فلما طال عليه ذلك وعلم صدقى قال لعل الله أراد أن يكون فيه مسجد، قد وهبته له، قال فبنى فيه أبو داود الرباطة المعروفة له التى اتفق له فيها مع النصارى القصة الآتيـــة وانفق فى بنائها بالآجور والخشب الطيب وصرف مالا جسيما اعانه فيها رجـــال صالحون ميسورون نفعهم الله بذلـــك .

ومن هذه الحكاية تظهر فوائد هـــذه الرباطات، فكما كانت محـــل عبادة وخلوة، كانت مركزا حراسيا يحرس فيها هؤلاء الصالحون طوارق البحر حتى لا يباغتهم العدو الذى كـــان يأخذ ابنـــاء المسلمين لبيعهـــم فى الاقطار الاخرى، أو لتنصيرهم أو لتمرينهم على الملاحة واللصوصية، ورغم أن كثيرا ما يعتمد المتجردون للعبادة فى تلك الرباطات على الكرامات وطرق العوائد، الا أنه لا يخلو وقتهم من فض الحسام والدفاع عن حوزة الوطن.

أما القصة التى اتفقت لابى داود فى رباطته هذه فان حفيد حفيده أباعقيل (وسيأتـــى التعريف بالجميع) قال: حدثنـــى من مشيخة أهلـــى

---

(1) يوجد فى مدشر كزناية من قبيلة فحص طنجة عائلة من تمسامـــان لا زالوا الى الآن يدعون بالبلنديين .

(2) المقصد الشريف للتعريف بصلحاء الريف .

وجيرانى وحدثنى جدى الحـــاج أبو اسحاق ابراهيـــم بن عيسى بن أبى داود، وكان (أبو اسحاق) ادرك اباداود، وقال استفاض عندنا ما اتفق لابى داود مع العدو البحرى قصمه الله، وذلك كان الشيخ أبو داود بات ليلة من الليالى فى رباطته فحبسه العدو بهـــا، وتحمل أسيرا فى سلـــورة للروم، فلما حاولوا المسير به توقفت السلـــورة، فما زالـــوا كذلك حتـــى أصبحوا وهم فى موضعهم الذى كانوا فيه حين تحمل الشيخ فقالوا لـــه: قم فانزل فأنت طالق، قال لهم لا أنزل حتى تخلوا سبيل كل اسير عندكـــم من المسلمين، ففعلوا، ثم راموا الحركة بالسلورة فلم تتحرك، فأشـــاروا اليه بالضراعة والتـــذلل أن يخلى سبيلهم فأشـــار اليهم أنه قـــد بقى فى سلورتكم عصاى، وقيل نعلاه، فلما ردوا عليه عصاه أو نعله نهض جفنهم(1).

ثم قال أبوعقيل وما زال الشيخ أبو داود يتعبد فى رباطته حتى مات وحفيده الحاج ابراهيم، وما رأينا فيها قط عدوا بحريا يتسوغ عليها، وهى ظاهرة يراها كل من هو على الساحل، قال ويظهر أن أسر الشيخ أبى داود، انما كان فى حق من استقر فى تلك السلورة أسيرا من المسلمـــين، حتى خلصهم الله ببركته، وهذه الرباطة فى قبيلة تمسامان ولا زالت الى الآن تدعى الرابضة وهى قرية من قرى آل بوداود الى الجهة الموالية لوادى النكور على ساحل البحر، وهى قريبة لمدينة المزمة التاريخية بمالا يزيد عن خمسة فراسخ، أما سيدى أبوداود، فانه مدفون بتمسامان وقـــد سميت الفرقة التى دفن فيها بآل بوداود الى الآن وضريحه مشهور ثمة، وسيأتى التعريـــف به .

موضوع الرباطة نفسه أقيم فيه مسجد الرابضة وعندما أسس المسجد على انقاضها كان العملة يعثرون على آجور وجير ابناء الاول .

رباطـــة المـــزمـــة : وهذه الرباطة حولت الآن الى مسجد ويدعى

---

(1) الجفنة فى المنجد: القطعة الكبيرة ومنها أخذ الجفن للزورق وهو الذى عبر عنه بالسلوة وهى بكسر السين المشددة وفتح اللام كذلك مـــع سكون الواو، ان الكلمة أخذت من اسم سمك قال فى المنجد السلـــور اسم سمـــك بحرى .

مسجد المجاهدين، هى بهضبة على رأس المزمة قبالة جزيرة النكور التى تسامتها، وفى أسفل قرية أجدير وقد كان الموضع مهما جدا، لكونه بقرب جزيرة النكور، ومنه كان الاهالى يراقبون حركـات الاسبان فى جزيـرة النكور، وكان صلحاء بنى وریاغل يرابطون فيه ليل نهار، وحتى فى المدة الاخيرة لما كانت الحروب منشوبة بين الاهالى والاسبان، كانت الحراسة فيه متناوبة بين المجاهدين، وكان الزعيم ابن عبد الكريم يحشر اليها فقراء الطرق للحراسة فيه ومن امتنع منهم يخرج أعوانه من طائفتهم فلا يجـد مقامـا بينهـم .

أما الآن فأصبح على حسب العادة الموروثة عندهم تقام حفلات دينية بمناسبة عاشوراء والمولد النبوى الشريف، ويقصده القبائل المجاورة، ومع الاسف فقد اختير الموضع أخيرا لاقامة نادى البحر الابيض للسياحة مما عفى صلاحه ومكانتـه .

ربـاطـة للا منـانـة : وفى عهد بادس كانت هناك ما بين موضع الحسيمة الآن وبادس قرية عامـرة ومرسى لسـوق المراكـب منها الى الاندلس، وهى غير بادس وغير المزمة وهى بمقدار خمسة أميال بحـرا من الحسيمة وتدعى هذه القرية بوسكور وليست هى مدينة النكور التـى التبست على البعض، فقد قلد صديقنا الاستاذ احمد المكناسى الامير شكيب أرسلان فى الحلل السندسية فقال: «ان بوزكور كانت مدينة فيما سلـف لكنها خربت ولم يبق لها رسم وتسمى فى كتب التواريخ «نكور».، وهـذا غلط عن شكيب أرسلان تبعه فيه الاستاذ احمد المكناسى مدير الخزانـة العامة بتطوان سابقا، والواقع أن بوسكور موضع آخر قرب بادس، وبعيد عن النكور بحوالى 30 كلم، وبوسكور مرسى على البحر بين حافات بقيوة، أما مدينة النكور فهى بعيدة عن البحر بحوالى 15 كلم تقريبا، وتقع فى قبيلة بنى بوعياش والحقيقة أن الذى ذكرهـا هو الشريف الادريسى فى نزهة المشتاق، اذ قال: «ومن بوزكور الى المزمة 20 ميلا، وكانت قريـة عامرة ومرسى توسق منها المراكـب» .

وتوجد شرقى بوسكور قمة عالية كانت فيها رباطة تدعى رباطـة

للا منانة، ولا زالت معروفة بهذا الاسم الى الآن، وهى فى علو شاهق داخل فى البحر مشرف عليه اشرافا تامـــا .

وبوسكور هكذا بالسين، وليست بالزاى كما جاء فى الحلل السندسية نقلا عن نزهة المشتاق، وقد كانت قرية عامرة بين بادس والمزمة، ولا رال الموضع يعرف بهذا الاسم الى الآن، وهى غربى مدينة الحسيمـــة الآن بحوالى 10 كم بحرا، وليست هى مدينة النكور كما ذكر فى المصدر نفسه (1) نقلا عن نزهة المشتاق للادريسى .

وتقع مرسى بوسكور أسفل قرية تدعى الآن التسولايين، وانمـــا سميت بذلك لانها مسكونة بقوم أتى جدهم الذى يدعى محمد بن عبد العريز من قبيلـــة التسول بأحواز تـــازة .

وللقرية عادة فى الصيف يقيمون فى مرسى بوسكور حفنة الصيف، ولعل هذه العادة موروثة عن أهل بوسكور، لانها كانت قرية عاصرت مدينة بادس، وكان بها مسجد قديم لا زال قائم الاثر، وقد عثر البناؤون عنـــد ترميمه عن قرمود قديم، كما توجد آثار لصومعة فى موضع يدعى الخندق، وهذه الصومعة لم تكن للمسجد الاول، بل تدل على أنه كان هناك مسجد آخر بالخندق ويدعى الخندق الاسفل كما يوجد هناك خنـــدق آخر يدعى بالخنـــدق الاعلى .

وهناك ضريحان اثنان، احدهما يدعى بسيدى يعقـــوب والثانى لولده يدعى الحاج داود وهما شريفان بقاليان، ترك الثانى ولدا هناك يدعى الحاج ياسين، وفى شرقى بوسكور جرف يدعى بجرف الجمل وفى أعـــلاه، تقع رباطة للا ميمونـــة، وهى قمة كما أسلفنـــا داخلة فى البحر يصعـــب الصعـــود اليهـــا .

رباطـــة النـــكـــور : وعدا سواحل البحر فكانت توجد أيضـــا محل الرباطات يقـــوم فيها حراس المدينة ففى قريـــة الرابضة من بنى بوعياش، (وهى مسقط رأس عائلتنا) كانت توجـــد رباطة تدعى الى الآن أم الرابضة وهى فى أعلى قمة بالجنوب الغربى لمدينة النكور التاريخيـــة،

---

(2) من اللحلل السندسية صحيفة 69 طبعة فاس .

وتشرف هذه الرباطة على سهول النكور جميعا، كما تشـــرف على هضبات بنى توزين وتمسامان وغيرها، بحيث أن الحراسة ثمه يمكن لها أن تطلع على ما يجرى فى الجهات الاربع لمدينة النكور، وكانت على خط الطريق الذى يربط بين مدينة النكور والجنوب مارا فى أعلى قمة جبل حمام وبنى عمرت الى فـــاس .

وهكذا كانت رباطات على السواحل والمواقع الهامة من البلاد حتى تصل الى سبتة فنجد ثمة أيضا رباطات منهـــا :

1) رباطـــة الصيـــد : فقد حدث الشيخ أبو عبد الله محمد بـــن أبى القاسم بن الصبان عن أبيه قال أنه كان من أهل مدينة فاس فانتقـــل منها مرتحلا الى المشرق ثم رجع من المشرق فاستوطن مدينة سبتـــة الى أن مات بها، قال ابنه المذكور كنا معه يوما فى رباطة الصيد وجماعـــة من الناس قد حضروا فقال ان العوام فى البحر يجمعنا فقال الحاضرون سمعا وطاعة فنزلنا الى البحر وعمنا الخ. (1)، وذلك ان أحدهم كان جنبا فأراد بالعوم فى البحر أن يغتسل الجنـــب .

2) رباطـــة حجارة السودان : وكان بات ذلك الفقير ليلـــة وروده برباطة حجارة السودان خارج البلـــد (2) .

الانـــدلس تحيـــى بـــادس :

ان علاقة بادس بالاندلس كانت وثيقة كما أسلفنا، فالمراكب ذات الشـــراع الابيض تأتى بحركـــة بين العـــدوتين محملة من هنا وهنـــاك بالسلع والمجاهدين، فالزيـــت الاشبيلى الجيد مما يستـــورد الى بادس ومعجون الترنج كان يتهادى به الاصحـــاب والخلان، فقد حدث الشيـــخ أبو الحسن ابن ماخوخ قال: كان بين الشيخ ابن عبد الله (اليستثنى) وبين الشيخ أبى اسحـــاق مراسلة ويرسل بمعجون الترنـــج (3)، والمجاهدون يفدون الى الخطوط الامامية لاجل الجهاد فى العدو وربما تعرضوا للكـــلاب

---

(1) المقصد الشريف للتعريف بصلحاء الريف للمؤلف عبد الحق الخزراجى.
(2) المصدر نفسه. (3) المصدر نفسه.

البوليسية، كما رحل الى بادس كثير من العلماء والصالحين ولهم فيها مقام حسن سنأتى على التعريف بهم فى محله ان شاء الله.

أما التحية التى أرسلتها الاندلس مدوية صادقة تحمل الاشـــواق اليها، فهذه القصيدة الرنانة التى تعد من روائع لسان الدين ابن الخطيب، ذلك البلبل الصداح الذى غنى بشعره ونثره منتقلا من غصن الى غصـــن، متخيرا الاغراض الشيقة، فقد قال فى مدينة بادس : (1) .

عسى خطـــرة بالركب يا حـــادى العيس (2)
على الهضبـــة الشمـــاء من قصـــر بـــادس
لنظـــفـــر مـــن ذاك الـــزلال بـــعـــلـــــة
وننعـــم فى تلـــك الظـــلال بتعـــريس (3)
حبســـت بهـــا ركبـــى فـــواقـــا (4) وانمـــا
عقـــدت على قلبـــى لهـــا عقـــد تحبيـــس
لقـــد رسخت آى الجـــوى فى حـــوانحـــى
كمـــا رســـخ الانجيـــل فى قلـــب قسيـــس
بميـــدان جفنـــى للســـهـــاد (5) كتيـــبـــة
تغـــير على سرح الكرى (6) فى كراديـــس (7)
ومـــا بـــى الا نـــفـــحـــة حـــاجـــريـــــة
ســـرت والدجى ما بـــين وهى وتغليـــس (8)
ألا نفســـي يـــا ريـــح من جانـــب الحمـــى
تنفـــس من نـــار الجـــوى بعض تنفيـــس
ويـــا قلـــب لا تلـــق الســـلاح فـــربـــمـــا
تعـــذر فى الـــدهـــر اطـــراد المقـــاييـــس

---

(1) أزهار الرياض. (2) الابل البيضـــاء يخالطها سواد خفيف الواحـــد العيس والواحدة عيساء (3) عرس القوم نزلوا فى السفر للاستراحة ثم يرتحلون. (4) ما بين فتحة اليد وضمها على الضرع. (5) الارق. (6) النـــوم. (7) طائفة عظيمة من الخيل. (8) ظلمة آخر الليـــل.

وقــد تعتــب الايــام بــعــد عتــابهــا
وقــد يعقــب اللــه النعيــم مــن البــؤس
ولا تخش لــج الدمــع يــا خطــرة الكــرى
الى الجفن بــل قيســى على صرح بلقيــس
تقــول سليمــى مــا لجسمــك شــاحــب ؟
مقــالــة تــانيــب يشــاب بتــانيــس
وقــد كنــت تسطــو كلمــا هبت الصبــا
بــريــان فى مــاء الشبيبــة مغــمــوس
ومن رابــح الايــام يــا بنــت عــامــر
يجــوب الفــلا راحــت يــداه بتفليــس
فــلا تحسبــى والصــدق خــير سجــيــة
ظهــور النــوى (1) الا بطون النــواميــس
وقــفــراء أمــا ركــبــهــا فمــضــلــل
ومربعهــا (2) مــن آنــس غــير مأنــوس
سنحــنــا بهــا مــن هــضبــة لــقــرارة
ظــلالا وملنــا من كناس (3) الى خيــس (4)
اذا مــا نهضنــا عــن مقيــل غــزالــة (5)
نزلنــا فعرسنــا بســاحــة عــريــس (6)
أدرنــا بهــا كأســا دهــاقــا مــن السرى
املنــا بهــا عنــد الصبــاح من الــروس (7)
وحــانــة خمــار هــدانــا لقصــدهــا
شميــم الحميــا (8) واصطكــاك النواقيــس

---

(1) البعد. (2) محل الربيع الذى ترعاه الابل وغيرها. (3) عرين الضبــاء الوديعة. (4) عرين الاســد الشرسة. (5) الشمــس عند ارتفاعهــا. (6) نزلنا للاستراحة ثم ارتحلنا. (7) المشى بالتبختر (8) صــورة الخمر أو الخمر نفســه .

تطلع بانيها من جداره
يهيم في جنح الظلام لتقديس
بكرنا وقلنا اذ نزلنا بساحة
عن الصافنات (1) الجرد والضمر العيس (2)
أيا عابد الناسوت انا عصابة
اتينا لتثليث بلى ولتسديس
وما قصدنا الا المقام بحانة
وكم البس الحق المبين بتلبيس
فأنزلنا قوراء (3) في جنباتها
محاريب شتى لاختلاف النواميس
بدرنا بها طي الختام بسجدة
أردنا بها تجديد حسرة ابليس
ودار العذارى بالمدام كأنها
قطا (4) تتهادى في رياش الطواويس
وصار فنانيها نضادا بمثله
كأنا ملأنا الكأس ليلا من الكيس (5)
وقمنا نشاوى عندما متع الضحى
كما نهضت غاب الاسود من الخيس (6)
فقال : لبيس المسلمون ضيوفنا
أما وأبيك الحبر ما نحن بالبيس (7)
وهل في بني مثواك الا مبرز
بحلبة شوى أو بحلقة تدريس

---

(1) الصافنات من الخيل التى تقف على ثلاث قوائم. (2) الابل البيضاء يخالطها سواد خفيف. (3) الخيل الضامرة من التعب. (4) الحمام . (5) العقل والظرف. (6) العرين. (7) لا يقال فى حقنا بيس القوم .

اذا هــز عســال (1) اليــراعــة فــاتــكــا
أســال نخيــع (2) الحبــر فــوق القراطيس
يقلــب تحت النقــع (3) مقلــة ضاحــك
اذا التقــت الابــطــال عن مقــل شــوس
سبينــا عقــار الــروم فى عقــر خــاننــا
بحيــلــة تمــويــه وخــدعــة تــدليــس
لئــن أنكــرت شكلــى ففضلــى واضــح
وهــل جائــز فى العقل انكــار محســوس ؟
رسبــت بأقصــى الغــرب ذخــر مظنــة
وكــم درة علياء فى قــاع قــامــوس (4)
واغــريــت نفســى بــالعذيــب وبــادس
على وطــن دانــى الجــوار مــن الســوس

هذه هى القصيدة الرائعة التى حيا بها لسان الدين ابن الخطيب هذه المدينة التاريخية وقد أحسن فيها واجاد، وغاص على ذرر البــلاغــة فيها وافاد، وقد انتقى المقرى هذه القصيدة فى ازهار الرياض وعلق عليها فقال: قال بعض الاعلام شعر ابن الخطيب ما بعده مطمــع لطامــع، ولا معرج على شاعر بعــده للآذان والمسامع، فمن ذلــك قوله سامحه الله: (واتى على القصيدة برمتها) فالقصيدة تعبير صادق لما كانت عليه المدنية من عزة واكبار فى أعين الاندلسيين، فهضبتها شماء ــ أى منيعة ــ وعزيزة، لانها وعرة المسالك، ولكن بالرجال الاشداء الذين تحصنت بهم من حاملــى السيوف والاقــلام والصلاح معــا .

لذلك فانه يترجى أن ينهل من معين عرفانها وصلاحها ولو بعلــة، ــ بفتح العين ــ ما يتعلل به وان ينزل تحت ظــلال السيوف أو الفــلاح ولو آخــر الليــل .

---

(1) رمح يهتز لينا كناية هنا عن القلم. (2) نخع العــود جرى منــه الماء. (3) الغبار المتطاير من القتال. (4) البحــر .

ثم تحسر على أنه لم يحط بها ركابه الا فواقا ـ بضم الفاء وفتح الواو ـ ما بين فتح اليد وضمها على الضرع وهو كناية عن أن الوقت الذى قضاه فيها قصير، ولو كانت أياما، لان ذلك بالنسبة لمزاياها لا يستكثر، الا أنه سلى نفسه بأنه حبس قلبه، فالتحبيس لا يبدل ولا يغير، ثم ذكر الباعث على التحبيس والنتائج الملموسة للتحبيس اذ رسخت آى الجوى بجوانبه، ثم استغاث فى تضرع المحب وتذلله الا نفس ياريح من جانب الحمى، ومع ذلك فقد قوى من عزائمه وترك اليأس جانبا، شأن المتشبث الصارم كى لا يدخل اليأس الى نفسه فتنهار معنوياته، ويا قلب لا تلقى السلاح وربما تعذر فى الدهر اطراد المقاييس، وضرب لاقناعه أى القلب حكما وأمثلة مما لا ينكرها، وأمره بالتأسى بقوله «تعالى ادخلى الصرح» مع ما فيه من تشبيه بادس بصرح بلقيس، ثم رد ردا منطقيا صارما على بنت عامر، التى تزيد فى تحريك ما كمن من نار الجوى اذ تذكره بالشحوب وتغير اللون، فشرح لها أى عزة هى التى يشتملون عندما ينحدرون من الكناس ـ أى موضع الضباء الوديعة ـ الى خيس الاسد ـ أى عرينها ـ ليعرسوا بعريسها، فأى فخار هذا وأية سعادة تلك، حينما يتبادلون السرور كؤوسا دهاقا، ثم ما شئت من وصف بارع لحالة السرور التى صاغها فى الفاظ لم يرد منها الا التعبير الصادق لتلك الحالة، فالتثليث والتسديس والعذارى والمدام والنواميس ونشاوى، كل ذلك أضفى صورة بليغة ممتعة لحالة الابتهاج والانس بالاقران فى ميدان الصفاء، ثم ابان عن تلك المعانى اللغوية فى صراحة واعتزاز «وهل فى بنى مثواك الا مبرز ـ بحلبة شورى أو بحلقة تدريس»، ابان أن الرفاق من علية القوم من ايوان حكم أو شرف علم وصاحب قلم، لان المدينة ليست الا مأوى لامثال هؤلاء القوم فانكار صورة لا تزيح عن صاحبه فضله كوقوع الدر فى البحر لا ينقص من قيمتها .

ومع ذلك فانه لا يزال يغرى سجيته ويمنيها عن هذا الوطن بالبارق والعذيب، أى يغريها بمواضع أخرى محبوبة عندها حتى تتاسى عن الوطن القريب من سوس .

وأنت ترى أية تحية هذه التى أرسلها، وأى وصف هذا لهذا المعقل

الحصين من هذه العدوة المباركة، ويرجح أن يكون صدرت عنه بفاتح القرن الثامن لانه توفى سنـــة 706 هـ.

ابن سبعـــين الفيلسوف ببـــادس :

اسمه عبد الحق ابن سبعين المرسى من مرسية بالاندلس، ولـــد سنة 614 هـ. وتوفى سنة 669 هـ. وكان بادىء ذى بدء تصوف فاستقر ببسبتة وشغفت به امرأة موسرة فتزوجها وبنت له زاوية فى داخـــل دارها وانفقت عليه أموالا طائلة، ثم أنه اشتغل بالفلسفة، وكان له بـــاع طويل وبالاخص أن عهد الموحدين كان حافلا بالعلوم والفنون، وكـــان المغرب (1) من الاقطار التى يفزع اليهـــا فى مشاكل الفلسفة، فكـــان ابن سبعين هذا بمن برز فى الفلسفة وأحرز قصب السبق حتى ان علماء سبتة ندبوه للجواب على سؤال ملـــك ايطاليا فدريك الثانى الـــذى رفعه الى علماء سبتة فى مسائل فلسفية، فانتدب للجواب عنها وكان يعتبر اذ ذاك من الفلاسفة المسلمين الكبار، فألف كتابا سماه المسائل العقلية، وقد اشتمل على 19 صفحة، وتوجد منه نسخة خطية فى اكسفورد وألف كتابـــا آخـــر سماه الفقرية (2) قال فيه «الفقير ليس متصلا بالعالم ولا منفصلا عنـــه ولا داخلا فيه ولا خارجا عنه» وقد شيع عليه علماء الوقت فى ذلك، لان هذا الكلام لا معنى له كما اعترض عن الغزالى فقال انه مضطرب وعاب عـــن ابن سيناء، بأنه حائر وقال ان التصوف لم يدركه احد ممن سلـــف .

نفيـــه عـــن سبتـــة : وفى أثناء اشتغالـــه بالفلسفة بسبتة قام أعداؤه بالوشى به عند حاكم المدينة ابن خلاص طاعنين فيه من حيـــث علاقته بالمرأة المثرية، ومن المعلوم أن الفلاسفة يعيشون فى عالم من حرية التفكير وربما يسخرون من العالم المـــادى وربما اطلقوا للسانهم العنـــان ليعبر عن تلك الافكار، فاذا بهم أمام مصاعب متألفـــة .

وذلك ما وقع لهذا الفيلسوف المتبحر، ووشى به أقر أنه من العلماء وجعلوا تأليفه الذى ألفـــه تحت عنوان «ابـــد» سندا للطعن فيه، فانـــه

---

(1) نفح الطيب ج.أ.ص. 418، والمستشرقون ص. 17 وكتاب العلـــوم والادب والفنون فى عهد الموحدين للمتونى. (2) المقصد الشريف .

حشره بالنظريات الفلسفية، وانكروا عليه تسمية الكتاب «بالبـد» وهـو اسم صنم، يقول المعرى: «ويعبد القاب من اهوائه: ما يعبد الكافر من بده».

فنفاه ابن خلاص عن سبتة وجمع رحله فنزل ببادس، وكان يجلس فى الجامع الاعظم للمحاورات، فيأتيه العلماء والقضاة للحـوار معه (1)، قال القاضى اسماعيل بن احمد الخزرجى البادسى المتوفى عام 685 هـ. ببادس، كان ابن سبعين قد استقر بمدينة سبتة، فشاع عنه أنه فيلسوف فنفاه ابن خلاص منها فمر علينا ببادس متوجها الى المشرق فدخلت عليـه بجامع بادس فسألته، عن قوله تعالى «قـل ان كان للرحمان ولد، فأنـا أول العابدين»، فقال لى أول الجاحدين، قلت وهذا القول أضعف ما قيـل فى ذلك، فانه انفرد أبو عبيدة بنقل العابد بمعنى الجاحد، قال: تقول العرب عبدنى حقى ـ أى جحدنى ـ، ثم أنه ارتحل الى المشرق فاستقر بمكـة وكانت له أخبار فى الطب والفلسفة حتى انه صنع لابى نمى أمير مكة شقا فى رأسه كان أصيب به فى حرب بقشر القرعة، وحضى عنده واتسع ذكـره واتصل خبره بالملك المظفر ملك اليمن فـدس عليه من سمه فمات بمكـة، وقد مدحه اوحد زمانه شعرا وأدبا وظرفا نجم الدين فى قصيدة بارعة منها، وشيخ غدا فى الفضل منقطع النـد أمام المعالى والمراقى ومن له الفضل ما أربى عن الحصر والعـد

البرغـواطيـون ببـادس :

من هم البرغواطيون هؤلاء؟ : انهم من المصامدة، كان لهم نفـوذ على البلاد التى كانت تعرف اذ ذاك بتماسنا، وهى ما بين سلا شمالا الـى أسفى جنوبا، أسسوا مملكة هناك تعاقبوا عليها من أوائل القرن الثانـى الهجرى الى أواسط القرن الخامس، وقـد بنوا أمرهم هذا على خـرافة التنبأ، أول من تنبأ منهم طريف البرغواطى، الا أنه لم يوطد أركان تنبئه على قواعد، ولعله لضيق الزمن الذى عمل فيه مستقلا، لانه كان تابعا لمسيرة الخفير الصفرى، فلما توفى ميسرة خلفه، وانما الذى وسع فى تلك المخرفة

---

(1) المقصـد الشريف .

ولده صالح بن طريف البرغواطى فانشـــأ ديانة وحال وحرم كـــانت هذه الديانة لصالح الديك، لانها حرمت ذبحه وأكله فعظم شأنه وأصبح امامـــا فى صيحاتـــه يتباهى ومن ذبحه اعتق رقبة، كما رفع الحجر عن الـــزواج والطلاق، فليتزوج البرغواطى من شـــاء، وليطلق كذلك الى غير ذلـــك من الخـــرافـــات .

وبسبب هذا التنبؤ فتحت فى هذه الجهة من المغرب جبهة للجهـــاد، مكان المغاربة، وبالاخص المتسابقون الى الاستشهاد يغزون فى سبيل الله ويقتلون الرغواطى اينما ثقف ويتوغلون فى تخوم البلاد التى استحوذوا عليها، ويردون هم الهجمات الى جهات المغرب الاخرى، غير تماسنا، وهكذا يكون المد والجزر وقد ظل الى ما شاء الله، الى أن قامت دولة المرابطـــين، فطهرت المغرب منهم نهائيا .

ومما كان من هذا المد أنهم استولوا على مدينة بادس، الا أننا لا نعلم بالضبط أول استيلائهم ولا مدة بقائهم فيها، ماعدا ما وقفنا عنه من مخطوط لمناقب الشيخ الحاج حسون الذى كان حيا فى أواسط القـــرن الخامس الهجرى، وحج عام 466، فيكون استيلاء البرغواطيين عليها كان أواخر ايامهم بالمغرب، لانهم انقرضوا بأواسط القرن الخامس وان ذلـــك كـــان قبل حج الشيـــخ حســـون .

على ابن العافية البرغواطى والشيخ الحاج حسون :

كان على ابن العافية هذا قائدا للبرغواطيين على بادس وكان لـــه وزراء وجنود وفى ضواحى هذه المدينـــة من قبيلة بقيوة بقريـــة ادوز، كانت تقع زاوية الشيخ حسون الذى تلمذ للشيخ أبى داود التمسمانى الذى تلمذ لابى مدين ورجع حسون الى بلـــده بادوز وقعد باذن شيخـــه ليربى التلاميذ المنقطعين الى العبـــادة وترويض النفس، فشاع خبـــره وصلاحه فى أواسط القبائل واثر فيهم ذلك الصلاح فأوجس منه القائـــد البرغواطى خيفة وخشى تفاقم أمره واستعظمت له بطانته أمر الشيخ، فاستشار رئيس البرغواطيين بتاماسنا، وقـــد قال فى كتاب «كشـــف النقاب فى مناقب الشيخ الاواب الحاج حسون المبين فضله لدى كل مـــن

أناب وقد صحت لدى كل من قد صدق ومن تاب» لمؤلفه أبى الحسن على المراكشى الذى توفى ببادس كما سيأتى عند التعريف به، ان قائد البرغواطيين هذا أرسل الى أخيه البرغواطى ـ يعنى رئيس البرغواطيين ـ، فقد أجابه رئيسهم بأن يغير بجنوده وأهالى القبائل على الشيخ وأمره فوق هذا بأن يقرأ كتابه على رؤوس الاشهاد ويطلق المنادين فى أسواق المدينة .

فأرسل الى القبائل للتقاطر اليه ليؤلف حملة فأتت اليه مآت من الاجناد والارماة من قبائل بنى يطفت وهنتوتة وبنى ورغين وبنى بويفرح وغيرها، ولما تكاملت قوته وهم بالخروج من بادس الى جهة الحاج حسون بآدوز، دخل عليه الزاهد العابد الشريف الورع سيدى عبد الله (ولعله والد ابى عبد الله محمد الشريف المذكور فى مؤلف المقصد الشريف، لانه ذكر ثمة أنه محمد بن عبد الله الحسنى) وهو ـ أى عبد الله هذا ـ مدفون بأعلا مقابر بادس وروضته مشهورة تزار.، دخل عليه ـ أى على قائد بادس البرغواطى ـ وكلمه ليكف عن التوجه الى الحاج حسون قائلا: ان الرجل من الصالحين وانه لم يفعل ما يفعله على هواه، وانما متبع للسنة وانه مشتغل بأوراده وتلقين تلامذته وانه ان تركه فانه يكون منه مطمئنا من جهة السياسة، وأما اذا توجه اليه فانه لا يأمن أن تأتى منه اذاية الاهية، وذكر له حديث «من أذى وليا من أوليائى فقد بارزنى بالمحاربة» غير أنه لم يسمع منه شيئا، بل زاد غيضا، فانصرف الشريف مغاضبا .

أما البرغواطى فانه فى الصباح خرج بالقوة التى معه متوجها الى الحاج حسون، وعند الزوال وصل الى الموضع الذى كان يدعى «بنجرجرت» فنزل وأمر بضرب الخيمة ودخل البرغواطى الى خبائه وأرسل الى كاتبه انفقيه احمد التوزانى وبعض وجوه القبائل ورؤساء أجناده وأمرهم بأن يأتوا الى الشيخ الحاج حسون ليعرضوا عليه أن يأتى اليه فى تلك الليلة أو فى غده بمن معه من تلامذته، فان لم يمتثل فانه يهجم عليه صباحا بجنوده التى لا قبل له بها ويخرجهم من الزاوية اذلة وهم صاغرون، فتوجهوا حالا ولما وصلوا الى الزاوية وجدوه فى خلوته يعبد الله ولا يبالى والفقراء فى الزاوية بالمسجد المسمى بمسجد الحاج (وهو الحاج على

التذكنتى البقوى) ولما وجـــدوه فى الخلوة لم يقـــدر أحد أن يدخل عليـــه، فأرسلوا ولده الصغير عبد الحليم، لان الحاج محمد ولده الكبير اختفى منذ ثلاثة أيام، فلما دخل عليه ولده عبد الحليم القاه فى خلوته ساجدا متضرعا الى الله، فكلمه أولا فلم يجبه ثم ثانيا فثالثا، ثم قال له ولده يأبت ان قائد بادس والاعيان يريدون ان يدخلوا عندك ليبلغوك ما أمرهم به ذلك القائـــد فاذن بدخول الفقيه التوزانى عليـــه وحده، فدخل عليـــه، فلما سلم عليـــه صافحه الشيخ وأجلسه معه وقال لـــه ما تريد، فاستحيى التـــوزانى من ابلاغه أمر القائد، ولكن الشيخ بادره وقال له قل ولا عليك فانك رســـول، وحينئذ أعلمه التوزانى بما أتى من أجله وقال له ان هذا الخبيث المطرود من رحمة الله عازم على الفضيحة الا أن الله يحميك منه، فأجابه الشيـــخ ثابتا بأن يعلمه بأنه غدا يسير اليه وأوصاه فى خاصة نفسه أن لا يخشى شيئا، فان الله سيكفيـــه مؤنته، فخـــرج الكاتب وأمر القواد والاعيـــان بالركوب متوجهين الى محل البرغواطى، فلما وصل اعلمه بعزم الشيخ على المجيىء غدا قائلا له ان الشيخ لا يخلف وعده، فأمر بنشر الخبر فى الاجناد والقوة فاستبشروا خيرا وباتوا فى ســـرور .

عمـــل الشيـــخ غـــــده :

ان الشيخ لم يتوان فى غده أن وفى بوعده فذهب فى ثلة من فقرائه لا يتجاوزون الخمسة عشرة والباقى الذى كـــان يبلغ اربعمائة اختفـــوا وجنين، وكان معه ولده الحاج محمد وعبد الحليم وعبد الرحمن بن الشماس (خديمه) والمعلم عبدون، فذهب الشيخ متكئا على عصاه وهو يدعو بالدعاء الآتى: «يامن له العظمة والجبروت ياذا الملك والملكـــوت، يامـــن هو حى لا يموت، انصرنا على من يموت»، وكان أصحابه يرددونه بعده الى أن أتى موضع الصفاح يدعى صف الحمام، فقال للفقراء من يذهب ليأتينا بخبـــر المحلة، فقال المعلم عبدون انا لها، وذهب فوجدهم نائمين قد أخذ الله علـــى أبصارهم، فرجع وأعلم الشيخ بذلك، فكان الشيخ يردد «هكذا، هكـــذا، والا فلا طرق الجد غير طرق المزاح» ثم تقدم الشيخ بعصاه والفقراء وراءه الى أن وصل الى شجرة عرعار ثمه، وقال هذا حد زاويتى، وركز حـــدودا

ثمة، ثم أمر المعلم عبدون وولده الحاج محمد وعبد الرحمن بن الشماس وقال لهم ايتوا هذه المحلة وخذوا من ترابها وانشروه عليهم، ثم ادخلوا على قائدها وكلموه بأن يذهب الى حال سبيله، فانه يستجيب لذلك ان شاء الله، ففعلوا، فما كان من القائد بعد سماع موعظتهم الا أن أمر بركوب الجميع والتوجه الى بادس، فرجع الشيخ وتلامذته الى مقر عبادتهم مستأنفين نشاطهم .

هذا فى كتاب مناقب الشيخ، وهو أمر لا يستبعده عقل ولا نقل، لان الايمان بالشىء والعزيمة القويمة هما أحد من السيف وأمضى، فالشيخ كان ثابتا على مبدئه متحديا هذا الظالم الذى يريد هتك حرمته فى معبده فأتاه من حيث الموعظة وعدم الا مبالات له، فكانت حكمة الله أن رده على أعقابه خاسرا، ومثل هذه الواقعة موجودة عند أولى العزم من الصالحين أسوة بالنبى محمد (صلعم) .

تغلب العرب على بادس :

ففى حدود عام 635 هـ. تغلب العرب للمرة الثانية على بلاد الريف، واستولوا من جملة ما استولوا عليه مدينة بادس، وكان الاهالى يخافون منهم ويختفون عن أنظارهم فقد حدث عبد الحق بن اسماعيل البادسى أن أهالى بادس اختفوا عن أنظار العرب المتغلبين، حينما احتلوا مدينة بادس، وكان الشيخ أبو الحسن المراكشى يذهب ويجىء من دون مبالاة ولا رؤية العرب، وحدث عبد الله المعرى البادسى قال: كانت العرب قد تغلبت على الريف عام 35 (أى وستمائة) (635 هـ) فخفنا منهم فارتحل جميع أهل بادس بأموالهم وأمتعتهم الى الجزيرة التى فى بادس وكنا نحرس الديار رجالا بالاسلحة لا غير، فاذا جاءت العرب غدوة انبسطوا فى الوادى وتقطع الناس من العدوتين عدوة الصف وعدوة الركينة، لا يقدر من يدخل الوادى من أجل العرب وكنت أرى الشيخ أبا الحسن المراكشى جائيا ذاهبا من احدى العدوتين الى الاخرى، ويشق فى وسط العرب وعليه ثيابه فما ناله من احدهم منه شىء» .

ان هذا النص يدل على أن العرب فى احتلالهم الريف كان بصفة المتغلب المتسلط، بحيث أن الاهالى ينفرون من وجوههم ولا يخالطونهم،

كما أن العرب يعاملون الاهالى بالقسوة والقتل، فلم يكن هؤلاء العرب العرب قد امتزجوا بعد مع الاهالى امتزاجا روحيا يعدونهم منهم واليهم، بل كان احتلالهم للبلاد شبه اكتساح لها، يقتلون وينهبون ثم يذهبون، ومن المعلوم أن ملوك بنى مرين الاولين كانت لهم حروب مع عرب رياح فى المغرب، فالامير عبد الحق ابن محيو المرينى الذى أمر المرينيين الاولين عام 613 هـ. قام بحروب ضروس مع عرب رياح لقى حتفه بوقعة وادى سبو، وقد طاف ولده عثمان الذى تولى من بعده أمر المرينيين على قبائل المغرب، ووصل فيما وصل اليه بقبائل بطيوة من الريف وقد انتصر المرينيون على العرب (1)، الا أنه رغم هذا الانتصار فانه لم يقض على عرب رياح، فقد بقوا بقاء النار تحت الرماد، ففى عام 621 هـ. غزاهم أيضا ببلاد الهبط وازغار واثخن فيهم، وهكذا استمر فى العراك معهم الى أن توفى سنة 638 هـ. (2)، ومما ذكر، يعلم أن استلاء العرب على بادس والريف كان أيام أبى سعيد عثمان بن عبد الله المرينى، لان الاستيلاء كان عام 635 هـ. وهو فى ذلك الوقت كان يقوم بالحرب فى أطراف المغرب الشمالية ضد هؤلاء العرب، وبما أن أهالى الريف كانوا يعتزون بان الدولة المرينية الجديدة، كانت دولتهم لانها نشأت بين أحضانهم، فالموقعة الاولى التى انتصر فيها المرينيون على الموحدين والتى تدعى وقعة المشعلة، كانت بوادى النكور، وكان معقلهم الذى درجوا فيه ومنه ترعرعوا حصن تزوطا (قرب الناظور) من شعب بطيوة، فان تسلط العرب عليهم بمثابة احتلال لبلاد موالية لاعدائهم المرينيين، فلذا كان الاهالى يفرون من وجوههم ويحرسون ديارهم بالاسلحة، وكان العرب يفرضون على الاهالى مغارم ربما وقعت بينهم حروب بسبب تلك المغارم، فقد حدث (3) عن ابن عقيل بن عبد الرزاق بن عبد الواحد بن الحاج ابراهيم بن عيسى بن الشيخ داود التمسمانى، أن العرب فى حياة جده الحاج ابراهيم ـ المولود عام 560 والمتوفى 650 هـ. ـ الذين تغلبوا على الريف، فرضوا

---

(1) الاستقصاء، ج ـ ث ـ ص. 9 (2) الاستقصاء، ج ـ ث ـ ص 10 .
(3) المقصد الشريف .

مغرما على قبيلة بنى ورتدا، ــ وهى من قبيلة تمسامان ــ فامتنع أهالى القبيلة من اداء ذلك المغرم وتحصنوا بمعاقلهم بساحل البحــر، فلما رأى العرب توتر الحالة بينهم وبين القبيلة، طلبوا من الحاج ابراهيم، وكــان يسكن فى دار جده أبى داود، ويتعبد فى رباطته ــ المتقدمة الذكــر ــ أن يتوسط بينهم وبين القبيلة، حتى يؤدوا المغارم المفروضة، وقد الح عليــه العرب الحاحا بعد ما امتنع، فذهب الى أهالى القبيلة وأبلغهم أمر العرب فامتنعوا ولم يجيبوه الشىء ثم أنه لما رجــع أسر على ساحــل البحر، أسره قراصنــة النصــارى .

وهذه القصة نفسها كانت فى التاريــخ نفسه، فان العــرب لما شردهم بنو مرين احتلوا الاماكين القاصيــة، وكانت لهم مع الاهالــى مناوشات وحروب، ولم يتفقــوا قــط .

تخــريــب بــادس :

وهكذا كانت مدينة بادس مرفأ للمغرب الى أن تعرضت لحملات عدائية من قبل أتراك الجزائر والاسبان الذين تنافسوا على اكتســاب جزيرتها للاستلاء عليها، وتكررت تلك الحملات مرات متعددة، فكانــت قراصنة (1) الاسبان من مليلية يغيرون عليهــا، بينما قراصنة الجزائــر الاتراك يتخذونها مقرا للهجوم على سواحل الاندلس واقتناص السفــن المتوجهة الى الهند يعاونهم فى ذلك قراصنة تطوان والعرائش، وكانت (2) قراصنة مليلية يؤدون لملك اسبانيا خمس اسلابهم ولولائهــم كانــوا يحملون اسبانيا والبرتغال سنويا أزيــد من مليون من العملة الذهبيــة، وكان الجند الريفى يتصدى للاسبان الذين يحتلون جزيرة بادس، وقــد طردوهــم منها عــام 929 هـ. وبقى الوطاسى أبو حسون ثم السعديون مالكين لبادس الى عام 1554 م. (961ــ962 هـ.، حيث احتلها الاتــراك نحوا من عشر سنوات، ثم استرجعها الاسبــان وهدموا مدينــة بادس، فتخربت واحتفظوا بجزيرتها معززين بــ 92 سفينة برتغالية واسبانية،

---

(1) ج.ل.ص. 243 من السلسلــة السعدونية. (2) السلسلــة الاولى السعدونيــة ج. لث. ص. 15 .

مع جنود مرتزقـــة من الالمان والصقلبيـــين والايطاليين، ثم استرجعهـــا الاتراك (1)، وقد رفض السلطان امضاء معاهدة للاعتراف بالامر الواقع ووجه قائدين لاسترجـــاع الحصـــن .

مـــديـــنـــة المـــزمـــة :

هناك فى منتهى سهـــل وادى غيس بالشط الشمالى الغـــربى أمام جزيرة النكور، وفى احضان رباطة المجاهدين عند أسفل هضاب أجديـــر، كانت تقع مدينة المزمة، يقال أن الاسم عربى مصحف عن الخزامى اسم لعشب كان ينبت فى تلك الجهة، ولما وصل العرب فى الفتح الاول ووجدوه بكثرة سموا المدينة به، وهكذا بالميم والزاى والميم، وفى بعض هوامش التاريخ المذمة ــ بالذال وهو خطأ صراح ــ لان اسماء الاعلام تنضبـــط بالنقل، وبه تثبت فالسنة الاهالى لا زالت تنقل خلفا عن سلف تسميـــة مرافق هذه المدينة باسم المزمة، فهذه ساقية المزمة، لساقية تخرج مـــن وادى غيس وتتجه صوب موقع المدينة الذى أصبح الآن من الخصوبـــة بمكان، بحيث ان ذلك الماء موزع برسوم لها قرون بالساعات، بل والدقائق، فلاولاد فلان مثلا كذا على ساقية المزمة، لان ماءها فى الصيف يخرج من عنصر معين يدعى «بويا حريشن» فيقسم على اسهم لساقية المزمة، وهى التى على الشط الشمالى الغربى لوادى غيس، كذا، ولساقية تفضنة كذا، وهى التى على الشـــط الجنوبى الشرقى، وكان من جملـــة محاكم ابـــن عبد الكريم «محكمة المزمة» التى كانت تعتبر المحكمة الرئيسية لقبيلـــة بنى وريـاغل، أما محكمة أجدير فهى خاصة بابن عبد الكريم وهى المركـــز العام لحركة التحرير، كما سيأتى مفصلا، وأما لفظة مذمة بالذال، فانـــه تحريف لحرف الزاى الى الذال وهما كثير الشبه .

واذا كانت لفظة المذمة المصفحة هى تحمل معنى لا يليق بمقـــام هذه المدينة التاريخية المجاهدة فانه يحق للسان حالها أن ينشـــد :

واذا أنتـــك مذمتى من ناقـــص فهى الشهـــادة لى بأنى كامل

---

(1) السلسلة الاولى السعدونية ج.لث.ص 63ــ141ــ151 .

وذكر الادريسى فى نزهة المشتاق، انها كانت قرية عامرة ومرسى تسوق المراكب منها، وذلك لانها كانت بمثابة ميناء لمدينة النكور التى تبعد عنها بحوالى 15 كم، وفضلا عن ذلك فانها المنفذ الوحيد لمحصولات سهول النكور الخصبية، فمنها تستصدر البلاد حاصلاتها الى بادس والى الاندلس، وكانت صلة الوصل بين مدينة النكور عاصمة الامراء العرب وبين بادس عاصمة الصنهاجيين والعلماء والصالحين .

مرافق المدينة :

كان بالمدينة جامع أعظم كما فى سائر المدن المغربية، وفى وقت ما كان الخطيب فيه محمد بن أبى بكر بن الفقيه عبد الله، ففى المقصد الشريف قال: وحدثنى احمد بن محمد الطائع الشهير بالادباس قال : سمعت محمد بن أبى بكر بن الفقيه عبد الله خطيب المزمة يحدث عن أبى طاهر الخ .

رباطة المجاهدين :

وقد تقدم الكلام عن رباطة المجاهدين التى على ربوة لاصقة بمدينة المزمة ولا زالت الى الآن محولة الى مسجد للصلوات الخمس، وتقام فيها حفلات عيد المولد النبوى الشريف يقصدها طلبة القبائل المجاورة.

رباطة أبى داود :

وقد تقدم أيضا الكلام مستوفى عن رباطة أبى داود التى هى على خمسة أميال شرقى مدينة المزمة، وقد بناها أبو داود حوالى عام 550 هـ.

جزيرة النكور :

وتوجد قبالة المدينة جزيرة النكور وكانت من معاقيل تلك المدينة ولا تبعد عن ارياسة الا بمقدار 500 متر فقط، ولهذه الجزيرة مقام خاص فقد كان أهالى مدينة المزمة وقبيلة بنى ورياغل يرابطون فيها خوف مباغتة العدو من جهة البحر، وكانت القراصنة يجوبون البحر ويغيرون على الشواطىء، وبالاخص محل العمارات فكانت جزيرة النكور رباطة لحراسة المدينة، وفى اثناء امارة النكور كان أمراؤها يلجأون اليها عندما تقع حرب بينهم وبين اعدائهم الجنوبيين، فعندما غزا مصالة ابن حبوس عامل العبديين على تاهرت مدينة النكور سنة 304 هـ. التجأ سعيد ابن صالح

اليمنى النكور بأهله الى جزيرة النكور وتحصن بها، ثم عبر البحر الـــى مالقة اذ تلقـــاه عبد الرحمان الثالث الامـــوى الملقب بالناصر لديـــن الله بالتبجلة والمكرمة كما سبـــق .

عـــلاقـــة المـــزمـــة ببـــادس :

كان لكل من المدينتين استقلالها عن الاخرى، الا أن علاقتهما كانت حسنة على ما أطلعنا عليه من نفث تاريخيـــة .

ففى عام 566 هـ. نجد أنه لما رجع الحاج حسون البقيوى — كان يسكن ضواحى بادس وتقدم موقفه من قائد البرغواطييـــن — من حجه مر على مدينة المزمة، وبقى فيها ثلاثة أيام، استضافه أهل تلـــك المدينة وهرع اليه جميع المحبين من تلامذته وأصدقائه وفرح به أهـــالى المزمـــة فرحا عظيمـــا (1) .

وفى كتاب مناقب أبى يعقوب البادسى «أن أحد السراق سرقوا حوالى أواسط القرن الثامن كيســـا لاحد الاندلسييـــن ورد على بادس وأخذها السارق وهرب الى المزمة، وبعد يومين من وقوع الحادثة وصـــل رسول من المزمة بكتاب من واليها يقول فيه وصل هنا رجل من الغـــزاة وبيده شكارة انكرناها عليه وسألنا عما فيها فتوقف فثقف وثقفت الشكارة، فان كان هناك من ضاع له شىء، فليأت، فتوجه الرجل التاجر — الـــذى ضاعت منه شكارته — الى المزمة وأخرج زمامه وذكر فيه جميع ما فى الشكارة، ورجع الى الشيخ — يعنى أبا يعقوب البادسى الذى كان دعى التاجر برد ضالته — ، ومن هذين النصين نستنتج العلاقة التى كانت بين المدينتين الساحليتين، كما نستنتج من النص الاخير مدى يقظة ولاتهـــا وحصافة أحكامهم، فان النص مستند هام لكون والى المزمة استعمـــل سياسة رشيدة فى القبض على السارق والبحث عن السرقة حتى تتجلى لـــه حقيقـــة الامـــر .

لجـــوء الادارســـة الى الشمـــال :

وكما ذكرنا، فقد ترك الفتح العربى الاســـلامى اثرا ذا جـــدور

---

(1) المقصـــد الشريـــف .

عميقة فى نفوس السكان الاصليين البرابرة فى عموم المغرب، وتأثروا بالتعليم الاسلامية تأثرا قاوم العصور والاعصار معا، وكان نصيب هذا الجزء الذى نؤرخه لا يقل عن غيره من الاجزاء فى نفس الاتجاه، بل أن الشرفاء وجدوا هنا ملاذا أمينا ونصرا مؤزرا حبتهم هذه الجهة وجعلت منهن نواة الخير، واستمطروا بهم بركات الله، ذلك ما جعل لهم من المكانة محل الصدارة واعتزوا من الدعامة الاولى للعرب الفاتحين، وقد امتزجوا مع الاهالى ليس فحسب بالمعاملات والاعتقاد، بل بالتزاوج والتناسل وبذلك تكون منهم ومن الذين تقبلوا وفادتهم برحابة الصدر دم مزيج، مما زاد فى نسبة الدم العربى الذى تركه العرب الفاتحون غير الاشراف فى هجراتهم الاولى، ولذا يعتبر الريف عربيا، ولا يؤثر فيه اللهجات المحلية، وفى هذا الصدد كنت نشرت فى جريدة الريف التى كانت تصدر بتطوان باشراف مديرها الشريف المبجل صديقنا الهمام المرحوم سيدى التهامى الوزانى، فى عدد 194 بتاريخ 25 يونية 1939 م. تحت عنوان «الريف وعروبته»، بينت فيه تمسك الريف بالعربية وذلك ردا على كتاب نشره مراقب اسبانى برتبة كولونيل يدعى «اميليو بلانكو» ضمن هذا الكتاب قوانين كانت قبائل الريف تعقدها ضبطا لعلاقتها فيما بينها عندما انحسرت سلطة الدولة الايام التى قبل الحماية عن هذه الاصقاع وسماه «قانون الريف»، وكان قصده تحضير جو ادماج الريف فى الظهير البربرى، أو استصدار مثله ضربا على نغمة الاستعمار الفرنسى، فكتبت هذا المقال، وكان له صدى بعيد الاثر فى دوائر المراقبة، كما كان عمل هذا الكولونيل سببا فى تنحيته عن هذه المنطقة وتغريبه الى «فرناندوبو» ـ بصحراء افريقيا ـ، حيث توفى هناك، وكان فحوى الذى نشرته ان اللهجة المحلية الريفية لا تغير من عروبته فى شىء، لان لغة الكتابة والدراسة والدين بل حتى التخاطب الرسمى هى لغة القرآن ولم توجد للهجة المحلية أية قواعد تنظيمية يكتب بها، ولم يوجد فى التاريخ لها كتابة ومعرفتها هى من باب معرفة الاشياء أفضل من جهلها، وان القوانين التى كانت تحرر فى علاقات القبائل بعضها مع بعض هى راجعة الى مسائل سياسة غير اجتماعية، وذلك كتنظيم لعلاقة الاتصالات فى الاسواق وحفظ الجوار وعدم اخفاره وما الى ذلك .

وعليه فيصح أن يلاحظ على اقبال العرب، وبالاخص الشرفاء منهم على الريف التأثيرات التالية :

1 ــ التأثير الديموغرافى الذى خلقه اختلاط النسب من هؤلاء وأولئك، بحيث لم يكن يعتبر هناك فارق بين مراتب الكفئية فى الزواج، فالمسلم كفؤ المسلمة من أية سلالة كانت فاقبل الطرفان على الاندماج فى العادات والبيئة اندماجا كليا، جعلت حالتهم الاجتماعية على قدم المساواة ولم ير أى طرف غضاضة فى اعتناق مبادىء الآخر الاجتماعية، وقد أخذ الجميع ما صلح من تقاليد كل، وذلك ما خلف فى هذه الجهات حياة اجتماعية راقية نسبيا عن جل البوادى الاخرى وهو ما يشاهد عيانا لمن جال فى تلك الاصقاع، فالعيش نضيف واحترام الاعراض موفور وكرم الضيافة والوفادة وحماية الجار الى أنواع الشهامة الاخرى مما يضرب به المثل .

2 ــ التأثير الدينى وذلك لمقام العترة الطاهرة التى انحدرت عن السلالة النبوية، والتى حملت مشعل الاسلام الى أقطار المغرب فى مبدىء هجرتها عند فرار المولى ادريس الاكبر امام تعسف العباسيين الذى أصاب آل البيت النبوى بدعوى تأثير محبتهم لدى المسلمين على الاتجاه السياسى فى المشرق، الامر الذى يخشى منه ان يعصف بعرش العباسيين، وبالاخص ان جمهور المسلمين فى ذلك الوقت كان دينهم الصراحة وعدم اللف والدوران، لاعتقادهم بأن ما يصيبهم لم يكن ليخطئهم وما اخطأهم لم يكن ليصيبهم، تلك مشيئة هى بيد الله وحده، ولهذا الاعتبار نفسه احتضنت هذه الجهة الشرفاء الوافدين الذين يعتبرون خيرا وبركة على حياتها، وان ذلك الاحتضان والحب هو قسط دينى يعتقدونه، كما اعتقدوا مبادىء التبشير الاسلامية الذى قام به الشرفاء .

3 ــ التأثير السياسى الذى خلقه جو امارات محلية للادارسة من لدن تولية عمر بن ادريس النواحى الريف من قبل أخيه محمد الاكبر، حيث جعل عاصمته «تيكساس» بغمارة، وكانت شاطئا واحدا مع بادس وسبتة، بحيث كان الاتصال ميسورا والاحكام نافذة والمسافة تقطع بزورق صباحا حيث يمسى فى بادس ومنها الى المزمة الى غساسة برأس ورك والى مليلية،

الامر الذى ضمن شمول النفوذ الادريسى شمولا كاملا حيث كانت الاوامر لا تخالف، لانها صدرت من سلطة شرعية من الوجهة الادارية ومن الوجهة الدينية التى كانت المحور الاساسى والوازع الاهم فى ضبط البلاد وحكمها.

ولهذه المزايا تدفق الاشراف الادارسة على هذه الجهة فعمروها وبالاخص فى أيام اضطهادهم فى مغرب الارض، كما اضطهدوا فى مشرقها، فعندما تسلط على تشريدهم موسى ابن ابى العافية الذى يعتبر ألد أعدائهم والذى تولى كبر الفتنة عليهم فى مواقع طويلة مستوفاة فى المصادر التاريخية، انحا شوا الى الريف فى ظرفين اثنين، أولهما فى ظرف تأسيسهم لامارتين اثنتين قاومت أعداءهم بجنودهم المخاصين الذين تكون اخلاصهم من محبتهم لآل النبى (صلعم)، ثانيهما فى ظرف اختيار هذه الجهة للسكنى والاستقرار بعد التشريد شرقا وغربا، وقد تقاطروا عليها من جميع الجهات، فخلفوا عائلات واحفادا، واستوطنوا أسوة بالسكان لا يجدون فارقا، بل يجدون محبة متغلغلة فى النفوس، كانت اثرها ان تكاثر الواردون عليها، وتسابقوا فلم تشذ أية قبيلة من قبائل الريف وغمارة ونواحى سبتة، حتى أن جبل العلم ببنى عروس أصبح محجا يحج اليه السكان، وفى فترات من الوقت كان محجا لسائر المغاربة يقصدونه للتبرك والتعرف على ملاذ آل النبى المختار (صلعم).

أما نواحى بادس، فان الحالة الدينية التى عاشت عليها هذه الجهة جعلت اقبال الشرفاء عليها استكمالا لحرية دينهم، يترجون منها أن تكون مقبرتهم لانها مقبرة الصالحين.

المنطقة الاولى لنفوذ الادارسة :

على اطلاق الريف الشامل لاراضى سلسلة جبال الريف، كما أسلفنا، أصبحت الامارات الادريسية فى الشمال ريفية بعد انقراض دولتهم بفاس وتسنى لصاحب الاستقصاء كالمعجب أن يترجم بقوله «الخبر عن الدولة الثانية للادارسة ببلاد الريف».

لانهم كانوا يحكمون هذه الاراضى جميعا، وكانت قاعدتهم مدينة البصرة التى قال عنها البكرى وابن حوقل «انها تأسست مع أصيلا، أوائل

القرن الثالث الهجرى، وكانت عامرة ولها شأن، ثم خربت أواخر القرن الرابع الهجرى، ولا يعلم موضعها بالضبط، ومن الممكن انها كانت بنواحى حد كورت وقد خربها بلكين الصنهاجى لما قفل فارا من هضاب تطوان أمام جعفر بن على ابن حمدون قائد منصور بن أبى العامر الاندلسى الذى خيم بسبتة ضده كما كان معقلهم قلعة حجر النسر التى قال عنها البكرى أنها بناها محمد بن ابراهيم بن محمد بن القاسم ـ صاحب طنجة وسبتة ـ ابن ادريس عام 317 هـ. وكانت شامخة الى السماء .

وقال عنها صاحب الاستقصاء «انها موجودة قرب سبتة (1) ثم خرج غالب ـ أى الاموى ـ من قرطبة فى آخر شوال عام 362 هـ. فاتصل خبر قدومه بالحسن بن كنون (الادريسى) فخاف منه وأخلى مدينة البصرة وحمل منها حرمه وأمواله ودخل الى قلعة حجر النسر القريبة من سبتة واتخذها معقلا يتحصن بـه» .

وقد كانت هذه القلعة من المناعة بمكان لعلو بنائها حتى أن الحسن بن كنون الادريسى الذى عرف عنه الشدة والقسوة، كان اذا ضفر بأحد أعدائه يدفعه من أعلى الحصن بعود فلايصل الى الارض الا واشلاؤه ممزقة.

ويظن الآن أن هذه القلعة كانت بقبيلة سماتة، حسبما انفصل عنه السيد احمد المكناسى مدير الخزانة العامة بتطوان سابقا، فى بحثه الذى القاه بالمؤتمر الثالث للأثار العربية بفاس (2) .

ومن المعلوم تاريخيا، ان أولاد مولاى ادريس الثانى اقتسموا بعد موت أبيهم المملكة المغربية مناطق نفوذ عين لكل ولد من الاولاد التسعة البالغين جهة يحكمها، بينما بقيت المملكة لمحمد ابن ادريس وبقى غير البالغين فى كفالة جدتهم الاميرة كنزة (3) .

وهذا التقسيم كان من وحى هذه الجدة البربرية اذ رأت ان تقسيم المملكة مناطق نفوذ على أولاد المولى ادريس كعمال للدولة، يجعل الوارثين

---

(1) الجزء الاول ص. 183. (2) صحيفة 8. (3) حكى لى القائد الخلادى البرنوصى انها من قرية اوربة من هـذه القبيلة ولا زالت معروفـة بها الى الآن .

للعرش لا يتنافسون، بل يشتغل كل واحد منهم بالجهة التى يدير شؤونها، على أن يحتفظ أكبرهم (محمد) برئاسة الجميع .

ولا غرو فان هذه الجدة العجوزة قد عايشت الاحداث وعاركتها من منذ ما دخل زوجها مدينة وليلى سنة 172 هـ. وشاهدت مصرعه والملك لم يلتثم بعد، فحفظت ذلك التراث الثقيل فى بطنها يوم كان المغاربة أقرب الى الارتداد من التأييد، وقد صبرت على مضض واحتسبت العمل لله ولآل بيت نبيه التى تعد الحارسة الوحيدة للامانة اذ لا يعدو سره بطنها ثم بيتها يتيما غريبا فى آن واحد فربته وأحسنت التربية واحترسته من شر الاعداء وكيد الكائدين ومن يدرى عن المستقبل المجهول؟ عاقبة الامر .

ثم شاهدت ولدها يافعا مبايعا سنة 188 هـ. يخطب فى القوم ولو لم يتجاوز عمره أحد عشر سنة يقول: فلا تمدوا الاعناق الى غيرنا، فان الذى تطلبونه من اقامة الحق انما تجدونه عندنا، ثم شهدت الملك الشاب يستأثر به الله سنة 213 هـ. ولم يتجاوز عمره 36 سنة .

شهدت كل هذا وشاهدت تدبير ذلك الملك الفتى وأوحت الى زوجها وابنها بكثير من حكمها الغالية، فكيف لا تسير نفس الخطة فى حفظ التراث بين احفادها الذين قرت بهم عينها وهم العزاء الوحيد لها وقد ملأوا عليها الدار أنسا بعدما كانت وحيدة الاهل والعشيرة .

وكان توزيع مناطق جهات الريف ــ وهى التى تهمنا فى بحثنا هذا حسبما يأتى :

1) مولاى عمران ــ بادس وبلاد الريف .

2) مولاى عمر ــ تيكساس وترغة وهما فرضتان بساحل غمارة وكانتا قريتين عامرتين وما اليهما من قبائل غمارة .

3) القاسم ــ سبتة وطنجة وقصر مصمودة ــ القصر الصغير ــ وقلعة حجر النسر وتطوان وما بين ذلك من القبائل .

4) يحيى ــ أصيلا العرائش البصرة، بلاد ورغة وما بين ذلك من القبائل .

أما الاخوة الخمسة الآخرون فقد أخذوا أقساما أخرى من

المغرب من سوس غربا الى تلمسان شرقا، ففى تاريخ ابن خلدون (1) أنه لما اجمع أمر محمد بن مولاى ادريس، على قسم المملكة بين أخوته (2) جاءت فى قسمة أخيه القاسم طنجة والبصرة وسبتة وتطوان وقلعة حجر النسر وما الى ذلك من البلاد القبائل، وجاءت فى قسمة عمر تيكساس (3) وترغة وما بينها من قبائل صنهاجة وغمارة، وجاءت فى قسمة عيسى أصيلا والعرائس وبلاد اروغة — هكذا بتقديم الراء على الواو ولعل القصد منها ورغة بالواو ثم الراء — .

أما بادس والريف فقد أعطى لعمران بن مولانا ادريس، وهذا ما جاء فى كتاب الدرر السنية لاخبار السلالة الادريسية قال (4) ولكون عمران أيضا أعطى من بين اخوته أرض الريف وبادس، وانتقل هو اليها وتناسلت أولاده هناك بها، ويظهر أن الشريف عمران هذا كانت سلطته دينية أكثر منها سياسية وكان عمر صاحب تيكساس هو الذى يحكم سياسيا هذه الجهات .

وذلك ان عمر هذا كان محاربا وسياسيا ماهرا وذلك ما جعله أهلا لان يستولى على اقسام عيسى والقاسم .

وقد قال ابن خلدون (5) ان عيسى خرج على أخيه محمد طالبا الامر لنفسه فبعث لحربه أخاه عمر، بعد أن دعا القاسم لذلك فامتنع، ولما أوقع عمر بعيسى وغلب استبد به الى أعماله باذن أخيه محمد ثم أمره أخوه محمد بالنهوض اثر أخيه القاسم، لقعوده عن اجابته فى محاربة عيسى، فزحف اليه وأوقع به وضم ما كان تحت امرته الى ما بيده، فصار الريف البحرى كله بيد عمر هذا من تكساس وبلاد غمارة الى سبتة ثم الى طنجة وهذا ساحل البحر الرومى — البحر الابيض المتوسط — ثم يعطف الى أصيلا ثم سلا ثم أزمور وبلاد تمسنا، وهو

---

(1) تاريخ ابن خلدون ج. 4ص. 14. (2) يعنى سنة 213 هـ. لانه فيها توفى أبوه مولاى ادريس. (3) هى فرضة بلاد غمارة بالموضع الذى يدعى الآن ببو احمد وهى قريبة من ترغة .

(4) ص. 108 للشريف سيدى محمد السنوسى الخطابى المتوفى سنة 1272 هـ؟ (5) تايخ ابن خلدون ص. 14 ج؛ 4 .

ساحل البحر الكبير ـ المحيط الاطلسى ـ ثم قال، واتسعت ولاية عمر بعمل عيسى والقاسم وخلصت طويته لاخيه محمد الامير، وهلك فى امارة أخيه محمد ببلاد صنهاجة بموضع يقال له فج الفرت سنة 220 هـ. ودفن بفاس ثم عقد الامير محمد لولده على بن عمر على عمالـه .

ثم قال ابن خلدون (1) وانقطع الملك من عقب محمد بن ادريس وبلغ الخبر بشأن يحيى الى ابن عمه على بن عمر صاحب الريف واستقدمه أهل الدولة من العرب والبربر والموالى، فجاء الى فاس ودخلها وبايعوه ثم حكى فتنة بينه وبين عبد الرزاق الخارجى، وانه هرب واغتاله الربيع بن سليمان سنة 292 هـ. وقام بالامر مكانه يحيى بن ادريس بن عمر صاحب الريف وهو ابن أخ على بن عمر (2) .

هذا هو التدبير الذى وضعته تلك العجوزة الصالحة ذات القلب الفولاذى الا أن الاقدار قد خانتها فى احتياطها فما لبث أن تنكر عيسى صاحب البلاد الغنية بالمال والرجال (سلا وأزمور وما بينهما) لاخيه محمد زعيم الاسرة، فأعلن البيعة بمدينة أزمور ودعى لنفسه، مما اضطر محمد الى اتخاذ تدابير وقائية ضد أخيه الشاق عصا الطاعة علنا، والذى فتق فتقا لا يعلم مغبتها أحد، فأمر كلا من القاسم صاحب طنجة وعمر صاحب تكساس بالتوجه الى عيسى لرده عن غيه وربما كان محمد بهذا الامر يعجم عود أخويه ليلعم موقفهما، فما كان من عمر الا أن لبى أمره وصار فى جموع من برابرة صنهاجة الريف وغمارة وامده السلطان بألف من رجال زناتة، بينما تنكب القاسم عن قتال أخيه عيسى وعصى أمر السلطان .

وقد جرت الرياح بما تشتهى نفس محمد فانكسر عيسى وفتح عمر بلاده جميعا فجازاه أخوه محمد وضم اليه بلاد المهزوم، عملا بالمثل «من قتل قتيلا فله سلبه»، الا أنه كلفه بمهمة أخرى وهى القضاء على القاسم (3) صاحب طنجة وسبتة والقلعة المنيعة الذى يبدو من تأخره عن

---

(1) ص. 15 ج. 4 من تاريخ ابن خلدون. (2) نفس الجزء والصحيفة والكتاب ـ نفس المصدر ـ (3) ضريح سيدى قاسم معروف بضواحى طنجة على البحر، جنوبها.

امتثال الاوامر المركزية انه متواطىء مع عيسى، ومرة أخرى امتثل أمره واستعان بالله لرتق فتق العائلة الادريسية التى شاءت الاقدار أن تأخـد المعول لهدم صرحها بنفسها، ففى الاستقصاء (1) وأمره مع ذلك بالمسير الى قتال القاسم الذى عصى أمره أولا فزحف عمر الى القاسم، واستولى عمر على ما بيده من البلاد فصار الريف البحرى كله فى عمل عمر من تيكساس وبلاد غمارة الى سبتة ثم الى طنجة وهذا ساحل البحر الرومى ثم ينعطف الى أصيلا والعرائش ثم سلا وهذا ساحل البحر المحيط ــ ولا ندرى شيئا عن يحيى صاحـب أصيـلا ومـا آل اليـه ، هـل سلـم نفسـه أم مـاذا فعـل ؟ .

وبهذا أصبح عمر بن ادريس صاحب الريف ذا امارة تمتد علـى سواحل البحرين الابيض المتوسط والمحيط الاطلسى، وصفى الجو لهـذا الامير القائد، وقد اخلص فى عمله لزعيم الاسرة السلطان محمد، وبقى كذلك الى أن توفى سنة 220 فى امارته، وحمل الى فاس ودفن مع أبيـه .

وبهذه الكيفية تأسست امارة الريف الادريسية بزعامة عمر بـن ادريس الثانى، وقد خلفها ارثا لاولاده من بعـده، فقد شهدت المملكـة المركزية الادريسية بفاس هجمات من العبيديين من الشيعة تتوجه اليهـا من الشرق، ففى سنـة 305 هـ. هجم قائد العبيديين بتاهررت والمغرب الاوسط، مصالة بن حبوس المكناسى وزحف على يحيى بن ادريس بن بن عمر بن ادريس الثانى بفاس، ولما تلقاه هذا بقرب مكناسة انهـزم مفلولا امام القائد العبيدى الى فاس وتبعه مصالة فحاصر فاسا، ومـا الكشف عنها الا عند ما أذعن يحيى للبيعة للعبيديين، على أن لا يتعـدى نفوذه أسوار فاس، بينما أطلـق يد ابن عمـه موسى بن أبى العافيـة المكناسى صاحب تسول وبلاد تـازة على نواحى المغرب الاخرى، عـدا امـارة الريـف .

ومع ما انطوى عليه موسى بن أبى العافية (2) من حقد وعداوة لآل ادريس، فانه لم يفتأ يكيد ليحيى، فعندما رجع مصالة الى المغـرب

---

(1) الجزء 3 ص. 157 . (2) من مكناسة تـازا .

سنة 309 القى القبض على يحيى واستصدر أمواله ثم نفاه الى بنـــى عمه بالريف، ففى تاريخ ابن خلدون (2) وكان بين موسى بن أبى العافية وبين يحيى بن ادريس شحناء وعداوة يضمرها كل واحد لصاحبه، حتى اذا دعى مصالة الى المسيرة فى غزاته الثانية سنة تسع — أى 309 هـ. — اغزاه موسى بن أبى العافية بطلحة بن يحيى بن ادريس صاحب فـــاس فقبض عليه مصالة واستصفى أمواله ودخائيره وغربه الى أصيلا والريف عمالة ذوى قربـــاه ورحمـــه .

وقال فى نفس الصحيفة «واستولى ابن أبى العافية على جميـــع المغرب واجلى بنى محمد ابن القاسم بن ادريس وأخاه الحسن الى لريف، فنزلوا البصرة واجتمعوا الى كبيرهم ابراهيم بن محمد بن القاسم أخى الحسن وولوه عليهم واختـــط لهم الحصن المعروف بحجرة النسر سنـــة 310 هـ. ونزلوه وبنو عمـــر بن ادريس يومئذ بغمارة من تيكساس الـــى سبتـــة وطنجـــة .

ومع ان الحسن الحجـــاج الادريسى قام بمحاولـــة استرجـــاع الدولة الادريسية، فانه لم يلبث موسى بن أبى العافية أن عاود الكرة على فاس وانتزعهـــا منـــه .

وبذلك انقرضت الدولة الادريسية بفاس وتقاطر الادارسة من كل صوب وحدب من جهات المغرب الى أبناء عمهم بالريف بقلعة حجر النسر، فارين من وجه عدوهم اللدود الذى لم يراع فيهم الا ولاذمة، فاخلوا جميع الجهات التى كانت بيدهم، وحتى التى كـــانت بيد عمر ابن ادريـــس من أصيلا وسلا وأزمور ولم يبق بيدهم الا القلعة التى انكشموا اليها متحصنين تحت مناعتها، مع تقدير الاهـــالى الذين يحفظون دمهم الزكى الطاهـــر، لانهم عترة آل بيت النبوة الى بلاد الريف التى لم يصل اليها نفوذ موسى ومع ذلك فانه تبعهم الى معقلهم وحاصرهم وقد خلف لحصارهم قائده أبا الفتح التسولى، واستمر فى حصارهم مدة أربع سنوات الى أن انهـــزم موسى ابن أبى العافية أمام حميد بن يصليتن المكناسى قائد عبيد اللـــه

---

(2) الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون ص. 14.

الشيعى صاحب القيروان سنة 321 لما تنكر موسى بن أبى العافية لاولياء نعمته وقلب الدعوة الى الامويين بالاندلس، فخطب لعبد الرحمان الناصر على منابر المغـــرب :

فانتقض الادريسيون من معقلهم وقتلوا أبا الفتح التسولى المخيم قربهم ونهبوا معسكره، ففى الاستقصاء (1) «ولما اتصل ببنى ادريـــس المحصورين بحجر النسر خبر هزيمة موسى ابن أبى العافية وفرار ابنه من فاس وولاية حامد بن حمدان عليها، قويت نفوسهم وتظاهـــروا على أبى الفتح التسولى، فنزلوا اليه وقاتلوه وهزموه ونهبوا معسكره وخرجو الى الفضاء بعد انحصارهم بالقلعة المذكورة أربع سنوات» .

ومع ان الادارسة انضموا الى الشيعيين وتولوا أكبر مقاومة عدوهم اللدود موسى ابن العافية، وأصبحوا فى صف ميسور الخصى قائد الشيعيين قلبا وقالبا حتى شرد الى الصحراء، فانهم فكروا جيدا فى تأسيس دولتهم بالريف بمعزل عن اطماع الجميع فأسسوها وبقوا يتوارثونها خلفا عن سلف.

الا أن الميزة الظاهرة فى هذه الدولة الثانية انها لم تكن مستقلـــة استقلالا تاما، بل كانت على وجه التبعية ثارة للشيعيين وثارة للامويين بحسب الغلبة، وهذا ما فقد مركزها كدولة تعمل لصالـــح المغرب، بـــل أصبحت هذه الدولة امارة تابعـــة للمتغلـــب .

وحيث أن دولة حالتها هذه، فانها لم يطل أمرها، كما أنها لا ينتظر منها أن تقدم خدمة للبلد، لان ضعف مركزها زعزعها وأصبحت تنام باحدى مقلتيها وتتقى المنايا بالاخرى، وتتملق المتغلب لكى يرضى عنهـــا .

فالقاسم المعروف بكنون، وكان يقيم بحجـــر النسر تابع ميســـور الخصى ودان للعبديين بالطاعة ما دام ميسور فى المغرب، ثم جاء ابنه العابث احمد الذى كـــان يدعى بين بنى ادريس بأحمـــد الفاضل، فكان ميـــالا للامويين فقطع دعوة الشيعيين فى جميـــع أعماله، وبايـــع لعبد الرحمن النـــاصـــر (1) .

---

(1) الجـــزء الاول ص. 176 .
(1) الاستقصاء ج.ل.ص. 178 .

ورغم هذه الطاعة وهذا الميول فـــان عبد الرحمان الناصر لـــم يقنع منه، بل طلب منه ضم طنجة رسميا الى الدولة الاموية، أى جعلهـــا مستعمرة فى المغرب، كما استعمر سبتة قبلها، ولما أبى أبو العيش من اجابة مطابه وجه اليه حملة مزودة بأسطول بحرى فحاصره فى قلعتـــه ملاذهم المنيع اذا حزبهم الامر، وتحت هذا التهديد رضخ لمطابه ولـــم يقف مطمع الامويين عند هذا الحد، فان الناصر عين واليا من قبلـــه على فاس وذلك ما دعى أبا العيش بأن يقترح على الناصر جوازه الى الاندلس برسم الجهاد فجاز وبنى له فى كل مرحلة قصرا حتى وصلت قصوره ثلاثين.

أما الحســـن بن كنون الذى خلف أخـــاه أبا العيـــش على عمله فى المغرب، لما انقطع هذا الى الجهاد بالاندلـــس، فانه ما فتىء أن بايـــع للعبيديين حينما تغلب جوهر بن عبد الله قائد الشيعيين على المغرب، وكانت هذه البيعة مؤقتة بوجود جوهر فى المغرب، فلما قفل هذا راجعا الى القيروان سنة 349 نكث بيعتهم وانضم الى الامويين، فبايع الناصر ثم ولده الحكم المستنصر، الا أنه عاد فنكث بيعته هذه مرة أخرى وبايع الشيعيين لما حضـــر بلكين بن زيرى الصنهاجى الى المغرب، وعندئذ لم يقبل منه الامويون بيعته مرة أخرى، فصيروا اليه حملة سنة 362 بقيادة قائد أموى مشهور بالنجدة والشهامة والدهاء مزودا بالاموال، وبعد معارك فى أراضى فحص طنجـــة هرب الحسن بأمواله وحرمه من البصرة الى حجر النسر ليتحصن فيه، الا أن ذلك لم ينفعه فانه فر عنه رجاله الذين فرق فيهم غالب الاموال الطائلة، فطلب الحسن الامان ونزل هو وجميع الادارسة فغربهم الى الاندلس ولـــم يترك بالمغرب رئيسا يذكـــر .

ورغم محاولة الحسن هذا أن يعيد الكرة بعد ما طرده المستنصـــر عن الاندلس الى المشرق فى حادثة عنبرة لم يرد أن يسلمها له، لاجـــل أن يسترجع شيئا من دولته تحت حماية العبيديين مرة أخرى، فانه فشل ولـــم ينفعه طلبه الامان مرة ثانية، لان الحكـــم لم يقبل منه فقتله، وبموتـــه انتهى أمر الادارسة ولم يعد لهم ذكر فى المغرب كأمراء أو أصحاب حـــل وعقد، بل اندمجوا كأهالى فى الشمال .

المنطقــة الثــالثــة :

وفى شعب بطيوة من قبائل مليلية أسس ادريس آخر سنة 449 امارة ادريسية، الا أن هذا الادريسى لم يجىء الى هذه القبائل عن طريق فاس أو حجر النسر، وانما عبر البحــر من الاندلس، وكانت لاجــداده هناك دولة وصولة مركزها مالقة وتدعى «دولة الحموديين» .

ففي نفح الطيب للمقرى أن ادريس بن يحيى العالى لم يكن آخر أمرائهم (الحموديين) فقد بويع من بعده ولده محمد بن ادريس ولقــب بالمستعلى، ثم سار اليه بادس بن حبوس (صاحب غرناطة) سنة 449 فغلب على مالقة وسار محمد المستعلى هــذا الى المرية مخلوعا، ثــم استدعاه أهل المغرب الى مليلية وبايعوه سنة 449 فظل الى أن مات سنة 470 (1)، ولذا فانه تعتبر هذه امارة أخرى بالريف وهى احياء للامارة الثانية، لأن هؤلاء الحموديين احفاد لصاحب الريف عمر ادريس المتقــدم الذكر، وذلك أن رجلين من أحفاد عمر بن ادريس احدهما يدعى القاســم وثانيهما يدعى عليا وهما ابناء حمود بن ميمون بن احمد بن على بن عبد الله ابن عمر بن ادريس كانا من جملة جنود سليمان بن الحكم الأموى وقــد رقاهما الى أن صارا قائدين على المغاربة لنجدتهما وشهامتهما، ثم ولى القاسم وهو الاكبر أعمال الجزيرة الخضراء وولى عليا أعمال سبتة وطنجة.

ثم أن عليا هجم على مالقة باتفاق مع العبيد، فدخلها وملكها ثم زحف على قرطبة فملكها أيضا وقتل بيده سليمان بن الحكم بالسيف صبرا أيام 407، وبذلك انقرضت الدولة الاموية بالاندلس ونشأت دولة الادارسة الحموديين من هذا التاريخ واستمرت فى الاندلس الى سنة 449 وانتقلت للريف واستمرت فيها الى ما شاء الله فانقرضت، وقد اعتمد المستعلى فى نقل دولته من الاندلس الى الريف على المحبة التى تغمر هؤلاء السكــان لجانب الادريسين آل البيت الذى حفظوا دمهم الزكى الطاهر وناضلــوا عليه لانهم العترة الطاهرة من آل النبوة، فلذلك لما أجلى بادس بن حبوس المستعلى هذا الى المرية طالبه شعب بطيوة بالمجىء اليه ليعتز به، وحنانا

---

(1) هامش العجــب ص. 68 ــ م.ل .

أيضا الى دولتهم القديمة التى تأسست على يد عمر الادريسى جد المستعلى هذا، فهو منهم واليهم وأخوهم وأميرهم فى الحقيقة، والواقع، فلم يقطع البحر الا الى وطنه الصميم ومهد أبائه وأجداده الذين طالما قاتلوا تحت رايتهم ضد الاعداء الخارجين .

فهم الذين قتلوا عدو الادارسة اللدود موسى ابن أبى العافية بضفاف واد ماوية لما أجلى عن فاس الى الصحراء، ثم رجع الى اكرسيف ونكور فانتقموا منه لاشرافهم الاعزاء عليهم الذين يقدسونهم .

الا أننا لا يمكن أن نجزم بما يمكن أن يكون قامت به هذه الامارة الجديدة فى هذه المدة الوجيزة من الاصلاح والخير لصالح البلد .

والمعتقد أنها لم تقم بشىء لان المدة كانت وجيزة، مع الفتن التى كانت انتشرت فى طول البلاد وعرضها، فغاية هذه الامارة أنها تحصنت بجزيرة مليلية يخضع لها شعب بطيوة روحيا أكثر منه عمليا لانها من عمل يدهم وعلى الاخص انهم داقوا عجرفة موسى بن أبى العافية فى حملته ضد جزيرة النكور ووحشيته، لانه فى عمله يعتبر نفسه فاتحا لبلد موالية لاعدائه الادارسة، بل هم جندهم الاقربون المخلصون وفى كتاب (1) البيان المغرب «ثم قام بالامر ولد أخيه وهو ادريس بن يحيى ابن ادريس بن على ابن حمود، وسمى بالمستعلى بالله، ثم أخذ نفسه وخرج كأنه تاجر، ففى غمارة قبض عليه وسيق الى سبتة وقتله البرغواطى سنة 444» وبناء على ذلك فان ادريس الحمودى الذى كان آخر ملوك الحموديين فى الاندلس، خرج الى الريف متنكرا وبغمارة قبض عليه لان البلد كانت عامرة بالبرغواطيين الذين احتلوا مدينة سبتة وباقى النواحى، ولذا لما قبض عليه قدم للبرغواطى فى سبتة فقتله ثم أتى بعد ذلك ولده محمد وهو الذى أسس الامارة الادرسية الثالثة بالريف، بشعب بطيوة بقبائل كرط من نواحى مليلية .

---

(1) ص. 218 .

حصـن تزوضـا وبنى مريـن :

هناك غربى مدينة الناضور بحوالى 10 كلم فى الجنـوب الغربى لمدينة مايلية تقع ربوة عالية مطلة على البحر المتوسط، بينما يتسع منبسط «بوعاك» أمامها، يعززها جبل «أكسان» شمالاً، ذلك الجبل الذى يخزن بين أحضانه المنبع الذى لا ينبض بمعدن الحديد الصلب وتدعى هذه الربـوة «تزوضا» بمعنى القصعة باللسان المحلى، وقد بنى عليها بنو مرين حصنا حصينا دعى «حصن تزوضا» كان معقلا لدولتهم، وفى هذا الحصن وجهوا أضربة القاضية لدولة الموحدين الذين انكسروا أول ما انكسروا فى مواقـع ثلاثة هامة (1) موقعة المشعلة على وادى النكور التى سميت بهذا الاسـم نسبة لاعشاب المشعلة التى يتميز المحل بها، (2) موقعة تازة برباط تـازة، (3) موقعـة سبـو .

الامير عبد الحـق المـرينـى :

كان الامير عبد الحق بن أبى بكر بن حمامة بن محمد المرينى أميرا على المرينيين، وهؤلاء هم شعب قوى الشكيمة من شعوب زناتة، اخـوان بنى عبد الواد ملـوك تلمسان، وبنى توجـين وغيرهم، كانوا ينتجعـون الصحراء شتاء للصيد وركوب الخيل، وفى الصيف يضطرهم قيض الحـر الى الانحياز الى سواحل الريف باكرسيف ونواحيه، الامر الذى ربطـوا صلات وثيقة فى الريف أدت بهم تلك الروابـط الى توسيعها على حسـاب دولة الموحدين، فانشأوا حصن تزوضا معقلا لهم، وقد شملت امـارة عبد الحق هذه الجهة وأصبحت خاضعة له ومن هناك كانت قبائل بنى مرين تشن غاراتها على أطراف المغرب، حيث لا تأخذه سلطة دولة الموحدين .

وقد زاد فى تقوية نفوذهم فى المغرب الشرقى الشمالى النكبات التى حلت بدولة الموحدين فى عام 609 هـ. فقد اصابت الدولة فواجع ثلاث عجلت بالقضاء عليها، وقيام دولة أخرى فتية، فالاولى كانت الهزيمـة

النكراء التى لحقت بالملك الموحدى الناصر فى وقعة العقاب بالاندلس، اذ هلكت الحاميه المعربيـــه عن اخرها وهلك معهـــا جمهور من المجاهديـــن المعاربه، والثانيه كانت الوباء الذى أعقبت تلك الوقعه، فأتى على البقيـــة الباقيه، وفنى جمهور السكان، وثالثها، كانت المصيبـــة القاصمـــة التى قصمت ظهر الدوله بوفاة الرأس المدبر الملك الناصر فى عام 610 هـ. وخلفه ابنه الصبى المستنصر الذى حمله شبابه على أن يغرق فى الملذات والملاهى وأصبحت الدوله بلا رئيس مسؤول يحس بثقل المسؤولية .

وقد عجلت هذه الفواجع الثلاث بانقراض دوله وقيام دولة أخرى، ذلك أن القبائل المرينية العاتيه التى عاشت على ركوب الخيل وطـــرد الصيد، وشظف العيش، اوجفت برجلها وخيلها على قبائل أخرى فـــى شمال المغرب واستولت على ما تبقى منها من المعاقل والحصـــون، التى كانت ملىء بالملتجئين اليها من الفزع الذى أصابهم من جراء الغـــارات المتتالية من طـــرف الصحراويين هـــؤلاء، أما الملك الصبى المستنصر بن الناصر الموحدى الذى كان يتلهى فى مراكش، فانه بعد الصراخ المتعالى الذى كان يرسله عقلاء الاهالى اليه، والذى كـــان مليئا بالتظلمات مـــن هذه القبائل الصحراوية المكتسحة لاطـــراف الجهات، فانه لم يعبأ بهـــا ولم يعرها أذنا صاغية، الا عندما فات الاوان ولات حين منـــدم .

وقعـــة المشعـــلـــة :

كان قدر للمستنصر أن يجر الخراب لدولته ولنفسه بنفســـه، اذ عندما فات الاوان سرح الى بلاد الريف لمحاربة بنى مرين والقضـــاء عليهم، جيشا قوامه عشرون الفا فقط، وهو بالنسبة لهذه القبائل المائجة التى ترى اللذة للتصدى فى طراد الخيل وركوب السنن لعبة محببة قـــد تتلهى بها هذه الاباليس وقتا ما، وفعلا كانت وقعة المشعلة نزهة طريفة، اذ ما وصل قائد الجيش الموحدى أبو على بن وانودين معززا بعامل فاس أبى ابراهيم بن يوسف ابن عبد المومن على العشرين الف من أولئك الجنود الى فحص الواد بوادى النكور، حتى لقيتهم تلك القبائل مـــن بنى مريـــن والريف فى جيش خضم من البشر يتسلقون الجبال والمسالك الوعرة، حتى كأن الارض تلدهم، بينما كانت محارم المرينيين محصنة فى معقلهم المنيـــع

بتزوضا، بمنجى من كـــل أذى، فما هى الا جولـــة أو جولتان حتى كانـــت الهزيمة النكراء قد لحقت بالموحدين، فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة، وكانـــت النذير العريان، فقد تركوا أمتعتهم وذخيرتهم واسلابهم وامتلأت بها أيدى بنى مرين والقبائل الموالية لهم، ورجـــع الموحدون الى فاس حفاة عـــراة يخصفون من أوراق المشعلة، وهى نبات يعرف عند أهل المغرب بهذا الاسم، وقد سمى ذلك العام ــ وهو عام 613 هـ. ــ 1213 م. ــ عام المشعلة، لان البلـــد اخصبت وأخصب هذا النبـــات .

مـــوقعـــة ربـــاط تـــــازا :

أما الموقعة الثانية فكانت نتيجة حتمية للاولى، لان بنى مريـــن لما رأوا أنفسهم منتصرين عملوا لتصفية الحساب مع غرمائهم، وفعـــلا جهز عبد الحق حملة من هذه الجنـــود الغفيرة التى أصبحـــت تواقة الى التلاقى مع الاقران لكسب البطولات الحربية وللاستيلاء على الغنائم التى يخلفها أولئك الذين يلقون حتفهم أثناء المعارك، فتلاقت مع الموحدين برباط تازة فى ذى الحجة عام 613 هـ. وكان عامل تازة الموحدى على رأس قـــوة الموحدين المتجمعة من الجيش الكثيـــف والعرب وقبائل تسول ومكناســـة وغيرها، فلما وقعت الملحمة قتل عامل تازة، وبقتله انفل الجيش الموحدى ففر الجميع ولم يبق الا الاسلاب من الخيل والدخيرة غنيمة باردة لتلـــك الجموع المتدفقة والمفعمة حيوية ونشاطا، فقد فرقها عبد الحق فى قبائـــل أنريف كلها ولم يدع لنفسه او ذويه شيئا منهـــا .

وقعـــة وادى ســـبـــو :

لما انهزم الموحدون هذا الانهزام الشائن، كان عليهم ــ كسلاح أخير ــ أن يعمدوا الى طريقـــة تفرقة صفـــوف أعدائهم، وهى طريقـــة سياسية يعمد اليها قواد الحرب لتفتيت صفـــوف الخصم عندما تعجـــز القوة العسكرية أو تضعف وهكذا بدا للموحدين أن يسلكوا نفس المسلك، وقد كانت قبائل بنى مرين تنتسب الى فخذين اثنين: فخذ بنى حمامة بن محمد، هم الذين لهم الرياسة فى القبائل ومنهم عبد الحق الامير المرينى، وفخذ بنى عسكر بن محمد، وقد استطاع الموحدون أن يستميلوا اليهـــم

بنى عسكر من المرينيين مع عرب رياح الذين عمروا المغرب بخيلهم ورجلهم، وكانوا شديدى الشكيمة والقوة لقرب عهدهم بالبداوة التى تركت فيهم اثرا الشهامة وتجشم المشاق، فانشق شعب المغرب على شقين، شق يناصر الملوك الشرعيين وهم الموحدون حتى ذلك الوقت، وهذا الشق هو بنو عسكر بن محمد ومن سار فى ركابهم الذين ينافسون ابناء عمومتهم من بنى حمامة وينقمون عليهم تفردهم بالرياسة، وقد تعضدوا بجموع العرب من بنى رياح، وشق ضد الموحدين الذين ينعتون أنفسهم حتى ذلك الوقت بالملوك الشرعيين، وهذا الشق هو بنو مرين أولاد حمامة، معززين بقبائل الريف العاتية التى ايدتهم وانغمست فى الخلاف الناشىء بين الفريقين، وكان لها القدح المعلى واليد الطولى فى نتيجة المعارك السابقة، كما أسلفنا .

واذا وصلت الحالة الى ما ترى، فان الطرفين المتنازعين استعدا استعدادا تاما لخوض المعركة الفاصلة، وقد جرب عبد الحق قومه مقدما فأمر بجمع جموعهم والقى عليهم الاسئلة التالية :

ـ ان العدو فى جموع غفيرة، فهل أنتم مستعدون للموت ؟

ـ نعم: ان القضية قضيتنا ، أما الانتصار أو الموت .

ـ هل أنتم متحدون متضامنون ؟

نعم : نحن نجدد البيعة للامير عبد الحق ونموت دونه جميعا .

ـ يا معشر بنى مرين أما ما دمتم فى أمركم مجتمعين، وفى آرائكم متفقين، وكنتم على حرب عدوكم أعوانا، وفى ذات الله اخوانا، فلا أخشى أن القى بكم جميع أهل المغرب، وان اختلفت أهوائكم وتشتت آرائكم ظفر بكم عدوكم .

وبعدما استيقن من صدق طوية قومه، نهض بهم من الريف قاصدا فاسا، فالتقى مع جموع الموحدين بمقربة وادى سبو على أميال من المحل الذى كان يعرف «بتافراطت»، فدارت بين الفريقين حرب لم يعهد مثلها من قبل، مات خلالها الامير عبد الحق المرينى، كما مات ولده ادريس، ومع ذلك فان الامر لم يزد بنى مرين الريف الا صبرا وثباتا، فقد أبوا دفن الرئيس عبد الحق وولده الا بعد أن يأخذوا بالثار، وهكذا استأنفوا ولم

يتركوا لعدوهم سبيلا للراحة الى أن انتصروا، فتشتت عرب رياح شذر مذر، وقتلوا منهم خلقا كثيرا وتفرق الباقى فى الاودية ورؤوس الجبال وتركوا خيلهم وأسلحتهم وأموالهم غنيمة لبنى مرين الريف، وكانت هذه الموقعة الحد الفاصل والمجهود الاكبر لانقراض دولة الموحدين، ورغم أن هذه الاخيرة بقيت حية بعض الوقت بعد ذلك، الا أنها كانت فى النزع الاخير تستسلم تدريجيا لقضاء المحتوم .

عثمان بن عبد الحق المرينى :

كانت تولية عثمان بن عبد الحق امارة المرينيين بالريف، حادثا هاما فى تحويل مجرى تاريخ المغرب الداخلى والسياسى، ففيه فكر عثمان هذا فى تقوية جانب المرينيين الداخلى جديا، ولم يعلن شيئا عن نيته فى توليته الملك، بل بقى كما كان أبوه خاضعا للدولة الفحصية، متمسكا ببيعتها حاكما للجهات التى خضعت له تحت اسمها .

الا أنه حول جهوده الجبارة لتنظيم صفوفه تنظيما جذريا والاعتناء بضبط الاحوال فى النواحى التى تحت نفوذه، فجمع شيوخ بنى مرين وندبهم للقيام بأمر الدين، والنظر فى مصالح المسلمين بصورة عملية وجدية، تقوم على أساس العدل والشهامة والانفة، وأمرهم بأن يعودوا الناس على ذلك كما يعودونهم على البطولة وركوب الخيل، فأسرع الاشياخ الى اتباع نصائحه والاقتداء بعمله، وقاموا بأعمال هامة فى هذا السبيل تنفيذا لتلك الوصاية .

وفى أثناء ذلك قام برحلات متتابعة فى القبائل الخاضعة له، وهى: هوارة وزكارة وتسول ومكناسة وبطيوة من قبائل الريف، وفشتالة وسدراتة ومهلولة ومديونة، فتقرى القرى واتبع مسالك البلاد وأمر باصلاح ذات البين وتقوية الاخوة بين الاهالى .

وقد ملك هذه القبائل العجب مما رأوه من تبدل ما ألفوه من حكامهم الاقدمين من العسف والجور والاستبداد وعدم المبالاة واختلال الاحوال، فازدادوا تقربا الى هذا المصلح الجديد، ففتحت له القبائل قلوبها وأحبته من صميمها، لانها رأت فيه منقذها من المفاسد .

وبعد أن وطد الامن فى الجهات الخاضعة له، اكتفى منها بفرض الخراج يجبيه عماله الذين فرقهم فيها بصفة مصلحين لا حكام مستبدين.

أما المدن ، مثل فاس وتازة ومكناسة وقصر كتامة ـ القصر الكبير ـ فانه فرض عليهم ضريبة معلومة على رأس كل سنة، وتركهم ولم يستعمل عليهم أحدا من العمال، بل شرط لهم مقابل ما ذكر ان يرفع عنهم الغارة من القبائل المجاورة ، ويصلح سابلتها .

وهكذا انقضى عهد عثمان هذا فى نشر الاصلاح وضبط الداخلية واستمالة القبائل، وقد توفى عام 638 هـ. 1240 م قتله علج غيلة كان رباه.

عين الصفا ودولة بنى مرين المستقلة :

تقع عين الصفا فى قبيلة بنى يزناسن بالريف الشرقى غربى مدينة وجدة حيال جبال تفوغالت الوعرة المسالك على رأس سهل انكاد المنبسط أمامها الى حدود البحر المتوسط، وتعمر على الضفة الجنوبية الشرقية لمصب نهر ملوية .

عندما توفى عثمان خلفه أخوه محمد المعروف بأبى المعرف، ورغم أن زمن هذا الخلف لم يكن حسنا بالنسبة لبنى مرين، لانهم تكبدوا أولى هزيمة فى موقعة صخرة بوباش بأحواز فاس بتاريخ 642 هـ؟ 1244 م. أمام الموحدين الذين جاءوا فى جيش عرمرم، يقدر بعشرين ألفا أو يزيدون، فقد اجتمعت فيه قبائل المصامدة وعرب بنى رياح وجموع الافرنج وقد كانت الاقدار نفسها عونا لهم، فقد تردى فرس أبى معرف وسقط من أعلاه، فتمكن أحد زعماء الزنوج الذين صحبوا الموحدين وطعنه طعنة مات بها عشية يوم الخميس 9 جمادى الاولى عام 642 هـ. فلم ينج أصحابه الا ليلا، حيث تستروا بالظلام فانفلتوا الى جبال غياثة المنيعة فتحصنوا بها ريثما طاروا الى الصحراء .

أبو بكر بن عبد الحق :

بعد موت أبى معرف تولى أبو بكر بن عبد الحق أمور بنى مرين وقد استطاع أن يضع الحجر الاساسى لاستقلال ملك بنى مرين فى الريف بعين الصفا عام 646 هـ. 1248 م. ففى هذا التاريخ قطع أبو بكر دعوة

الفحصيين أصحاب افريقيا، ودعا لنفسه، واتخذ آلة الملك، وبهذا أصبحت دولة بنى مرين ذات كيان داخلى مستقـــل .

ذلك أنه لما تولى الامر بعد أخيه أبى معرف، التجأ الى الصحراء مع من بقى من بنى مرين، فاتخذ رمالها وقاية من تتبع الموحدين له وهـــى متسعهم الفسيح الذين ترعرعوا فى هضابها الرملية، حيث كانوا يطاردون غزلانها، وحيث لا يقتفى لهم الاثر، فهم فى مأمن من الاعتـــداء .

الا آنه لم يكد يمر عام واحد حتى جمع شتات ذويه وقومه ومن تلك الرمال استطاع أن يقود غارة على جبال زرهون ومكناس ودعا أهلها لمبايعة أبى زكرياء بن أبى حفص الحفصى، وقد فعل ذلك لاجل استمالـــة السكان اليه، وفعلا تمكن من اخضاع هذه الناحية وبقيت خاضعة له مـــن سنة 643 هـ. الى 645 هب وفى هذه السنة نهض ملك الموحدين سعيد مـــن مراكش قاصدا استئصال شافة أعدائه الالداء الثلاثـــة: 1 ــ بنى مرين، 2 ــ بنى زيان ملوك تامسان، 3 ــ الفحصيين بافريقيا، وقد مهد لذلك بأن جمع الجموع الغفيرة التى لا قبل لها، وعندما وصل الى وادى بهوت غربى مكناس، استعرض تلك الجيوش الجرارة، وقد ملكت عليه كثرتها اعجابه، فقوى عزمه على القضاء على خصومه الذين اقضوا مضجعه، ولم يتركـــوا لـــه راحـــة .

أما أبو بكر المرينى فانه هالته كثرة المحتشدين ولم ير له قـــدرة على التغلب عليها ولاجل استقصـــاء الامر فقد تنكـــر ذات ليلة وذهـــب يجوش خلال القوة القادمة فى معسكرها فرأى بعينيه أمرا مهولا، وجمعا كثيرا، ففى صباح غده جمع أشياخ قومه وعقد مؤتمرا ودارت المحادثات التـــاليـــة :

ــ ان جيوش العدو فى الكثرة كما ترون، فماذا نعمـــل ؟

اننـــا نقاتـــل للمـــوت ،

ــ ليس ذلك هو التدبير الناجع، ان موتنا يريح أعداءنا وتلك بغيته.

ــ اذن فما هو الحـــل الناجـــع ؟

ـ ان لنا معقلنا الذى لا يرام بالريف، فما علينا الا أن يرحل اليه قومنا جميعا، واكن بصـــورة فجائية، بحيث لا يعلم العدو بذلـــك، حتى لا يقتفى أثرنا، وعلى الاشياخ أن يتدبروا اعلام المحلات اينما كـــانت وان تسلك كل جماعة مسلكها الخاص، على أن تكون الملاقاة بحصن تزوضـــا .

ـ اتفقنا على هذا الرأى ، انه الرأى الوحيد السديد الذى يمكـــن لنا معه النجاة والبقاء على قوتنا الى وقت ما، وقـــد نفذ أشياخه هـــذه التعليمات بحذافرها، فقد تسابقت المحلات الى الحصن بصورة سريـــة.

أما الموحدون فما أن علموا بالامر حتى اقتفوا أثرهم، ولكن بعـــد أن توقفوا فى مكناس، حيث خرج الاهالى متذللـــين خاضعين حاملـــين الصبيان الرضع، ومقدمين الاطفال والشيـــوخ العجزة أمامهم فقبلـــت شفاعتهم وعفى عنهم كما توقفوا فى فاس أيضا لنفس الاسباب الا أنـــه احتراما لمدينة العلم لم يشاءوا أن يدخلوها، بل بقوا خارجها، ثم رحلوا الى تازة، وهناك عسكر الملك الموحدى بجيوشه، وفى هذه الفترة وصلته رسل الامير أبى بكـــر بن عبد الحق المرينى من حصن تزوضـــا بالريف حاملين اليه بيعته وبيعة قومه طالبين العفو والامان. فعفا عنهـــم .

ويظهر أنه لم يرد ان يتحرش بهذه القبائل التى نقل الركبـــان مخاطرتها فى الحروب ولانه قليـــل الاطمئنان الى جموعـــه التى جمعهـــا أحلاسا وشتاتا من شتى القبائل التى لا تربطهـــا به الا صلة الاســـلاب والنهب، ولانه أيضا كان أمامه اعداؤه الخارجون، وهم: ملوك بنى زيان التلمسانيين وملوك الحفصيين يتربصون به الدوائر، فأى خلاف داخلى فى ترابه يسدى اليهم خدمات جلى .

وهذا ما دعا أبا بكر المرينى أن يستهويه حيث عرض عليه ـ فوق البيعة ـ أن يتكلف بقتال يغمرسن بن زيان صاحب تلمسان قائلا: ارجع يا أمير المؤمنين الى حضرتك ـ عاصمتك ـ وأنـــا أكفيك أمر يغمـــرسن وافتح لك تلمسان، الا أن الملك سعيد الموحـــدى ـ جريا على عادتـــه ـ استشار خاصته فى الامر، فكان جواب الخاصة «لا تفعل يا أمير المؤمنين فان الزناتى أخو الزناتى لا يسلمه ولا يخذله وانا نخاف أن يصطلحا على حربك»، وقد استجاب الملك لخاصته وأرسل اليه أن يمكث فى مكانـــه،

وان يمده بجماعة من قومه فأمده أبو بكر بخمسمائة من رجاله ساروا معه الى تلمسان تحت قيادة ابن عمه: أبى عباد بن أبى يحيى ابن حمامة، واثر ذلك نشب خلاف بين الامير أبى بكر وبين أولاد الوزير الوطاسى الذين اختصوا بالمعقل بعدما اتخذ المرينيون عين الصفا مركزا لهم، فقد دبر هؤلاء مؤامرة لاجل اغتيال الامير أبى بكر، وقد كشف هذه المؤامرة له بعض الشيوخ الوطاسيين، وبعد ما أعلموه بذلك ارتحل الى عين الصفا مركز المرينيين من جديد، وقد كانت هذه المؤامرة التى رحل عقبها سببا لانتصاره على الموحدين، ذلك أن سعيدا ملك الموحدين لما ولى وجهته نحو تلمسان بعد أن اطمأن الى طاعة المرينيين ومهادنتهم التقى فى موضع يقال له «تامزردكت» قرب تلمسان مع قوة يغمرسن الزيانى، فدارت معركة حاسمة واسفرت عن مقتل سعيد ملك الموحدين، فانهزم قومه وولوا الادبار راجعين من حيث أتوا، فما كان من الخمسمائة الرجال الذين أمده بهم أبو بكر الا أن طاروا بالنبأ يعلمونه برجوع فلول الموحدين المنهزمين ومقتل ملكهم، فاعترض أبو بكر بقومه من عين الصفا التى هى قريبة من مركز الجنود، فالتقى بهم فى نواحى كرسيف، حيث جرد القوم من الالآت والمعدات الحربية التى كانت معهم وضم اليه جموع الافرنج الذين صحبوا الحملة واختص بهم لنفسه وبذلك دعم حركته وقوى جانبه، وحينئذ دعا لنفسه ملكا على المغرب، واتخذ الموكب الملكى وضربت بين يديه البنود شعار الملوك، وذلك سنة 646 هـ. وأسرع الى مكناس فاحتلها واحتل باقى معاقل نهر ملوية، وبهذا أصبحت دولة بنى مرين دولة مستقلة قطعت علاقاتها مع الحفصيين وتقاتل تحت شعار الملك بعد ما كانت تدعو لغيرها .

أما ما كان خبأه القدر فى انتقاله من معقل تزوضا الى مركز عين الصفا، فانه لو بقى مكانه لما تأتى لقومه الخمسمائة الذين شارك بهم فى حملة الموحدين على تلمسان، أن تهتبل فرصة رجوع الحشد الذى بقى بلا قيادة، وان تقتفى أثره لاعلام أميرهم، ولما تأتى لهذا الاخير أن يلتحق بهذا الحشد ويعترض سبيله بسهولة، حيث لم يفته الاوان عندما قر عزمه على الانتقام واهتبال الغرة عكس ما لو كان بقى فى حصن

نزوضا، فانه لبعد المكان عن كرسيف بمراحل، كـــان لا يمكن له أن يـــدرك العدو المفاول وان يأخذه على غرة ولو أطلعتم على الغيب لوجدتـــم أن مـــا فعل ربكـــم خـــيرا .

الوطـــاسيـــون فى قلعـــة تزوضـــــا :

يعتبر الوطاسيون من المرينيين، الا أنهم فرعيون، لانهم ليســـوا أولاد عبد الحق بن محيو، وكانوا قد استولـــوا على حصن تزوضا عندما كان المرينيون الاصليون مشتغلين بالاستلاء على المغرب وارتياد المراكـــز المهمة فى الدولة مثل فاس ومكناس وزرهون .

وقد كان الوطاسيون هؤلاء يدعون بأبناء الوزير، ولما احتلوا هذا المعقل كانت الرياسة فى هذا المعقل ونواحيه بيد عمر وعامر ابنى يحيى ابن الوزير الوطاسى، وقد استغل الوطاسيون المذكورون انشغال المرينيين الاصليين بالاستلاء على المغرب والقضـــاء على الموحدين، فطمعـــوا بأن يستقلوا بنواحى الريف، وبالاخص أنهم قد نزلوا بحصن تازوضا وجعلوه حصنا ومركزا لاعمالهم، وفعلا نظموا أمرهم وجعلوا يجبون الخـــراج من قرى الريف وامصارها كبادس والمزمة وقد عام بنو مرين الملوك تشوق أبناء الوزير الى الرياسة، فتوجسوا منهم خيفة وحسبوا لهم ألف حساب، ورغم أن الحالة وصلت الى هذه الدرجة فى العلاقة من الفريقين، ورغم أن الوطاسيين كانت لهم السلطة الفعلية فى نواحى الريف، الا أن المرينيـــين كانوا لا يهملون هذا المعقل الحصين الذى لا يوجد له نظير فى سائر أنحـــاء المغرب ، ذلك ما دعاهم الى انتقاء أصـــدق قوادهم ليتولى شؤون المعقـــل ونواحى الريف، وان يكون كفئا مخلصا للوقوف فى وجه مطامع الوطاسيين، فقد اقتفت هذه السياسة المرينية ان لا تسند الولاية الا الى أشخاص من العائلة الملكية، ففى عهد السلطان يوسف بن يعقوب المرينى عقد لابـــن أخيه المنصور بن عبد الواحد بن يعقوب ووجهه الى الحصن ليكون واليـــا وقائدا عاما على الريف ليحد من سلطة الوطاسيين الذين كان يرجع اليهم فى أمـــور الريـــف .

ثورة عمر بن يحيى الوطاسى :

وبهذا الاسلوب الذى يدعو الى الحذر، ادرك الرئيسان الوطاسيان ما يراد بهما من تولية ابن أخى السلطان ولم يخف عليهما شىء من نوايا المرينيين، فاستعد عمر لمجابهة الحالة، قبل أن يفلت الزمام من يده، فأعلن الثورة ضد الوالى الجديد، ومنعه من تسلم أمور الحصن ونواحيه .

ففى شعبان عام 691 (1291 م) أعلن عمر بن يحيى بن الوزير الوطاسى الثورة، وشملت جميع أنحاء الريف، وطرد المنصور بن عبد الواحد، بل لم يقتصر على طرده وحرمانه من تولية مهامه التى وكلت اليه وانما فتك بحاشيته ورجاله، واستولى على ما فى الحصن من العتاد الحربى والامتعة التى كانت موضوعة باسم ملوك المرينيين وجيشهم، واعشار كانت مخزونة ثمة، وقام بضبط الحصن ضبطا كاملا، وحشاه برجاله ووجوه قومه من أبناء الريف الصناديد، أما المنصور فانه رجع مطرودا ولحق بالسلطان المرينى الا أنه لفرط حزنه على ما أصابه فى حشمه وقومه لم تطل حياته، بل مات غما وكيدا مما أصابه .

السلطان يوسف يهتم بالثورة :

نزلت ثورة الوطاسيين على السلطان المرينى نزول الصاعقة، وخصوصا افتك بذوى اخوانه وجمع من قومه، فاهتم بها اهتماما بالغا، وقد جهز جيشا كثيفا لمناجزة الثائر والقضاء عليه، ولو كلفه ذلك ما كلفه، وقد سرح الجيش الى الريف تحت قيادة وزيره الناصح المخلص له: أبى على عمر بن السعود بن خرباش، فتوجه هذا لمنازلة الحصن .

عامر ينقلب :

أما عامر بن يحيى الوطاسى الذى كان مع أخيه عمر فى الحصن، فانه حدث أثناء استعداد السلطان لمهاجمة الثائر، أن لحق به فى مراكش، وعاب على أخيه عمله الثورى، ويظهر أنه هو الذى أغرى السلطان ليكون قريبا من أخيه، ليفيد فى التماس العفو عليه عند الحاجة، وربما أيضا كان افتراقه عن أخيه لم يكن الا عملا ظاهريا مصطنعا، وخدعة حربية، ومن يدرى ؟

وكيفما كان الامر، فان السلطان توجه بنفسه، ليتولى القضاء على

الثورة، وشد الحصار على الثائر فى معقله، أما الثائر عمر فانه لما وجد أنه لا قبل له بمقارعة السلطان، أرسل الى أخيه عامر يطلب منه أن يتوسط بينه وبين السلطان للعفو عليه، وربما كان أعده لمثل هذا من قبل، كما أسلفنا، ولما عرض عامر على السلطان مطلب أخيه أجابه السلطان بالقبول، وتركه يصعد الى المعقل ضامنا له أن ينزل عند ارادته ويستسلم، الا أن الثائر بعدما اجتمع بأخيه فى مناجاة سرية، فر ليلا الى تلمسان، اختفاء حتى عن أخيه عامر الذى تركه فى الحصن يضرب أخماسا فى أسداس، وحمل ما قدر عليه من الذخيرة وعند الصباح سقط فى يد عامر، حيث لم يجد أخاه، وخاف من السلطان أن يتهمه بالتواطىء مع الثائر، فيقتله، وكان القتل عقوبة عادية، فامتنع عامر فى الحصن، واستعد للدفاع على نفسه، متمثلا فى قول القائل :

اذا لم تكن الا الاسنة مركب فلا يسع المضطر الا ركوبها

ابن الاحمر ووساطته عند السلطان :

بقى السلطان محاصرا لعامر بعد فرار عمر الى تلمسان، وبقى عامر معتصما بالحصن خائفا من بطش السلطان به .

وقد سمع صاحب مالقة: أبو سعيد فرج بن اسماعيل ابن الاحمر بوجود السلطان فى الضفة الغربية المقابلة لضفة الاندلس محاصرا حصن تزوضا، وكان ابن الاحمر قد غدر السلطان يوسف ابن يعقوب فى مدينة طريفة، وظاهر ملك اسبانيا: «سانجة» على الاستلاء على طريفة، وكانا اتفقا على اقصاء السلطان عن هذه المدينة التى كانت الممر الاقرب الى الضفة الغربية، وفيها كانت ترسو القوارب الحربية المحملة بالمجاهدين لغزو الاندلس .

وقد كان السلطان بتاريخ رمضان عام 690 هـ. (1290 م) احتل مدينة طريفة، بعد ما نشبت معركة حربية بين أسطول السلطان المرينى ، وأسطول الطاغية، كانت النكبة أولا حلت بأسطول المغرب، ولكن السلطان جدد عمارة أخرى، وقصد طريفة، الا أن الطاغية الاسبانى تنكب أن يتلقى معها، فانزلت العمارة المجاهدين ونزل السلطان بنفسه فيها، وغزا جهات أرض العدو، وقتل واثخن، وحاصر الى فاتح سنة 691 هـ. (1291 م)،

رجع السلطان الى الجزيرة الخضـــراء، ثم قطع البحر الى المغـــرب وبعد رجوعه تواطأ ابن الاحمر والطاغية على اقصاء ملك المغرب عن شبه الجزيرة، وكان الاتفاق فيما بينهما على ان اسبانيا تغزو طريفة وتحتلها، وعندمـــا تتخلص من المغاربة يسلمها «سانجة» الى ابن الاحمر، وفى مقابل ذلـــك يقدم ابن الاحمر للحملة ما تحتاجه من المال والذخيرة، ويتنازل لسانجـــة عن معاقل ستة من معاقله المنيعة بالاندلس .

الا أنه لما ظهر للطاغية الاستيلاء على مدينة طريفـــة، وحيازتـــه للمعاقل الموعود بها، غدر ابن الاحمر، وضرب باتفاقه معه عرض الحائط، فترك ابن الاحمر بعض أطرافه ندامة، ولات مندم ــ فلا حصونه بقيـــت بيده، ولا ذخيرته احتفـــظ بها، ولا مدينـــة طريفه بقيت أسلامية، وبعـــد ضربه اخماسا فى اسداس رأى أن رد الفعل الوحيد الذى يمكن له أن يرد به على الطاغية، هو مصالحة السلطان المرينى فكون وفدا تحت رئاسة ابـــن عمه أبى سعيد فرج ابن اسماعيل ابن الاحمـــر، ووزيره عزيز الـــدانى، فخرج الوفد فى أسطول بحرى الى أن نزل بمرسى غساسة ــ وهى فرضة على البحر المتوسط غربى مليلية ازاء رأس ورك فى قبيلـــة بنى بوغافـــر القلعية، وكانت مدينة عامرة، ومرسى هامة بها ترسو السفن القادمة مـــن العدوة الاخرى، ومنها تصدر الى الضفة المقابلة ــ .

وقد مثل الوفد أمام السلطان فى معسكره حول الحصن، وقدم لـــه الاعتذار عن ابن الاحمر صاحب مالقة على تواطئه مع الاجنبى .

وقد اغتنم عامر المتحصن بالمعقل وجود هذا الوفد، فأرسل اليـــه يلتمس منه أن يتوسط بينه وبين السلطان، ويستشفعه فيه، فقبل الوفـــد ذلك، وقام فعلا بمساعى حميدة، كانـــت النتيجـــة أن عفا عنه السلطـــان مشترطا أن يغادر المغرب تماما الى الاندلس بحاشيته وعائلته، فاظهر عامر القبول والرضى وأخفى كراهية ذلك، مضمرا الفرار الى تلمسان، حيـــث يلتحق بأخيه عمـــر .

وعلامة على قبول شروط السلطان ظاهريا، ارسل الى الاسطـــول الراسى بمدينة غساسة بعض جماعته فركبوا منتظرين وصول عامـــر، الا

أنه عندما أرخى الليل سدوله، تنكب الى جهة تلمسان، فارا بعائلته وتـــرك قومه عرضة للقتل والفتـــك بهم .

فلما أصبح الصباح، وتبين للسلطان خديعته أمر خيالة لاقتفـــاء أثره، فطاردته الخيالة فى مفازة بوعاك وصبرة، وانكاد، غير أنها لم تعثـــر له على أثر، الا ما كان من ولد له يدعى أبا الخيل، فانه تاخر ولحقت بـــه الخيالة، فأتت به اليه، وبعث الى فاس، حيث قتل هناك وصلب جثمانه على أسوارها، كما استنزل من بقى فى الحصن، ومن ركب الاسطول، وبعـــد ما جمع الجميع أمر بقتلهم، ولم يعف ولو على واحد، بل قتل حتى النساء والذرارى فى يوم مشهود، وتملك السلطان يوسف حصن تزوضا، وانـــزل بها عياله ومسلحته، وقفل راجعا الى حضرته بفاس، آخر جمادى الاولى سنة 692 هـ. (1)، وقد استمرت الثورة عشرة أشهر، لانها قامت بتاريخ شعبان 691 هـ؟ وانتهت فى آخر جمادى الاولى سنة 692 هـ.

هديـــة افـــرنـــج جـــنـــوى :

واثناء مقام السلطان يوسف محاصرا حصن تزوضا، وفد عليه أيضا رجل من نصارى جنوى بايطاليا، مصحوبا بهدية قدمها سكان المدينة، وكان مما تضمنته تلك الهدية شجرة مموهة بالذهب على اغصانها طيـــور من ذهب أيضا تصوت بحركات هندسية، مثل ما صنع المتوكل العباسى، وقد تقبل السلطان من الوفد هديته، وأمـــن وفادته، وكان ذلك تقربـــا من هؤلاء الافرنج الى ملك عظيم بالمغرب طـــارت شهرته الى الآفاق، وبذلـــك أقيمت علاقات حسنة الصلات بين ايطاليا والمغرب .

نكبـــة أولاد الامـــير ابى بكـــر المرينـــى :

لما تم للسلطان القضاء على ثورة الريف كما أسلفنا، وكان أولاد الامير أبى بكر فى عين الصفا، حيث تركهم ابوهم المتوفى برجب عام 656 هـ. (1257 م) وقد سعى الوشاة بين هؤلاء الاولاد وبـــين السلطان يوســـف، فوشوا اليه بأن هؤلاء الامراء يريدون الانتقاض على السلطان، والقيـــام بثورة أخرى، فصدقهـــم فى ذلك، (وليس بأقـــرب الى التصدق من أخبـــار

---

(1) الاستقصاء ج.7.ص.47. (طبعة دار الكتاب بالدار البيضاء) .

الانتقاض على الملك، وبالاخص فى تلك الظروف، وبالاخص من أولاد أمير، كان سبق أن تسلط على بعض البلدان، كما تقدم، ولذا يقال أن الملك عقيم)، فهم السلطان بالفتك بهم، الا أنهم علموا بنوايا السلطان فهربوا الى تلمسان، وكان ملكها يغمرسن ابن زيان الزناتى، يتقبل كل لاجىء سياسى من المغرب، لان علاقته بملوك المغرب لم تكن حسنة، ويظهر أن السلطان تحقق من كذب الوشاية، فندم على ما كان عزم عليه، أو لانه رأى أن فرار قرابته الى أعدائه، يفسر تفسيرات سيئة، ولذا بعث الى أولاد الامير المذكور بالامان، طالبا منهم الرجوع الى بلدهم، فاستبشروا بذلك، واقبلوا برجلهم وخيلهم، عائدين الى الوطن .

وعندما وصلوا الى صبرة موضع قرب نهر ماوية من المغرب الشرقى من بلاد الريف، اعترضهم ولده أبو عامر عبد الله ابن يوسف، ففتك بهم فتكا ذريعا، فى مجزرة يندى لها الجبين، وهو يعتقد أن عمله هذا يرضى أباه، وانه قام باهلاك عدو له، كانت سياسة الملك الظاهرة تقضى عليهم باستدعائهم، أما فى الباطن فانه سيكون مرتاحا الى عمله الجرىء، ولكن أبوه كان صادق الطوية، ولم يستدعهم للغدر بهم، فانزعج لعمل ولده ايما انزعاج، وحزن على ما فعله حزنا كبيرا، لأن فى فعل ولده معرة له داخليا وخارجيا، فهم من القرابة بالمكان، جاءوا بامان الملك .

ولذا أعلن السلطان غضبه على ولده واقصاه عن حظيرة الملك، فانجلى هذا طريدا فى بلاد الريف، وجبال اغمارة يتنقل شريدا الى أن مات بقبيلة بنى سعيد الريفية، آخر سنة 698 هـ. (1297 م) ونقل جثمانه الى فاس، حيث دفن بزاوية باب الفتوح .

وقد خلف ولدين احدهما يدعى عامر، والآخر سليمان، تولى الاول الملك بعد وفاة جده يوسف وتولى الثانى بعد وفاة أخيه عامر .

نكبة تفرسيت وأحوازها :

تقع قرية تفرسيت بين قبائل بنى توزين وبنى اوليشك وتمسامان فى منخفض من الارض، تخرج فيه عين معين من الماء الصافى، تسقى منها جناتها وبساتنها، وتعتبر جنة بطيوة .

وكما أسلفنا، فان تلمسان كانت مأوى للفارين الناقمين على دولة

المغرب ورجال الحكم فيها، سواء أيام الموحدين أو المرينيين، وكان يقوم بشؤون تلمسان ملوك بنى زيان الزناتيون، ورغم أن دولة بنى مرين زناتية أيضا، وقد سبق عن خاصه الملك سعيد الموحدى أن قالوا له: «لا تفعل يا أمير المؤمنين، فان الزناتى أخو الزناتى لا يسلمه ولا يخذله، وانا نخاف أن يصطلحا على حربك» فان الخلاف ظل قائما بين الدولتين الاختين، لان الملك عقيم، وكان سبب الخلاف ما كان عليه اعتقاد بنى مرين من أن بنى زيان اغتصبوا تلمسان، واحوازها، لانها من جملة المملكه المغربيه فى ايام الموحدين، فيجب أن يرثوا المملكة بأجمعها، كما ورثوا المغرب عنهم، وقد كان نفس الاعتبار بالنسبة للدولة الحفصية فى افريقيا أيضا، وبنو مرين لم يهدأ لهم بال، ولم يستكينوا الى الخلود ما دام هاتان الدولتان قائمتين على انقاض الموحدين فى الشمال الافريقى .

على أن مما كان يزيد فى شقة الخلاف طمع سلطان تلمسان بتملك المغرب، أسوة بتلمسان، فقد كانت له مطامع فى المغرب أيضا، فعندما توفى الامير أبو بكر ابن عبد الحق المرينى سنة 656 هـ. (1257 م) طمع سلطان تلمسان يغمرسن فى المغرب، اذ ظن أنه بموت هذا الاسد من المرينيين يمكن له أن يهتبلها غرة ليتملك المغرب، فى حين أن ابا حفص عمر بن الامير أبى بكر المتوفى قد اختلف مع عمه يعقوب ابن عبد الحق، وحشر كل منهما أنصاره، للتقاتل على الارث الذى خلفه لهما الامير أبو بكر وهو فى حالة غليان لم يستقر به المقام بعد، فتبارز القريبان، يقتتلان، ولكن رجحت كفة الامير يعقوب، لانه كان بجانبه، وفى صميم جيشه، انصار بنى مرين الاولون، الذين على بطولتهم قامت دولتهم، وهم ابطال الريف الذين آزروا الدولة من أول وهلة، فهم اذ يقاتلون الآن فى صف يعقوب، فانما يقاتلون لامر هو منهم واليهم، أما عمر بن ابى بكر فانه جمع اعياصا لم يؤمنوا به ولا بدولته التى يحاربون من أجلها، بل هم يعتبرون دخيلين فى صفوف هذا القتال، ولا يعنيهم من الامر الا انهم يتفرجون .

وسبب انحياز يعقوب للريف، أنه لما تملك الامير أبو بكر، كان أول ما فعله أنه (1) قسم بين قومه بلاد المغرب وقبائل جبايته، وأنزل كلا منهم

---

(1) الاستقصاء ص. 11 ج. ث .

بناحية سوغها اياهم سائر الايام طعمة لهم، وأمر كل واحد من أشياخ بنى مرين أن يستركب الرجال .

وكان ما قطعه لاخيه يعقوب تازة وما والاها من بطيوة ملوية واريف الى البحر المتوسط، فكانت هذه الجهات تعد من أقوامه وأنصاره الذين استركبهم الخيل، وعلمهم الفروسية والنزال. وقد كان الامير يعقوب أول وفاة أخيه أبى بكر واستيلاء ابنه أبى فحص على الملك، اذ كان حاضرا فى فاس لما توفى أبوه، وكان يعقوب غائبا فى ولايته بتازة، أراد أن يركن الى ايالته، ويكتفى بها عن التقاتل عن الملك، الا أن أنصاره أرغموه على الطلب بالملك، لانهم يرونه أولى من ابن أخيه .

وقد يكون من دواعى ذلك أولا: ما أسلفناه من أنه كان دربهم على الفروسية، وثانيا، لانه حفيدهم، فأمه ريفية صميمة من بطيوة، تدعى أم الايمن بنت على البطوى، وثالثا: فان استلاءه على الملك معناه أنهم الوزراء والانصار وأصحاب الكلمة العليا فى الدولة، شأن ذلك شأن جميع الامم .

فلم يجد الامير يعقوب بدا من اجابتهم، والقيام بالامر، فبويع بتازة ونهض باتباعه الى ملاقاة ابن أخيه، وكما أسلفناه من كون هذا الامير جمع الاعياص والشذاذ من الناس، فانه لما رأوا قوة الامير يعقوب، خذلوا أبا حفص، ففروا عنه من دون قتال، فرجع الى فاس مفلولا، واكتفى من الغنيمة بالاياب، وطلب من عمه أن يقطعه مكناسة، وينزل له عن الامر فأجابه لذلك (1) .

تقدم ان يغمرسن ملك تلمسان، كان يطمع فى المغرب، ولذلك فانه انتهز هذا الخلاف، وجمع قومه من بنى عبد الوادى، وآزرهم بقبائل بنى توجين ومغراوة وأطمعهم فى الاسلاب والمناصب، ووعد ومن، فقادهم جيوشا جرارة، ودخل المغرب الى أن وصل الى موضع يدعى «كلدمان»، ولكن السلطان يعقوب كان قد انهى خلافه مع أخيه، فجمع قوته، وصمد له، فكانت الغلبة للامير يعقوب، ورجع يغمرسن على أعقابه .

---

(1) الاستقصاء ج. ث. ص. 20 .

الا أنه لما كان أمر قوات الامير يعقوب مرجعه الى الريف، وهم الذين هزموا يغمرسن، فان هذا الاخير اراد أن ينتقم منهم، فلما رجع من معركة كلدمان، دخل قلب الريف وعسكر فى قرية تفرسيت، وجعل ينتقم ويحرق ويقتل ويهتك الاعراض، ويسبى النساء، ويرسل قواته الى جهات مختلفة من الريف، مطلقا لها العنان للتخريب والتنكيل، فلم يدعوا وحشية الا ارتكبوها، وكانت نكبة عظيمة لحقت بالريف، وعندما أشبع وحشيته قفل راجعا الى تلمسان، وذلك سنة 658 هـ. (1279 م) .

الحياة الاجتماعية فى مختلف فترات تاريخ الريف

يضم هذا الفصل جملة من العلماء والقضاة، والصلحاء، وأهل البيت من الشرفاء، الذين تواجدوا فى الريف فى مختلف الفترات من التاريخ .

كما يضم النص الكامل لمخطوط من مخطوطات عصر مدينة بادس، التى ازدهرت أيام الموحدين والمرينيين، وذلك كله لاثبات الحياة العامة الراقية فى ذلك التاريخ .

الوسـط الاجتمـاعـى للـريـف :

بعد الموجز عن الاحداث السياسية فى عصر مدن النكور وبـادس والمزمة، يجدر أن يكون ختم هذا القسم، بسرد بعض رجال العلم والتصوف والشرف فى الفترة التاريخية التى عاشت فيها تلك المدن للنظرة السريعـة التى أردنا القاء الضوء بها ولـو بصيصا عن الحياة العامة، قبـل أن نلم بالاحداث الكبرى التى هى محور هـذا الكتاب، وهى أحداث الحـرب التحريرية الريفية، ليكون وقع اخبارها لـدى القارىء خالصا مستوعبـا ولو باجمال لماجريات تلك الحياة، وكيف كان أثرها عند السكان الذيـن حجبتهم تلك الجبال الشاهقة فى فترات التاريخ، عن معرفتهم لدى غالبية سكان الجنوب، حتى أنه أقصى ما وصلت اليه معرفتهم بهم أنهم أنـاس يخشى بأسهم، وأنهم فى حياة لا تطاق، من حيث عدم الاستقرار، ذلـك ما دعاهم الى أن يدعوها بلاد السيبة، وعسى أن تكشف هذه العجالة من القول على عكس تلك المعتقدات التى ظلمت قوما، لهم فى مكارم الاخـلاق والصفات النبيلة ما لغيرهم من أبناء جلدتهم من البرابرة والعرب، والذين تشبثوا بحياة الدين الحنيف الى الرمق الاخير .

وهذه ترجمة بعض أولئـك الرجال غير العائلة الخزرجيـة التى تتقدم الكلام عليهـا مستوفى .

أبو يعقوب البادسى: (17 دى الحجة 640 11 ربيع الثانى 734هـ.)

افتتحت هذه السلسلة من العلماء والصلحاء بهذا العالم الصالـح الفذ فأذكره أولا: تبركا به وان كنت سأخصه بنشر مخطوط كامل عنـه وعن التعريف به وبمناقبه فى آخر التراجمة اختتاما به، نظرا للفائـدة الهامة فى هذا الموضوع، اذ أن المخطوط، زيادة عن كونه يفيدنا عن حيـاة المترجم له وباعه فى العلم والتصوف، فانه يلقى ضوءا ساطعا عن الحياة فى ذلك العصر، وبالاخص ان المخطوط من بنات فكر فحل من فحول علماء فاس وقاضى الجماعة فيها فى وقته، وهو أبـو محمد عبد الله بن محمد الاوربى، الذى عرف به صاحب كتاب سلـوة الانفاس ـ ج ـ لث ـ ص. 301، كما عرف به أيضا صاحب النيل ومؤلف جذوة الاقتباس .

وفى المخطوط ذكر لبعض رجال ذلك العصر، ممن لهم اتصال بالمترجم، أو لهم احتكاك برجاله .

أبو يعقوب بن الشفاف البادسى :

هو يوسف بن الشفاف البادسى أصله من قصر كتامة ـ قرب القصر الكبير ـ وكان من أعيان وجهائها، فرفض ذلك الجاه، وخرج مهاجرا الى بادس، وسكن بها الى أن توفى فيها رحمه الله .

تاريخ حياته : كان حيا زمن القاضى اسماعيل الخزرجى، فقد قال هذا دخلت عليه يوما فأخرج لى ورقة من كتاب المستصفى وقد أحرق وسطها، فقال لى أجبر هذه الورقة، فقلت له وما حرقها، فقال لى كنت البارحة أنتظر فيها فقربتها من القنديل فسقطت عليها نقطة من الزيت، فأردت أن أنشفها لشعاع السراج، فاحترقت .

وبما أن القضى اسماعيل توفى عام 685، فانه يكون أبو يعقوب هذا حيا فى أواسط القرن السابع الهجرى .

مكانته العلمية والصلاحية :

قال القاضى اسماعيل، كان الشيخ أبو يعقوب الشفاف عالما بالفروع والاصول وكتب التصوف، وكان أوحد زمانه ورعا، وعرف به صاحب المقصد الشريف، فقال: محكم الاوصول والفروع، المحافظ على كل مسنون ومشروع الشيخ الفذ، وكان كثير الحياء .

وحكى عنه خديمه الشيخ الصالح المؤذن يوسف بن عبد الله، قال: أقام سنين لا يرفع رأسه حياء من الله، وفى بعض الليالى يسألنى هل السماء مصحبة أو مغممة، فأخبره بحالها .

تحكى عنه كرامات سخرها الله له بسبب صلاحه وتقواه .

وأبو يعقوب هذا غير أبى يعقوب يوسف بن محمد بن عبد الله الزهيلى المعروف بأبى يعقوب البادسى المعروف بأبى الغماز صاحب الضريح بالمصلى ببادس، خلف قبر أبى على المراكشى، وان كان كل منهما عاش زمن القاضى اسماعيل، الا أن الذى يؤخذ من ترجمتهما معا، أن أبا يعقوب ابن الشفاف أكبر من أبى يعقوب الزهيلى ابن الغماز،

فالاول كان شيخا للقاضى اسماعيل، والثانى كان تلميذا له، وهذا الاخير سيأتى التعريف به بنشر ترجمته برمتها، التى ألفها أبو عبد الله الاوربى.

الشيخ أبو على الحسن الخراز :

أصله من أهالى مالقة بالاندلس، وكان فى بادىء أمره مشتغلا خرازا ينسج الديباج، وتزوج بمالقة ببنت عمه، وهو ابن أخت أبى العباس القنجيرى المالقى، وفى آخر حياته رفض الدنيا وخرج من مالقة مهاجرا الى مدينة بادس، (مقر الصالحين)، وحين وروده على بادس كان عمره حوالى ثمانين سنة .

اعتكافه : وقد نزل فى رباطة البحر ببادس، فاعتكف بها مدة من الزمن، وبسبب وجوده فى هذه الرباطة لاحظ النازلون خصب العيش فيها، وذلك أنه لا يصل قارب من قوارب التجارة الى مرسى بادس الا بادر باعطاء هدية الى فقراء الرباطة، وكانت هذه العادة جارية عند وراد هذه المرسى .

بركاته فى هذا الشأن : وكان له خديم يدعى موفقا، وحكى هذا أنه فى يوم من أيام اعتكافه بهذه الرباطة ورد قارب من أشبيلية الى بادس موسقا بالتين والزيت، مارا بذلك الى جهة وهران، فأقلع القارب ولم يعط شيئا للرباطة، فأتى الخديم الى الشيخ وأعلمه بأن القارب أقلع من المرسى من دون أن يعطى رسوم الرباطة، فقال له الشيخ لابد أن تأكل من تينه وزيته، فردته الرياح الشرقية التى عاكست القارب الى مرسى يالش، وهذه المرسى الى غربى بادس، فمكث هناك الى أن ساعدته الريح، فسافر فأعلم الخديم الشيخ، وقال له هذا لابد أن تأكل من تينه وزيته، وفعلا قامت ريح عظيمة فردته الى يالش بعد أن تكسرت بعض الواح القارب، فأرسل وكيلا له الى بادس لشراء الخشب لاصلاحه، فأعلم الوكيل بقولة الشيخ فبادر الى ارسال التين والزيت، وحينئذ سهل عليه السفر .

سفره الى سبتة : ومع كبره كان يسافر الى سبتة عن طريق البر، فقد حكى المؤذن يوسف أنه تلقاه فى سوق مسطاسة ـ وهى قبيلة جبال صنهاجة بادس غربيها ـ، فقلت له ما حاجتك هنا، فقال أريد زيارة

سبتة ثم اشتريت له خيارا وذهب، وقد تلاقيته بعد ما رجع الى بادس فسألته أين بات، فقال أنه بات فى ترغة ـ وهى مرسى فى آخر قبائل غمارة ـ والمسلك اليها وعر كثيرا بالجبال والصخور، لا يقدر على سلوكها أقوى الاشخاص، فكيف لمن جاوز الثمانين .

حياته : كان حيا فى حدود 685 هـ. وذلك يؤخذ من قول المؤذن يوسف، وهو أبو الحجاج يوسف المؤذن، انه تلاقاه فى سوق مسطاسة، لان هذا المؤذن كان حيا فى هذا الوقت بالذات، وهو تاريخ وفاة القاضى اسماعيل الخزرجى، فقد قال الشيخ عبد الحق بن اسماعيل، القاضى أن أبا الحجاج يوسف المؤذن تولى غسله وأنا أصب عليه الماء، فلما كشف عن وجهه رآه اشراقا وبهجة فقبله بين عينه وبكى .

أبو الحسن على بن محمد المراكشى نزيل بادس :

هو مراكشى أصلا، نزل ببادس بعد ما رحل الى المشرق وحج، فقد قال عن نفسه فى كتابه «مناقب الاولياء» قعدت يوما بمكة أنظر فى البيت وأتفكر فيه وأرى له أربعة أوجه والناس يصلون الى كل جهة فيه، فألهمنى الله تعالى الى أن قرأت : فأينما تولوا فثم وجه الله .

مكوثه بمصر :

وبعد الحج رجع وبقى فى مصر باحثا عن الاشياخ الصلحاء، فقد قال عن نفسه أيضا فى كتابه المذكور، سكنت بقوص مدة فذكر لى عن شيخ فى الاقصور يعرف بأبى الحجاج يوسف الاقصوى، فأردت زيارته، فتخلفت عنه أياما، فنمت يوما فسمعت قائلا يقول لى قم الى الشيخ يوسف فانه خرج ليجتمع بك، فلم أكذب ـ أى الرؤية ـ فخرجت أما أن ألقاه وأما أن أمشى الى منزله على وجه الزيارة، فمشيت على ساحل النيل حتى انتهيت الى موضع المعدية، الى أن أتى على الحكاية التى ذكره فيها أنه لقيه ثمة، وانه طلب منه نصيحة شافية، فقال له عليك بمحاسبة نفسك ومراقبتها، وعليك بالصمت بين يدى العلماء، وعليك بالتواضع وقلة الدعوى ثم انصرف .

زيـــارتـــه لبيـــت المقـــدس :

حدث عن نفسه فى الكتاب المذكور، قال: مشيت الى بيت المقـــدس (وذلك فى صدر المائة السابعة) وأقمت فيه يوما، وخرجت الى زيارة أبينا ابراهيم عليه السلام، فأتيت الى قبره، وهـــو مدفون فى مسجد صغـــير، فصليت ركعتين ثم خرجت لاسلم عليه، فاذا انا بثلاثة نفر وهم يتلـــون هذه الآية: «وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه الى الظالمين» وهم يكررونها فسلمت عليهم وبقيت متعجبا من كونهم لم يجدوا ما يقرءونه على أبينا ابراهيم الا هذه الآية، فأتى الى رجل منهم، فقال يا هذا لا تعترض نحـــن من قومـــه الـــخ .

رجوعـــه الـــى مـــصـــــر :

قال دخلت سنهورا (1) بينها وبين الاسكندرية يوم وبعض يوم، فركنت وتجردت للعبادة، فآويت الى مسجد آخـــر البلد، فاجتمـــع حولى فقراء بغير اختيارى وكـــانوا لا يبرحون عنى وضيقوا على فى العبـــادة، فعزمت على الانتقال الى بلد غيرها، فلما كان العشاء الاخيرة من ذلك اليوم رأيت رجلا دخل علينا المسجد وأولئك الفقراء قعود، كل واحد فى موضعه، فأخذ الرجل بيدى وأخرجنى من المسجد، وقال لى امش معى الى أن قال وأخذ بيدى وأدخلنى الى منزله فى غرفة لم أجد فيها الا حصيرة من الحلفاء أقعدنى عليها، ثم دار فى زاوية الغرفة فأنزل بـــين يدى عسل نحـــل ولبنا معقودا وخبزا حارا، فواكلنى ثم قـــال، فسألته عن اسمه، فقال اسمـــى ضرغام بن مخلوف، فقلت له ما حرفتك، فقال لى قزاز وبعده أراد الانصراف فقال له الضيافة ثلاثة الخ ...، ثم تركه عنده شهرا كاملا وقال قلت متمثلا:

نزلنـــا على أن المقـــام ثـــلاثـــة فطابت لنا حتى أقمنا بها شهـــرا

تيهـــه فى صحـــراء مصـــــر :

قال: صاحبنى شاب اسمه يوسف، وكان ذانية، وحرفته يـــدور ويطعم الفقراء، فلما كان ذات يوم، خرجت للسياحة، ففطن بى فتبعنـــى

---

(1) سنهـــور بلد بمصـــر .

وبيده أبريق لا غير، فساءنى فعلـــه، فقلت له ما حملك على هـــذا ــ أى مصاحبته ــ ارجع الى الفقراء، فلم يفعل ورغبنى وبكى، فتركتـــه معى وكنت أردت أن أصل الى أسوان الى رجل يعرف بالهرغى، واسمه عبد الله وكنت رأيته بقوص، فمشى معى الشاب ونحن على ساحل النيل لا نفارقه، ثم وصلنا الى موضع بدماميل فبتنا فيه عند رجل من الفضلاء اسمه مفرج، والشاب يوسف معى لا يفارقنى، فلما كان فى السحر أردت المشى الى الاقصور، فسرقتنا طريق صغيرة والشاب معى، فما شعرنا الا ونحن فى صحراء والغزلان أمامنا، اذا بوادى، ثم انقطعت عنا الطريق التى أخذنـــا عليها، فلم نعلم حيث نحن من الارض، فسرنا النهار كله فبتنا ثم أصبحنا وتيممنا وصلينا، ثم مشينا الى وقت الزوال وقعدنا الى الارض، ولا شىء بقى من الشمس، وأخذنى العطش الشديد، والابريق بيد الشاب يوسف، فقلت له أصابنى العطش، فقال لى ياسيدى اقعد مكانك فتوارى عنـــى، ثم أتانى وابريقه مملوء ماء، ثم قال: فقلت والله لا شربت من هذا المـــاء شيئًا حتى تعرفنى، فقال لى يا سيدى انى أعرف فى هذا الموضع مكـــان الماء الخ القصة، حيث شربا وتوضيا ثم قعدا الى صلاة العصر، ثم مشيـــا الى المغرب، فباتا تلك الليلة قال ولم نعلم حيث نحن، فلما أصبح صلينـــا الصبح ومشينا حتى رأينا النخيل، فلما خرجنا من النخيل عرفنا البلاد الذى هو الاقصور، فبتنا تلك الليلة عند الشيـــخ أبى الحجاج الاقصورى، ثـــم مشينا الى أسوان، وكان قريبا من العيد الكبير، فعيدنا عند الشيـــخ أبى محمد الهرغى، ثم أراد الشاب أن يمشى، فخليت سبيله، وهو الآن بمكـــة يبعث لى السلام مع كل من يعرفنى .

رجـــوعه الى المغـــرب :

بعد رحلته الى المشرق رجع الى المغرب، وقد اختار أن يستقر فى مدينة بادس، لانها مقبرة الصلحاء، كما قال، فقد حكى تاجر ببادس كان يدعى محمد بن ادريس، وكان يتردد بزورقه على مراسى البحر الابيض المتوسط لوسق سلعه مع ابن عمه الرئيس يوسف البحرى، قال كنا حملنـــا فى قاربنا خشبا من بادس برسم التجارة ــ أى الى مرسى هينين بنواحى

الجزائر ـ فلما بعنا وحضر سفرنا، أتانى شيخ رضى بهى السيمة، فقال لى من أين جئتم فقلت له من بادس، فقال نعم بادس مقبرة للصالحين، م قال لى وأى وقت تحاولون الرجوع اليها، فقلنا له الساعة، فأنا مسافرون ان شاء الله، فقال ان بدا لى التوجه صاحبتكم اليها فى قاربكم، قلت له نعم، فقال لى أنا ومن معى وهى مملوكة، فقلت له أنت ومن معك، قال فعرفت اذ ذاك شريكى وابن عمى الرئيس يوسف وكانت فيه شراسة، فقال لى ما يطلع معنا الا بالكراء فقلت له قد أذنت له فى طلوعه، ولا يمكن نقض الوعد معه، فحاسبنى بواجبك من الكراء عليه، قال فأتى الشيخ أبو الحسن وخادمته فطلع معنا فى القارب واقلعنا من هينين وسرنا فأصبحنا يوما على حرف بادس فنظرنا فى الغبش، فرأينا شيطيا ـ باخرة ـ حربيا قاصدا الينا من البر فدهمنا أمر عظيم، وسار بعضنا يموج فى بعض، والشيخ أبو الحسن واضع رأسه بين ركبتيه، فسمع ضجيجا وما نحن فيه، فرفع رأسه وقال ما شأنكم، فقلت له أظنك مصابا فى عقلك، نحن الساعة أسارى للعدو، ثم قال فقام فكانت منه التفاتة الى جهته، فرأيته قد أمسك طوقه بيده، وأخذ به كالخائف لنفسه، ثم رفع رأسه الى السماء، قال فغشينا فى الوقت ضباب كثيف لا يكاد الانسان يرى يده، وهبت علينا ريح طيبة سوائع، فغاب عنا الشيطى وما كان الا يسير حتى وصلنا الى بادس سالمين.

حالته ومكوثه ببادس :

نزل ببادس بعد رجوعه من المشرق كما تقدم، فأقام بها محترفا بالخياطة، وكانت هيئته فى لباسه كما حكى القاضى اسماعيل، قال قدم على بادس الشيخ أبو الحسن على بن محمد المراكشى، وعليه جبة صوف خضراء رائقة اللون، واحرام صوف تلمسانى، وعمامة بيضاء، ونعلان طليطلان، وهو شيخ بهى رضى يظن من رآه انه أحد عمال الموحدين ، وكانت له مملوكة سوداء تعمل الخبز وتبيعه .

وكان يجالس تاجرا بزازا اسمه على بن محمد الزهيلى، ويعرف بالنعجة، فكان يعطيه أثوابا من حانوته يخيطها له بالاجرة وما زال متسترا بما ذكر حتى مات رحمه الله .

تـــآليفـــــه :

له تأليف سماه كشف النقاب، فى مناقـــب الشيخ الاواب الحـــاج حسون المبين فضله لدى كل من أناب ــ لم نعثر عليه، وقد ذكر فى مخطوط للجلاب فى مناقب الشيخ حســـون ــ .

وله تأليف آخر سماه «مناقب الاولياء وصفة سلوك الاصفـــاء» (مذكور فى المقصد الشريف فى التعريف بطلحاء الريف لعبد الحق الخزرجى)، وقال انه نقل عنه فى كتابه طبقات الاولياء، كما نقل فى مقدمة المقصد.

وفـــــاتـــه :

أقام ببادس فى حدود الاربعين وستمائة 640 هـ. وذلك انه لما رجع من المشرق استقر ببادس وتستر بالخياطة واللباس الفاخر الى أن توفى ودفن بالمقبرة التى بمشرق بادس، وقبره مشهور بها يزار ويتبرك به، وكانت قصة وفاته كما يأتى: كان التاجر البزار الذى كان يأخذ منه الثياب ليخيطها له بالاجر، يتهمـــه بعلم الكمياء، فكان يبالغ فى اكرامه والبر بـــه للطمع، وذلك ان مملوكته السوداء الخبازة كانت تشترى القمح بدراهـــم سكة جديدة ليست من سكـــة ذلك الوقت، وكان الشيـــخ المراكشى يسكن برباط «تمدى»، (لفظة تمدى هو اسم النسر بالريفية) بمقربة من البحـــر فى غرفة هناك، فلما حان وقت وفاته، وكان على بن محمد النعجة الزهيلى ــ أى التاجر ــ اماما فى مسجد المقبرة، وكان ذلك الوقت وقت صلاة الظهر، فقال له يا أبا الحسن، قم صل بالناس، فان الجماعة تنتظرك، فقال لـــه يا سيدى لا أريد فراقك ــ يظهر أنه كان مريضا مرض الموت وان لم يرد فى النص ذلك ــ فقال له قم فان قدر لك رزق فى شىء ادركته، (فهم الشيخ غرض التاجر من مكوثه معه وهو ان يحوز دراهم الكيمياء عند موته قبل أن يعلم بموته أحد). فذهب للصلاة فلما عاد وجده ميتا رحمه الله، فلـــم يجد عنده شيئا غير كتابه المعروف بمناقب الاولياء وصفة سلوك الاصفاء.

الشيـــخ أبو الحجـــاج يوســـف القصـــير

كان من الشيوخ الملتزمين برباطـــة البحر يتعبـــد فيها مستتـــرا

بالاصطيـــاد فى البحر، وذلك أنه كان يتعيش من البحر، يذهب كل يـــوم بسلة يصطاد الحوت ليقتات منـــه .

عـــادتـــه: كان من عادتـــه الصيد فى البحر، كما أشرنا، وذلـــك لمجرد الاقتيات، ومن عادته أيضا أن يذهب الى سبتة فى كل شهر رمضان ليقضيـــه ثمة صائمـــا .

منـــاقبـــه : حكى عنه الشيخ أبو على الحسن بن هنا البادسى الزهيلى (يظهر أنه من عائلة أبى يعقوب البادسى)، قال: حدثنى يوسف بن احمد البادسى، أنه اتفق أن سافر هذا الاخير الى سبتة فى شهر رمضان، قال وبعد ما صلينا ليلة 27 من رمضان عزمت غده وكان يوم الجمعـــة أن نسافر بعد صلاة الجمعة، فتلاقانا الشيخ يوسف القصـــير، وقال لى متى تسافرون، فقلت له بعد صلاة الجمعة، فقال أنا أسافر معكم ان شاء الله، فأحضر اسقاطا له قليلة من متاع البيت، قال فلما صلينا قلنا له اركب معنا فقال ظهر لى أن أصلى العصر هنا مع المسلمين، سيروا فى حفظ الله، قال يوسف البادسى، فلما وصلنا الى مرسى يليش قرب مدينة بادس فى نصف الليل بتنا فيها الى السحر، ولما وصلنا الى مرسى بادس فى الغبش رأينـــا ماشيا على الساحل قاصدا الينا، فاذا به الشيخ أبو الحجاج القصير، فأخذ ماعون بيته وذهب، قال وذهلت ان أسأله الى ما بعد مدة تذكرت فقلت له فى ذلك فقال نعم وما أبطأنى الا بقرة وجدتها لبنى يذر، ذلك أنه فى تلـــك الليلة ضاعت بقرة لاولاد يذير بنواحى مرسى يليش فبقى أولاده عامـــة الليل يبحثون، فلم يجدوا لها أثرا، وعندما رجعوا الى دارهم ويئسوا منها، فاذا هم مناد من الخارج يا بنى يدير اخرجوا الى بقرتكم، ولما خرجـــوا وجدوا البقرة ولم يجدوا معها أحدا، وكـــان ضياع هذه البقرة هو سبـــب عدم ركوب الشيخ أبى الحجاج فى الزورق لكى يعثر عليها ويردها لاربابها.

حيـــاتـــــه : كان حيا فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى، لان الشيخ أبا على الحسن بن هنا، كان فى حياة الشيخ عبد الحق البادسى الذى كان حيـــا فى أوائل القرن الثامن الهجـــرى وقد حكى فى ترجمة أبى الحسن المراكشى أن ابن هنا هذا كان شيخا مسنـــا .

الشيخ أبو زكريـــاء حسون بن على البادسى :

عرف به صاحب سلوة الانفاس (1) فقال: هو الحـــاج الابى الولى الصالح الزاهد الورع المتقشف .

حياته ووفاتـــه : وهو بادسى مولـــدا ومنشأ وقرارا، الا أنه فى أواخر حياته زار فاسا وبها توفى فى أواخر القـــرن السابـــع الهجـــرى، حسون ليس هو الشيخ ابا على الحاج حسون الادوزى، الذى كان شيـــخ وقته فى التصوف والكرامات، فهذا الاخير من بادية قبيلة بقيوة كما سيأتى التعريف به مفصلا، والمترجم له هنا هو من أهالى بادس، ولم يعرف شىء عن حياته الا ما تقدم عن صاحب سلوة الانفاس من الاوصاف، وما يذكره صاحب المقصد الشريف من كون والـــد الشيخ عبد الحق اسماعيل صهـــره اذ تزوج ببنته، لانه كثيرا ما يقول فى الكتـــاب المذكور، حـــدثنى خالـــى الحاج يحيى بن حســـون .

ولـــده الحـــاج يحيـــى :

وكان ولده هذا فى أول أمره مسرفا على نفسه، وكان من شبـــان مدينة بادس المترفين الذين مالوا الى التكسب والاحتراف الى أن هداه الله الى ترك ما هو عليه من الترف، وكان سبب ذلك أنه طالع كتاب الشيخ أبى الحسن على بن محمد المراكشى فى التصوف، وبالاخص ما حكاه عن الشيخ أبى الحجاج الاقصورى من الكرامات، فتاقت نفسه الى الهجرة الى مصر لزيـــارة الشيـــخ الاقصـــورى .

رحلتـــه الى الحـــج : وفعلا فقد رحل الى المشرق التى هى سنة الصالحين فى ذلك الوقت وزار زاوية الشيخ الاقصورى وقبره وســـأل عن وارث سره، فقيل له انه الشيخ الشماس النوبى، فذهب اليه، وكان الشيخ الشماس هذا مكفوفا أسود اللون فبقى عنده الشيخ الحاج يحيى وخدمه خدمة قيل عنه أنه لم يكن بالزاوية اكثر منه مجاهدة وتقشفا وانقطاعـــا، وفى هذا الاثناء حج الى بيت الله الحرام، ثم رجع الى المغرب ولم يعرف أنه رحـــل رحلـــة أخرى .

---

(1) الجـــزء لث ــ ص. 317 .

مشـــايـــخـــه : أخذ الطريقة عن الشيخ الشماس النوبى المتقدم الذكر، وقال عن نفسه أنه تلاقى فى تلك الرحلـــة مع الاكابر من أصحـــاب الشيخ أبى الحجاج الاقصـــوى، منهم احمد بن الخطيـــب، خطيب منى وأبو الحســـن الافواهى وغيرهمـــا .

بعـــد رجـــوعـــه : وبعد رجوعه حاول ان يتكسب من التجارة، فأخذ رأس مال للتجارة من شخص يدعى احمد .ن على البطوطى، وجعل يتاجر، الا أنه لم يفلح فى التجارة، بل اثقل كاهله برأس مال البطـــوطى الذى تلف له، ثم تذكر ان العهد الذى أخذه عن شيخه الشماس الخروج من الدنيا عند فراقه له، فاقلع عن التجارة ولبس المرقعة، وتعيش مما يفتـــح الله به عليه، وما زال كذلك الى أن رحل الى فاس ومات بها كما تقدم، وهو من أهل القرن السابع ووفاته كانت فى أواخره (1) .

أبو العباس احمد بن يحيى بن سعيـــد :

كان رجلا عابدا لا ينام لاجتهاده، وكان يلازم الصلاة فى مسجد بادس وقـــد حكى عن نفسه أنه كـــان يسمع من أبى عبد الله محمد بن الصبان العالم الكبير، أن قبلة مسجد بادس مائلة عن القبلة الى المغـــرب، قال مؤلف المقصد الشريف، وما زلت أراه هو والشيخ أبا عبد الله بـــن الصبان فى حالة الصلاة، ينحرفان الى المشـــرق .

حيـــاتـــه : كان حيا زمن الشيخ عبد الحق بن اسماعيل الخزرجى الذى تقدم انه كان حيا عام 722 هـ. ويستفاد من رواية الشيخ عبد الحق أن هذا الشيخ كـــان أكبر منه سنا، وكـــان يقتدى به حيث قال انـــه رآه والشيخ الصبان يميلان عن المحراب الى المشرق .

صـــلاحـــه : حكى عن نفسه أنه ذات يوم كان يتأمل فى انحراف القبلة فى المسجد، قال فحركنى رجل الى جانبه فرفعت رأسى فأشار بيده وقال القبلة هكذا، فنظرت فرأيت الكعبـــة، قال فطلبت الرجل فلـــم أجده، والله أعلـــم .

---

(1) من سلوة الانفاس صحيفة 317 – ج – لث .

أبو القاسم سيدى احمد بن يحيى البادسى :

عرف به فى سلوة الانفاس وقال انه كان يعرف بأبى كماشة، كان بفاس توفى فى رابع محرم عام 1100 هـ. ودفن فى فاس بعرصة الخياط رحمه الله .

الشيخ أبو شعبان اليرزيجا :

كان أسود اللون أبيض القلب، يعرف ببوشعبان، ورد على بادس وتعبد فى رباطاتها، ولم يعرف بلده الذى أتى منه الا أنه كان معروفا باغترابه، وقد لازم التعبد فى رباطة البحر، ومرض فيها مرة مرضا أشرف على الموت .

مناقبه : حكى عن نفسه أنه لما مرض فى رباطة البحر حتى أشرف على الموت سقطت قواه ولم يقدر على التحرك، قال ولما كان بعد جزء من الليل دخل على شخص لا أعرفه ببادس، وأتى بطعام، فقال لى كل فاشرت اليه انى لا أقدر، فاطعمنى بيده، فانتعشت فى الحال وبقيت متصرفا فى مصالحى بعد ذلك، وأنا أعرف جميع أهل بادس، فلم أعرفه فيهم .

انتقاله الى سبتة ووفاته بها: بقى ببادس برباطة البحر، وكان الصبيان يتبعونه ويقولون ارحم بوشعبان فييتهج لذلك ابتهاجا حتى صار يعرف بكلمة ارحم بوشعبان، ثم انتقل الى سبتة ولزم الاذان فى مساجدها المختلفة الى أن توفى رحمه الله، ولا يعرف تاريخ وفاته، الا أنه كان حيا أواخر القرن السابع الهجرى .

الشيخ أبو العباس احمد بن الناهظ :

لا يعرف مسقط رأسه. كان شيخا فاضلا صاحب يقين واخلاص يؤثر عن نفسه ولو كان به خصاصة وعالما حليما مجاب الدعوات، الا أنه كان من عادته أن لا يدعو لاحد الا بشرط شىء معين يدفعه طالب الدعاء .

رحلاته : كان يجوب أقطار المغرب ولم يعرف عنه أنه ذهب الى المشرق، كما كان يتردد على سبتة وذلك كله للتعرف على الطلحاء

والعلماء، كما كانت العادة فى ذلك الوقت، وقد رحل الى فاس ورجع من هناك قاصدا سبتة، وكانت معه كتبه العلمية والدينية، فقد حكى الشيخ أبو محمد عبد الله بن الرايس على اليدق قال أتى ابن الناهض من فاس قاصدا سبتة، فنزل عندنا بمنزل تازجا الى أن قال فأمرهن بتنقيل اسقاطه وكتبه .

مناقبه : قد قدمنا انه كان مجاب الدعوة، الا أنه كان يشترط شرطا معينا يأخذه من طالب الدعاء لقضاء مآربه، ومن جملة ما وقع له فى ذلك مع الشيخ حسون بن على والد الشيخ الحاج يحيى قال كان لابى أخ يدعى محمد بن على أسر فى مالقة، فقيل له أن الشيخ ابن الناهظ له دعاء لقضاء الحوائج، فذهب اليه، فقال له تعطى أربعين دينارا ويخرج أخوك، فقلت له عسى أن تخفف عنى، فقال لا يخرج بأقل من أربعمائة دينار، قال فذهبت فلم أستطع اخراجه الا بأربعمائة دينار، وقضيت العجب من ذلك .

كما حكى عنه أنه كان بسبتة رجل قزاز وله ولد فى مالقة سافر اليها، فما زال أبوه يطلبه بالرجوع وهو يمتنع، فقيل أنه أتى ابن الناهظ فطلب منه الدعاء لرجوع ولده، فقال له تعطى ربع قنطار من السميد قال ففعل، فأول ما أتى جفن من سبتة وصل ولده فيه .

حياته : كان حيا أوائل القرن السابع الهجرى لانه عاشر حسون والد الشيخ يحيى الذى توفى أواخر القرن السابع، ولا يعلم أين مات، الا أن الذى يظهر توفى ببادس .

الشيخ أبو القاسم ابن الصبان :

الشيخ الجليل العلامة العلم والمدرس المتصوف صاحب أحوال ومكاشفة، المتعبد المتحنث المتضلع فى دراسة التصوف وتفسير القرآن .

هو من علماء فاس، ارتحل عنها ومكث فى بادس مدة ثم انتقل الى سبتة وبها توفى رحمه الله .

تدريسه ببادس : كان يدرس التصوف بمسجد المحلة ببادس وكان فى تدريسه التصوف يفضل أبا حامد الغزالى على ابى طالب المكى،

الى ان وقعت له رؤيا صالحة، فأقلع عن التفضيل، وذلك أنه بينما هو نائم ذات ليلة فرأى نفسه كأنه فى مسجد، وشيخ بهى الطلعة رضى المظهر جالس مسند الى القبلة، فدخل رجل من الباب ويده الى خلفه وعقدهما شبه التكتف، ومشى حتى قبل يد ذلك الشيخ الجالس، ثم رجع القهقرى الى خلفه ووجهه مقابل للشيخ، فلما بلغ اليه قال أتدرى من ذلك الشيخ ومن أنا، فقال له لا، قال ذلك هو أبو طالب المكى وأنا حامد الغزالى، وقد رأيت حالى معه، فلا تفضلنى عليه، ومن ذلك الوقت، أقلع عن تفضيل الغزالى عن أبى طالب المكى .

مؤلفاته : قال الشيخ عبد الحق بن اسماعيل الخزرجى، رأيت بيد ولده أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم الصبان سفرا فيه شرح أسماء الله الحسنى بخط أبيه أبى القاسم الصبان، فقال ان والده جرد ذلك من تفسير أبى محمد عبد الجليل للكتاب العزيز، وان ذلك التفسير فى ستين مجلدا، لكل حزب مجلد .

رحلاته : رحل الى المشرق لاداء فريضة الحج وزيارة المشايخ المقتدى بهم، وقد طاب له أن يجلس فى جزيرة خالية — لا ندرى بالضبط اسمها أو موقعها — الا من امرأة وابنها يتعيشان فى غنيمات لهما يتعبدان فى الجزيرة، وأقام عندهما وصام هناك شهرين من رمضان، ثم سافر بعدما عيد هناك العيد الثانى برفقة رجل غريب أتى الى الجزيرة لقضاء شهر رمضان، كما هى عادته، وفى برقة مكث سنة على عين ماء يتعبد هناك، وبعد ما قضى مناسك الحج رجع وذهب الى فاس، وكان يوما بمسجد القرويين فدخل عليه صاحبه الذى رافقه من الجزيرة وكان بهيئة حسنة وثياب فاخرة وتعرف عليه فاذا هو من أعيان فاس .

مناقبه : منها ما ذكر من ركونه الى الخلوة متعبدا، ومنها أنه كان ابن السبعين الفيلسوف ألف كتابا سماه بد العارف، وكان مملوءا بهذيان، وكان ابن السبعين هذا ممن اتهم بامرأة مثرية انفقت عليه أموالها، وكان هذا الكتاب لم يطلع عليه أحد فكاشفه الشيخ ابن الصبان .

وقال له مزق الكتاب فانه مذموم، فكان ابن السبعين يقول لولد ابن الصبان انه لم يطلع أحد على كتابه، وان الشيخ كاشفه بذلك .

ومما يحكى عنه أنه كان بفاس وطلب كراء دار فقصد السمسار، فقال ليس هناك الا دار مسكونة بالجنون لا يدخلهـا أحد الا خرج منهـا حالا، قال فالتزمت كراءها على ذلك الشرط، وسكنتها، فلما كان بعد العشاء قمت أتهجد، فسمعت صفعا عظيما فى وسط الدار وأصوات مهولة، فمـا عرجت على ذلك، ثم دخل على فى البيت تمثال ثعبـان، وبعد ساعة دخـل على شخص على صـورة الافعى، فلما فرغت من الصلاة قلت من أنـت قال أنا من الجن المؤمن، ونحن ساكنون بهذه الدار، قلت له فما شأنكـم تسيئون جوار من يسكن قال انما يسكن معنا من لا أخلاق له، قال فاقمت معهم وكانوا يأتون فى جوف الليل فيصلون خلفى بصلاتى .

أشيـاخـه : تلمذ للشيخ أبى زيد الدهمانى فى مصر، والشيخ أبى محمد عبد الرزاق الجزولى كذلك، وقرأ بعض التفسير على الشيـخ عبد الجليل بن موسى القصرى .

تـلامـذتـه : تلمذ له شيخ سبتة فى وقته أبو عبد الله الدبـاغ وولده الشيخ أبو عبد الله محمد الصبان .

حيـاتـه : كان حيا فى أواسط القرن السابع وتوفى بمدينة سبتة، التى لها اتصال وثيق ببادس .

أبو عبد الله محمـد الصبـان :

هو ولد الشيخ أبى القاسم الصبان المتقدم الترجمة، كان شيخـا فاضلا، وكان يقتدى بكتاب أبيه فى اسمـاء الله الحسنى، وكان يـروى عن أبيه حياته وكراماته وعلمـه .

ولم يعرف له صاحب المقصد الشريف وانما ذكره فى ترجمة أبيـه ووصفه بقوله الشيخ الصالح أبـو عبد الله كما وصفه بأنه تلميـذ أبيه الشيـخ ابن القاسم الصبـان .

حـيـاتـه : كان حيا زمن أبيه الذى عاش فى أواسط القـرن السابع الهجرى، وبناء عليه فانه كان حيا فى هذا التاريخ، كما لا نعلم أين توفى هل ببادس أو بسبتة، وقد كان يتردد على هذه الاخيرة، فقد حكـى

عن كرامات والده أبى القاسم، أنه قال، كنا يوما فى رباطة الصيد (ومعلوم أن رباطة الصيد هى بسبتة كما تقدم)، وجماعة من الناس قد حضروا فقال (أبو القاسم الصبان) ان العوم فى البحر يجمعنا، فقال الحاضرون سمعا وطاعة، فنزلنا الى البحر، وعمنا، فلما خرجنا أقبل على رجل من الجماعة فقال له سرا ما حملك على ما صنعت، جامعت أهلك وأتيت الى المسجد جنبا، لا تعد، فكان الامر كما كان .

من رجال كتامة (القصر الكبير)

أبو محمد الشيخ عبد الجليل بن موسى الكتامى :

من قصر كتامة كان آية فى تفسير القرآن الكريم وكان يتولى تدريس التفسير بقصر كتامة، فقد حكى عنه الشيخ أبو محمد عبد الرزاق الجزولى الذى كان شيخا بمصر، أنه جال فى أقطار المغرب، قال فما قرع سمعى فيها مثل رجل يفسر كتاب الله العزيز بقصر كتامة اسمه عبد الجليل بن موسى .

وهو الذى تقدم فى ترجمة الشيخ الصبان بأن له تفسير القرآن فى ستين مجلدا لكل حزب مجلد قال الشيخ ابن الصبان، فلما رجعت الى المغرب قصدت زيارة عبد الجليل، فرأيت رجلا عالما، فأقمت عنده سبعة أيام، أول ليلة بت عنده استفتح بعد العشاء الاخيرة الكلام فى شرح سورة ق. فأقمت عنده السبع الليالى وهو يتكلم فى معنى القاف .

أبو عبد الرحمن عبد الرحيم بن احمد الكتامى :

يعرف بابن العجوز من أهل سبتة، ومن كبار قوم قصر كتامة، وكانت له ولابيه فيهم وفى المغرب رياسة فى العلم، واليه كانت الرحلة فى المغرب فى وقته، وعليه كانت تدور الفتيا، وله عقب نجباء فى العلم بلغوا الى خمسة أئمة امام ابن امام فى عصرهم (1) .

---

(1) سلوة الانفاس — ج لث — ص 298 .

رحل الى الاندلس وافريقيـــا :

أشيـــاخـــه : لازم أبا محمد بن ابى زيد واختص به وسمع منه كتبه: النوادر والمختصر وجاء بهما وبغيرهما الى سبتة، وسمع من الشيخ الـــدراق بن اسماعيـــل فقيه فاس، وأبى محمـــد الاصيلى، ووهب ابـــن ميسرة الحجـــازى .

وكانت رحلته الى القيروان من سبتة فى نحو عام 380 هـ. وأخذ عنه الناس بسبتة علما كثـــيرا وتفقهوا عليـــه، وسمعوا منه، وكان من حفـــاظ المذهب المالكى العالمين بـــه .

تـــلامـــذتـــه : روى عنه جماعة من فقهاء سبتة منهم أبو محمد قاسم بن المامونى، ومنهم محمد بن عبد الرحمان بن سليمان، ومنهم خلف الله ومنهم ابراهيم بن يعقوب الكتامى، ومنهم أبو عمران بن أبى ســـوار من قلعة حماد وجماعة من أهل سبتة وفـــاس .

قال فى الديباج توفى سنة 413 هـ. وقال فى الانيس عام 417 هـ. والله أعلـــم .

من علمـــاء بنى يزنـــاســـن :

الشيخ أبو سالم ابراهيم بن عبد الله اليزناسنى :

هو الفقيه الصدر العلامة الصالح الولى المجاب الدعوة العـــارف بالسيد أبى سالم ابراهيم بن عبد الله بن أبى زيد بن أبى الخير اليزناسنى، قال فى الجذوة، لما عرف به انه أحد أعيان أصحاب الشيخ أبى الحســـن الصغـــير .

كان مفتيا بفاس فاضلا منصفا حافظا يقضى حوائج المسلمـــين ماضيا فى مصالحهم وكـــان حيا بعد 740 هجريـــة. (1) وهو والد سيـــدى ابراهيم اليزناسنى الذى كان قاضى الجماعة بفاس وسيأتى التعريف به.

---

(1) سلوة الانفاس — ج—لث—ص 254 .

الشيخ سيـــدى سليمان اليزناسنـــى :

هو الشيخ سيدى سليمان بن عبد الله كان عالما فاضلا مشاركـــا بارعا لم نعثر على حياته أو وفاته والراجع أنه كان حيا فى القرن السابـــع الهجـــرى .

وقد ترجم له فى سلوة الانفاس ج.لث.ص. 7-3 من دون أن يذكر بيانا عن الحيـــاة أو الوفـــاة .

أبو اسحاق سيدى ابراهيم بن محمد اليزناسنى :

هو ابراهيـــم بن الفقيه الصدر أبى عبد الله محمد بن العلامـــة الصالح الولى أبى سالم المتقدم الترجمة كان فقيها قدوة فى العدل، أوحد فى النزاهة، الامام العلامة الحافظ قاضى الجماعة بفاس، يكنى أبا اسحاق.

وكان فقيها نظارا بارعـــا فى الفقه محصلا ولى القضاء بمدينـــة فاس مدة فى دولة احمـــد بن ابى سالم واثنى عليه الامام الحفيـــد بن مرزوق، وذكر انه من مفاخر القطر الذى حـــل بـــه .

وله فتاوى كثيرة شهيرة ناظر فيها وحقق، ذكر جملة منها فـــى المعيار، وحلاه بالسيد الفقيه المفتى المدرس العالم المحقق العلامة، الصدر العلم الشهير قاضى الجماعة بفاس (هكذا حلاه صاحب المعيار، وهى أوصاف لا يطلقها الا على من اتصف بها حقيقة) .

توفى رحمه الله بفاس يوم الخميـــس 18 رجب عـــام 794 هـ. ، ذكره الونشريسى فى وفياته، وترجم له فى الجذوة والدرة والنيل والكفاية وروضة النسرين فى دولة بنى مرين (1) .

عبد الرحيم بن ابراهيم اليزنـــاسنـــى :

هو ولد سيدى ابراهيـــم بن محمد اليزناسنى المترجم قبله وكـــان من قضاة أمير المسلمين احمد ابن أمير المسلمين أبى سالـــم .

كما كان من قضاة أمير المسلمين المنتصر بالله وولده أمير المسلمين المولى عثمـــان المرينى (2) .

---

(1) صحيفـــة 36 .

(2) المصدر نفسه ونفس الصحيفـــة .

من علمـــاء بطـــيـــوة :

أبو الحسن سيـــدى على بـــن قاســـم :

هو أبو الحسن على بن قاســـم بن عبد العزيز الزياتى الـــريفى البطوى، ولد بفاس سنة 967 هـ. وكـــان اماما عالما محققا زاهدا ورعـــا مولعا بالخلوة والذكر والمطالعة والتقييد تاركا للاسباب ملازما بيته .

عرف به صاحب سلوة الانفاس (1) فقال الشيخ الامام الفقيـــه العلامة المدرس النبيـــه المحدث الصوفى المتفنـــن الدراكة المحقق المتقـــن المشارك فى المعقول والمنقول، الرجوع اليه فى حل المشكلات وتحقيق النقول وكان له خط حسن جيد نسخ بخطه عدة كتـــب .

أشيـــاخـــــه : أخذ عن القصار، والبدوى والمنجور والحميـــدى والاستاذ احمد القدومى وسيـــدى الحسن الـــدراوى وابى الحسن بـــن عمران وابى زكرياء الســـراج وابى عبد الله الزيانى وابى القاسم بـــن القاضى وسيدى رضوان الجنوى وابى المحاسن الفاسى وسيدى محمـــد بن منصـــور .

ســـيرتـــــه : صحب الشيخ احمد الشاوى، وكان حسن النية فى التعليم ذا خلق حسن وحلم وحياء ينتفع بالقراءة عليه فى الايام اليسيرة مالا ينتفع على غيره فى الايام الكثيرة من سهولة تعبيره وعدم تكلفه ولـــى قضاء الجماعة بفاس مدة فحمدت سيرتـــه .

انتـــاجـــه : لـــه تقاييـــد حسنـــة على المطول، وعلى مختصـــر السنوسى وعلى تحفة ابن عاصم وله كتاب فى التصوف، حسن فيـــه نحو 15 بابا وغير ذلـــك .

تـــلامـــذتـــــه : أخذ عنـــه ابن عاشر والشيخ ميارة شـــارح المرشد المعين والقطب مولاى عبد الله الشريـــف الوزانى، قرأ عليه عـــدة مصنفات فى عدة من العلـــوم .

وفـــاتـــــه : توفـــى ليلة الجمعـــة 28 ربيع الثانى عام 1039 ودفن بروضة سلفه بباب الجيسة بفاس رحمة الله عليـــه .

---

(1) ج ــ لث ــ ص 17 .

من رجـال كبـدانـــة :

الشيـــخ أبو اسحـــاق البطـــال :

كان شيخا فاضلا ذا فراسة دقيقة لا تخطىء، ولـــه براعـــة فى ابطال شبهات المبطلـــين .

أصله من قبيلة كبدانة على ضفاف ملوية، وكان كثيرا ما يزور بلاد قلعية، ومدينة غساسة التى هى فرضة الى جهـــة رأس ورك بقبيلة بنـــى بوغافر وكانت مدينة عامرة فى وقتـــه .

صـــلاحـــــه : ومن صلاحه حسبما حكى صاحب المقصد الشريف انه كان يقطع المفازة ما بين داره بكبدانة، وبين مليلية وحده رغم ان هـــذه المفازة كانت غابة كثيفة مسكونة بالسباع والوحـــوش الضارية، وفى ذلـــك الوقت لم يكن يطرقها الا الجمع من الناس .

وحكى عن نفسه أنـــه بات ذات مـــرة بمفازة «أزغران وريغ» ــ ولعلها ازغنغان ــ وقال انها كانت مفازة عظيمة بين مليلية وكبدانـــة ــ بات أمام سدوة فلم يقع له ولا لدابتـــه التى كـــانت رمكـــة أى ســـوء مـــن الوحوش .

ومما يحكى عن هذه الدابة أنها كانت مشهورة بأن من ركبها وذهب الى قضاء أى حاجة قضيت حينا ببركة هـــذا الشيـــخ .

واقعة له مع شخص من بنى يزناســن :

كانت زوجته من قبيلة كبدانة، ولد له معها بنت أصهـــر بها الى رجل من قبيلة بنى يزناسن، وفى بعض الايام خرجت البنت مع زوجهـــا الى فدان يشتغلان فيه، الرجل يحصد والزوجة تلقط السنابل خلفه، فوقع بينهما خلاف كان الزوج هو الظالم، فاستغاثت الزوجة بأبيها الشيخ أبى اسحاق، فلما أغاثها ذهب اليهما فسمع منهما ظلامتهما، فقال الشيخ أهلك الله الظالم منكما، قيل فنهشت حيـــة الزوج ومات من حينه، والله أعلم.

حيـــاتـــــه : كـــان حيا فى النصـــف الثانى من القرن الســـادس الهجرى على ما يوخذ من كلام الرجل الصالـــح الحاج احمد تلميذ المعلـــم عبدون الذى كان حيا أواسط القـــرن السادس .

من رجـــال بنى وريـــاغـــــل :

أبـــو ابراهيـــم الاعـــرج :

هو جد الاشراف الغليزوريين الموجودين فى بنى وريـاغل الـــذين سأذكرهم مفصلا بعده وحسب مخطوط مجهول المؤلف، فهو مـــن ذريـــة مولاى ادريس الاصغر دفين فاس بن مولاى ادريس الاكبر دفين زرهون حفيد سيدنا الحسن رضى الله عنهم، وهناك سلسلة أخرى من الشرفـــاء أولاد سيدنا الحسين رضى الله عنه وهم من ذرية موسى الكاظم، وقـــد جاءت هذه الذرية الى الشمال عن طريق تلمسان، ذلك أن شريفا كان يدعى عبد القوى بن عبد الرحمان بن ادريس بن موسى بن اسماعيل بن موسى الكاظم جاء من تلمسان وسكن قبائل بطيوة وانتشرت ذريته هناك، وهـــو شريف موسوى حسينى، وقد اعتمدنا على ذكر هؤلاء فى لائحة الشرفـــاء لما تقدم فى المعيار، من أن من كان يدعى بالمرابط وادعى الشرف يقبل منه، على أنه جاء فى كتاب (1) حادى الرفـــاق «أن ابا ابراهيم الاعـــرج هـــو شريف ادريسى وهو جد المرابطين ببنى وريـاغل .

أما المترجم له فاسمه اسحاق بن يحيى بن مظهر (2) الوريـاغلى من قبيلة بنى وريـاغل من فخذ بنى يملك (لا زالت الفخذة تدعى الى الآن ببنى ملـــوك) .

حـــيـــاتـــــه : كان مثالا للرجل الشريف النفس والنسب، ففى سلوة الانفاس قال (3) ومنهم الشيخ العلامة الصالح، الحافظ الحجـــة الواضح، كان رحمه الله بعد قدومه لفاس اماما بجامع الشطة منها، وهى الكائنة فوق باب الزربطانة يسار الطالع الى ناحية المدرسة البوعنانية مـــن

---

(1) حادى الرفاق الى فهـــم لاميـــة الزقاق للفقيه سى احمد الرهـــونى التطوانى ص. 9 .

(2) هذا هو ما جاء فى المقصد الشريف أما فى سلوة الانفاس فقد جـــاء فيها مطر بالميم والطاء والـــراء .

(3) الجـــزء لث ــ ص ــ 144

طلعة فاس، وكان اماما من أئمة الدين والعلماء المهتدين آية الله عز وجل فى المدونة وهو صاحب الطرر عليهـا وفقيه فاس فى وقته، قال الشيـخ سيدى بومدين الفاسى فى كتابه «المحكم فى الحكم» حكى أن الشيخ أبـا ابراهيم بن يحيى بن مطر الورياغلى عرف بالاعرج رفيـق أبى الحسـن الصغير، والدعاء عند قبره مستحاب .

شيـوخـــه : أخذ عن الشيـخ أبى محمد صالح الهسكـورى صاحب الشرح على الرسالة وهذا الشيخ هو أبو محمد صالح دفين أسفى وهو غير أبى محمد صالح دفين الرباط، وقد كان هذا الشيخ (أى الهسكورى) ممن يضرب به المثل فى التبريز، وكان داعية كبيرا للاسلام، حتى أنه نظم سياحة قارة للحج الى بيت الله الحرام، حسبما ذكره كتاب العلوم والاداب والفنون فى عهد الموحدين (4)، فقـد قال ولئن دل ما سبق على اهتمـام المغاربة بسياحة البحث والاستكشاف، فان هذا يدلنا على اهتمامهم بنوع آخر من السياحة وهى سياحة الحج الى الاراضى المقدسة، وان الفضل فى الدعوة الى هذه السياحة، يرجع للشيخ أبى محمد صالح المتوفى سنـة 651 هـ. فقد كون الركب الحجازى لاول مرة فى تاريخ المغرب، وكان مهمى انتهى اليه أحد يطلب الانخراط فى طريقته يجعل أهم الشروط لقبول اياه حج بيت الله الحرام، أو على الاقل برهن على أنه خدم طريق الحج، ولقد جعل من أصحابه كجمعية تبشيريـة تدعو الناس لحج بيت الله الحـرام وزيارة قبر رسول الله عليه وعلى آله الصلاة والسلام، وتبنى منازل نزول الحجاج فى ذهابهم وايابهم وكانت تبتـدىء هذه المنازل من بلاد حاحـة بالمغرب من أسفى الى الحجاز، أنظر المنهاج الواضح صحيفة 352–353–375، وانظر أسفى وما اليه صحيفة 19–400» .

وقد كان هذا الشيخ – أبو محمد صالـح – يقول فى حـق أبى ابراهيم الاعرج انه أوحد زمانه فى الفقه والسخاء واحفظ خلق الله لاسباب الايخاء، ومع ذلك فلم يلن جانبه لسلطان قط (5) .

---

(4) للاستاذ محمد المنونى ص – 95 .
(5) سلـوة الانفاس – لث – ص 144 .

تـــلامـــذتـــه : تلمذ للسيد (1) أبى ابراهيـــم الاعرج، الشيخ أبو الحسن الزرويلى وجماعـــة .

مناقبـــه : قال فى سلوة الانفاس (2) نقلا عن أبى مدين الفاسى كـــان يأمر الامير يعقوب ابن عبد الحـــق المرينى بالمعروف وينهاه عـــن المنكر، فأكثر عليه مرة، فقال له الامير اخرج من بلدى، فلما خرج أصـــاب الامير وجع شديد فأمر برده، فقال لا أدخـــل حتى يخرج هو، ولا أكـــون أنا وهو فى بلد واحد، فخرج ــ أى الامير ــ فى الحين وسكن وجعه، وقـــد ذكر هذه القصة جمهور من المؤرخين كصاحب الروضة وصاحب تحفة الوارد والصادر وغيرهما، ومن مناقبه كما فى المقصد الشريف، انه حدث له أن وقعت له منازعة فى مسألة فقهية مع فقهاء فاس كان الصواب معـــه، الا أن هؤلاء الفقهاء بلغوا عنه الى السلطان يعقوب المنصور بن عبد الحـــق المرينى، الذى تولى ملك المغرب بعد وفاة أخيه فكان من جملة ما بلغوا عنه أن طلبة البربر يريدون المخالفة على السلطـــان، (ويظهر من هذا أن المسألة الفقهية كانت تمس البيعة ولم نقف على صورة المسألة الفقهيـــة) فأمر الملك بنفى الفقهاء عن فاس ومنهم أبو ابراهيم الاعرج هذا، (وانما أدرج من جملة فقهاء البربر لانه ساكن معهم) وأبو يعقوب المحاسنـــى وأبو عبد الله بن عمران، وقد ذكر أن الشرطى الذى وكل باخراجهم، وكان يدعى ابن العطار سلط الله عليه حكة على لحمه فجعله يحكها حتى مـــات، ولما بلغ ذلك الى علم السلطان أمر بردهم، وصار السلطان يعظم أبـــا ابراهيم الاعـــرج، ولما بنى السلطـــان المدرسة التى فى قبلة جامـــع القرويين من رحبة البقر (ولعلها مدرسة العطارين) دخل للصـــلاة فى جامع القرويين يوم الجمعة، وكان أبو ابراهيم الاعرج يصلى فى الجانب الغربى فى الصف الاول، فلقيه الملك بعد صلاة الجمعة وعانقه، ثم قعـــد معه فطلب منه أن يجيبه على ثلاث مسائل، الا أن الشيخ أجابه بأن لا فائدة له فى الجواب، لانه لا يعمل به والح عليه فامتنع فما وسع الملـــك الا أن طلب منه الدعاء فدعى له وانصرف .

---

(1) ج ــ لث ص ــ 144 من سلوة الانفاس .
(2) نفس الصحيفـــة .

ومما اتفق له مع الشيخ اسماعيل بن احمد ـ تقدم التعريف به ـ أن هذا الاخير كان يريد أن يتوجه الى تيكساس بغمارة (وكانت عاصمة عمر الادريسى الذى تولى امارة الشمال بعد وفاة المولى ادريس الاصغر كما تقدم) فاركب عياله وزوجته وبنتيه مركب صيد ولما وصلن الى حجرة يليش خرج عليهن القراصنة واسر الاناث واعلم الشيخ اسماعيل أبا ابراهيم الاعرج ـ ولعله ذهب اليه الى فاس ـ وكان القصد اعلام السلطان بالاسر وطلب قيمة الفداء منه، وكان عند الشيخ أبى ابراهيم نصف دينار ولم يملك غيره فدفعه اليه وفى الغد رجع اليه فقال له ارفع طرف المطرح فرفعه ووجد تحته 26 دينارا ذهبا، قال له خذها فان الله أتى بها بواسطة محب عرفته بقضيتكم فدعى له وتوجه الى السلطان فدفع له الدنانير، وكانت الفدية 230 دينارا ففك الله اسر العائلة .

سبب عرجه : قيل فى سبب عرجه حكايات أولاها أنه دخل عليه لصوص فى مسجد ببلاد سدارة لما كان طالبا يتنقل للتحصيل فأصيب بعرج فى رجله عرجا شديدا، وهذه الحكاية موجودة فى المقصد الشريف وثانيتهما: أنه كان فارسا لا يقدر عليه أحد على محاربته، فكان ذات يوم يلعب فى وليمة فعثر فرسه به فقام ناهضا ـ أى الفرس ـ فالتوت رجله فى الركاب بعدما سقط عن الفرس فتعرج بذلك، الا أنه لم يكن عرجه شديدا، وهذه الرواية موجودة فى مخطوط تحت يدى بين فيه سلسلة الشرفاء الادارسة ومن نزل منهم فى الريف .

ومن مناقبه أيضا أنه كان سببا فى بناء مدينة فاس الجديدة وكانت تدعى المدينة البيضاء، ففى سلوة الانفاس، لما ذكر وجع السلطان يعقوب المرينى وسكونه بعد خروجه من مدينة فاس قال «وأمر ببناء مدينة الدار البيضاء ـ أعنى فاسا الجديدة ـ ثم حكى عن روض النسرين أنه ركب ـ يعنى يعقوب المنصور ـ فرسه من قصبة مدينة فاس القديمة فى ضحى يوم الاحد الثالث من شوال عام 674 الى ضفة وادى فاس ومعه أهل المعرفة بالهندسة والبناء فوقف عليها حتى حدت وشرع فى حفر أساسها .

وكان الذى أخذ له طالعها الفقيه العدل محمد بن الخياط زاد فى

القرطاس وأبو الحسن بن القطان فكان تأسيسها فى طالع سعيد ووقت مبارك ميمون ومن سعادة طالعها أنه لم يمت بها خليفة منذ أسست ولا خرج منها لواء الا نصر ولا جيش الا ظفر (1) بفضل الله .

تدريسه : تقدم أنه كان آية الله عز وجل فى المدونة، وذلك لتعاطى تدريسها، كما كان يتعاطى تدريس تهذيب البرادعى، فى كل من جامع بادس الكبير وفاس، ومن جملة من قرأ عليه تهذيب البرادعى الشيخ أبو يعقوب البادسى حسبما يأتى فى كتاب مناقب أبى يعقوب البادسى لابى عبد الله الاوربى .

تأليفه : مما عثرنا عليه من بين ما أشير اليه أنه كانت له طرر على المدونة الا أنه لم نعثر هل كانت هذه الطرر كتابا مستقلا بالمعنى المتعارف عليه أو كانت طررا على هامش نسخة المدونة التى كان يدرس بها.

نسبه : حسب البحث الذى استقصيناه من بين المخطوطات التى عثرنا عليها عند أحفاده من الشرفاء الغلبزوريين، أنه أبو ابراهيم اسحاق ابن يحيى بن مظهر بن كنون بن السكناوى بن احمد بن عبد الله ابن حمزة بن ياسين بن محمد بن عبد السلام بن السكناوى بن عبد الله ابن عبدالواحد بن عبد الكريم بن عبد السلام بن مشيش ــ صاحب جبل العلم ببنى عروص المشهور ــ وقد أخذ هذا المخطوط حسبما يظهر من كتاب التاريخ والاعتبار فى نسب آل النبى المختار، لمؤلفه الشيخ الامام العالم العلامة الهمام سيدى احمد بن أبى عبد الله البكرى الصديقى، والله أعلم .

سبب مجيئه الى الريف : كان جده السكناوى نازلا فى نواحى سبتة ومن هناك انتقل حفيده هذا مرتحلا الى نواحى الريف، فنزل بجبل حمام (1) ببنى ورياغل على وادى المزمة المعروف بوادى غيس ــ ولا

---

(1) قد أنكر هذه الفكرة المؤرخ النقيب مولاى عبد الرحمان بن زيدان فى اتحاف اعلام الناس الجزء الاول واستشهد بقضية بوحمارة .

(1) بفتح الحاء والميم المخففة وهو معروف الى الآن بأعالى قبيلة بنى ورياغل وهو معروف بالعسل البيضاء .

زال الى الآن بهذا الاسم ـ وقد خلف ذرية كبيرة فى قبيلة بنى وریاغـل عن طريق حفيده الشيخ العالم سيدى عبد العزيـز بن موسى الورياغلى المعاصر للشيخ زروق الذى كان نازلا بالموضع المعروف «بأغيل أبزور» وبه دعى أبناؤه واحفـاده بالغلبـزوريـين .

وفـاتـه : توفى رحمه الله بفـاس عام 683 هـ. ودفن ببـاب الكيسة، قال فى سلوة الانفاس «ورأيت بخط بعضهم قال وقبره معـروف بباب الكيسة قبالة الباب، وقف عليه مولانا سليمان بن محمد» ثم قـال: صاحب سلوة الانفاس «وأظنه والله أعلـم صاحب الحوش المبنى قريبـا من ضريح سيدى مبارك بن عبابو وراء قوسه الى ناحية المدينة المقابلـة من الباب، وقد ذكره المدرع فى منظومته عقب ذكره سيدى العريس فقال:

بقربـه الورياغلى ابراهيـم غنـاه لا يحتـاج للـدراهيـم»

ومنهم سيدى عبد العزيز بن موسى الورياغلى :

صاعقة الارض : هكذا عبر عنه صاحب المعيار فى فهرسته وانمـا وصفه بصاعقة الارض لان دعواته لم تكن لتخطىء، أما الشيخ زروق فقد كان يسميه بالغندور وهو وصف للشجاع المقتحم الذى لا يخشى أحـدا وهو من أحفاد سيدى ابراهيم الاعرج .

ولادته ووفاتـه : ولد حسبما ذكر نيل الانتهاج عام 802 وتوفى عام 881 هـ. وفى المعيار تولى الخطابة والصلاة بالقرويين عام 879 واستمر عليها الى أن توفى يوم السبت غرة رمضان عام 880 وعليه، فالخلاف بين نيل الابتهاج والمعيار فى سنة فقط وحيث ان الاخير ذكر التاريخ بتدقيـق باليوم والشهر والسنة فينبغى أن يعتمد دون غـيره .

حيـاتـه : عرف به فى سلوة الانفاس (2) فقال: «هو الشيـخ الفقيه الخطيب العلامة المدرس الاديب الصالـح البركة الاشهر الآمـر بالمعروف والناهى عن المنكر أبو الفارس سيدى عبد العزيـز بن موسى الورياغلى وعرف به الشيخ زروق فقـال: «كان رحمه الله فقيها عالمـا

---

(2) الجزء الثـانى ص. 80 .

صالحا زاهدا ورعا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لا تأخذه فى الله لومة لائم»، وكان اماما وخطيبا بجامع القرويين ومفتيا بفاس صلبا فى دين الله يلقى بنفسه فى العظائم ولا يبالى وله اخبار كثيرة .

مناقبه : قال صاحب سلوة الانفاس (1) وسيدى عبد العزيز هذا هو: الذى ثارت العامة بفاس على يديه على السلطان أبى محمد عبد الحق بن السلطان أبى سعيد المرينى فخلعوه وبايعوا مزوار الشرفاء — أى نقيبهم — السيد محمد بن على بن عمران الجوطى بسبب توليته — أى السلطان — لليهود عليهم، حتى كانوا يتحكمون فى الشرفاء والفقهاء وأكابير الناس بما يريدون من الضرب والحبس وأخذ الاموال .

سبب تسميته بالغندور : كان الشيخ زروق رحمه الله يسميه مداعبة منه بالغندور ولما حكى صاحب السلوة هذا الوصف قال ان معنى الغندور هو الشجاع، وكان الشيخ زروق يقول: أنا لا أصلى خلف سيدى عبد العزيز، فانه غندور كالمداعب لمن يذكر له شأنه، فيجمع بين تعظيمه والتبرى منه — أى مما فعل من تأليب العامة على السلطان حتى خلع وبذلك يكون مخالفا لليونة الائمة الذين لا يتدخلون فى الشؤون السياسية ولذا كان يسميه غندورا، أى الشجاع الغليظ الطبع المقتحم لعظائم الامور —.

سبب تسمية أحفاده بالغلبزوريين : كان ينزل فى موضع بأعلى قبيلة بنى ورياغل على نهر غيس يدعى «أغيل أبزور» وقد خلف أولادا هناك ثم انتشروا فى أفخاد قبيلة بنى ورياغل، وسموا بالغلبزوريين نسبة الى منزل جدهم هذا وذلك تمييزا لهم عن الشرفاء الآخرين الذين فى بنى ورياغل، وعليه فان تسميتهم بالغلبزوريين كانت تسمية متأخرة ولذا لم يعرف بهم بهذا الاسم فى كتب الاشراف، أما اتصاله بجده سيدى أبى ابراهيم الاعرج فقد ذكر المخطوط المشار اليه سابقا أنه عبد العزيز ابن موسى بن العباس بن الفاضل بن أبى ابراهيم الاعرج. الا أن الذى يظهر من تاريخ وفاة جده الذى هو 683 الى تاريخ ولادة المترجم له

---

(1) الجزء الثانى ص. 81 .

هذا الذى هو 802 هـ. أنه ربما هناك غير من ذكر من الآباء وعلى كل فان المخطوط مما يستأنس به فقط والله أعلـــم .

ومنهـــم سيـــدى عيسى بن عبد الكريـــم :

ومن أحفاد سيدى عبد العزيز الذين كانت لهم الشهرة فى بنـــى ورياغل من حيث الصلاح والتقـــوى سيـــدى عيسى بن عبد الكريم .

منـــاقبـــه : ففى كتاب مناقب ابن يعقوب البادسى الذى أشرنا اليه فيما قبل والذى وعدنا بنشره ضمن هذا البحث قال المؤلف الاوربى: ان فى بنى ورياغل رجلا مسنا من أولياء الله تعالى اسمـــه عيسى ابـــن عبد الكريم وانه من جماعة الشيخ أبى ابراهيم الاعرج وان له أسلافـــا صالحين أولياء فشوقت الى رؤيته كثيرا الى أن يسر الله على فمشيت الى موضعه واجتمعت معه وبت فى بيته وأكلت طعامه ورأيت له بركة عظيمة وهو رجل أمى لاكنه يحفظ من مسائل الفقه ما يحتاج اليه فى دينه مـــن العبادات والمعاملات شيئا كثيرا ويتكلم فى دقائق الامور كلاما تعجبت منه تعجبا عظيما، فكنت أتحدث معه فى كرامات الصالحين الى أن تكلمنا على الشيخ سيدى أبى يعقوب نفعنا الله به، فقال سيدى عيسى بن عبد الكريم، نعرفكم بما رأيـــت فى كرامـــات سيـــدى أبى يعقوب، وسرد ما يـــأتى فى كتـــاب مناقبـــه .

مسكنه ومحل دفنـــه : انتقـــل من قرية بـــوزدور (تدعـــى الآن نيشتيون) واستقر بالقرية المعروفة الآن بزاوية سيدى عيسى عبد الكريم، وذلك أنه نزل بها وأقام بها زاويته التى اشتهرت به اشتهارا كبيرا .

وفى هذه الزاوية كان يلقن تلامذته طريقة أجداده فى الصلاح والتقوى وقد تناسل عنه الاشراف المعروفون بالغلبزوريين وقد جعل الله البركة فى ذريته فانتشرت فى أفخاذ بنى ورياغل وقد انتقل الى هـــذا الموضع مـــن بوزدور فى القرن التاسع الهجرى حسبما رويت عن السنة النسابين مـــن الشرفاء، احفاده وهو مدفون بقرية زاوية سيدى عيسى التى تنسب اليه ازاء مسجدها وله ضريح ثمه مع بعـــض أولاده، الا أنه لا يعلم تاريـــخ ولادته ولا وفاتـــه .

سلسلـــة عقبـــه من بعـــده :

ولاكمال الفائدة نشير باجمال الى بعض احفـــاده .

سيـــدى بوبكـــر بن عمـــر :

ممن خلفه من الصلاح والولاية حفيـــده سيدى بوبكر بن عمـــر وفى زمنه تأسست قرية زاوية سيدى عيسى وتقرت كقرية وهو مدفون بنفس الضريح وقد خلف من الاولاد اثنين وهما: عمر وعبد الرزاق .

عمـــر : أما عمر فهو جد آل عمر أبو بكر القاطنين بزاوية سيدى يوسف وآل الحسن القاطنين هناك أيضا وآل سيدى عبد العزيز الساكنين قرب آل هشام وآل بوزمبو (الساكنين بايقنيبا من بنى عبد الله من بنى وریاغل) ومنهم سيدى احمد المدفون بزاوية اقنيـــا .

تاريخ ولادتـــه : ولد فى تاريخ 1012 هـ. فى نحو 65 سنة مضت منها بزاوية سيدى يوسف واستمـــر هناك الى مبلـــغ الرجال ثم صـــارت الكرامات تظهر على يديه وشهدها الحاضرون من زمانه بالتواتر، فذهب اليه جمع من الناس من بنى عبد الله وطلبوا منه الانتقال اليهم للسكنى عندهم رغبة فى صلاحه، فترددوا عليه الى أن استجاب لهم وانتقل فنزل بمنـــزل اقنيا الى أن توفى هناك عن عمر يبلغ 68 سنة ودفن هناك، ولا زال ضريحه مشهورا الى الآن، وله ذرية هناك يعرفون بالشرفاء القنيين وبأولاد بوزمبو.

واعثمانا قرب زاوية سيدى عيسى وافقيرا منهم الساكنون قرب أمزون بوطـــاء افتيســـا .

أما عبد الرزاق : فقد سكن بقرية تاورى بالموضع المدعو «تاغانينت» من بنى عبد الله، وهنـــاك توفى وخلـــف من الاولاد اثنين هما: امحمـــد وعبـــد اللـــه .

امحمـــد : أما امحمد فهو سيدى امحمد الكبير المدفون بقبيلة بقيوة وهو جد ادردوشا وهو معروف باستجابـــة الدعاء عند قبره وكان رجـــلا صالحا تقيا حافظا للعهـــد والسنـــة .

أما عبد الله فانه خلف من الاولاد خمسة :

سيدى يوسف : وهو أكبرهم واليه تنسب زاوية سيدى يوسف حيث نزل بهذا الموضع الذى كان يدعى «باجلمام» (حوض الماء) وقد كان أقام هناك زاويته للتعبد وجمع المتعبدين حوله وكان حيا فى القرن الحدى عشر الهجرى، وتوفى فى نيف وخمسين وألف .

وهو جد الافخاذ التالية: آل السى عمر ــ آل اماسين أولاد بلعلى. سيدى ابراهيم المدفون بضريح سيدى يوسف: وخلف ولدين سيدى يوسف وابلحاجا، وأولاد سيدى الحاج محمادى وآل امحمد عبد الله .

وأما ابراهيم فهو جد آل تسعدونت وآل سعيد امحند .

سيدى مسعود المدفون بزاوية سيدى يوسف وهو جد آل مسعود.

سيدى احمد وهو جد ايكرودا بأيت عزيز وبعضهم بزاوية سيدى يوسف .

سيدى عيسى وهو المدفون بآل هشام وليس له من العقب الآن الا اثنان يعرف منهما واحد فقط وهو المدعو عبد العزيز بن دحمان من المخمولين المهملين .

وهؤلاء هم احفاد سيدى عيسى بن عبد الكريم وقد تبين مما ذكر أن هؤلاء الاشراف أسسوا زاويتين اثنين وهما زاوية سيدى عيسى وزاوية سيدى يوسف، الا أن الذين سكنوا فى الاخيرة يضاف الى لقب الغلبزوريين، لقب الجلماميين احترازا لهم من الغلبزوريين فى الاماكن الاخرى، وذلك كما أسلفنا ان الموضع الذى نزل فيه جدهم سيدى يوسف كان يدعى باجلمام.

نفوذ الزاويتين : قد عاشت هاتان الزاويتان فى نفوذ كبير على القبيلة ذلك لما لهما من النفوذ الدينى والصلاحى وسط القبيلة، ففى المرحلة الاولى كانت الزاوية الاولى اليها يرجع أمر القبيلة، ثم لما أسست الزاوية الثانية انتقل النفوذ اليها وانكبت القبيلة على الشرفاء الجلماميين، فكان لهذه الاخيرة صيت واعتبار حتى فى فض النزعات القبيلية وكان ذلك بطريق البركة والاعتقاد، لا عن طريق السيطرة الدنوية وقد دعى ذلك الى أن القبيلة كانت تخشى دعواتها، وكان يوجد فيها أخيرا شخص يدعى سيدى عمر الجبار (مشتقة من جبر لا من تجبر) كان آية فى اللسان الدعائى.

وقد استمر الامر هكذا الى أن نبغ فى الزاوية الاولى المجاهد العلامة الصالح النابغة سيدى محمد بن سيدى احمد العزوزى الذى سيأتى التعريف به مبسطا وهو ليس من ذرية سيدى عيسى، وانما هو من ذرية أخيه وهو :

سيدى يعقوب بن عبد الكريم :

وقد أسس هذا الشريف زاوية أخرى فى بنى بوعياش بقرية ازاكرين اساسنو وقد انتقل من بوزدور الى هذه القرية فأسس فيها زاويته التى عمرت فى أيام حياته وكان رجلا صالحا متعبدا الى أن توفى ودفن بهذه الزاوية، وله ضريح فيها يدعى ضريح مولاى يعقوب، الا أن احفاده انتقلوا الى زاوية عمهم سيدى عيسى، وقد خلف من الفروع :

أولاد الحاج عيسى ـ أولاد امحند عبد الله ـ أولاد سيدى احمد ابغليا ـ أولاد شندور بآيت القاضى .

الرجل الذى غير مجرى قبيلة بنى وريا غل :

سيدى أمحمد بن موسى الصغير :

فى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى، ظهر بفرقة المرابطين رجل صالح يدعى سيدى امحمد ابن موسى وبنى زاوية بجبل آل هشام على الضفة الغربية لوادى غيس وملك الاراضى على تلك الضفة وعمرها وازدهرت زاويته ازدهارا كبيرا .

وكانت ملجأ للمتعبدين الصالحين كما كانت مرجعا لفض النزاعات التى تقع بين عائلات القبيلة، وأصبحت رياسة المرابطين ترجع اليها .

والمرابطون هؤلاء هم فرقة الشرفاء الغلبزوريين أولاد سيدى ابراهيم الاعرج المتقدم الذكر، ويذكرون باسم المرابطين، وقد تقدم أن اسمهم هذا لا ينافى نسبتهم الشريفة .

قد كان اسم المرابط ولا زال الى الآن يطلق فى عرف البلد على الشريف نظرا لكون أصل عمل الشريف ان يرابط فى زاويته أو فى رباطة من رباطات الجهاد، لكونه يدعو الى الصلاح والى الجهاد فى سبيله وهى

وظيفته الاصلية، ثم تطـورت الى أن أصبح الشريف لا فرق بينه وبـين الاهالى فى قيامه بكل الاعمال الاجتماعية والسياسية .

نسبـه : مع كون المتواتر عند القوم أنه شريف ادريسى كباقى المرابطين، الا أنه اختلف هل نسبه يتصل بسيدى عيسى بن عبد الكريـم الذى هو جد المرابطين الغلبزوريين وحفيده سيدى عبد العزيز الغلبزورى، واذا كان هذا صحيحا فانه ربما وقع اغفال عن أحد أجداده من السلسلة التى ذكرنا، وهى التى رواها لنا نسابة المرابطين السيد التهامى بن علوش بن تهامى من احفاد سيدى ابراهيم ابن شعيب بن يوسف، وقد قـال أن سيدى امحمد بن موسى هـذا أصله من قريـة ادردوشا التى ينتسـب سكانها الى سيدى امحمد الكبير المدفون فى قبيلة بقيوة .

وتبدو هذه الرواية أقـرب الى الصحة، حيث أن المترجم هـذا يعرف بسيـدى امحمد الصغـير فهو حفيد سيـدى امحمد الكبير تميـزا لاحدهمـا عن الآخـر .

سلسلـة أولاده : وقد خلف سيدى امحمد الصغير مـن الاولاد ذكرين هما : صديق ومحمادى، وهذا الاخير لم يعقب أحدا، وكان رجـلا صالحا وهو مدفون فى مقبرة سيـدى امحمـد وعلى بازاء أطلال المزمة وبأسفل جامـع أجدير، وله ضريـح هناك، وكان حيـا فى أوائل القـرن الثانى عشـر .

أما سيدى صديق، فانه خلف من الذكور أربعة هـم :

سيدى مسعود والد سيدى احمد بورجلة .

سيدى حدو وهـو جد أولاد سيدى حدو بالسـوانى وتشتيون وبعضهم فى قبيلة كزناية وهم المعروفون، بأولاد سيدى محمد البوهـالى وسيدى عبد السلام وهو جد سيدى الحاج عمر وسيدى محمـد والريسـولى .

سيدى محمد وهو والد عبد السلام ومحمد وعمـر .

ومن رجال بنى وریاغل : المرابط موسى بن حـدو :

هو من الشرفاء الذين نزلوا بقبيلة بنى وریاغل بجبال بنى بوعياش ـ جبل حمام ـ ويدعى فى التاريخ بجبل العمال .

وعلى ما يؤخذ من مخطوط لدينا أن أحد أجداده من الاشـــراف الادارسة نزل فى قبيلة قلعية بالموضع المعروف بالحيانا من قبيلة بنـــى سدال، وهو المحل الذى نزل فيه فرع من الشرفاء الورياشيين، ولا نعلـــم هل هما نسب واحد أم لا ؟ .

وعلى ما ذكره المخطوط المشار اليه، فانه من هناك تفرعت فروعهم ففرع نزل بجبل عيسى وفرع نزل بجبل حبيـــب (ولا زال الجبـــل يدعى بجبل حبيب الى الآن عن طريق تطوان العرائش) وفرع نزل بجبل حمـــام بنى وریاغل وهو الفرع الذى ينتسب اليه المرابط موسى المترجم له، أمـــا الجد الاول الذى نزل بقلعية فهو حسب ذلك المخطوط محمد بـــن عبد الله بن على بن منصور المرفوع الى مولاى ادريس .

وعلى كل حال، فان الذى يعول عليه فى نسب المرابط موسى وأولاده ما ورد فى ظهائر الملوك العلويين قـــدس الله أرواحهم وأول تلك الظهائـــر هو ظهير شريف للسلطان مولاى عبد الله بن السلطان مولاى اسماعيـــل ابن الشريف بن على بن الشريـــف .

فقد جاء فى الظهير بعد الحمدلة والتصلية ما يلـــى :

الى كافة من يقف على كتابنا هذا من أشياخ قبيلة بنى وریاغـــل (تقطيع هنا) الامر فيها رعاكم الله وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فحامله المرابط الخير الدين موسى بن حد ابقيناه على ما عهد له من التوقير والاحترام وحاشيناه من جميع ما يطلب به العوام فلا سبيل لاحد عليـــه فى شىء من الاشياء والواقف عليه يعمـــل به ولا يتعداه والسلام أوائـــل الحجة الحـــرام عام 1149 هـ .

فمن هذا الظهير يستفاد منه امران: الاول منهما أنه كان محترما احترام الشرفاء، لان مثل هذه الظهائر لا تصدر الا فى حق الشرفاء، أما لفظة المرابط فهى التى كانت تطلق أيضـــا على الشرفـــاء فى هذه الجهـــة وكانـــت تعتبـــر أعلى الالقـــاب مكانـــة فى عرف القـــوم ، وذلـــك لان معناها العرفى عندهم هو الشريف الصالح صاحب البركة والاحترام .

ولذا أطلق على الشرفاء الغلبزوريين كلمة المرابطين ولا زالـــت

فرقتهم تدعى الى الآن بالمرابطين من بين فرق بنى وریاغل حسبما تقدمت الاشـــارة اليـــه .

كما جاءت هـــذه اللفظـــة فى ظهائر الاحتـــرام بالنسبة للشرفـــاء الغلبزوريين، فقد جاء فى ظهير السلطان مولاى عبد الرحمان بن هشام فى حق الغلبزوريين بعد الحمدلة والتصلية والطابع ما يلى :

جددنا بحول الله وقوته وشامل يمنه ومنته لحملته المرابطين حفدة الولى الصالح سيدى ابراهيم الاعرج نفع الله له حكـــم ما بأيديهم مـــن ظهائر أسلافنا الكـــرام قدس الله أرواحهـــم فى دار السلام وأبقيناهـــم واخوانهم المرابطين أهل اغلبزورى على ما كانوا عليه من التوقير والاحترام والمبرة والاكـــرام، واسقطنا عنهم ما يلزم غيرهم (خرق) عليهم عـــادة ولا يحدث فى أمرهم نقص ولا زيادة فالواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنا أن يعمل بمقتضاه ولا يتعداه صدر به أمرنا المعتز بالله فى ثمانية وعشر ربيع الاول عـــام 1264 .

وبالمقارنة بين الظهيرين المذكورين يدرك أن لفظة المرابط يراد بها الشريف لانه كما أسلفنا كان كل شريف نزل فى جهة من الجهات الريـــف الا وجعل أول عمل له أن يقيم زاوية يتعبد فيها مـــع تلامذته ويقصدهـــا السكان للتبرك به والرباط فى زاويته، فسموهم بالمرابطين وجارتهم الدولة فى ذلـــك .

والظهير الذى أصدره السلطان مـــولاى عبد الله فى حق المرابـــط موسى، كان فى نهضته الاخيرة التى قضى بها على أخيه أبى الحسن على ابن مولاى اسماعيل، وقد (1) كان هذا الاخير استولى على شمال المغرب ودعى لنفسه، فما كان من السلطان مولاى عبد الله الا أن نهض فى بحـــر سنة 1149 هـ. من سوس واسترجع ما كان استولى عليه أخوه الذى فـــر الى نواحى تازة الى عرب الاحلاف وأقام بين ظهرانهم عدة سنين ثم عفى عنه السلطان مولاى عبد الله ورجع الى فاس بدار الدبيغ ثم أعطى له الاجنات والمزارع بمكناسة وبعثه الى داره بها، فأقـــام يسيرا ثم وثـــب

---

(1) الاستقصاء ــ ج ــ السابع ص 141 طبعة دار الكتاب بالدار البيضاء.

عليه العبيد فقبضوا عليه وبعثوا بـــه الى أخيه السلطـــان المولى عبد الله وقالوا ان هذا قد أفسد علينا بلادنا فأخذه وسرحه الى تافيلالـــت الى أن مات رحمه الله، ويوجد بين أيدينا ظهائر للسلطان مولاى محمد بن عبد الله والسلطان مولاى الحسن الاول وغيرهما وآخر ظهير للمولى عبد العزيـــز جاء فيه بعد الحمدلة والتصلية والطابع الكبير ما يلى :

يعلم من كتابنا هذا أسماه الله وأعزه أننا بحول الله وقوته و.املى يمنه ومنته جددنا لحملته المرابطين أولاد السيـــد موسى بن حـــدو على ما بأيديهم من ظهـــير سيدنا الوالد وظهـــائر أسلافنا الكرام قـــدس الله أرواحهم فى دار السلام المتضمنة توقيرهم واحترامهم ومبرتهم واكرامهم تجديدا تاما حسب الواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنا أن يعلمه ويعمـــل بمقتضاه ولا يتعداه صدر به أمرنا الشريف المعتز بالله فى 25 محرم الحرام فاتح عام 1320 ونكتفى فى الصفحة التالية بصورة هذا الظهير .

ومن تاريخ هذا الظهير الاخير يستفاد أن صدوره كان اثناء تقلبات الثائر بوحمارة فى نواحى تازة حيث تبين تشبث الشرفاء والعقلاء فى هذه الجهة بالعرش المجيد .

حيـــاتـــــه : من الظهير الاول يتبين أنه كان حيا فى أواسط القرن الثانى عشر، لان الظهير صدر فى حقه بتاريخ 1169 هـ. وقد كان أبوه توفى بقرية أجدير بنى بوقياظا، وهناك دفن حيث مسجد القرية الآن أما ولده المرابط موسى فانه توفى بزاويته بقرية وادى الحدادين أسفل جبل حمام وأقيم له ضريح ثمه لازال قائم الذات الى الآن .

وقد كان منحاه فى تدبير شؤون زاويته مبنيا على العمل لا علـــى التوكل فحسب ولذا اقتنى أملاكـــا فى القرية وملك الفدادين كان يحرثهـــا ويجمع محصولها للوافدين على الزاويـــة .

صـــلاحـــــه : توجد بين أيدينا وثيقة شرعية كافية لمعرفة مدى صلاحه وتقواه، وقد حررت هذه الوثيقة بتاريخ 1288 لاثبات توقـــير احفاده لاجل استصدار ظهائر بذلك .

فقد جاء فى هذه الوثيقة ما يلى :

يشهد من يضع اسمه عقب تاريخه بمعرفته لحفائد الخير الدين

الخزينة

وطن الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

يعلم مركتابنا هذا السماد الله وأعزه أنا نحن الله وقوته وشايل بينه ومنته جدد ما حملته الرابطين
اولاد الشيخ فرسي مرحد على ما بيدهم من كبير سيدنا الوالد وكما هم انشا بنا الكرام فرس الله أرواحهم في دار
السلام المتضمنة توفيهم واحترامهم ومنهم واكرامهم تجديرا تاما حسب الوافه عليه من عمالنا وولاة أمورنا
بخليه يشايعنا الا لاتنه الخير ومن افينا الغفر الله يوم يقوم الاشهاد فاعلموا ذلك

الولى الصالح صاحب البرهان الواضح المرابط موسى بن حدو المدفـــون ببنى ورياغل من الجبل حـــداء بنى عروص رحمه الله ونفع به وهـــم ــ أى الاحفـــاد ــ :

المرابط سليمـــان واخوانـــه .

والسيد الحاج محمد بن الحاج عمر (هو جدنا رحمه اللـــه) واخـــوانـــه .

والمرابط محمد فتحا بن المقدم واخوانـــه .

والفقيه العدل سيدى احمد بن الخير الدين سيدى محمد بن الحاج وأخوه المرابط عمر .

والمرابط احمد بن الفقيه سيدى مسعود .

والمرابط عمر بن احمد بن عبد الرحمان .

وولد المـــرابط شعيب بن احمـــد بن عبد القادر وغيرهـــم من اخوانهم كبيرا وصغيرا الساكنين بالبلدة المذكورة بربع بنى بوعياش فى الموضع المسمى عند أهل المنزل بالرابطة معرفة كافية شرعا بها ومعهـــا يشهدون بأنهم من أهل الخير والديانة والاحـــوال الصالحة والتوقـــير والاحترام والمبرة سلفا عن خلف حسبما بأيديهم من الظهائر الشريفـــة الصادرة لهم من الائمة الكرام قدس الله أرواحهم .

أولاده رحمـــه اللـــه :

قد خلف من الاولاد أربعة هم: محمد ــ الحاج عمر ــ صالح ــ اسى اعلى ــ ومن هؤلاء الاربعة تناسل سكان الرابطة مسقـــط رأس كاتب هذا المؤلف الذى يصل نسبه الى أولهم حسب الترتيب التالى :

احمد بن عبد السلام بن الحاج محمد بن الحاج عمر بن احمد ابن عبد السلام بن محمد بن المرابط موسى بن حدو .

الحاج عمر بن المرابط موسى :

كان وليا صالحا انتقل الى قرية الرابطة حيث خلف هناك أولاده المعروفين بالشرفاء أولاد سيدى الحاج عمر، وقـــد توفى هناك ودفـــن

شمال المسجد وله ضريح هناك يقصد للتبرك به وبالاخص يوم الخميس حيث يعتقد فيه التبرك لداء التابعـــة .

وقد بنى ضريحه بأعلى قمة ذات أحجار صلبة تشـــرف على سهل النكور الى البحر الذى يحضن جزيرة النكور ويحد شرقا جبـــال بنى توزين ينساب بأسفلها وادى النكـــور، أما جنوبا فهناك قمـــة أم الرابطة التى بأعلاها مسجد عتيق ينسب الى سيدة كانت تتعبد فيه ولذا تنسب القرية اليها فقيل أم الرابطة لصلاحها ورباطها، الا أن الاســـم الحقيقى للرابطة انها كانت رباطا أيام عمـــارة مدينة النكور التى تقـــع أسفلهـــا .

ومن احفاد سيدى الحاج عمر هذا الولى الصالح سيدى الحاج شعيب وسلسلته هى الحاج شعيب بن سيدى عمر بن محمد بن الحاج عمر .

أدركت هذا السيد المبجل وأنا صغير وهو شيـــخ كبير ذو لحيـــة بيضاء ووجه ناصع البياض، حالته نظيفـــة ذو هيئة ووقار، وكان امامـــا حمزاويا يقرأ عليه الطلبة ما بين الثلاثين والخمسين كل على قدر حفظـــه وكان الطلبة يتفرقون بين صخور هذا المعقل الصالح، يقرؤون القـــرآن فى الواحهم جهارا بمختلف القراآت وكـــانت منطقة المسجد والضريـــح تتقشعر منهما الابدان ببركة القرآن الكريـــم .

وكان من خصاله رحمه الله البغض لليهود فهو لا يطيق أن يرى فى السوق يهوديا، فمهما رآه الا وهـــدده بعصى بيده فى أسفلها حديـــدة حتى يكاد أن يخرق بطنه وله تصلب ضد جزيرة النكور التى كانت تستعمل لشـــراء الضمائـــر .

توفى رحمه الله فى العقد الثانى من هذا القرن (العشرين) .

الحاج محمد بن الحـــاج عمـــر :

خلف الحاج محمد هذا أولادا كثيرين أناثا وذكورا، ويبلـــغ الان احفاده ما يناهز عن الف نسمة وله مشارع خيرية كثيرة فى قرية الرابطة، منها المسجد والجب الذين بناهما بمالـــه .

وكان من أبرزهم السيد عبد السلام بن الحاج محمد الذى كـــان يتولى نظارة الحرب التحريريـــة .

وفـــاتـــــه : (أى السيد عبد السلام) توفى رحمه الله فى 24 رمضان عام 1365 هـ. عن سن يناهز 71 سنة ودفن بالمقبرة العموميـــة بالرابطة التى بازاء ضريح سيدى الحاج عمـــر .

صالح بن المرابـــط موســـى :

أما صالح فانه خلف من الاحفـــاد قليلين منهم السيد امحند بـــن علوش مقرىء القرآن، قرأت عليه فى مبدأ قراءتى وهو اسى امحمد بـــن علوش بن حدو بن عبد القادر بن شعيب بن صالح بن المرابط موسى .

اسى على بن المرابط موسى :

أما اسى على فهو جد اسعليثا ومنهم الحاج بنعلى وهو الحاج محمد بن على بن حدو بن محمد بن السى على بن المرابط موسى .

وهناك فروع أخرى تفرعت عن الاولاد والاحفاد لهؤلاء الاربعـــة الاولاد منهم من سكن فى بنى بوقياظا ومنهم من لا زال فى قرية الحدادين.

ومنهم الشيخ أبو اسحاق ابراهيم بن صالح :

هو أبو ابراهيم بن صالح العربى الحمـــيرى من أهالى مدينـــة المزمة ببنى وریاغل ازاء جزيرة النكور، كان رجلا صالحا زكيا رضيا مـــن أعيان المزمة ووجهائها وفى بادىء الامر لم يكن أحد يعتقد فيه الصلاح لانه كان يتستر، الا فى آخر عمره ظهر صلاحه على يد سارق وذلك انه كـــان للشيخ جنان رمان طيب حلو المذاق فعمد السارق وسرق منه كمية ولمـــا أراد السارق أن يأكل منه وجده واحدة بعد أخرى مملوءا بالعفن مسودا مرا لا يوكل فجاء السارق الى الشيـــخ وعرفه بالسرقـــة وما وجد عليـــه رمانه وانه تاب مما فعل فقال له الشيخ اذهب فكله فأنت فى حل، فوجـــد الرمان رجعت اليه حلاوته وزال عنه التعفن وأكلـــه فشاعت القضيـــة فى البلد وعرف صلاحه مع ما عرف عليه ذلك الجنان من الخصب ولو فى زمن القحط، بينما الجنان بجواره فى قحـــط .

منـــاقبـــه : وعدا ما ذكر فقد كان أهله يحكون عنه أنه فـــى الليل ربما سمعنا جلجاح سطل وسط الدار، يقولون للشيخ ان سارقـــا

بالدار، فيقول لا انما متوضىء يتوضأ، وكان أصحابه يرون ان المتوضىء هو بعض الجن المومنـــون .

حيـــاتـــه : لم نعثر على زمن حياته وكان له ابن عم يقول لـــه على بن ياسين بن صالح، وهو الذى حكى جـــل حياة عمه هـــذا، وقـــد قال فى حقه صاحب المقصد الشريف :

أهـــل الحقائق ان نظرت وجدتهم متسربلين بكل فضل باهـــر
وتجوهـــروا بلطائـــف فتكللـــت تيجانهم بزبرجـــد وجواهر

من رجـــال بقـــيـــوة :

الشيـــخ الحـــاج حســـون :

ذكره صاحب كتاب تحف تاريخية صحيفة 81 .

وهو الحاج حسون بن عبد الحليم بن اسماعيل ويرفع نسبـــه الى سيدنا أبى بكر الصديق صاحب النبى (صلعم) وخليفته الاول من بعده يصل اليه فى 31 أبا حسب مخطوط بمناقبـــه .

وحسب نفس هذا المخطوط، فان سلسلته ذكرها أحد مشاهـــر علماء بادس يدعى ابا الحسن على المراكشى وقد تقدم التعريف به .

ولتعميم الفائدة من ناحية التعريف بالشيخ حسون هذا وللاطلاع على نموذج الحياة الاجتماعية فى نفس الوقت، ننشر ملخص المخطـــوط، ويكنى الحاج حسون بأبى على وليس اسمه عليا كما لا يوجـــد بين أولاده من اسمه على، ومن هنا يتضح أن تسمية المدرسة الابتدائية بالحسيمة التى هى أول مدرسة بنيت فيها باسم على بن الحاج حسون، هو جهـــل بتاريخ هذا الشيخ وأودلاه، على أن المقصود من اطلاق الاسم على المدرسة هو اسم الشيخ ابى على، لانـــه الـــذى له تـــاريخ فى الصلاح ، فهو الاجدر باطلاق اسمـــه على المؤسسات الوطنيـــة .

ولادته ووفـــاتـــه : لم تذكر المصادر شيئا عن تاريخ ولادتـــه ولا وفاته، الا ما ذكره مخطوط مناقبه من أنه حج عام 566 هـ. وانـــه تلمذ للشيخ أبى داود البطيوى التمسمانى، الذى توفى عام 578 هـ. حسبما يأتى فى ترجمته. وضريحه مشهور فى قرية ادوز من قبيلة بقيوة

حيث كانت له زاوية مشهورة تضـــرب اليها اكباد الابل للزيارة والتبـــرك بصاحبهـــا .

وخلف عقبا فى القرية منهم أولاد سيدى عمر الادوزى .

حجه وزيارته لقبـــر المصطفى (صلعـــم) :

وفى ربيع الثانى عام 566 هجرية أعلن فى زاويته لتلامذته أنـــه يسافر الى البقاع المقدسة للحج وزيارته قبر المصطفى (صلعم)، واختار أشخاصا ثلاثة لمرافقته وهم 1 ــ ولده امحمد فتحا، وكان من الصالحين المتقين على سيرة والده، وهو الذى عينه خليفة مكانـــه. 2 ــ وخديمـــه السيد عبد الرحمان بن شماس من قرية ادوز ببقيوة، وهى قرية الشيخ الحاج حسون 3 ــ والعالم الامام ابن الكماد ببادس ولم يكن معـــه فى الزاوية، ولكن جمهور من اتباعه اغتموا لعدم مرافقتهم اياه، وبالاحرى عدم اختيارهم لمرافقته مع الناس بفراقه هذه المدة التى قد تكون سنـــة كاملة، لان الحج اذ ذاك لا يكون الا عن طريق البر مع استعمال الزوارق الصغيرة من مرسى الى مرسى، اذا لم يكن هنـــاك خوف من القراصنـــة، وهى تجوب شواطىء البحر الابيض المتوسط، وهو كذلك فقد خـــرج فى جمادى الثانية عام 566 هـ. ورجع فى فاتح رجب عام 567 هـ. ولما علم باغتمام تلامذته أعلن أن مرافقته مباحة لكل من جهز نفسه، وذلك بعـــد صلاة الجمعة بمسجد الحاج على التذكانتى الذى كان مقامـــا على رأس عين تذكانت، وشرع الناس يتهيأون بالزاد الى جمادى الثانيـــة 566 هـ. واستدعى من بادس العالم ابن الكماد المشار اليه، فسافروا من أدوز ولم يمروا على بادس بل ذهبوا الى مرسى بوسكور وهى ضفة بين بـــادس والحسيمة الآن وكانت قرية عامرة وليست هى النكور، كما ذكره الامـــير شكيب ارسلان وتبعه السيد احمد المكناسى، كما سبق أن بينا، ومن هناك ركبوا زورقا بالمقاذف، ومن بسكور ذهبوا فى البحر الى مرسى قلعيـــة، وهى مرسى غساسة التى كان مرسى عامرة ومن هناك تابعوا سيرهـــم برا الى مدينة الاسكندرية بمصر، وقد اتصل بمصـــر بالشيوخ الكبـــار، فاتصل بالشيخ العمرانى مريد الرفاعى، والشيخ العارف بالله الحجاج يوسف الاقصورى فى قريـــة قوص، وبعد ما تلقى منهم تجديـــد الاذن

لتلقين الاوراد، تابع سفره الى الحجاز، وبعد ما حج واعتمر وزار قبر المصطفى (صلعم) رجع مارا على مصر أيضا .

وصوله الى بلدته : وعند رجوعه مع أتباعه الذين حجوا معه ولا نعرف عددهم، مر على مدينة المزمة التى هى شرقى بادس على 20 ميلا منها، تلقاه أهلها واستضافوه ثلاثة أيام فى فرح عظيم، شملهم بوجود الشيخ بين أظهرهم وبالاخص تفضله عليهم باللقاء اثر رجوعه من الحج، وفى اليوم الرابع رحل الى قريته بادوز، ولم يمر على بادس، وقد هرع تلامذته من جميع النواحى بالهدايا والتحف وعندما تلقته زوجته اعلمها بأن ولدهما الحاج محمد الذى حج معه هو خليفته من بعده وكان شابا غير متزوج .

تزوج الحاج محمد : وعندما انصرم على وصولهما ثلاثة أشهر خطب لابنه المذكور بنت أخيه صفية فزفت اليه يوم عاشر شوال عام 567 هـ. وانجب معها ابراهيم ثم أبا بكر والزاهد .

بركاته : وقد تقدم فى معرض الكلام عن البرغواطيين انكسارهم أمامه بسلاح الايمان والدعاء التالى: «يامن له العظمة والجبروت، ياذا الملك والملكوت يا من هو حى لا يموت انصرنا على من يموت » .

ويقال أنه عند ولادته رأت أمه اسرارا علمت بها زوجها، فأمرها بكتمانها، الا أنه قام بعقيقة كبيرة ذبح فيها ابقارا وأغناما، وحضرت جماعة من العلماء والصلحاء ببادس حفلة العقيقة وكان منهم الشيخ العارف بالله العالم الفقيه أبو الكبير البادسى .

مشايخه : تلمذ أول ما تلمذ وهو شاب للشيخ الصوفى العارف بالله وامام الحقيقة أبى داود البطيوى، وبعد ما قضى فترة من الزمن ثمه رجع ولزم الخلوة، وكان لا يأوى الا الى الفيافى والقفار وقد أعد خلوة يأوى اليها فى جبل أدوز، وأهله يتبركون بها، وكان يعتكف بها أشهرا الى أن أتاه الاذن من عند شيخه أبى داود بلزوم الجماعة فى مسجده وبقبول كل من أتى اليه من الرواد وباذن فى الاوراد لكل من أتى تائبا، ومن ذلك الوقت وهو يتصدى لقضاء حوائج الناس بالانتساب والدعاء والبركة .

ومن مشايخه أيضا أبو حجاج يوسف الاقصوى، وشيخ بغـداد الرفاعى وذلك فى طريقه الى الحج كما أشرنا فيمـا قبـل .

ومنهم الشيخ أبو محمد عبـدون :

هو الشيخ العالم الصالح المتصوف المعلم أبو محمد عبدون بن على البقيوى من بنى يفراسين من قبيلة بقيوة ومن أولاد بنى منصور من قرية تيقيت، كان صاحب تحقيق وطاعة وصلاح وكـان يخالط الصلحاء ترجم له مؤلف مناقب الحاج حسون الادوزى، وقد رفع بعضهم سلسلة مشيخته الى سيدى احمد الرفاعى .

حيـاتـه : ويوخذ من كونـه تلمذ للشيخ أبى على الحـاج حسون أنه كان حيا فى أواسط القرن السـادس الهجرى اذ أن الحـاج حسون حج عام 566 وقد يكون رمز لوفاته صاحب المقصد الشريف فى البيـت الآتـى :

فبقـاؤه للعالمـين وجوده ومماتـه فيهم عـين وحـيـاة

فكلمتا عين وحياة، تتضمنان على حساب عدد الجمل 557 والله أعلم.

ومنهم أبو زكريا يحيى بن مخلوف البقوى :

من فخذ بنى يفراسن (ولا زال مدشر فوق بوسكـور يدعى الآن افراس) من قبيلة بقيـوة .

كما كان رحمه الله من الزهاد الذين جابوا فى الآفاق لاغراض دينية، فحج وغزا بالاندلس، وتمكن خلال تجواله من الاجتماع بجمع غفير من العلماء والصلحاء ومشايخ التصوف، وكان دأبه البحث عنهم للاجتماع بهم والاخذ عنهم سواء فى الريـف أو فى الاندلس بمناسبة رحلاته للجهـاد، أو فى المشرق فى رحلاته للحج، وقد سلك عند ذهابه من مكة لزيارة قبر المصطفى (صلعم) بالمدينة المنورة طريق المشى على الارجل، فقد حكـى عنه نفسه أنه قال لما رجعت من مكة الى المدينة جئت عن طريق الماشين، وقال كان لى رفيق فوردنا بعض المياه فبتنا فيه فلما صلينا الصبح تزودنا وسـرنـا .

سكناه ومهامه الفلاحيـــة : كان يسكن بقبيلة بقيوة بالجبل الـــذى يطل على الوادى النازل الى مرسى بوسكور، وكان له مع داره مسجـــد يصلى فيه، فقد قال جئت يوما الى مسجدى هذا نصلى المغرب فوجدت فيه رجلا مسافرا توسمت فيـــه الخير، فلما صلينا قلـــت له قم بنا الـــى المنزل لنأكل شيئا، فقال ايت الى هنا قال فأتيته بما حضر فأكل ثم رفـــع يده، ثم قال فلما صلينا العشاء الاخيرة قلت له لولا شغل لى لبت هنـــا، قال وما شغلك فقلت له ان لى فدانا من قمـــح قد أضرنى فيه الخنزيـــر، فأنا أبيت فيه فى ديدبان صنعته ــ الديدبان حوش ــ اطرده منه، فقال لى اقعد فانك لا تراه فيـــه ابدا، قال فلم اعمـــل بقوله ومشيت الى الفـــدان فبت فى الديدبان، فما رأيت للخنزير اثرا بعد ذلـــك .

حيـــاتـــه : جاء فى ترجمة الشيـــخ أبى طاهر ابن العلام، انـــه زاره فى داره ووجده يصب سمنا على طعام للفقراء وابن العلام هذا كان حيا أواخر القرن السادس الهجرى .

ومنهم أبو عبد الله الشريف الحسنى :

حسب ما قاله صاحب المقصد الشريف .

كان والده نزح عن البلاد الهبطية فنزل بمدينة بادس واستوطنها، وقد خلف ولده ابا عبد الله المذكور، ولما توفى أبوه انتقل الى الشيـــخ أبى يحيى اجدوم شيخ وقته فى التصوف، فتلمذ له وبقى معه الى أن توفى شيخه اجدوم، فانتقل الى مسقط رأسه ببادس .

وقد قيل أنه اعطاه عصاه فصار يتصرف بها فى قضاء الحوائج ، فظهرت بركته واصبح شيخا مباركا، وهو شريف النسب .

مناقبـــه : كان هذا الشريـــف من رجال الخير والصلاح، وكـــان مجاب الدعوة، قيل انه ما تدخـــل فى قضية ووقع الغدر بـــه الا أخذ الله ثـــاره حينـــا .

ومن ذلك ما حكاه صاحب المقصد الشريف، أنه وقعت فتنة فـــى قبائل ورغة بين بنى ونجان وبنى عيسى، لان هؤلاء أخذوا امرأة من بنى ونجان غصبا، فتدخل هذا الشريف لردها، فوعده بنو عيسى بردها، ولاكنهم بعد ذلك غدروا فبقيت عندهم 18 يوما، فلما علم بذلك قال رحمه الله ان

كل ليلة بقيت عندهم بقتيل، قيل فقصد بنو ونجان فى عدد قليل الى بنى عيسى وهم فى عدد كثير، فقتل الاولون فيهم 18 قتيلا بعدد الياالى التى بقيت عندهم المرأة .

ومن ذلك ما حكاه الشيخ عبد الحق بن اسماعيل البادسى المؤلف انصالح، قال شاهدت ان رجلا سوقيا يعرف بابن تافيلالت من سكان حجر نغزا، وكانت زوجته صغيرة فسكن بها مع أبويه، فكان يصدر منها نشوز، فحملها زوجها ذات ليلة وذهب بها الى محل يقال له بويرمان، فجاء هذا الشريف يردها لزوجها، قال الراوى وكنت حاضرا معه فطالبهما برد الزوجة فامتنعا، بل أن أمها أغلظت له القول فتغير خاطر الشريف، قال الراوى فعلمت أنه ستنزل بالرجل نازلة، وكان كذلك، قال فكنت أربط دابتى عند أبوى الزوجة فذهبت لتفقدها فوجدت الرجل قاعدا فى وسط بيته وفيه اثر مرض فقلت ما بك، فقال لا أدرى غسلت الساعة رأسى فى العنصر وها أنا لم يبق بى عضو الا وتألم، ولم يمض أسبوع حتى توفى، وكان يحترف حرفة البناء، فطلب المؤذن ممن حضر الجنازة صدقة لاولاده، ورجعت الزوجة الى زوجها بروراً بالشريف .

نسبه : أما سلسلة نسبه فلم نعثر على شىء صريح يدل على ذلك، كما لم نعثر على من خلف من الذرية، الا أن الذى وجدته فى تقييد ان بعض الشرفاء من أولاد كنون بن محمد نزلوا ببادس، وهل هذا الشريف منهم؟، فاذا كان منهم فان له اخوانا نزلوا بقبيلة بنى ورياغل بالجبل ازاء المزمة ومن المزمة انتقل بعضهم الى قرية بو الماء، وهى قرية مشهورة فى بنى عروص فرقة من بنى بوعياش .

كما نزل اخوان لهم بقبيلة كتامة الى جهة البحر، ونزل بعضهم بناحية المصامدة، هذا ما يوجد فى ذلك التقييد، وقال ان جد هؤلاء جميعا هو جعفر بن عمران بن حسن بن جنون بن محمد بن احمد بن مسعود ابن عبد الخالق بن عبد الكريم بن سعيد بن عبد الرحمان بن يحيى بن مولانا ادريس، ولكن لا ندرى بالضبط هل المترجم له من هذه السلسلة أم لا؟ والله أعلم .

من رجـــال بقيـــوة :

أبو العباس احمد بن سوسن البوسكـــورى :

هو من فخذ بنى ورجين كأبى يحيى زكرياء الا أن هذا من أهالى مرسى بوسكور التى هى احدى مراسى بقيوة شرقى بادس .

كان رحمه الله متحليا باخلاق فاضلة جمـــة .

حـــرفتـــه : كان يتولى مختلف المهن الحرة، فاحترف حرفة الخياطة وتارة القصارة مع امانة وتجنب الشبهـــات .

كـــرامـــاتـــه : حكى الشيخ أبو يعقوب البادسى أنه قال ذهبنا ونحن صبيان فى جمع منهم الى مرسى بوسكور ــ ذهبـــوا من بادس ــ فوجدنا رجلا يضرب أثوابا على حجر ــ يغسلها ــ فعبث به أولئك الصبيان وصاروا يقذفونه بالماء والرمل وهو ساكت، فلما انصرفنا قال أكبرنا، ذلك هو الشيخ أبو العباس احمد بن سوسان قال فرجعت اليه واعتذرت عمـــا فعل أقرانى من الصبيان، فقال لا بأس عليـــك الصبا شعبة من الجنـــون، قال ثم لاعبنا مع صبيان بوسكور بالاحجار فجرح أصحابى كلهم وسلمت أنا من بينهم، وأما الصبى الذى كان يعرفه فتنفل جرحه ومات .

حيـــاتـــه : كان حيا فى أيام قيام أبى العباس الكميلى بالدعوة للفاطميين ببادس وجبالها وذلك عام 685 .

ومن رجـــال بقيـــوة أيضـــا :

الشيخ أبو يحيى زكرياء بن يحيى التقيتـــى :

كان من صلحاء بقيوة من أهل مدشر تقيت بكسر التاء وتشديـــد القاف المكسورة وسكون التاء الاخيرة وكان منزله على خندق وعر المسالك، يعرف فى ذلك الوقت عندما يصل (الخندق) الى البحر بوادى الحوارى وتعرف الفخذة التى ينتمى ايها ببنى ورجين، ومنزله قرب رابطـــة أم ايمن على فرسخ واحـــد .

احســـانـــه : وللشيخ اليد الطولى فى الخيرات والعطاء وتـــلاوة القرآن فى الحال والترحال ودوام وظيفة قراءة الاوراد .

حصافـــة عقلـــه : كان الرجل الذى دعى للفاطميين أبو العبـــاس الكميلى حوالى سنة 685 هـ. ينتسب الى المتصوفة وكان قبل حجه وقبل هذه الدعوة يقرأ بمسجد تيقيت، ويأوى اليه، فحكى الشيخ أبو العباس احمد بن سوسان المتقدم الترجمة، قـــال كنت صبيا وكنـــت أجلس الى الكميلى هذا، فجاء الشيخ زكرياء ووجدنى جالسا معه فقال لى لا تقعـــد مع ذلك الطالب بعد هذا اليوم فانه فاسد العقـــل .

حيـــاتـــه : قد تلمذ الى الشيخ أبى موسى عمران امصول، وكان يجتمع معه فى رابطة أم أيمن، ويظهر من كونـــه نهى عن الجلوس مـــع الكميلى الذى قام بالدعوة الفاطمية حوالى 685 هـ. انـــه كان حيـــا فى حوالى أوسط القرن السابع الهجرى، لانه لما نهى عن الجلوس معه كـــان الكميلى لا زال لم يحج وكان طالبـــا .

ومنهم أبو عيسى عمران امصـــول :

هو من قرية تغزى بفرقة تكيذيث بكسر التاء والكاف المعقدة وكسر الدال وسكون التاء الاخيرة، فرقة من قبيلة بقيـــوة .

وكان الشيخ فاضلا ملازما لرابطة أم ايمن يأتى الى هذه الرابطة صلحاء بقيوة للاجتماع بالشيـــخ وسماع أقـــواله وحكمه الماثـــورة التى ينتفعون بها، وله مجالات فى المقامات والعبادات .

مكاشفـــاتـــه : وقد كانت له مكاشفات مروية صالحة لا تتخطى مقايس الشريعة الاسلامية، فقد حدث عنه الشيخ أبو العباس احمد بـــن سوسان أنه توجه ذات يوم جمعة الى رابطة أم أيمن، وكان يواصل الصيام وقد قال عنه مؤذن صلاة المغرب أنه أمر الشيخ أبو موسى احد تلامذته أن يذهب ويأتى بالكيس الذى فيه الخبز ثم أنه قسم الخبز ولم يسهـــم لى (أى للقادم لانه كان يواصل) .

وكـــان من عادة صلحاء بقيوة زمن هذا الشيخ أنهم يأتون الـــى رابطة أم ايمن ويجتمعون به لقضاء ليلة النصف من شعبان، وليلة سابـــع وعشرين من رمضان، وليلة عاشراء بصفة لازمة للعبادة، وكذلك كانوا يأتون فى غير هذه الاوقات، ومن مكاشفاته فى هذا الميدان ان الشيـــخ أبا يحيى

زكرياء المتقدم الترجمة ذهب الى الرابطة، وكانت زوجته طلبت منه قبل أن يذهب أن يحش الكلاء لعجلة لهما ولكنه امتنع وذهب الى الرابطة، فلما دخل على الشيخ أبى موسى قال له وما يدرى أحدكم أن يكون حش الربيع للعجلة أفضل، فبهت الشيخ زكرياء وعلم أنها مكاشفة .

حياته : من ترجمة الشيخ أبى العباس بن سوسان الذي حكى عنه ما تقدم، ومن ترجمة الشيخ أبى يحيى زكرياء يعلم تاريخ حياته، فكلاهما كانا موجودين من النصف الثانى من القرن السابع الهجرى، فهو كان حيا فى هذا الوقت .

ومن رجال بقيوة أيضا :

الشيخ أبو مروان عبد المالك الوحانسى :

أصله من الاندلس، وقد جاء الى بلاد الريف يتعبد فى رباطات بادس وغيرها، الى أن توفى فى بقيوة ودفن فيها قرب المكان المعروف بامريقا، وهو المعروف عند أهالى الريف بسيدى مالك، وقبره يزار للاستشفاع به الى الله للبرء من عاهات صرع الجنون وغيرها، ويقصده زوار كثيرون الى الآن بقوافل يعتكفون أياما وليالى، وهو معروف باستجابة الدعاء عند قبره والله أعلم .

كان رحمه الله عارفا محققا سالكا طريقة القوم المتصوفين غير مجذوب، وكان صاحب مجاهدة وبلاء .

ويظهر من قول الشيخ عبد الحق بن اسماعيل فى حقه من أبيات شعرية أنه كان من العلماء الصالحين فقد قال :

شمس العلوم يالها من شمس تبدو فتعلو ثم تمسى

الى أن قال :

فذا وذلك من القياس قطعا ضدان ليس البدر شبه شمس

وكان جواب الافاق خريتا لا يعرف سكونا وكان يتردد على أسفى لزيارة الشيخ المشهور أبى محمد صالح وقد قصده بعد أن ذهب الى المشرق واراد أن يأخذ عن شيخ بمصر فوجه من هناك الى أبى محمد صالح، فقد حكى عن نفسه أنه قال أردت أن آخذ عن شيخ فى الديار

المصرية فقيل لى أن شيخك أبو محمد صالح بأسفى، قال فشدت وسطى اليه فلما دخلت عليه قال يا عبد المالك ما جئت حتى وجهت، كما حكى عن رحلته الى مصر ولم يصرح بأنه حج، كما لم يوجد فى المصادر تسميته بالحاج، الا أنه من الراجح أنه حج لان الصلحاء كانت رحلتهم لامرين: الحج وملاقات الصلحاء، فقال انه دخل مصر وتلاقى مع الشيخ أبى الحسن على بن الصباغ. ثم قال انه ذهب الى أقطار الشام، وحكى انه بات يوما عند راهب بالشام فى ديره، فلما أراد الخروج صباحا خفيت عنه الباب فجعل يدور والراهب ينظر اليه فقال الم تعرف الباب الذى دخلت منه فما زال يدور الى أن أراه الراهب الباب، وقال (الراهب) كيف تزعم أنى على باطل وقد تصرفت فيك، قال فسافرت مهموما الى مصر، فلما دخلت على ابن الصباغ قال تصرف فيك كافر ارجع اليه فقلت وهمة الفقراء معى قال وهمة الفقراء معك، قال فرجعت، فلما رآنى الراهب ارتعدت فرائصه لانه علم انى ما جئت الا لامر، قال فقلت له كم تواصل (أى من دون أكل) قال أربعين يوما، قال له نقصتك نصفها، فلما واصل عشرين يوما لم يقدر ثم قلت له نقصتك نصفها، وهكذا الى أن وصل الى لاشىء قال فلم يقدر الراهب أن يصبر على الطعام الى أن مات جوعا وتخرب ديره .

وقد استقر بالشيخ المطاف الى مدينة سبتة فقد حكى عنه الشيخ يحيى بن حسون أنه استقر بمدينة سبتة وصار يطعم الطعام للفقراء ليلة المود، ويحيى تلك الليلة بالسماع يحضرها جمع من الفقراء وتوقد المصابيح بالزيت وتستعمل الشطحات الطرقية .

مناقبه : منها ما تقدم مع الراهب الذى مات جوعا .

ومنها أنه كان صاحب مكاشفة، ففى سبتة قيل أنه حضر اليه فقير ليلة المولد أتى من المشرق برسم زيارته، وكان مع الفقير جراب فيه حشيش تركه فى المقبرة وجاء لاحياء ليلة المولد فقال له الشيخ ان ذلك الشىء الذى فى الجراب هذا وقته فذهب الى المحل ليأخذ الجراب ويرمى به فى البحر، ولما رجع الفقير قال له الشيخ أكل جرابك الاحوات فاستحيى الفقير وتاب .

نفسه المنبسطة : كانت نفسه مرحة منشرحة يمازح أصحابه

وكان من لا يعرفه يقول عنه أنه ليس بصالح لكثرة مزاحه، لكنه يـرد هذا الخاطر بمكاشفاته، فقد قيل أن جماعة من أهل بادس ذهبوا اليـه بسبتة فقعدوا اليه، فاظهر لهم بسطا كثيرا فقال احدهم (ولعله الشيـخ عبد الله بن الرئيس على البيدق) فى خاطـره اين هـذا من سيـدى أبى يعقوب الشفاف (أى من ناحية الوقار والرزانة) قال فحينا قـال لى فى صدور احدكم غيرة فعلمت أنه كاشفنى .

أشيـاخـه : أخذ عن الشيخ أبى محمد صالح الهسكورى كمـا أخذ فى مصر عن الشيخ أبى الحسن على بن الصباغ وتلمذ عليه الشيـخ يحيى بن حسون وكان حيا فى أواخر القرن السابع ولا يعلم بالضبط وقت وفـاته ولا ولادتـه .

ومنـه الشيـخ أبو محمد المسـارى :

أصله من بنى مسارة ولا يعلم كيفية ولا أسباب انتقاله الى الريف، الا أنه كان من صلحاء قرية اسكرام بقبيلة بقيـوة .

وكان رجلا صالحا كثير الاستقامة والانابة، لا يتقيد بمقام فـى مكان دون مكان، وله كرامات يرويها جمهور قبيلة بقيوة من صلحاء زمانه.

وقد قال فى حقه الشيخ عبد الحق بن اسماعيـل :

من كان لله العظيـم مطيعا أضحى به نور الرشاد سطيعـا

وفـاتـه : ومع أنه لا يعرف شىء عن تاريخ حياته ولا وفـاته، الا أنه توفى بقريـة اسكـرام ودفـن بصحـن جامعها وقبره يـزار، يقصـده الاهـالى .

من رجال بنى توزيـن :

أبو الحسن الحاج على بن مخـوخ :

الذى يوجد بين أيدينا من المخطوطات والظهائر أنه شريف ادريسى،

الا أنه ليس من أولاد مولاى عبد السلام صاحب جبل العلم ببنى عروص الجبلية، بل أسلافه كانوا من سكان تافيلالت، ومنها نزح جده يعلى بن سالم ونزل بقبيلة الاخماس بجبالة، وهناك خلف سبعة أولاد منهم عبد الحليم الذى خلف السيد المخوخ والد السيد الحاج على بن مخوخ المترجم له، ويقال أن جده الاعلى هو سليمان بن على بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمان بن الحسن بن طلحة بن جعفر بن مولاى ادريس والله أعلم.

ثم أن هذا نزح من الاخماس ونزل بجبل بنى عيسى (لم نعثر الى الآن ما هو هذا الجبل وأين موقعه والراجح أنه جبل بتمسمان، وسيأتى الكلام عليه عند ترجمة الشيخ اليستثنى) ومن هناك انتقل الى قبيلة بنى توزين بعد وفاة شيخه اليستثنى، فنزل بجبل تسفت (بهذا الاسم يعرف الآن) وكان يدعى فى ذلك التاريخ بجبل بنى وزاب .

زاويته ومشيخته : كانت له فى القرية التى يسكنها والتى تدعى الآن بزاوية سيدى الحاج على، زاوية وكانت عامرة معروفة بالفضل والرجوع اليها للعبادة، وهى قرية فى قبيلة بنى توزين لا زالت الى الآن لها صلاح واحترام وقبيلة بنى توزين من قبائل بطيوة المنحدرة عن زناتة وهى التى تعرف من فرقها ببنى توجين بالجيم كما أسلفنا .

وكان أبو الحسن هذا شيخ وقته من المجاهدة والوصال والبركة، وكان نسيج وحده فى التقرب الى الله تعالى بأعمال البر والتقوى وملازمة الذكر .

وكان أول الامر أميا، لكن استدرك ذلك بعد كبر سنه، فتعلم الكتابة وحفظ القرآن الكريم، قيل عنه أنه طيلة خدمته للشيخ أبى عبد الله اليستثنى لم يكن أحد أكثر منه تقشفا ولا أشد منه خدمة فى الزاوية وللفقراء، وكان نازلا عند شيخه المذكور بجبل عيسى موطن ذلك الشيخ، وبعد وفاة شيخه انتقل الى بنى توزين وهناك استقل بالمشيخة، فشيخه الوحيد هو اليستثنى ولم نعثر على شيخ آخر له .

حياته ومحنته : فى تاريخ حدود 685 كان قام الشخص الذى يدعى أبا العباس الكميلى بالدعوة للفاطميين كما أسلفنا وكان يزعم أنه رسول المهدى المنتظر، الى غير ذلك من الخرافات، وتبعه على ذلك رعاع

الناس، وكان العلماء والصلحاء استنكروا عليه ذلك، ومن جملتهم الحاج على بن مخوخ، فقال لما بلغه خبر الكميلى، قولوا له يلزم الخلوة ثمانية أيام فيظهر له الحق، ولما بلغت الكلمة الى الكميلى، قال قولوا للحاج على أن هذا الشأن ليس شأنه (يعنى أنه بعيد عن السياسة) فلما بلغ ذلك للسيد الحاج على قال لا بد من قارعة تنزل به، فكان الامر كذلك، فانه لما استفحل أمر هذا الكميلى ببادس بعد القتل والسبى هجم على مدينة المزمة بقبيلة بنى وریاغل فقتل هناك بتاريخ 20 صفر الخير عام 686 هـ. وصلب بباب المزمة وبعث برأسه الى السلطان أبى يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المرينى، فعلق الرأس بباب مراكش مع رأس أبى عامر عبد الله بن محمد بن على بن محلى البطيوى صاحب مراكش .

ورغم ما قام به الشيخ ابن مخوخ ضد الكميلى، فان السلطان تغير خاطره على المتصوفة لكون الكميلى كان ينتسب الى التصوف، فجعل السلطان يذكر المتصوفة عامة بأقبح الذكر، وذلك ما دعى الشيخ المخوخى ان يغيب عن الريف الى المشرق، فغاب نحو شهر كما فعل جميع الفقهاء والشيوخ الى أن يتحقق الامر عند السطان .

عبوره الى الاندلس : واثر رجوعه من هذه الغيبة توجه أيضا الى الاندلس للجهاد عن طريق بادس، وقد حكى عن نفسه فى ذلك أنه بات فى سطح رابطة البحر ببادس منتظرا السفر الى الاندلس، غير أننا لم نعثر فى المصادر التى اعتمدناها فى ذلك عن ذكر شىء من حركاته فى الاندلس ولا مدة مكوثه هناك .

سخاؤه : حكى عنه صاحب المقصد الشريف، أنه زاره يوما فى بيته فروى له بنفسه هذه القصة، قال له أنه : صب بين يدى على البساط ثلاثة آلاف دينار عشرية فضية، فما قمت الى صلاة العصر حتى فرقتها على الفقراء .

مناقبه : خلف عقبا كثيرا من الشرفاء الذين تعتز بهم هذه الجهة لمقام صلاحهم، فقد انتشرت ذريته منهم أولاد سيدى الحاج على وهم سكان موضع زاويته، ومنهم الوكيليون الذين نزل بعضهم على ضفة وادى ملوية السفلى وبعضهم بقصبة العيون سيدى ملوك، ومنهم على

وادى النكور بقرية غلبون، ومنهم المرحوم المجاهد سيدى محمد بن على بويحيا المجاهد المشهور فى الحـــرب التحريرية الريفية، وبأيدى الجميـــع ظهائر ملوكية علوية نثبث هنا نسخة من ظهير السلطان مولاى محمد بـــن عبد الرحمان الصادر بتاريخ 1276 هـ. ونصـــه :

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

جددنا بحول الله وقوته وشمال يمنه ومنته لماسكيه الشرفاء أولاد السيد الحاج على بن مخوخ الوكيلى الحسنى حكم ما تضمنه ظهير سيدنا الوالد رحمه الله الذى بأيديهم المتضمن التوقـــير لهم والاحترام والـــرعى الجميل المستدام والحاشات بما يطالب به العوام من الوظائف المخزنية والتكاليف (تقطيع) فلا تخرق عليهم عادة ولا يحدث فى جانبهم نقص ولا زيادة فنأمر الواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنا أن يعمل بمقتضاه ولا يتعداه الى ما سواه والسلام فى 23 من ربيع الثانى عام 1276 ونسخة من الظهير الاخير لملانا عبد العزيز وهو بتاريخ 21 جمادى الاولى عام 1329 .

ومنهم الشيخ أبو الربيع سليمان بن يحيى :

ويعرف بابن ستهم وهو مدفون بمدشـــر اعزوزن من قبيلـــة بنى توزين ربع تسفت يقال لقومه بنى محسن.

صفـــاتـــه : كان فاضلا متقشفا ومع ذلك فان لباسه كان حسنا ولم يلبس الاسمال قط وكان فى وجهه تآكل لم يستعمل دواء لعلاجـــه الى أن مـــات بـــه .

جهـــاده : تمشيا مع سنن الصالحين فى ذلك الوقت الـــذى تقضى ان يساهم كل أحد فى الجهاد بالاندلس وهى سنة الصالحين، وكان الاندلس موضع الجهاد، وفى هذا الشأن قام وركب من مرسى قصر المجاز وهـــو القصر الصغير قال بعض أصحابه الذين رافقوه فى تلك الرحلة سرنا معـــه عام الغزوة بالاندلس للجهاد، فنزلنا بقصر المجاز ننتظر الجفن (المركـــب) انجوز فيه فأتى فقير أسمر اللون عليـــه مرقمة وبيده ركوة فسلـــم على الشيخ أبى الربيع وهو جالس على ساحل البحر، فأعرض عنه الشيخ الى آخر حكاية كرامة جرت له معـــه .

بـــركـــاتـــه : كان له أخ يدعى الشيخ أبا يحيى زكرياء، وكـــان تاجرا فى الاسواق فتح الله عليه فى تجارته، وكان ينفق على زاوية الشيخ أبى الربيع فضجر من الانفاق، وتكلم بكلام خشن أمام الشيخ أبى الربيع، فقال له ان الفقراء هم الذين ينفقون عليك، فغضب أبو يحيى وقال لا ينفق أحد على أحد فقيل انه ما أتت عليه الا أيام قـــلائل حتى ذهب ما بيـــده وركبته ديون، فأتى الى الشيخ أبى الربيع وأعلمه بحالـــه، فقال له عـــد الى حالتك والفقراء ينفقون عليك فقيل فعاد وعاد الرزق عليه الى ما كـــان (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه) (يمحق الله الربا ويربى الصدقات) .

استقباله للحجاج بزاويته : وكما هى العادة التى كان الصلحـــاء فى ذلك الوقت رتبوها لاستقبال وفـــود السائحين أما للحـــج أو لمجـــرد الاعتبار، انهم جعلوا زواياهم محطات لايواء الوفود .

وفى هذا الميدان فقد حكى السيد عبد الكريم بن ورشون، وكـــان يتولى اقراء القرآن فى الزاوية للصبيان، انه ذات يوم لما صلينا الصبـــح قال الشيخ لاصحابه، فرقوا القمح للطحن واذبحوا ثورا واصنعوا الطعام، فان ضيوفا واردون علينا، قال وبعد جزء من اليل سمعنا التكبير والتهليل، فورد علينا جمع من حجاج المصامدة قاصدين زيارته والتوجه للحج .

حيـــاتـــه : كان حيا أواخر القرن السابع، ويؤخذ ذلك من كون الشيخ بوشعبان وهو الرجل الاسود الذى كان راتبا برابطة البحر ببادس، حكى أنه وقعت له معه كرامة، وبوشعبان هذا عاشر الشيخ عبد الحق بن اسماعيل الخزرجى الذى كان حيا بتاريخ 772 هـ.

ومنهم أبو عقيل حفيد الشيخ أبى داود :

وهو عبد الرزاق بن عبد الواحد بن الحاج ابراهيم بن عيسى بـــن أبى داود شيخ الشيـــوخ فى وقته الآتـــى :

ترجمتـــه : وكنى بأبى عقيل باسم ولد له وهو جد جماعة ابو عقيلا من قبيلة بنى توزين وهو كما تقدم من أحفاد الشيخ أبى داود المدفون بتمسامان من فرقة بوداود، ولا يعرف من ذهب الى قبيلة بنى توزيـــن هل هو، أو أحد أبائه، وكان رحمه الله تقيا صالحـــا ورعا متقينا للعبـــادة واقفا عند حدود الشريعة لا يبالى بشىء فى ذكر الله ولا تأخذه فيه لومة

لائم، وقد ورث الصلاح عن أجداده، فجده الحاج ابراهيم كان من فحول الصالحين كما تأتى ترجمته وهو الذى كفله وعنه أخذ الصلاح .

حيـــاتـــه : سيأتى أن جده الحاج ابراهيم توفى عام 650 هـ. ويظهر من الحكاية التى ستأتى فى ترجمته التى يوردها حفيده ابو عقيل ان هذا الاخير عاش بعد جده أى فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ولم نقف على تاريخ وفاته ولا ولادته بالضبط .

ومنهم بعض الشرفـــاء وهـــم :

أولاد زيان (ولعلهم الساكنون بجبل اعزوزن الى جهة وادى النكور) ومن علمائهم الفقيه العلامة المشارك الخير الدين الصالح سيـــدى محمد بن الحاج حدو بوزيان توفى حوالى 1968 بالحسيمة ودفن فى مقبرة أجار ازكاغ وهو من افذاذ الرجال فى التقوى والصلاح والمعرفة .

ومنهم أولاد سيدى الحاج على بن مخوخ المتقدم الترجمة :

ومنهم أولاد عمران : نزل بعضهـــم فى موضع كان يدعى بجبـــل بنى عيسى، والبعض الآخر بجبل كان يدعى بوسماك، وجدهم حسبمـــا فى المخطوط على بن يحيى من ذرية عمران بن مولاى ادريس والله أعلم.

ومنهم أولاد يعلى : ولهم اخوان فى قبيلـــة بنى وریاغل يدعـــون بنى يعلى بحوز مدينة النكور وقريتهم تدعى الآن تزى يعلى، وجدهـــم حسب المخطوط هو سليمان بن على من ذرية حمزة بن مـــولاى ادريس ، واللـــه أعلـــم .

ومنهم أولاد سيدى الحاج عبد الله: النازلون بقبيلة بنى توزين الى جهة القبلة بموضع كان يدعى ببنى خالد، وجدهم حسب المخطوط على ابن امحمد من ذرية محمد بن مولانا ادريس وهم اخوان مع أولاد عبـــد القوى بقبيلة بنى سعيـــد بوادى كـــرط .

ومنهم أولاد عبد الـــرزاق : ببنى خالد وهم من ذريـــة مولانـــا عبد الســـلام بن مشيـــش .

الشيخ أبو داود مزاحم بن على :

من رجـــال تمســـامـــان :

اسمه مزاحم بن على بن جعفـــر بن سليمـــان بن على بن أبى

عبد العزيز يرفع نسبه الى جد يدعى البطيوى واليه تنسب القبائل البطيوة من المزمة الى ملوية .

كان شيخا فاضلا زاهدا تقيا له فى الكرامات مجال واسع، ومما يحكى فى حقه حسبما فى المقصد الشريف، أنه اتفق لملك المغرب الموحدى محمد بن عبد المومن بن على الذى كان أكبر أولاد أبيه والذى بويع بعد وفاة أبيه فى السابع والعشرين من جمادى الثانية عام 558 هـ. ولم يبق فى الملك الا خمسا وأربعين يوما، اذ اتفقوا على خلعه فى شعبان عام 558 لما عهد عليه من ادمان شرب الخمر واختلال الرأى وكثرة الطيش وجبن النفس (1) وكان به ضرب فى الجذام، فلما اعجز شأنه الاطباء ذكر له أن ببلاد بطيوة شيخا صالحا يداوى الادواء والعاهات (ببركة الله)، فوجه اليه من خدامه من يشخصه اليه على جواد، فلما بلغه الرسول ومعه الفرس ليركبه، أبى عليه ركوب الفرس وركب اتانا له، وكان الرسول والشيخ فى سيرهما كفرسى رهان، فلما وصل الشيخ وكان الرسول رآى من كراماته فى الطريق حكاها للسلطان فأمر بادخاله عليه وأعلمه بمكان الداء من جسده، فأخذ الشيخ من ريقه بسبابته اليمنى، وقال للسلطان أمسك يدى وامرر بسبابتى على الموضع الذى فى جسدك موبؤا ففعل فشفاه الله، فأمر الملك له بمال جزيل وامتنع .

ويحكى زيادة على ما تقدم أنه رافقه فى سفره هذا ولد له يدعى يوسف، وان أحد وزراء الملك أقنعه بأن يأخذ المال لنفسه، وكان قدرا هاما، ولما رجع الشيخ وولده وكانا فى الطريق التفت اليه من دون أن يعلمه بشىء، وقال قد أخذت المال ودعى عليه بأن يميته الله فقيرا، فحكى انه لم يمض عام عليه حتى افتقر من دون اخوانه، وانه مات فقيرا كما دعى عليه الشيخ .

وقد ذكر هذه الكرامات الشيخ أبو محمد عبد الحق بن اسماعيل الخزرجى وقد انشد فى هذه الكرامات قوله :

جارى الجياد سابغات فبذها (كذا) من فوقها اسحاله
وأرى الخليفة من برء ما عزا الطبيب بنانه اخماله

(1) المعجب فى تلخيص أخبار الغرب ص 236 طبعة الاستقامة بالقاهرة.

ومن حبه للخير، أنه كان أحد اخوانه فى الانتساب يدعى أبا زيد هبة، من قبيلة مزيات بأحواز فاس كانا معـا ينتسبان الى الشيـخ أبى مدين، فبلغه أن أبا زيد يدعو على الناس اذا لحقه منهم ضرر، فربما هلك المدعو عليه، فشد أبو دارد الرحال اليه لينصحه قائلا له يا أبازيد اصلح ولا تفسـد .

حيـاتـه ووفـاتـه : ولد بقبيلة تمسامان فى البلد المعروف فـى ذلك الوقت ببنى ورتد، ويعرف الآن بربع آل بوداود، ورحل الى الأندلس لطلب المعرفة وأقام بها زمنا، ثم رجع واتصل بالشيخ الزاهد أبى مديـن المدفون بالعباد (1)، وعن هذا الشيخ أخذ الطريقة الصوفية، ثم ارتحل الى بلاده (بنى ورتد) وأقام زاوية هناك كانت تدعى الرابطة، ولا زالت تسمى القرية بالرابطة بتمسامان وكان المحل يعرف فى ذلك الوقت باحلاس وكان الساحل يدعى بساحل تيقلال، وكان يتحنث فى هـذه الرابطة وبـين داره ومدينة المزمة خمسة فراسخ غربا على ساحل البحر .

وقد عمى رحمه الله فى آخر عمره وتوفى بتاريخ 578 هجرية .

ومنهم أبو ابراهيم اسماعيل بن سيد النـاس :

شيخ من شيوخ بطيوة من فخذ بنى عيسى، وكان رجلا صالحـا مستجاب الدعوات، وهو تلميذ الشيخ أبى داود المتقدم الذكر، كان عارفا بالله صوفيا ذا كرامات، وكان يسكن فى الحصن الذى يوجد ببنى عيسـى بتزروت، وهذا الحصن كان معقلا فيها ومن تلامذته الشيخ أبو عبد اللـه اليستثنى الآتى ترجمتـه .

ومن بركاته ولو بعد موته كما حكى الشيخ عبد الحق الخـزرجى أن القبائل المجاورة لجبل بنى عيسى اذا هاجمت هذه الاخيرة فى معقلهـا وتحصنوا فى المعقل خلف ضريح الشيخ أبى ابراهيم هذا لا تنال منهم تلك القبائل منالا، فاذا خرجوا من الحصن وابتعدوا عن الضريح أخذت منهـم القبائل قتلى وسبايا، واذا تكاثرت القبائل وهاجموا الحصن، فان مبغلهم

---

(1) بتلمسان بالقطر الجزائرى .

الروضة، وربما انهزموا، وعنذئذ يصيح بنو عيسى ويكبرون ويقولون يا بركة سيدنا أبى ابراهيم .

وانشد عبد الحق المذكور فى حقه قوله :

بدر بدا والليل ساج فاهتدى بسناه فى البيداء سارى الغيهب

ولا يعرف شىء عن تاريخ وفاته، الا أنه معروف بأنه مدفون فى روضة قبلة المسجد الذى هناك خارج الحصن وقبره مشهور للزيارة والتبرك به ونظرا لكونه تلمذ على الشيخ أبى داود فيكون حيا فى القرن السادس.

ومنهم أبو عبد الله محمد اليستثنى :

كان بادىء أمره راعيا للغنم بالاجرة فى جبال بنى عيسى من قبائل بطيوة (وهذه الجبال تدعى الآن بنى بويدر بتمسامان) بعدما رحل من بلاده (بنى يستثنى) وهو صبى، وقد الهمه الله التقوى والصلاح وقت رعيه للغنم فحبب اليه الصوم والتقوى، وكان يتصدق بغذائه مستخفيا .

أما عن تاريخ ولادته أو وفاته فلا يعلم عنها شىء الا ما كان من تلمذته على الشيخ أبى ابراهيم بن سيد الناس الذى كان حيا فى القرن السادس، وعليه فيكون هذا الشيخ كان حيا فى أواخر القرن السادس أو أوائل القرن السابع .

مشايخه : تلمذ على الشيخ أبى ابراهيم بن سيد الناس بعد ما ضمه اليه، وقد بلغ بعد شيخه شأنا كبيرا حيث تصدى للمشيخة، وناهيك أنه كان شيخا للعارف بالله السيد أبى الحسن على بن مخوخ المتقدم الترجمة .

أحواله : قال الشيخ ابن مخوخ أن الشيخ اليستثنى تفوق عليه بعلم الجبروت بمعنى أنه كان مسلوبا، ومثل ذلك ما قاله عنه الشيخ الفقيه الحاج أبو عمران موسى بن عبد السلام وقد أدركه، قال كان الشيخ اليستثنى مغلوبا جذب وهذب فاتصل بعالم الجبروت، مرتقيا فى عالم الملكوت، ورفض جميع الملاذ من النساء والطعام والشراب، وكان نحيف الجسم داثر الحس لا يكاد يحس بشىء من أحوال الدنيا وكان

يغتسل لكل صلاة، وكان الشيخ سليمان الورياغلى من تلامذته وقد حكى عنه كرامات .

علاقاته بالاندلس : حدث الشيخ أبو الحسن بن مخوخ أنه كانت بين المترجم له وبين الشيخ أبى اسحاق بن عبديس مراسلة وكان هذا الاخير يوجه اليه كل سنة معجون الترنج من غرناطة، فتأخر سنة فقال لتلامذته من يصل منكم الى الشيخ أبى اسحاق ليأتى من عنده بمعجون الترنج، قال فتوجه أحد الفقراء .

وحكى أيضا عن آخر حياته ويوم وفاته قال سرنا معه قاصدين بلاد الغرب (يعنى من المغرب) فلما بلغنا الى فج العروص (هى فرقة آل عروص الآن) وهو آخر بلاد بطيوة، وأول بلاد كزنايه، نزلنا به على ماء برأس الفج، فنظر الى جهة الغرب وقال ردونى فانى عندما نظرت الى جهة الغرب أظلم قلبى، وقال أنه فى يوم وفاته آخر صلاة المغرب الى أن جمعه مع العشاء، فقال ناولونى الماء فاغتسل وصلى العشائين، ثم توفى رحمه الله، وقال ابن مخوخ اننا اتخذنا مراويح لدفع الذباب عنه (يظهر أنه كان عاجزا) .

من رجال تمسامان أيضا :

مركاب بن عيسى البلندى :

كان يسكن فى قرية تبلخاشت قرية من قرى تمسامان لا زالت بهذا الاسم الى الآن، وكانت قبيلة تمسامان فى تاريخ حياة الشيخ أبى داود تنقسم الى ثلاث فرق: فرقة بنى ورتدا بفتح الوار وسكون الراء وفتح التاء والدال المشددة وهى الفرقة التى يسكن فيها الشيخ أبو داود، وهى التى فيها ضريحه الآن وتدعى حاليا بفرقة بوداود، وفرقة بنى بلند سميت بابن بلند ابن يصليتن، وهى التى كانت مسقط رأس المترجم له، وفرقة تكسامان وهى التى كانت على الجهة الشرقية بحرا وهو الموضع الذى كانت فيه قرية وادى امقران التى بناها العرب أولاد سيدى صالح المدفون هناك على الشاطىء البحرى .

صلاحه : كان هذا الشيخ قدوة فى التصوف ومجتهدا فيه،

وقد أخذ ذلك عن الشيخ أبى داود البطيوى، بل كان اذا حضر الى رباطته يأمره الشيخ أبو داود بأن يؤم به فى الصلاة لحسن تلاوته وكثرة عبادته. رغم أنه كان يسكن بعيدا عن الرباطة بفرسخين، وقد حكى عن نفسه أنه ذات يوم أتى الى الرباطة فوجد الشيخ أبا داود يصلى اماما بالناس، قال فاغتنمت الصلاة خلفه مخيفا نفسى فى غمرة الناس، فلما سلم أبو داود رد رأسه الى جهتى، وقال لى قم يا مركاب فصل بنا فقمت وتقدمت فصليت .

وفاته : توفى الشيخ مركاب عام 628 هـ. وقد رمز الى وفاته الشيخ عبد الحق الخزرجى بكلمتى فألحده التقى فى قوله :

قامت قيامته فألحده التقى فى لحد نسك لا يراه الملحد

ومنهم الحاج ابراهيم بن عيسى :

هو حفيد الشيخ أبى داود شيخ متصوفى الريف المتقدم الترجمة.

ولد الحاج ابراهيم بتاريخ 560 هـ. وتوفى عن تسعين سنة بتاريخ 650، ودفن بتمسامان بموضع يعرف بداروجن وهو الذى أوصى أن يدفن هناك، وكان هذا الموضع لبعض الصالحين، حبسه على المنقطعين الى عبادة الله .

عبادته وسجنه : كان لا يفتر عن تلاوة القرآن الكريم ليلا ونهارا، قياما وقعودا فى مشيه أو سكونه، وقد سجن رحمه الله مدة تقارب ثلاث سنين عند قراصنة النصارى، وذلك أنه كان يسكن على ساحل البحر قرب رباطة جده أبى داود حيث كان يتعبد، وكان هناك قرب داره عنصر ماء يستقى منها نصارى القرصنة، ومع ذلك فلم يمسوا داره بأذى رغم أن الدار تكون مملوءة بالودائع .

الا أنه لما ضعف أمر الموحدين على جهة الريف، وتغلب العرب عليها ضربوا مغرما على بنى ورتدا بلد أبى داود، فامتنع هؤلاء من أدائها، وقصد العرب الحاج ابراهيم لما يعرفونه عنه من الصلاح أن يتدخل لدى السكان لاداء المغرم، وبعدما تردد فى استجابة مطلبهم ذهب اليهم، لكنهم امتنعوا، ولما رجع سلك طريق ساحل البحر، فأخذه نصارى القرصنة

أسيرا، وفى أثناء هذا الاسر تمكن هؤلاء النصارى من الوصول الى داره وأخذوا جميع تلك الودائع، وفى أيام أسره أصابت تلك الجهة مجاعة شديدة.

مناقبه : حكى عنه حفيده الشيخ أبو عقيل المتقدم الترجمة، وكان مكفولا لديه راويا عن جدته زوجة الشيخ المترجم له، أنه ذات مرة نظم سبعين حبة من التين فى حبل وبقى سبعين يوما يقتات كل يوم بحبة واحدة حتى ضعفت صحته فطلبت من بعض أصدقائه أن يتدخل لديه ليشفق على نفسه، فأجابهم بأن الدنيا جيفة فمن اضطر اليها حلت له وأنا غير مضطر اليها، وذلك لما يجده من القوت الروحى الذى اكتسبه من العبادة.

الوطاسيون بداره :

ومما يحكى عن بركاته أيضا أنه لما تغلب بنو وطاس على بلاد الريف، وكانت مجاعة، قصده ياسين بن الوزير الوطاسى مع جماعة من بنى وطاس، وذلك لاجل أن يأكلوا عنده، ولما وصلوا اليه وسألوا عليه اظهروا أن القصد الزيارة والانصراف، فقال لهم اجلسوا لنصنع لكم طعاما فجلسوا، فأخرج لهم طعاما قليلا يبدو فى نفس كل واحد منهم أنه لا يكفيه له وحده، فقيل أن الشيخ سمى الله وأمرهم بالاكل، فأكلوا جميعا وشبعوا، وبقيت باقية، فقال لهم الشيخ كنتم قدرتم أن لا تشبعوا.

الشرفاء البويعقوبيون :

ومنهم الشرفاء الثلاثة سيدى محمد بن عمر — وسيدى موسى بن محمد بن احمد — وسيدى موسى بن احمد ابن على، وهم الشرفاء البويعقوبيون بتمسامان، وقد جمعنا هؤلاء الشرفاء الثلاثة فى ترجمة واحدة لانهم أحفاد سيدى أبى يعقوب المدفون بمغراوة الذى انتشرت ذريته بنواحى الريف .

فمنهم من سكن تطوان، ومنهم من سكن فى وجدة ونواحيها، ومنهم من سكن فى قبيلة تمسامان بالقرية المعروفة بسيدى بويعقوب على الضفة الغربية لواد ألمكثن بفتح الميم وسكون الكاف وفتح الشين وسكون النون، وهؤلاء الآخيرون هم الذين ينتمون الى هؤلاء الاشراف الثلاثة وقد جمعتهم الوثائق التى نستدل بها، فالاول منهم هو الشريف سيدى محمد بن

محمد بن بن محمد بن على بن ابراهيم بن عمر بن ابراهيم بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن أبى يعقوب المغراوى وهو الجد الذى ينتسبون اليه.

والثانى هو الشريف السيد موسى بن محمد بن احمد بن سعيد بن موسى بن على بن عبد الله بن مرزوق بن على بن محمد بن يوسف بن أبى يعقوب المغراوى .

والثالث هو الشريف سيدى موسى بن احمد بن على بن عمر بن يعقوب بن عيسى بن سليمان بن يعلى بن محمد بن يوسف بن أبى يعقوب، وكلهم تفرعوا عن محمد بن يوسف بن أبى يعقوب وسيدى أبو يعقوب هذا من أحفاد سيدى محمد الدهمان الولى الصالح المشهور، ونكتفى فى ترجمتهم واثبات نسب الشرفاء احفادهم بتمسامان بنشر الوثيقة الشرعية وبعض الظهائر الملوكية العلوية .

فالوثيقة الشرعية هى شهادة مؤرخة بمنتصف ربيع الاول عام 997 هـ. وها نصها :

بعد الحمدلة يعرف شهوده السادات الاجلاء وهم المرابط الخير الدين الشيخ البركة السيد محمد بن عمر بن محمد بن على بن ابراهيم ابن عمر أبى ابراهيم بن عبد الله بن محمد بن يوسف ابن أبى يعقوب الشريف والسيد موسى بن محد بن احمد بن احمد بن سعيد بن موسى بن على بن عبد الله بن مرزوق وعلى محمد بن يوسف بن يعقوب، والسيد موسى بن احمد بن عمر بن يعقوب بن عيسى بن سليمان بن يعلى بن محمد بن بن يوسف بن يعقوب أتم المعرفة وأكملها ويشهدون مع ذلك بأنهم منذ ادركوا بأسنانهم وفهموا بعقولهم أنهم يسمعون عنهم سماعا فاشيا ذائعا مستفيضا على السنة أهل العدل وغيرهم انهم شرفاء ينتسبون الى الجانب العالى المولى سيدى الوجود بأسره مولانا محمد (طلعم) فهم من ذرية سيدى يعقوب الشريف المذكور، نفعنا الله به من غير طاعن لهم فى ذلك ولا معارض ولا منازع بهذه الحالة عرفهم وعليها خبرهم ولم ينتقلوا عنها حتى الآن كل ذلك فى علمهم وقيدوا بذلك شهادتهم فى منتصف شهر ربيع الاول السعيد المفضل عام سبعة وتسعين وتسعمائة ش الطالب السيد على بن محمد الشريف والسيد احمد بن عبد الله البطيوى والسيد

عمر بن حدو البطيوى والسيد احمد بن عمر البطيوى وعلى بن محمد سلطان وعمر بن عيسى بن مزيان ومحمد بن قاسم البطيوى وعبد الواحد بن أبى سعيد وعبد الله بن محمد احماموش والطالب عمر بن محمد البطيوى وابراهيم بن احمد البادسى والحاج احمد بن أبى بكر القيسى وعبد الرحمان بن عمر البادسى وعبد الرحمان بن احمد البادسى وعلى بن حدو البادسى وعبد الرحمان بن سليمان اليازغى .

شهدوا لدى من قدم لذلك بموجبه فثبت .

الحمد لله أشهد الاجل الفقيه البركة العالم العلم قاضى الجماعة بمدينة فاس وهو عبد الواحد بن احمد الحميدى أعزه الله تعالى وحرسها بثبوت الرسم أعلاه الثبوت التام وبصحته عنده وثبوته لديه بواجبه وهو حفظه الله تعالى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر وفى التاريخ أعلاه .

أما الظهائر فنكتفى بالاول مما وقفنا عليه والاخير، فالاول لمولانا اسماعيل بن الشريف، ونصه :

بعد الحمدلة والطابع الشريف، يتعرف الوقف عليه بحول الله وقوته وشمال يمنه وبركته اننا جددنا لحملته الشرفاء الاطهار الاجلاء الشريف الحسنى نفعنا الله به وبأمثاله، القاطنين ببنى بويعقوب بتمسامان على ما بأيديهم من ظهائر سيدنا الوالد قدس الله روحه وظهائر من تقدم من الملوك رحمهم الله المحتوية على توقيرهم واحترامهم وتبجيلهم واكرامهم فلا يسامون بما يطالب به من سواهم من العوام، رعيا لنسبهم الشريف ومنصبهم المنيف حسبما تضمنته ظهائرهم وما بأيديهم من رسوم الائمة والقضاة والشهود والثقات، فمن رام حول حماهم جردنا له سيف النكال والبسناه من صواعق غضبنا سربالا، تجديدا لا يزال جديدا ولا تزيده الليالى والايام الا تأييدا، والواقف عليه يعمل به ولا يتعدى كريم مذهبه وابقيناهم على ما هم عليه من دفع زكاتهم واعشارهم لفقرائهم وضعفائهم وأهل الحاجة منهم كما كان عليه عملهم والسلام .

فى غرة شعبان المبارك عام 1144 هـ.

وآخرها للمولى عبد العزيز بن الحسن بن محمد قدس الله روحه.

ونصه : بعد الحمدلة والطابع الشريف كتابنا هذا أعلا الله مقامه

ونشر فى الوية العز أعلامه يستقر بين حملته الشرفاء أبناء المولى الصالح سيدى أبى يعقوب الشريف الحسنى نفعنا الله ببركته المعروفين ببنى بويعقوب بتمسامان واخوانهم بتطوان ويعلم منه أننا جددنا لهم بحول الله وقوته وشامل يمنه وعزته على ما بأيديهم من ظهير مولانا الوالد قدسه الله وجعل الفردوس مثواه المجدد لهم على ظهائر أسلافنا الكرام المنعمين بجزيل النعم فى دار السلام المتضمنة اقرارهم على ما عهد لهم من التوقير والاحترام والمراعاة والبرور والاكرام، والمحاشاة عما يطالب به العوام، فهم عندنا على الحالة التى كان عليها أسلافهم مع أسلافنا لا تخرق عليهم عادة ولا يحدث فى جانبهم نقص ولا زيادة، تجديدا تاما شاملا عاما فنأمر من يقف عليه من خدامنا وولاة أمرنا المعتز بالله تعالى فى ربيع عشر صفر عام 1314 .

الشرفاء القادريين أولاد لقمان :

حسبما عثرت عليه من الوثائق التى سيأتى بيانها، ان أولاد لقمان القادريين يوجدون على فرعين اثنين احدهما فى بنى بوعياش بقرية تزورخت ببنى وریاغل، وهى قرية بالضفة الغربية لوادى النكور، وثانيهما فى قبيلة تمسامان بالقرية المدعوة ايجار أفاضيس .

وقد نزحوا من نواحى تلمسان بالقطر الجزائرى بالمحل المعروف بعجرود، واستقر بعضهم فى بنى بوعياش باسم أولاد لقمان وانتقل الآخر الى قبيلة تمسامان باسم القادريين .

وتعتبر هذه الوثائق مصدرا هاما فى ميدان نسب هذين الفرعين .

ومن تلك الوثائق حسب التسلسل التاريخى وثيقة شرعية أخذت نسخة منها بالطريقة التوثيقية وهى هذه :

الحمد لله نسخة رسم واحد والاعمال بالقبول عقبه والتعريف عقبهما والاداء عقب الجميع وخطاب من يجيب بما سيذكر عقب ما ذكر ونصه: الحمد لله يعرف من يضع شكله عقبه ما سكيه الاجلة القاطنين بمنزل تزوغت بقبيلة (كذا) الورياغلية اتجاه واد النكور قبلة المعروفين بأولاد لقمان منهم الفاضل الابر السيد الحاج عمر بن محمد بن مسعود

بن السيد الحاج محمد بن الفقير احمد بن السيد الحاج محمد بن محمد فتحا بن بعز، والسيد عمر بن اهنساشن، والسيد محمد فتحا بن محمد بن احمد، وغيرهم من اخوانهم النازلين بالمنزل المذكور والخارجين منهم الى قبيلة تمسامان النازلين بمنزل فدان الدر شاطىء البحر منهم السيد على بن الحاج على بن عبد السلام، والسيد محمد بن محمد بن عبد الله بن مسعود والسيد شعيب بن احمد بن السى محمد بن احمد بن شعيب، وغيرهم من اخوانهم أيضا المعروفين بأولاد فارس أتم معرفة وأكملها بها ومعها يشهد بأن السادات المذكورين كلهم أولاد لقمان وانهم شرفاء حسنيون، وان النسب الطاهر الطيب الكريم والشرف الحسنى المنيف العظيم الجسيم لا زال من أوصافهم، وحازوا هذه التسمية حديث العهد والزمن القديم، وانهم من ذرية القطب الربانى، سيدنا ومولانا عبد القادر الجيلالى، رضى الله عنه وانه ممن يجب تعظيمهم وتوقيرهم بجانب نسبهم الرفيع العلى الطاهر الطيب الباهر الركن، فمن عرفهم وحقق نسبهم قيده شاهدا به لسائله منذ أواسط شهر الله الانوار ربيع النبوى عام 1293 عبد ربه تعالى احمد بن الحاج على الحسنى الوكيلى (الدعاء) وعبد ربه واحوجهم لما لديه عبد الرزاق بن على الحسنى الوكيلى (الدعاء) ونص الاعمال الحمد لله أعلم بقبولها عبد ربه محمد بن احمد التوزانى العدولى (الدعاء) ونص التعريف الحمد لله الخطاب يليه لقاضى بنى توزين الفقيه سيدى محمد بن السيد احمد العدولى التوزانى قاله عارفه معرفا به عبد ربه تعالى العربى بن محمد الرعرى لطف الله به ونص الاداء الحمد لله أدى المعرف فقبل واعلم به عبد ربه محمد بن عبد الرحمان العلوى الحسنى (الدعاء) وبعده استقل انتهت قابلها بالاصل فما ثلثه واشهد سيدنا الامام الشريف الانور الزكى الاطهر العالم العلامة الافضل الفقيه قاضى الجماعة بفاس الغراء وهو (شكله) آعزه الله وحرسها باستقلال الرسم أعلاه عنده الاستقلال التام بواجبه وهو حفظه الله تعالى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر وفى جمادى الثانية عام 1293 عبد ربه (شكله) وعبد ربه (شكله) ه، والشكلان غير مقرئين، كما أنه ليس بعدهما خطاب .

ومن تلك الوثائق أيضا ظهيران شريفان حسنيان وهما مختومان

بالطابع الصغير الاول منهما تاريخه 14 ذو القعدة 1293 فيكون ما بين الظهير والوثيقة الشرعية سبعة أشهر وبذلك يكون باعث اقامة الوثيقة لاستصدار الظهير المذكور .

ونص الظهير بعد الحمدلة والتصلية :

«خديمنا الارضى الحاج حمادى التمسمانى البويديرى وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فحملته الشرفاء الاجلة المعروفون بأولاد لقمان منهم القاطنون بتزوغت من قبيلة بنى وريا غل والخارجون عنها الى قبيلة تمسامان نأمركم ان تستوصى بهم خيرا وتراعى جانبهم وتجريهم على عادتهم المألوفة وطريقتهم المعروفة وتكف اليد العادية لنسبهم الطاهر، واذا قرأت كتابنا هذا أردده اليهم يتمسكون به والسلام فى 14 ذو القعدة عام 1293 وبعده استقل وخط كلمة «استقل» مغاير لخط الظهير وهو رديء ويحتمل انه أخذت منه نسخة فكتب القاضى استقل وهى اصلاح توثيقى وفوق الظهير الطابع الصغير منقوش فيه الحسن بن محمد الله وليه وخط الظهير مغربى ممتاز. والخطاب فى الظهير للقائد التمسمانى من فرقة بنى بويدير والظهير الثانى تاريخه 1297 وبذلك يكون تأخر عن الاول بثلاث سنين وأربعة أشهر وثمانية عشر يوما .

ونصه بعد الحمدلة والتصلية :

«خديمنا الارض الحاج على بن عمر الورياغلى وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد فحملته الشرفاء الاجلة المعروفون بأولاد لقمان منهم القاطنون بتزورغت من قبيلة بنى وريا غل ومنهم الخارجون الى تمسامان، تأمرك ان تستوصى من بنى وريا غل منهم خيرا وتراعى جانبهم وتجريهم على عادتهم المألوفة وطريقتهم المعروفة وتكف اليد العادية عنهم رعيا لنسبهم الطاهر، واذا قرأت كتابنا هذا فأردده اليهم يتمسكون به والسلام. فى ثانى ربيع الثانى عام 1297 هـ. وبعده كلمة استقل وهى رديئة الخط، أما خط الظهير فمغربى ممتاز والخطاب موجه لقائد بنى وريا غل من بنى حذيفة ويظهر أنه لما تمسك الشرفاء القادريون بتمسامان بالظهير سعى الساكنون ببنى وريا غل لاستصدار ظهير

يخصهم، وبأعلا الظهير الطابع منقوش فيه الحسن بن محمد الله وليه ومولاه، الا أن هيئة النقش لم تتفق فيه مع النقش الذى فى الطابع الاول وبذلك يكون طبع كل بطابع خاص ب.

هذا وقد عثرت على مذكرة من دون تاريخ ولا امضاء، ونظرا لبعض الفوائد منها فانى أجلب هنا بعض الفقرات التى يتعلق بها الغرض فى هذا المضمار .

من تلك الفقرات «ولا سيما الشرفاء القادريون الذين شاع انتشار نسبهم بأولاد لقمان بالقبيلة الورياغلية من الريف فنسبتهم بتلك النواحى غير خافية» .

«وما زال الشرفاء القادريون المعروفون بأولاد لقمان محققون (كذا) باتصاله (أى مولانا عبد القادر الجيلالى) فى غاية الاشتهار منهم القاطنون بتزورغت من قبيلة بنى وریاغل والخارجون عنها الى تمسامان واخوانهم المعروفون بأولاد سليمان قديما وحديثا وينتسبون الى هذا الشرف الاثيل» .

«وهؤلاء السادات المذكورون من سلالة الشيخ ناصر بن الشيخ عبد الرزاق (1) بن الشيخ عبد القادر الجيلالى نفعنا الله به قدموا على بنى وریاغل من قلعة تاهرت بين هذه القلعة وبين تلمسان من ناحية شرقيها خمسة أيام» .

الشرفاء البقاليون

ومنهم الشرفاء البقاليون الذين نزلوا فى نواحى الشمال ويعتبرون ممن لاينازعهم منازع فى نسبهم الطاهر، أطلعت على مخطوط لاحد الشرفاء يدعى سيد التهامى أطلعنى عليه مولاى احمد الريسونى ساكن طنجة، ذكر فيه جمعا من الشرفاء بقبائل جبالة، وقد طعن فى شرف البقاليين، ولكن لم يذكر أية حجة مع أنه يوجد فى أيديهم شهادات وظهائر فهى حجة قاطعة، ومع ذلك فقد عملت على البحث فعثرت على كتاب الدرر اللآلى فى ثبوت الشرف البقالى لابى عبد الله محمد الحاج العياشى سكيرج

(1) الشيخ عبد الرزاق ليس ولدا من صلب الشيخ عبد القادر بل هو من أحفاده حسبما ذكره فى الترجمانة الكبرى ص. 179 .

الانصارى، فقد اثبت هذا المؤلف شرفهم بما لا يدع مجلا للشك، وعليه فان ما كتبه السيد التهامى هذا، هو رجم بالغيب فقط، وعلى حسب ما ذكره أبو العباس سيدى احمد الغزوانى، فان مجيئهم كان من الساقية الحمراء وقد نزلوا بمدينة فاس ثم انتقلوا الى جهات الريف وضنهاجة وغزاوة .

فقد نزل سيدى عبد الله هذا بقرية بوزويقـــة بالزاى ثم الـــواو المكسورة وبعده ياء ثم قاف، وهى قرية تآخم بنى وريا غل على الضفـــة الشرقية لوادى النكور، وهى التى كانت معسكر القائد بوحمارة لما هزم فى سهول بنى وريـــاغـــل .

وسميت بوزويقة لانها كان مؤسسهـــا محتسبا فى الاسواق فهـــو محرفة عن بوسويقة بالسين ويقال أن هـــذا المحتسب هو أب الشرفـــاء السويقيين كما يأتـــى .

وفى هذه القرية توفى رحمه الله ودفن هناك وله ضريح مشهور ثمه.

سيـــدى يحيى الحـــاج :

ومن عقبه سيـــدى يحيى الذى أســـس زاوية أخـــرى بمدشـــر الغمان بكسر الالف وفتح اللام وسكون العين المعجمة وهى قرية بتمسمان بأعلا بوزويقة وهناك توفى ودفن ولا زال ضريحه يقصد للتبرك، أما وفاة كل منهما فلم نعثر الى الآن على شىء من تاريخهـــا .

سيـــدى احمد الحـــاج :

ويوجد شريف آخر يدعى سيدى احمد الحاج وهو مدفون بجبل مزوجة من قبيلة قلعية ولم نعلم شيئا عن حياته ومماته أيضـــا .

سيـــدى الحـــاج يوســـف :

يوجد ضريح بالقبة فى الضفة الغربيـــة لواد النكور قرب قريـــة أمنود وجنوب مدينة النكور التاريخية بعيد عنها بثلاث كيلومترات فقط .

ويقال عن لسان أهل البلد أنه شريف بقالى وان أولاده هم مـــن الفخذة المعروفة بأولاد الطالب عمر من قرية امنوذ ولا زالوا الى الآن ثمه.

كما يوجد ضريح لشريف بقالى ازاء مدينة بوسكور الاثرية بشواطىء بقيوة التى كانت من القرى الساحلية التى كان لها شأن أيام مدينة بادس ويدعى صاحب الضريح سيدى يعقوب وقد خلف ولدا يدعى الحاج داود له ضريح بازاء أبيه يفرق بينهما سيل الماء وقد عقب ولدا يدعى ياسين الا أننا الى الآن لم نعثر على حياة هؤلاء الشرفاء بدقة الا ما سمعناه من أفواه الناس .

أما فى غمارة وقبائل جبالة ومدينة تطوان وطنجة، فان البقاليين فيها قد انتشروا انتشارا كبيرا على الشكل التالى :

سيدى علال الحاج :

هو مدفون بزاوية فيفى من قبيلة غزاوة كان حيا أواخر القرن العاشر وقد خلف ولدا يدعى سيدى محمد الحاج الكبير وهو مدفون بفاس مات مقتولا، قتله محمد الشيخ السعدى عام 1017 هـ.

سيدى عبد الله الحاج :

هو من أحفاد سيدى محمد الحاج الكبير أبوه يدعى عيسى وهو المدفون فى تطوان المعروف مسجده بمسجد سيدى عبد الله الحاج مقصود للصلاة فيه بكثرة لموقعه من ساحة مولاى الحسن المعروفة بالفدان وقد توفى عام 1207 هـ.

سيدى محمد الحاج الصغير : وهو مدفون بطنجة معروف ضريحه هناك باسم سيدى بوعرقية، ولم يخلف الا بنتا تدعى السيدة رقية دفينة معه فى ضريحه .

سيدى محمد الغزوانى :

وهو أخو سيدى محمد الحاج الصغير وهو جد الغزوانيين، وقد خلف هذا الشريف كثيرا من الاولاد افترقوا فى قبائل الفحص وغمارة وجبالة حسبما سنذكر .

سبب تسميتهم بالبقاليين :

وقد عثرت على تقييدة عند الشريف سيدى احمد الغزوانى المتوفى بتطوان فى 10 ربيع الاول عام 1384 هـ. موافق 19 غشت 1964 ودفن هناك.

وتحتوى هذه التقييدة على سبب تسمية جده يخلف بالبقـــال، وذلك أن جدهم يخلف المذكور كان سكن فى قرية عين بقالة ببنى مزكلدة، وكانت قرية عامرة، ويظهر من كونه كان يسكن بهذه القرية أنه نسب اليها حسب النسبـــة المتعارفة، وهذا هو المتبـــادر وان كانت التقييدة ذكـــرت أسلوبا آخر فحواه، كرامة وقعت له هناك، وهى قصة ربما كانت خيالية لما كان جبل عليـــه الناس فى ذلك الوقـــت من الاعتماد على مثل هـــذه الحكايات، وبناء على هذه التقييدة فان التسمية بالبقاليين كانت تبتدىء من جدهم سيدى يخلف، أما الذى أتى من الساقيـــة الحمراء فلم يكـــن يعـــرف بذلـــك .

سيدى يخلف : وسيدى يخلف هذا مدفون بمنزلة الوسطى مـــن بنى مدارس من بلاد لمطاوة .

وقد انتشر أولاده فى جهات المغرب ومنهم من قصد غمارة وقبائل الجبالة كبنى حسان وبنى سعيـــد .

سيدى عيسى الحـــاج :

هو دفين بنى صابر بقبيلة بنى حسان، وقد كانت هناك زاوية تدعى الآن زاوية بنى صابر، توفى فى أواسط شعبان عام 1036 وقـــد خلف من الاولاد ثلاثـــة :

محمد : وهـــو دفين ترغـــة على ساحل البحر، وهو جد الشرفـــاء الساكنين بازغار أولاد البقال بقبيلة بنى زيـــات الغمارية، ومن ذريتـــه سيدى احمد الغزوانى الآنف الذكر ومنهم بنو هليل وبنوا سميح واوشثام.

محمد الحاج : وهو دفين انغورى بجماعة اشروطة بالطاء المهمة من قبيلة بنى حسان، وهو جد الشرفاء البقاليين الساكنين بأشروضة بالضاد وبتاسفت من قبيلة بنى سعيـــد واد لو .

سيدى يحيى الحاج : وهو دفين زاويـــة محراثا من قبيلـــة بنى حسان، وهو جد الشرفاء الساكنين بتلك الزاوية وبمدشر اشروضة بالضـــاد واغنورى من قبيلة سعيـــد .

نسب البقاليـــين: حسبما فى وثائق شرعية واحكام عليها من جمع من القضاة الذين يعتد بفتياهم والموجودة تلك الاحكام والوثائق بيد ورثة

سيدى احمد الغزوانى المشار اليه، فان النسب المذكور على السلسة الآتية ابتداء من سيدى يخلف البقال وهو سيدى يخلف بن محمد بن سليمان بن حمزة بن مولانا ادريس، السلسة قصيرة ويحتمل أن يكون هناك أشخاص آخـــرون .

الـــوثـــائق : وثيقة شجرة شرفهم مكتوبة على رق كبير تضمنت نسبتهم الهاشمية مذكور فيها عمود نسبهم على حسبما هو مسطر أعـــلاه تاريخها عام 896 هـ. وهى مسجلة على الفقيه الاجل القاضى العدل سيدى احمد بن يحيى الاغصاوى .

ثم ثلاثة أحكام تنص على صحة وثيقة الشجرة المذكـــورة، ثـــم وثيقة أخرى للشجرة نفسها وبنفس التاريخ ولكن ليست على رق وقـــد صححها علماء اجلاء منهم الفقيه العلامة سيدى أبو القاسم ابن على بـــن خجو الخليفى الحسانى، والفقيه العلامة سيدى محمـــد بن الحســـن بن عرضون والفقيه الاجل أبو محمد عبد الله الهبطى، والشيخ الزاهد الورع سيدى يوسف التليـــدى .

وكل هذه الحجج منسوخة من رسم واحد مسلسل مسجلـــة على قاضى تطوان بتاريخ 18 محرم عام 1370 موافـــق متم اكتوبـــر 1950، وبعده اعمال وزير العدل فى ذلك التاريخ العلامة النزيه الصالح المطـــح سيدى محمد أفيلال رحمه الله .

ومنهم أولاد الشريف سيدى سليمان بن سالم السويقى :

يعرف هؤلاء الشرفاء فى تمسامان بأولاد سليمان، وكانوا يعرفون قديما بأولاد أبى الليث، ولم نعثر عن هذه الكنية هل هى لجدهم سليمان، أم لجد آخر، ويعرفون أيضا بالسويقيين، وذلك ان جدهم سليمان كـــان محتسبا فى السوق فسمى السويقى .

وهم سليمان بن سالم بن ابراهيم بن عبد الحليم من ذرية مولانا ادريس رضى الله عنه وقد تفرعت عن جدهم سليمان هذا فروع منهم :

المعروفون بأولاد سليمان كما أشرنا وهم فى فرقة بنى بويدر، ومن

هذا الفرع انتقل الشرفاء السويقيون الى بنى ورياغل، وهم نازلون قرب جبل حمام، الذى كان يقال له جبل العمـــال .

وانتقلت جماعة من هؤلاء الآخرين ونزلوا بوطاء بنى ورياغل قرب أمزون قرب المطار هناك، ويعرفون بالسويقيين وكان رجل منهم عمر كثيرا يدعى الحاج عمر السويقى وخلف عددا كبيرا من الاولاد وعاش عيشـــة رجل شريف ذى سمعة طيبـــة .

وانتقل فرع من أولاد سليمان ونزلوا بالاخمـــاس احدى قبائـــل جبالة ويدعون ثمه الى الآن بأولاد شركوك وهم ساكنون بقرية زرهون بباب تازة، وكان منهم شيخ الشرفاء فى وقت السلطان مولاى الحسن الاول ويدعى السيد الهاشمى، ومنهم السيد محمد بوغابة كان خليفة على مدينة شفشاون لعامل السلطان مولاى الحسن الاول على تطوان ونواحيها السيد عشعاش الريفـــى .

وقد حكى لى الحاج محمد شركوك أن بيدهم ظهائر ولوائح النسب وان آخر ظهير لهم هو لمولاى الحسن الاول .

ومنهم عائلة أخرى بقرية معكاشة بازاء بـــاب تـــازة .

ومنهم عائلة بقبيلـــة بنى سلمان بغمـــارة فى الموضـــع المدعو اقـــدرانـــن .

ومنهم عائلة بقبيلة بنى رزين بالموضع المدعو تمركت وأخـــرى بقبيلة بنى زجل بالموضع المدعو بالقلعـــة.

ومن رجـــال قبيلـــة قلعيـــة :

سيـــدى ورياش بن عيسى بن عبد الرحمان :

وهو الشيخ الفاضل الولى الصالح قطب وقته الشريف الحسنـــى أنودغيرى أصلا، دفين قبيلة قلعية على الباب الغربى لمدينة مليلية، وقـــد خلف هناك زاوية عامرة الى الآن، وذرية صالحة احتفظت بنسبها الشريف ووقارها الدينى، واقتفت سنن أجدادها من التشبـــت بالاخلاق الفاضلـــة ومنهم صديقنا العلامة القاضى المبجل سيدى العربى الورياشى .

كنت كتبت اليه كتابا رجوته أن يفيدنى عن سيدى ورياش جـــده

ونسبه فأفادنى فى الموضوع بما يعهد فيه من الاطلاع وحسن الـدرس، وحرصا منى على الامانة رأيت أن أثبت كتابه برمته لما له من الفـائدة التاريخية المتوخاة من استفسارنا اياه .

على أن رسالته هذه ستصبح وثيقة تاريخية فى ميدانها، فضلا عن انها ذيل أصلها بموافقة جمع من رجال القضاء والعلم .

على أن السؤال الذى كان يطرح نفسـه فى الموضوع عن سلسلـة الرجال، هل سقط منهم أحد قد أجاب عنـه بنفسه، وجوابه فى محلـه، وبالخصوص فان الذى يعنينا من هذا البحث هو ذكر الرجـال ونسبهـم والحياة العامة التى توجد عليها هذه الجهة التى نؤرخ لهـا .

وهذا نص جوابـه برمتـه :

الحمـد للـه وحـده

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلـم .

حضرة صاحب الفضيلة الفقيه العلامـة المؤرخ النسابة الاديـب الذى أخذ من كـل فن أوفر نصيب القائـد الممتاز لدائرة تطـوان، أبى العباس مولاى احمد بن عبد السلام البوعياشى .

لا زالت كواكب سعدكم دائمة الشروق، وسلام عليه وعلى جميع أسرتكم المحترمة ورحمة الله وبركاته عن خير مولانا الامام نصره الله.

وبعد أيها السيد ، قد وصلنى رسالتكم المؤرخة بأول دجنبر 1965. والتى مضمنها أن الاقدار الالهية شاءت أن تتنازلوا وتجعلوا محبكم أهـلا لافادتكم بما عسى أن يكون لديه من المعلومات التى تثبت نسب من ينتمى الى الورياشيين القاطنين بجبل قلعية الى جدهم سيدى ورياش بن عيسى بن عبد الرحمان الودغيرى الفجيجى، حيث أنـه ممن ينتسب اليه ولـم تكلفـوا محبكم بأكثـر من بيـان اسـم كـل عائلة منهم، ومستقرهـا ويكون ذلك مصحوبا بالوثائق التى يعتمد عليها الخ ...

أفيدكم يا مولاى اننى لست أهلا لما طلبتم منا لان اثبات النسب ورفع عموده الى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم فى زماننا هذا الذى جاء بعد عصر النبوة بألف ونحو أربعمائة عام صعب جدا، ولئن حاولت شيئا من ذلك فسار تقى فيه مرتقا صعبا، بيد أنـى لا أدع حسن ظنكـم

فينا يذهب دون فائدة، سيما وقد سبق لى أن قمت قبل هذا التاريخ بأعوام عديدة بجمع تقييد فى هذا الموضوع سيمته «الاحياء والانعاش بذكر أسماء من استوطن قلعية وشفشاون قديما وحديثا من أبناء سيدى وريـاش» فرغت من جمعه فى ثامن وعشرى شوال عام 1370، وبعد ما أطلع عليه قاضى مقاطعة كرت اذ ذاك السيد عبد الرحمن التوزينى وقاضى بنى سعيد سابقا السيد شعيب الادريسى، وقاضى بنى سيدال سابقا السيد حمو بن عمر الورياغلى، وقاضى مزوجة والناضور سابقا المرحوم العلامة سيدى محمد ابريغش، وقاضى بنى بويفرور سابقا سيدى الحاج عمر بن عيسى وقاضى فكيك حاليا العلامة السيد المصطفى بن عبد القادر الفجيجى، وقاضى بنى شيكر سابقا الشريف مولاى المصطفى الحنفى، والفقيه العدل السيد عبد الله بن عمر، والفقيه العلامة المدرس الانجب السيد عبد الله الصقلى، ومراجعتهم له ولمصادره حرفا حرفا وضعوا عليه توقيعاتهم بالموافقة وذلك فى ثامن حجة 1370 .

ولا بأس أن أذكر لكم فى هذه الرسالة ما عثرت عليه من الادلة المثيتة فى ظنى للنسب الورياشى والمراجع التى نقلت منها ذلك، ثم بعد ذلك لسيادتكم النظر فى قبولها أو ردها لانكم من أهل النقد والاجتهاد وما صممتم العزم على جمع تأليف فى أنساب الاشراف، الا لتوفركم على مراجع كافية فى الموضوع، ولستم ممن يسارع للهيجاء بدون سلاح، كما هو معهود فيكم، نرجو من المولى جلت قدرته أن يوفقكم لما فيه رضاه ويسدد خطاكم ويلهمكم الرشد والصواب آمين .

فمن تلك المراجع وهى أهمها لانه مؤلف فى خصوص الاشراف الوداغيرين الذين منهم الورياشيون كتاب «الدر النثير فيمن اشتهر وصح نسبه من الاشراف الودغيرين (1) تأليف العلامة النسابة سيدى محمد بن الحسن المخلوفى الودغيرى، والكتاب المذكور من المخطوطات النادرة، فرغ مؤلفه من تأليفه فى خامس رجب عام 1264 قال: «صاحب دليل مؤرخ المغرب فى صحيفة 112 عند تعرضه للكلام على كتاب الدر النثير ان المخلوفى كان حيا عام 1290. قلت: عثرت على نسخة من هذا الكتاب فى خزانة

(1) الكتاب بعنوان «النثير فى شرفاء الوداغير» .

نقيب الاشراف الادارسة العلامة الشريف مولانا محمد بن مولانا الطيب انبدراوي، ذكر فيه المخلوفى أن مولانا عبد الرحمان الودغيرى هو أول من فر الى فجيج من موسى بن أبى العافية، وخلف فيها سبعة من الابناء وهم 1 ــ عيسى 2 ــ منصور 3 ــ احمد 4 ــ محمد 5 ــ عبدالرحيم 6 ــ كثير 7 ــ عبد الله .

ثم ذكر لعيسى بن عبد الرحمان ثلاثة من الابناء: ورياش وعبد الله وامامة أبناء عيسى ثم تكلم على من انتقل من الاشراف الودغيريين من فجيج الى غيرها من الاقطار، فقال فى صحيفة 21 ما نصه: وسيد ورياش بن عيسى نزل ساحل البحر من ناحية قلعية هـ. منه حرفيا، ومنها «كتاب الدرر البهية والجواهر النبوية» لامام النسابين وقدوة المؤرخين العلامة الشريف أبى العلاء مولانا ادريس (1) بن مولانا احمد العلوى رحمه الله تعالى، قال رحمه الله فى الجزء الثانى من درره صحيفة 124 ما نصه: وأول من استقر منهم بفجيج هو الولى الاشهر والعارف الاكبر أبو زيد السيد عبد الرحمان بن على الملقب بيعلى دفين طالعة فاس بن اسحاق الملقب بعبد العلى دفين مصمودة عدوة فاس الاندلس بن احمد دفين جرواوة من عدوة الاندلس بن الامام محمد بن الامام ادريس بن مولانا ادريس، وكان سكنى السيد عبد الرحمان هذا قبل الانتقال من مدينة فاس حومة الكغاطين داخل باب الفتوح، ثم قال: وبعد وفاته خلف سبعة أولاد وكلهم أمجاد انجاد وهم: السيد عيسى والسيد منصور والسيد احمد والسيد محمد والسيد عبد الرحيم والسيد كثير والسيد عبد الله، أما السيد عيسى فانتشر أولاده فى الاقطار انتشار شمس النهار، فنزل أولاد ورياش بن عيسى ساحل البحر من قبيلة قلعية هـ، الغرض منه، قلت :

وفى عمود هذا النسب الورياشى ورياش ثانى ذكره صاحب «زهرة الاخبار فى التعريف بانساب آل بيت النبى المختار» (2) المطبوع أخيرا للعلاة

---

(1) ويعرف بالفضيلى توفى عام 1316 (1898 م) والكتاب بطبعة الحجر بفاس فى سفرين سنة 1314 هـ.

(2) فى موضوع نسب الشرفاء بالمغرب عامة طبع بالمطبعة الجديدة بفاس سنة 1349 .

المؤرخ سيدى احمد بن محمد بن عبد الله المقـرى التلمسانى قال رحمـه الله فى صحيفة 130 ما نصه: وأولاد وريلش الولى الصالح بالساحل فجدهم الشيخ سيدى وريلش بن عيسى بن يخلف بن عثمان بن ايعيش بن ابراهيم بن وريلش بن عيسى بن سيدى عبد الرحمان الودغيرى هـ، وقال العلامـه سيدى عبد الله بن محمد (1) بن على الملقب حثلاف فى صحيفة 62 من كتاب «سلسلة الاصول فى شجرة ابناء الرسول» ما نصه: ومن الودغيريـين أولاد وريلش بن عيسى على ساحل البحر من قبيلة قلعية هـ، وفى تقييد مشهور بارض الريف متداول عند جماعة من الناس فيه بتر وتحريف كثير صـدر من النساخ قد تعرض لذكر جماعة من الاشراف الادارسة القاطنين بأرض الريف، جاء فيه فى حق سيدى وريلش ما نصه: ومن الشرفاء الولى الصالح سيدى وريلش المليلى المدفون قبالة امليلية بأرض القلوع، يريد قلعية بحوز جبل اورك على ساحل البحر وهو رحمه الله ترك يزيـد ويوسف ومحمـد فتحا، فأما يزيد فذريته من ناحية انكاد ويوسف ترك على وهو جد أهـل تميمونت ومحمد المدفون بثغر اجنادة، ترك وريلش وبلقاسم واحمد فاما وريلش الصغير فلم يترك ذرية وبلقاسم هو جد أولاد حم بن يحيى، وهم أهل عين اسعود واحمد هو جد أولاد عبد الله به حد وه، الغرض منه.

قلت: وجاء فى تقييد مفيد بخط يد جدنا الفقيه العلامة قاضى ثغر قلعية فى زمانه الشريف سيدى الحاج محمد بن علال بن عبد الله بن احمد الوريلشى ما نصه: خلف سيدى وريلش بن عيسى وراءه يوسف بن وريلش، ثم خلف يوسف وراءه أيضا على، ثم خلف سيـدى على عبد الرحيم ثـم خلف عبد الرحيم محمد فتحا، ثم خلف محمد وراءه عبد الله، ثم خلـف عبد الله وراءه احمد، ثم توفى احمد عفى الله عنا وعنه وخلف عمر وعبد اللـه والعـربى والمختـار الموجـودين الآن هـ منـه، ولـم يذكـر سيدنا الجد رحمه الله من أولاد سيـدى وريلش الا جده سيدى يوسـف اقتصارا منه على العمود الذى يتصل به لوريـاش .

وأما أبناء السيد احمد بن عبد الله بن محمد الاربعة الذين أشار اليهم جدنا رحمه الله، ففى بينة عدلية خاطب عليها قاضى وقته العـلامة

---

(1) اسمه محمد كنيته أبو عبد الله كان قاضيا بالجزائر .

سيدى عبد السلام بن محمادى الشريف القضاوى مضمنها: ان السيد عبد الله بن احمد خلف ابنيه محمد وعلال وان أخاه السيد العربى خلف ابنه أحمد بن العربى، وان أخاهما المختار خلف ابنه محمد بن المختار بن احمد تاريخ هذه البينة العدلية عاشر ربيع الاول أربع وسبعين ومائتين وألف، مذيلـــه بأشكال العدلين الشاهدين والقاضى المذكور، ولم تذكر هذه البينة لسيدى عمـــر بن احمد ذريـــة .

قلت: وسيدى علال بن عبد الله بن أحمد هو جد والدى رحمه الله، وجميع المراجع والوثائق التى قدمنا ذكرها قد وقف عليها أولئك السادات من القضاة وغيرهم من العلماء الذين ذكرنا أسماءهم فى اثناء هذه الرسالة، ولم يوافقوا عليها حتى بحثوها بحثا دقيقا، وقابلوا الفرع بالاصل مقابلة تامة، كما اطلعوا على الظهير الوحيد الذى بقى بيدنا ونجا من يد الاسبانيين الذين احتالوا على جميع ظهائر الملوك التى بيد الاشراف فى أول الاحتلال، فأخذوها من يد أصحابها لغرض ما، وكانت آخر العهد بها، وهذا الظهـــير الذى بقى بيدنا هو لسلطان المغرب مولانا عبد العزيز بن مولانا الحســـن رحمهما الله. نصـــه :

بسم الله الرحمان الرحيـــم

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

(الطـــابـــع الكـــبـــير)

يعلم من شريف كتابنا هذا أعز الله أمـــره وخلد فى الصالحـــات ذكره أننا ألبسنا بحول الله وقوته وشامل يمنه ومنته حملته المتمسكـــين بالله ثم به الشرفاء أولاد وريـــاش القاطنين بجبل قلعية رداء التوقـــير والاحترام والذكر الجميل المستدام بحيث لا تخرق عليهم عادة ولا يحدث فى أمرهم نقص ولا زيادة فنأمر الواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنـــا أن يعمل بمقتضاه ولا يحيد عن كريم مذهبه ولا يتعداه والسلام. صدر أمرنا الشريف المعتز بالله فى خامس محرم الحرام عام أحد وعشرين وثلاثمائـــة وألف هـ. نص الظهير بالحـــرف .

قلت ويستنتج من جميع ما تقدمت الاشارة اليه أن عمود نســـب محبكم وصديقكم هو ما يلى:

العربى بن محمد بن محمد بن عــلال بن عبد الله بن احمــد بن عبد الله بن محمد فتحا ابن عبد الرحيم بن على بن يوســف بن وريأش ابن عيسى بن يخلف بن عثمان بــن ايعيش بن ابراهيم بــن وريأش بــن عيسى بن عبد الرحمان بن على بن اسحاق بن احمد بن محمد بن ادريس ابن ادريس بن عبد الله بن الحسن (1) بن الحسن (2) بن على وفاطمــة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذا كل ما عثرت عليه من هذا النسب بعد البحث الشديد عنه نحو العشرين عاما فى كل مكان وصلت اليه ولا زلــت أبحث وأسأل المطلعــين أمثالكم عن الحقيقة التامة التى ركن القلب اليها، ولعلنــا نجد ان شــاء الله ضالتنا المنشودة عند سيادتكم .

هذا ولسيدى وريأش رحمه الله حرمة عظيمة عند قبائل قلعيــة وغيرها من قديم الزمان، يقصد الاهالى زيارة تربته وتربة الشهداء المدفونين حوله لان حول ضريحه كانت تدور المعارك الطاحنة بين الدولة الاسبــانية التى احتلت مدينة مليلية سنة 1497 ميلادية وبين جميــع قبائل الريــف من اكتامة الى قلعية وقد حاصرها المولى اسماعيل نحو العشرين سنة، وهذا الضريح يقع على أبواب مليلية، وكان كلما استشهد احد من المجــاهدين حمل ودفن فى التربة المذكورة لذلك على المقابر القديمة منها مهابة وجلالة، حكى لى الشريف المسمى السيد احمد بن محمــادى الورياشى، مقــدم الضريح أن الشيخ شعيب الدكالى العالم المغربى الشهير رحمه الله كــان فى كل مناسبة يزور ضريح سيدى وريأش والاضرحة القديمة المحيطة به، قال كان اذا وصل فى سيره الى المقابر نزع قدميه من نعليه ومشى فى وسط المقابر حافيا، اجلالا لصاحب الضريح والشهداء المدفونين حوله .

وأشار العلامة الناصرى الســلاوى الى شىء من هذا فى الجــزء التاسع من كتابه الاستقصا ــ الطبعة الجديدة ــ صحيفة 205 ونصه: وصار الحد المشترك بين الاسبانيين وأهالى قلعية قريبا من تربة ولى الله سيدى وريأش، وهو عند أهل تلك البلاد عظيم القدر شهير الذكر ينتابونه للزيارة ويتبركون به ويدفنون عنده موتاهم الخ ه، الغرض منه .

---

(1) المثنــى (2) السبــط .

قلت: ولنا كلام طويل الذيل فى تقييدنا الذى سميناه «الكشف والبيان عن سيرة الشريف الغازى سيدى محمد أمزيان» وأخبار مقاومته هو واخوانه الريفيون لابى حمارة ثم الاسبان فى هذا الموضوع. وقد قيل فى سيدى ورياش أكثر من هذا ولا حاجة لذكر ذلك .

قلت ها هنا مسألة وهى أن عمود هذا النسب لا يتجاوز أفراده المذكورون أحدا وثلاثين بالنبى صلى الله عليه وسلم، وحينئذ لابد أن يكون فى عمود هذا النسب نقص بعض الافراد، الجواب انى لا أبرىء عمود هذا النسب من ذلك، لان الحقيقة فى مثل ذلك اليوم فى منتهى الصعوبة، وللعلماء فى ذلك مقالات مشهورة منها أن الامام الاجتماعى المؤرخ العظيم عبد الرحمان بن خلدون، قال فى الجزء الثامن من تاريخه، انه لا بد لكل مائة سنة من ثلاثة أفراد، الابن والاب والجد، غير أن العلامة سيدى احمد بن عبد القادر القادرى له تقييد فى الموضوع موجود فى الخزانة العامة بعاصمة الرباط تحت رقم 1632، جاء فى صحيفة 7 منه ما نصه: وأما ما نقل عن ابن خلدون من أن لكل مائة سنة ثلاثة أفراد، فليست بقاعدة مطردة اذ قد يوجد أكثر من ذلك وقد يوجد أقل ه منه، وقال الشيخ الاجتماعى الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده المصرى رحمه الله فى كتابه «الاسلام والنصرانية» صحيفة 172 ما نصه: أن ما بيننا وبين مبدأ الاسلام لا يزيد عن عمر ستة وعشرين رجلا، كل رجل يعيش خمسين سنة ه منه وقد توفى رحمه الله فى حادى عشر يليز سنة خمس وتسعمائة والف ميلادية (1905) .

تنبيه: ان صاحب الدرر البهية قال ان النازل بساحل البحر من قبيلة قلعية هم أولاد سيدى ورياش، وذكر صاحب النثير ان النازل هو سيدى ورياش نفسه ولا مخالفة لان من عبر بأولاده فمراده وورياش الاول، لان هذا لم ينزل بالساحل المذكور وانما نزل أولاده وورياش الثانى هو من أحفاده ومن اسند النزول لورياش فمراده الثانى وهو المدفون فى الضريح المشهور به .

وبعد الاشارة الى جملة من المعلومات المسؤول عنها التى لها علاقة بالموضوع نذكر الآن فرق الورياشيين ومقر كل فرقة من فرقهم فنقول :

الفرقة الاولى: أولاد محمد بن عبد الله بن احمد بن عبد الله بن محمد فتحا بن عبد الرحيم بن على بن يوسف بن ورياش بن عيسى بن يخلف بن ايعيش بن ابراهيم بن ورياش بن عيسى بن عبد الرحمان الودغيرى الى آخر النسب المتقدم، وهذه الفرقة بعضهم فى فرخانة من قبيلة مزوجة وبعضهم فى قرية اثلاث بقبيلة بنى سيدال وبعضهم بفرقة اجزولة بقبيلة بويفرور .

الفرقة الثانية: هم فرقتنا معشر أولاد سيدى علال بن عبد الله بن احمد بن عبد الله بن محمد فتحا بن عبد الرحيم بن على بن يوسف بن ورياش بن عيسى بن يخلف بن عثمان بن ايعيش بن ابراهيم بن ورياش ابن عيسى بن عبد الرحمان الخ... بعض الافراد من هذه الفرقة يسكن بفرخانة وبعضهم بمدشر احواضا بفرقة اجزولة من قبيلة بنى بويفرور، ومنزلنا بها يسمى لصرف .

الفرقة الثالثة: أولاد سيدى العربى بن احمد بن عبد الله بن محمد فتحا بن الرحيم ابن على بن يوسف بن ورياش الخ. أفراد هذه الفرقة قليلون يسكن بعضهم فى منزل اشخيا من فرقة ركانة بقبيلة بنى بويفرور.

الفرقة الرابعة: أولاد سيدى المختار بن احمد بن عبد الله بن محمد ابن عبد الرحيم بن على بن يوسف بن ورياش الخ... مقر سكنى هذه الفرقة فرخانة بقبيلة مزوجة .

الفرقة الخامسة: هم أولاد الفقيه السيد احمد ورياش القاطنون بمدينة شفشاون انتقل جدهم سيدى احمد المذكور الى شفشاون أوائل القرن الثالث عشر، ونسب جدهم المذكور هكذا: هو الفقيه المرحوم السيد احمد بن محمد فتحا بن يوسف بن محمد بن على بن يوسف بن ورياش ابن عيسى الخ...

الفرقة السادسة: أولاد سيدى محمد فتحا بن ورياش المدفون بفرخانة ويعرفون بأولاد حم بن يحيى أولاد سيدى محمد العساوى هم أهل عين اسعود بها يعرفون ويعرف منزلهم الآن بمنزل المرابطين مقرهم فى جبل بنى شكير، فجدهم حم بن يحيى بن بلقاسم بن محمد فتحا بن وريـاش الخ ...

الفرقة السابعة: أولاد عبد الله بن حدو مقر سكنى بعضهم بعين اسعود بجبل بنى شيكار وبعضهم بمدشر الحيانا من قبيلة بنى سيـــدال وبعضهم بجبل ثميمونت بجبل بنى سيـــدال، فجدهم سيدى عبد الله بـــن حدو بن احمد بن محمد بن وریاش بن عيسى بن يخلف الخ ..

وبعد ما أطلع سيدنا الفقيه العلامة الجليل الشريف الادريسى الاصيل مولانا محمد بن مولانا الطيب الودغـــيرى ثم البدراوى نقيـــب الاشراف الادارسة فى عموم المغرب على تقييدنا «الاحياء والانعاش بذكر أسماء من استوطن قلعية وشفشاون قديما وحديثا من أبناء سيدى وریاش» وسرد عليه وأطلع على مصادره وعلى غيرها من كتب النسابين الموجـــودة بخزانته التى تعرضت للكلام على جدنا الشيخ سيدى وریاش رحمه الله صرح السيد النقيب بثبوت هذا النسب وصار يخاطبنى ايده الله بابن العم، وعادته أن اعترافه بثبوت النسبة النبوية لمن يطلب ذلك منه صعبة المنـــال ولا يعترف بذلك لاحد الا بعد التثبت التام، وزاد بان شرفنى حفظه الله بقرار أمر كاتبه وصهره الفقيه العلامة الاديب البارع الاستـــاذ المـــدرس بفاس سيدى محمد الازرق فكتبه، ونصه حرفيـــا :

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

ليعلم الواقف عليه أن حامله الشريف الاصيل العلامة الجليـــل العضو بمجلس الاستئناف الشرعى بمحكمة الناضور سيدى العربى بـــن محمد الودغيرى الورياشى، جعلته بوجود سيدنا أيده الله مقدمـــا على عمه الورياشيين باقليم الناضور ونائبا عنى فى التعريف بهم فى الحالـــة المدنية وغيرها وان اشكل عليه أمر كاتبنى فيه وعليه بتقوى الله فى السر والعلانية والسلام. وفى سادس عشر من جمـــادى الثانية عام خمســـة وثمانين وثلاثمائة وألف، الموافق ثانى عشر اكتوبر سنة خمس وستـــين وتسعمائة والف محمد بن الطيب البـــدراوى، وختمه بخاتمـــه الخاص، بداخله نقيب الاشراف محمد ابن الطيب البدراوى .

وفى الختام أقول لسيادتكم هذا ما أمكن لى الآن جمعه فى هذا الجواب لضيق الوقت وكثرة الاشغال، وحررته فى 10 شعبان 1385 موافق 9 دجنبر سنة 1965 .

من رجال بنى يطفت :

أبو الربيع سليمان الجعونى :

هو أبو الربيع سليمان بن أبى بكور الجعونى .

كان فقيها فاضلا قاضيا عدلا نزيها موفقا فى أحكامه، وليا صالحا، وهو من قبيلة بنى يطفت وابن عم الشيخ ابى زكرياء يحيى بن أبى بكور الجعونى هكذا أورده فى المقصد الشريف وعليه فليس ابن عم له وانما هو أخ له لان كليهما ابن الحاج أبى بكور والله أعلم.

تحريه للعدل: حكى الشيخ أبو محمد عبد الحق البادسى مؤلف المقصد الشريف المتوفى أوائل القرن الثامن الهجرى أنه قال حدثنى يوما بمجلسه (1) فى مسجده بالبادية (بادية بنى يطفت)، قال كنت نائما فى هذا الموضع فرأيت شخصا دخل على هذا المسجد، ودفع الى وثيقة مكتوبة فى رق، ففتحتها وقرأتها وفى آخرها شهادة شاهد من شهود بقيوة معروف بشهادة الزور، وقد مات الآن وما ينبغى ذكره، قال وعلى تلك الشهادة مكتوب شبه علامة القاضى فقرأته (يعنى مناما) فوجدته حبل جهنم أعنى المكتوب على الشهادة قال فأفقت وقد دخل على فى المسجد رجل بوثيقة بيده فأوقفنى عليها، فرأيت شهادة الشاهد المذكور فبحثت عن أصل المسألة فوجدتها باطلا والشهادة زور .

أشياخه: أخذ عن أخيه (أو ابن عمه) الفقيه العلامة شيخ الطريقة الشاذلية أبى زكرياء وأخذ عن الشيخ أبى محمد صالح الهسكورى شيخ زمانه علما وصلاحا ونزاهة وبآدابهما تأدب .

حياته : كان حيا فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى.

من رجال بنى يطفت أيضا :

الشيخ أبو زكرياء يحيى بن الحاج ابى بكور الجعونى اليطفتى:

هو العالم العلم العارف بالله شيخ الصوفية وامام الطريقة

---

(1) أى مجلس القضاء وذلك لان المسجد كان هو محل التقاضى عند الفقهاء لانه المحل الذى يمكن أن يصل اليه كل أحد .

الشاذلية فى وقته الفقيه النحرير الولى الصالح أبو زكرياء يحيى بن ابى بكور وفى بعض المخطوطات (أبى بكر) الجعونى هو من قبيلة بنى يطفت وله ضريح هناك كان فارس الميدان فى الجدال والحوار بالحجج الاقناعية، فقد حكى خديمه أبو محمد عبد الله بن البيدق انه ورد على الشيخ من سبتة رجل يدعى بابن العجوز، ومعه ولد صغير (وكان الوارد شيخا فى العلم) فلما صلينا العشاء الاخيرة قال (الشيخ يحيى الجعونى) أصعد أنت والصبى على السرير وناما (قال خديمه ابن البيدق) وقعد هو والشيخ الوارد، فقال الاخير للشيخ يحيى ما معنى قوله تعالى «لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا» فقال له أبو زكرياء، حتى تعلم معنى الفساد وحينئذ نتكلم فى المسألة، قال فما زال يذكر معنى الفساد وهو يبطل قوله الى الفجر فطلينا الصبح وذهب الشيخ الوارد الى بلده، فقلت له يا سيدى لقد أطلت مع الشيخ فى الفساد، فقال نعم لانه جاء معترضا لا مسترشدا .

خصاله ومناقبه: كان صادقا فى الاقتداء بهدى الشريعة معظما لها يدافع عنها بما أوتى من اللسان الفصيح والبرهان الصحيح، ومن صراحته أنه كان له ابن أخ قتل طالبا عربيا كان يسكن عنده فأمر الشيخ بقتل ابن أخيه قصاصا، وتردد قومه فقال لهم لا أسكن معكم بلدا حتى يقتل فقتل فعلا.

حياته: كان يسافر الى الاندلس لاجل الجهاد، فقد حكى عنه فى ترجمة أبى مروان الاندلسى قال كنا معه بالاندلس فى سفر فبتنا فى قرية من قرى البشرات. وكان حيا زمن الشيخ أبى محمد صالح الهسكورى الذى توفى اواسط االقرن السابع الهجرى فقد قال فى المقصد الشريف عند التعريف بابن عمه أبى الربيع سليمان الجعونى انه قرأ عليه وعلى الشيخ أبى محمد صالح. وعليه فان الشيخ أبا زكرياء كان حيا فى النصف الاول من القرن السابع الهجرى.

ومنهم عبد المجيد بن أبى القاسم البادسى:

أصله من قبيلة بنى يطفت من القرية التى يقال لها العرس عرف به فى سلوة الانفاس (2) وقال أصله من الريف من بنى يطفت توفى سنة

---

(2) ج – لث – ص– 107 .

ثلاث أو أربع وألف 1004 هجرية ودفن بفاس قرب الشيخ التاودى.

قال وله كرامات مـــع القاضى أبى محمد عبد الواحد بن احمد الحميـــوى .

ومـــن رجـــال بنى بوفـــرح :

أبو عبد الله سيـــدى محمد بن يحيى :

وهو الفقيه النبيه الصالح البركـــة النزيه أبو عبد الله سيـــدى محمد بن يحيـــى بن سعيد البوفرحى. كان عالما جليـــلا وشيخا صالحـــا عرف به صاحب سلوة الانفاس (1) كما ترجم له درة الحجال .

وفـــاتـــه: توفى رحمه الله بفاس فى تاريخ رمضان المعظم عام 886 ودفن بباب الفتـــوح .

ومنهم أبو الفارس عبد العزيـــز :

كان عالما جليلا يدعى عبد العزيز بن محمد البوفرحى .

ترجم له فى سلوة الانفاس (2) وقـــال كان فقيها صالحا امامـــا بالقرويين ولد سنة 805 وتوفى فى تاريخ 900 ودفن خارج باب الجيسة.

من رجـــال بنى كميـــل :

أبو عبد الله محمد بـــن الدانوســـى :

من تلامـــذة السيخ أبى داود من قبيلـــة بطيوة غاب عن بلـــده بطيوة سائحا فى جبال صنهاجة بحوز بادس، ودخل جبـــل بنى جميـــل، وهناك توفى ولم يكن يعلم أحد من سكان بنى جميل بحاله ولا بموتـــه حتى عرف به بعض الصالحين ثمه الذى أطلع على مصرعـــه .

(هكذا أورده صاحب المقصد الشريف ولعله كان مصرعه فى حرب ولكن لا يعرف مع من كان الحرب هل مع الثائر أبى العباس الكميلى)، وهو مدفون بجبل بنى اجميل أطلع عليه جماعة من الصالحين هناك .

كان المترجم له صالحا، ومع ذلك فقد كان يستعمل لباس العامة

---

(1) ج ــ لث ــ ص ــ 87 .

(2) جـــالثالث ص 131 لمؤلفها محمد بن جعفر الكتانى سماها سلـــوة الانفاس ومحادثة الاكياس، بمن أقبر من العلماء والصيحاء بفاس.

تسترا فيه كى لا يشار اليه بالولاية والصلاح، ومن لباسه كساء صوف ارجوانى ويضع على رأسه جلموسا غليضا، ويتقلد بخنجر طويل ومن يلاقيه فى الخلاء يعتقد أنه لص أو محارب .

صلاحه: كان يصلى العشاء الاخيرة بوضوء الصبح، وكان يحيى الليل عبادة، حكى الحاج ابراهيم بن عيسى ابن أبى داود قال بات عنده ذات ليلة وكان به صداع فطلب منه حناء وضعه على رأسه، وبعد صلاة العشاء الاخيرة طلبته بأن يصعد على السرير لينام فامتنع، فصعدت أنا وبقى هو متوجها الى القبلة يتأوه تأوه الحزين حتى طلع الفجر، وصليت معه الصبح ولم أره جدد الوضوء .

حياته: وهذه القصة تلقى ضوء على تاريخ حياته فقد كان حيا قبل 650 الذى هو تاريخ وفاة الحاج ابراهيم حفيد أبى داود

من رجال مسطاسة :

أبو عثمان الحاج سعيد المسطاسى:

مسطاسة قبيلة بجبال صنهاجة غربى بادس وهى تجاور بنى اكميل لجهة الغرب على ساحل البحر.

وكان هذا الشيخ من صلحائها الافذاذ الذين طلقوا شهوات الدنيا، وعاش رحمه الله على أكل النباتات معرضا عن الطعام، وقد حدثت زينب بنت احمد بن الخضر الخزرجى الاندلسى المتقدمة الترجمة، وكانت هذه المرأة عجوز صدق وراوية للاخبار، وكان الشيخ المذكور صديق أبيها، قالت ذات ليلة كنا نائمين فى منزلنا ببادس فطرق الباب طارق فى جوف اليل، فخرج أبى ثم رجع وقال لامى قم فاصنع طعاما، فان هذا ولى فقالت لا أصنع له شيئا قالت ولم يكن عندنا غير شعير فأوقد الشيخ (أى أبوها) النار، وسخن الشعير وطحنه بيده وصنع منه طعاما، فلما وضعه بين يديه قال له يا فقيه أما علمت أن لى ثلاثين سنة لم أذق فيها طعاما عقدا عقدته على نفسى لا يمكننى حله.

حياته:كان متصوفا سائحا فى البرارى متجردا للعبادة، كان معاصرا للشيخ احمد بن الخضر الخزرجى الذى توفى عام 615 هـ. وعليه فانه كان حيا فى أواخر القرن الخامس .

من رجـــال مثيـــوة :

الشيخ أبو يعلى : الفتوح بن أبى بكر المثيوى المروانى:

كان شيخا ظاهر الغناء الا أنه صحيح الباطن صادق الاقوال معتدل الاحوال كثـــير الانبســـاط .

وهو من سكان المحل المعروف بازغت بقبيلة مثيوة، لا زال ضريحه موجودا يقصده الزائرون بشاطىء البحر .

مكاشفـــاتـــه : قيل أنه بات عنده مرة جمع من الناس مروا عليه فى ذهابهم للحج وهم من المصامدة، فكان فى طبع رئيسهم شراسة فأعلمه الشيخ أبو يعلى بذلك وقال له ان فى طبعك شراسة وقحة فاربأ بأصحابك، فكان ذلك مما سرى فى الحجاج كما كان فى هذا الجمع رجل أصحب معـــه مسكرا فى جراب له، فقال له الشيخ ارجع ولا تفعل ما جئت بسببه ففتش جراب الرجل فوجد فيه مسكـــرا .

حيـــاتـــه : كان حيا فى زمن ابى يعقوب البادسى الذى توفى عام 734 هجرية، وعليه فانه كان حيا أوائل القرن الثامن الهجرى .

ومن صلحـــاء الريف:

أبو عبد الله محمد الريفى:

هو السيد محمد بن عمر الريفى، عرف له سلوة الانفاس فحـــلاه بوصف الفقيه الاستاذ النبيه الصالح البركة النزيه أبى عبد الله سيـــدى محمد بن عمر الريفى، كان رحمه الله أول أمره من اللصوص، ثم تاب الله عليه فدخل مدينة شفشاون، وقرأ بها القرآن وجوده برواية السبع ثـــم انتقل الى جبل العلم (ببنى عروص الجبلية) وصار يقرىء بها الطلبة ثم ذهب الى فاس، فكان يقرىء الطلبة القرآن بمكتب جامع أبى ابيـــاض، وكانت له كرامات ومواضبة على التلاوة توفى بالطاعون سنـــة 1271 هـ. ودفن بهذا الضريح قريبا من سيدى محمد العايدى. ولا يعرف أية قبيلـــة ينتمى اليهـــا .

ومنهـــم أبـــو على عمـــر الطنجـــى :

من صلحاء الريف، كان لين الخلق ذا خلق حسن، ملازما للطاعـــة

ليل نهار، غازيا فى سبيل الله بالاندلس وهو الذى وقعت له قضية الكلاب البوليسية فى الاندلس، فقد حكى أبو العباس احمد الزهيلى عنه قال توجهت (المترجم له) الى الاندلس غازيا، فخرجت فى سرية فدهمنا جيش عظيم فأسر من السرية أكثرها، واستخفى بعضهم، وكنت من استخفى فى شظية غير ساترة كانت رجلى بارزة منها وما قدرت الا أنى مأسور قال فكانت خيل الروم تمر بى فلا يرانى أحد منهم، ووقف بالقرب منى جماعة ولهم كلاب ارسلوها للبحث، قال فلقد أتت تلك الكلاب حتى لحست قدماى، ثم انصرفت عنى فسترنى الله، وكنت أقرأ سورة يسن فلما جن الليل خرجت ومشيت فيسر الله على فى اللحوق ببلاد المسلمين .

حيـاتـه: ومن حكاية أبى العباس احمد الزهيلى يتبين أنه كان حيا أوائل القرن الثامن الهجرى، وانه كان من صلحاء بادس .

ومن رجـال الريـف أيضـا:

الشيـخ الحاج أبو العباس الغمـاز :

وهو احمد بن محمد بن عبد الله الغماز، وهو أخو الحاج الفقيه أبى يعقوب يوسف الغماز المتقدم الترجمة، كان صالحا فاضلا منقطعا عن الخلق لعبادة الله، مغتربا مجاورا فى مكة المكرمة والمدينة المنورة سنين عديدة، ثم رجع الى الريف ورجع الى الحجاز أيضا .

وهو أصغر سنا من أخيه أبى يعقوب .

وكان فى مكة يتعبد ويقتات من كديده باحترافه الخياطة، وقد بقى هناك أولا سنتين كما ذكر ثم رجع الى بادس فأقام بها الى أن توفى هناك رحمه الله .

وقد كان حيا زمن أبى محمد عبد الحق بن اسماعيل مؤلف المقصد الشريف الذى كان حيا بتاريخ 722 هـ. حكى عن عجوز ببرقة، قال كنا فى جمع من الحجاج، فأتينا الى بئر بها فلم نجد دلوا عليها، وكانت معنا عجوز صالحة فحاولت أن وصلت فى ركوتها خيوطا كانت عندها وادلت الركوة فى البئر، وأظن أنه قال فى ماجل، والماجل هو الجب، قال فلما همت برفع الركوة انقطع الخيط وبقيت الركوة فى الماجل قال فرفعت العجوز طرفها الى السماء وقالت اللهم رد على ركوتى، قال فأرسل الله السماء

بماء وابل جرت منه التلاع الى الماجل، فامتلاءت من حينه وصعدت الركوة على وجه الماجل، فأخذتها وأخذنا حاجتنا من الماء، وانصرفنا معترفين بفضل العجوز مع تعجبنا من صلاحها .

ومـــن الشرفـــاء أولاد داود :

وجدهم هذا ينتسب الى عيسى بن يوسف بن عبد الغفار من ذرية حمزة بن داود بن مولاى ادريس رضى الله عنه والله أعلم .

ونزلوا فى قبيلة قلعية، ولهم أخوة على فروع، منهم فرع فى القرية المدعو بتمايين بقبيلة بنى سعيد الريفية وكانوا يدعون ببنى تميت بفتح التاء والميم المشددة وسكون الياء والتاء وهى كلمة بتمزغت، ولذلك يجمع فيها ساكنان، ولهم أخوة نزحـــوا من هذا الفرع الاخير ونزلـــوا فى بنى بوعياش بقرية امنوذ، بفتح الهمزة وسكون النون وضم النون وسكـــون الدال ويدعون الى الآن اعبدونا أى أولاد عبـــدون .

ومن فروعهم الاصلية بنو بوستة النازولن بقبيلة بنى بوعيـــاش، من بنى ورياغل، وهم فى أسفـــل جبل حمـــام قرب قرية بنى بويخلـــف وينتسبون الى عيسى بن يوسف بن عبد الغفار المذكور .

وفى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى كـــان فيهم رئيسهم السيد الحاج امحند البوستاوى وكان مسموع الكلمة شجاعا واسع الثرى نسبيا الا انه كان غليظ الطبع ثقيل المزاح، يحكى أنه قصـــده ذات مرة شـــرفاء زاوية سيدى يوسف لاصلاح ذات البين مع الحـــاج محمد الربضـــاوى فى شأن قتل خطا وقع من بعض أولاد الاخير لاحد أولاد الاول، وحملوا اليه الدية والذبائح، ولكن الحاج امحند امتنع من قبول الوساطة بل أخذ الدية وفرقها على أعداء الحاج محمد الربضاوى للانتقام منه، ومن ذلك التاريخ لم تقـــم له ولذريته من بعده قائمـــة واندثرت سمعتـــه وتفـــرق أولاده شـــذر مـــذر .

ومن شرفـــاء قبيلـــة بنى سعيـــد :

المعروفون بأولاد ادريس الذين نزلوا أول ما نزلوا بجهة أمجاو على وادى كرط، وهم من ذرية عبد الحق بن عبد الرحمان بن السكناوى، وهم من فخذة مولاى عبد السلام بن مشيش وأخوة للشرفاء الغلبزوريين

الساكنين ببنى ورياغل، الذين من حفدة العالم الشهير أبو ابراهيم الاعرج المتقدم الترجمـــة .

ومن شرفاء القبيلة المذكورة أولاد سيدى عبد الجبار وهم كذلـــك أول ما نزلوا بنواحى امجاو بقبيلة بنى سعيد ولهم أخوة بالقصر الصغير بأحواز تطوان، وكان يعرف فى التاريخ بقصر مصمودة وجدهم جميعـــا يدعى سليمان بن على بن محمد بن عبد الله بن سيدى حمزة بن مولاى ادريس والله أعلـــم .

ومن شرفاء تلك القبيلة ايضا أولاد عبد القوى كانوا نزلـــوا أول ما نزلوا بالجهة الغربيـــة الموالية لقبيلة تمسامان، واسم جدهـــم على أبن احمد بن محمد من حفدة سيدى محمد بن مولاى ادريس والله أعلم.

ومن الشرفاء أيضا هناك أولاد بومدين نزلوا أول ما نزلوا ببنى سعيد على وادى كرط ويرجع نسبهم الى عيسى بن عمر بن سعيد مـــن ذرية يحيى بن مولانا ادريس والله أعلم، ومنهم أيضا الشرفاء أولاد الفقيه وهم كانوا نزلوا فى وادى الدفلة من القبيلة المذكورة وهم ذرية أبى زيد على بن زيد من ذرية عيسى بن مولاى ادريس رضى الله عنه والله أعلم.

ومـــن الصلـــحـــاء :

الشيخ أبو طاهـــر بن العـــلام:

هو من رجال الريف، ولكن لم نعثر هل هو من أهل بنى ورياغل أو فى تمسمان أو بقيـــوة .

وانما وجدنا انه كان يتردد على رباطة أبى داود التمسمانى، قال الحاج سليمان الورياغلى حسبما فى المقصد الشريف اجتمعنـــا يوما مـــع الشيخ أبى عبد الله اليستتنى (تقدم أنه من تمسامان) فى رباطة أبى داود (وهو من تمسامان) وأبو طاهر حاضر فقال له الشيخ أبو عبد الله ما بال خبز مالقة وتينها، فقال له أبو طاهر تتعرض على بذلك يا أبا عبد الله، ثم غاب يسيرا فأحضر بين أيدينا خبز مالقة وتينها .

ومن هذه العبارة يتضح أنه كان ساكنا قرب رباطة ابى داود التى هى على خمس فراسخ من المزمة التى فى بنى وريـــاغل .

ومن جهة ثانية فاننا نجد أن الشيخ الزكى الولى المرضى أبا زكرياء بن مخلوف اليفرانسى البقيوى يقول: جئت أنا وأخى من المنزل المعروف ببنى أبى عمر، فلما قربنا من منزل الشيخ أبى طاهر قلت لاخى وكان أسن منى مل بنا الى زيارة الشيخ أبى طاهر، فقال لى أخى لا أزوره فملت أنا وقلت لابد لى من زيارته، فلما رآى أخى عزمى وافقنى فبلغنا اليه فوجدناه فى المنزل يطعم أضيافا له، فلما ناديته قال لى ادخل فدخلت فوجدته قائما وبيده أناء فيه سمن وهو يصب السمن على الطعام .

كما حدث عنه الشيخ أبو عقيل وهو من قبيلة بنى توزين كما أسلفنا، وقال اعتدى يحيى بن الوزير الوطاسى على قوم فظلمهم فاستنصروا بأبى طاهر وطلبوا منه أن يمشى معهم اليه ليرفع ظلمه عنهم، فأجابهم، فتوجه اليه فلما كان فى بعض الطريق قال الشيخ أبو طاهر لأصحابه ارجعوا بنا، فان الرجل قد قتل، فقالوا له بماذا عرفت، فقال ما زلت من منذ خرجت من منزلى أراه أمامى، فلما كان فى هذا الوقت فقدته فرجعوا ثم وصل الخبر بموته .

وعليه فان المصادر التى رجعنا اليها لا تذكر شيئا عن مسقط رأسه، ولا اين مات، ولكن هو من طحاء الريف الاوسط، وكان رجلا صالحا كريما ذاكرا ساعيا فى الخيرات، قاضيا لحوائج المحتاجين، كما لا نعرف شيئا عن تاريخ حياته، الا ما يوخذ من اجتماعه برباطة ابى داود مع الشيخ ابى عبد الله اليستتنى وهو كان حيا تاريخ أواخر القرن السادس كما تقدم فيكون هذا الشيخ حيا فى ذلك التاريخ .

من رجال بنى وريا غل :

محمد بن أبى بكر :

وهو محمد بن أبى بكر الفقيه عبد الله خطيب المزمة، كان رجلا صالحا وعالما متصوف اوهو من رجال مدينة المزمة، كان يصاحب أبا طاهر بن العلام الشيخ البركة ويحكى عنه كرامات كثيرة.

حياته: كان حيا زمن أبى طاهر المذكور الذى كان حيا أواخر القرن السادس الهجرى .

ومنهم الحاج سليمان الورياغلـــى :

وهو من تلامذة الشيخ أبى عبد الله محمد اليستتنى وكان رجلا صالحا متصوفا يصاحب الشيخ المذكور، ويحكى عنه كرامات .

حيـــاتـــه: كان حيا فى اوائل القرن السابع عشر، على ما يستفاد من تاريخ حياة الشيخ اليستتنى .

الشيـــخ أبو عمـــران موسى عبد السلام:

كان من أهل تفرسيت وقد حكى عنه مؤلف المقصد الشريف أنه قال جزت فى سوق تفرسيت ومعى أثواب أبيعها، فقعد الى جانبى وخطر لى أن أدفع كنبوشا (خرقة) برسم أهله، فترددت ثم دفعته، وبعد حـــين جلست مع صهره أبى سعيد عثمان بن داود، فقال لى حدثنى الشيـــخ أبو عمران أنه كان على نية شراء الكنبوش ولكن ليس عنده ثمن، فاستحيى أن يشترى بالدين فدفعته اليـــه .

كان من تلامذة الشيخ اليستتنى، وهو من المتصوفين المرضيين، حج بيت الله الحرام، وكان ملازما للشيخ المذكور وكان حيا أوائل القرن السابع وعند ادائه الحج لقى ابن دقيق العيد، وتلمذ له وانتفع بعلمه، وهو ابن أخت الحاج أبى عبد الله سليمان أحد صلحاء مكناســة .

ومن رجـــال بادس أيضـــا:

الشيخ أبو على الحسن بن هنـــا:

وكان رجلا صالحا، عمر طويلا وحج بيت الله الحـــرام .

حكى عن الشيخ أبى الحسن المراكشى أنه قدم من مرسى هنين فى قارب للتاجر محمد بن ادريس وابن عمه الرئيس يوسف المعـــروف بالبحـــرى .

ومنهم الشيخ على بن محمد النعجة:

وهو على بن محمد النعجة الزهيلى .

كان رجلا صالحا يؤم بمسجد المقبرة ببادس، وكان يأكل مـــن كديده محترفا حرفة تاجر بزاز ببادس وكان يصاحب الشيـــخ أبا الحسن المراكشى، حتى كان يظن أنه من محترفى الكميـــاء .

ومنهم الشيخ أبو اسحاق ابراهيم النعجـــة:

كان من رجال بادس وهو شيخ صالح وهو من أولاد الشيـــخ على بن محمد النعجة المتقدم الترجمة كان حيا زمن أبى الحسن المراكشى.

ومن الرجـــال الصلحـــاء:

أبو عبد الله المفـــرد :

كان مستجاب الدعوة زاهدا ورعا محببا اليه الخلوات، كان رحمه الله صاحب مكاشفة وكرامة، اشتهر بهما من بين أهالى عصره، وكـــان موثرا لذوى الحاجات، ومع ذلك فقد كـــان كريما لا يمسك له شيئا .

وقد قال أبو محمد عبد الحق بن اسماعيل فى حقه من أبيات قوله:

فنجومه بالصالحـــات طوالـــع ورياضـــه بالمكرمـــات (كذا)

ولم نعثر على أى موطن ينتمى اليه، وكذلك لم نعثر على تاريـــخ حياته أو وفاته ولا أى موضع دفن فيـــه.

ومنهم أبو محمد عبد الله الطويل المعروف بسبحان الله:

كان من أهل فاس ثم ارتحل الى بادس، وكان من المنقطعين الى عبادة الله، ومن المداومين على التسبيح حتى عرف بسبحان الله، ولزمـــه هذا اللقب لزوم اسمه الشخصى .

وكان عندما يخيط ثوبه بيده يقول عن كل غرزة سبحان الله، قال الشيخ أبو عبد الله محمد الصبان أنه حدثه الشيخ سبحان الله فى ذلك، فقال كنت فى مصر فوضعت ثوبى عند بعض المشايخ الصالحين (للغســـل كما يظهر) فلما أخذه ونشره قال يا عبد الله عاينت هذه الغرزة وحدهـــا، لم تقل عليها سبحان الله، فان كل غرزة من هذا الثوب مكتـــوب عليهـــا سبحان الله، الا هذه واشار بيده اليهـــا .

ومن مناقبه ما حكاه الحاج على الاندلسى قال قال لى عبـــد الله تهت يوما فى الشام، فاسندت الى حائط فتبعنى رجل، وقال انى ورفيقى لصان رميناك بسهمين اثنين لنقتلك، وتقـــدم صاحبى قبلى اليك فسقـــط ميتا، ولما رأيت ذلك تبت الى الله، فحمل صاحبه الميت ومتاعه وسلاحـــه فنجـــانى اللـــه .

هذا واننا لم نعثر على تاريخ حياته ولا وفاته ولا مدفنـــه .

ومنهم الشيـــخ أبو عمران موسى بن عيسى الطرطور :

سمى طرطورا لانه كان أصم، وكان فى الشام يدعى البربـــرى انطرطور، وهو من الصالحين الذين يدفع عنهم الله كـــل الشرور، وقـــد استفاض عنه فى هذا الباب انه كان مرة فى الشام جالسا تحت علية (غرفة) فحمل حزامه وكان فيه مال مقداره (40 درهما) وقيراط، وكانت امـــرأة تطل عليه من العلية فرأت عدها، فنزلت اليه وتعلقت به وطالبته بالدراهم، مدعيـــة أنها لها، فترافعا الى الوالى، ولما استفسرها عن حاجتها ذكـــرت المقدار بالتدقيق، فلم يشك الوالى انها لها، فأمر بضرب المغربى، ولما هم الجلاد بضربه انحبست يده، وحينئذ شـــدد الوالى على المرأة فاعترفـــت بفعلتها، واطلق الشيخ وطلب منه العفـــو .

لم نعثر على تاريخ حياته ولا تاريـــخ وفاته الا أنه لما سئـــل (بالاشارة) عن حبس يد الجلاد، قال أنه رأى الشيخ اليستثنى قابضا يده، مما يدل على أنه عاش فى تاريخه أو بعده بقليـــل .

ومنهم أبو محمد بكـــار:

وهو معروف ببكار بن الحاج من أهل اسكرام قرية بقبيلة بقيوة، وهو من أولاد على بن حمد .

كان رحمه الله ضعيف الحال، ومع ذلك كان ملازما للعفاف، وكان ذا كرامات، حكى الشيخ اسماعيل بن احمد الخزرجى قال بت ليلة بمنزل أسكرام عند رجل من أصحابى يعرف بسليمـــان بن ادريس، فأصابنـــى مرض شديد، وأصبحت فى غاية من الضعف، فارتحلت قاصدا بيتى ببادس، فقلت فى الطريق انما يطلح حالى ويزيل مرضى مرق فلوس لو شربتـــه، ولكن استدركت فى نفسى فقلت هنا جاء المثل القائل طلب الشهـــوات فى الخلوات، قال فمررت بدار الشيخ أبى محمد بكار لازوره، فلما ناديتـــه باسممه خرج الى بآنية فى يديه فيها مرق فلوس، فقال لى اشرب هـــذا فانه يوافقك من غير أن يتعرف عند النداء من أنا، قال فقضيت العجـــب ومن هذه القصة يستدل على تاريخ حياته لما تقدم من ان اسماعيل كان حيا فى القرن السابع وتوفى فى 685 هجرية .

ومن رجال تـــرغـــة :

الشيـــخ أبو عبد الله البرانصـــى :

وهو من أهالى ترغة، كان صالحا تقيا ذا كرامات محببا اليه شرب العسل، وقد روى عنه الشيخ أبو العباس احمد بن يحيى الزهيلى، قال قال لى أبو عبد الله البرانصى يجب على كل مبتدأ (يعنى فى طريق القوم) أن لا يغتر بما يراه من الكرامات، فقد يكون ذلك من مكر الشيطان .

ومن مناقبه رحمه الله أنه حكى عنه الشيخ أبو العباس المذكور، أنه قال له ذات ليلة أصبت بجنابـــة فلم أجد الماء فى الدار للاغتســـال، فخرجت الى عين بين جرفين، وهى عميقـــة بينهما فاقتربت منها فرأيـــت الجرفين كأنهما مطبقان على، فعلمت أن ذلك من الشيطان يريد أن يخوفنى، فاستعدت بالله فقلت يا شيطان افعل ما بدا لك والله لا أبرح حتى اغتسل، فرجع الجرفان كما كانا، فاغتسلت وانصرفت .

ومما يحكى بعد موته عن حبه للعسل أن السكان شاهدوا النحل وهى تسكن فى قبره وفرخت العســـل فيه .

ترجمة ابى يعقوب البادسى

ننشر هنا مخطوطا فى مناقب أحد الافذاذ فى أواخر القرن السابع، وأوائل القرن الثامن الهجرى وهو أبو يعقوب البادسى الذى قال فى حقه ابن خلدون ، أبو يعقوب البادسى أكبر الاولياء، وآخرهم بالمغرب .

وذكره لسان الدين ابن الخطيب فى كتابه «انتفاضة الجراب» فقال أنه ولى الله تعالى، ووصفه بأنه الامام الكبير والعارف الشهير .

وناهيك أن مؤلف المخطوط هو قاضى الجماعة بفاس، أبو محمد عبد الله الاوربى .

وتظهر قيمته التاريخية من عرضه بأسلوب مبسط للحياة العامة فى ذلك العصر حيث أتاح لنا التعرف على الحياة الاجتماعية فى ذلك التاريخ .

كتاب مناقب ابى يعقوب الزهيلى البـــادسى
الـــمـــتـــوفى عـــام 734 هـ.

بسم الله الرحنم الرحيم وصلى الله على سيدنا محمو وآلـــه وصحبه وسلم تسليمـــا .

قال الشيخ الفقيه المحقق الاثبت الاسنى الازكى، القاضى الاعدل أبو (1) محمد عبد الله بن محمد الاوربى، رحمه الله تعالى ورضى عنه آميين، بالله أستعين وعليه أتوكل، ومنه أطلب العون على ما ارومه من جمـــع ما سمعته منذ قدمـــت على مدينة بادس، حرسهـــا الله تعالى وكلأها، من أحوال قطب زمانه ونسيج وحده وشيخ أوانه، الشيخ الولى العارف العامل المنقطع لله تعالى، أبى يعقوب يوسف بن محمد الزهيلى، رحمه الله ونفع به فى حال بدايته ونهايته، وكيفية نشئته وقراءته، وذكر شيوخه وافادته فى علمى الظاهر والباطن .

---

(1) ترجمة المؤلف محمد عبد الله بن محمد الاوربى :

هو الشيخ الفقيه الجليل الصدر العظيم الوجيه العالم المفتى، قاضى اجماعة بفاس، أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله الاوربى.

وكان فقيها فاضلا عارفا بعقد الشروط، قاضيا نزيها قريب الغور بعيد الشأو، حسن الظن، محبا فى الصالحين، يذكر كراماتهم واحوالهم، عارفا بأحوال أهل زمانه خاصة وعامـــة، وتواريخهم وانسابهم، كثـــير الحكايـــات فى مجالســـه .

تلامـــذتـــه: أخذ عنه الشيخ سيـــدى يحيى السراج الكبـــير، وأبو الوليد اسماعيل ابن الاحمر، وأورده فى فهرستيهما، وغيرهما ولـــه فتـــاوى فى المعيـــار .

ولادتـــه ووفاتـــه: ولد عام 701 وتوفى ليلة الاثنين 16 ذى القعدة عام 782 وذكر ابن الاحمر ان وفاته بفاس .

وبعض أحواله فى رحلته الى المشرق، واذكر من ذلك ما تظافر الجمع الغفير على نقله، أوما سمعت ممن اثق بدينه وعدله، وقصدى تقييد ذلك وجمعه، استدرارا لرحمة الله سبحانه، لما جاء عن العلماء، انهم قالوا عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، ولاشك ولاخفاء أن ذكر الصالحين، وذكر أحوالهم، بحكاية مناقبهم، ومعاملتهم لله تعالى، مما يرق القلب ويزيل قسوته، وتلك الرأفة هى علامة نزول الرحمة، فنسأل الله جل وعلا أن يمنحنا مما منحهم، ويرزقنا مما رزقهم، بمنه وفضله انه ولى ذلك، والقادر عليه، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد نبيه الكريم، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

ذكر نسب الشيخ ومولده ووفاته وشيوخه وقراءته ونبذ من أحواله فى حال بدايته، رضى الله عنه ونفعنا به آمين .

هو يوسف بن محمد بن عبد الله بن علال بن منصور بن سعيد ابن عبد الله بن سعيد بن تميم الزهيلى، وولد رحمه الله ونفع به يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر الله ذى الحجة، من عام أربعين وستمائة، بالدار التى كان بها سكناه ببادس المحروسة، وتوفى رحمه الله نصف ليلة الثلاثاء الحادى عشر شهر الله ربيع الآخر، عام أربعة وثلاثين وسبعمائة، وذكر لى أنه كان يقول ولدت يوم الثلاثاء ويعلم الله يوم الثلاثاء أموت فكان كذلك .

أمير مدينة النكور يبحث عن الفقيه عبد المالك بن حبيب :

حكى عن الثقات ان الفقيه عبد المالك بن حبيب قدم على بلاد الريف، فكان بها خائفا مختفيا اذ كان أمير بلد النكور يبحث عليه فاستقر عند أسلاف الشيخ، بموضع يقال له بنو خالص فآووه واسكنوه فى بيت هو الآن بان لم يتغير منه الا سقفه، وأهل ذلك الموضع يتبركون بذلك البيت الذى كان به سكنى الفقيه عبد المالك المذكور رضى الله عنه .

بعد أن كان بعض أهل تلك الجهات طردوه عن أنفسهم فبقى عند اسلاف الشيخ مكرما ملحوظا الى أن انصرف عنهم، فدعالهم، وقال بجدى الشيخ سيدى ابى يعقوب جعل الله البركة فى عقبك الى يوم الدين، ودعا على أولئك القوم الذين طردوه، كان أمرهم بعكس ذلك، وكان الشيخ

سيدى أبو يعقوب رضى الله عنه يقول، وجدت بركة الشيخ أبى يحيى اجروم، حملنى اليه والدى وأنا صغير، فوضع يده على رأسى، وقال لى رزقك الله العلم والعمل به وحدثنى من اثق به أن الشيخ رضى الله عنه قال لما دخلت الكتاب كنت اذا وضعت اللوح من يدى اسمع شعرة بمقدم رأسى، تقول الله الله الله، لا تزال كذلك حتى أرجع الى لوحى، وقرأ الشيخ القرآن على المعلم الصالح اسماعيل بن احمد الخزرجى، فحفظه وجوده بحرف نافع، وفى العربية واللغة والادب على الاستاذ ابى القاسم الاندلسى، وحدثنى غير واحد أن الشيخ كان يقول حين يزور قبر سيدى ابى على الطنجى، المدفون فى المصلى خارج بادس، الذى يقال عنه انه قطب قرأت على هذا الشيخ العربية، وقرأ الشيخ سيدى أبو يعقوب الرسالة أيضا، وتهذيب البرادعى على الشيخ العالم الولى أبى زكرياء، هذا قرأ بقرطبة أربعين سنة، ثم رجع الى الريف، فظهر له علم جم، وولاية وأحوال صالحة، حدثنى عن سيدى أبى يعقوب أنه قال، كنت أسوق الماء، لسيدى ابى زكرياء لوضوئه أيام قرائتى عليه، فكنت اذا اتيته ليلا بالماء، أجد فى بيته نورا ساطعا، وقرأ الشيخ أيضا سيدى أبو يعقوب ببادس تهذيب البرادعى على سيدنا الفقيه العالم الولى المجاب الدعوة أبى ابراهيم اسحاق بن يحيى الورياغلى الاعرج، ثم رحل معه من بادس الى مدينة فاس، وسكن بمسجد سيدى ابراهيم. المحمل على الصابة الكائن بقصر البليدة، بالغرفة التى بقبلى المسجد المذكور، وتفقه عليه مدة وقرأ أيضا بمدينة فاس موطأ مالك، رحمه الله تعالى ورضى عنه، على قاضيها وامام الفريضة بجامع القرويين ابى جعفر احمد بن الشيخ الفقيه العلامة امام الفريضة بالجامع المذكور أبى عبد الله المزدغى، حدثت أن ولى الله تعالى سبحانه أبا البركات الطراز من أهل فاس، وكان رجلا معمرا، قد زمن وعمى فى آخر عمره قال للحاج محمد التسولى سلم على الشيخ أبى يعقوب، وقل له الامارة بينى وبينك انطفاء الصبيحة فى مجلس الفقيه أبى جعفر المزدغى، قال الشيخ التسولى فجئت الى الشيخ، وقال له ذلك فتبسم، وقال لى رد عليه السلام، فلما رجعت الى مدينة فاس، دخلت عند سيدى أبى البركات، فقلت له سيدى أبو يعقوب يسلم عليك، وقد بلغته الذى قلت لى، فتبسم، وقلت له سيدى أخبرنى بخبر الصبيحة،

فقال لى سر أولياء الله لا يفشى، وهم احياء، قال فسكت، وانصرفت، فلما مات سيدى أبو يعقوب دخلت عند سيدى ابى البركات، فتذكرت القضية، فقبلت يده، وقلت له يا سيدى سألتك بالله الا ما أخبرتنى بقضية الصبحية، وقد مات سيدى أبو يعقوب، قال فتبسم، وقال ما أكثرك تبحث كنت جالسا فى مجلس الفقيه ابى جعفر المزدغى، والشيخ أبو يعقوب بازائى، فاذا بالصبحية التى يقدؤ اليها القارىء قد انطفأت، فلم يجد القارىء ضوءا يقرىء اليه، فاذا بنور قد استنار من الشيخ أبى يعقوب، وعم على الصبحية حتى قرأ اليه القارىء، هذه قصة الصبحية، قال مؤلف هذا الكتاب، رأيت فى لطائف المنى فى مناقب الشيخ أبى العباس المرسى، وشيخه ابى الحسن، قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رحمه الله تعالى ورضى عنه، لو كشف اليسير من نور المومن العاصى لطبق ما بين السماء والارض، فاذا كان المؤمن العاصى كذلك، فما ظنك بنور المومن المطيع، فلو كشف الحق سبحانه عن مشرقات أنوار قلوب أوليائه، لانطوى نور الشمس والقمر فأين لنور الشمس والقمر من أنوارهم، الشمس والقمر يدخل عليهما الكسوف والغروب، وأنوار قلوبهم لا كسوف لها ولا غروب، قال مؤلف هذا الكتاب، كنت أزور الشيخ الولى سيدى أبا البركات الطراز قبل موته بالصفارين القدماء من فاس المحروسة، وأتردد اليه وأتبرك به، وكان بى فى قلبه موضع والحمد لله وشاهدت منه الكرامات كثيرا، وحضرت دفنه بالجيزيين، قال مؤلف هذا الكتاب غفر الله له .

رجوعه من فاس الى بادس :

وبعد ذلك رجع الشيخ سيدى أبو يعقوب من مدينة فاس الى بادس، وقد حصل من العلم الظاهر جزءا عظيما، وظهر عليه خير عظيم، ولاحت له بوارق الحق فاعتزل بنفسه بالرابطة التى على ساحل البحر خارج مدينة بادس، وهى التى ادخلت الآن بدار الصنعة، واخذ فى المجاهدة والعبادة والانقطاع الى الله تعالى .

سيوخه فى علم الباطن :

هؤلاء شيوخ سيدى أبى يعقوب فى علم الظاهر :

واما اشياخه واستاذه فى علم الباطن، وطريق الارادة فامام الطريقة وشيخ الحقيقة الولى العارف الكبير أبو الحجاج يوسف الاقصورى، من الاقصور قرية من قرى قوص، وله هناك زاوية عظيمة، وتلامذة بالبلاد كثيرون، حكى لى غير واحد ان الشيخ سيدى أبا الحجاج الاقصورى، لما حضرته الوفاة قال له اصحابه يا سيدى من يجلس للناس مكانك، فقال لهم ان الله سبحانه استخلف عوضا منى صبيا بأقصى المغرب، اسمه يوسف بن محمد، بمدينة على ساحل البحر يقال له بادس، وهو الآن من أربعة أعوام، وفى هذه السنة يأخذ المكتب، فاذا كان أوان تربيته فلينصرف اليه احدكم، ويربيه وينهج له طريق الارادة، حدثنى الحاج ابو العباس احد الكماد قال سمعت سيدى أبا يعقوب يقول، رأيت فى المنام فى بداية أمرى، كأنى مت ثم ردت الى روحى، فاذا أنا بثلاثة رجال فى زى الفقراء الاعجام، قد خرجوا الى من البحر، ووقفوا على، ثم جاءنى أحدهم، وقال لى مرحبا بمن كان ميتا فأحييناه، وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس، قال فقلت له يا سيدى من أنت، قال فقال لى أنا أبو الحجاج الاقصورى، قال الحاج المذكور، فلما توجهت الى البلاد دخلت الاقصور، ثم جئت الى مصر، واجتمعت مع سيدى كمال الدين حفيد سيدى أبى الحجاج الاقصورى بزاوية بمصر، وذكرت له انى من بادس، سألنى عن سيدى أبى يعقوب، فذكرت له عن الرؤيا التى حدثنى بها سيدى أبو يعقوب الى أخرها، فقال سيدى كمال الدين وقال له سيدى أبو الحجاج وان الله قد استخلفك مكانى، قال الحاج احمد، فقلت لسيدى كمال الدين ياسيدى ما سمعت أنا ذلك منه وانما سمعت الناس يقولونه قال فقال لى سيدى كمال الدين، أنا سمعته من سيدى أبى يعقوب فى تلك الخلوة يشير الى خلوة كان ينزل بها سيدى أبو يعقوب حين توجه الى الحج، قال الحاج احمد، وسيدى أبو يعقوب بالبلاد مشهور، كما هو هنا بالمغرب، قال مؤلف هذا الكتاب، حدثنى أبو عبد الله محمد بن على بن مغيث، قال سمعت سيدى أبا يعقوب يقول يعلم الله من يرد الله أن يشهره ما يقدر فى نفسه بشىء، كنت حين سافرت الى المشرق أخفى نفسى غاية، وأركب حمارا اشتريته بدينارين غير ربع، وكان يصلى بنا فى الركب رجل من أهل الركب، فاذا برجل يقول

للناس ما نصلى الا خلف صاحب ذلك القيطون، فانى رأيت نورا ساطعا يصعد من قيطونه، قال فاشهرنى عند أهل الركب، بعد أن كانوا لا يعرفوننى قال مؤلف هذا الكتاب، رأيت فى كتاب مناقب الاولياء وكرماتهم لسيدى أنولى الكبير أبى الحسن على بن محمد المراكشى، قال سكنت بقوص مرة فذكر لى عن رجل ولى بالاقصور، اسمه يوسف، ويعرف بأبى الحجاج الاقصورى، فكنت أريد أن أزوره، فتخلفت عن زيارته أياما، فنمت يوما، فسمعت قائلا يقول، قم يا على الى الشيخ يوسف، لانه قد خرج ليجتمع بك، فلم يكذب، فخرجت لنلتقيه أو نصل اليه الى منزله زائرا، فمشيت على ساحل النيل حتى وصلت الى موضع التعدية، فلم أجد المعدى الذى يعدى بالناس، فقعدت على جانب النيل منتظرا لصاحب المعدية، فاذا أنا برجل قد أقبل من الجانب الاخر، وبيده عصا، فرمى برجليه على الماء وصار يمشى ويحط بعصاه على الماء، حتى وصل الى فبهت فى كرامات الاولياء، ولن (كذا) منه فنظر الى وأخذ باذنى وقبلها، وقال لى يا على لا تتوارن عن زيارة الاولياء، ولا تحجبك نفسك عن مقاماتهم بتسويفها لك، فقبلت رجليه، وقلت يا سيدى من أنت، قال أبو الحجاج الاقصورى، قال ثم قال لى ارجع الى مكانك، قال فبكيت، وقلت له يا سيدى بعد موعظة شافية، فقال نعم يا على عليك بمحاسبة نفسك ومن (كذا) اياها فانها مهلكة الرجال، ثم قلت يا سيدى زدنى، قال عليك بالصمت بين يدى العلماء، ثم قلت يا سيدى زدنى، قال بالتواضع وترك الدعوى، قال ثم تركنى ورجع الى حاله، قال سيدى أبو الحسن رضى الله عنه دخلت صنهورة وهى بمقربة من الاسكندرية بينهما مسيرة يوم وبعض آخر، فأويت الى مسجد آخر البلد، فاجتمع حولى فقراء بغير اختيارى فضيقوا على وقتى فى العبادة، فعزمت على الانتقال الى بلد آخر، فلما كان العشاء الاخيرة دخل علينا المسجد رجل فأخذ بيدى، وأخرجنى والفقراء مكانهم، وقال لى امش معى فحملنى الى منزله، وصعد بى الى غرفة ليس فيها الا حصيرة من الحلفاء، فأقعدنى عليها، ثم دار فى زاوية الغرفة فأحضر بين يدى عسلا ولبنا معقودا وخبزا حارا، فواكلنى، فلم أتهن من أجل الفقراء الذين تركتهم فى المسجد

فرأى الرجل عندى قبضا، فقال لى كل فانك طلبت الخلوة وحدك، وهذه خلوة لا تجد مثلها، فتعجبت منه فى مكاشفة فيما كان عندى، فأكلت حتى شبعت، وشكرت الله تعالى، وقال لى أدع لنا الآن، فان دعاء الضيف مستجاب، فدعوت وأمن ثم سألت عن اسمه، فقال اسمى ضرغام ابن مخلوف، فقلت ما حرفتك، قال لى خراز، فقلت من دلك على، قال لى رجل، فقلت له من ذلك الرجل، فلم يعلمنى، فعلمت أنه كوشف بحالى مع أولائك الفقراء، فقعدت نتحدث فى كرامات الاولياء، ثم تركنى وخرج، فما رأيته الى صلاة الصبح، فصليت معه الصبح، وأردت الانصراف، فقال لى الضيافة ثلاثة أيام، ثم قال لى الضيف فى حكم صاحب الدار حتى يخلى سبيله فقلت له نعم وكرامة لا أخالفك، فخرج وتركنى، فلما كان بعد أن صليت الضحى دخل وانزلنى من الغرفة الى الموضع الذى يعمل فيه الدرازة بيت فى المنزل، فقعدت معه وهو على منواله، يعمل شغله، ونحن نتذاكر فى أخبار الصالحين، فاذا بباب منزله يقرع، فقام ليفتح فقلت له تعلم انى رجل لا أريد الجمع مع أحد غيرك فلا تظهرنى لاحد، فقال نعم قم الى غرفتك، فقمت الى الغرفة وفتح الباب، فسمعت حس رجال كثيرين ولم أرهم، فجاء الى الزاوية التى أخرج منها البارحة ما أخرج فرأيته يدخل الى ركنها فيخرج العسل واللبن المعقود والخبز الحار بلا قدر، فعلمت أنه صاحب كرامة، فأقمت عنده ثلاثة، وأنا أراه يخرج الطعام من الزاوية المذكورة، فاذا أخرج أنظر الى الزاوية فلا أرى فيها شيئا وأنا لم أسأله، فلما أردت السفر سألته عن العسل واللبن والخبز الذى كان يخرجه، فقال لى رأيته فقبل بين عينى، وقال لى يا على أنت منهم، يعنى من الصالحين، ثم قال لى يا على دخل منزلى رجال كثيرون ما سألنى أحد عن هذا الا أنت ورجل يعرف بيوسف الاقصورى، فقلت له أتعرفه، فقال لى من أين تعرفه، فقلت له جرى لى من مشيه على الماء، فحكى عنه ضرغام الخراز أنه كان يصلى الظهر والعصر عندهم بصنهورة من ثلاث سنين وبين صنهورة والاقصور ثمانية عشر يوما، ثم قال لى يأخى على هو شيخى، فتأكدت بينى وبينه الصحبة والمحبة، ثم قال لى يا أخى على اعلم أن يوسف يأكل من القدرة، وأنا أيضا آكل من القدرة، وأطعم منها .

الشيـــخ أبو الحسن المراكشـــى :

قال الشيخ أبو الحسن حكيت هذه الحكاية لشيخ مسن مـــن العلماء العاملين بالله، فقال لى يا ولـــدى ياعلى اسمع وع، لله رجـــال لا يأخذون من القدرة بشىء أو ان ظهرت لهم وأخذوا منها شيئا يحجبهم بها عنهم، فيموتون، ولم يروه وهذا الشيخ هو سيدى أبو الحسن المراكشى وهو مدفون ببادس عـــن يسار الخارج من باب المقابر، قال مؤلف هـــذا الكتاب، وفى قبر هذا الشيخ عجب، اذا أنت أتيـــت اليه ترى عليه نـــورا ينشرح قلبك بالنظر اليه، وله أحوال عظيمة مع الخضر عليه السلام، ومع قوم يونس ومع أولياء كبار، وقد رأيت فى كتاب لطائف المنن .

سيدى عبد الســـلام بن مشيـــش :

قال الشيخ أبو الحسن عن شيخه سيدى عبد السلام بن مشيـــش سلـــك الشيـــخ سيـــدى عبـــد الســـلام الطريـــق وهـــو ابـــن سبـــع سنـــين ، وظهـــر لـــه مـــن الكشـــف أمثـــال الجبـــال ثـــم خـــرج الى السياحة ، وأقـــام بهـــا ســـت عشـــر سنـــة ، قال فدخل عليـــه يومـــا شيخ فى مغارته، فقال له من أنت، فقال له أنـــا شيخك، قد كنت ابن سبع سنين، وكل ما كان يصلك من المنازلات فهو منى، وهى كذا وكذا، فحدثه بجميع ما جرى له من الاحوال، وكان سكناه بالمدينة على ساكنها السلام، وكان يجيىء اليه ويعلمه ويفيده، فقلت لـــه ياسيدى كـــان ياتيك طيـــا أو سفرا، قال فى ساعة يأتى ويروح، فقلت له ياسيدى كنت أنت تروح اليه، قال نعم، قال مؤلف هذا، وحدثنى سيدى أبو عبد الله بن أيـــوب بمدينة فاس، قال حدثنى رجل صالح ممن لقيت، قال كنت بمصر فى بعض بواديها، فاذا أنا بطائر أبيض كبير قد وقف أمامى، وصار يهـــم، بالطيران ويشير الى كأنه يقول لى اتبعنى، ثم طار مع الارض كطيران النعامة، واذ بريح رطبة قد هبت من خلفى، فصرت أهرول وراء الطـــير والريح تحملنى وأنا لا أفارق الارض، أكثـــر الاحيان تدوس قدمـــاى الارض، وما زلت كذلـــك الى أن جن الليـــل، فوجدت نفســـى فى ارض لا أعرفها، وبين يدى سواد شجر، وكنت اذا كان وقت الصلاة تسكـــن الرياح ويقف الطائر حتى أصليها، قال فاذا ذلك السواد بساتين، فدخلت

الى بستان منها وقذف الله فى قلبى عند دخوله ان تلـــك الارض أرض مجوس، قال فلما تمكنت من الدخول فى البستان رأيت شخصا مستقبل القبلة الى شجرة يصلى، فلما قربت منه علمت انها امرأة فهممت بالرجوع خوفا من الخلوة، فاذا هى قد أتمت الصلاة وسلمت بسرعة، فقالـــت لى يا عبد الله قف لى أكلمك من بعيد، قال فقلت لها ما هذه الارض يرحمك الله، قالـــت لى هذه أرض المجوس الفلانيين، قال فقلت لها ومن أنـــت، قالت أنا من هؤلاء المجوس، ولكن قذف الله فى قلبى الاسلام، فلم يـــزل الله تعالى يبعث لى أشخاصا من الحنيفية كما بعثك أنت فى هذه الساعـــة فيعلمنى التوحيد ودين الحنيفية، وصرت انستر بذلك وأدين به خفية الى أن زوجت من أحد هؤلاء المجوس، فحملت لازف اليه، فاختطفت من بين يدى الذين حملونى، وصرت فى هذه البادية أعبد الله ويأتينى برزقـــى، ويسترنى عنهم، ومهما اشكل على شىء من أمر دينى يسوق الله لى رجلا من الحنيفيين، ويعلمنى، وقد وقفت الآن فى كذا وكذا مسئلة من التوحيد، فساقك الله الى فارشدنى يرشدك الله، وكان عندى فى تلك المسألة علـــم فعلمتها، ثم ردنى الطير والريح الى الموضع الذى كنت فيـــه .

رجع الى حال الشيخ سيدى أبى يعقـــوب :

لما رجع الشيخ سيدى أبو يعقوب نفع الله به من مدينة فـــاس الى بادس، وانعزل للعبادة والمجاهدة بالرابطة التى على البحر، وصل اليه من الاقصور أحد أصحاب الشيخ الاقصورى، وهو المريد السالك أبو يحيى الشامى نفع الله به، فنزل عليه بالرابطـــة المذكورة، فوجده قد حصل من علم الظاهر جزءا صالحا، وقد ظهرت عليـــه أنواره وكذلك أن العلـــم اذا استعمل ظهر نور له، وان هو أفشى للتزين بـــه للمخلوقين أورث القلـــب ضلمة، سيما والعياذ بالله أن أريد به حطام الدنيا وتحصيل المال والجـــاه، فأخذ الشيخ أبو يحيى الشامى المذكـــور فى تربية الشيخ سيـــدى أبى يعقوب وتهذيبه وتدريبه، لما ذكر الشيخ سيدى أبو الحجاج من أنه مهيىء لان يكون خليفة له، حدثنى الثقات أنه تربى على يد الشيخ سيدى أبى يحيى الشامى رحمه الله اناس كثيرون من أهـــل بادس من البوادى، وانه كان بعضهم يأوى الى الرابطة، وكان فيهم رجل يدعى ابن تازغيت، وان

حاله انتهى الى أن صار يواصل أسبوعا، فان هذا الرجل سمع قائلا يقول له ان الله تعالى لم يقبل منكم الا يوسف، وذكر لى أن هذا الرجل المدعو ابن تازغيت فتر عن العبادة، ولم يستدرج قليلا حتى صار يرجع تازوغايت على فرسان بقوية اذا لعبوا، فنعود بالله من الارتداد على العقب.

زيـــارته لوالـــديه يوم الجمعـــة :

حدثنى بعض أهل الخير، قال سمعت من الشيخ سيدى أبى يعقوب، قال لما كنت بالرابطة كنت لا أدخل البلد الا يوم الجمعة، ادخـــل فأزور أبواى، واغتسل للجمعة واصلى، ثم أرجع الى موضعى، قال فدخلت يوم الجمعة فقالت لى والدتى يا يوسف والدك جاء من البادية اليوم، وأخبر أن الزرع قد ييبس فى اكمامه من قلة المطر وشدة الحر، وان الناس قـــد رحلوا من الريف، فاسع ان ترغب من الفقراء الذين فى الزاوية يرغبون الله تعالى فى المطر، قال فخرجت الى الرابطة، فوجدت بها فقيرا أسمـــر من فاس، فقال لى قنطت أمك يا يوسف، قل لها تأخذ من الشعير الـــذى عندها فى القلة تحت السرير وتصنع بنصفه عصيدة بزيت، ويأكلها الفقراء، وينزل المطر ان شاء الله، قال فانصرفت الى أمى، فأخبرتها الخبر، فتعجبت من ذلك، فقالت لى والله ما علم به أحد الا الله تعالى، ثم صنعت العصيدة بالزيت، وبعثت بها الى الرابطة، وأكلها الفقراء، ثم قال الرجل الاسمـــر اللهم امطرنا، فما أتم الكلام الا والريح والمطر الوابل قـــد عم الارض، وبقى أسبوعا لم يفتر لا ليلا ولا نهارا، حتى تهدمت البيوت، قال فلمـــا كان فى الجمعـــة الآتية دخلت على عادتى الى بادس، فقالـــت لى أمـــى يا ولدى ترغب من الرجل الصالح يدعو الله تعالى فى الصحو، قال فقلت ذلك قال قل لامك تصنع من النصف الثانى من المد كما صنعت بالنصـــف الاول، ويأكله الفقراء ودعا الرجل المذكور وطلب من الله تعالى الصحـــو، قال الشيخ سيدى أبو يعقوب فما أتم الدعاء الا وضوء القمر داخـــل من طاق كانت بالرابطة، زاد غير الذى حكى لى هـــذه الحكاية، ان ذلـــك الرجل قال للشيخ أنا أكل ثلاث أكلات فى السنة، وهاتان أكلتان أكلتهمـــا، وبقيت لى أكلة واحدة حتى يقدرها الله عند من شاء من عباده، حدثنـــى من اثق به عن الشيخ سيـــدى أبى يعقوب، قـــال لى سيدى أبو يحيى

الشامى ليلة كذا فى جوفها، يايوسف خذ الركوة واذهب الى البئر يعنى البئر التى بمقبرة الرابطة، واسق لنا منها الماء قال فذهبت الى البئر فوجدت عليها رجلا بزى الفقراء الاعاجم، فقلت له السلام عليكم ورحمة الله، فقال لى وعليكم السلام، قال فاقشعر جلدى منه واصابتنى رعدة، قال ثم سقيت الماء ورجعت الى الرابطة فقال الشيخ سيدى أبو يحيى يا يوسف أرأيت أحدا على البئر قال فقلت له نعم ياسيدى رأيت رجلا صفته كذا وكذا وأخذنى كذا، فقال هو الخضر عليه السلام والحمد لله الذى أقر عينى بك .

رحلة الشيخ أبى يحيى الى المشرق :

ثم أخذ الشيخ سيدى أبو يحيى الشامى فى الحركة الى المشرق، فخرج من بادس، وخرج معه الشيخ سيدى أبو يعقوب، وخرج معهما جماعة كثيرة من أهل بادس، فباتوا جميعا بموضع يقال له أويزغيت عند الشيخ الصالح أبى يعلى الفتوح بن أبى بكر، وكان وليا من أولياء الله تعالى، فأضافهم وذبح لهم بقرة، وصنع لهم طعاما، فلما أكلوا أعطاهم (1) الرب ليشربوه، فشرب الحاضرون وامتنع الشيخان سيدى أبو يحيى وسيدى أبو يعقوب من شربه، فقال لهم الشيخ سيدى أبو يعلى بيدى طبخته فاستمرا على الامتناع فقال لسيدى ابى يحيى ما تخرج من هذه حتى تشربه، وقال لسيدى أبى يعقوب تطلب ولا تجده، وانصرفا من عنده فسلط الله عليهما شهوة الرب فشربه سيدى أبو يحيى ببلاد غمارة، بعد وداع سيدى أبى يعقوب له ورجوعه، وبقى سيدى أبو يعقوب يصبر نفسه عنه وأمه تطلبه ولم تجده، فلم يزل الشيخ أبو يعقوب يرغب الله تعالى حتى صرف عنه الرب، وتم الكلام على ما علمته من شيوخ سيدى أبى يعقوب رحمه الله تعالى ونفع به فى علم الظاهر وعلم الباطن .

ذكر نبذ من كرامات سيدى أبى يعقوب رضى الله عنه ونفع به:

حدثنى أبو عبد الله بن مغيث مرارا عديدة، احدها بمحضر جماعة من أهل الخير، قال سمعت سيدى ابى يعقوب رضى الله عنه يقول، كنت

---

(1) ما يطبخ ويشدد ويثخر من عصارة بعض الثمار كالبندورة (ماطيشة).

أرى السموات السبع والاراضين السبع والعرش والكرسى والجنة والنار، وحدثنى أيضا أبو عبد الله المذكور عن يحيى عن يوسف وكان رجلا خيرا دينا كثير الموالات للشيخ سيدى أبى يعقوب نفع الله بـــه قال يحيى ابن يوسف سمعت الشيخ سيدى أبا يعقوب يقول، كنت أسمع المؤذن يـــؤذن فى السماء الرابعة، وبعد ذلك بالمدينة اسمع المؤذن بصومعه بادس، قال أبو عبد الله بن مغيث حدثنى قارىء الكتاب بين يدى سيدى أبى يعقـــوب، وهو الشيخ المبارك أبو الحسن على بن الكمـــاد، قال قلت لسيـــدى أبى يعقوب ياسيدى سمعت أنك تسمع المؤذن فى السماء الرابعة، قال فقال لـــى نعم، وقال عند انقضاء كل ساعة من النهار، قال مؤلف هذا، ولقد رأيـــت فى كتاب لطائف المنن عن الشيخ سيدى ابى الحســـن الشاذلى أنه قـــال، استنار قلبى يوما فكنت اشهد ملكوت السموات السبع والاراضين السبـــع، فوقعت منى هفوة فحجبت عن شهود ذلك، فعجبت كيف حجبنى هـــذا الامر الصغير عن هذا الامر الكبير، فاذا أنا يقال لى، البصيرة كالبصر أدنـــى شىء يحل فيها يعطل النظر، ورأيت أيضـــا سيدى ابا يزيد البسطـــامى رضى الله عنه أنه قال لى اطلعنى الله سبحانه على عجائب السموات السبع، والاراضين السبع، ثم قال يأبا يزيد كيف رأيت، قال فقلت يا حبيب قلبى ما رأيت شيئا، قال فقال لى يا أبا يزيد تمن، قال فقلت أتمنى، قال فقام أحد تلاميذه من بين يديه، قال له يا استاذى لاى شىء لم تتمن المعرفة، فقال له اسكت ويحك حملتنى الغيرة عليه أن لا يعرفنى غيره، وكان ما كان مما لست اذكره، فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر، وحدثنى أبو عبد الله ابن مغيث المذكور عن القلوبى ابى الحسن ابن الكماد المذكور، انه قـــال له قلت لسيدى أبى يعقوب يا سيدى سمعت أن الاولياء اذا قرؤوا القرآن يسمعونه يقرأ عن أيمانهم، قال ابن الكماد فقال لى سيدى أبو يعقوب نعم يعلم الله اذا قرأت القرآن اسمعه يقرأ عن يمينى .

بشـــرى لحملـــة القـــرآن :

وحدثنى الخطيب أبو الحسن على حفيد الشيخ سيدى أبى يعقوب نفع الله به، والحاج أبو العباس احمد بن الكماد انهما كانا مع جماعة من أهل بادس بين يدى الشيخ سيدى أبى يعقوب فى الجامع ببادس، والشيخ

جالس فى المحراب فاذا بالاستاذ أبى عبد الله محمد بن محمد بن الخضار السبتى، وتلميذه الفقيه العدل أبى البقاء يعيش بن سعيد، قد وقفا للشيخ سيدى أبى يعقوب برسم ان يشهد لهما فى عقد اجارة كان بأيديهما، فتوقف الشيخ سيدى أبو يعقوب فى الشهادة، وبقى بين يديه وأطرق برهة حتى أراد الانصراف، فاذا به قد أخذ منهما وكتب فيها بخطه عوضا من الشهادة، وسمع يوسف بن محمد بن عبد الله الزهيلى فى المحراب شيئا، يقول له بشر حملة القرآن برحمة من الله ورضوان، عند كتب هذا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، قال فأخذا الاجارة من يده وانصرفا فرحين بهجين بذلك، واجتمعنا فى ذلك اليوم جميع من كان ببادس من حملة القرآن ينظرون الى خط الشيخ ويقبلونه ويفرحون بهذه البشارة العظيمة التى من الله تعالى بها على لسان هذا الشيخ الجليل، عن لسان القدوة لجميع من حمل القرآن، وحمل شيئا منه، فان الباب واسع والكرم عظيم، وما أرجو الله أن يخلو أحد ممن حمل سورة الاخلاص من نيل هذه البركة، فانه جاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم، أن سورة الاخلاص تعدل ثلث القرآن، وهذه المسألة مشهورة ببادس، قال مؤلف هذا، كان يحدثنى رجل صالح اسمه يحيى اليازغى، عن رجل صالح كان بمدينة فاس، يقال له سيدى عبد الله المغراوى، وانه كان يكتب اللوح من القرآن، ويبقى فيه خمسة أشهرا وستة أشهر، وفى كل نفدة يرقى لمقام من الفهم أعلى من المقام الذى كان له فى الفهم فى النفدة التى قبلها، فاذا انتهى الى آخر مقام قدر له من فهم معانى القرآن، يقول له امح ذلك اللوح، واكتب غيره، وحدثنى يحيى المذكور عن سيدى عبد الله المغراوى المذكور أنه كان فى بعض الاحيان يقرأ القرآن، فاذا مر بذكر الحور العين كشف له عنها حتى ينظر اليهن وينظرن اليه، ويسمع كلامهن يقلن له اقرأ يفهم منهن أنه اذا سكت عن القراءة يغيب عن ذلك الحال، وكان سيدى عبد الله هذا من كبار الاولياء أى أولياء الله تعالى، وكان يسكن بعين امزليتن بدويرة بلصق مقابر الفدان من فاس، رأيت جماعة من الصالحين يزورونه ويترددون اليه، حدثونى عنه باشياء غريبة غير هذا .

زواجـــــــه :

وحدثنى أبو عبد الله بن مغيث، قال سمعت أبـــا يعقوب يقول يعلم الله ما كنت أردت أن أتزوج حتى قال لى أبواى ان لم تتـــزوج والا فأنت مخالف لنا فى مرادنا، قال فلما رأيت ذلك، قلت لوالدتى اذا عزمتـــم على انى ولابد من التـــزوج من ابنت خالتى من البادـــة، فانى أعلم أن أهل البادية أقل دينا من الحاضرة فزوجونى منها، ودخلت معها ثلاثة أعوام، وهى لم تلد، صارت أمى تقول زوجت ولدى من امـــرأة عقيمـــة، وتكرر الكـــلام فى ذلـــك، حتى علمت بذلك زوجتى، فبعثت الى حالتها والدتى، وقالت لها قل لخالتى ولدها ما رأى لى بشرة ولا رأيـــت له بشرة، وانه منذ دخل معى فى البيـــت يصلى فى ركن البيت الليـــل كله، وما رآنى ولا رأيته، قال فبلغ ذلك الى والدتى، فقالت لى ما طلبت ابنت أختى الا لنعطلها، وتكلمت لى بكلام خفت منه، وبعد ذلك اقتضضتها وولدت لى ولدى عبد الله، وحدثنى أبو العباس احمد بن المؤذن جـــار الشيخ سيدى أبى يعقوب وداره بلصق داره، قـــال فخرجت يومـــا من دارى بشقف فى يدى أسوق نارا فبعثنى الشيخ أبو يعقوب فى حاجـــة أقضيها له، فانصرفت وتركت سوقان النار، فقضيت الحاجة ورجعـــت، فلما أتيت الى باب دار الشيخ، فاذا بالشيخ خارج بباب داره فأخـــرج لى يده وبين أصابعه جمرة نار، فوضعها فى الشقف الذى كان فى يـــدى، فبهت، مما رأيت من حبسه النار فى يده كأنها تفاحة أو وردة لا تحـــرق، وحدثنى أبـــو العباس المذكور قال كنت بازاء الشيخ أبى يعقوب يرفع رأسه الى السماء وينظر يمينا وشمالا، قال فقلت له سيدى ما كنت تنظر فقال لى الملائكة غطوا السماء بل الفضاء كله جاءوا للصلاة هنا، وسمعت ذلك من جماعة غير أبى العباس المذكور، وحدثنى أبو العباس المذكور أنه كان مع جماعة من الناس ورآى الشيخ وهو يزور المقابر، فاذا بـــه قد وقف وقال لهم يعلم الله لو رأيتم الذى أرى لما رجع أحد منكم لاهل ولا ولد، وحدثنى أبو عبد الله محمد بن الشيخ الصالح أبى الحســـن ابن مغيث عن أبيه أبى الحسن على المذكور، قال خرجت مع الشيـــخ سيدى أبى يعقوب نفعنا الله به لحضور جنازة، فاذا بالميت قد جاء به

على أعناق الناس، فقال لى سيدى أبو يعقوب يا على رأيت شيئا فوق ذلك الميت، قال فقلت له لا يا سيدى، قال انى أرى روح ذلك الميت تسير فوقه، قال على بن مغيث وكنت أسير معه برسم زيارة المقابر، فيقول لى انى أرى طيورا على المقابر، فاذا قربت منها تدخل فى القبور، وهى يعلم الله أرواح الاموات، ورأيتها مرة فدخلت كلها المقابر، وبقى منها طير واحد أسود على قبر ينظر الى، كأنه يطلب منى شيئا، فعلمت أنه كثير الذنوب فيعلم الله مازلت أدعو له حتى زال عنه ذلك السواد، وحدثنى حفيد الشيخ الخطيب على أنه كان يخرج مع الشيخ وهو صغير الى المقابر، فيرى تلك الطيور ويقول له الشيخ يعلم الله هى أرواح الموتى، وحدثنى عن الشيخ أبى زكرياء يحيى بن يوسف عن أمه الصالحة مامو بنت محمد بن على انهما سمعا من الشيخ سيدى أبى يعقوب نفعنا الله به أنه قال يعلم الله كل من أطى عليه لا يدخل النار، وقال أيضا يعلم الله اذا تخرج الى المقابر ترى رؤوسا تخرج من بعض المقابر تشبه رؤوس الغنم، التى تساق فى العيد من عند الشواط .

قائد قصبة بادس لما دخلها النصارى :

وحدث أيضا عن يوسف بن قياس قائد قصبة بادس حين دخلها النصارى، واستشهد فى ذلك اليوم رحمه الله ونفع به، قال لما وصل بادس قائدا بها، جاء الى الشيخ وأخذ فى الحديث معه والتبرك به، فقال له أثناء كلامه ياسيدى ما نزال فى هذه البلاد ان شاء الله حتى ندفنك، قال له الشيخ لا، يعلم الله أنا ندفنك، فلما كان يوم دخول النصارى بادس ركب ابن قياس وقاتلهم على عسكر الموجة، واستشهد هناك، ودفنه الشيخ سيدى أبو يعقوب رحمه الله وكان يقول عند دفنه هذا رجل مسعود.

القاضى أبو محمد عبد الله :

وحدث أيضا على الفقيه القاضى أبى محمد عبد الله بن عد الرحمان ابن يعلى، أنه قال مات رجل ممن كان يوالينا وكان مسرفا على نفسه، وكانت له أم عمياء، فلقيت الشيخ سيدى أبا يعقوب بقرب دار أم الرجل المذكور وهو يسئل عنها، فدخل اليها ودخلت معه، قال فقال لها ولدك يسلم عليك ويقول لك يا أمى كنت أخدم عليك فى دار الدنيا فادع لى فى الآخرة،

قال القاضى عبد الله المذكور، فقلت له يا سيدى فى النوم رأيته قال لا، يعلم الله الا فى اليقضة كلمنى مثل ما أنت تكلمنى، وحدثنى أبو العباس احمد بن المؤذن قال، كنت وأنا صغير أقرأ لوحى فى عرصة الشيخ سيدى أبى يعقوب بينما أنا أقرأ فاذا بالشيخ قد جاء لجهتى، وقال لى يا ابن محمد سق تلك الحصيرة التى فى قعر العرصة، فبيت عليها الفقراء الواردون لزيارة الشيخ، قال فقلت له ياسيدى لا يقدر أحد يقرب من ذلك البيت من كثرة مافيه من البراغيث، قال فتبسم الشيخ، وقال لى يعلم الله البراغيث لا يتعدون عليها سقها، ولابد، قال فقمت وأتيت بالحصيرة ودخلت الى البيت وجعلتها فيه وخرجت، فتعلق برجلى وثيابى براغيث كثيرة، فأخذ الشيخ طاشورة (1) ولفه ودخل الى البيت وجعله تحت رأسه ونام، فجلست أرقبه حتى فاق وخرج من البيت ولم يتعلق به برغوث واحد، فتعجبت من ذلك، قال أبو العباس بن المؤذن المذكور حكيت هذه الحكاية لبعض الناس بالاندلس فقال، كان فى ثيابى الشيخ القمل فقلت له نعم كثير، فقال ولاى شىء كانت البراغيث لا تتعلق به وتتعلق به القمل، قال فخلق الله عندى ببركة الشيخ ان قلت له ان البراغيث تتكون من التراب، فهى كسائر الحيوان الخارجة عن الانسان المؤذية له فحماه الله منها، كما حمى الاولياء من الاسواء وغيرها من الحيوانات المؤذية والقمل شىء يتكون من الانسان من ضرورة البشر، كاللعاب والمخاط وغير ذلك من ضروريات البشر اللازمة له، فذلك كانت فى الشيخ فسكت وسلم، وحدثنى أبو عبد الله ابن معيث قال، لما ولد لى ولدى يوسف جئت الى الشيخ سيدى ابى يعقوب، قلت له كيف اسمى ولدى الذى تزايد عندى، فقال له سمه يوسف قال، فقلت له يا سيدى كيف اسميه يوسف واسم أخى يوسف، انما أردت عليا كاسم أبى، قال فقال لى قلت لك تسميه يوسف قال فسكت وانصرفت وسميته فلم يلبث أن غرق أخى يوسف فى البحر، ولم يبق بدارى من اسمه يوسف الا ولدى يوسف فقط، وحدثنى أبو

---

(1) لم يوجد لها ذكر فى المعاجم ولعلها لهجة محلية تطلق على نوع من الوسادة .

عبد الله بن مغيث المذكور قال، انشأت أنا وأناس من أهل بادس قاربا، وسقناه بالزرع وسفرناه الى بلد الاندلس، بعد أن دعا له الشيخ، واستودعه الله، فانه ما استودع الله له الشيخ جفنا ولا مسافرا ما رأى فى ذلك الا خيرا، فلما سافر الجفن المذكر حدث نوى فى البحر فقلقنا وخفنا على القارب، قال فلما خرج الشيخ سيدى أبو يعقوب من المسجد وبعد صلاة الضحى خرجنا وراءه مريدين ان نسأل منه الدعاء أن يسلم الله ذلك القارب، فاذا بالشيخ قد رد وجهه الينا، وقال قد وصل قاربكم الى الاندلس، وخرج فى تلك البلاد التى فيها الفاكهة قال، فقلت له يا سيدى، المنكب، قال فقال نعم، قال فلما كان الا بعض الايام والخبر وصل بذلك .

جواز التجار من بادس الى الاندلس :

وحدثنى عبد الله بن مغيث المذكور قال كان رجع بمدينة بادس غراب (1) وطريرة رفعها مولانا السلطان المقدس المرحوم أبو الحسن (2) رحمه الله على يد خادمه غازى بن الكاس برسم المجاوزة وكان قيد عليها القائد على المترتى، وكان قد اجتمع ببادس خلق كثير من التجار بأحمال كثيرة من الكساء والجبة، وغيرها، وهم ينظرون الجواز لبر الاندلس، وطال عليهم الامر، فلما تيسر سفر الجفنين، المذكورين اجتمع التجار وجاءوا للشيخ بالجامع وقالوا له يا سيدى انظر من حالنا من أجل الله تعالى، وكلم لنا غازى عسى أن نسافر فى هاذين الجفنين، قال الشيخ ابعثوا الى غازى، فجاء غازى الى الشيخ، فقال له هؤلاء التجار ضاقوا ها هنا، فعسى أن تجوزهم فى هاذين الجفنين، فقال له السيد غازى مالى فى هذا أمر ولا نهى، وانما بعثنى برسم عملهما فقط، والامر فى

---

(1) سفينتان للسفر فى البحر وفى الاولى قال الشاعر :

غربانها سود بيض قلوعها يصفر منهن العد والازرق

(2) هو السلطان أبو الحسن المرينى على بن ابى سعيد عثمان بن يعقوب المنصور ويعرف بالسلطان الاكحل لانه كان أسمر اللون وتولى بعد وفاة أبيه سنة 731 هـ. وتنازل لولده أبى عنان عن الملك بعد قتال بينهما وتوفى فى 752 وجاهد بالاندلس .

الجواز للقائد فقال الشيخ ابعثوا وراء القائد، فجاء القائد راجلا اليه بداره، فقال له الشيخ عسى أن تحمل هؤلاء التجار فى هـذين الجفنـين صحبتك الـى الأندلس، فقال له القائد مليح والله السلطان أمرنـى على الاجفان برسم الجهاد نجـوز انا فيهما على الحركة، وقال الشيـخ ففى هذين الجفنين يكـون سفركم ان شاء الله تعالى، فقالـوا له وكيف يكون سفرنا يا سيدى فيهما وقد سمعت قول القائد، فقال لهم يعلم الله ما تسافرون الا فيهما ان شاء الله تعالى، فانصرفوا ولم يصدقوا بشىء من ذلك، ثم رجعوا اليه يوما آخر، وهموا ان يكلموه فلما رآهم قـال لهم اعملوا على السفر فى ذينك الجفنين، فانصرفوا، فلما كان بعد ذلـك دفع الجفنان المذكوران فى الماء، وجعل فيهما الزاد والعدة وبيت أهلهمـا على السفر، فجاء التجار الى الشيخ رضى الله عنه قال ياسيدى سافـر الجفنان، فقال لهم قلت لكم ما يسافرون حتى تسافروا فيهما، فلما كـان المغرب جاء عدوى من فاس بالامر من عند مولانا ابى الحسن رحمـه الله مع جفان من جباب وقال للقائد احمل هذه الجباب (1) الى بر الاندلس، وجوز ما ببادس مـن التجار، فعند ذلك صدق التجار كـلام الشيـخ، وسافر التجار بعد أن جمعوا خمسة وعشرين دينارا من الذهب وتصدقوا بها على فقـراء بادس شكـرا لله على مـا يسره عليهم من السفـر فى الجفنين المذكوريـن .

بنو عبد الوادى بتلمسان يأسرون قائد بـادس :

ونزل التجار المذكورون ببر الاندلس، وتوجه الجفنان المذكور ان الى بلد العدو، ثم زفتهما الريح من بلاد العدو حتى بلغا الى ماوراء بجاية من بلاد المشرق، ورجع الجفنان من هنالك الى أن جاز على ساحل برشك وهو فى ذلك التاريخ لبنى عبد الوادى، فأخذ القائد على المذكور يتكلم مـع بعض الناس فى ساحـل برشك، فقالوا له اصبـر حتى ناتوك بالضيافـة فساقوا ثلاثة من البقر، وأروه انهم يسوقون له بعض المرافق فدفعه قدر

---

(1) الجباب بكسر الجيم جمع جبة وهى الدرع، ومن السنان ما دخل فيـه الرمـح .

الله تعالى لما أراد ان يظهر فيه من كرامة وليه سيدى أبى يعقوب فهبط فى الفلوة الى البر على خلاف عادة القياد، ولم يهبط من الفلوة غيره فأخذه أولائك القوم الذين كانوا بالساحل وادخلوه الى البلد، ورجع ولده القائد حسن بالجفنين المذكورين ولم ينقص من الجفنين المذكورين أحد غيره، وكان عاقبة على أن سجنه بنو عبد الوادى حتى مات فى السجن، وذكر لى غير أبى عبد الله بن مغيث المذكور فى هذه الحكاية أن الشيخ سيدى أبا يعقوب حين عامله القائد على المذكور بتلك المعاملة الخشنـــة، قال للتجار يعلم الله ما تسافرون الا فى هذين الجفنين وتصلوا فى عافية ولا يخص منكم الا هو، وهو يشير للقائد على المذكور، فكان الامـــر كما قال الشيخ، فقـــد بلغ فى الحديث من أذى وليا من أولياء الله تعالى فقد حارب الله تعالى.

السفر فى البحر كـــان محفوفا بالاخطـــار :

وحدثنى أبو عبد الله بن مغيث المذكور قال، كنت بمالقة بحانوت أمين قيساريتها بن عبد الرزاق فاذا برجل من التجار جاء الى الحانـــوت، فأخذ التجار يسئلونه كيف جرى لهم مع النصارى فى البحر حين جاؤوهم، فقال لهم التاجر المذكور أحدثكم بكرامة عظيمـــة من كرامة سيـــدى ابى يعقوب البادسى، فقالوا بالله حدثنا، فقال لهم كنا ببادس بجماعة من التجار فلان وفلان وعسر علينا الجواز ولا وجدنا مركبا نجوز فيه، قال فاكترينا قاربا بثمانين دينارا من الذهب، فلما عزمنا على السفر خفنا من الجواز فى القارب، ورغبنا منه الدعاء لنا، وقال لنـــا امشوا ولا تخـــافوا واذا رأيتم شيئا تخافون منه فلا يلهيكم ولا يخوفكم، قال فاشتد خوفنـــا من ذلك، وسافرنا وقطعنا البحر الى أن بلغنا قريبا من المنكب، فاذا (1) بقرقورة مسطعة للنصارى المغيرين تتبعنا، فأيقنا بالهلاك فلما قربت منا بحيث كنا نشاهد كل ما فيها ظهر لنا غراب وطريدة قاصدين الينا مـــن جهة المنكب، فازداد خوفنا، فلما وصل الينا الغراب والطريدة فاذا همـــا من أجفان المسلمين، جاءا من المنكب يستخلصنا من تلك القرقورة فاعطونا الطريق وجوزنا حتى دخلنا المنكب، ونزلنـــا به سالمين فى عافية ببركـــة الشيخ رحمه الله تعالى ونفع به .

---

(1) لا توجد كلمة قرقورة لاحد المراكـــب فى مادة القرقرة ولعلها عامية.

اختلاف ابى يعقوب مع بعض الفقهاء فى صلاة عيد الفطر:

وحدثنى الشيخ الفقيه أبو موسى عمران الزهيلى، قال فى عيد الفطر لم يكن ببادس من ثبتت عنده رؤية الهلال فأصبح الشيخ سيدى أبو يعقوب اليوم المتم لثلاثين يوما من رمضان، وخرج بالناس الى المصلى وصلى بهم صلاة العيد، وأفطر وأفطر الناس، فانكـر ذلك على الشيـخ والفقراء أحد الفقهاء يقال له العباس الساروري، قال الشيخ أبو موسى عمران جئت من البادية ثانى يوم العيد برسم زيارة الشيخ والسلام عليه فوجدته فى عرصة جالسا مستندا للحائط، فوقع الكلام على صلاة الشيخ وفطره وفطر الناس بفطره، أشاع العبـاس من الفطر والخـروج الى المصلى قال الشيخ أبو موسى عمران فقلت للحاضرين الحق من جهة الفقه مع العباس المذكور، فانبرى لى الشيخ وقال تكذبنى، وقال لى يعلـم الله لقد ادى به الشهود عندى من الطرابلس .

غـزوة كبـرى بالاندلـس :

وحدثنى الشيخ الصالح المبارك أبو زكرياء الحاج يحيى الشاكرى خديم الشيخ الصالح سيدى أبى يعقوب فى حال وجهته الى الحجاز، قـال دخلت يوما على الشيخ سيدى أبى يعقوب فى بيته فوجدته قائما يصلى، وسيدتى الزهراء مستقبلة القبلة، فلما سلم الشيخ من صلاته وسلمت عليه، قال الشيخ لسيدتى الزهراء، يا زهرة كانت اليوم فى غرناطة غزوة عظيمة مثل الغزوة التى فى فتوح الشام، فلما كان بعد أيام وصل الخبر الى بادس من الاندلس بالغزوة العظيمة، التى غزى المسلمون مرج غرناطة، وكانت الغزوة العظيمة فى ذلك اليـوم .

فتنـة فى بـادس :

وذكر لى غير واحد أنه كانت فتنة ببادس، ففر أهلها الى البادية، وبعضهم سكن بالبادية وأودعوا أمتعتهم بدار الشيخ سيدى أبى يعقوب، فكان الشيخ رحمه الله يصلى ويخرج فى بعض الاحيان ويتفقد بـاب الدار والاسطاح، وهو يقول اللهم أحرسها من الضرر واجعلها فى كنفـك، قال الشيخ سيدى أبو يعقوب فما خرجت بعـد ذلك اليوم ولا تفقـدت واستأمنت من ودائع النـاس .

تأخـــر نـــزول المطـــر :

وحدثنى أبو العباس بن المؤذن أنه كان جالسا فى جمع من أهـــل بادس فى الجامع بين يدى الشيخ سيدى ابى يعقـــوب وطالب يصحـــح عليه لوحه، وكان للمطر مدة كثيرة لم ينزل، وقلق الناس من ذلك قلقـــا شديدا، واذا بالشيخ يقول بأن يجمعوا الليلة، قال له من حضر أى شىء قلت ياسيدى يجمع الليلة، فقال للطالب الذى كان يقرأ اقرأ، ولم يجبهـــم بشىء، وكان فى ذلك اليوم حر كثير وشمس عظيمة، فاذا بالارياح قـــد هبت وهبت من باب الجامع، حتى صلوا المغرب والعشاء مجموعتين كما قـــال الشيـــخ .

مقارنة بين الشيخين الحاج حسون وابى يعقوب :

وحدثنى جماعة أنهم سمعوا أن سيدى الشيخ الولى المرحوم أبا اسحاق سيدى الحاج حسون البقيوى لما حضرته الوفاة أغمى عليـــه من قبل صلاة العصر الى بعد صلاة العشاء الاخيرة، قال فلما أفاق قال له ولده سيدى الحاج محمد يأبت لا تنس ذكـــر الله تعالى، فقال له حشـــاه ان انساه، ثم قال لـــه ان الله تعالى أعطانى الشفاعة فى عشـــرة آلاف، فاسترزت فأعطيت الشفاعة فى عشرين ألفا، فاستـــزدت فأعطيت الشفاعة فى ثلاثين ألفا، فقيل لى هذا مقامك عندنا، وان الله تعالى أعطى الشيـــخ أبا يعقوب الشفاعة فى خمســـين ألفا، قيـــل لى فحكى ذلك للشيـــخ أبى يعقوب فقال نعم يعلم الله أما تعلمون ان المخلوق اذا خدمه الانســـان يعطيه العطايا الجزيلة ويشفعه فى الجرائم العظيمة ويفعـــل معه الخيرات، فكيف بالخالق سبحانه وتعالى، يعلم الله ما أشفع الا فى جميع مـــن رآنى أنظر اليـــه ولو مرة واحدة، قال مؤلف هذا، واجتمعت فى مسجـــد بادس مع سيدى ابراهيم ولد سيدى الحاج محمد المذكور، وسألته عـــن ذلك فقال لى هذه المسألة صحيحة، ولكنى كثير النسيان فاسأل عنها أخى أبا بكر فانه أثبـــت منى، ثم جاء أخوه أبو بكـــر الى بادس وسألتـــه فى الجامـــع فقال لى نعم كـــذا سمعت من والدى، وزاد ان جـــده لما رأى ما أعطى الشيخ سأل المزيد فقيل له خذ ما أتيتك وكن من الشاكرين .

عـــدد دور بـــادس :

وذكر لى غير واحد أهل بادس أنهم سمعوا الشيخ أبا يعقـوب غير ما مرة يقول يعلم الله الولى يشفع فى أربعين دارا أمامه وأربعين دارا وراءه وأربعين عن يمينه وأربعين عن يساره، وعدوا ديار بادس من كـل الجهات نوجدوا أقل من الاربعـين .

عمل الشيخ أبى يعقوب بيده فى الفلاحـة :

وذكر لى بعض الطلبة أن والده دخل على الشيخ سيدى أبى يعقوب برؤوس الكرنب وأعطاها لى، قال فقلت فى نفسى هـذه الغرصة فيهـا الرباع وله الربع فى خضرها، فكيف يعطنى الشيخ هذه الرؤوس وفيهـا حظ الرباع قال فما أتممـت ذلك حتى قـال لى الشيخ يعلـم الله هـذه الاحواض التى أعطيتك منها الكرنب ما للرباع فيها شىء .

تجارة أهل بادس فى الخشـب :

وحدثنى جماعة من أهل بادس أن رجلا يقال له الرايس على، وكان يبيع فى حانوت .بادس، وكان مع ذلك يتجر فى الخشب فضعف رأس ماله فى وقت، فأعطاه رجل من تجار الاندلس خمسة دنانـير ذهبا، وقـال له اشترها خشبا نجـد عندك ميسرا اذا رجعت من سفرى ان شاء الله تعالى، وسافر الرجل فى البحر الى الاندلس، قـال الرايس على فأخـذت الدنانير وكنت فى حاجة شديدة اليها، فتصرفت فيها حتى اشترى له بعـد ذلك الخشب بغيرها مما يفتحه الله لى، قال فلمـا سافر الرجل قام عليـه البحر فردته الرياح الى جهة الجبهة، وعطب هنالك ونجا برأسه، ورجـع الى بادس، فبينما أنا جالس فاذا به قد دخل عريانا، فقال لى أعطنـى الخمسة دنانير نشترى ما نلبس ونجهز منها على نفسى، فسقط بيـدى، ولم أدر ما أجاوبه به، فوعدته أن أسوقهـا لـه، وصرفته عن نفسـى، وبقيت متفكرا فيما أصنع فخلق الله عنـدى ان مشيت الى سيـدى أبى يعقوب فوجدته فى غرفة مع ناس، فجلست منتظرا انصرافهم، فحينئـذ أكلمه، فلما انصرف الناس قام الشيخ فتبعته الى باب العرصة فلما هممت

أن أكلمه، قال لى امش الى حانوتك، فتوقفت فقال لى مرة أخرى امش لحانوتك قلت لك، فتعجبت وذلك بأنه ما جئته قط الا وتبسم لى ويرحب بى، قال فخرجت وانصرفت الى حانوتى، وجلست بها، وكان عندى فى حانوتى زمام لجلد كنت أكتب فيه بيعى وشرائى، فخلق الله عندى أن أخذ ذلك الزمام وانتصفحه وانظره لعله بقى لى عند أحد شىء، فأطلبه، قال فأخذت الزمام وحللته فلما فتحته وجدت فيه بين الكواغد خمسة دنانير ذهبا جديدا، فكدت أن يذهب عقلى من العجب مما أعطى الله أولياءه من الكرامات، فأخذتها وبادرت بها الرجل لاعطيه متاعه، وفرج الله عنى ما كنت أعانيه من أمر الرجل .

اشتغال النساء بالحياكة والصباغة :

وحدثنى رجل من أهل البادية يقال له يحيى بن عيسى اليسغفى، قال صنعت أمه كساء وعلقتها فى (1) النول، واحتاجات الى شىء من اللك تسبغ به ارجوان الكساء المذكور، ولم يكن عند ناشىء نشترى به اللك، قال فقالت لى أمى خذ هذا المقياس واذهب به الى بادس وأرهنه عند العطار فى اللك الذى نحتاج اليه حتى يتم نسج الكساء ونبيعه ونفك به المقياس، قال فأخذت المقياس وجعلته فى شكارتى وجئت الى بادس، فدخلت الى دار الشيخ فلما سلم من صلاته سلمت عليه، فقال لى يا ولدى يعلم الله العطار لا يبيع اللك بالدين، ارفع طرف السجادة واحمل ذلك الذى تحتها أربعين درهما جديدا، فأخذتها ومشيت للعطار فقلت له نحتاج من اللك كذا فكم هو، وقال لى أربعين درهما، قال فقلت له عسى أن تحبس هذا المقياس فيها وتعطنى اللك، فقال يا ولدى اللك لا يباع بالدين وانما يباع بالدنانير أو الدراهيم، قال وقلت ذلك تصديقا لكلام الشيخ، قال ثم أخرجت الدراهيم وأعطيتها له وحملت اللك .

نارنج سبتة يجلب الى بادس :

حدثنى غير واحد عن أبى بكر الحيانى أنه مرض ولده مرضا شديدا، وكان كثير الموالات للشيخ والتصرف فى حوائجه، قال فاشتغلت

---

(1) خشبة الحايك التى ينسج عليها ويلف عليها الثوب .

بمرض ولدى وغبت عن الشيخ، قال فلما جئت اليه سألنى عن غيبتى فأخبرته بمرض ولدى، فكتب لى حرزا ونشرة فحملت ذلك للولد فوجد راحة، فاشتهى نارنجة ولم يكن ذلك الوقت منه ببادس الا ما يجلب من سبتة فطلبتها فى بادس فلم نجدها، واشتد طلب الولد لها حتى قطعت الدخول اليه، قال فقلت اذهب الى عرصة الشيخ سيدى ابى يعقوب اسمع العلم وأخبار الصالحين، لعل خاطرى يستريح من أمر الولد، فلما دخلت العرصة لم نجد فيها غير الشيخ وحده، وهو يتوضأ فأردت الرجوع فأشار على بالدخول فدخلت، فلما فرغ من وضوئه قال لى كيف حال ولدك، قال فقلت له ياسيدى حسن كان ولكنه طلب منى نارنجة ولم أجدها، فاذا بالشيخ قام وادخل يده فى ربيع بازاء الحائط وأخرج منه نارنجة عظيمة جدا شديدة الحمرة حسنة الرائحة كأنها قطعت فى تلك الساعة، وأعطاها لى، وقال لى جعل الله راحته فيها، قال فأخذها الولد فشمها وكانت سبب راحته، قال وبقيت عندنا أياما وفقدناها، وهذه حكاية مشهورة عند أهل بادس، حدثنى بها جماعة من أهل بادس .

اهتمام الشيخ أبى يعقوب باليتامى :

وحدثوا عن أبى بكر الحيانى المذكور أنه كان يتصرف للشيخ فى شراء ثوب الايتام، وشراء زرع لهم يعطى له الشيخ الدراهيم ويشترى، فلما كان يوما وجد الشيخ خارجا عن العرصة الى د ره فتبعه، قال أبو بكر فقلت فى نفسى يارب، هذا الشيخ سيدى أبو يعقوب أى شىء دعاه لهذا الصداع الذى يشوش عليه، هذا اليتيم اشتر له ولهذا أفعل كذا، قال فاذ به رد رأسه وخرج، فقال كان سيدك أبو يعقوب قبل أن يعرفك ويعرف غيرك، ثم اعرض عنى وانصرف، قال فكدت أن أموت من مكاشفة سيدى أبى يعقوب وبهت، فاذا به رجع الى وقال يعلم الله تعالى أى شىء نعمل لهؤلاء الايتام قرابة سيدتك الزهراء أولاد أخيها، وأولاد أختها، وأولاد بنى عمها، ويقطع قلبى لا نقدر ما نعمل .

اجتماع اليتامى وذوى العاهات المزمنة فى داره بعيد الاضحى:

حدثنى عبد الله بن مغيث، قال جاءت لدار سيدى أبى يعقوب

ليلة عيد الاضحى بكر عمياء من قرابة السيدة الزهـــراء فأصبحت يـــوم العيد فى الدار، فاجتمع أهل الدار ومن بها من الايتام والمساكين وشـــووا اللحم وأكلوا حتى شبعوا، وكانت البكر العمياء لقرب عهدها بالورود على الدار والانس بأهلها، أصابتها حشمة وحياء، ودخلت فى بيت من بيـــوت الدار واختفت هنالك، والشيخ فى هذا كله مشدود عليه بيته يصلى، فاذا بالشيخ قد خرج من بيته الى البيت الذى فيه البكر العمياء، وصار يقـــول هنا من لم يأكل، وكان فى الدار قدرة بلحم حينا جعلت على النـــار، فغرف منها بيده فى أناء، وأخذ خبزا وحمل اللحم والخبز الى البكر العمياء، وقال لها كلى، قالت فأكلت لحما نضجا فتعجبت من اطلاع الشيخ على حـــالى، وهو فى بيته مشدود عليه، ومن نضج الحم من غير طبـــخ .

احترام المرور فى ملـــك الغـــير الا بحق :

وحدثنى أبو عبد الله بن مغيث المذكـــور عن أبى بكر الحيـــانى المذكور، قال خرج الشيخ سيدى أبو يعقوب من عرصته وجاز فى عرصـــة يعقوب بن يوجرتين المجاورة لها، قال وأنا وراء الشيـــخ، قال فلما وصلنا الى الوضع الذى جرى بينى وبينه ما جرى فى الايتام، قال فقلت فى نفسى كيف يجوز للشيخ أن يمر فى عرصة الغير، فاذا به قد رجع الى منحرفا كما كان صنع فى مسئلة الايتام، وقال لى يعلم الله حظ أمى فى هـــذه العرصة، يشير لعرصة بن يوجرتين باق الى الآن ما بعته ولا قبضت ثمنه.

تحليـــة العروس يـــوم زفافهـــا :

وحدثنى أبو عبد الله بن مغيث المذكور قال، لما تزوجت صفية بنت أبى الحسن على بن الكماد وأخذ فى زفافها، جعلت فى يدها (1) غرفة من ذهب كانت من متاع أختها زوجة ابن عياذ، فلما أراد النساء الانصراف أخذت امرأة ممن حضر الغرفة المذكورة وجعلتها فى حجرها ونسيتها، فلما قامت سقطت من حجرها وهى لم تشعر، فطلبت الغرفة فلم توجد وقامت قيامة عليها فى الدار، فمشت امرأة كانت تخدم صاحبة الغرفة لدار الشيخ

---

(1) لا يوجد اسم للسوار أو الخاتم بهذا الاسم ولعلها كلمة عامية.

سيدى أبى يعقوب وقالت له يا سيدى امرأة ابن عياذ ضاعت لها غرفة من الذهب من يد أختها العروسة فعسى أن تدعو الله يجبرها عليها فقال لها الشيخ سيدى أبو يعقوب تعطى فيها كذا للمساكين، وتجبر ان شاء الله تعالى وكان للشيخ عادة جارية ما انخرقت قط، اذا مشى اليه أحد بتلف شىء وقال له يخلفه الله عليك، فلا يجبر أبدا، واذا قال له تصدق بكذا ويجبر فلابد أن يجبره الله تعالى به، قال فانصرفت تلك المرأة الى صاحبة الغرفة وقالت لها، قال لك سيدى أبو يعقوب تعطى ربيعا كذا للفقراء وتجبر غرفتك، فقالت لها تعطى دينارا، ثم انصرفت فأخذت صاحبة الغرفة صرف دينار غير ربع وساقته فى طرفها للشيخ، وقالت له ياسيدى تلك الصدقة سقتها ، فقال لها وهو لم يعلم كم ساقت وقال من قال شيئا يوفيه، فبعث سيدى أبو يعقوب طالبا اسمه عيسى المصمودى كان يقرأ عليه، وكان رجلا صالحا، هو الان مدفون مع الشيخ فى روضته، قال فقال له الشيخ يا عيسى قل له لان يرد الغرفة التى عند زوجته، فقال له الشيخ اخرج من هنا وأول من تلقاه هو صاحبك، قال فخرج الرجل عيسى الطالب المذكور فلقى رجلا، فقال له يقول لك سيدى أبو يعقوب رد الغرفة التى عند زوجتك لصاحبها، قال فبعد ذلك جاء الرجل زوج المرأة، وقال يا سيدى ما قدرت فى تلك المرأة بشىء، فقال له الشيخ انظرها فى برسيل النخالة تجدها، قال فنظر فى برسيل النخالة فوجدها فأخذها وحملها الى الجامع بعد صلاة الغتمة، ورمى بها لعيسى الطالب ومن كان معه فى بيوت الجامع، فأخذها وحملها الى الشيخ سيدى ابى يعقوب، وحملها ليلا لدار صاحبتها، ونقر الباب فوقف له زوج صاحبتها فأنشد، سيدى أبو يعقوب (ما عودنى أحبائى قاطعة، بل عودونى اذا قاطعتهم وصلوا) ودفع له الغرفة وانصرف، هذه الحكاية مشهورة ببادس .

علاقة المزمة ببادس :

سمعت من غير واحد ببادس يحدث أن رجلا من التجار جاء من الاندلس صحبة القائد يحيى الرتراجى، وكان التاجر المذكور صاحب متاع كثير، وكانت معه شكارة فيها أثاث، حمله للناس من ثياب الخز

وغيرها، فاشتغل باحماله فسرقت له الشكارة، فجاء الى الشيخ سيدى أبى يعقوب فشكى له واستوهب منه الدعاء، فقال له الشيخ تعطى شيئا للمساكين ويجبرها الله عليك، فقال له ياسيدى عشرين دنانيرا ذهبا، فقال له الشيخ سر فى حفظ الله تعالى وآمل الله ان يجبرها عليك، وبعد يومين وصل رقاص من المزمة بكتاب واليها، يقول فيه وصل هنا رجل من الغزاة وبيده شكارة انكرناها عليه وسألناه عما فيها فتوقف، وثقفت الشكارة، فان كان هناك من ضاع له شىء فليأت، فتوجه الرجل التاجر الى المزمة واخرج زمامه وذكر منه جميع ما فى الشكارة فصرفت عليه شكارته، ورجع الى الشيخ مقضى الحاجة، فأعطى العشرين دينارا للمساكين، وحدثنى غير واحد من أهل بادس أن الشيخ رحمه الله كان متى احتاج شيئا من الدراهم قلت او كثرت يدخل يده فى جيبه ويحركه ويقول سبحان الله، ويخرج دراهيم جديدة، أو يحل أحد كتبه فيجد فيه الدراهيم، ورأيت خلقا كثيرا لا يحصون رأوه يخرج الدراهيم من جيبه ومن الكتاب، وأما أحفاده فحكوا لى أنه لم يزل بطول حياته يعطيهم من تلك الدراهيم شيئا كثيرا، وانه كان يقول لهم افلوا ثيابى فيفلونها فيجدون فى جيبه الدراهيم بعد أن لم يكن فيها شىء .

من أسباب تشاجر الزوجين :

وحدثنى أبو العباس احمد بن المؤذن، عن الطالب المعلم للكتاب العزيز أبى عبد الله محمد بن احمد، قال طلبت منى زوجتى أن أشترى لها (1) كنبوشا، قال فاعتذرت لها ولم تقبل لى عذرا، فتشاجرنا بسبب ذلك، وخرجت عنها وأنا مكروب، فمشيت الى الشيخ سيدى أبى يعقوب فجلست بين يديه، واذا به ادخل يده فى جيبه، وصار يحركه ولم يجد فيه شيئا، وزاد فى تحريكه ويقول سبحان الله سبحان الله فاذا به اسمع حركة الدراهم فى جيبه، فاخرج لى أربعة وعشرين درهما، وقال لى خذ اشتر بهذه للفقيرة متاعك كنبوشا، فأخذتها وانصرفت وأنا أتعجب من قدرة الله عز وجل فى اطلاع الشيخ على ما بينى وبين امرأتى، وفى اخراج

---

(1) الكنبوش هو خرقة من الكتان تشد به المرأة رأسها وهى لهجة محلية.

تلك الدراهيم، وحدثنى الشيخ أبو عبد الله بن مغيث وكان شديد الملابسة للشيخ والتصرف فى حوائجه والنفقة له والدخول الى بيته والخروج منه، لكون السيدة الزهراء زوجة الشيخ سيدى أبى يعقوب خالته، قال كلما كان الشيخ يحتاج لنفقة داره يقول لى يا محمد امش للطاق، ونمشى للطاقة ونرفع الكتب فنجد الدراهم تحتها، قال وسمعت الشيخ يقول الله اعلم كلما نحتاج لنفقتى نجده تحت الكتاب فى الطاقة، قال عبد الله بن مغيث ما زلت طول السنين أخرجها بيدى ؟

الشيخ عيسى بن عبد الكريم صاحب زاوية سيدى عيسى

قال مؤلف هذا، ان لبنى ورياغل رجلا مسنا من أولياء الله تعالى، اسمه عيسى بن عبد الكريم، وانه من جماعة الشيخ ابى ابراهيم الاعرج، وان له أسلافا صالحين أولياء، فتشوفت الى رؤيته كثيرا الى أن يسر الله على، فمشيت الى موضعه واجتمعت معه وبت فى بيته وأكلت طعامه، ورأيت له بركة عظيمة، وهو رجل أمى لكنه يحفظ من مسائل الفقه ما يحتاج اليه فى دينه من العبادات والمعاملات شيئا كثيرا، ويتكلم فى دقائقه كلاما تعجبت منه تعجبا عظيما، فكنت اتحدث معه فى كرامة الصالحين، الى أن تكلمنا على الشيخ سيدى أبى يعقوب نفعنا الله به، فقال سيدى عيسى بن عبد الكريم نعرفكم بما رأيت من كرامات سيدى أبى يعقوب نفعنا الله به، فقلت له يا سيدى بالله عرفنا، قال نعم جاء العيد الكبير وكانت عندى غنم بالجبل، فمشيت اليها واخترت منها كبشا سمينا، وسقته لاضحى وكان رجل جاء معى فى أثناء الطريق بدابته، فحمله لى وقال فلما بلغنا الى مفترق الطريق وضع لى الكبش عن الدابة وانصرف فبقيت أجره وهو يتصعب على، الى أن قربت الشعبة وأنا قد عييت، والكبش قد عيا ورقد فى الارض، ولم يقدر على الوقوف، وأنا فى غابة ذات سباع كثيرة، ولم أقدر أن أنجو بنفسى وأترك الكبش، ولا أن أجلس معه فتأكلنى السباع، وحارت مذاهبى، قال فقلت اللهم ان كان للشيخ سيدى أبى يعقوب عندك مقام وهو مقبول عندك فاجعل لى من أمرى هذا فرجا ومخرجا، وصلى الله على سيدنا محمد وآله، قال فما أتممت الدعاء الا والكبش قد نفخ وانتفض انتفاضتين وجرى أمامى فصرت أجرى وراءه حتى دخل فى بيتى، فانطرحت فى الارض مما جريت وراءه .

ذكر رؤية الشيخ رضى الله عنه للخضر عليه السلام :

وقد تقدم فى صدر الكتاب ذكر رؤية الشيخ رضى الله عنه للخضر عليه السلام على البئر تحت الرابطة، حين بعثه مربيه سيدى أبو يحيى الشامى برسم استسقاء الماء، وتلك أول رؤية كان له رحمه الله، حدثنى أبو عبد الله بن مغيث قال سمعت الشيخ سيدى أبى يعقوب يقول أول رؤية رأيت الخضر عليه السلام الرؤية التى رأيته على البئر .

الفقيه القاضى أبو البركات الاندلوسى :

وحدثنى أبو العباس احمد بن المؤذن، قال كنت جالسا مع الشيخ سيدى أبى يعقوب رضى الله عنه ونفعنا به فى عرصته، وكان معنا فى المجلس الفقيه القاضى أبو البركات البرفيقى الاندلوسى، فقال لى الفقيه أبو البركات يا فقيه أبا جعفر عسى أن تنظر لى مويهة حلوة اشربها، فقال لى الشيخ سيدى أبو يعقوب ولاى شىء لا يشرب من تلك السانية فمشى الى سانية عرصته، فقال له الفقيه أبو البركات يا سيدى ماؤها شلوق، فقال له الشيخ سيدى أبو يعقوب يعلم اللله يا سيدى لا تشرب ولا تتوضأ مدة بقائك ببادس الا منها، وكذلك فعل حتى انصرف من بادس،

الشيخ الصالح أبو الحسن على :

وحدثنى أبو عبد الله بن مغيث عن والده الشيخ الصالح ابى الحسن على خديم الشيخ سيدى أبى يعقوب، قال كان والدى رحمه الله فى المسجد الجامع من بادس جالسا مع سارية من سوارى المسجد والشيخ سيدى أبو يعقوب جالس مع الحائط يتحدث مع رجل رأيته ولم اتحقق صفته، فبعد ذلك بمدة فاذا بالرجل قد انصرف وجاء الشيخ سيدى أبو يعقوب وحده الى جهة السارية التى كنت معها، فقال لى وهو يبتسم يا على رأيت الرجل الذى كان يتحدث معى، قال فقلت له لا يا سيدى الا أنى علمت أنك تتحدث مع شخص فقال لى ذلك الشخص هو الخضر عليه السلام، قال فارتعدت برأسى، وسلبت عن عقلى اسفا على ما فاتنى من رؤيته والتبرك به، وبقيت ثلاثة أيام هائما متحيرا لم أكل ولم أشرب، قال وكانت عادتى مع الشيخ اذا خرج الشيخ من المسجد بعد صلاة العتمة ان أصل معه حتى يدخل داره، قال فلما كان بعد ثلاثة أيام المذكورة دخل الشيخ

الى داره بعد صلاة العتمة وأردت الانصراف، فقال لى يا على هنا تبيت الليلة عندى، قال فدخل ودخلت معه فأخرج زوجته الى البيت الآخر، وبت أنا والشيخ فى البيت، فقام الشيخ يصلى وقمت أنا أصلى فى الجهة الاخرى من البيت، فصليت ما شاء الله، ثم أصابنى كسل عن الصلاة، فلم أقم أصلى، فجلست جالسا ثم اضطجعت فنمت، فاذا أنا فى النوم فى عرصة الشيخ سيدى أبى يعقوب والشيخ عند الصهريج أمام الساقية ومعه فقير على زى الاعاجم، ويده فى يد الشيخ، والشيخ يقول لى يا على هذا هو الفقير الخضر عليه السلام، قال فقبلت يده وتبركت به ثم افقت، فاذا بالشيخ قد تنحنح وقال لى يا على رأيته، قال فقلت له يا سيدى نعم رأيته؟

الشيخ أبو يعقوب فى جامع عمرو بن العاص :

وحدثنى أبو عبد الله مغيث عن الشيخ أبى يعقوب قال كنت فى جامع عمرو بن العاص أنا والخضر عليه السلام نتحدث، فاذا بوالدك يعنى على بن مغيث جاء وجلس الينا وقبل يدى الخضر عليه السلام، وصار يقول له يا سيدى ادع لنا أن يجمعنا مع أولادنا، قال الشيخ سيدى أبو يعقوب فكان الخضر يدعو له بلسان الاعاجم ما فهمت ما يقول له فى دعائه وحدثنى أبو عبد الله المذكور، قال سمعت سيدى أبا يعقوب يقول، اجتمعت مع الخضر عليه السلام فى جامع عمرو بن العاص ثلاث مرات، قال مؤلف هذا الكتاب غفر الله له، رأيت فى كتاب مناقب الاولياء لسيدى أبى الحسن المراكشى رحمه الله ونفع به، قال على بن محمد خرجت يوما من مصر أريد الميمون لزيارة رجل مخفى على الناس لا يعرفه الا رجال معلومون، وما يمكن لى أن أذكر اسمه، فبينما أنا على شاطىء النيل ماشيا اذ انا بالرجل عليه حلة العجم، وعليه مرقعة وبيده أبريق فسلم علينا مبادرا، فرددت عليه السلام، واثر البشاشة على وجهه، وكان وقت صلاة الظهر فقال أم بنا نصلى الفريضة، فقلت له نعم وكنت على وضوء، ثم قلت له صل بنا قال نعم فأخرنى عن يمينه ثم قال لى تأخر قليلا فان هذه هى السنة فى صلاة الاثنين، فصلينا فكان يطيل السجود والركوع، وما طيبت صلاة اتقن منها، وكنت أسمع خلفنا ونحن نصلى، فنظر الى وضحك حتى انظر الى ثناياه، وقال لى يا على أما تعلم

ان ملائكة هذا الموضع صلوا معنا، فتعجبت منه الذى عرف اسمى من غير أن أعرفه، وعلمت أنه من الاولياء بلا شك ثم قال لى لو أدركت يقينا فى علم التوحيد لرأيت الملائكة بعينك وكنت أظن بنفسى أنى على شىء فقلت له يا سيدى علمنى مما علمك الله، قال نعم فقال لى أذكر ما علمت فذكرت له شيئا فضحك منى، وقال لى يا على لو أعطيت من علم التوحيد ذرة لحملت السماء على جفن عينك ثم قال لى لا يقع نظرك فى عالم مشاهدتك وغيبتك الا على الله لانه ما فى الوجود غيره، فنظرت فلم أر أحدا فغشى على ساعة، ثم قمت فمشيت حتى وصلت الميمون، فحدثت بذلك السيد الذى جئت لزيارته، فقال لى هو الخضر عليه السلام، فبهت فى وجهه، فقال لى أى شىء يبهتك ما جاءنى رجل قط حتى يلقاه صلى الله عليه وسلم، ومن عندى خرج أمس فبقيت متحيرا حيث لم أسأله أكثر مما سألته فعلم ذلك السيد منى فأقعدنى عنده ثلاثة أيام، ثم أردت أن أودعه وانصرف، فقال لى أقعد الساعة حتى ياتيك صاحبك الاعجمى، الذى هو الخضر عليه السلام، فسررت لعلمى بصدق السيد، فقعدت اليوم الرابع حتى الى وقت صلاة الظهر، فاذا بباب السيد قد قرع فقال لى قم فافتح، فقمت الى الباب ففتحته فاذا أنا بالرجل العجمى الذى صليت معه وأنا متأسف على ما فاتنى من سؤاله عن شىء انتفع به فلم تظهر منى بشاشة من شدة الفرح، فدخل الى بيت السيد فصلى بنا الظهر، ولم أر السيد قرب اليه طعاما ولا شرابا بخلاف عادته مع من يرد عليه من الاولياء، ثم تكلم السيد معه بكلام ما كنت أفهم منه الا بعض الكلمات، وأنا ساكت لا أستطيع خطابا ولا رد جواب، فلما فرغ أخذ فى الدعاء فلم أعلم منه الا ثلاث كلمات: الكلمة الاولى ياحى مع كل حى يامن لا يفوته شىء، والثانية يامن أحاط بكل شىء علما، وقهر عباده بالموت والفناء، والثالثة يامن تقدست أسماؤه ولا يحصيها غيره، ثم قال لى السيد الولى قم الى موضعك الذى أتيت منه فبكيت بكاء شديدا حتى كادت روحى تزهق فجبر العجمى قلبى، وقال لى نجتمع يوم الجمعة بمصر فى الجامع، فقلت له ما أعرفك أين أجدك فقال تجدنى فى مسجد عمرو بن العاص، فحينئذ طابت نفسى، ثم ودعت

السيد والرجل الاعجمى، وصرت الى مصر، فنظرت اليه فعرفته وما وجدت معه أحدا، فصليت ركعتين وسلمت عليه، فأخذ بيدى واقعدنى على يمينه، فسألنى عن حالى فأخبرته فبقيت بمصر سته أشهر، اجتمعت معه فيها ثلاث مرات فى ثلاث جمع وهو لا يجالس فيها أحدا، فوقع فى نفسى أن الناس محجوبون عن روّيته، فعلمنى فيها ثلاث علوم، وأوصانى الا أعلمها لاحد الا عند موتى، فقلت له أعلمها لاحب الناس الى، قال ما تستطيع ذلك ما يعلمها الا من قسم الله له بها، فلم يزدنى أكثر من ذلك ثم أمرنى بالمشى الى بيت المقدس، فمشيت باذنه، وما رأيته بعد ذلك، فعلمت أن ما كان قسم لى الا ما علمنى .

القاضى المفتى الشريف أبو عبد النور العمرانى ببادس :

حدثنى أبو العباس بن المؤذن، وأبو عبد الله بن مغيث وغيرهما وأهل بادس، وكنت سمعت هذه الحكاية لاكن لم أتحقق هل هى على النسق من الشيخ الفقيه المفتى الشريف القاضى ابى عبد النور بن محمد العمرانى بمدينة بادس يحكيها عن الشيخ أبى يعقوب والذى سمعته من المذكورين ببادس ان الشيخ سيدى أبا يعقوب .

الشيخ الصالح المؤذن ببادس وتعبير الرؤيا :

حدث أنه كان يرى الرؤيا فيحتاج فيها الى تأويل، والى نظر فى الكتب، قال فقال لى المؤذن الصالح الموقت عيسى بن عمر اذا رأيت الرؤيا فانظر اليوم أو الليلة التى تراها فيه، واحسب كم يوم مضى من الشهر وعد على عدد الايام من سور القرآن من أول الفاتحة، وتلك السورة التى توافق فى العدد اليوم الذى رأيت فيه الرؤيا، تعد من أولها من الايات على عدد السور التى عددت أيضا، ففى الاية الموافقة لليوم الذى رأيت فيه الرؤيا، الى أن جاءنى أبو العباس احمد بن يوسف بن اسماعيل وقص على رؤية رآها، ففسرتها بالوجه المتقدم، وقلت له اذا أنت رأيت رؤيا ففسرها على وجه كذا وكذا، وعلمته التفسير المقدم، فلما كان بعد ذلك وأردت أن أفسرها بذلك التفسير نسيته، فأردت أن أتذكره من عند الشيخ المؤذن أبى مهدى عيسى المذكور، فقلت له ذلك التفسير الذى علمتنى أذكره لى وانى نسيته، قال فقال لى والله ما علمتك شيئا قط ولا ذكرته

لك ولا عندى منه علم، فانصرفت عنه وعلمت أن الذى كـان علمنى ذلك هو الخضر عليه السلام، قال مؤلف هذا، مازلت أفسر الرؤيـا على هـذا الوجه فلا يظهر لى شىء فيها، فعلمت أن فى هذا التفسير سـرا لم يطلع عليه الا الشيخ سيدى أبو يعقوب وأمثاله، ولم يظهر ذلك السـر لى ولا لأمثالى، مثل أن يكون فى باطن تلك الآية التى تعبر بها الرؤيا ما يطلـع عليه الا أولياء الله تعالى ولا يطلع عليها غيرهم، وقد تقدم فى الحكايـة فى صدر الكتاب عن سيدى عبد الله المغراوى أنه كان يقرأ فى اللوح الواحد من القرآن خمسة أشهر وستة أشهر فى كل نفذه ينفذه يرقى الى مقـام المعرفة، وقد قال سيدنا ومولانا على بن ابى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه للقرآن ظاهر وباطن وحد ومطلع والله أعلم .

الخطيـب أبـو الحسـن :

حدثنى حفيده الخطيب أبو الحسن أنه سمع من الشيخ سيـدى أبى يعقوب أنه قال يعلم الله ليس كل واحد يعبر الرؤيا على هذا الوجه، وانه قال عن الرجل الذى علمه ذلك انه الخضر قال وكان سبب قول الشيخ فى ذلك انى رأيت رؤيا فأخذت فى تعبيرها على الوجه المذكور، فاذا بالشيخ يصيح من بيته يا على فجئته ودخلت الى بيته، وقال لى يعلم الله ما أحد يعبر الرؤيا على ذلك الوجه .

ذكر رحلة الشيخ سيدى أبى يعقوب رضى الله عنه الى المشرق :

حدثنى أبو عبد الله بـن مغيث قال سافر الشيخ سيـدى أبو يعقوب الى الحجاز فى شهر الله محرم من خمسة وسبعمائة وكان خروجه فى يوم السبت ولما كان الجمعة الذى سافر فيه جاء من البادية الى بادس خلق كثير من الطلبة والفقراء والصلحاء برسم رؤية الشيخ والسلام عليه، فصلوا معه الجمعة، وخرج الشيخ للمقابر برسم الزيارة على عادته، فخرج وراءه أولئك القوم الى مقبرة من المطى، فوقف ثمه وجازوا عليه، وأخذوا فى البكاء على فراقه ورغبوا منه القعود، فقال لهم يعلم الله ما مشيـت الا مأمورا رأيت النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر رضى الله عنهما وذكر كلاما لم أثبت عليه الآن لبعد ذلك التاريخ قال مؤلف هذا كـان :

الفقيه أبو عبد الله الرهونى ببـــادس :

حدثنى بمدينة بادس صاحبنا الفقيه أبو عبد الله الرهونى، حين رجع من زيارة الشيخ سيدى أبى يعقوب رحمه الله قال، قال له الشيـــخ سيدى أبو يعقوب كان سبب حجتى انى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم وابا بكر وعمر وقبل دخوله فى ركن المحراب الجامع قمت فسلمت عليـــه، وأقبلت على النبى صلى الله عليه وسلـــم وقلت له ما جاء بك يا حبيبـــى يا رسول الله، فقال لى يا يوسف جئت لزيارتك، قال فقلت لـــه أنا أحـــق بذلك ثم أخذت فى السفـــر .

خروج الشيخ أبى يعقوب للحـــج :

وحدثنى أبو عبد الله بن مغيث قال خرج سيدى أبو يعقوب مـــن بادس يوم سفره الى الحجاز وخرج معه أصحابـــه الذين سافروا معـــه، وخرج لوداعهم طائفة من أهل بادس فباتوا تلك الليلة بموضع يقال لـــه ازمورا عند رجل صالح يقال له عيسى بن المعلم، وكان غزير الدمعـــة، ما يسمع شيئا من تلاوة القرآن او الموعظة الا وبيكى بكاء شديدا، قال فانزل الشيخ فى بيت وحده، وانزل من عداه من الواردين معه فى موضع آخـــر وصنع لهم طعاما وأكرمهم غاية، قال فأخذ الشيخ فى الصلاة والدعاء فلم يزل يدعو حتى دخلنى عجب فى ذلك، فاذا أنا أسمع قائلا يقول لى مـــن ركن البيت الذى كنت فيه يا يوسف أدع الفضل عميم والرحمة واسعة، قال مؤلف هذا، قد كنت قبل أن أقف على هذه الحكاية أدعو فى الصلاة وعنـــد زيارة قبور الاولياء لنفسى ولامير المؤمنين وولاة أمرهم ولجميع قرابتى وأهلى ولجميع أهل بلدى ولجميع المسلمين، ولم يخطر بخاطرى أن أقول لنفسى يابيتها العاصية المستمرة على ما أنت عليه من أنت حتى تدعو هذا الدعاء ليت العجل يهضم نفسه ثم خطر بخاطرى مرة اخرى ان قلت مـــن جاء الى ملك كبير من ملوك الدنيا فطلب منـــه قيراطا أو خرسا أو شيئـــا يسيرا من متاع الدنيا فقد أســـاء الادب عليه، ولم يقدره قدره، فكيـــف يستطيع أن يسأل من ملك يوم الدين جل جلالـــه وتقدست أسمـــاؤه، أى شىء كان فاستمرت حالتى على ذلك الدعاء والحمد لله الى أن رأيت هذه

المسألة التى جرت للشيـــخ سيدى أبى يعقـــوب ففرحت وزدت الدعـــاء والحمـــد للـــه .

سفـــره عن طـــريق الجزائـــر :

قال مؤلف هذا لما وصل الشيخ سيدى أبو يعقوب الى الموضـــع الذى بات فيه ورجع المودعون له، سافر هو واولئك القوم الذين خرجـــوا معه من بادس برسم الحج، وكانوا أناسا قليلين فبلغهم الخبر فى (1) كرط إن الركب قد رحل من تلمسان منـــذ أيام، فخاف مـــن كان مع الشيـــخ فبينما هم كذلك يتحدثون فى أمر الركب اذا برجل عليه زى الطلبـــة قـــد وقف الى الشيخ، وقال له لعلك تغيرت من فوات الركب، لا تخف، ولا يكن نظرك الا الى مكة، فانها فى قبضتك قال ثم صار الرجل اذا رحل الشيـــخ ومن معه يتقدم أمامهم، فاذا نزلوا يغيب عنهم، فما زال معهم كذلك حتى لحقوا الركب فى جهة بجاية، وذكر لى عن الشيخ أنه كان يقول أنه الخصر عليه السلام، حدثنى الشيخ أبو زكرياء يحيى الشاكرى خديم الشيـــخ سيدى أبى يعقوب فى طريق الحجاز قال ما ترك الشيخ سيدى أبو يعقوب شيئا من أوراده كلها لا صلاة ولا صوما ولا قراءة القرآن ولا شيئا ممـــا كان يفعله وهو مقيم، قال الحاج الصالح أبو زكريـــاء يحيى المذكور ومـــا نزل فى بلدة ولا قرية ولا مفازة لا يكون فيها عمران، الا ويبعث الله تعالى له رجالا صالحين يتبركون به ويضيفونه ويسعون فى قضاء حوائجهـــم، وأما هو فما كان يحتاج لاحد فى شىء غير الماء والمأوى، ولم يزل كذلـــك ماشيا وجائيا، قال الحاج يحيى المذكور لم أزل فى برقة ولا فى طريـــق الحجاز ومكة والمدينة أحمل ركوة الشيخ فى يدى، وأسير معـــه ومهمى احتاج الى الوضوء ينزل عن ظهر البعير ويتوضـــأ، واذا سألنى أحد أن يشـــرب من الركـــوة أعطيتـــه يشرب منها، لكون الشيخ أمرنى بذلـــك، وما فقدت الماء من تلك الركوة قط، قال مؤلف هذا، رأيت فى كتاب مناقب الاولياء لسيدى ابى الحسن المراكشى قال سرت يوما الى سياحة فتبعنى شاب اسمه يوسف، وكان يواصل خمسة عشر يوما فلما رأيته قلـــت لـــه

---

(1) وادى كرط بقبائل الناضـــور .

أرجع الى الفقراء خير لك، فلم يفعل فرغبنى وبكى فتركته، وكنت أريد أن أصل الى أسوان الى رجل يعرف بعبد الله الهرغى فمشى معى الشاب ومعه الابريق، وكنت أردت أن أمشى على الاقصور، فسرقتنا طريق صغيرة فتهنا فى صحراء، ومشينا النهار كله فيها وبتنا الليل ثم أصبحنا، ونحن نصلى بالتيمم، ثم مشينا الى وقت الزوال، فقعدنا الى الارض واشتد علينا الحر، وحميت علينا الشمس، والابريق بيد الشاب، وأنا أقول يا يوسف أصابنى العطش، فقال لى ياسيدى أقعد مكانك، فتوارى عنى وراء تل رمل فأتانى والابريق مملوء بماء، فنظرت اليه ونظرت الى الابريق فكان العطش لم يصبنى من شدة ما وجدت من الشاب فقلت له والله لاشربت من هذا الابريق شيئا حتى تعرفنى من أين هذا الماء، الذى جئت به فى الابريق، فقال لى ياسيدى انى أعرف فى هذا الموضع مكان الماء فقلت له يا ولدى لنا يومان تائهان فى هذه الصحراء، وما عرفت الطريق فكيف تعرف موضع الماء، ثم قال ياسيدى أقول لك الصدق لولا انى اعتقد فيك ما عرفتك بحديثى، كما لم أعرفه أحدا غيرك، فقلت له عرفنى، قال نعم يا سيدى هذا الابريق له عندى خمس سنين، وأنت تعلم انى متجلد على الوصال، فاذا أردت أن أدخل الى الصحراء برسم الحج، آخذ هذا الابريق معى، فاذا أصابنى العطش أدخلت تحتى فاسمع الماء ينزل فيه باذنى، ولا أعلم من حيث هو فاشرب وأتوضأ وبه أقوى على الصحراء، قال فقلت له ان كان قولك حقا فاهرق الماء الذى فى الابريق، واجعل ما ذكرت، فهرق الماء من الابريق حتى لم يبق فيه شىء، ثم قام واقفا وادخله تحته ثم قرب منى وقال اسمع باذنك الى الابريق، فجعلت أذنى عند عنقه فبالله الذى لااله الا هو لقد كنت اسمع نزول الماء الى الابريق كأنه ينصب من ميزاب، ثم أخرجه من تحته مملوءا بالماء، فقلت أشهد أن الله على كل شىء قدير، وان الله قد أحاط بكل شىء علما وانه فعال لما يريد، فتناولت الابريق من يده وقلت له يا ولدى يا يوسف ومن هذا الماء ينبغى أن يشرب لقربه من الكون، فشربته ماء أحلى من كل ماء وابرد من الثلج، حتى رويت ثم ناولته أن يشرب فامتنع، ثم قال لى توضأ فتوضأت وتوضأ منه وصلينا الظهر، ثم قعدنا فى الموضع حتى صلينا العصر، ثم مشينا الى

المغرب فبتنا تلك الليلة ونحن لا نعلم حيث نحن، فلما أصبحنا صلينا الصبح ثم مشينا مع البحر فرأينا النخيل فلما قربنا منها عرفنا البلد واذا الاقصور، فبتنا تلك الليلة عند الشيخ أبى الحجـــاج الاقصورى، ثـــم مشينا الـــى أسوان، وكـــان قريب العيد الكبير، فقعدنا عند الشيخ أبى محمد الهرغى، وعيدنا عنده العيد الكبير، ثم أراد الشاب أن يمشى، فتركت سبيله وهو الآن بمكة، وبيعث لى بالسلام مع كل من يعرفنى، فخروج الشاب يوسف معى لتصرفه نفع الله بهم أجمعين .

الشيـــخ أبو يعقوب فى الحجـــاز :

وحدثنى الشيخ أبو زكرياء يحيى الشاكرى أن الشيخ سيـــدى أبا يعقوب لم يفطر مدة غيبته فى الحجـــاز غـــير أيام الاعياد ويوم بـــين مكة والمدينة كان أصاب الناس فيه حر شديد ومات من الناس ألفـــان أو ما ينيق، فأفطر الشيخ فى اليـــوم .

زيـــارته لقبر اللخمى بمصـــر :

وحدثنى الحاج أبو زكرياء المذكور ان الشيخ سيدى أبا يعقوب مر بقبر الشيخ سيدى أبى الحسن اللخمى مؤلف التبصرة، وانه شـــك هل هو قبره أم لا، قال فقال اللهم ان كـــان هـــذا هو قبر الشيـــخ أبى الحسن حقا فاطعمنا ببركته اليوم تمرا قال فلما كان بين العشاءين جـــاء رجل الى قيطون الشيخ بطبق من تمر، وقال لى هذا التمر أريد أن يأكل منه هذا الرجل الصالح، فأخذته وادخلته للشيخ، وحدثنى الشيخ أبو عبد الله بن مغيث قال سمعت سيدى أبا يعقوب يقول كنت فى جامـــع عمرو بن العاص قرب رمضان، فاذا برجل جاءنى فقال لى أريد أن أقرأ عليك القرآن، قال فقلت له لا أجد لذلك حتى ينصرم شهر رمضان، قال فلما انصرم شهر رمضان جاء الرجل المذكـــور فأخذ يقرأ على بالسبـــع والشاذ، ويتكلم فى الآيات بتفسير، ما سمعته ولا عرفته قط، قال فقلـــت له يا أخى أنت جئت لتقرأ على وتستفيد منى، فاذا بى أستفيد منـــك، قال فقال لى انما قصدت البركة فقط، قال فلما جاء الى سورة الانعـــام قلت له يروى أن هذه السورة نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم مرة واحدة، ونزل من الملائكـــة ستمائة ألـــف، وان فيها اسم الله العظيـــم

الاعظم، قال فقال لى اذا جئت الى قوله تعالى لن نومن لك حتى نوتى مثل ما أوتى رسل الله، والله يعلم حيث يجعل رسالاته، ثم تدعو فان الدعاء يجاب عند ذلك، قال فلما رآنى استعظم عليه واتعجب منه غاب عنى، وسمعت غير أبى عبد الله ابن مغيث المذكور يقول أن ذلك الرجل كان الخضر عليه السلام، وحدثنى الحاج الصالح الشيخ أبو زكرياء الشاكرى خديم الشيخ سيدى أبى يعقوب، قال اجتمع الشيخ سيدى أبو يعقوب فى مصر برجل من أولياء الله الكبار كان حمالا يحمل الخبز فى قفص حديد، وكان يعطى للشيخ سيدى أبى يعقوب رغيفتين فى كل يوم، قال الحاج يحيى طال ما أكلت من ذلك الخبز، وكان امام جامع عمرو بن العاص رجلا صالحا، وكان يجتمع مع سيدى أبى يعقوب ويتبرك به ويرغب منه أن يجمعه مع الحمال، فلما كان ذات يوم اجتمع الحمال مع سيدى أبى يعقوب فى مسجد عمرو بن العاص وكان يتحدث معه فاذا بالشيخ سيدى أبى يعقوب رد رأسه لينظر الى الامام المذكور ليجمعه مع الحمال، قال فغاب الحمال عنه، قال فلما كان بعد ذلك اجتمع الحمال مع الشيخ سيدى أبى يعقوب فعتب (أى الحمال) عليه ذلك، وقال له لاى شىء تدل على، فقال له الشيخ انما دللت عليك رجلا صالحا، فقال له اياك أن تعود لمثلها؟

سفره الى ابن غازى بليبيا ورجوعه للحجة الثانيــة :

قال الحاج يحيى لما حج الشيخ سيدى أبو يعقوب الحجة الاولى ورجع الى مصر واجتمع مع الحمال، قال الحمال لابى يعقوب أى شىء تريد أن تعمل، قال له الشيخ أريد أن أرجع الى المغرب، فقال له الحمال حتى تحج حجة ثانية، ولابد لك من ذلك ان شاء الله تعالى، قال فغلب على الشيخ الذين جاؤوا معه من المغرب، فرحل الى جهة المغرب فلما بلغ الشيخ الى اسكندرية طلع فى البحر فى مركب، وطلعنا معه يقول الحاج يحيى، فسرنا حتى اذا بلغنا الى موضع يقال له مرسى ابن الغازى من مرسى برقة، عطب المركب الذى كنا فيه وسلمنا الله تعالى، وخرجنا فى الساحل، فوجدنا مركبا قد فرغ الزرع فى المرسى المذكورة، وهو يريد السفر الى طرابلس، فأطلعنا فيه مغربى فلما رفع القلاع وقف المركب،

ولم يمش، فقال الشيخ هبطونى هبطونى، فهبط وهبطنا معه فقال خاطر الحمال فعل فينا تعالوا نرجع فرجع ورجعنا معه من برقـــة الى مصـــر فى البر مسافرين فى الحين، فلما اجتمع الشيخ مع الحمال فى مصر قال لـــه يايعقوب لابد لك من حجة ثانية، فقال له الشيـــخ نعم ورجع حتى حـــج حجة ثانية، فلما رجع من الحجة الثانية واجتمع بالحمال قال له يا يعقوب الآن ترجع الى المغرب، فرجع الشيخ الى المغرب، قال مؤلف هذا، قلـــت للحاج يحيى أرأيت أنت الحمال، فقال لى لا، كأنى يوما جلست فى جامـــع عمرو بن العاص وعلى ثياب خلق جدا ممزق فاذا برجل وقف عند رأسى، فلم أره لكونى كنت جالسا، وهو قائم وحجبـــه الله عنى، فالقى الـــى قميصا وسروالا وعمامة، قال فلبست الثياب وانصرفت الى الشيخ سيدى أبى يعقوب، فلما رأنى قال لى بالصحة، هل تعرف من أين هذه الثيـــاب، قلت له لا ياسيدى فقال لى أنا نعرف من أين هى، قلت فعلمت أنها مـــن عنـــد الحمـــال .

ترحمه على أخيه ابى العباس احمد المدفون بمكـــة :

وحدثنى الحاج أبو زكرياء يحيى المذكور، قال فلما دخلنا مكة كان الشيخ سيدى أبو يعقوب يطوف الليل كله وما رأيته نام فيها ليلا أصلا، وكان الخروج الى مقابر باب المعلا يترحم على من هناك ويزور المقابـــر ، فدخلت عليه يوما فوجدته جالسا فى الحرم، فقال لى يا يحيى ترحمت اليوم على احمد، وقرأت عليه ودعوت له، قال فقلت له ياسيدى ومن أين عرفته قال فقال له هو اعلمنى بنفسه، قال لى يا أخى يا يوسف جميع ما فى هذه المقابر ينتفع بك، وأريـــد أن تخصنى من بينهم بشىء، قال فقلـــت له ياسيدى فى النوم رأيته، قال فقال لى لا فى اليقظة مثل ما أنا أكلمك وتكلمنى، وكان حكى لى أن الشيخ سيدى أبو يعقوب كان له أخ سيـــد فاضل، وكان أصغر من الشيخ وكان سلم للشيخ أبى يعقوب فى جميـــع ميراثه فى أبيه اعانة للشيخ على ما كان بسببـــه من العبادة فانفـــرد الشيخ بميراث أبويه كله اذ لم يشاركه فيه غير أخيه المذكور وحدثنـــى أبو عبد الله بن مغيث المذكور قال كان سيـــدى الحاج أبو العبـــاس أخ سيدى أبى يعقوب رجلا خياطا وكان زاهدا فى الدنيا تاركا لها، وكان له

طرق الى الحج، وحج اثنتى عشرة حجة، وكان له صوت حسن وتطوف لطيف، وكان يسكن ستة أشهر بمكة وستة أشهر فى المدينة، واتفق له بالمدينة ان كان فى بعض نخلها وهو ينشد قصيدة :

دموعى على واد العقيق عتيق ولى زفرة تعدو بها وتتوق

فلما جاه فى القصيدة الى قولها :

نعتونى فقالوا هاك محمدا وهاك أبا حفص وهاك عتيق

قال سمعه شاب رافضى من حائط هناك فخرج اليه مغاضبا ولطمه لطمة عظيمة، وقال له يابن الفاعلة أنت رأيت أبا بكر وأبا حفص معه ، يعنى مع النبى صلى الله عليه وسلم قال فجلس سيدى أبو العباس الى الارض مكترثا مما فعل به الرافضى مستغفرا الله من ذنبه، فان الصوفية قالوا من جنى عليه فليستغفر الله، قال فخرج اليه رجل من ذلك الحائط، وأخرج له تمرا، واعتذر واسترضاه فترك له تمره، وانصرف الى بيته بالمدينة فاضطجع فنام فاذا به يرى فى نومه النبى صلى الله عليه وسلم قد أخذ الرافضى الكاظيم له من تلابيبه، وأبو بكر قد حبسه من احدى يديه وعمر من الاخرى، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول حق على المزار أن يكرم زائره.

حنين أم أبى العباس أخى أبى يعقوب اليه وهو مازال حيا فى مكة:

وحدثنى عن الشيخ سيدى أبى يعقوب أنه كان ببادس مع أمه يوم عيد الاضحى، وأمه تبكى على ولدها الحاج احمد هذا اذ كان فى الحجاز وذكر لها عنه أنه مات، فقال لها سيدى أبو يعقوب أى شىء تعطى للفقراء اذا جاء ولدك، فقالت له ثيابى هذه، فقال ياحمد أمك تبكى عليك وتدعوك، قال سيدى الحاج احمد كنت بمكة فاذا بى أسمع صوت أخى يوسف، وهو يقول ياحمد أمك تبكى عليك وتدعوك، فأخذت فى السفر الى المغرب حتى رجعت الى أمى وفى الحديث الصحيح عن النبى أن شابا من الانصار توفى وله أم عمياء فسجيناه وعرفناه، فقالت مات ابنى فقلنا لها نعم، قالت اللهم ان كنت تعلم انى هاجرت اليك والى نبيك رجاء أن تعيننى على كل شىء فلتحملنى على هذه المصيبة، فما برحنا أن كشف الثوب عن وجهه فطعم وطعمنا، وروى عن عبد الله الانصارى كنت ممن

دفن ثابت بن قيس، وقتل باليمامة فسمعناه حين ادخلناه القبر يقول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق عمر الشهيد عثمان البر الرحيم، فنظرنا فاذا هو ميت، وعن النعمان بن البشير أن زيد بن حارثة خر ميتا فى بعض أزقة المدينة، فحمل وسجى، اذ سمعوه بين العشاءين والنساء يصرخن حوله يقول انصتوا انصتوا فحسر عن وجهه، فقال محمد رسول الله النبى الامى خاتم النبئين، كان ذلك فى الكتاب الاول، ثم قال صدق صدق وذكر ابا بكر وعمر وعثمان، ثم قال السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، ثم عاد ميتا كما كان .

ذكر أخلاق الشيخ وسيرته رضى الله عنه :

كان الشيخ سيدى أبو يعقوب يوسف رحمه الله تعالى، منذ ما نشأ الاعلى قراءة القرآن، والمداومة على تلاوته، والاعتناء بتفسيره، وتفهمه والتفنن فى معانيه، والاعتناء بآياته، وبحديث رسول الله صلعم، وكلام العلماء والاولياء واتباع السنة، وتحكمها على نفسه فى أمر دينه ودنياه، وحركاته وسكناته وأكله وشربه ولبسه وخلعه ودخوله وخروجه متقللا من الدنيا مجتزئا منها باليسير، لا يرى أبدا يتحدث على شىء منها الا اذا كان جوابا لغيره، ممن يأخذ معه فى شأن نفسه، ولا يتولى قط بناء ولا غرسا، ولا اكتسب شيئا ولو أقل ما تدعوه اليه ضرورة المعاش، ولا أكل قط الا من ميراثه من أبيه الذى ورثه عن الاباء الصالحين، كما تقدم حاله مع الفقيه سيدى عبد المالك بن حبيب رضى الله عنه، وكان الشيخ رحمه الله كثير الحب فى المساكين والفقراء والصوفية خصوصا، شديد الحرص على اتباع الصالحين، رحيما باليتامى والارامل متسببا لهم فى الصدقات والفتوح من غير أن يدخل يده فى شىء من ذلك، مهتما بأمور الخاصة والعامة من المسلمين، ساعيا لسد خلاتهم وستر عوراتهم، وأدرار أرزاقهم واصلاح ذات بينهم .

الفتنة التى وقعت بين بقيوة وبنى يسغف :

حدثنى أبو عبد الله بن مغيث قال سمعت سيدى أبا يعقوب يقول، كانت الفتنة ببادس بين بقيوة وبنى يسغف، قال فكنت ادع الله فى

الصلوات أن لا يجرى بينهم دم فكانوا يهمون بالقتال، ثم أن الله يصرف ذلك من بينهم، فسمعت ابليس وجنوده فى الزقاق يقول بعضهم لبعض تعالوا نرحل من هذه المدينة طال ما هو هذا الشيخ الكذا وكذا فى هذه البلدة، ما نقضى لنا فيها الحاجة، ولا يقتتل فيها احد من هؤلاء، وكان رحمه الله اذا صلى الصبح لا يتكلم حتى يصلى صلاة الاشراق، واذا صلى العصر لا يتكلم حتى تغرب الشمس ويفطر، واذا صلى المغرب لا يزال يصلى حتى يصلى العشاء الاخيرة، ثم يركع بعد صلاة العشاء الاخيرة وينصرف الى منزله، واذا دخل شهر رمضان لا يكلم أحدا الا بالاشارة عند الضرورة، وكان فى وقته كله كأنه فى غيبة عن المخلوقين، واذا حدثته حديثا عن الدنيا وانصرفت عنه لا يبقى فى سره من حديثك شىء، وذلك لما جمع الله له من اظهاره للخلق وخلطته معهم، وتطهير قلبه ويده من حطام دنياهم، وكان لا يترك من بشاشته وبسط وجهه وبره بجميع من يرد عليه، أو يجتمع معه، وكان عنده تسليم كثير فى الاشياء، وكان حاله كذلك فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأكثر حاله فيه التغيير بهمته وتسليطها حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين، وكان كتاب احياء علوم الدين للامام ابى حامد الغزالى لا يزال من بين يديه يطالعه، وكان معظما للامام ابى حامد المذكور، خاضا على مطالعته كتابه المذكور، قال مؤلف هذا ما رأيت رجلا قط من أهل المكاشفة والكرامة والاحوال الصالحة الا وهو يحب الامام أبا الحسن الشاذلى رضى الله عنه ونفعنا به آمين، وكان يقول أنا أشهد للامام أبى حامد الغزالى بالصديقية العظمى، وقال لاصحابه اذا عرضت لكم حاجة الى الله تعالى فتوسلوا بأبى حامد الغزالى، وحكاية سيدنا الولى العالم أبى الحسن مشهورة فى قصته مع الامام أبى حامد وكتابه قال مؤلف هذا ورأيت جماعة من أهل الخير والدين ما فتح الله على قلوبهم وانهج لهم الطريق اليه الا بمطالعة كتاب الاحياء المذكور، وقال لى رجل صالح ما طالع أحد كتاب بداية الهداية، وكتاب منهاج العابدين، وكتاب احياء علوم الدين، الا وظهر خيره وفتح الله على قلبه قطعا «فان لم يصبها وابل فطل» أنتهى ماقيدته من هذا المجموع من كرامات الشيخ الولى العارف سيدى

ابى يعقوب نفعنا الله به، وهذا الذى جمعته بعض من كل، ويسير من كثير، ولكنى اقتصر منه على بعض ما سمعته، وتركت من هذا المجموع ما هو غامض، ومن الله سبحانه وتعالى أطلب العفو والصفح عما تخلد هذا الكلام من تزيين الفاظ وتصنع معان، انه ولى حميد وهو القادر عليه، وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد، وعلى آله وأصحابه، وأزواجه وذريته، وأهل بيته الطيبين المباركين وسلم تسليما، واخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

نـضـــــــال مســتـمـــر

بعد الكارثة المهولة التى لحقت بالمسلمـين فى الاندلس، والتـى أجلت العرب والبربر عن تلك البلاد الى شمال افريقيا عام 1492، لحق بعض هؤلاء بموانىء المغرب كمليلية وسبتـة وتطوان وسلا، وبقيـت المناوشات مسترسلة بواسطة القرصنة، وقد اشتدت عملية القرصنة لما قام بربروس، المدعو خير الله باشا يعاونه أخوه (أروج) بأكبر قرصنة فى اوائل القرن العاشر الهجرى (أوائل 1500) يجوب البحر الابيض المتوسط ويحاصر تلمسان فما كان من صاحبها الا أن طلب تدخل ملك اسبانيـة (شارلكان) لحمايته وكانت النتيجة فشل أمر تلمسان، وضمها بربروس للباب العالى، ومن هذا التاريخ ظهرت للاسبـان مطامع فى شواطـىء الشمال الافريقى عامة، وشواطىء المغرب خاصـة .

وكانت لها مع مهاجرى الاندلس، الذين استعملوا القرصنـة على شواطئها الجنوبية، مناوشات مستمـرة، وفى هذه الاثناء استـولى الاسبان على مدينة العرائش، التى استرجعها مـولاى اسماعيل سنـة 1888 م. وفى حـدود أوائل القـرن السادس عشـر اختص الاسبـان بمدينة سبتة، بعدما كانت فى يد البرتغال، وذلك عندما انفصلت هـذه الاخيرة عن الاولى، فوقع استفتاء سكانهـا .

وفى هذه المراحل، انتقل النزاع الى حدود المغرب الشواطئية، بعد ما كان النزاع فى قلب اسبانيا نفسها، فاحتلت جزر مليلية والنكور وبادس، وكان لهذا الاحتلال عواقبه الوخيمة على المغرب، وبدأ التنافس بـين دول أوربا على هذه الشواطىء، فقد بدا لاسبانيـا أن تملك المغرب لوحدهـا لاحتكاكها الطويل مع المغاربة فى اسبانيا .

ولاجل الانتقام من أولئك الذين استمروا فى احتلالها مدة قرون، ثم لاجل تأمين ترابها الداخلى من عودة الكرة مرة أخرى عليها، وقـد بقيت اسبانيا محتلة لبعض هذه الشواطىء لمدة حوالى خمسمائة سنة من

دون أن تتوغل داخل المغرب، وذلك انها كانت صرفت النظر عن المغـرب الى شؤون أمريكا، حيث شغلتها الثروات المعدنية فيها، وفى هذا الاثنـاء أيضا لم يهدأ بال المغاربة بل استمروا فى النضـال المستمر مع المحتلـين لشواطىء مليلية وسبتة، والجزر التى بينهما وموقع الدخلة من الصحراء المغربية بالجنوب المغربى، الا أن الجيش الاسبانى تحصن فيها لمناعتهـا وحمايتها بحريا، حسبما يأتى تفصيله

وعندما عمدت فرنسا لاحتلال الجزائر سنة 1830 م. استفاقـت اسبانيا فجأة فبذلت جهودا جبارة لاقصاء فرنسا عن الجزائر، واستعملت كل ما امكنته من الاساليب التى سنحت لها فرصة استعمالها والتى كـان فى طوقها دون الاصطدام معها مباشرة، فعمدت الى تقوية الامير عبد القادر الجزائرى باسعافه بالمال والسلاح، كما عمدت الى تحريض المغاربة بمزيد المساعدة اليه لاجل فتح الحدود المغربية للامير ورجاله ليتحرك كيف شاء وبكامل الحرية لاثارة القلاقل ضد فرنسا، ومديد المعونة للمجاهدين، وكل ذلك بغية اقصائها عن شمال افريقيا تنافسا فى الاستعمار، وعندما انتهت حرب الامير عبد القادر، اخمدت الى السكون، وحتى عندما قام بوحمـرة بالثورة فى شرقى المغرب الشمالى، لم تحرك اسبانيا ساكنا، للقيام باهتبال الغرة لتوسيع احتلالها لشرقى المغرب، بل قبعت فى جزيرة مليلية، منتظرة ما يسفر عنها نتائج الاحتكاك الداخلى، وكل ما فعلته انها استغلت احتياجه الى المال فاشترت منه مناجم الحديد بجبل «اكسان» قرب الناضـور، واشتغلت بتمديد السكة الحديدية رغم أن بعض الضباط قد كانوا يقومون بمحاولة لدى الحكومة الاسبانية لان تقوم بمبـادرة استغلال الفرصـة لتوسيع احتلالها فى شرقى الريف، مادام المغرب مشتغلا بالفتن الداخلية، وقد حكى الكاتب الاسبانى المدعو «انريكى اركيس» وهو ضابط فى ذلـك الوقت فى جيش مليلية فى كتابه المعـروف (بالروكى) انه قدم مشـروع الهجوم على القبائل اهتبالا لفتنة بوحمرة بدعوى اخمادها، ولكن لم يجد أذنا صاغية، مما جعله يكيل اللوم فى كتابه لرجال الجيش الاسبانـى وحكومته اللذين فوتوا الفرصة التى يعتبرها من الفرص الذهبية حسب قوله، وجعل يكيل لحكومته أوصاف الضعف والخـور .

والذى يظهر أن احجام اسبانيا عن التحرك فى ذلك الوقت لـم يكن ورعا منها، وانما لما تعلمه عن صعوبة الموقف، فمن جهة ان المغاربة سيتحدون عليها، فى حين أن الجيش الافرنسى بالجزائر بالمرصاد لها، يقوم باعانتهم أسوة بما فعلته هى مع الامير عبد القادر، على أنها عرفت عن كثب من هم المقاتلون الارياف فى نضالهم عندما يحتدم الصراع،

ثانيا أن المطامع الاوربية تشعبت وتكالبت على المغرب، فمن جهة أن فرنسا قد ركزت نفسها فى الجزائر وهى تحد بالمغرب مباشرة، ولا يهدأ لها بال لتحرك الجيش الاسبانى والحال أن قضية المغرب لم تسو بين ذوى الاطماع الاستعمارية .

وثالثا فان انكلترا نفسها لا توافق على أن تسترسل أية دولة أوربية لتقوية مركزها خلف جبل طارق، على الممر المائى العديم النظير، الذى هو الممر المغربى الوحيد الى مستعمراتها بشبه قارة الهند .

والواقع أنه من تاريخ سنة 1845 وهو تاريخ عقد معاهدة تحديد الحدود بين المغرب والجزائر، وقضية اطماع فرنسا واسبانيا تتسارع لاكتساب السبق لاحتلال المغرب، الى أن جاء مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1906، الذى قضى على استقلال المغرب فى غفلة من أهله، وجزىء الى شطرين اثنين: شطر فرنسا وشطر اسبانيا .

ورغم هذا التقسيم الذى كان من حظ اسبانيا شواطىء الشمال والريف الوعرة وسواحل الصحراء المغربية بالجنوب الغربى، فانها لم تتجرأ للقيام بتحركات لاحتلاله، الا فى سنة 1909، عندما باشرت فرنسا احتلال الشطر الخاص بها فى المعاهدة فأرسلت اسبانيا جنودها الى مليلية وسبتة والعرائش، بدعوى توفير الحماية للاهالى والولاة .

وهنا قامت قيامة السكان، فثارت القبائل، وبدأت المعارك تترى بين المجاهدين والجيش الاسبانى، كما سيفصل بعد .

وعند عقد معاهدة الحماية بتاريخ 1912 بين فرنسا والمغرب فى عهد مولاى عبد الحفيظ، التى نصت على وضعية الاحتلال الاجنبى للمغرب، ووضع نظام خاص بطنجة، عقدت فرنسا مع اسبانيا اتفاق مدريد، فى السنة نفسها (27-11-1912) فى شأن وضعيتها فى اقتسام

الاسلاب وتسوية المشاكل الحدودية وغيرها، ومن بينها وضعية طنجة، التى تعرض نظامها لمباحثات فيما بعد بين المانيا وفرنسا واسبانيا وانكلترا، كانت النهاية أن تحكم بواسطة بلدية دولية ينتخب أعضاؤها من رعايا فرنسا واسبانيا وانكلترا، تحت اشراف مراقبة دولية، تتكون من قناصيل الدول، ومن ممثل سلطان المغرب .

القلاع الخمس أو الجيوب المأسورة :

وقد يبدو الامر غريبا ما عليه وضعية الجيوب الساحلية الشمالية للمغرب، وبالذات سواحل الريف من سبتة الى الجزر الجعفرية، كما يبدو غريبا موقف الدولة التى تنتمى بجوارها الى الصداقة التقليدية والتى كانت ابدت بشائر حسن التفهم، عندما احتد النقاش بين المغرب وجارتها من جهة جبال البرانس، تلك الدولة التى كانت وضعت كلكلها على الجزء الاهم من المغرب فى ذلك الوقت، فامتنعت جارتها هذه ان تجاريها على التكالب المكشوف، والذى اسفر عن الفشل الذريع لتلك الدولة الكبرى وقد كان يبدو أن الدم الاسيوى الافريقى الذى خلفه العرب والبربر على السواء فى اسبانيا، ممزوجا بالدم القوطى، طوال ثمانية قرون خلت، والحضارة التى قام أولئك بتهجيرها الى تلك الامة عن طواعية واقتناع سيكونان شفيعين لتمتين أواصر الجوار الذى يقضى المنطق استثمار تلك الوشائج، بتجنبها للنكسات التى قد تعترضها، نتيجة الحرص الوضيع على اسلاب تافهة، ومع تفاهتها فتأثيرها على نفسية ذى الحق الذى هو أحق بحقه، يكون صدمة تمس العلاقة وحسن الجوار فى الصميم، وبالاخص أن ذلك الحق ينتمى الى السيادة الوطنية والعزة القومية .

ولهذا يبدو غريبا أن تتفاعس الدولة الاسبانية على هذه الاسافين (1) التى مر الوقت من غير رجعة لاعتبارها استراتيجية مثل هذه الجيوب والرقع، التى ان سهلت لها فى وقت تأخر العالم الافريقى احتلالها للجزء الشمالى الشاطىء للمغرب، فان هذا التأخر لا يعود ولن يعود الى يوم يبعثون .

---

(1) يقال أرض أسيفة وأسافة ككناسة وسحابة رقيقة

واذا كانت الاستتراجية الحربية قد انقرضت وخلفتها استتراجية أخرى اقتصادية، فان العقل السليم والتفكير المنطقى، لا يرى سببا اقتصاديا يذكر يعود بالفائدة على الدولة التى تعمل تحت تأثير وحى المطامع ليست ذا نفع بتاتا، بل أن الخبراء ذوى الفن فى مثل هذا الشأن يرون ان الاضرار الاقتصادية هى التى تجنيها اسبانيا من الاحتفاظ بهذه القلاع، فى حين أن السكان الاسبانيين فى عموم المغرب مضمون لهم راحة الاستقرار والامان، على أموالهم، لما جبل عليه المغرب من رعاية الذمم، وحفظ الجوار، وحسن المعشر، فتاريخه الطويل العريض فى الاستقلال والسيادة خير شاهد على ذلك .

على أن الدولة المغربية الفتية المتطورة بقيادة عاهلها العظيم أمير المؤمنين الحسن الثانى الذى لا يضاهى فى هذا المضمار، قد برهنت للعالم عن أى استقرار يتمتع به، حتى فى أعوص الظروف فلم يبق أى عذر يتذرع به، للابقاء على رقع لا تغنى غناء يذكر لذلك الاجنبى المتسلط عليها، بينما هى من صميم السيادة للدولة المغربية ذات الحق الاصل الاصيل ؛

ما هى هذه القلاع؟ وكيف أسرت أو انتزعت من الوطن الام؟ وما هى الاسباب التى سهلت هذه المأمورية الشنعاء الا قانونية؟ ذلك ما نبينه فى الجمل الموجزة التالية :

مدينة سبتة أو قلعة البوغاز :

تقع مدينة سبتة بين 35 درجة و53 دقيقة من خطوط العرض شمالى خط الاستواء، وبين 7 درجة و33 دقيقة من خطوط الطول غربى خط كرينتش .

ليس من شأننا فى هذه العجالة، أن نؤرخ لمدينة ظلت حوالى ثمانية قرون، ذات اشعاع حضارى ومركز ذى صلة وصل بين الحضارتين العربية والاوربية، حيث كانت المحطة الرئيسية والممر الهائل لتهجير الحضارة الاولى التى جاءت بكل اعتزاز من بغداد ودمشق والقيروان تخترق الآفاق، لكى تجد التربة الثرية والوعى المتفتح فى قرطبة وغرناطة، وطليطلة واشبيلية وأمثالها، فى العدوة الشمالية من البحر المتوسط، بينما تتكيف مع التطور الحضارى لتجعل من مقرها تلك الصلة كاملة

الاستعداد لتفسير المهمة التى هى نقل الحضارة المزدوجة التى صيغت فى القالب الاندلسى، فاضفت عليها مسحة ذات فن معمرى وموسيقى وطبى وغير ذلك، فلمثل هذا الشأن من التطور الانسانى ينبغى أن يكون ذا عناية خاصة متجمعة، تعبأ لها أقلام وأقلام

لان المدينة التى انجبت ابن السبعين فى الفلسفة، والقاضى عياض البعيد الشأو فى شتى المناحى من علم وشجاعة، والعالم النحرير السيد عبد الرحمن الكتامى والاديب الكبير مالك بن مرحل وغيرهم. ممن كان يقول فيهم المعتمد ابن عباد ملك اشبيلية الاديب «اشتهيت أن يكون عندى من أهل سبتة ثلاثة : ابن غازى الخطيب وابن عطاء الكاتب وابن مرانة الفرضى» وأمراء ذوى العزائم كأبى العباس العزفى، وباقى أمراء العائلة العزفية لا يمكن ان يستقصى أمرها الا بهمم فولاذية، تجعل ديدنها محصورا فى التنقيب عن مآثرها المختلفة المناحى .

وانما الذى يعنينا هنا أن نشير الى تلك النكبة المفجعة التى استرسل أمرها، ولم يحن بعد أن تنقشع تلك المحن عن هذه المدينة والجيوب الاخرى، التى كان ذنبها الوحيد أنها كانت فى أعز أيام المغرب حصونا ودروعا واقية، للحفاظ عن حوزة الوطن، وعزة السيادة، فاستهدفت لما استهدفت له، لما لها من المناعة وحسن الموقع .

فمدينة سبتة هذه التى كان شرف فتحها على يد العربى الاصيل القائد الفاتح المشهور موسى ابن نصير، الذى متعه الله بموهبة الفتح العظيم، والذى لم تتكسر له راية فى فتوحاته الباهرة .

وعندما فتحها سنة 87 هـ. فتحا اسلاميا، جعلها ممرا الى فتوحات أخرى فى القارة الاخرى، التى ظفرت بما ظفرت به من تلك الحضارة البعيدة الشأو، فركز عمله من الجبل المطل على البوغاز الذى خلف اسمه «بجبل موسى» غربى سبتة .

ومن تاريخ فتحها بضمها الى الفتوحات الاسلامية للقضاء على العقيدة الوثنية فيها شهدت اشعاعا حضاريا وعلميا وعزة اسلامية ومناعة قومية .

فقد ازدهرت وترجمت بالمعنى المتكامل حضارة العرب فى شمال

افريقيا انطلاقا من مدينة القيروان بتونس التى أسسها الفاتح العربى الخالد عقبة بن نافع كمحطة اسلامية لنقل القوافل الاسلامية العسكرية والدينية والثقافية والعلمية الى الجزائر والمغرب الاقصى، فكانت أى القيروان محجا للمسلمين من هذين القطرين، وعلى الخصوص فانها تحتوى رفاة كثير من الصحابة والتابعين، وتابعى التابعين .

ولما كانت القيروان تقع على شاطىء البحر المتوسط تقريبا لأنها لا تبعد الا بـ 45 كلم عن البحر، فان اتجاه المسلمين اينما وجدوا على هذه الشواطىء، جعلوا من حسابهم أن يقووا روابط الاتصال بين مدنها، التى هى فى الواقع حصونهم الامامية، فأسسوا رباطات، فكانت سبتة تحتل الطرف الغربى للبحر المتوسط، كما كانت الاسكندرية تحتل الطرف الشرقى لذلك البحر، وبينهما كانت قرابة ألف رباط، وكانت الرباطات المهمة التى على البحر الابيض المتوسط التى يعنينا أمرها هنا مثل سبتة وبادس، وجزيرة النكور (الحسيمة) ومليلية والجزائر الجعفرية الى وهران، وغيرها تحصن تحصينا متينا لمراقبة الاحداث والطوارىء فكانت تجهز بصومعة الحراسة، وبتربية الحمام الزاجل الذى يحمل فى عنقه رسالة مكتوبة بماء البصل أو الليمون، لاخفاء كتابتها، والتى لا تظهر الا عند وضعها على النار، فتظهر حمراء، وجامع للصلاة والتعليم، وغرف للمرابطين، واصطبل للخيول، وشرفات لاسقاط الزيت المغلى على العدو الداهم، الى غير ذلك من وسائل الدفاع المقتناة فى ذلك التاريخ .

وعلى هذا الاساس كانت مدينة سبتة، فاذا كان سحنون فى القيروان يعقد حلقات التدريس عن يمين المحراب وبنته تعقدها عن يساره، فان أبا الحسن السبتى كانت له بنت محدثة مسندة وهى أم المجد مريم وان أبا اسحاق الانصارى صاحب نظم الفرائض والسير، والقاضى المدرس حافظ مذهب الامام مالك ابا الحسن المثيوى، يعقدان التدريس فى المسجد الاعظم بسبتة .

واذا كانت مآثر القيروان التاريخية أكثر من أن تحصى، فان مآثر سبتة الشهيرة تضاهيها، وقد احصاها المؤرخون الاقدمون مثل

محمد بن القاسم الانصارى فى كتابه «الكواكب الوقادة، الجامع لما فى ثغر سبتة من تراجم السادة، وقبور الائمة القادة» فأحصى قبور الائمة القادة فى 88 قبرا وعدد المساجد والمزارات فى ألف وأغظمها الجامع العتيق بلغت بلاطاته اثنين وعشرين بلاطا، ويتميز عن سائر جوامع المغرب بالبلاط الاوسط الضخم البناء المرتفع السمك، وبالمقصورة الهائلة، الغريبة الشكل ومنبره له اثنا عشر درجة، وله صحنان، احدهما أكبر من الآخر، وبكل واحد منهما جبان للماء، أما الرباطات، فأعظمها رابطة الصيد، وهى مربعة الشكل قائمة فى الهواء، على اثنى عشر عمودا منها ثمانية من الرخام، وسبعة ناصعة البياض، وواحد حالك السواد مع بريق والاربعة الباقية مبنية بالآجور تحت معاقد أركان القبة ولكل عمود منها خمسة أركان، واستدارت بها ثمانية عشر سرجيا فى أربع بلاطات مشرفة على البحرين معا وتتصل بها دار القيم لخدمتها .

والى جانبها رابطة أخرى على شكلها ومثالها، وفى وسطها قبر لجارية أحد أمراء الموحدين وعلى القبر قطعة من الرخام الابيض .

وعدد الخزانات العلمية والفنون تربو عن 62 خزانة والرباطات والزوايا فى 47 وأزقتها فى 250 زقاقا، وحماماتها فى 22 حماما، واسواقها فى 17 سوقا والحوانيت والدكاكين فى 24.000 حانوتا وفنادقها فى 360 فندقا وأكبر هذه الفنادق بلغت أسرته 80 فى طبقات ثلاث، يدعى فندق «غانم» كما أن أبا القاسم العزفى انشأ مخزنا كبيرا للحبوب يحتوى على 52 مخزنا .

وعدد أفرانها فى 360 فرنا وسقاياتها فى 25 سقاية وأبارها فى 80 بئرا وعدد ديار الاشراف فى أربعة .

وعدد مطامير خزن الحبوب فى 40.000 مطمورة ولجودة أرض المطامير قيل أن الزرع ربما مكث فيها من 60 الى 70 سنة ولا يتسوس أو يتغير لطيب التربة، واعتدال الهواء، وعدد طواحين الزرع فى 103 طاحونة وعدد الارباض ثلاثة وعدد أبوابها فى 50 بابا وأعظمها الباب الجديد، ويقال له الباب الاعظم، وعدد مصلاتها ستة، منها المصلى الملوكية، سميت بذلك لكون السلطان أبى الحسن المرينى يصلى فيها بجيشه وهى مشرفة على

البحر، وعدد محلات الرمى فى 44 مرمى، يتبارى فيها رماة سبتة بالقوس وغيره، وعدد مضارب السمك فى تسعة وعدد المراسى فى ثلاثين مرسى وعدد مصايد الحوت فى تسعة وتسعين ومائتين مصيدا .

واذا كان القاضى أسد ابن الفرات القيروانى امتشق الحسام لفتح صقلية علاوة على مهامه الاساسية فى التعليم والتحديث، فان القاضى عياض لم يشد عنه فى امتشاق الحسام أيضا ضد الموحدين للحفاظ على البيعة التى فى عنقه للمرابطين، رغم مهامه التعليمية، والتحديثية، ويجدر بنا أن ننقل هنا بحثا كنا نشرناه فى كتابنا (الريف بعد الفتح الاسلامى) الذى ادمجنا فصوله كلها ضمن هذا الكتاب حسب الاغراض المناسبة اعادة لطبعه لنفاذ الطبعة الاولى من جهة ولاجل حصر ما يتعلق بالريف فى مظان واحدة، كما بينا، ليكون مدخلا لحرب الريف الذى خصصنا له الجزء الثانى .

القاضى عيـــاض والموحـــدون

(1) قد كان للقاضى عياض الاثر المحمود فى اتجاه عبقرى الموحدين عبد المومن بن على الى الريف وذلـــك لما للقاضى عياض من النفسيـــة الحربية، التى جمعها الى التبحر فى الحديث، واداة القضاء الشرعى. وتلك النفسية كانت مجلبة لاهتمام المتربعين على عـــروش المغرب والاندلـــس، فوقوع مقر عمله القضائى والحربى بمدينة سبتة التى هى حلقة الاتصال بين القطرين الشقيقين قد خنق بذلك أولئك الملوك، فكان أبعث للاهتمام فى نفوسهم، لكسب طاعته، وهـــو لا يخفى هذه النفسيـــة التى ملكت عليـــه مشاعره، ولو فى اشعاره، فتجده مثلا فى وصفه لروضة يصوره شعره أحـــد فرسان الميدان فى التشبيهات الحربية وتجنب ليونة الفقهـــاء، اذ يقول فى بيتـــين اثنـــين :

انظر الى الزرع وخامـــاتـــه يحكى وقد مالت أمام الريـــاح
كتيبـــة خضراء مهـــزومـــة شقائق النعمـــان فيها جـــراح

ولو أن تبحره فى علمى القضاء والحديث قد ذاع الذيوع اللائـــق، اذ ألف فى الحديث مؤلفات بقيت خالدة امثال كتاب الاكمال فى شـــرح مسلم، ومشارق الانوار فى تفسير غريب الحديث وغيرهما، وقد اكسبته السمعة الحديثية المطبقة، وجعلته على رأس محدثى المغرب، فان صموده فى وجه عبقرى الموحدين عبد المومن بن على الكومى، خليفة المهدى بـــن تومرت من بعده واحد رجاله العشرة، اذ وقف فى وجهه لما اراد نزع البيعة التى فى عنقه للمرابطين فى أعنف حملة وجهها اليه، قد هيأت له شأوا بعيد المنال، وجعلته قائدا على سيف هذا الشاطىء من البحـــر الابيض المتوسط، وقد ضاهى بهذا العمل قاضيا آخر فى شرقى شمال افريقيا، هو قاضى القيروان أسد بن فرات فى فتحه لصقليـــة .

---

(1) الجزء الثانى من بحثنا «الريف بعد الفتح الاسلامى» .

ان القاضى عياضا قد وقف فى وجه دولة فتية مرتين وتلك الدولة تولدت وترعرعت فى ظل شخصيتين عبقريتين ملهمتين، المهدى بن تومرت، وعبد المومن بن على، فكلتا الشخصيتين عملتا لخلق هذه الدولة بكل ما أوتيا من الهام وعبقرية، فالاول وان كان اتباعه يحلونه بالامام المعصوم وهو لقب بعيد عن الحقيقة والواقع الا أنه عصامى ملهم استطاع بذكائه الوقاد أن يزعزع اعظم دولة تأسست فى شمال افريقيا وبسطت ذيولها على الاطلس الجبار، مخترقة المفاوز والقبائل البربرية العاتية واصلة الى ما وراء البحر بالاندلس .

وقد كان منذ حداثة سنه يعمل لاجل ادراك هذا الشأو، فقد رحل من مسقط رأسه «قبيلة المصامدة» فى تخوم سوس بعدما شاهد عراك قبيلته وجاراتها مع شعب لمتونة الصحراوى الذى فرض اشتاذه عبد الله بن ياسين صولة دولته على افريقيا .

فالتحق بن تومرت فى رحلته، بقرطبة فى السادسة عشرة من عمره بتاريخ 501 هـ. (1107 م) وقد كانت قرطبة المنبع الصافى لفقهاء المغرب، وقد شاهد فيها الضجة الصاخبة التى أقامها فقهاء الاندلس ضد كتاب «احياء العلوم» لحجة الاسلام الغزالى بدعوى خروجه عن المعتقد السائد الذى يتلخص فى التفويض وعدم اعمال التأويل فى المتشابه وترك الجدل جانبا، وقد دعته نفسه ان يأخذ عن الغزالى نفسه افكاره التى راقته فى كتابه المذكور فارتحل الى مصر ثم الحجاز لاداء نسك الحج وبعده التحق ببغداد ليرى شيخ المدرسة النظامية التى وجهت العقيدة الاشعرية التى تقول بالرجوع الى الكتاب والسنة، وبطلها اذ ذلك أبو حامد الغزالى، وقد اخبره عن مصير كتابه المحرق على يد دولة المرابطين، وما يلمز به من الزندقة، فاحدث ذلك فى نفسه موجدة اضطرمت بها أحشاؤه ظهرت فى رفعه يديه الى السماء داعيا: «اللهم مزق ملكهم كما مزقوه واذهب دولتهم كما أحرقوه». فانقلب من بغداد بتعاليم جديدة عاملا على تغيير المنكرات، فمر بأبى بكر الطرطوشى بالاسكندرية، وأخذ عنه وقد طردته حكومة مصر نظرا لعمله السياسى، وهكذا استمر يعمل لتغيير المنكر ويطرد الى أن وصل الى مراكش، وأمير المسلمين فيها على بن

يوسف بن تاشفين فأقام حوله ضجة كبيرة، فكان يخلب لب أمير المسلمين بالوعظ والارشاد الى أن اصطدم مع أختـــه السافرة الوجه، وهى عـــادة نساء الملثمين فقرعها وكان سببا لنفيه الى أقصى سوس حيث أعلن دعوته وبدأ دولة الموحدين وقد توفى بعد حرب بينه وبين المرابطين اثر مـــرض بعد وقعة تدعى وقعة البحرية عام 523 هجرية (1130 م).

أما ثانى الشخصيتين فهو عبد المومن بن على الكومى الذى وطد ملك الموحدين واستحوذ على افريقيا الشمالية من جبال درن ــ الأطلـــس الكبير ــ الى حدود مصر واستتب الامن فى هذه الربوع حتى قال المؤرخون انه كان يتجول المسافر فى الشمال الافريقى من أقصاه الى أقصـــاه دون أن يخشى أذى .

وقد كان تلاقى ابن تومرت فى شعب ملالة حيث كان يتولى تلقين آل ملالة القرآن الكريم وعلوم الدين بعد ما آوته قبيلة منه تدعى قبيلـــة بنى وریاغل، وقد الهم قدوم عبد المومن عليه وأخبر أصحابه بذلك قبـــل وصوله، قال أبو بكر بن على الصنهاجى المعروف بالبيدق فى كتابه (1) أخبار المهدى مـــا يـــاتى :

«بينما هو ذات يوم قاعد اذ سمعناه يقول: الحمد لله على كل حال قد بلغ وقت النصر، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم، يصلكم غـــدا طالب طوبى لمن عرفه وويل لمن أنكره» ثم حكـــى وصول عبد المومن واعلام المهدى اياه بالامر الذى يصير اليه قائلا انه ناد انى يا أبا بكـــر ادفع الكتاب الذى فى الوعاء الاحمر فدفعته اليه وقـــال لى اسرج لنـــا سراجا فقرأ لا يقوم الامر الذى فيه حياة الدين الا بعبد المومن ابن على ســـراج الموحـــدين» .

وقد تحقق تنبؤه فان عبد المومن بن على هو سراج وعبقـــرى الموحدين، وطد أركان دولته وقضى على دولة المرابطين نهائيا وأصبـــح

---

(1) هو كتاب اخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين طبع منه على الحروف بأوربا والمؤلف هذا كان حيا زمن المهدى بن تومـــرت وتوفى سنة 524 هـ. موافق 1129 م.

المغرب وبقية شمال افريقيا وقطر الاندلس زاهرا، ونفق سوق السنة وكسر بلاد دولته بالفراسخ ووصل الامن الى أن فى احدى غزواته الى تونس حيث عاث النورمانديون وذبحوا النساء ومزقوا أشلاء الصبيان وقد سار اليها فى مائتى ألف شخص منها مائة ألف جندى ومائة ألف ما بين الخدم والسوقة، ذكر المؤرخون أنه لم تتلف فى الطريق ولا سنبلة واحدة وقد قسم حملته هذه على أربعة فرق بين الفرقة والاخرى مسيرة يوم بعد استعداد للزاد والماء مدة ثلاث سنين .

عبـــد المومن بن على فى الريـــف

قد ذكرنا أن القاضى عياضا كان متوليا خطة القضاء بسبتة، ولما له من النفسية الحربية كان يتولى الدفاع عنها وعندما قامت دولة الموحدين كان مدينا بالطاعة للمرابطين وفى عنقه بيعتهم لا يجوز نقضها شرعـــا الا بسبب طاعن فى المبايع ــ فتحا ــ وليس من السهل نزع هذه البيعة مـــن شخص يتولى مركزا كمركز عياض بين فقهاء المغرب وقضاته .

وقد آثر بذلك عبد المومن أن يخضع هذا الجزء من المغرب مقدما فجمع جموعه تاركا فاسا وتلمسان وغيرهما من المدن التى ما انفكت موالية للمرابطين، جانبا، وقصد سبتة فى جموع غفيرة من قبائل البربر العاتية فدافع القاضى عياض عنها دفاعا رد عبد المومن عنها فولى وجهته شطـــر الريف واخضعه، قال فى تقويم المنصور «وبعد أن وطد الريف قصد ناحية الشرق حيث بقية بلاد المرابطين» أى أنه سلك طريق شاطىء البحر الابيض المتوسط الى أن وصل الى وهران وفتحها ثم حاصر تلمسان وفتحها كذلك، وبذلك أى بعد عام 534 هـ. (1140 م) أصبحت بلاد الريف خاضعة للموحدين بعدما كانت تابعة للمرابطين منذ تخريب مدينة النكور على يد يوسف بن تاشفين عام 472 هـ. (78ـ1 م) اذ أن ازداجة الذين تغلبوا على وهـــران وأسسوا ملكهم فاحتل الامير على بن أبى الفتوح الازداجى النكور وبقى ملكهم فيها قال ابن خلدون (1) (الى عام 1066 م. فاقلق ذلك يوسف بن تاشفين فوجه حملته الى الريف قال فى القرطاس (2) وفيها فتح مدينـــة النكور وخربها ولم تعمـــر بعد» .

---

(1) فى كتابة العبر وديوان المبتدأ والخبـــر .

(2) هو كتاب الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار المغرب ودولة فاس لابى العباس احمد بن أبى زرع ويكنى أيضا أبا عبد الله كما ذكـــر فى «لقط الفرائد» طبع بطبعات مختلفة والتى نقلنا عنها هى مطبعة الحجر بفاس صحيفة 3 من الملزمة 13 .

وعليه فان خضوع الريف الى المرابطين من عام 172 هـ. (1078 م) الى عام 534 هـ. (1140 م) اذ فتحه عبد المومن بن على ودان للموحدين بالطاعه الى عام 612 هـ. (1218 م) حين استخلصه الأمير عبد الحق بن محيو مؤسس دولة بنى مرين، وقد التقوا فى ملحمة بوادى النكور قال ابن خلدون «والتقى الجمعان بوادى النكور فكان الظهور لبنى مرين والدبرة على الموحدين» .

وقدفت هذا الفتح فى عضد عياض لان انفصال هذه الجهة عنه جعله يعجز عن الدفاع، فعندما وجه عبد المومن حملته على فاس وفتحه بعد حصار دام سبعه أشهر قدم القاضى عياض خضوعه، ووفد عليه واكرم وفادته فرده قاضيا على سبتة، بيد أن القاضى عياضا وان خضع للظروف القاسية وقدم الطاعة فان اختلاف العقيدتين قد حفر هوة بينهما ولا يمكن أن يركن الى الفاتح الذى فرض عليه الطاعة فرضا وقد قصم ظهره بتقليم جوانبه .

فما كادت ثورة محمد بن هود تندلع حتى انتهزها عياض فرصة لاعلان عصيانه فقام بثورة أخرى فى الشمال، وكان الداعى له سببين اثنين، أولهما الاختلاف فى العقيدتين كما اسلفنا، وثانيهما استباحة المهدى بن تومرت لسفك الدماء فى مسائل سياسية وذلك مثل قضية البشير: التى تتلخص فى ان شخصا يدعى عبد الله بن محمد ويلقب بالبشير كان صاحبهما من سواحل الجزائر، ورغم انه كان فصيحا عالما ذكيا فاضلا فانه تستر بالفهاهة واللكن والتعرى عن الفضائل بأمر منهما استعدادا سياسيا ليوم له ما بعده، فعندما أعلن المهدى دعوته فىقبائل مصمودة وهنتاتة وغيرها وتسرب الشك فى اخلاص أناس، قام هذا خطيبا غداة صلاة صبح ذات يوم فبهر الناس فضله وفصاحته بعدما عرفوه بالفهامة واللكن فعدوه كرامة من كرامات المهدى وقد كانت أعدت له لائحة اسماء المشبوه فيهم (أى اللائحة السوداء) فميز أصحاب الشر بين أفراد القبائل فتخلص ممن فى قلوبهم ميل للمرابطين وصفا له الجو .

وقد عد القاضى عياض هذا الامر الاخطل مهينا للشريعة التى لا تجيز قتل النفس الا بالامر البين، وقد كادت هاتان الثورتان تقضيان على

الموحدين قال فى القرطاس «انه لم يبق يومئذ تحت امـرة عبد المومن الا مراكش» لان ثورة ابن هود كانت اشبه بدعوة المهدى من حيث بناؤهـا على المعتقدات وقد اسمى نفسه الهادى، وهو وان كان من غوغاء النـاس ألا أنه لا ينكر فضله، ولولا أن شيخ الموحدين أبا حفص عمر بن يحيـى الهنتاتى واحد العشرة قد كسر جند ابن هود البالـغ ستين ألف جنـدى لما تمكن الموحدون من استرجاع أمرهم .

وقد حذا القاضى عياض حذو ابن هود فأعلن الثورة واستنجـد بصاحب قرطبة ابن غانية وهو أكبر قـواد المرابطين فى الأندلس، وطلب منه تقديم عامل له على سبتة ونواحيها ففعل (1) والتف حوله قبائل الشمال ولكن فشل ابن هود وسقوطه قتيلا فت فى عضد عياض فبعد ما أخضـع عبد المومن قبائل برغواطة قصد سبتة فقدم فقهاء سبتة وعلى رأسهـم القاضى عياض أنفسهم لامير المسلمين، الا آن علم الخليفة بقيمة القاضى عياض فى العلم والحديث ومكانته عند قومه حمله على أن عفا عنه واقتصر على نفيه قاضيـا الى تادلا حتى توفى قاضيا ثمـه عام 544 هجـرية (موافق 1160 م) .

---

(1) قال فى القرطاس صحيفة 134 طبعة الحجـر الفاسية «وفى خـلال هذه الايام (أى سنة 543 قام أهل سبتة على الموحدين بعد أن بايعوهم ومكنوهم من المدينة وكان قيامهم عليهم برأى قاضيهم عياض ابـن موسى فقتلوا من بها من الموحدين وعمالهم وحرقوهم بالنار وركـب عياض البحر الى ابن غانية بالبيعة وطلب منه واليا فأرسل معهـم الصحـراوى فدخلها وأقـام بها أياما فلما سمع برغواطة بخـروج عبد المومن اليهم كتبوا الى الصحراوى والى سبتة يستصرخون بـه فأتاهم فبايعوه واجتمعوا عليه وقاتلوا عبد المومن وهزموه ثم كانت الكرة عليهم وهزمهم الى أن قال فعفا عنهـم وعن القاضى عيـاض وأمره بسكنى مراكش وأمر بهدم سور سبتة فهدمهـا .

نقود موحدية فى باطن الارض

قد خضع الريف كما قدمنا لعبد المومن بن على عندما تنكب عن سبتة، وسلك مسلك شواطىء البحر، وكان يومئذ على سواحل حوض الريف مدن عامرة، منها مدينة بادس قال المؤرخ الادريسى:

«وبادس مدينة متحضرة فيها أسواق وصناعات قلائل وعمارة يلجؤون اليها فى حوائجهم ومنها مدينة بوسكور ومدينة المزمة قال: «ومن بوزكور» الى المزمة عشرون ميلا وكانت قرية عامرة ومرسى توسق المراكب بها ومنها مدينة مليلية قال: «ومن كرت الى مليلية فى البحر 12 ميلا وفى البر عشرون ميلا ومدينة مليلية مدينة حسنة متوسطة ذات سور منيع وحال حسنة على البحر وكان بها قبل ذلك عمارات متصلة وزراعات كثيرة ولها بئر فيها عين أزلية كثيرة الماء ومنها شرابهم ويحيط بها من قبائل البربر بطيوة .

وكان لعبد المومن على شواطىء طنجة فسبتة فالريف الى مليلية مائة قطعة بحرية من مجموع الاسطول البحرى الهائل المؤلف من أربعمائة قطعة موزعة على شواطىء مملكته، وكان لتلك الشواطىء طرق برية للقوافل تسير فى داخل المملكة الى سواحل البحر فكانت احدى الطرق تصل بمدينة النكور المخربة كما أسلفنا، وكانت قرية «ايجاروانو» فى بنى بوعياش من قبيلة بنى وريا غل تمر فيها احدى الطرق المذكورة، وكانت ثمة ثكنة من ثكنات جند الموحدين وقد عثر أخيرا فيها على نقود فضية مربعة الشكل نقش فى احد وجهيها «الله ربنا محمد رسولنا المهدى امامنا» وفى الوجه الآخر «لا اله الا الله الامر كله لله لا قوة الا بالله .

وهذه النقوذ وان كانت خالية من التاريخ الا أن مرجع أمرها الى سنة 550 هـ. (1166 م) لان عبد المومن فى هذه السنة أمر بضرب السكة باسم دولته قال فى تقويم المنصور «وكان منذ سنة 550 قد أصدر

أوامر الى كل البلاد الافريقية الشمالية باحراق سائر كتب الفروع وأمر العلماء أن يرجعوا فى الامور العامة دنيا ودينا الى كتاب الله وما ثبت من سنة رسول الله وجمعه ابن تومرت فى كتابه المعروف «بموطأ ابن تومرت» ثم ضرب السكة باسم دولته الحديثة وكتب عليها الله ربنا ومحمد رسولنا والمهدى امامنا، ولا ريب أن هذه النقوذ قد راجت رواجا كبيرا وكثر تداولها بين الناس وقد شاهدت بنفسى اثناء جولاتى بالمملكة التونسية كمية كبيرة من هذه النقوذ بيد الصبيان فى مختلف النواحى» .

وقد برزت هذه النقوذ فى هذه القرية على سطح الارض من دون اعمال حفرية غير أن المحل المذكور كان معلوما بأنه مدفن للكنوز» وهذه القرية تبعد عن مدينة النكور جنوبيها بعشرة أميال تقريبا وقد ظهرت من تلك الكنوز كمية أخذ بعض الصبيان منها كيلوغراما وربعا وأخذ غيره غير ذلك .

وبهذا البحث تعلم المواقع الاستراتيجية البرية التى كان الموحدون يستعملونها لحفظ سواحل البحر الابيض وتكون صلة الوصل بين القيادة العامة فى داخل المملكة» . (1)

وهكذا شهدت مدينة سبتة ذلك الاشعاع العمرانى والحضارى، وكانت محطة للقوافل الدينية والعسكرية والتعليمية مثلما كانت عليه القيروان، الا أنه بعد نكوص المسلمين على الاعقاب، فى شبه الجزيرة الايبيرية بعدما كانت فتوحاتهم بلغت أوجها، حيث وصلوا الى جنوب فرنسا، بقيادة عبد الرحمن الغافقى، فان عوامل التأخر أدت بهم الى أن ينحسروا ليس على تلك الفتوحات فحسب، وانما هوجموا فى عقر دارهم وذلك نتيجة للتضعضع الذى لحق بملوك المرينيين المتأخرين، فلم يسيروا على نهج أوائلهم الذين بزوا الاقران مثل يعقوب بن عبد الحق وأبى الحسن المرينيين، بينما الممالك المسيحية فى اسبانيا تتوحد لهدف واحد، وهو محاربة المسلمين، اينما وجدوا فى امارة بنى الاحمر

---

(1) هنا ينتهى الجزء الثانى من بحث «الريف بعد الفتح الاسلامى»

بغرناطة التى كانت تلفظ نزعها الاخير فى الاندلس، أو فى المغرب، حيث كانت اسبانيا والبرتغال تتقاسمان مناطق الاحتلال، فاختصت اسبانيا بالمناطق الشرقية التى احتلتها فى التواريخ التالية، والتى تضم لائحتها جزائر (بادس 1508 م) (النكور 1560 م) (مدينة مليلية 1494 م) (الجزائر الجعفرية 1848 م) (الى وهران 1509 م) .

واختص البرتغال بسبتة 1415 م. وما وراءها غربا فى لائحة تضم عدا سبتة، القصر الكبير 1458 م طنجة 1471 م، أصيلا 1471 م العرائش 1510 م المهدية 1515 م، أنفا 1571 م (الدار البيضاء حاليا) الجديدة (1) 1502 م آسفى 1512 م أكادير 1510 م، والدخلة 26–12 –1884 فى الصحراء المغربية بواد الذهب .

وعليه فان أول احتلال أجنبى لتراب مغربى كان 1415 م. 818 هـ. من طرف ملك البرتغال جوان الاول الذى استعان على احتلال سبتة بالخداع، حسب أحد روايات المؤرخين، وهى أنه أنزل فى مينائها صنادق يظن أهالى سبتة أنها مملوءة سلعا فاذا بداخلها أربعمائة محارب، خرجوا على حين غفلة من أهلها فاستولوا على المدينة، وكان ذلك أيام السطان أبى سعيد بن احمد المرينى، فاستصرخوه، فلم يعر لهم أى اهتمام، فرجعوا من حيث أتوا بدون طائل (2) وفى الاستقصاء «كان ذلك بعد حصارها لمدة ست سنوات» وزاد غيره (3) «بعد الاستعداد من البرتغال لمدة ثلاثة أعوام» وان ملك البرتغال هو الذى ترأس الحملة مصحوبا بأولاده الثلاثة: ضون بيدرو وضون دورطى وضون انريكى .

وبقى احتلال البرتغال الى سنة 1580 م حينما توحدت الدولتان تحت تاج فليب الثانى، ولكن عند انفصال البرتغال عن ذلك التاج بتاريخ

---

(1) كانت تدعى البريجة وعندما أخرج منها البرتغال تهدمت بسبب تلك الحروب فجددها السلطان المولى عبد الرحمان فسميت الجديدة الاستقصاء ج. تسع. ص. 12 .

(2) الاستقصاء ج. 4 ص 92 .

(3) تاريخ الحملات على المغرب باللغة الاسبانية .

1798 استأثرت اسبانيا بسبتة، بناء على استفتاء بين السكان المسيحيين، لان المسلمين هاجروا بدينهم عن مدينتهم الاسلامية التى تكالب عليها الدهر بعد عزة وصولة، ولم يرضوا أن يبقوا محكومين، بعد أن كانوا حاكمين، على أن المسيحية فرضت عليهم الهجرة القسرية، أو الدخول فى المسيحية كما فعلت بالاندلس .

وعلى كل حال، فان الاستيلاء على سبتة كان أمرا محبوكا سياسيا، وعسكريا، بين الدولتين الاسبانية والبرتغالية، وكان القصد منه طرد المغرب من شبه جزيرة ايبيريا الذى كان يؤازر أمراء بنى الاحمر بغرناطة ويمد اليهم يد المعونة، وذلك للقضاء على هذه الاخيرة نهائيا، وفى هذا المجال، فان مملكتى قشتالة وأراغون اتحدتا للوقوف صفا واحدا لطرد الامارة الاسلامية الباقية هناك، كما كان الشأن بعد ذلك بالنسبة للاتفاق المعقود بين اسبانيا والبرتغال عام 1509، لتقسيم القارة الافريقية التى بدت لهما انها أدنى الى السقوط فى ايديهما، نتيجة تضعضع الحصن الكبير، وهو المغرب، الذى كان يعتبر بالنسبة لافريقيا الحاجز الامامى، وسبب تضعضعه تكالب حيل بنى الاحمر عليه من جهة، حيث الملوك المرينيون كأبى سالم بن أبى الحسن، وابن زيان بن محمد بن يعقوب، قعدت بهم همتهم، وانحطت سمعتهم الى الدرك الاسفل، وكان بلاطهم عبارة عن دسائس داخلية تنتهى بهم الى القتل والسكر والعربدة، حتى اذا جاء عهد أبى سعيد بن احمد المرينى .

فبينما كانت احداث سبتة تجرى على حافة مملكته بالاندلس، وكان الحزم يقضى عليه ان ينجد هذا الثغر، لانه المنفذ الوحيد والقريب الى اعدائه بالاندلس فانه أجاب استصراخ سكان جبل طارق الذى كان تحت امرأة بنى الاحمر نظرا الى ان الاهالى استصرخوه، خوفا من حصار الاسبان، فكانت النتيجة أن أقتتل المسلمون داخل القلعة بعدما فتح السكان أبوابها للجيش المرينى الذى كان بقيادة أخى أبى سعيد المدعو عبو، وأخذه جند بنى الاحمر أسيرا، وبعثوا به الى غرناطة حيث استعمله بنو الاحمر فى ان يقوم على أخيه بالمغرب، ليقدموا له معونة فقبل، وكانت القاضية على الجميع، وربح الاعداء، وثبتوا أقدامهم على مدينة سبتة

التى جرت بعدها احتلال قلاع أخرى، وذلك لتطويق المغرب من الصحراء الى حـــدود الجـــزائر .

ومن يوم احتلالها وقصائد الرثاء والملحمات تحبر وتنشر الى يومنا هـــذا، حيث قرأت لاحد الشعراء المعاصرين من هذا القبيل، ولكن لا تلك القصائد ولا البكاء بمجد لها لفكاك أسرها، وانما الذى يخلصهـــا هو العمل الوطنى الحماسى بالوسائل العصرية السائدة .

ومما قيل قديما قصيدة العلامة عبد السلام جسوس التى جـــاء فى مطلعها: «رفعت منازل سبتة أقوالها» الى آخر القصيدة التى ستأتى عند الكلام عن الجزيرة .

ومما قيل فى هذا العصر قول الشاعر الاستاذ محمد الحلو :

لاحت رباهـــا الخضر شاحبة الرؤى خلف الحـــدود
حسنـــاء ترفـــل فى السلاســـل والغلائـــل والبـــرود

أجـــرى وراها فى جنون وهى تمعـــن فى صـــدودى
كالفجـــر طلعتهـــا الوضيئة فى ابتســـامات الـــورود

قـــد قاومت كـــر الزمان كأنهـــا بنـــت الخلـــود
وأبـــت روابيهـــا الشوامـــخ ان تطأطىء للسجـــود

شمخت بعزتهـــا كما كانـــت على عهـــد الجـــدود
وقفـــت تراقـــب من بعيـــد زحف فتيتهـــا الاســـود

لاحت فكفكفت الدمـــوع وتـــاه عقلى فـــى شـــرود
هـــذى مغانينـــا التى خفقـــت بها حمـــر البنـــود

وتجاوبـــت أصداؤنـــا فيها كأصـــوات الـــرعـــود
وسقـــت جحافلنـــا رباهـــا بالدمـــاء وبالصـــديـــد

أبصرتهـــا فى النـــار غـــارقـــة فى كـــتـــل الحـــديـــد
وسمعـــت انتهـــا الجريحـــة فى الحنايـــا كـــالوقـــود

ورأيـــت فيهـــا ســـادة بالامـــس كانـــوا كالعبيـــد
يتفيئـــون ظلالهـــا فى نضـــرة العيـــش الـــرغـــيـــد

فـــى ناطحـــات للسحـــاب تطـــل كالبحـــر المديـــد
ورأيت اخوتنـــا هنـــاك بيوتهـــم شبـــه اللحـــــود
غربـــاء فى نظراتهـــم معنى السيـــادة والمـــســـود
يتطلعـــون علـــى شقائهـــم الـــى الافـــق البعيـــد
ولقـــد وقفت على الديار فلـــم يطب فيهـــا قعـــــود
لم تصبنى فيها الحســـان ولا انثنيت مـــع القـــدود
فطفقـــت أســـألهـــا ســـؤال متيـــم صـــب عميـــــد
عصـــر الحنـــين فـــؤاده وبكـــى وفـــاء بالعهـــــود
ومتى استطـــاع الدمع تحطيم الحواجز والســـدود ؟
ومتـــى تحـــررت الممالـــك بالامـــانى والوعـــود ؟
يـــا سبتتى رغـــم الانوف ورغم عجرفـــة الحســـود
هـــل أنـــت الا درة فـــى تـــاج المـــغـــرب العتيـــد
سرقتـــك فى وضـــح النـــهـــار يـــد تطالب بالشهـــود
ظـــنـــوا ابـــتـــلاعـــك سيســـاغ يـــومـــا بالجمـــود
ستعـــود فتيتك الاســـود متى أفاقـــت من هجـــــود
تشـــد وعلـــى ربواتـــك الخضـــراء قدسى النشيـــد
يرفـــرف العلـــم المخضـــب فى سماهـــا من جديـــد
ياسبتتـــى رغـــم الانـــوف ورغم عجرفة الحســـود
قسمـــا سيجمعنـــا الزمـــان ونلتقى فى يـــوم عيـــد

جـــزيـــرة بـــــادس :

يقع خلط عند بعض الكتاب، بين جزيرة بادس المحتلة وبين مدينة بادس التاريخية، ومن هـــذا القبيل ما قرأته لبعض الكتاب (1)، حيـــث استشهد بقول المؤرخ الشريف الادريسى السبتى «بادس مدينة متحضرة

---

(1) من محاضرة نشرت بالعلم بتاريخ 8—2—1971 .

فيها أسواق وصناعات، وهى آخر بلاد غمارة، ويلجأ اليها أهل غمـــارة لقضـــاء حوائجهـــم» .

استدل به لحجرة بادس، مع أن الادريسى كان يتكلم عن المدينة التى كانت قائمة فى اليابسة، والتى ذكرناها سابقا كأحد المدن التاريخية.

أما حجرة بادس فهى جزيرة تسامت المدينة، ولذا نسبت اليهـــا، ويسميها الاسبان «البينيـــون»، وكان يسميها الجغرافيـــون الاسبانيون «فليس دى لاغمارة» .

على أن نفس المؤرخ الادريسى وقع فى خلط، حيث قال بأنها آخر بلاد غمارة، مع أنها فى الواقع تقع فى صلـــب قبائل الريف، وهى قبائـــل صنهاجة بادس، حسبما عند صاحب كتاب «صلحاء الريف»، فهى واقعة بآخر الشاطىء الغربى لقبيلة بقيوة، مجاورة لشاطىء قبيلة بنى بويفرح، وهى بعيدة عن بلاد غمارة .

وعلى كل، فان الجزيرة يفصل بينها وبين اليابسة قناة من مـــاء البحر، يصل عند المد الى حوالى 70 مترا وينحسر عند الجزر، فيتمكن العابرون لاجتياز القناة راجلين فى ضحل من الماء لا يصيبهم الا بلل فـــى النصف الاسفل من ذواتهم، أما مساحتها فتقدر بـــ 2500 مترا مربعـــا، وقد حصنها الاسبان وبنوها بناء شاهقا بحيث جعلوها كصومعة فى داخلها دروب، سميت بأسماء اسبانية، كما قســـم داخلها الى غرف للمصالـــح الادارية، والعسكرية، وختمـــت فى أعلاهـــا بمسطح مريح، له منظـــر بحـــرى خـــلاب .

ان الدور التاريخى لهذه الحجرة مستمد من وجودها على رأس مدينة الجهاد والعلم والصلاح (بادس) التى لها شأن وأى شأن فى حيـــاة جهات الريف خاصة والشمال عامة، حيث كانـــت تعتبر من أهم رباطـــات شواطىء الشمال بالمرتبة التى تلى مدينة سبتة، ومرفأ المدينة، والتـــى كانت ملجأ طبيعيا ترسو بجدرانها السفن والزوارق التى تقصد المدينـــة للاغراض المختلفة، ولذا يكون بها اهتمام خاص، كما أنها كانت ملجأ لسكان المدينة عندما يداهمهم عدو بريا، يعتصمون بها الى أن ينجلى المد لهم.

واذا كانت الفترات التى نكب فيها الاندلس، عرفت القرصنـــة

البحريـــة، تجـــوب هذه الشواطىء فانه بالطبـــع ازدادت أهمية الجـــزر الشاطئية، لانها تكون مرساة سفن القرصنة .

فقد تجلى التهافت على هذه الجزر منذ أن قامت الدولة الوطاسية، التى جعلت همها حماية شواطىء شمال المغرب ومن ضمنها طرد البرتغال من سواحله، فكافحت ضده فى البلاد الهبطية فطردتـــه عن مدن أصيـــلا والعـــرائش وطنجـــة .

وقد قدر للسعديين أن ينتصروا وتوطدت أركان دولتهم، وتغلب محمد المهدى الملقب بالشيخ، الا أن علاقة هذه الدولة مع جيرانها: أتـــراك الجزائر لم تكن حسنة، بل تأزمت الامور بينهم الى حد بعيد وذلـــك لان السعديين يرون ان الاتراك غاضبون اذ استولوا عللى تركة دولة بنى زيان بتلمسان، ويـــرون أن ذلك التراث حق مغربى (1) فطالما كـــان المغـــرب فى عهد المرابطين والموحدين وأوائل المرينيين مسيطـــرا على تلك الجهـــة، فتلمسان وجهاتها كانت اقليما مـــن أقاليـــم المغـــرب، ذلـــك ما أدى الى تنافر كبير بل الى حرب، فالسلطان أبو عبد الله الشيخ هجم على تلمسان عام 957 هـ. ودخلها واجلى عنها الاتراك، بينما سليمان القانونى العثمانى أرسل بعثة سرية، اغتالت أحد أولاد السلطان محمد الشيخ، ويدعى عبد القادر، وكان وزيرا لابيه، وعدوا لدودا للاتراك، وكان من الشجاعة بمكان.

ولم يقتصر عمل الاتراك على هذا الاغتيال، بل هيأوا حملة حربية لمساعدة أبى حسون الوطاسى فاتح عام 961 هـ. فاستولى على فـــاس، الا أن السلطان السعدى استجمع قواه فرد عادية ابى حسون الوطاسى فقتله واسترد فاسا فى شوال 961 هـ. (1555 م) وقد بقى أبو حســـون محتلا لها تسعة أشهر .

ولما لم يحصل الاتراك على مبتغاهم طالبوا من السلطان السعدى تحديد الحدود الشرقية وتعيينها فأوفدوا فى أواخر نفس العام من قبلهم الفقيه الصالح أبا عبد الله محمد بن على الخروبى الطرابلسى، وكـــان مقيما فى الجزائر، الا أنه لم يحصل على طائل، ذلك ما اضطر الاتـــراك

---

(1) الاستقصـــاء ج. 4. ص. 161 .

الى الاعتماد على العمارات البحرية وقرصنتهـا، فكانت سفنها تجـوب شواطىء الشمال، ويحتلون جزيرة بادس كمركز لتهديد المغرب .

على أن الباعث لاحتلالهم هذه الجزيرة لم يكن للتهديد فقط، بل غرضهم كان هو للاستلاء على المغرب، أسوة بالجزائر، وقد يكون السبب الحقيقى لتأزم الامور بينهم وبين المغرب وذلـك أيضا ما جعل المغـرب يبعد خطرهم عن حدوده بمهاجمتهم فى تلمسان، لان الباب العالى التى لا تكاد الشمس تغرب عن ممتلكاتـه فى القارات القديمـة يعز عليـه أن تستعصى عليه دولة فى أقصى المغرب .

وضعيـة احتـلالهـا

استرعى انتباهى بالخصوص فقرتان اثنتان جاءتا فى جريـدة يوميـة (1) .

الاولى هى «وعقد الغالب بالله مع الاسبان اتفاقية سرية تنازل فيها للاسبان عن جزيرة «بادس» .

ثم جاء فى الفقرة الثانية «وتجمع من المجاهدين فى بادس نحـو 8000 مجاهدا لمقاومة هذا الغزو الصليبى، لكـن مجاهدى بادس كـانوا غير منظمين تنظيما عسكريا، بخلاف العدو، الى أن قالت وقد استغاث أهل بادس بالسلطان الغالب بالله بدون جـدوى لجهلهم اتفاقية السـر مـع الاسبان، لتسليم جزيرة بادس لهم، قصد طرد الاتراك، خوفا منـه أن يتسربوا من الجزيرة للمغرب» .

ولعل أن الذى كان السبب فى الاعتماد على وجود الاتفاق السرى هو النص الذي نقله الاستقصاء صحيفـة 49، ج. الخامـس طبعـة دار الكتاب بالدار البيضاء، عن نزهة الحادى فى أخبار ملوك القـرن الحـادى «لابن عبد الله محمد الصغير المراكشى المعروف باليفرانى المتوفى ما بين 52–1154 هـ. (177 م) .

والذى جاء فيه «ذكر بعضهم أن السلطان الغالب بالله لما رأى

---

(1) العلم عدد 8947 بتاريخ 22 دجنبر 1974 تحت امضاء ابن الريف .

عمارة ترك الجزائر وأساطلهم لا ينقطع ترددها على حجرة بادس، ومرسى طنجة، وتخوف منهم، اتفق مع الطاغية أن يعطيه حجرة بادس، ويخليها له من المسلمين، فتنقطع بذلك مادة الترك عن المغرب، ولا يجدون سبيلا اليه، فنزل النصارى على حجر بادس وأخرجوا المسلمين منها ونبشوا قبور الأموات وحرقوها وأهانوا المسلمين كل الاهانة، ولما بلغ خبر نزولهم نولده محمد، وكان خليفته على فاس، خرج بجيوشه لاغاثة المسلمين فلما كان بوادى اللبن بلغه استيلاءهم عليها فرجع، وتركها لهم» .
ولكن هذا النص لم يعتمده لا اليفرانى ولا صاحب الاستقصاء، وانما جلباه لاجل نقضه ورده .

فقد قال صاحب الاستقصاء عقبه نقلا عن اليفرانى «هكذا وجده فى ورقة مجهولة المؤلف». وقال أيصا فى صحيفة 55 فى نفس الجزء، نقلا عن اليفرانى موضحا اسباب عدم الاعتماد على النص المذكور، ومؤكدا بصراحة انها أكذوبة على الغالب بالله من أحد خصوم الدولة السعدية فقال معددا مسائل قيلت ضده، وهى «ومثل ما ذكره بعضهم أعطى حجر بادس للطاغية لتنقطع بذلك مادة الترك» .

«ومثله ما ذكر عنه أيضا أن قائد بنى تودة أخذ أسوار الجديدة، وعزم على فتحها من الغد فكتب اليه السلطان المذكور ينهاه عن ذلك» .

ونظيره أيضا قضيته مع أهل غرناطة .

ثم قال أى اليفرانى «وهذه أمور شنيعة ولست أدخل فى عهدتها، لانى رأيتها فى أوراق مجهولة المؤلف، اشتملت على ذم هذه الدولة السعدية، وظنى أنها من وضع اعدائها لحطه من قدرهم، واخراجهم من النسب الشريف، ووصف دولتهم، بالدولة الخبيثة» .

ونظرا لكون اليفرانى هو المصدر الوحيد الذى نقل ما جاء فى الورقة المجهولة، فانه تبرأ منها ونقضها عروة عروة، فلم يبق للكتاب أيا كانوا أن يعتمدوا نصا مردودا أساسا لكونه لم يستند الا على ورقة مجهولة فى موضوع خطير كتفويت السيادة على جزء من الوطن .
على أن الثابت تاريخيا، أن الجزيرة كانت محل صراع بين قراصنة

الاتراك وقراصنة الاسبان للاستيلاء عليها لمكانها الاستراتيجى الحربى، ولان مدينة بادس كانت مرفأ لفاس وتازا، وهى صلة الوصل بينهما وبين الاندلس .

وعندما احتله الاسبان زمن الغالب بالله السعدى بعدما هجموها بأسطول مكون من 92 سفينة حربية اسبانية وبرتغالية تجر جيشا ضخما من مرتزقة الالمان والصقليين والطليان، زيادة على الاسبان والبرتغال، امتنع الغالب بالله من الاعتراف بالامر الواقع بعقد معاهدة مع الاسبان لشرعية الاحتلال .

وللاستدلال على ذلك ننقل هنا ما جاء فى السلسلة الاولى السعدونية، ج. لث. صحائف 15–63–141–151 وج. ل. ص. 263 فقد جاء ملخص الجميع، انه «تكررت تلك الحملات مرات متعددة، فكانت قراصنة الاسبان من مليلية، يغيرون عليها، بينما قراصنة الجزائر (الاتراك) يتخذونها مقرا لهجومهم على سواحل الاندلس، واقتناص السفن المتوجهة الى الهند، يعاونهم فى ذلك قراصنة تطوان والعرائش وكانت قراصنة مليلية يؤدون لملك اسبانيا خمس اسلابهم، ولولائهم كانوا يحملون الى اسبانيا والبرتغال سنويا، أزيد من مليون من العملة الذهبية.

وكان الجند الريفى يتصدى للاسبان الذين يحتلون جزيرة بادس، وقد طردوهم منها عام 929 هـ. وبقى الوطاسى أبو حسون، ثم السعديون مالكين لبادس الى عام 1554 م (961–962 هـ.) حيث احتلها الاتراك نحوا من عشر سنوات ثم استرجعها الاسبان، وهدموا مدينة بادس فتخربت واحتفظوا بجزيرتها معززين بـ 92 سفينة برتغالية واسبانية مع جنود مرتزقة من الالمان والصقليين والايطاليين ثم استرجعها الاتراك، وقد رفض السلطان امضاء معاهدة للاعتراف بالامر الواقع، ووجه قائدين لاسترجاع الحصن .

وعليه فان النصوص التاريخية العربية ضد القول بأن أية سلطة مغربية قد فوتت الجزيرة الى الاسبان ولا يمكن تزكية استيلائهم عليها بطرق الاتفاق أو المعاهدة السرية أو العلانية، وانما احتلالهم اياها هى من سلسلة الاعتداءات الاسبانية على الشواطىء المغربية فى ذلك التاريخ،

وياما أكثرها وياما أكثر ماردت على أعقابها خاسرة تجر اذيال الهزائم، ولم يغنها انها تمسكت بكل ناعق مغامر ينقم على الدولة المغربية، مثلما فعلت مع الشيخ المأمون بن احمد المنصور الذى فر امام أخيه السلطان زيدان الى اسبانيا حيث استعدى بملكها ليغزو المغرب مدعيا الاحقية بالملك من أخيه، واستجابت اسبانيا لمطلبه «مسرة حسوا فى ارتغاء»، كما يقال وطلبت منه أن يمكنها من العرائش بعد اخلائها من المغاربة فجاء أى المأمون يجر من ورائه خراب وطنه فى سفن الاعداء، فنزل بجزيرة بادس ثم ارتحل الى القصر الكبير وأمر أحد قواده باخلاء العرائش وتمكينها من الاعداء، وقد يكون الاسبان عرجوا عن جزيرة بادس لتركية احتلالهم بوجود هذا الناعق الذى يرومون من استعماله دمية فى يدهم لاغراض مدسوسة .

ولكن لا هذا الناعق ولا الجيش الاسبانى استوفى مراده، فالشيخ المأمون قتل بفج الفرس، ما بين تطوان وطنجة بتاريخ 1022 على يد المقدم أبى اللفيف (1) وتركت جثته فى الخلاء طعمة للغربان، والجيش الاسبانى رجع مفلولا من حيث أتى، فلم تكن هناك تركية ولم يكن هناك خلود فى العرائش بفضل صمود المغاربة أمام المغيرين .

وكما استرعى انتباهى أيضا ما جاء فى نفس المقال عن مساحتها «من أنها حوالى 12.825 مترا مربعا وهو ما يساوى اثنى عشر هكتارا وخمس وعشرين وثمانمائة ءارا» .

والحقيقة أن مساحة الحجرة هى 2500 مترا مربعا أى ربع هكتار فقط على أنه حسب الرقم الذى أعطاه صاحب المقال وهو 12.825 لا يتوفر الا على هكتار وربع وبعض آرات وليس اثنى عشر هكتارا كما يدعى المقال .

وعلى كل، فان الاسبان احتلوها عام 914 هـ. (1508 م) وبنوها وحصنوها، وكان أول من احتلها الربان «بيدرو نافارو» (2) بدعوى

---

(1) الاستقصاء ج. 4. ص. 143 .
(2) الاستقصاء ج. 6. ص. 22 .

مراقبة السفن التى كانت تأتى من البندقية، للاغارة على سواحل اسبانيا ضمانا لتجارتها التى تسوقها الى مرسى بادس، كل سنة، وكان الاحتلال بواسطة قوة «لا رمادة» وأقام عليها رئيسا هو «خوان دى فيالولس» الى سنة 1522 حيث انتزعها الاتراك من يديهم بعد هجوم عليها من طرف جنود البسوا لباس الاسبان فظن هؤلاء ان اغاثة أرسلت اليهم من دولتهم حتى اذا تمكن الاتراك من الجزيرة أسروا الحامية الاسبانية .

ومن هنا بدأ التنافس الشديد على احتلالها بين الاتراك والاسبان وكلاهما أجنبيان على المغرب. وكانت سفن الاتراك بقيادة خير الدين بربروس تجوب عباب البحر المتوسط مترصدة تحركات الاسطول الاسبانى فى تلك المياه .

وعندما تمكن الاسبان من الاستيلاء على الجزيرة للمرة الثانية، طردوا منها الحامية التركية مخلفة هناك 21 مدفعا تركيا، جاءت قوة صالح الرائس التركى حاكم الجزائر سنة1555 فهجمت على الجزيرة ودكت تحصيناتها، ثم استولت عليها فى عهد أبى حسون الوطاسى، الذى بانقضاء عهده انقضى عهد الوطاسيين، ولمع نجم السعديين حيث تمكن السلطان محمد الشيخ من تأسيس الدولة الجديدة، وكان لزاما أن يقطع الطريق عن الاسطول التركى اعداء الدولة الفتية، والمؤازرين للوطاسى أبى حسون مؤازرة سافرة

وفى خضم أحداث كثيرة جرت بين السعديين والاتراك سواء أيام محمد الشيخ أو خلفه الغالب بالله، حيث تصعدت تلك الاحداث الى معارك وجها لوجه سنة 1557 م. اذ تحرك الاتراك بجيوش جرارة لاحتلال فاس، فالتقت بهم جيوش الغالب بالله فى وادى اللبن فكانت الهزيمة على الاتراك وفروا متحصنين فى جزيرة بادس، وكانت تحت أيديهم (1) .

وفى سنة 1564 م. جهز فليب الثانى أسطولا بحريا طليبيا يتكون من 92 سفينة حربية محملة على ظهرها قوة كبيرة خليطة من الاسبان

---

(1) الاستقصاء ج. 5. ص. 39 .

والطليان والالمان والبرتغال والانجليز، بقيادة الجنرال «غرسيا طولدو» ففاجأت هذه القوة حامية الاتراك فى الجزيرة وحاصرتها، ثم سقطت فى يد الاسبان فى غشت 1566 م. ومن هذا التاريخ وهم يحتلونها احتلالا جائرا غير مبنى على أى اتفاق من طرف سلاطين المغرب كما أسلفنا .

وكان الغرض من هذا الاحتلال، أمرين اثنين أولا: قطع الطريق عن الاسطول التركى الذى اقض مضجع الاسطول الاسبانى وذلك حتى لا يجد الاسطول التركى ملجأ يلجأ اليه على شواطىء الشمال، وقد عمد الاسطول الاسبانى أن يسد فى وجه الاتراك كل ملجأ، ومن ذلك ما قام به من سد مصب وادى مرتيل باغراق خمس سفن محملة بالاحجار والجير فى مدخل الوادى، لانه بعد احتلالهم لمليلية والنكور وبادس وسبتة لم يبق مفتوحا الا وادى مرتيل الذى كان يكون دلتا ترسو فيها السفن فرارا من العواصف وللتزود بالمواد الضرورية، وكانت السفن تدخل الوادى الى تامودة بضواحى تطوان .

فقد جاء فى رسالة (1) قائد أسطول البوغاز «دوق الفارودى بانان» من اشبيلية، الى ملك اسبانيا (فليب الثانى) بتاريخ 3 نوفمبر 1564 م. (972 ه) ما تعريبه: «أما ما ذكرتم جلالتكم فيما يتعلق بما كتب به اليكم دون غرسية ديطوليد وعن اغلاق مدخل نهر تطوان، فيجب على أن أذكر لكم أنه بعد الاستيلاء على البانيون (وهو الاسم الذى يطلقه الاسبان على جزيرة بادس) لم يبق للسفن التركية، فى البحر الابيض، من الجزائر للبوغاز مرفأ تلتجىء اليه، الا ذلك الوادى، ولهذا فانما كتب به اليكم دون غرسية يعتبر مشروعا عظيم الفائدة وأنا أستطيع أن أقوم بذلك العمل ولدى ست من السفن الكبيرة، فيلزم أن تزود بما يكفيها لمدة شهر، وهى المدة اللازمة للذهاب فى فصل الشتاء، ووادى تطوان نهر جيد، ذو فم واسع، وأرضه رملية ومدخله صالح للملاحة، فى أوقات دون أخرى، ولاجل اغلاقه تلزم أربع سفن، لاغراقها محملة بالحجارة والجير عند مدخله ولابد لانجاح هذا المشروع عن احاطته بالتكتم التام» .

---

(1) تاريخ تطوان للاستاذ داود، ص. 126 ملخص .

وقد أجابه الملك المذكور آمرا له بتنفيذ المشروع برسالة صادرة من مدريد بتاريخ 21 نونبر 1564 م. وفعلا فقد نفذ الاسطول الاسبانى هذا المشروع وأغلق المدخل صبيحة يـوم 9 مارس 1565 م. باغـراق السفن المحملة بالاحجار، وذلك بعدما جرت معركة حامية الوطيس مع الاسبانيين الذيـن نزلوا الى اليابسة لتأمين هذا الأغـلاق، فقد وصـل الخبر الى المغاربة المحيطين بالوادى مـن مدينة تطوان وقبائلهـا، بأن الجيش الاسبانى عازم على مهاجمـة تطوان، فاستعدوا لذلك، ولكـن الأغلاق وقع طبق المشروع الاسبانى.

استغاثة على لسـان الشعـراء :

ان كوارث المغرب أصبحت من أواخر المرينيين فالوطاسيـين فالسعديين تترى، فالشواطىء المغربية مـزقت شر ممزق بين المحتلـين، فهذه ثغور سبتة وطنجة وأصيـلا تحتل أيام المرينيـين، وهذه ثغـور البريجة (الجديدة) وسواحل سوس وآسفى وأزمور والمعمورة تحتـل أيام الوطاسيين، ورغم أن قيام الدولة السعدية كان لسد الثغور التـى تركها الوطاسيون بسوس عورة، فان الاحتلال أيام السعديين أصبـح عملا شبه رسمي، ففى زمن الغالب بالله استولى الاسبان على بـادس والمزمة، ومحمد الشيخ بن المنصور اذن لهم باحتلال العرائش.

ثم أنه أتت بعد ذلك الدولة الشريفة العلوية، فوجدت نفسهـا أمام هذه المخلفات الثقيلة وجها لوجه الا أنها قامت باعباء استرداد تلـك الثغور واحدا تلو الآخر، فقد شمر السلطان المجاهد مولاى اسماعيـل وشنها حملة شعواء على المغتصبين.

وقد قام المجاهدون المغاربة فى الشمال بواجب وطنى شريـف، فلبوا نداء السلطان الهمام، وقاوموا قوة واحدة تحت لواء قائدهـم أبى الحسن على بن عبد الله الريفى، فحاصروا طنجة، ففى عام 1095 هـ. بعدما طال الحصار على المحتلين، انسلوا ليلا فارين فى مراكبهم البحرية، حيث تركوا المدينة فارغة، بعدما خربوا معالمها، الا أن قائد المجاهدين قد رمم ذلك فى أسرع وقت، وأصلح أحوالها، وفى سنة 1100 هـ. تلقى المجاهد احمد بن حدو الريفى البطيوى من قبيل بطيوة على رأس جماعة

من المجاهدين من طرف السلطان أن يتوجه الى العرائش لافتتاحها، نتوجه اليها، واستبسل المجاهدون فى هجماتهم ضد العدو، الى أن افتتحت سنة 1101 هـ.

ولهذا أصبح يطلق على أبناء الريف اسم المجاهدين فلا يرد فى الكتابات الرسمية فى حقهم الا أفعل بالمجاهدين كذا وأوصيك بالمجاهدين الى غير ذلك، لانهم اثاروا حماسا جهاديا منقطع النظير، فطردوا عن شواطىء الشمال ما كان فيها من رجس الغزاة، ففى العرائش كان النصارى المقيمون فى ذلك الثغر 3200 قتل منهم أثناء القتال الفان وأسر الباقى، ولم يكن الفتح صلحا كما زعم الاسبان، بل كان عنوة، وقد كافأ المولى اسماعيل هؤلاء المجاهدين فأسكنهم مدينة العرائش، وأمر القائد احمد الريفى أن يبنى لهم مسجدين وحماما، وان يبنى داره هو بقلعتها (1)

الى أصيلا :

وفى غمرة الافتتاح توجهت همته أيضا لفتح أصيلا، فأمر نفس المجاهدين، فتوجهوا اليها وحاصروا حامية الاسبانيين فيها مدة سنة كاملة، وعندما بلغ بهم الضيق كل مبلغ طالبوا الامان، فأعطاهم السلطان ذلك، الا أنهم رجعوا فركبوا البحر ليلا ناجين بأنفسهم الى اسبانيا، لا يلوون على شىء .

وقد فعل السلطان مع المجاهدين نفس العمل، فكافأهم باسكانهم مدينة أصيلا، وبنى لهم مسجدين ومدرسة وحماما ودارا لقائدهم بالقلعة.

ويظهر أن عدد المجاهدين تكاثروا، ولذا اسكنوا فى المدينتين معا وهو ظاهر .

الاستغاثة :

وقد تبارى العلماء والشعراء بعد هذا الانتصار، لاستحثاث همة السلطان المجاهد، لفك رقاب الثغور المغربية الشمالية والجنوبية، وكانت بادس وسبتة والجديدة تئن تحت النير الاجنبى .

فقد قال الفقيه العالم الورع أبو محمد عبد السلام ابن حمدون جسوس يستحث همة الغازى مولاى اسماعيل، على لسان هذه الثغور:

(1) الاستقصاء ج. ص. 74 .

رفعت منازل سبتة أقوالها ... تشكو اليكم بالذى قد هالها
مع بادس وبريجة فتعطفوا ... وتنبهوا كى تسمعوا تسآلها
يابن النبى الهاشمى محمد ... قل يا أمير المؤمنين أنا لها
فلقد قضيتم للعرائش حاجة ... مع طنجة فاقضوا لذى آمالها

الى أن قال :

فابعث لها أهل الشجاعة عاجلا ... كيما تقطع بالعدا أوصالها
وأمدهم بمؤونة ومعونة ... حتى تراهم نازلين جبالها
وارفع لهذا الغرب رأسا انه ... من الضعف مادام العدا انزالها
أبقاك ربى للخلافة عدة ... تقفو الشريعة مؤثرا افعالها

جزيرة النكور :

هذه الجزيرة تقع فى صميم خليج الحسيمة، أمام رباطة المجاهدين التى تحولت الآن الى نادى البحر الابيض المتوسط، وتبعد عن اليابسة بحوالى 500 مترا .

ومساحتها 15.000 متر مربع، وترتفع عن البحر بنحو 27 متر.

وبهذا الاسم كانت تعرف عند جغرافى المغرب، كالبكرى وغيره، وذلك أخذا من اسم الوادى الذى يصب شرقى تلك الجزيرة بنحو أربع كيلومترات، وهو وادى النكور، أما الواد الذى يبعد عنها بنحو كيلومتر واحد فهو وادى غيس .

وقد كانت فى عهد امارة النكور للعرب الحمريين ملاذا لبعضهم فى الحروب، وكانت مرفأ لمدينة المزمة التى كانت على الشاطىء المقابل لها.

وقد بينا فى مناسبات من هذا الكتاب الاهمية القصوى التى كانت تتوفر عليها، وبالاخص اثناء احتلال اسبانيا لها بتاريخ 1673 م. حيث عنيت من طرفها بتحصينات عسكرية مهمة، كما قامت بأدوار سياسية استعمارية .

ويسميها الاسبان «بلاوسيماس» التى اشتقت منها كلمة الحسيمة، وقد بينا سابقا وجه التسمية بهذا الاسم .

مـــديـنـــة مليلـيـــــة :

بجوار قلعة مليلية كانت مدينة أزلية تدعى روسادير، وهى فنيقيه وكانت مرسى شرقى القلعة متصلة بها وكانت محطة التجارة الفنيقيين ابان ازدهار دولتهم الشرقية بلبنان، والغربية بتويس القرطاجنية، ثـــم استعمرها الرومانيون بعد الفنيقيين .

أما القلعة التى هى مجاورة لروساديس، فكانت تدعى قلـــوع جارة، واليها تنتسب قبيلة قلعية وأول من بنى هذه القلعة وحصنها الامير مليل، أمير بنى يفران، واليه تنسب مدينة مليلية، وقد أسسها عام 92 هـ. كما سبقت الاشارة اليـــه .

وتقع المدينة عند تقاطع خط الطـــول بدرجتين و52 دقيقة غربى كَرينيش ودرجة 21،35 دقيقة من خطوط العرض شمال خط الاستواء .

أما أسرها لدى الاسبانية فقد كان على الشكـــل التالى: عندمـــا سقطت آخر مملكة فى الفردوس المفقود وهى مملكة بنى نصر بغرناطة فى أواخر القرن الخامس عشر، واستولـــت الكاثولكية بقيادة الملكـــين الكاثولكيين الاسبانيين على ما تبقى فى يد المسلمين من أمر الاندلس، وبعد خمس سنين من سقوط مملكة غرناطة، شـــرع الاسبان يهجمـــون على المغرب، ومن ضمن ذلك الهجوم على مدينة مليلية .

وذلك أن مليلية كانت محل نزاع بين سلطنة تلمسان، وسلطان المملكة المغربية محمد الشيخ الوطاسى، ولحسم النزاع بينهما التزامـــا معا اخلاءها من قوة كل من السلطتين وتركها خالية، واذ ذاك اهتبلهـــا الغزاة الاسبان، وانزلوا بها 500 فارسا بقيادة «بدرو دى لسطوبنيان»، الذى نال لقب دون مدينة شـــدونة .

وبهذه السهولة نزل الغزاة فى هذه القلعة بقوتهم التى لم تلـــق أية مقاومة، لان المسلمين، تركوها عورة لما نشأ بينهم من الخلاف، وهى قلعة أزلية لها أهمية كبرى، وقد شهدت الاسطول التجارى الفنيقى ينزل تجارته بجنبها كما شهدت الاسطول الاستعمارى الرومانى الذى جعلها قاعدة وصلة بين استعمار المغرب والجزائـــر .

وكانت تعتبر قاعدة شعب بطيوة فى الريف وقد كانت مجـــازا لصقر قريش الامـــوى، حيث مر منهـــا الى الاندلس، لتأسيس المملكـــة الاموية ذات الشأن الاكبر المعروف (1)، وكـــان من الطبيعى أن تحتـــل بهذه السهولة مادام هناك نزاع بين سلطتين ذاتى شـــأن .

ورغم ان المجاهدين الارياف بعد استيلاء الغزاة عليها، قد قاموا بالقسط الاوفر من الجهـــاد لرد عادية المغيريـــن، الا أن موقع القلعـــة من المناعـــة، وتحصينها بالاسطول الاسبانى بحـــرا، قد فث فى عضد المجاهدين. ففى خلال مدة خمسة قرون لم يفتأ الحصار مضروبا عليها، وبالاخص فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، ففى هذا القرن الاخير وبالضبط بتاريخ فاتح شتنبر عام 1774 م. شمر السلطان المجاهد مولاى محمد بن عبد الله العلوى، فقرر حصار كل من سبتة ومليلية، لاسترجاعهما الى حظيرة الوطن، ولكن قوة الاسطول الاسبانى الذى يزود الحصنـــين بالحشود والدخيرة والمئونة حتى الماء، من جهة، ومن جهة أخـــرى يقطع الطريق عن امدادات المغرب للمجاهدين (2) بحرا .

الا أنه لما كان السلطان سيدى محمد بن عبد الله قد عقد هدنـــة مع اسبانيا فى عام 1179 هـ. (هدنة وليس معاهدة) ذلك أن أسرى المسلمين الذين كانوا فى قبضة اسبانيـــا، استغاثوا بالسلطان سيدى محمد هـــذا وطلبوا فكاك أسرهم، ولما كان للسلطان هذا اعتزاز بالمبادرات الاسلاميـــة الاحسانية، فانه كتب الى ملك اسبانيا يطلب منه أن يعتنى بأسرى المسلمين، كما تعتنى الدولة المغربية بأسرى النصارى، وبالاخص ذوى المعرفة والمقام منهم، فما كان من ملك اسبانيا الا أن أطلق سراح من عنده، ووعد بأن يلحق بهم من وجد عنده فى اقاليم أخرى، فوقع ذلك م نالسلطان موقعـــا عظيما ودعاه حبه بالافتخار أن يطلق من عنده من أسرى النصارى، سواء اسبانيين أو غيرهم، مع هدية من ضمنها أسد من المغرب، فبادله ملك اسبانيا بهدية أخرى عظيمة مع كتاب أصحبه لعلية قومه، وبذلك توطدت الصلة بين

---

(1) كما عبر عنها المغنى المشهور زرياب بلبل بغداد الذى جاء الى الاندلس

(2) الاستقصـــاء ج. الثامـــن ص. 40 .

الدولتين، واقترح عليه الاخير أن يبعث اليه بعثة لتشتهر الصداقة بينهما، فبعث اليه سيدى محمد بن عبد الله بعثة تتركب من قائدين من قواد الودايا، ومعهما الكاتب أبو العباس احمد الغزال، وزود الاولين بكتاب يعتمد فيهما القائدين المذكورين لدى ملك اسبانيا، ولما وصلت البعثة الى جبل طارق، رأى الكاتب أبو العباس الغزال أن القائدين ليست فيهما غنيه، لأنهما ليسا أهلا لتمثيل بلده لدى ملك أجنبى فكتب الى الملك يعلمه بقصورهما عن المهمة التى وكلت اليهما، فتفطن الملك، وبعث بكتاب آخر يعتمد فيه الكاتب الغزالى، وأمره بأخذ الكتاب الاول الذى عند القائدين عنده (1) .

وفعلا قام هذا الكاتب بالمهمة المنوطة به وربط الصلة مع اسبانيا، ومن ضمن ذلك وقع الاتفاق على عقد مهادنة بين اسبانيا والمغرب فيما يخص البحر، فكتب الكاتب الغزال هذا عقد المهادنة بخط يده، وجاء فى هذا العقد العبارة التالية: «بحرا لا برا» وقد كانت هذه العبارة سبب نكبة هذا الكاتب، كما كانت سببا لاسترسال استعمار مدينة مليلية، وذلك أنه لسهولة تكشيط لفظة لا التى بين بحرا لا برا ووضع حرف الواو محلها، وهكذا عمد الاسبان الى تحريف ذلك فأصبحت العبارة هدنة بحرا وبرا، ولما وقع الحصار على مليلية من طرف سيدى محمد بن عبد الله كما أسلفنا استظهر الاسبان بالاتفاق بخط الكاتب الغزال .

وهناك ثارت ثائرة السلطان سيدى محمد على الكاتب المذكور، فوبخه وعزله وطرد من عنده وبقى عاطلا الى أن عمى بصره ثم توفى (2).

وقد كان اهتمام سيدى محمد بن عبد الله بثغور الشمال عظيما، وبالاخص الثغور التى تتعرض لقرصنة اسبانيا والبرتغال وفرنسا، وذلك ما دعاه الى القيام ببعث هذه البعثة المهمة الى اسبانيا لعقد المهادنة وتأمين البحر المصاقب لهذه القلاع المهمة على شاطىء الريف .

---

(1) الاستقصاء ج. الرابع ص. 49 .

(2) هكذا فى الاستقصاء ج. 8 ص. 40 الا أن الاستاذ حسن السائح اعلمنى أنه توجد نسخة فى خزانة تطوان لازالت على أصلها أى بحرا لا برا، ويمكن أن تكون النسخة التى عند الاسبان هى التى حرفت فاستظهروا بها .

وفى نفس السنة التى بعث فيها بهذه البعثة، قام بجولة عبر هذه الشواطىء (1) ابتداء من تطوان بعد أن تفقد ثغر سبتة ومركز المجاهدين فيها، ومن هناك اتجه الى الريف عبر شواطىء غمارة، اذ وقف على مرسى تكساس، ومرسى الجبهة، ثم بادس فالمزمة الى أن وصل الى كرط بضواحى مليلية، فاتصل بالمجاهدين هناك، وبث فيهم روح الجهاد والنضال ورضى عنهم رضى الملوك المعتزين برعيتهم، ثم رجع عن طريق تازة، وعندما وصل الى قاعدة ملكه عين ولده مولاى على، خليفة له على هذه الجهات، فضم اليه نواحى الجبالة والريف وغمارة، وجعل مقره فاسا الجديدة اعتناء منه بهذه الشواطىء .

وفى سنة 1846 م. تعرضت مليلية أيضا لحصار من طرف المجاهدين المحليين، الذين قاموا بحصارها نظرا لما أصاب السلطة المركزية من الضعف، وعندما اشتد الحصار عليها طلب الاسبان من السلطان ارسال كتيبة معربية للحيلولة بين القبائل وغاراتها على مليلية .

واثر ذلك، وبتاريخ 24 غشت 1859 م. حصل الاسبان من الدولة المغربية على اتفاق حدد بموجبه حدود جديدة لمدينة مليلية، وهكذا تم التوقيع بين المغرب واسبانيا بمدينة تطوان على ذلك الاتفاق، فعينت بموجبه اخدود يحيط المدينة، ضمانا للدفاع عنها وصيانتها، وكان هذا الاتفاق يشتمل على ست مواد، تنص السادسة منها على تسهيل تموين الحامية الاسبانية بمليلية، ثم تمم هذا الاتفاق بمدينة طنجة بتاريخ 30 أكتوبر سنة 1860 م، حيث وضعت الحدود على الكفية التالية:

يبتدىء خط قطاع مليلية المحيط بالمدينة، ومن نقطة تقع على الشاطىء على مسافة الفين وتسعمائة مترا جنوبها، ويبتدىء هذا الخط من منارة (سنطا بربارا)، وينتهى بعد السير المتكسر فى الشاطىء الصخرى المنعرج شمال المدينة، ويبدو من نصوص الاتفاقية هو تحديد ما يسمى بمليلية ولا تدل على تسليمها اليهم .

ورغم كل هذه الاتفاقيات فان المجاهدين الارياف لم يعترفوا بها، بل قاوموا الاحتلال الاجنبى، ففى سنة 1893 م، نشبت الحرب المعروفة

---

(1) الاستقصاء ج. 8 ص 25 .

بحرب مليلية، وقد اهتبلها الاسبان فوسعوا فى حدودها واعتنوا بها أعتناء بتطوير عماراتها، وفى سنة 1009 م، هجم السكان أيضا تحت قيادة المجاهد الكبير الشهير الشريف الادريسى سيدى محمد أمزيان، وحاصروا مليلية، وهجموا السكة الحديدية التى مدت لاستغلال مناجم الحديد بجبل «أوكسان» الذى كان الثائر العميل بوحمارة عند حلوله بقصبة سلوان، قد أعطى امتيازا لاستغلال منجمى «أوكسان وسيطولا زار» بتاريخ 1907 م. مقابل 650.000 بسيطة اسبانية، ورغم أن مولاى عبد الحفيظ رفض هذا الامتياز، فان اسبانيا لجأت الى الحرب لاحتلال هذا المنجم، فقد جندت 50 ألفا من جنودها معززين بالاسطول البحرى لاحتلال هذه المنطقة .

منطقة مناجم الحديد :

وقد دامت المعارك أكثر من ستة أشهر لاحتلال هذه البقعة، وتكبدت اسبانيا خسائر فادحة، وقد خلفت من القتلى والجرحى الفين بينهم جنيرال واحد وكرونيلات وضباط آخرون، وقد سمت اسبانيا ذلك الاسبوع الذى وقعت فيه المعركة، بالاسبوع المأسوى، سبب لها اضطرابا داخليا فى أمتها وبالاخص الدوائر الحاكمة .

الجزر الجعفرية (1)

هى جزر ثلاثة تقع شرقى مدينة مليلية بحرا، على شواطىء قبيلة كبدانة، قبالة رأس الماء، وتبعد عن الشاطىء بنحو ثلاث (كلم)، وأخذت تسميتها بالجعفرية من اسم جعفر التى تنسب اليه ومن هذا الاسم يطلق عليها الاسبان «شافارينس»، مع تحريف فى النطق، كما هو الشأن فى نطقهم بالكلمات العربية .

ويظهر من تسمية الشريف الادريسى فى نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، بجزيرة قشقار، حيث قال: كانت حصنا عامرا له مرسى واسعة، وميها الماشية والاموال، وفيها مياه، وتلجأ اليها المراكب، وهى مسكونة ويصب بحذائها نهر ملوية، ان القصد من ذلك هى احدى تلك الجزر وهى

---

(1) بهذا الاسم تعرف الآن، وهو اسم متداول مستحسن، وان سميت فى بعض كتب التاريخ بجزر كبدانة أو جزر نهر ملوية أو جزر قشقار.

الاكبر فيها، وهى تسمية لا تخالف تسميتها بجزر جعفر، لانها اسم خاص لاحداها فقط، كما أن الاسبان سموا كل واحدة منها باسم خاص، مع بقاء اسم مجموعها الذى هو شافارينس على ما هو عليه، فسموا الكبيرة منها بجزيرة الكونغريس، وتبلغ مساحتها 900 م. طولا فى 500 عرضا فى ارتفاع 135 م عن البحر، وهى التى كانت عامرة حسبما ذكره الشريف الادريسى وتليها جزيرة أقل منها ومساحتها 500 م طولا فى 400 عرضا، وترتفع عن البحر بأربعين مترا، وسميت عند الاسبان بجزيرة ازابيل الثانية، ثم تليها جزيرة وهى أصغر الجميع ومساحتها 300 م طولا فى 200 عرضا مع ارتفاع 34 مترا عن البحر وسماها الاسبان بجزيرة الملك .

ويبدو من البيان المذكور أهمية هذه الجزر التى تكون ارخبيلا مهما يراقب السكان الذين يقطنون على ضفاف نهر ملوية السفلى، تلك الضفاف التى شهدت فى احقاب متلاحقة احداثا تاريخية مهمة، فقبائل بنى يزناسن العاتية تقطن الضفة الشرقية، وقبائل كبدانة وراءها يقطنون الضفة الغربية، والجميع كان مسرحا لتلك الاحداث، كما تراقب أيضا القطع البحرية التى تسير حذاء تلك الشواطىء .

ولذا فانه عندما احتلت فرنسا القطر الجزائرى حاولت الاستلاء عليها، وذلك ما حرك ساكن الجيش الاسبانى الذى فى مليلية، فطير الاعلام لملكة اسبانيا ازابيل الثانية، فأمرته باحتلالها باسمها، فقام الجنرال «سيرانو» حاكم مليلية فى ذلك التاريخ، فاحتلها بتاريخ 1848، وجلى عنها سكانها المغاربة ومن ذلك التاريخ وهى تستخدمها كقاعدة عسكرية لتعزيز مليلية ومراقبة تلك القبائل علاوة على كونها مرسى لسفن الصيد فى تلك الناحية .

الحدود المغربية التاريخية

فى شأن هذه الثغور التى لازالت محتلة بعد الاستقلال كنت نشرت مقالات تحت العنوان أعلاه، فى جريدة صحراء المغرب بتاريخ غشت 1957، أقتطف منه ما يأتى :

ان للمغرب كفرنسا مثلا حدودا طبيعية محددة أى مستقرة، لا مد فيها ولا جزر، فقد وضعت لها بحكم الطبيعية، وبقدرة القادر الحكيم،

وذلك لحكمة الاستقرار والتعارف «يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأثنى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا»، فالمغربى فى فرنسا أو مصر مثلا يعرف بالمغربى، لانه من أبناء حدوده الطبيعية، ولد أو أحد من آبائه داخلها، والفرنسى فى المغرب أو الجزائر أو فى صحرائهما هو فرنسى، وليس مغربيا ولا جزائريا، الا أنه اذا كان وجوده فيهما متساكنا للتعايش فهو ضيف البلد الامين، له ما لضيوفهما من الحرمة والاعتبار، وان كان بصفته حاكما فانه المتسلط يتربص به الدوائر لازاحة ثقله من على الأكتاف، ولا يحتاج تلقين ذلك للجيل الناشىء، لانه أمر مفطور عليه البشر كالنحل فى خلاياها، اننا عندما نتتبع القضايا التاريخية فى الكون أجمع، نرجع بفكرة راسخة ثابتة، ونجدها القاعدة الكونية التى فطر الله عليها نظام البشرية ومع ذلك فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

ان تركيا المسلمة كانت لها وشائج غير طبيعية، وهى وشائج روحية قوية مع جل الاقطار التى سيطرت عليها حقبا من الوقت غير قصيرة، كان يبدو للعيان أنها مخلدة السيطرة على تلك الاقطار الى يوم يبعثون، فهل كانت تلك الوشائج القوية غير الطبيعية بدافعة لها لبقاء سيطرتها على غير حدودها الطبيعية .

كلا فلا اتحاد عقيدة الدين بينها وبين المحكومين غير الاتراك، ولا الجامعة الاسلامية التى تبناها ملوكها أو خلفاء الاسلام فيها، خولت لها سيطرتها على غير تركيا الطبيعية .

بل ان أقطار العرب الاسلامية هى التى قام زعماؤها لازاحة التركى عن السيطرة عليها، فكان لمحمد على باشا فى مصر، وكان لشريف حسين فى الحجاز،، وكان لزعماء سوريا القدح المعلى فى الذب عن أقطارها الطبيعية، فانكشمت تركيا داخل حدودها الطبيعية، ليس فقط من أقطار البانيا والصرب والنمسا والقوقاز بل وحتى من مصر والشام والعراق والحجاز وغير ذلك، ولم يتمكن لها الاستقرار الا عندما يحكم التركى التركى ولا يحكم المغربى أو النمساوى الى غير ذلك.

والمغرب نفسه بعد صولة وجولة فى افريقيا الشمالية، وفى غرب

أوربا رجع الى حدوده الطبيعية بعدما خلف آثارا وحضارة فى أوربا كان لها المعين الذى لا ينضب لتوسيع المدارك، وهل نسيت اسبانيا نفسها أى نشوان أصاب أبناءها عندما غادرت جنودها آخر مدينة فى أمريكا الجنوبية، اذ كانت سيطرتها على تلك الاقطار مثارا للسخط والقلاقل، لم تخرج منها الا عندما غادرت كوبا، فاكتفت من الغنيمة بالاياب، وكان لذلك أحسن وقع فى نفوس الاسبانيين، لكى يحكم الاسبانى الاسبانى، ولا يحكم الامريكى أو الفلبينى ولا الجزائرى الذين يثيرون لها المشاكل الهامة لانها متسلطة عليهم لا بحكم الطبيعة. وهكذا ستغادر صحراء المغرب بالساقية الحمراء ووادى الذهب كما ستغادر سبتة ومليلية والجيوب التى على شواطىء شمال المغرب بنفس الصفة .

أما فرنسا فما بالعهد من قدم، فقد تركت ـ لا رغبة منها ـ أقطار الشام والهند الصينية وغيرها من أقطار شمال افريقيا، بعدما تركت معالم تاريخية مروعة فى «ديان بيان فو» من الهند الصينية، وفى مثلث الموت فى جبال الريف الشاهقة، ولذا فانه ليس لفرنسا أو اسبانيا أى قرار فى الجزائر أو صحراء المغرب، لان الاولى للجزائريين، والثانية للمغاربة، وقد يكون خطؤهما انها عندما بيوء عملهما بالفشل الذريع فتعملان بالقوة لتغيير مجرى الطبيعة فى صوغ سيطرتهما فى صيغة قانونية، فتجنيس أبناء الجزائر تجنيسا فرنسيا ـ كما سبق ـ ان حاولت بربرة الجزء الاهم من المغرب ـ هل كان ذلك بمغن لها عن أن يكون هؤلاء الجزائريون يحملون السلاح ضدها عندما تدق الساعة؟ وهل بمغن لها أن تدعى مرة أخرى أن هذا البشر من المحكومين بقوتها هم ساقطو القدر، وانهم ليسوا فى درجة البشر ؟

ومع هذا الزعم فان حتفها الاهول قد تلقاه أسرع من مقارعة الند للند، وتكون رزيتها على يد هؤلاء السقطاء ـ كما تسميهم كذبا وبهتانا ـ أعظم، ولا عذر لها، فقد عميت حتى عن الحكمة القائلة :

ولا تحارب ساقط القدر فكم من شاهة قد غلبت بيبدق

ان سنة الكون تطاردها كيفما تلونت وبأية صيغة صاغت أعمالها، انها حتى غطرستها قد حاربها القدر، فلم يترك لها عذرا فى احدى الخطتين.

فلو صح البقاء للمتسلط على الغير لكان البقاء ادعى لتركيا العثمانية، التى لبست الخلافة الاسلامية لباسا قشيبا، لكى تغرى الاقطار الاسلامية الاخرى لتستكين الى حكمها الذى استمد تشريعه من روح الاسلام الذى أعتنقه المحكومون اعتناقا مازج روحهـــم .

ولكان ادعى أيضا أن يبقى المغرب فى اسبانيا المسلمة، حيث نقـــل اليها بواسطة الاسلام اللغة العربية والعلوم والحضارة البالغتين الشأو البعيد وأتى على ذلك حين من الدهر ترعرت فيه الاجيال والاحقاب، ورضع ابناؤها لبانها غضا طريا، ومع ذلك فان الحدود الطبيعية هى التى كفلـــت بحفظ المغربى أو التركى عن تلاشى هذا الاســـم، ولم يغد ذكر هذيـــن الاسمين الا داخل الحدود الطبيعيـــة .

الصحراء المغربية : وادى الذهب والساقية

قضت النزعة الاستعماريـــة، التى تغلغلـــت فى حكومة اسبانيـــا العسكرية، والتى أشربت حبها عندما قدر لها أن تنشر سيطرتها يوما ما، على شواطىء الاطلس بأميريكـــا الجنوبية، وشواطىء الهـــادى فى أقصى آسيا ان لا تنسلخ عن تلك النزعة ولو فى عصر أصبحت تلك النزعة وصمة عار فى جبين الانسانيـــة .

الا أنه على ما يبدو، أن هذه النزعة اللا اخلاقية بالنسبة لمطامعها فى المغـــرب :

البلد المجاور، الذى أسال دمه غزيرا فى الحرب الوطنية الاسبانية، التى توجت بانتصار النظام الحالى الذى تسكع عن الاقتناع بهدى قضية المغرب فى صحرائه، يبدو أن هناك نزعة انتقامية، استولت على مشاعـــر ذلك النظام، وقد يكون متولدا من ذكريات ترجع الى عهد ما قبل انقضـــاء دولة بنى الاحمر بتاريخ 1492 بغرناطة باستسلام أبى عبد الله محمد بن الحسن الخزرجى، حيث انتهت المرحلة الطويلة لحكم العرب والبربـــر لشبه الجزيرة الايبيرية، التى دامت زهاء 778 سنة، حمل فيها هـــؤلاء الفاتحون ما هو معروف من العلوم والفلسفة وعموم الحضارة، والتـــى قابلتها اسبانيا بتأليف محاكم التفتيش، لمصادرة العقائد والمال تحت طائلة أعمال وحشية، لم يشهد التاريخ البشرى مثلهـــا .

واذا كانت اسبانيا تحمل ذلك الحقد الدفين، فانها صبت هجماتهـــا على شواطىء المغرب شمالا وجنوبا، فى ذلك الوقت بالذات، وكان مرماهـــا بعيدا بحيث تريد اكتساح البلد الذى حكمها تلك المدة، ولـــم يردعها عـــن التوغل داخل المغرب الا تلك المعركة التاريخية التى جرت بوادى المخازن سنة 1578، حيث غيرت من عقلية الانتقام التى عشعشت فيها، فقـــرأت الف حساب قبل أن تحصل على موضع قدم من يابسة المغرب، واكتفـــت بالسطو على أطراف بعيدة، قد تكون الدولة المغربية فى غيبة عنها، أما لانها

نائية مثل جزر الخالدات التى استولت عليها فى القرن الخامس عشـــر، فى خضم محاكم التفتيش، واجلاء المسلمين عن الاندلـــس فاصابت منهـــا ما أصابت من غرناطة وجبال بشرات، واما لان السلطة المركزية المغربية شغلتها فتن داخلية، فاستغلت هذا الوهن واحتلت أطرافا فى الشمال مثـــل مليلية وسبتة وغيرهما من مواقع الشواطىء .

الـدخـلـــــة :

واذ فصلنـــا قضية الشواطىء الشمالية فيما سبق، واذا كانـــت الصحراء المغربية تختلف وضعيتها فى ذلك التاريخ عن وضعية سبتة بالنسبة لاسبانيا والمغرب معا لما لها من موقع الخطر الداهم على اسبانيا، لانهـــا مجاز القوات المغربية الى العدوة الاخرى .

فان هذه الوضعية بالنسبة للصحراء تطورت عسكريا بعد احتلال جزر كانارى وبعد معركـــة واد المخازن أيضا وبعد اجلاء الاسبـــان عن مجموع الشواطىء الاطلسية من أكادير الى طنجة .

فتكونت فكرة محاصرته من منافذه التى تكون السلطة هنـــاك مقصورة على الولاء والتلقائية، فكان احتلال جيوب شاطىء الشمال ومن الجنوب تولدت فكرة «الريو دى أورو»، حيث تسد تلك المنافذ فينكمـــش المغرب فى محيط داخلى، مملوء بالفتن الداخلية التى تغذيها دسائس الاعداء الجاثمين على تلك المنافذ، بينما تستعمل تلك الجيوب لفتح ءافاق الاهالى المجاورين بالاغراءات تارة وبالتهديد تارة أخـــرى .

وهكذا انطلقت اسبانيا فى الصحراء ــ وهى التى تعنينا هنا ــ بسلسلة من المؤامرات الطويلة، والملتوية، فبدأت بارسال بعثات سمتها علمية تارة وهى التى كونها الثلاثى المعروف: «تيرفيرا وكيروغة وديزو»، وأحيانا بعثات تجارية للصيد على سواحـــل الصحراء وهى التى كونهـــا الثنائى «الشركة الكنارية الافريقية» و«الشركة الاسبانية الافريقية» .

وتطورت مطامع هاتين الشركتين فحاولت اقامة مركز اصطيادى يرجـــع اليـــه الصيـــادون فى الظاهـــر، وفى النية المبيتة كانت لاغـــراض استعمارية، وقد أعطت لهذا المركز اسم «سنتكروش دى ماربكينية» .

وترجع قصة هذا المركز الى منتصف القرن الخامس عشـــر،

أى اثر احتلال جزر كناریاس وحاولت اسبانیا أن تعجم عود الاهالـــی، فجعلت مراكبها تقترب رويدا من الشاطىء، الا أن أملها خاب عندمـــا اقتربت مراكبها سنة 1550 الى شاطىء رأس أغوير (أكادير) فقد اقتحم المغاربة تلك المركب، وأسروا 66 رجلا ممن كانوا فى تلك المراكب .

وعندما اقترب المركب «مانويرا» الى سواحل الصحراء، صعـــد اليه الاهالى فقتلوا اثنين من ربابينها، وجرحوا واحدا، واسروا أربعة.

وقد عجزت اسبانيا أن تضع قدمها على يابسة الصحراء فى غيبـــة السلطة المركزية المغربية بالرغم من احباكها مهزلة الشراء أو التنـــازل من اشخاص ثلاثة من أولاد السباع أحضروا الى تنيريفى عند الموثـــق خوسى البارث فاستشهد عليهم بالتنازل أو الشراء .

ان هذه المهزلة تتمثل فى الاسئلة التالية: كيف يمكن لدولـــة ذات كيان أن تحتج بوثيقة سجلـــت فى ظروف غـــير معروفة عن أشخـــاص عاديين؟ قد يقال فى حقهم هيان بن بيـــان ولكاع بن لكـــاع، وأى صفـــة دونية عند الموثق العادى مثل خوسى الباريث؟ ولماذا الاحتيـــاج الى حجة التنازل اذا كانت الارض خـــلاء ؟

وقد يكون من الطرافة أن أورد هنا حوارا جرى بين السنيـــور غورسيا فيكراس نائب الشؤون الاهلية بتطوان ويعد عند الاسبان خبيرا فى شؤون افريقيا وله مؤلفات عن الصحراء المغربية سيأتى نقل بعـــض النصوص عنه ــ وبين جماعة من مواطنى بنى وریاغل ومنهم كاتبه عن قضية وجود اسبانيا فى المغرب وقد وجه الكلام لكاتبه بالخصوص قائلا: هل اسبانيا جاءت الى المغرب بوحى منها؟ ــ وكان يعنى الصحراء ــ أم أن ثلاثة من الاهالى هم الذين طلبوا من اسبانيا أن تنزل بالمغرب؟ فأجبته بأن أى شخص انقطعت به سبل العيش فى المغرب مثلا أو كان خائنا لوطنه يمكن أن يذهب الى أية دولة يستعديها، فهل مجرد ذلك يكفى للاستيـــلاء على سيادة الوطن؟ فافحم ولم يسترسل .

واذ وصلت اسبانيا فى الصحراء الى طريق مسدود مع الاهالى، فانها رأت ان لا مناص من الرجوع الى السلطان الذى هو صاحب السيادة المطلقة على الصحراء فسلكت فى هذا الرجوع مسالك ملتوية تارة بالتهديد بطلب تعويضات مالية عن الخسائر التى لحقت بمراكبها، وتارة بمطالـــب تراثية، المتمثلة، فى مركز «سنتاكروش دى ماربكينية» .

أين يوجد مركز سنتاكروش دى ماربكينية ؟

دلت الملابسات التى صاحبت محاولات اسبانيا للنزول بشواطىء الصحراء المغربية، على أن هذا المركز هو المعروف عند المغاربة بالداخلة، وتقع على الشاطىء بوادى الذهب، وتبعد عن رأس بوجدور الذى يقع جنوبها بنحو 450 كلم، وهى على لسان أرضى داخل فى البحر، يكون مع الساحل خليجا طبيعيا هاما، وهى أقدم نقطة تاريخية ارتادها الاوربيون على شاطىء الصحراء، ذلك أنه لما اشتد النزاع بين اسبانيا والبرتغال وقعتا معاهدة سنترا سنة 1509 م. المتعلقة بتقسيم المملكة المغربية، وقضت المعاهدة باحتلال اسبانيا لمنطقة سنتكروش دى ماربكينية، وقد كانت هذه المنطقة غامضة لدى المؤرخين، الا أن الاسبان احتلوا الدخلة الى غاية 1525، ثم بدا لاسبانيا ان تملكه بالقوة فقامت بمحاولة أولية بتاريخ 1698 بهجوم على الموقع، الا أنها لم تسفر على نتيجة بسبب صمود الاهالى فاكتفت بعبور البحر على الشواطىء بمراكب الصيد، التى لم تنج هى أيضا من هجوم عليها، ثم بدا لها أن تعجم عود السلطة المركزية المغربية، فارسلت بعثة دبلوماسية، برياسة السفير خورخى خوان الذى استطاع أن يعقد معاهدة بتاريخ 28—5—1767 تتعلق بالترخيص لمراكب اسبانيا للاصطياد على شواطىء المغرب الجنوبية، وقد ادمج المغرب فى هذه المعاهدة بندا يتعلق بتحفظه على الاصطياد على شواطىء الصحراء، حيث نص بالخصوص على عدم اقدام المراكب الكنارية بالتحرش بالاهالى هناك لان العرب غير منضبطين لكونهم رحلا ولا استقرار لهم مع ما يتصفون به من شدة المراس وركوب المخاطر، فاذا اقتربت تلك المراكب ووقع لها سوء فالمغرب ليس مسؤولا عن الخسائر .

ورغم هذا التحذير الوارد فى الفصل 18 من تلك المعاهدة فان الاسبان عاودوا الالحاح على السلطان بأن يكف عنهم أهل الصحراء عندما يتحرش مركب لهم للصيد، محتجين بالمعاهدة المشار اليها، وطالبوا منه أن يعلن لرعاياه فى تلك النواحى تحمله لمسؤولية الاعمال التى يقترفونها ضد تلك المراكب، فأجابهم لذلك تحت عاطفة الصداقة التى ابداها ملك اسبانيا تجاه السلطان، فعقدت معاهدة أخرى بتاريخ 1799 جاء

فى فصلها 22 ما يأتى : «اذا حرث (تحرش) مركب لجنس الاسبانيول فيما وراء سوس ووادى نون، فمن جهة المحبة التى لملك اسبانيا فى سيدنا أيده الله، يبحث كل البحث، ويستعمل عزمه فى استنقاذ الراعيه المحرثين، بما أمكن الى أن يرجعوا لبلادهم» .

ورغم هاتين المعاهدتين، فان اسبانيا لم يهدأ لها بال وجعلت تبحث عن ذريعة تتذرع بها، لاجل أن تشغل المغرب عن الصحراء لتتمكن من الاحراز هناك على موقع قدم، واهتدت الى أن تتحرش معه شمالا، فعمدت الى توسيع حدود سبتة، الامر الذى ازعج السكان أهل أنجرة وحوز تطوان فمنعوها بالقوة، واصطدموا مع الجيش هناك، فما كان من اسبانيا الا أن أعلنت الحرب على المغرب خارج منطقة سبتة، فزحفت قواتها تحت امرة الجنرال أودينال وجرت معارك عن الطريق الساحلى من سبتة الى تطوان حيث احتلتها تلك القوة الزاحفة سنة 1860 فى الحرب المعروفة، «بحرب ستين» .

ومن هذا التاريخ أصبح وضع اسبانيا بالنسبة لمطالبها الترابية والمالية فى مركز القوة، فجعلت تملى على المغرب ارادتها الاستعمارية فى معاهدة أخرى اثر هذا الاحتلال، وقد جاء فيما يخص الصحراء التى نؤرخ لها هنا فى المادة 8 منها الاتفاق على تعيين لجنة مختلطة لتعيين مركز «سانتكروش دى ماربكينية» .

لماذا هذه اللجنة ؟

وهنا تبدو سلسلة أخرى من المؤامرات الاسبانية فى الصحراء المغربية، ذلك لما استوثقت من قدرتها على الضغط على المغرب بدا لها أن تتوسع بالاقتراب من شمال المغرب، أى بنواحى مدينة أكادير التى طالما طلب ممثلها بالمغرب فتح مينائها والاعتناء به بدلا من الصويرة ولكن السلطان يأبى ذلك لما يعلمه من مطامع الاجانب .

فعندما كانت تطالب بنقطة الداخلة، وتدخلت لدى السلطة المغربية لكف الاهالى عن بعثاتها التجارية والعسكرية، أصبحت الآن تتعامى عن معرفة مركز سنتاكروس، وتطالب المغرب الذى يجهل هذا الاسم بالطبع من خرائطه لانه اسم اسبانى مستحدث على عادتهم

فى اطلاق اسماء الصليب المقدس أو القديسين على الاماكن التى يرتدونها ففرضت الفصل 8 من المعاهدة لهذا الغرض، ولاجل التسابق مع انكلترا التى ارتاد بعض رعاياها تحت رياسة ماكينزى شواطىء الصحراء أيضا لاجل اقامة معمل للصيد فقام سنة 1876 برحلة استطلاع قبالة الجزر الخالدات، وفى سنة 1878 عاد الى تلك الشواطىء فقدم تقريرا الى وزارة الخارجية البريطانية، وفى سنة 1879 أسس معملا للصيد فى رأس طرفاية وكان يعتبر نفوذ هذا المعمل الى رأس بوجدور جنوبا والى حدود سوس شمالا.

وفيما بين 26 دجنبر 1860 وفبراير 1861 جرت مراسلات بين قنصل اسبانيا بطنجة وحكومة مدريد، للتدخل لدى السلطان لتأليف اللجنة لتعيين محل سنتكروش دى ماربكينية، بناء على قاعدة «اضرب الحديد قبل أن يبرد» ولكن المولى عبد الرحمن بن هشام لما يعلمه من مؤامرة الاسبان بعد هزيمة تطوان، لم يوافق على التعجيل بتأليف اللجنة معللا ذلك بأن جهة الصحراء يسودها تمرد بعض المنشقين مثل الحبيب بن مبارك، وانه يرى ارجاء البحث الى أن يقضى على المتمردين، ولما سمع القنصل الاسبانى أنه يوجد هناك تمرد وان ذلك يشوش على السلطان اقترح على حكومته الدخول فى المفاوضات مع هذا المتمرد، الا أنها رفضت اقتراحه ولم تأخذ برأيه، لما تعلمه من عدم جدوى مثل هذه المحاولة التى جربتها مع أولاد السباع فلم تغنها شيئا، لان السلطان يحتج عليها بأنها تعمد الى خونة للتعامل معهم، بينما عموم السكان فى ولاء وطاعة لملكهم .

وعندما وصلت القضية الى هذه الدرجة ، فان اسبانيا ارتأت أن ترفع تمثيلها فى طنجة الى درجة وزير، لكى يتمتع بثقل لدى الدوائر المغربية يوازى المهمة الموكولة اليه، وفعلا ففى سنة 1877 قام الوزير الاسبانى السنيور ادواردو روميه برحلة الى فاس حيث بحث مع السلطة المغربية تأليف اللجنة المشتركة، كما قام بمباحثات عى أسرى وادى نول الذين اعتقلهم المغاربة فى شهر شتنبر 1876، وفى شأن التعويض المالى لمبلغ 35000 بسيطة على احد الرعايا الاسبان الذى اغتيل على ذلك الشاطىء. وقد وفق الوزير الاسبانى فى مسعاه، فأجيب لجميع مطالبه، وعلى رأسها تأليف اللجنة المختلطة لتعيين المكان الذى يريده الاسبان

لاطلاق اسم «سنتكروش دى ماربكينية» من جديد بدلا من المكان القديم، وهكذا أبحرت اللجنة بتاريخ دجنبر 1877 من ميناء الصويـــرة على ظهر مركب اسبانى وضمن اللجنة الاسبانية قنصل اسبانيا بالصويرة.

وقد اهتم هذا القنصل من أول وهلة، بأن يلعب دور الخديعـــة حتى يتمكن من تضليل اللجنة المغربية، فبقى المركب مترددا بهم ما بـــين رأس طرفاية وأكادير وهم على ظهره من دون أن يستطيعوا أن يضعـــوا أقدامهم على اليابسة خوفا من بطش الاهالى بهم، ولان عواصف المحيط فى مبدأ فصل الشتاء جعلت الاقتراب الى الساحل أمرا خطيرا .

وقد تكتشف لها اسباب نجاح تضليلها للجنة المغربية، حيث أن هذه الظروف القاسية التى لاقتها فى هذا الدوران المتعمد سهلت عليها مأموريتها، فلما اقتربت من سيدى افنى وقع اختيارها حوله على موقع سنتكروش، وهنا يبقى الامر لغزا غير مفهوم وسؤال بدون جواب، وهو لماذا هذا الموقـــع بالذات؟ ولماذا لم يكن رأس طرفاية أو بوجدور أو غيرهما؟ وقد أجابـــت عنه الاحداث التى جرت بعده، وهى التى تتلخص فى نوايا اسبانيا لامتلاك الصحراء المغربية قاطبة من الرأس الابيض على حدود موريطانيا الـــى سيـــدى ايفنـــى

وعلى كل فان اللجنتين وقعتا على ظهر المركب بتاريخ 21 يناير 1878 محضرا بتعيين سيدى افنى موقعا لسنتاكروش دى ماربكينيـــة، وأعطت اسبانيا اسماء أخرى للداخلة وهو «فيلا ثيسنيروس» .

ولما اطلع السلطان على المحضر رفضه، وطلب اعادة البحـــث من جديد، ولكن لم تؤلف أية لجنة لان الاسبانيين اعتبروا أن مهمة اللجنتين قد انتهت، وعقب ذلك وردا على امتناع اسبانيا فى تجديد البحث وجـــه السلطان مذكرة دورية الى الدول الاجنبية بتاريخ فبراير 1884 يدعوها فيها الى الكف عن التعامل التجارى مع الاقاليم الجنوبية المغربية .

هل وادى الذهب والساقية الحمراء أرض موات ؟

ان الدول الاوربيـــة لما كانت تتحكم فى مصير العالم، فى ذلـــك العصر، استوحت من تلك الغريزة ان تصنف أراضى القارة السمـــراء،

أصنافا، فاعتبرت منها أراضى دولتا، يحق لاوربا أن تقوم باحيائها بالاحتلال، ولذلك اعتبرت ان السكان الذين يعيشون على اديمها كسوائم، ولو كان لهم كيان أو انتساب .

وهكذا عقدت فيما بينها معاهدة دعيت بمعاهدة برلين، وكان أمر اعتبار الارض الموات موكولا الى تقديرات تلك الدول الاستعماريه حسب هواها .

ولما كانت مطامع اسبانيا فى المغرب معروفة وقديمة كما بينا، ولما كانت جربت كل المؤامرات جنوبا وشمالا، فانها عمدت فى تاريخ 26 دجنبر 1884 ــ كرد على مذكرة سلطان المغرب الى الدول الأجنبيه كما أسلفنا ــ فوجهت هى مذكرة الى جميع الدول تعلن فيها أنها قامت باحتلال المنطقة الواقعة بين خطى 20ــ27 من الشاطىء الافريقى، رغم ان مضمون هذه المذكرة بقى حبرا على ورق، لانها لم تستطع أن تحتل ولو موضع قدم .

ذلك أنه بعد ذلك مباشرة أى بتاريخ يناير 1885 قامت شركه تجارية بتشييد حصون فى الداخلة برياسة بوليلى فقاومها السكان بقيادة البطل الخالد خليفة السلطان الشيخ ماء العينين، وحطموا تلك الحصون بعدما قتلوا عددا من رجالها، وأسروا آخرين .

الا أنه بتاريخ يوليوز 1885 استطاع بوليلى الذى عين حاكما على تلك الشواطىء وعزز بقوة من الجنود قادهم الكبطان خوصى شاكون، الا أن الاحتلال لم يتعد نقطة الداخلة (سانتكروش دى ماربكينية) فبقى التعيين على جميع الشواطىء اسميا فقط، كما بقى اسميا أيضا المرسوم الصادر بعد ذلك بسنتين بالحاق ودى الذهب بكنرياس .

هذا هو مسلسل الاحداث التى قامت به اسبانيا، اعتمادا على معاهدة برلين، ولكن هل أرض وادى الذهب والساقية خلاء ؟

وفى هذا المجال نرجع بالدرجة الاولى الى المؤرخين الاجانب وبالاخص الذين ينتمون الى الدولتين الاستعماريتين أنفسهما، وبالاخص المؤرخين الذين لا يعتبر أقوالهم أقوالا فردية بل من ذوى الحيثيات فى دولهم، الممارسين لشؤون الاستعمار، الذين يعتبرون من الناطقين بلسانه.

فقد جاء فى كتاب «مغاربة افريقيا الغربية الافرنسية» المؤلف سنة 1904 لمسيو جورج بوله الذى قال فى حقه الامير شكيب أرسلان فى كتاب حاضر العالم الاسلامى (1) «ونظرا لكونه من مأمورى المستعمرات، فقد أتيح له أن يطلع على وثائق لا يطلع عليها غيره، فجاء كتابه بغاية التدقيق»

فعدد قبائل الصحراء المغربية، فقال: من تلك القبائل من ينتمى الى أعقاب بنى حسن الهلاليين ومنهم من صنهاجة وغيرها من البربر، ومنهم أشراف ينتمون الى آل البيت، ومجالاتهم فى الساقية الحمراء جنوبى سوس الاقصى الى نهر السنغال (يدخل فى هذا الاسم وادى الذهب).

ثم فصل طبقات هذه القبائل، فقال: الاولى أهل حرب وهم بنو حسن، والحراثون، وهم اشبه بالزعية لكنهم أحرار، والمرابطون وهم طلبة العلم، وصنهاجة الذين يدفعون الضرائب فهم عبيد .

وأشهر القبائل المذكورة الطرارزة، وهم نحو 80 ألف نسمة كان أميرهم لحد تأليف الكتاب هو احمد بن سلوم، الى أن قال والقبائل الساحلية منها آل سيدى محمود، وهم 40 ألفا، وأميرهم سيدى المختار ولد محمد محمود، ثم أولاد مبارك وهم 18 ألفا، وهم مع أولاد ناصر من سلالة بنى حسن الهلاليين .

والى أن قال أيضا، وهناك قبائل الساقية الحمراء، مثل أولاد دليم، والرغيبات والعروصى، والفلالى والصماليل، ورئيس هذه القبائل الشيخ ماء العينين المشهور، وقد خمن مسيو بوله عددهم جميعا بـ 300 ألف.

ومن رجال الاستعمار الاسبانى الذين يوخذ رأيهم رسميا نورد هنا ما قاله الكمندان دومينش الذى كان أيام الحرب الاهلية الاسبانية على رأس نيابة الشؤون الاهلية بتطوان، وألف فى تلك الفترة كتابا عن منطقة الحماية الاسبانية اعتبر أنها تمتد جنوب فاس البالى مع وادى ورغة ؟

ومما قاله فى هذا الصدد وعندما كلف بمهمة استعمارية فى الصحراء المغربية بعد ذلك حرر ابحاثا جاء فيما يخص تلك الصحراء

---

(1) الجزء 4 صحيفة 368 .

قوله: «ان هؤلاء المورو (الاسبان يطلقون المورو على المغاربة جميعا وليس بخصوص من نزح عن الأندلس وكثيرا ما اصطدم الاهالى أيام الحماية مع المراقبين الاسبانيين بسبب هذه التسمية التى تستشعر الاهانة) كانوا يعتبرون أنفسهم مرتبطين الى حد كبير بسلاطين المغرب، حتى أنه عندما وصلت القوات الافرنسية الى حدود ما يعرف بموريطانيا والحوض، هرعت القبائل المهددة الى مولاى عبد العزيز، طالبة منه العون، وقد طالب هذا بتلك الاقاليم باعتبارها واقعة تحت سيادته» يشير الى زيارة الخليفة السلطانى الشيخ ماء العينين لمولاى عبد العزيز، وقد زاره سبع مرات كما زار مولاى محمد بن عبد الرحمان ومولاى الحسن الاول كما سيأتى، ولم يشر المؤرخ الى التعزيزات التى منحها السلاطين له .

ثم ننقل هنا أيضا عن احد أساطين رجال الحماية السنيور غورثيا فيكراس الذى يعتبر عند الاسبان خبيرا بالشؤون الافريقية كما أسلفنا، وكان يوخذ رأيه مأخذ الاعتبار فيما يخص الارض المغربية التى تحت سيطرة اسبانيا، لانه تقلب فى عدة مناصب سامية منها الكتابة العامة للمندوب السامى بتطوان، ومنها نيابة الشؤون الاهلية، ونيابة التربية الوطنية .

وعليه فأقواله تعتبر أقوال دولته اذ ذاك، فقد قال فيما يخص الصحراء حيث تكلم عن مقاومة الشيخ ماء العينين للزحف الافرنسى الذى وصفه بأنه كان خليفة السلطان فى العبارة التالية: «وبوفاة ماء العينين كان ابنه الهبة الذى ورث السمعة السياسية، والدينية الكبيرتين، اللتين كانتا لوالده، ومكانته كخليفة للسلطان، كان يمارس نفوذه من مراكش الى موريطانيا» .

ويلاحظ أن الجيوش الافرنسية التى ذاقت الامرين من كفاح الشيخين ماء العينين وولده الهبة كخليفتين للسلطان، كانت تستعمل نفس الاسلوب الذى استعمله مع المناضل الزعيم ابن عبد الكريم الخطابى من أنهم نصبوا أنفسهم سلطانا على الاراضى التى يخوضون فيها المعارك، وهى خدعة حديثة للتضليل والتنقيض من قيمة البطولات كما أسلفنا .

أما غير هاذين المؤرخين مثل كورديرو طوريس فانه قال: «ان

السلطة الدينية للسلاطين لم تكن منقطعة لدى مسلمى المغرب الاقصى، وهى تسمية تقليدية، لمجموعة جغرافية يمكن تمييزها، وهى أوسع من الامبراطورية الشريفة» .

وهنا يمكن أن تعتبر جملة «وهى أوسع من الامبراطورية الشريفية» من نمط تعمية، والا فان وجود بعض الجهات مثل الصحراء المغربية وحتى جهة الريف بعيدة عن مركز السلطة مع كونها تدين بالولاء وتخطب بالسلطان على منابر الجمعة، وتخضع للوالى أو الخليفة الذين يعينان من قبل السلطان، لا يعتبر سلطة دينيه فقط، وذلك لان تضمين الدعاء للسلطان فى خطب الجمعة ليس لانه شرط فى صحة الجمعة، وانما هو بمثابة تجديد البيعة له من قبل المواطنين، فى كل جمعة، فذلك ليس سلطة دينية محضة كما يدعى هذا المؤلف الذى يجهل مقومات سلطة رمز السيادة الوطنية فى الشريعة الاسلامية .

ومثل المؤرخ كارو الذى يعتبر أكثر اعتدالا، حيث جاء فى احدى فقراته: «وفى عام 1873 توجه ماء العينين الى مراكش لمقابلة السلطان مولاى محمد (بن عبد الرحمن بن هشام) وفى تلك المقابلة والتى تلتها عالج شيخ الصحراء مشاكل متنوعة، وأخبر السلطان بالحالة فى الصحراء، وحاول اثارة اهتمامهم بمصير الاسلام فى التخوم الجنوبية، واستمع السلاطين الى الشيخ باحترام وسرور وغمروه بالهدايا» .

ان هذه النصوص صريحة، وتتضمن اعترافا لا مجال للجدال فيه، بأن الشيخ ماء العينين كان يعمل فى الصحراء التى يتعدى نفوذه الرأس الابيض آخر حدود وادى الذهب الى قبائل الطرارزة والحوض وكان مركز الداخلة «سنتاكروش دى ماربكينية» عبارة عن جيب صغير محدود المساحة، لا تتخطى أفراد حاميته الحصن الذى تحصنوا فيه، لان المغاربة كانوا محاصرين للحامية على الدوام مثلما كان يفعله سكان قبائل أحواز مليلية وسبتة .

ذلك ما جعل حكومة مدريد لم تهتد الى أسلوب قار لوضعية وجودها على ساحل وادى الذهب فى هذا المركز الضيق جدا، وهو الذى كان يسمى بمستعمرة وادى الذهب .

وقد تحرج موقفها على تلك الشواطى عندما بدأت بعثة انجليزية تحت اشراف مستر ماكينزى ترتاد الشواطىء الممتدة من بين رأس بوجدور الى حدود سوس، لاقامة معمل للصيد، فهلعت لذلك، واحتدت اطماعها وعمدت الى خلق عدم وضوح مكان مركز «سنتاكروش دى ماربكينية» ذلك ما دعاها لان تدعى أن مركز سنتاكروش يقع بقرب سيدى افنى جنوبا، وبذلك تخطت رأس بوجدور ورأس طرفاية الذى أقيم عليه المعمل التجارى الانجليزى للصيد، تحت اسم «بويرتو فيكتوريا» ويسميه الاسبان رأس جوبى ورغم أن هذا المعمل وكل شواطىء طرفاية قد غادرتها البعثة الانجليزية بعد مفاوضة مع المغرب مقابل 50.000 جنيه استرلينى أداها المغرب كقيمة للبنايات التى شيدتها تلك البعثة ومنها فندق، وبذلك خلص للمغرب الذى جاء فى الاتفاق المعقود بين الطرفين شرط أساسى وهو ممنوع على أية دولة أجنبية أن تضع نفوذها على المساحة التى بين نهر درعة ورأس بوجدور حسب الاتفاق المبرم فى 13 مارس 1895 .

واذ ابتعدت انكلترا عن المنطقة، أصبح الجو خاليا نسبيا من منافس خطير بينما كانت الدول الاوربية الاستعمارية سائرة فى تنفيذ مخططات تقسيم القارة السمراء، فالبرتغال قد احتل انغولا، وموزمبيق، وغينيا الاستوائية فى تاريخ 1505 واحتل سبتة بتاريخ 1415 التى آلت الى اسبانيا عندما انفصلت الدولتان بعضها عن بعض .

واحتلت اسبانيا مليلية سنة 1497 لما وجدتها خالية من الحامية المغربية مراعة لجوار الاتراك الذين لم يرد المغرب ان يستفزهم ؟

وكانت فرنسا التى احتلت الجزائر تبحث فى غرب افريقيا عن متسع حيوى لوصل الجزائر بالسينيغال .

وفى زحمة هذه الاطماع الشرسة، كان على اسبانيا وفرنسا أن تتفقا فيما بينهما، قبل الاقدام على الزحف على الصحراء بما فيها موريطانيا والحوض ووادى الذهب والساقية الحمراء وطرفاية .

فبعد مفاوضات مضنية توصلتا الى اتفاق بتاريخ 1900، وخوفا من اعتراض الدول الاوربية الاخرى وبالاخص انجلترا والمانيا وايطاليا، قررتا أن يبقى الاتفاق سريا، وقد قضى هذا الاتفاق على أن تحتل اسبانيا

مساحة من الصحراء الساحلية من الرأس الابيض الذى يسمونه بمدينة كاطيل مارا بخليج سينطرة الى رأس بوجدور، ويبعد هذا الرأس عن مدينة العيون بـ 199 كلم، وهو عبارة عن رأس بحرى ويحتل موقعا استراتيجيا عسكريا مع الجمال الطبيعى، ويتوفر البحر هناك على كثرة الاسماك الجيدة، كما يبعد هذا الرأس عن الداخلة بنحو 450 كلم .

وقد تبع اتفاق 1900 اتفاق آخر بين فرنسا واسبانيا بتاريخ 1904، المعروف بالاتفاق المتمم للاول لتعيين معالمه بالتحديد .

وبالطبع فقد أخذ بالاعتبار كأساس لذلك التحديد، المذكرة الاسبانية للدول الاجنبية بتاريخ 28 دجنبر 1884، التى تعتبر كاعلام بالمرسوم الملكى الاسبانى بنفس التاريخ، الذى يحدد منطقة احتلالها بالمساحة الواقعة بين خطى 20—27 وكما أخذ بالاعتبار أيضا المرسوم الملكى المؤرخ فى 10 يوليوز 1885 الذى ينص فى الفصل الاول منه على ما يأتى: الحماية المبسوطة على اقليم الساحل الغربى لافريقيا الواقع ما بين رأس بوجدور، وخليج الغرب فى الرأس الابيض، تم بسطها بمقتضى الامر الملكى الصادر بتاريخ 16 دجنبر الماضى (1884) .

وفى فصله الثانى : انه يتولى الدفاع عن الاراضى المحمية .

ويلاحظ أنه رغم الاخذ بالاعتبار بالمرسومين المذكورين فيما يخص المساحة بين رأس بوجدور والرأس الابيض، وفيما يخص وضعية الاحتلال الذى سمى بالحماية، فان اتفاق 1904 تجاوز وضعية الحماية الى الاستعمار، وتجاوز الحدود من رأس بوجدور فشمل الاتفاق اطماع أسبانيا فى المملكة المغربية بأسرها حيث قسم مناطق نفوذها، الى مستعمرات، وهى وادى الذهب والساقية الحمراء وافنى والى حماية، وهى طرفاية وشمال المغرب، وقد ضيق الاتفاق منطقة طرفاية ووسع منطقة الساقية الحمراء، حيث تعدت رأس بوجدور، وبذلك أصبحت أسبانيا تحتل كمستعمرة حسب الاتفاق الذى تم فى غيبة المغرب مساحة تبلغ 282000 كلم بدلا من 180000 كلم، واذا كانت كل من اسبانيا وفرنسا ضربتا عرض الحائط بالاتفاق الانجليزى مع المغرب فى شأن عدم استيلاء أية دولة أجنبية على الساحل الممتد من وادى درعة الى رأس

بوجدور فان ذلك كان بعد تسوية مطامع تلك الدول الاستعمارية، اذ أطلقت يد انجلترا فى وادى النيل ويد فرنسا والبرتغال فى افريقيا، والمانيا كذلك وايطاليا فى ليبيا، فلم يكن هناك منازع الا الدول الفريسة، ومن ضمنهـا المغرب الذي قسم بين فرنسا واسبانيا ولم يرد فى شأنه فى ذلك الاتفاق الا جملة مختصرة جدا تتعلق بتصريح مزدوج «بالتمسك بوحدة التراب للامبراطورية المغربية تحت سيادة السلطان»

ولكن حسب الاتفاق المخادع المشار اليه، من أين تبتدىء تلـك الامبراطورية، والى أين تنتهى؟ فاذا كان هذا التمسك صحيحا فى الواقع فهل دعيت تلك الامبراطورية للحوار معها فى شأن ذلك التراب المتمسـك بـوحـدتـه .

وعلى كل فان الاستعمار فى ذلك الوقت كـان قويا لا يناقـش الحساب، ولكن الآن عندما أصبح ينكمش وقامت عليه قيامة التحريـر فقد أعطى الحساب العسير فى الهند الصينية وفى الجزائر والمغرب وأنغولا وموزمبيق وغينيا بيساو وغيرهـا، ولا زالت القائمة تطول .

الشيـخ مـاء العينين وموقفـه من اسبانيـا :

يعتبر الشيخ ماء العينين أسد الصحراء بدون منازع، وكانت له سلطة رئيس المجاهدين الذين يرجع اليهم فى الامور الدنية والدنيويـة، اذ أن مسلكه الاسلامى كان مسلك الواقفين عند تعاليم الشريعة الاسلامية، التى تستوجب عليه أن يعمل خليفة لامير المومنين وتحت امرته، يستمد منه السلطة الروحية والزمانية، فكان من الذين لا يغيبون عن سداد الرأى، وارجوحة التفكير وقد رأت فيه قبائل الساقية الحمراء ووادى الذهـب، الرأس المدبر والمصلح الكبير، وخليفة السلطان المطاع، فانحشت اليه كلية، وجعلت مدينة السمارة، التى بناها وسط الصحراء ببعد 230 كلم عـن العيون شرقا محجا لها، تجد فيها غذاءا ماديا وروحيا، حيث ازدهرت هذه المدينة، وكانت مركز اشعاع فكرى، واشعاع جهادى مقدس فكان نفوذ ماء العينين يتعدى حدود وادى الذهب الى قبائل الطرارزة وقد تخرج عن هذه المدرسة الصحراوية فطاحل من رجال الفكر ورجال الشهامة، حتـى

انها كانت صلة الوصل بين ملوك المغرب وقبائل ما وراء الرأس الابيض، فكان السلطان يعين رجال السلطة هناك، وبالاخص فى عهد مولاى محمد ابن عبد الرحمان ومولاى الحسن الاول، وبهذه الاعتبارات استطاع الشيخ ماء العينين أن يوجه نداءا حارا للجهاد المقدس الى سائر المسلمين من سوس الى النيجر فاستجابت تلك القبائل الصحراوية للدفاع ضد الاحتلال الاستعمارى الاسبانى والافرنسى وأبلت البلاء الحسن وبالاخص قبائل أولاد الدليم وتكتة والرقيبات .

واذا كانت اسبانيا تجثم فى الداخلة على تلك البقعة الاستراتيجية على ساحل تلك المنطقة، فان المجاهدين يجدون مندوحة شرعية ووطنية، للقيام بواجب الجهاد لاجلاء الاعداء عنها .

واذا كان الشيخ ماء العينين بوصفه خليفة السلطان، والمصلح الذى تشرأب اليه الاعناق، فانه لم يكن غائبا عن أذهانه ما قام ويقوم به المبشرون المسيحيون للتسابق لتنصير سكان افريقيا، فلم تخف عليه حركة التبشير التى قامت بها جمعية «الاباء البيض» التى أسسها الكردينال لافيجيرى مطران الجزائر سنة 1869، والتى عززها بجمعية رهبانية النساء تحت اسم «الراهبات المبشرات لسيدتنا العذراء» .

وكانت خطة هاتين الجمعيتين فى التبشير، انهم يطوفون فى بلاد الاسلام بافريقيا، بزى المسلمين ويدخلون فى كل ناد، ويتحككون بكل عائلة ويتوسلون بكل وسيلة، لاجل بث دعوتهم بين الناشئة الاسلامية مسلحين بذلك بنفوذ الحكومة الافرنسية (1)

ولذا توجب عليه أن يقوم بحملات على مركز الداخلة، مستهدفا بذلك صيانة السيادة الوطنية، التى يمثلها نيابة عن السلطان، كواجب وطنى، ورد الفعل ضد الجمعيات التبشيرية، التى أغرتها سماحة سكان الصحراء كواجب اسلامى .

ولما كان نداؤه المقدس يجد آذانا صاغية، لما اسلفنا من صدق لهجته ووضوح قيادته لتلك الجهات، فانه قام بهجومات متكررة على الداخلة

---

(1) حاضر العالم الاسلامى ج. 2 صحيفة 338—373 .

فى سنوات 1887–1892 أى فى الوقت الذى كان مغاربة الشمال يحاصرون مليلية وسبتة، ويضايقون حجرتى النكور وبادس، كل ذلك نيابة عن الدولة المغربية، بوصفهم جماهير شعبية تستمد شرعيتها من انتمائها للدولة تلقائيا، وواجبها حفظ ترابها والدفاع عنه .

على أن وضعية الشيخ ماء العينين كانت الصق بالدولة من الشمال، فمن منذ سنة 1858 وهو خليفة للسلطان، ونائب عنه فى تسيير الصحاء سياسيا وعسكريا، وكان يقوم برحلات منتظمة كلما دعت الحاجة للاتصال بالسلطان، ففى سنة 1873 رحل الى مراكش لمقابلة السلطان مولاى محمد ابن عبد الرحمان، وكان القصد من الرحلة اطلاعه على الحالة العامة للصحراء ومصير الاسلام فيها ولاجل الاتفاق على الخطة التى يسير عليها، حسبما جاء فى رواية المؤرخين الاسبان أنفسهم .

وفى سنة 1887 قام برحلة الى مراكش لتقديم البيعة الى السلطان مولاى الحسن الاول عندما تربع على عرش أسلافه، وقد جرت مباحثات حول الحالة العامة فى الصحراء وما يتطلبه موقف المغرب منها، وقد اسفرت الرحلة على أمور هامة فجدد السلطان ظهير تعيينه خليفة له، كما زوده باعتدة حربية وهدايا أخرى مهمة، ثم زار بعد ذلك مولاى عبد العزيز سبع مرات فى مراكش وفاس، وعقد صداقة هامة مع الصدر الاعظم أبا أحمد الذى كان عصب الدولة المحرك لدواليبها .

هذا هو الشيخ ماء العينين، وهذه اعماله داخل الامبراطورية المغربية، وقد استمر فى الكفاح ضد اسبانيا وفرنسا، وعندما زحفت هذه الاخيرة على موريطانيا وضيقت الخناق على مجاهدى الساقية الحمراء، ووادى الذهب لاجل أن تتنفس حليفتها اسبانيا الصعداء، وتتمكن من الخروج من جحرها أمره السلطان بنقل مركزه الى تزنيت عام 1909 .

وعندما توفى قام ولده احمد الهيبة الذى ورث كل مزايا والده الجهادية والدينية فسلك نفس مسلك والده، فعينه السلطان خليفة له .

ورغم ان أيامه كانت أيام المحن الكبرى التى شهدها المغرب بأسره شمالا وجنوبا، فانه قام ببطولات نادرة اخترقت سمعته الجهادية وحتى السياسية آفاق الصحراء الممتدة عبر موريطانيا والحوض الى النيجر،

وتصدى كما تصدى أبوه لايقاف الزحف الافرنسى، الامر الذى عمدت معه فرنسا الى اشاعة ما اعتادته أن تشيعه على الابطال الذين يتحدونها مثل البطل ابن عبد الكريم الخطابى من انهما نصبا أنفسهما سلطانين على الاراضى التى يعملون لتحريرها .

الزحف الاسبانى :

فى خضم هذه الاحداث التى توالت ليس على الصحراء أو الشمال فقط، بل على المغرب بأسره، حيث حرر عقد الحماية بين فرنسا والمغرب سنة 1912 أعقبه اتفاق بين فرنسا واسبانيا فى نوفمبر من نفس السنة، فان هذه الاخيرة تحركت من جهتها، فقام الكمندان بنيتس من الداخلة بتاريخ 26 اكتوبر 1914، برحلة الى رأس طرفاية برا ثم رجع الى الداخلة بتاريخ 26 اكتوبر 1914 وبقى الامر كذلك الى تاريخ 27 يونيه 1916 حيث قاد هذا الكمندان نفسه كتيبة توجه بها الى رأس طرفاية حيث احتلها ورفع عليها العلم الاسبانى، وذلك بمساعدة الضغط الافرنساوى على المجاهدين عن طريق موريطانيا حيث توغلت داخل تراب طرفاية .

أما جنوب الداخلة فانه لم يتحرك الا بتاريخ 30 نوفبمر 1920 حيث قاد هذا الكمندان أيضا كتيبة صوب مدينة الكويرة، واحتلتها، وكان احتلالها سهلا نظرا الى أن الضغط الفرنسوى أجلى السكان عن تلك المنطقة.

وتبعد هذه المدينة عن الداخلة بـ 650 كلم، وتقع فى الطرف الاقصى الجنوبى لوادى الذهب، على اللسان البرى المتوغل فى البحر، الذى يقسم حدود موريطانيا ووادى الذهب، ولا تبعد عن مدينة نواديبو الموريطانية الا بـ 15 كلم .

وبذلك تكون اسبانيا تسابقت الى الشواطىء الساحلية، ولم تتجرأ ان تتوغل داخلها، لما تعلمه من صعوبة الموقف أمام الصحراويين الشديدى المراس، المتعودين شظف العيش، والممارسين لركوب المخاطر، فلم تتحرك الى داخل الصحراء الا سنة 1937، حيث استولت على السمارة والعيون، وبئر قندوس وغيرها، أى بعد أن انتهت حروب الشمال وبعد استتباب الحماية فى ربوعها كما استتب لها احتلال طرفاية وسيدى افنى، ولو كانت كما تدعيه من أن الصحراء خلاء لكانت الوضعية غير

ما لاقته، ولو كانت منفصلة عن المغرب لما ارتكبت أدوارا مضنية تارة باسم البعثات العلمية وتارة باسم البعثات التجارية، وتارة باسم الحماية، وتارة وحدة التراب للامبراطورية المغربية تحت سيادة السلطان، حتى أدى بها الحال عندما احتدم خلاف المغرب مع فرنسا، وحاولت ذر الرماد فى أعين المغرب، قدمت مشروعا الى الخليفة السلطانى بتطوان تقترح فيه مشاركة أهالى الصحراء وسيدى افنى فى الحكومة الخليفية بتطوان وتستقدم من هناك مربى ربه لزيارة قبائل الشمال والحفاوة به .

وفى أول عهد الاستقلال كان استرجاع وادى الذهب والساقية الحمراء فى متناول يد المغرب الا أن اعتبار المصلحة العليا لقضايا المغرب العربى حيث كانت حرب الجزائر مع فرنسا على أشدها وكان التكتيك الحربى فى ذلك الوقت، يقضى بترك باب اسبانيا مفتوحا، فرضخ المغرب لتلك المصلحة العامة، مضحيا بمصلحته الخاصة، فتمهل فى استرجاع الاراضى المغتصبة، واستدعى جيش التحرير الذى كان على أبواب مدينة العيون محاصرا اياها، وكان الاسبان بصدد الاجلاء عنها .

وقد ارتأى المغرب أن يحل قضاياه المتعلقة بالاطراف التى ترزخ تحت نير الاستعمار الاسبانى بالحوار الذى لا يقطع حسن الجوار، الذى يحافظ عليه المغرب جهد الامكان .

ولهذا المبدأ، فتح عاهل المغرب جلالة الحسن الثانى، الحوار مع اسبانيا، فى جولات متعددة عرض فيها على رئيس الدولة الاسبانية مقترحات سخية، منبعثة عن القلب الكبير، المفعم بالحكمة والرزانة .

وهكذا زار جلالته بتاريخ 1970 عاصمة مدريد، حيث عرض على الجنرال فرانكو أن يحتفظ المغرب لاسبانيا فى الصحراء بالقواعد العسكرية، الى مدة يتفق عليها بين الطرفين، نظرا لوقوع الصحراء بقرب جزر كناريا س، التى لها أهمية استراتيجية بالنسبة لاسبانيا .

وفيما يخص خيرات الصحراء الباطنية وفوق الارض وفى قاع البحار، ان تشترك الدولتان فى استخراجها وتسويقها تسويقا يعود عليهما بالمنفعة .

الا أنه رغم هذه العروض السخية تصلب الطرف المستعمر ،

فباءت تلك المحاولات الحبية بالفشل، وأمام هذا التعنت المزرى فان جلالة الملك ركب المركب القانونى فى المطالبة بالجلاء عن الصحراء، فطرح القضية على الامم المتحدة، وأصدرت هذه من جهتها قرارا بتاريخ 16 اكتوبر 1964، يقضى على اسبانيا، كدولة مستعمرة، أن تطبق مبدأ تصفية الاستعمار، الصادر بتاريخ 14 دجنبر سنة 1960 بدون قيد ولا شرط .

ثم تابعت الجمعية العامة للامم المتحدة فى سنة 1965 وأصدرت قرار بالحاح على اسبانيا أن تنفـذ قرار 1964 وتقوم بتحرير أراضى الصحـراء .

ومن جهة اسبانيا فقد ماطلت تماطلا مكشوفا، رغم قرارات الامم المتحدة، وفى هذه الحالة فان جلالة الملك الحسن الثانى الح بتاريخ 1966 على لجنة تصفية الاستعمار، لمتابعة عمل التصفية فى الصحراء .

ولما كانت موريطانيا من جهتها قدمت مذكرة بتاريخ 1964 الى الجمعية العمومية للامم المتحدة طالبت هى الاخرى بحقوق فى الصحراء، مدعية أنها تنتمى الى موريطانيا، فان لجنة تصفية الاستعمار أصـدرت قرارا فى سنة 1966 ينص على مطالبة اسبانيا باجراء الاستفتاء فى الصحراء المغربية بالاتفاق مع المغرب والاطراف المعنية الاخرى .

وقد كان من نتائج هذا التهافت أن مكن اسبانيا من التلاعـب والتمشدق بالاطراف المعنية لاطالة وجودها الاستعمارى .

وفعلا كان قرار لجنة تصفية الاستعمار فى هذه المرة أى سنـة 1966 ينص على اجراء الاستفتاء فى الصحراء .

ومع ذلك فان المغرب قبل هذا الاستفتاء على أساس أن مفهوم الاستفتاء لا يتنافى وارجاع الحق الى المغـرب لان السؤال المطـروح على سكان الصحراء على الصيغة التالية: هل يرجعون الى الوطـن الام، أو البقـاء تحت السيطرة الاسبانيـة .

وهذا المفهوم نفسه هو الذى عولت عليه اسبانيا نفسها حسـب تخطيطها الذى خططته فى الصحراء، اذ جعلت ديدنها فى التكتيك المخـادع الذى سلكته لتهىء عناصر عملية من السكان للمنادات بالاستقلال الذاتى تحـت رعاية اسبانيـا .

وتمشيا مع هذا المفهوم كونت مجلس الجماعة من سكان القبائل الصحراوية ليجهروا بأنهم يريدون حكما ذاتيا تحت الاشراف الاسبانى .

وعليه فان مفهوم الاستفتاء كان واضحا لدى الطرفين معا أى المغرب واسبانيا، وهو المتمثل فى السؤالين الذين يطرحان على السكان، وهما: هل تريدون الرجوع الى الوطن الام وهو المغرب، أو البقاء على سيطرة اسبانيا .

ولما كان المغرب يسير فى خط واضح يعتمد فيه على أصالة مطالبه التاريخية والجغرافية والسلالية والعقائديه، فانه اشترط لهذا الاستفتاء تهيىء ظروف قائمة، تجعل المغرب فى الحد الادنى من التساوى لفرص النجاح مع خصمه، وهى ازالة القواعد العسكرية الاسبانية عن تراب الصحراء والاحتفاظ برجال الامن فقط، كازالة الجهاز الادارى لضمان حرية السكان ولو الى الحد الادنى، كما اشترط حرية رجوع اللاجئين الذين هاجروا الى المنطقة المحررة من المغرب تحت طائلة الاضطهاد، ليقولوا كلمتهم عن حرية واطمئنان .

واذا كانت اسبانيا تلكأت على أى حال ولم تنصع لاى قرار واقتراح، وفى زحمة هذا التسابق الشرس من الطرف الآخر، فان عاهل المغرب أدرك بوحى من مبادئه السليمة، ان القضية تستدعى تجنيد الشعب المغربى لاطلاع الرأى العام العالمى على مطالبه الحقة، فقد وجه خطابه التاريخى بتاريخ 8 يوليوز 1974 يحث شعبه فيه أن يعى قضيته الكبرى، ويستشعره بان السنة سنة استكمال تحرير بقايا التراب المغربى الرازح تحت نير الاستعمار الاسبانى .

ولما رأت اسبانيا حماس المغرب المنقطع النظير عدلت عن التفكير فى الاستقلال الذاتى الذى كانت عولت على ارتكاب حماقة من نوع فريد فى هذا الشأن وعمدت الى رفع القضية الى هيأة الامم المتحدة، متذرعة بأنها تريد منح الاستقلال الى الصحراء، وتريد بذلك ابعاد أحقية المغرب فى اقليمه، حتى اذا تمكنت من تنفيد لعبتها استولت بطريقة أو بأخرى على الصحراء .

ولكن عاهل المغرب قرع حيلتها بحجة قانونية فطلب اجراء استشارة محكمة العدل الدولية بلاهاى بالقاء السؤال من طرف لجنة تصفية الاستعمار عليها فى صيغة هل الصحراء لما استولت اسبانيا عليها كانت أرصا خلاء، واذا لم تكن كذلك فما هى علاقتها مع المغرب، فاستجابت هذه المنظمة الى مطلب المغرب، وأصدرت قرارها بأكثرية 81 صوتا مقابل لا شىء باحالة السؤالين على المحكمة مع توصية ضد اسبانيا .أن تعدل على الاستفتاء، وبذلك كسب المغرب الرهان الاول، ولازالت القضية تسير الى الامام، ولن يضيع حق وراءه طالب .

البندقية والبطولة

ضمان الوحدة الوطنية

الطرق الحربية عند أهالى الشمـال

ابتداء من سنة 1909 م. تحرك الجيش الاسبانى للخروج مـن مليلية ليجرب مقدرته فى توسيع رقعة الاحتلال، وذلك بعد اتفاق سنـه 1906 م. بين الدول الاوربية للقضاء على استقلال المغرب كما أسلفنـا .

وفى هذا الظرف يجب القاء نظرة على الوضعية العامة فى الشمال من ناحية استعمال السلاح، كأداة لحفظ كيان كل قبيلة أو عائله وضمان وجودها ضمن ذلك المجتمع الذى وكل أمره الى نفسه، ولم تصل اليـه يد السلطة المركزية بالقوة التى يجب أن تصل الى أطراف المملكة المغربيه، وانما كانت الطاعة والولاء لتلك السلطة بوازع دينى يخضع الجميع لها ويدافع عنها عندما يدلهم الامر، ويكون الخضوع للوالى الذى يباشـر السلطه من طرف ملك المغرب بحسب العقيدة الاسلامية، يطيعون داخل نطاق ضيق وتلقائى، وليس للـوالى سلطة قوية ضد المخالفـات التى ترتكب بين الافراد والجماعات، بعضها مع بعض .

ولهذا، فقد تشتد المشاحنات أحيانا بين قبيلـة وقبيلة، أو بـين جماعة وجماعة، أو بين أفراد عائلة واحـدة، ويستعمل السـلاح بكـل الطرق لفض النزاعات، وقد تستمر هذه الحروب الى مدة غير قليلـة، يتربص الواحد للآخر، لكى يأخذه فى مصيدتـه باقامة كمين فى طـرق الاسواق أو كيف ما تيسر، وذلك أخذا للثأر الذى يكون وتر به، أو انتقاما لعرض هتك، وفى هذه الحالة يكون فى بعض الاحيان اسراف فى استعمال هذه الاساليب العدوانية، ولاجل ضمان نوع من الاستقرار وتقليلا للكوارث التى تنجم عن ذلك، كان من المفروض على رؤساء القبائل «امغارن» أن يضعوا تقنينات للحد من تفاحش العداوة، فكانـوا يعقدون مؤتمـرات (تدعى اكراو) (1) وغالبا ما يكون فى محل الاسواق، وكان لزاما على كـل

---

(1) بهمزة مفتوحة وكاف معقودة ساكنـة .

قبيلة أو خمس أوفخذ ة أن يكون لديها امغارها يتكلم باسمها، وعليه نزاما أن يحضر فى المؤتمر بأية طريقة كانت، تحرسه جماعته من الاغتيال فى الطريق، وعليه أن يتجنب الطريق المطروقة للجميع .

وفى هذا المضمار يتفقون على أن من قتل بدون أن يكون موتورا أو أيام الاسواق، أو المؤتمرات، مثلا تفرض عليه غرامة، يحددها المؤتمر، تؤخذ فى يوم معين يذهب افراد القبيلة الى قرية الجانى، وعلى أفراد جماعته أن تؤدى ما فرضت عليه، والا فان أولئك الجموع يستعملون وسائلهم بأخذ الغرامة، أما بالاستيلاء على الماشية أو بيع الارض، وللقبائل فى هذا المضمار اتفاقات مكتوبة بينها، تعتبر ملزمه لجميع من وقع عليها فى نطاق تلك القبيلة، التى تكون مجموعة سكنية فى منطقه من المناطق، ورغم هذه الحالة، فان الكلمة الفاصلة عند التشاحى بين القبائل أو رؤسائها يرجع الامر فيه الى الفقهاء الذين يكونون قد درسوا فى القرويين بفاس، وكل من كان يهاجر الى فاس لطلب العلم، فانه مفروض فيه أن يكون د رس علوم الشريعة، زيادة على علوم النحو والتوحيد ، وهذه الفنون الثلاثة هى غالبية تحصيل الطلبة، ففى ميدان التشريع يدرسون مؤلفات التحفة والشيخ خليل، وفى ميدان النحو مؤلفات الفية ابن مالك وشرح المكودى والموضح، وفى ميدان التوحيد مؤلف ابن عاشر .

وعندما يرجع الى البلد يعتبر رجلا مسموع الكلمة، صالحا لان يكتسب لقب القاضى .

فالقبيلة الفلانية لها قاض أو عدة قضاة، وعند اختلاف القضاة فيما بينهم يجتمعون ويناقشون كتب النوازل، بمحضر امغارن، فيصدرون قرارا بينهم أما بالاجماع أو بالاغلبية، وللقضاة هؤلاء الصلاحية التقليدية لاصدار أحكامهم، والخطاب على الرسوم، وتولى عقود الزواج الشرعى.

ورغم كل ما ذكر فانه اذا دعى الجهاد ينسون كل تلك الخلافات، ويهرعون تلقائيا الى مواقع الجهاد، ومن معتقداتهم الصميمة التى لا تزحزح أن الجنة قطعا تحت ظلال السيوف، فالذى يموت عليها فان أهله يقيمون حفلات الافراح مثل حفلات الاعراس وتأتى القبيلة كلها لحضور الجنازة، ليدفن بينهم فى لباسه، وتقدم القبائل تهانى بعضها

مع بعض، ومن مات منهم شهيدا فان تلك العائلة فى القانون المحلى لا يجوز لاحد أن يتعرض لها بسوء ولو من طرف أعدائها، لانها أدت خدمه للاسلام بموت شهيدها، فهى مقدسة ومحترمة بين الجميع، حتى عند من قتل له اباه أو ابنه أو أحد أقاربه، وهى من جملة بنود اتفاقات المؤتمرات.

ومما تجدر ملاحظته فى هذا الباب، أن تقوية هذا الوازع الدينى، يرجع الفضل فيه الى الطائفتين السائدتين فى ذلك الوقت فى هذه الربوع، وهما الطائفة الدرقاوية التى كان شيخها السيد محمد العربى العلوى بصفرو ومن الانصاف أن نصف هذه الطائفة ـ وهى الشاذلية ـ أنها أسدت كثيرا من الخير والتوجيه الدينى فى تلك الاوقات المتشابكة الاغراض والمسؤوليات الغير المقننة، فانها بثت وعيا دينيا صميما فى الافراد، وبالاخص أولئك الذين يعتزون بمسكة من العقل الراجح، وكان سلوك أفراد هذه الطائفة ان لم نقل جمهورها متمسكا بأهداب الدين، ومتحليا بأخلاق السنة النبوية، يجتمعون عليها فى زوايا تلك الطريقة أيام الخميس من كل أسبوع، وفى مناسبات أخرى، وهذه الزوايا منتشرة انتشارا كبيرا، ومن الملاحظ أن هذه الطائفة غذاها فى هذا البلد الفقهاء الذين يرجعون من فاس بتعاليم الشريعة السمحاء، وذلك مادعى الى اعطاء الحياة الاجتماعية صبغة نظيفة، متمشية مع التعاليم الاسلامية الصحيحة، فالصلاة محفوظة فى أوقاتها، حتى أنه فى الاسواق التى تعقد فى أيام الاسبوع، عندما يصل وقت الظهر أو العصر يؤذن المؤذن على الكدية التى تكون تعلو السوق آذان الصلاة، وتجد الناس يتقاطرون فرادى وجماعات وكل واحد يضع بندقيته أمامه، ويؤدون الصلاة المفروضة فى صفوف طويلة، وهكذا دواليك، فلا يخشى أحد اغتياله من طرف عدوه الذى يكون ملاصقا معه فى الصف بدون غضاضة .

أما الطريقة الثانية، فهى التيجانية، ولكن بنسبة أقل من الاولى، وعلى كل فان الحياة العامة تبدو فى ذلك الوقت متناقضة تمام التناقض، فمن جهة أن النفوس صقلتها التعاليم الدينية والاخلاق العامة فى حفظ الاعر ض والجار والشهامة الانسانية، ومن ناحية أخرى كانت الاحكام لا توخذ بسلطة شرعية عليا مفروضة على الجميع، بل وكل أمر القبائل

الى نفوذها الفردى المتسلط، بينما باب الجهاد مفتوح على مصراعيه بدون انتظام، بل على حسب رغبة الشخص ومحبته فى جنة الفردوس .

ومن الطبيعى فان تنشئة أجيال على هذه الصورة الفردية، فهذا الفرد يقتضى أن يشب ويشيب على الفروسية، وضرب الاقران، واستعمال الطرق الملائمة لمثل هذه الحالة، فعندما يبلغ آن يحمل السلاح، ولو لم يبلغ الحلم فى كثير من الاحيان، ان يتدرب تدريبا متقنا فرديا لا يتكل على آحر لاستعمال السلاح، ليكون مؤهلا ليقى العائلة عوادى الدهر، معتمدا على نفسه فقط، ويعتبر عضوا فى العائلة يسد مسدا ولا يبالى :

وعلى عائلة الكبير أن تنظر فى أمر تمكينه من السلاح باى وجه كان، وقد كان النوع الاول من السلاح يدعى بوشفار، (أزيدان باللسان المحلى) ثم تطور الى ساسبو وهما نوعان من البندقية: الثانية أرقى من الاولى، لان الاولى تحشى بالبارود من الفوهة ثم دكه بقضيب من حديد دكا قويا، وتوضع حبات الرصاص بعده ترسل الى مسافة قصيرة، أما الثانى فان له خرطوشا محشوا بالبارود والرصاص ولا يطلق منه الا طلقة واحدة، ثم يعاد حشوها بأخرى، وهو أحسن حالا من الاولى، ولكن عند الاحتكاك مع اسبانيا بدأ نوع الخماسية، وهى عبارة عن بندقية تحمل طلقات خمسا (موزير) ينطق بها بلسان الاهالى محرفا (موسى) وعندما ظهر هذا النوع الاخير فى حدود أول القرن العشرين حبب الى الناس وكانت القبيلة تفتخر بان عند أفرادها كذا وكذا منها، وان الرجل يدللها وينيلها بدهن براق، وعندما يأخذها الى السوق ويضعها على كتفيه يعتبر عنتر القوم، يخشى بأسه، لان طلقاتها تصوب الى بعيد، والحقيقة أنه نوع قل أن يخطىء الهدف، وبالاخص اذا كانت غير مستعملة كثيرا، اذ أن استعمالها يخرطها الى أن تجعل الرصاصة لا تسير مستقيمة الى الهدف بالذات، وبالطبع فان حالة نفسية قوم بهذه الدرجة من الاحتراس والعمل اليومى فى سبيل الذوذ عن النفس والعائلة والقبيلة، يجعل تنشئة رجل من هذا النوع من اعتياده سلوك المغاور، والمسالك الصعبة الوعرة، واقتحامه المهالك يوميا تقريبا، وكونه يستعمل ظلام

الليل فى حياته أكثر من نهاره لكونه محفوفا بالخطر، تكون تنشئة ان لـــم نسمها صاعقة فهى بالغة الخطورة فى الشؤون القتاليـــة.

وقد كان الارياف الى حد غير بعيد يقيسون عمر الشاب بكونه كان وصل الى حمل السلاح، بدلا من أن يقول بلـــغ الحلم مثلا أو سنه كـــذا، وهنا يجدر بى أن أورد هنا قصة حكاها أحد الجنرالات الاسبانيين الذين فادوا الحرب فى الريف عندما كان قائدا أعلى للقوة التى ترابط على خـــط العرائش ــ القصر الكبير ــ فقد ذكر هذا الجنرال وهو منويل غوديـــد، أنه فى سنة 1922 عندمـــا كان يقود العمليـــة بقبيلة بنى كرفط، وكـــان المجاهدون أقاموا كمينا لحامية من معسكر النوادر الاسبانية، ولكن الجيش الاسبانى أقام كمينا مضادا، فوقع من كمين المجاهدين فى الاسر شخصان احدهما يكاد يكون طفلا يحمل بندقية «موزر»، ولما سئل ماذا يصنع بهذه البندقية، ولماذا أتى الى الكمين، قال أنه يدافع عن البلد، ويتدرب علـــى أساليب القتال، وقد عقب على ذلك هذا الجنرال بقوله «تأملوا لهذه الجرأة التى يتحلى بها هذا الصبى، فكيف يكون اقدامه عندما يبلغ مبلغ الرجال».

واذا علمنا وعورة سلسلة جبال الشمال من ناحية التكوين الطبيعى، الذى حباها الله بادغال ملتفة، وشواهق عالية، ومسالـــك ضيقة، وكـــون سكانها هم كصقور فى أوكارها، وليوث فى عرائنها، حيث يضبطون شبـــرا بشبر من تلك المواقع بعيون حادة وحاسة مرهفة وأجساد خفيفة، علمنـــا أى ذعر يحدثونه فى الاعداء، عندما يريدون أن يعكـــروا عليهم صفو تلـــك الحريات، التى ينعمون فيها رغم شظف العيش وقلة الزاد.

وهنا نترك الوصف لاولئك المغيرين من الاسبان والافرنسيـــين الذين خبروا تلك المصاعب، وذاقوا الامريـــن وعاينوا الهول بذاته يرعـــد فرائسهم، وفرائس جنودهـــم.

قال الجنرال غديد فى كتابه «المغرب ومراحل التهدئة» ما يأتى :

«واذا اعتبرنا أن الحرب المغربية لها ظروف غير ظروف الحـــرب فى أوربا، حيث أن المغربى محارب وبعيد الانتصار عليه وصعب الاخضاع، وهى اعتبارات خلفت فى جنودنا عدة قصاصات من البسالة المغربية، جعلت

معنوياتهم منحطة انحطاطا فضيعا، بحيث ان الجندى الاسبانى يعتبر أنه مقدم على هلاك من أول وهلة يساق الى المعترك» .

«وهكذا يظهر أن الحرب فى المغرب هو نوع خاص، ولا يمكن أن يطبق فيها العلوم العسكرية، لان المغربى يأخذ التموين فى قب جلابته، ويمكن أن يقاوم جيشا منظما من حيث التموين والصحة وجميع المعدات الحربية، وان أعماله الحربية منظمة تنظيما دقيقا، فهو يحارب فى منطقة لا تتعدى ما تصل اليه نار بندقيته، ومع ذلك، فهو يتصرف فى تلك المنطقة بحرية وبصورة فردية، فهو محارب كامل، يقوم بأعمال حربية خارقة لا يقدر الجيش النظامى أن يضبطه أو ينال منه منالا، فالريفى والغمارى والجبلى كلهم محارب بدوى، قوى سريع الحركات محارب بطبيعته، وببسالة نادرة، ومتعود على استعمال البندقية، ووسائل العنف من منذ طفولته»، ثم قال «ان أرض الشمال لا تصلح فيها الحروب النظامية، وانما تصلح فيها حرب العصابات، ان هؤلاء المحاربين هم خطيرون كأفراد، فهم لا يحاربون فى فرقة تحت راية طابور ما، وهو يأخذ معه عتاده على أكتافه»، وقال المريشال ليوطى «ان الجنود المغاربة من أشجع الجنود فى العالم، وكمحارب لا يوجد من يماثله فى المعركة، لانه يأخذ معه فى جلابته خرطوشا وخبزا وكرموسا، ليومين وثلاثة، وعندما تنتهى هذه المواد يذهب الى داره ليتزود مرة أخرى»، وقال الوزير الانجليزى المستر وليد جورج «يظل الاسبان فى مراكش فى شقاء وحرج، فهم يمسكون وعول الريف من قرونها، ولكنهم لا يستطعون أن يروضوها، ولا أن يطلقوا سراحها، فيرتطمون بقرونها من آن لآن ارتطام الثائر الصاخب فتدمى جباههم، وتذهل احلامهم، لان الجبال تمد الوعول الثائرة بابدع فرص أندفاع، كما أن الثوار الذين يناضلون عن حرياتهم مولعون بحيل الجبال يستمدون منها القوة والمعونة» .

ومن هذه النصوص ندرك لماذا لم يحتل هذا الصقع من المغرب من طرف المستعمرين القدماء، فقد تجنب الرومان اخضاع هذه الجبال، وتركها بمعزل عن اكتساحه لشمال افريقيا، كما كان الشأن بالنسبة للوندالبين، والقرطاجنيين .

وغاية ما أدرك الفنيقيون أنهم فتحوا متاجر لهم حذاء قلعة مليليه بروساديس .

وقد كان مسلك المستعمرين الوحيد هو طريق طنجة ـ وادى المخازن ـ الى فشتالة، حيث يعبرون الى الجزائر من طريق تازة ومفازتها، بينما يخضعون سواحل تمسنا من المهدية الى آسفى وغيرها، والفتح الوحيد الذى رسخت جدوره فى النفوس واستدام الى يوم يبعثون، هو الفتح الاسلامى، الذى أخذه أهالى الشمال، كما أخذه باقى المغاربة عن اقتناع وسخاء، لما فى تعاليمه من انسجام مع الطبيعة البشرية الفطرية، وقد كان احتكاك العرب بالاندلس فرصة ثمينة لان يتعرف أهالى الشمال على مزيد من تلك التعليمات التى خلقت فيهم تلك الصفات العربية القحة، التى تحمى الجار وتقرى الضيف، وتحيط الاعراض بكيان من القدسية، نظرا لكون فرضات جبالهم المتفتحة على الزقاق، كانت معبرا لاولئك العرب جيئة وذهابا، فاختلطوا، ثم أسسوا امارات على تلك الشواطىء .

وعلى كل، فان من مميزات الفترة التى ابتدأت من سنة 1909 حينما بدأ الجيش الاسبانى تحركاته لاكتساح الشمال الموعود بحمايته، ان انجبت مناضلين استقطبوا حولهم جمهور المقاتلين من مختلف قبائل الريف، كما انجبت آخرين فى مختلف قبائل جبالة على اعتبار التفاوت النسبى فى الاساليب المتبعة، ويعنينا هنا ان جو النضال بحماس متزايد ، كان ابتداء من تاريخ 1909، فى جهة الريف، ثم استمر فى مراحله الى معركة أنوال وما بعدها .

ويرجع الامر فى خلق هذا الجو قبل الامير ابن عبد الكريم الخطابى الى زعماء ثلاثة وهم:

1) الشريف سيدى محمد أمزيان القلعى .
2) الشريف سيدى محمد حدو العزوزى الورياغلى .
3) الشريف سيدى عبد الكريم (الاب) الخطابى .

وبفضل هؤلاء الزعماء وبداعى رد عادية المغيرين، فان قبائل الريف أصبحت معسكرا عاما تلقائيا جاعلة من عملها اليومى الدائب أن

ترسل امدادات بشرية وتموينية الى الخطوط الامامية التى تصطدم فيها مع العدو، لسحقه فى ملاحم احيانا، وعرقلة تقدمه أحيانا أخرى، وذلك ما جعل تحركه الى أن يصل الى أنوال، تحركا بطيئا استغرق قرابة عشر سنين، فى حين أنه عندما نكص راجعا تحت ضغط ضربات المجاهدين الموفقة قطعها فى قرابة عشرة أيام فقط .

ولاجل ذلك فان قيادة الزعيم ابن عبد الكريم للمناضلين الارياف فى أول الاصطدامات الحاسمة،انطلاقا من (دهر ابران) لم تكن قيادة مستوحاة من مغامرات ارتجالية، أو كانت مجرد تجربة لاغراض شخصية، انتقاما من الاسبان، لانهم أهانوه فى عاصمة قضائه، أو كانت عملا ذا حدين تخفى فى طياتها أغراضا شخصية للاستلاء على الحكم، فهذا كله كان بعيد التصور فى ظروف النضال المحيطة بالقوم والتى عايشوها تلك الحقبة الطويلة من الزمن، وهم يكابدون معالجة هذه الشؤون المستعصية ولكى نكتنه تلك الظروف يجدر بنا أن نلقى نظرة عجلى على حياة هؤلاء الزعماء النضالية .

1) سيدى محمد أمزيان القلعى :

هو الشريف الصالح المصلح سيدى محمد أمزيان من أولاد أحمد أعبد السلام بن صالح القلعى الشرفاء الادارسة الذين جعلوا قبيلة قلعية مقرا لهم، والتى آوت الشرفاء الحموديين الذين عبروا البحر من الاندلس عندما أفلت دولتهم هناك، كما ذكرنا فيما قبل .

وقد أسست عائلته زاوية قرب مدينة الناضور دعيت زاوية أولاد أحمد أعبد السلام، وهى فى قمة شرقى مدينة (سغنغان)، حيث يوجد منجم الحديد (اكسان) التى كان محور الحركات الاولى للصراع المباشر بين المجاهدين والاسبان عام 1909، والتى تولى كبر أمر المجاهدين فيها الشريف المجاهد هذا .

وقد رأى بعينه ماذا يحيكه الاسبان للاستلاء على ثروات البلاد، باستعمال العملاء الذين باعوا ضمائرهم للاجنبى، حيث باع بوحمارة ذلك المنجم الذى لا ينضب، ببخس من الثمن، والحال أنه دعى فى أمر

المغرب لا صلاحية له بتاتا فى ابرام ما أبرمه، وعندما نشبت الحرب بين المغاربة والاسبان المعروفة بحرب مليلية قاد هذا المجاهد حملة المجاهدين، وأعطوا مثالا للتضحية أثنوا الجيش الاسبانى من خروجه من المعقل الذى تحصن فيه .

وفى سنة 1909 هجم سيدى محمد أمزيان على السكة الحديدية التى تربط بين مليلية ومنجم الحديد بضواحى اسغنغان، فاتلف السكة برمتها، وقد جرت معارك حامية الوطيس تشيب لها الولدان استمرت ستة أشهر، فقد فيها الجيش الاسبانى ما بين قتيل وجريح حوالى 2000 جنديا، وسميت هذه الايام عند الاسبان بالاسبوع المأسوى .

وبعد عقد اتفاق مدريد بين اسبانيا وفرنسا، لقسم المغرب الى قسمين وشرعت فرنسا فى احتلال القسم الذى يخصها بناء على معاهدة الحماية، حلف أن لا يتركهم يحتلون أى شبر الا على أجسام الابطال، وفعلا فانه نظم قبائل قلعية وبنى بويحيى وبنى سعيد الريفية وبنى وليشك وغيرها، وكانت قبائل بنى توزين وبنى ورياغل تمده بالرجال، فقاتل شبرا بشبر، وقد تكاثر عليه الجيش الغازى، فنقل معسكره الى قرية افران اغلال أمام قرية تيكارمين ما بين قلعية وبنى سعيد، حيث استشهد فى معركة مصيرية ومن جملة تقديسات الاهالى له فانه يحكى أن الموضع الذى مات فيه بقى حزينا، ولا ينبت النبات أبدا واستشهد رحمه الله خلال سنة 1913 م. بعدما خاض ما ينيف عن مائة معركة معهم تقدمت الاشارة اليها .

وقد حمل الاسبان جثمانه الى مليلية حيث عرض هناك على السكان الاسبان والجنود ثلاثة أيام، وذلك ليطمئن الجميع أن الذى كان يقلق راحتهم ويجعل استقرارهم فى مليلية غير مضمون، قد لقى حتفه .

وقد سلم بعد ذلك الى عائلته بعد أن تدخل أخوه الشريف السيد التباع بتوسط بعض من كان له مع قائد مليلية العسكرى علاقة، ودفن رحمه الله فى زاويته وأوصى بأن لا يبنى له ضريح، ولكن عائلته بنت عليه ضريحا تحت الحاح القبيلة حيث أصبح ضريحه مزارا للناس، وقد دفن معه فى الضريح ولده محمد وبنته للافاطمة، ونسبه الشريف حسنى بالتواتر،

غير أننا لم نعثر على من ينتسب اليهم من الشرفاء الذين سكنوا قلعية فقد ورد على هذه القبيلة شرفاء كثيرون حسب ما وقفت عليه فى مخطوط من شرفاء الريف كما تقدم .

2) الشريف سيدى محمد بن احمد الغزوزى الورياغلى :

هو العلامة المجاهد صاحب التآليف الكثيرة فى علوم الدين والتصوف حسبما يأتى، وصاحب الحركات السياسية لتحطيم نوايا الاسبان فى الاستلاء على الريف بوسائل سليمة من دون اداء الثمن دما غاليا .

فلما كان سيدى محمد أمزيان ينظم قبائل بطيوة كما أسلفنا ليرد عادية المغيرين من مليلية على القبائل المجاورة، وكان هذا المجاهد يجمع المجاهدين من بنى ورياغل ويرسلهم أفواجا وفرادى الى ميادين القتال، وكان يتنقل بصورة عجيبة فيما بين القرى يلقى على سكانها ما أثر فى فضائل الجهاد، وكان يحضر اليه سيدى محمد أمزيان فيجمع المجاهدين من بنى ورياغل ويسير على رأسهم يخوض المعارك، كما كان يحث القبيلة على منع بعض الافراد الذين كانت لهم علاقة سياسية مع الحاكم العسكرى بجزيرة النكور، اذ فتح هذا باب الجزيرة على مصراعيها ليلجها أفراد القبيلة، كما فتحوا أبواب جزيرة بادس لمثل ذلك، وكان رتب لبعض الاشخاص رواتب شهرية طمعا فى فتح البلاد سياسيا وجعل الجزيرة سوقا رائجا لشراء البضائع شراء رمزيا، وحتى أنه كان يتسامح حتى فى شراء السلاح أو اهدائه، وبالاخص أولئك الذين يجاورون تلك الجزيرة.

ولم يكن ليخفى على الشريف المذكور مقاصد السياسة الاستعمارية، وكان مولعا بمحبة العرش العلوى وولائه الذى كان يضرب به المثل، وهو الذى كان يحرر الرسائل مشابهة لرسائل السلطان مولاى عبد الحفيظ، ويمكن به أحد الغرباء ليدخل بها عندما يجتمع رؤساء القبائل الى المؤتمر، ويمكنه بها كأنها وردت من الملك نفسه، وعندما يضعها على جبهته ويقبلها يقرأها، وذلك لاجل اذكاء الحماس، فكان الاسبان فى جزيرة النكور ومليلية يقلقهم عمله فجربوا حظهم معه بأن أرسلوا اليه يعدونه بكمية كبيرة من المال، ليخمد للسكون ولا يثير القبائل عليهم، ولكن ايمانه القوى وعزته

الوطنية دعته لان يرفض ذلك، وأخيرا هددوه بأنه ان لم يستجب لاخذ المال، فانه نفسه يلقى حتفه، وكان الامر كما توعدوه، فانه قتل من طرف وغد من أوغاد أعمامه، بينما هو راجع الى داره من عمله الدائب فى سوق خميس المرابطين بوادى غيس، أواسط العقد الثانى من القرن العشرين، ودفن فى مقبرة زاوية سيدى عيسى .

ويعتبر عمله بحق أول نهضة فى قبائل الريف الوسطى، كما كان عمل سيدى محمد أمزيان أول نهضة فى القبائل الشرقية، وانتقلت سلطة قبيلة بنى وريا غل الى زاوية سيدى عيسى، فكانت القبيلة معلقة اليه .

وللمجاهد المذكور عدا الاعمال الحربية ضلع كبير فى مختلف الفنون العلمية ولاتمام الفائدة ننشر شهادة عصريه سيدى محمد بن محمد بودهر التوزانى ونصها حسبما بيدى من نسخة منها :

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

الحمد لله وحده وجد بخط العلامة المرحوم سيدى محمد بن محمد بودهر التوزانى رحمه الله فى حاشيته المسماة بغاية الصبور على شفاء الصدور، نصه: التعريف بالناظم وهو ناظم القصيدة وشارحها فى تحريم لحن أهل الفجور التى سترى قال وهو الفقيه الامام العلامة أبو عبد الله سيدى محمد بن احمد الشريف الحسنى الورياغلى صاحب الجد والاجتهاد والتشمير عن ساعد الحزم لخدمة رب العباد من تلاوة واذكار وقيام الليل والاسحار، حتى حكى عليه الخبر وصح واشتهر، انه يردد بعض الآيات ويبكى حتى يطلع الفجر، تصدر للفتوى فى الريف، واتسع باعه فى العلوم، سيما فى علم العروض، حتى صار فيه دأبه متى سمع بيتا من أبيات الشعر فينظر فيه لحظة ويجيب بأن هذا البيت من بحر كذا، فهاذه عادته، وأخبرنى عن نفسه بأنه يعرف جميع العلل والزحاف فى الشعر بديهة حتى لا يحتاج لتأمل فى ذلك، وأما تآليفه فمن أجل ذلك هذا الذى نحن بصدده الذى فاق به فى بديع صنيعه ابناء الناحية فى الزمان، ولم يضاهه أحد بمثله، ولا سبقه لذلك واحد من الاخوان، فطالع تجد، وليس الخبر كالعيان، ومن تآليفه أيضا تأليفه الذى سماه رسالة المتهجدين، فقد

أبدع فيه من العلوم مالا ينبغى ترك مطالعتـــه لذوى العقول والافهـــام، ونقل فيه من الاحاديث النبوية والاخبار المصطفويه ما لم يقف عليه غالبا واقف فى كتب العلماء الاجلة، وفسر فيه من الآيات القرانية بكلام أهـــل التصوف ما يشهد بغزارة علمه وسعة اطلاعه على أقوال الايمة، ونقل فيه من حكايات الصالحين ما يسر الواقف عليـــه ممن اتصف بالتسليم لاهـــل الرسوخ والتمكين، ونظم فيه أشعارا أطال فى بعضها غاية، فعليك به ان أردت استيفاء ما بـــه من وعظ ونـــدب الى ما يفضى مآله الى الحسنـــى والزيادة، ومن تآليفه أيضا القصيدة الرائعة فى مدح خير البرية، فيها مائة وأربعون بيتا، قافيتها على الراء من الضرب الاول من الطويل، ومنها أيضا قصيدة فى مدح شيخه سيدى محمد بن احمـــد العلوى الحسنى القاطـــن بقرية صفرو، الى غير ذلك، ومن أشياخه الشيخ الامام العلامة الهمـــام سيدى محمد كنون رحمه الله فى الحديث، وفى النحو الشيخ المدرس الافضل العلامة الاكمل سيدى خليل أبو صالح الخالدى ابقاه الله لنا ملجأ، وكـــان له فى حياته ومماته، وفى الفقه الشيخ العلامة الصوفى سيدى احمد بـــن الحياط، والشيخ الرئيس والولى النفيس سيدى محمد القادرى، والعلامة المرحوم سيدى محمد الوزانى غفر الله له ذنوبه وأسكنه فى أعلى الجنان بمنه وكرمه كان الله للجميع وأيد الجميع بجاه النبى الشفيع صلى الله عليه وسلم، وأخذ الطريقة عن سيدى محمد العربى العلوى الحسنى، وعـــن ابن عمه سيدى محمد بن احمد فى صفرو بعد وفاة الاول أيد الله الجميع، والكل فى ظل مولانا أمير المؤمنين مولانا الحسن أسكنه الله أعلى الجنـــان، ومتعه بالنظر الى الحنان المنان، الى غير ذلك من مآثره فانظر فى الحاشية المذكورة تجد أكثر مما كتب هنا والسلام .

وهذه القصيدة التى أشار اليها هى فى تحريم اللحن عند تـــلاوة القرآن الكريم كما كان يسمى فى ذلك الوقـــت بالصيغة وقد وقفنـــا على بعض الابيات منها، مع شرح ناظمها لها لمعانيها، والاستدلال على ما قاله بنصوص فقهية، ونغتنم هذه الفرصة لنشرها خوف ضياعها.

وقد قال فى أول الشرح أما بعد فهذا تفسير ابياتنا على تحريـــم اللحن العجمى الذى كان هزجا أحل الفاظها وأبين النقل المشار اليه فيها،

لتكون فى تحريمه حججا، مقتصرا على المقصود لكونى فى غيره اعرجا، ولكن من آخذ معظم الشىء لايلام على عدم الاتيان بما كان همجا، طلب منى ذلك الفقيه البركة القارىء قراءة السبع العالم بوجهها مدخلا ومخرجا، سيدى محمد .ن الفقيه العلامة سيدى الحاج عبد الله الشريف الحسنى الورياغلى، وقاه الله من كل ماكان حرجا ، الـخ ...

وهذه الابيـات التى وقفت عليهـا :

لك الحمد يا من أنزل الذكر والهدى ... على عبده المحرم النوح والحدا
عليه وآله وصحب صلاته ... تقارن بالسلام ما بقيت غدا
وبعد فترجيع جلا فى زماننا ... به وعد النبى حقا أما بدا
اذا اجتمع القراء فى محفل الغذا ... لدى البعض يقرءون باللحن والددا (1)
يسمون ذا اللحن القبيح بصيغة ... به استوجبوا التقطيع والذبح بالمدى
لتغييرهم كل المدود بطبعهم ... على عكس لحن العرب حاذر من الردا
وقد قال بعضهم بأخرى قريبة ... الى هذه وما يغير كالعدا
ولكن وان كانت كذى حرمت لما ... تؤدى من التغيير فى البعض سرمدا
وفى آية التقول الزجر قد سطا ... بهم صدرها ولو تدبر مع البدا
وما استوجب النقصان عمدا لواحد ... من المد والحروف دعه ودع عدا
وقد قيد المحدثون رواية ... معنعنة الى النبى بها اقتدا
كما فى البخارى المهدى وغيره ... يرجع زينو تغنى به اهتدا

وقد علق بعضهم الذى سمى نفسه على بن الحاج محمد انبرسيمى بتاريخ خامس شوال عام 1321 هـ. فقال فى كراسة من نصوص الشاطبى وغيره «لا شك من تأمل كلام الفقيه العلامة سيدى محمد بن أحمد الورياغلى الريفى فى منظومته المسماة «شفاء الصدور، فى تحريم لحن أهل الفجور وشرحه لها وجده صحيحا الـخ .

وقوله ومنها أيضا قصيدة فى مدحه شيخه سيدى محمد بن احمد العلوى ولعله يقصد بذلك نظما أبياته 68 سماه «هذه القلادة المنورة فى ذكر السلسلة المطهرة» ويعنى بذلك سلسلة الطريقة الدرقاوية فى

---

(1) قال فى الجواهر الدد هو اللعب .

وفاته بطريقة الاشارة بالحروف الابجدية بلفظة سشكب بالسين والشين والكاف والباء التى محصل اعدادها 1322 هـ. وهى السنة التى فيها مات بالتاريخ الهجرى .

وقد علق بنفسه على هذه القصيدة تعليقات لغوية وتاريخية وعروضية، وبذلك تكون كتأليف فى مضمارها. ولاتمام الفائدة سنثبت هنا القصيدة والتعليقات وقد بدأها بما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد واله .

قال العبد الملقب هر اهل الله محمد بن احمد الورياغلى الحسنى عفى الله عنه آمين يارب العالمين لقب نفسه بذلك لما عرف نفسه بنزعة الهرمعهم .

هذه القلادة المنورة، فى ذكر السلسلة المطهرة .

أحمد من فضل أهل المعرفة ... من الشيوخ الواصلين الكملة
سبحانه من واحد ومالك ... قسمهم لغائب وسالك
مصليا مسلما عن النبى ... والآل والاصحاب أولى الحسب
نخص منهم الذين نجمع ... بعقد سلسلتنا فلتسمعوا
يسمى لذا القلادة المنورة ... فى ذكر سلسلتنا المطهرة
ومن ذكرته وما سيدته ... فالوزن عن لى وقد أردته
لكن لسان حالنا قد سيد ... لقبه أو اسمه ومجد
محمد بن احمد قدوتنا ... .
العلوى (1) نسبا فخيما ... الحسنى حسبا كريما
بحر الشريعة وذو الجمال ... بحر الحقيقة وذو الكمال
أوصافه محمودة فخيمة ... يطيب شرحها بلا سآمة

---

(1) العلوى: هو من ذرية مولانا على الشريف، وهو من تافلالت ونسبه مرفوع الى سيدنا الحسن السبط وشرفاء تافلالت من ذرية محمد الملقب بالنفس الزكية والامام محمد هذا ومولاى ادريس اخوان، وقد قدم جد العلويين وهو الحسن القادم من الحجاز قال سيدى عبد الله بن طاهر أن قدومه كان فى سنة 664 هـ.

العارف المحقق الربانى فى سشكب (2) صار الى الرضوان
دفن فى روضته بصفرو طاش لذا العقل وضاق الصدر
قدس روحه بفضل ربى عليه جل رحمات الرب
وبالمشافهة أخذنا عنه وبالمذاكرة فدنا منه
أخذ عن استاذه وعمه محمد العربى مربى وقته
بالكتب قد أخذت عنه اذ بدا مربيا وناصحا من اهتدى
وقد يخلف ابن عمه الحسن العالم العارف ما به وهن
كذاك صنوه الذى قد جذبا محمد لحضرة هى الحبا
فروعه كسيد السبعى كثيرة بذكره الخلوى
وعلمه الجلى والخفى أشهر فى الاقطار وهو حى
وجمهم بغربنا النحب قضى وغيرهم غير انتظار قد نضى
وهو أصل والفروع تقتدى وأخذه معنعن اذ يحتدى
والبدوى شيخه الخضراوى عن المربى الاكبر الدرقاوى (3)
تعزى له طريقة مرضية كالشاذلى وهى الصوفية
عن الشريف الاكرم المبجل منور السر على الجمل (4)
وآخذ هو عن العربى عن احمد والده المرضى

---

(2) يشير به الى تاريخ وفاته وهو 1322 هـ.

(3) وهو سيدى العربى بن احمد بن الحسن بن على من ذرية سيدى احمد بن مولانا ادريس توفى فى 22 صفر 1239 هـ. فى بنى زروال وله زاوية لها فروع .

(4) هو على بن عبد الرحمان بن محمد بن على بن ابراهيم بن عمران الشريف الادريسى العمرانى من قبيلة بنى حسان وسبب تسميته بالجمل يقال أنه وجد بعيرا راقدا فى بعض طرق فاس فرفعه ووضعه خارج الطريق فرآه الناس فقالوا هذا الجمل فاشتهر بها، كان بفاس وخرج الى تونس ورجع الى وزان سنة 1153 هـ. ثم الى فاس ومات فى 29 ربيع الاول 1194 هـ. عن عمر 106 .

كلاهما يدعى بعبدلاوى كلاهما الناشر ثم الطاوى (5)
نسب كل واحد فاسيا عن قاسم ينسب اخصاصيا
عن سيدى محد الفاسى يعزى ابن عبد الله فى الأساس
تلميذ يوسف النبه الفاسى أمام أهل وقته والآسى
جد لعربيهم المذكور فى البيت آنفا وفى المسطور
عن شيخه العارف عبد الرحمان عن صنوه يوسف عالى الأركان
من فاسنا هما عن المجدوب ينبوع سر القوم ذى الأسكوب
عن سيدى على الدراوى أخلصه المولى بذكرى الدار
عن الملقب أمجام أبا اسحاق يكنى ع لنعطى السقبا
عن الامام المرتضى زروق ذى العلم والتشريع والتحقيق
عن شيخه عقبة ذاك الحضرمى عن سيدى يحيى الشريف الاكرم
عن مظهر السر على ابن وفا عن سيد محمد نسل وفا
أعنى به والده الا واه عن الامام الباخلى (6) جدواه
عن احمد نجل عطاء الله عن شيخه المرسى رحب الجاه
عن المربى التادلى المنتجب عن الجليل ابن مشيش المنتخب
عن عابد (7) الرحمن وهو المدنى عن الفقيرى العراقى السنى

---

(5) يعنى أن سيدى احمد بن عبد الله كان فى فاس ناشر الطريقة وكان ابنه سيدى العربى صاحب الخمول كما أخبر بذلك سيدى العربى الدرقاوى وسيدى العربى بن عبد الله ولده احمد بن عبد الله وجد سيدى العربى سيدى محمد الفاسى كلهم أولاد سيدى عبد الله معن من الحومة المخفية وهم العبدلاويون .

(6) اسمه داود .

(7) ابن الحسن الشريف العطى المعروف بالزيات له طريقة أخرى عن سيدى عبد الرحمن التازى عن الشبل عن الجنيد عن السقطى عن معروف الكرخى عن الطائى عن حبيب العجمى عن الحسن البصرى عن سيدى الحسن السبط لكن الاولى هى المشهورة حسبما فى تقييدة لسيدى العربى العلوى .

وعن علـــى فـــاض نـــور الديـــن عن شيخـــه بالترك شمس الديـــن
وزاد بعضـــهـــم هنـــا شيـــخيـــن تـــاج وفخـــر الديـــن مرصيـــن
استـــاذ هـــذا النـــور والمـــريـــد لفـــا ونشـــرا عنـــى البـــريـــد
والاخذ شمس الدين شيخه كمـــا صـــرح شيخنـــا بـــذاك فاعلمـــا
وآخـــذ هـــو عـــن القـــزوينـــى كـــان يلـــقـــب بـــزيـــن الديـــن
هـــو عن البصـــرى ذى الاحسان عـــن الكريـــم احمد المـــروانـــى
عن شيخـــه أبى محمد سعـــيـــد عن سيـــد سعـــد سعدت يا مريـــد
فتـــح السعـــود عنه ذا الصمدانى عـــن سيـــدى سعيـــد الغزوانـــى
عـــن جابـــر اخذ هـــذا واكتفـــى عن سيـــد الحســـن سبط المصطفى
عـــن سيـــدى عـــلـــي المكـــرم وهـــو عـــن نبيـــنـــا المعـــظـــم
صلـــى وسلـــم علـــيـــه ربـــنـــا وآلـــه وصـــحـــبـــه ترحـــمـــا
بجاههـــم كـــن لـــى أن تبشـــرا كمالهـــم كـــنـــت اذا مبشـــرا
مـــا أشرس الوفـــاة ما اقصفهـــا ان لم تكـــن لنـــا ومـــا اوجعهـــا
لكـــن اذا كـــنـــت لنـــا بشـــارة تسـر بالحسنـــى وبالـــزيـــادة
واشفـــع لنـــا لربنـــا أن يختـــم لنـــا بتهليـــل ومـــا بنـــا احتمـــا
واشفع لنـــا لربنـــا أن يقـــبـــل دعـــاءنـــا وثـــوبـــنـــا والعمـــل
واغفـــر لنـــا الا هنـــا ذنوبـــنـــا بجاههم واستر لنـــا عيـــوبـــنـــا
وكـــن لنـــا بجاههـــم فى القبـــر مثبـــتـــا ومنعـــمـــا بالخـــيـــر
وخـــوفنـــا امـــن كـــذاك ذعـــرا والطف بنا فى الدار ذى والاخرى
وهـــب لنا منـــازلا فى الحسنـــى بجـــاه احمـــد الشفيـــع الاسنـــا
وكـــل مســـلـــم ولـــلاخـــوان ووالـــديـــنـــا رب والجـــيـــران
كذلـــك الا هلـــونـــا والـــوالـــدان بفضـــلـــك اللـــهـــم يارحـــمـــن
لنـــا الزيـــادة أمنـــحـــن تمتعـــا والحمـــد للـــه بآخـــر الـــدعـــا

3) عبد الكريـــم الخطابـــى (الاب) :

هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم، كان عمه زيان واليا على الريف الاوسط للسلطان مولاى محمد بن عبد الرحمان، وكان طالبا حســـن السمت يقظا منصفا، وقد خلف لعائلته شهرة وقيادة القبائل الوسطـــى

للريف وبالاخص بنى ورياغل، ولما توفى عين مولاى الحسن الاول واليا عن الريف السيد بوبكر أوشان من العائله الخطابية، عمر طويلا وتوفى أول الاستقلال عن سن يناهز المائة سنة .

أما جده عبد الكريم فكان فقيها، وكذلك والده محمد، أما المجاهد السيد عبد الكريم، فهو كان آية من آيات الله فى الصبر والاناة، والفراسة الصائبة، وقد قاد سياسة بنى ورياغل ضد الاسبان بعد وفاة السيد محمد بن احمد العزوزى المذكور، نظرا لتوقد ذهنه ومعرفته لمصائر الامور .

ورغم أنه بعد سنة 1906 هادن الاسبان وأرسل ولديه احدهما للعمل فى مليليه مع الادارة الاسبانية هناك، والثانى للتعليم فى اسبانيا، فانه لم يكن ذلك عن سوء قصد، وانما ذلك لاجل الاطلاع عن كثب على دسائس السياسة الاستعمارية بالنسبة للاول، ولاجل استكمال الدراسة العصرية بالنسبة للثانى، وهو أمر طبيعى، وقد سبق أن بينا ذلك باسهاب.

وفيما بعد انتهاء الحرب العظمى قام بمجهود جبار لمحاربة الاستعمارين الافرنسى والاسبانى معا، وبالاخص عندما حضر الى الريف الشخصان عبد المالك الجزائرى والفاول الالمانى حسبما سبق مفصلا عند ذكر اسباب قيام البطل ولده بتنظيم الحرب التحريرية .

وعندما عمل على ارجاع ولديه من اسبانيا، وتفرغ للدفاع ضد اسبانيا، التى كان فرغ لها الجو بموت سيدى محمد أمزيان وسيدى محمد أحمد العزوزى، فوصلت فى زحفها الى تفرسيت وهى قبيلة تقع بين بنى توزين وتمسامان وبنى وليشك ومطالسة، وهى قرية صغيرة جيدة الهواء والماء والمناخ .

كان جعلها الامير عبد القادر الجزائرى معسكرا له، عندما اضطرته الجيوش الافرنسية فى الجزائر لنقل معسكره خارج الجزائر، ولهذه القرية شهرة كبيرة فى موقعها الاستراتيجى، حيث تقع وسط قبائل شتى، وتعتبر مجمعا لقبائل الريف الشرقية، وقد أقام الاسبان بدورهم معسكرا هناك انتظارا للزحف، فقاد السيد عبد الكريم الخطابى حملة اصطدام مع الاسبان الى أن مرض هناك مرضا مشبوها فى اسبابه،

والارجح أنه سم هناك على يـد عميل من عمـلاء الجيش الاسبانـى وبالاخص انه فى هذه المرحلة الاخيرة كان يعتمد هذا الاسلوب مثلما فعل مع السيد محمد العزوزى، وقد بقى فى مرضه 20 يوما قضى نحبه فى سبيل اللـه .

وسبق التعريف بنسبه الشريف عند التعريف بولده البطل ابن عبد الكريم الخطابى، وللرجل اخلاق جمـة تعتبر منحة الاهية، فهـو صبور الى حد أنه لا يلاحظ على وجهه أثرا لغضب قط، ومع ذلك فلا يرى ضاحكا بالقهقهة وانما ضحكه ابتسام وانشراح، فلبداهته الحاضرة كان لا يمل جليسه، ذلك ما جعل أفراد القبيلة يتسابقون لزيارته وقضاء بعض الوقت معه، وبذلك اكتسب شعبية منقطعة النظيـر حتى أن محادثتـه مملوءة بالنكت اللطيفة، مما يستهوى السامعين لحضور مجالسه، وهـو اذا جلس يجلس مربعا، يضع يديه على ركبتيه بوقار، وهو فوق ذلـك فقيه حاذق، قـرأ فى القرويين، وأخذ من الفقه لبه ومقاصده الصحيحـة، ويعتز كثيرا بأنه ليس فقيها جامدا، وكان يعرف بالسيد عبد الكريم، ويأبى أن يدعى بالفقيه، وسأله أحد جلسائه ذات يوم لماذا لا يقبل الفقيـه، فاجابه بأن مفهوم الفقيـه فى وسطكم أنـه الذى يشارط فى المساجـد ويتعيش بالمعروف وهو لا يغنى غناء الرجال الشجعان، فلذا اختار السيد عبد الكريم الذى مفهومه الرجل الذى يحمل السلاح ويعتمد على نفسـه، ولا يتعيش الا بكـد يـده .

كما كانت فتواه يقصد بها وقائع عملية، وليست جوفاء، يحكى أنه حضر لديه بعض الذين يظلون على لعب الورق أمام جزيرة النكور، التى كانت مقصدا لضعفاء الضمير، يقضون فيها أوقاتهم ثم ينزلون الى الشاطىء ليلعبوا الاوراق (الكرطة) الى غروب الشمس، وفى هذه الحالـة كانت جماعة منهم ممن يلعبون الاوراق ذبحوا شاة، وجعلوها على النـار لطبخها، فطبخت وانطفأت النار وبردت القدرة المطبوخة، فجاء كلب وأكل منها، فلم يستفيقوا من اللعب الذى تحمسوا له الا بعدما بلغ بهم الجوع مبلغه، فتفطنوا للكلب يأكل من القدرة، ومع ما بلغ فيهم من الجـوع فانهم أكلوا الباقية وبعد الاكل جعلوا يتباحثون فيما اذا كان يجوز لهـم

أن يأكلوا البقية، فذهبوا الى السيد عبد الكريم يستفتونه فسألهم أين كانوا فى يومهم ذلك، فافادوه بأنهم كانوا فى جزيرة النكور، وسألهم هل زاروا الحاكم العسكرى الاسبانى هناك (وكان يدعى بقائد الجزيرة) فقالوا نعم ثم قال عندما نزلتم من الجزيرة ماذا فعلتم، قالوا له كنا نلعب الكرطة الى أن أكل الكلب من القدرة ثم أكلنا البقية، فقال لهم لا بأس بذلك .

وقد شاعت هذه الفتوى فى القبيلة، واستنكرها الفقهاء، ووصفوا السيد عبد الكريم بالتهاون فى فتواه، بل بخرقه للنصوص الفقهية، فاقترحوا عقد مجمع للمناظرة معه فى ملاء من الرؤساء .

وفعلا قرر رؤساء القبائل عقد ندوة للحوار بين فقهاء القبيلة من جهة، وبين السيد عبد الكريم من جهة ثانية، فتقاطر الجميع الى سوق أربعاء سيدى ابى العفيف، على الضفة الجنوبية لوادى غيس، وقد حمل العلماء كتب النوازل معهم، وجعلوا يترقبون حضور السيد عبد الكريم الذى تأخر كثيرا، حتى كان بعضهم يشك فى حضوره، ولكن أخيرا حضر راكبا دابته بكل هدوء النفس، ورباطة الجأش، ولم يحمل معه ولا ورقة واحدة .

ولما جلس وسط الحلقة التى كونها المجتمعون، اشرأبت الانظار باسمئزاز اليه، وكان الذى يحمل راية التنديد به هو فقيه من قرية أجدير نفسها، يدعى الفقيه السى على كان من النوع الجامد الذى لا يفهم من النوازل الفقهية الا ألفاظها الجوفاء .

قال السيد عبد الكريم ماذا تقول ـ موجها الكلام للفقيه السى على ـ أيها الفقيه، فقال هذا انك دائما تتهاون فى النصوص الشرعية، وتفتى بما يعتبر خروجا عن الشريعة، فقد أفتيت أخيرا بما لا يحل لاحد أن يقوله .

فقال له السيد عبد الكريم حسنا، هل سألت المستفتين، ألم يكونوا فى جزيزة النكور مع عدو الاسلام؟ ثم لما نزلوا ماذا كانوا يفعلون؟ ألم يكونوا منكبين على لعب الكرطة؟ هل تحرم أنت هذا العمل؟ وبالاخص الاول، ولماذا لم تتطرق اليه وتحرمه عليهم؟، ثم هل استفتوا قبل الاكل

أم بعده؟ فلما كـــان بعد الاكل، فما هو فائدة الاستفتاء فى جزئية خاصة بهم؟. ولذا فانى أعتبر أنهم بعملهم اليومى كله هم كلاب أربعة، انضـــم اليهم كلب خامس أكل معهـــم. يجب أن تستنكر أيها الفقيه أعمال هـــؤلاء الذين يذهبون الى جزيزة النكور، حيث العدو يتربص بنا بمثلهم، لينفث فيهم السموم، فصفق له الجمع، واعتبر من ذلك الوقت الفقيه العلامـــة الذى لا يغلب فى محاوراتـــه .

أما فراسته فكانت قوية، بحيث أنه عندما كان فى تفرسيت فى حملته ضد الجيش الاسبانى كما أسلفنا، وجاءته الوعكـــة التى شعر بها قـــال لمساعديه الاقربين اذا أنا مت فعليكم بهذا الخلف الذى أتركه من بعـــدى، مشيرا الى ولديه، ثم زاد فان الاسلام تجدونه فى بيتى، ولا يصدنكـــم عنهما انما كانوا مع الاسبان، فان ذلك لم يزدهم الا ايمانا بالاســـلام، وعداوة لهم، لما شهدوه من غطرسة وكراهيـــة للمسلمين، وبالاخـــص مالاقـــوه من المجاهـــدين .

وفضلا عن ذلك فقد اعتقد فيه بعضهم أنـــه من الملهمين، فقـــد حكى بعض مرافقيه أنه كان ذات مرة فى قرية آيت قمرى وهى القريـــة التى نقل اليها ولده البطل من بعد أجدير مقر العمليات الحربية، لكونهـــا غائبة عن أنظار البوارج الحربية وجزيرة النكـــور .

قال: كنا واقفين على كدية وجعل يصيح كوع كوع فى خشوع اثر غروب الشمس، فلما سأله عن عمله ذلك قال أنه تقمص شخصية الذئـــب ينوح عن أهل هذا المنزل فانهم راحلون عنه وللمكان شأن من بعدى يذكر، فكان الأمر كذلك، وعلى كل فان نوادره من هذا النوع كثيرة جدا ويحفظها الى الآن القوم على ظهر قلوبهم يحكونها فى مجالسهم ويستملحونها .

وقد خلف رحمه الله من الاولاد :

الذكور : محمد وامحمـــد .

ومن الاناث: أمينة زوجة السيد محمادى بن الحاج السى محمـــد الخاتمى – من بنى وريـــاغل .

فطيمة زوجة السيد محمد بن الحاج بودرة من أجدير .

رحمـــة زوجة محمد أزرقان (المدعو بخارطو) من أجدير .

رقية زوجة السيد محمد بن الحاج السى محمـــد .

أما زوجته فهى ثيمونت بنت السى احمد بن القاضى وهو عالـــم فى بنى وریاغل مشهور من الشرفاء الولقاضين، تدعى فخذته الشندوريين .

وكان له من الاخوان السيد عبد السلام الخطابى، الذى نفى مع أسرة الامير فى جزيرة رنيون وتوفى فى القاهرة، والسيد احمد بوجيـــظ، أما حدو بن السى زيان فهو ولد أخيه .

حقيقة كان أثناء وجود أولاده عند الاسبان فى مليلية ومدريـــد كانت القبيلة تنتقد عليه وجودهما عند النصارى، وبالاخص ان احدهمـــا كان موظفا كقاضى فى مليلية، والثانى يتعلم علم الكفار حسب الاعتقـــاد السائد فى ذلك الوقت، وكان يقابل ذلك برباطة الجأش وبكثير من الاناـــاة، وربما أجاب عن ذلك بأن وجودهم عند الكفار لا يخشى عليهما لان لهمـــا بصـــيرة اسلاميـــة .

ومن نوادره فى هذا الباب، أنه ذات مرة كان شريفان اثنان يدعيان السيد يوسف والسيد بوقشوش من زاوة سيدى يوسف، وهمـــا ممـــن يجعلون بيته متندى لراحتهم، حضروا بعض الائتمـــار عليه من طـــرف القبيلة فى سوق خمس المرابطين، وكان هذان الشخصان ممن ساهمـــوا فى الافكار العدائية ضده، وقد علم السيـــد عبد الكريم بما قالـــوه، وفى المساء حضروا لديه، فسألهما عن حالة القبيلة وما عقدتـــه، فقالا انهـــا توجه الانتقاد اليه، الا أنهما رهن اشارته وعليه أن يطلـــب منهما أيـــة حاجة يريدها، فوجه اليهما الكلام باناة: ان الحاجة التى يريدها منهما لا يقدران عليها، فأكدا له استعدادهما، فقال لهمـــا ان كان ولابد فانـــى أريد وجها مثل وجهكما، لا يحمل ذرة من الحياء حتى أجابه به القبيلـــة، لانكما فى السوق كنتما الد الخصوم لى، والآن جئتما بوجه آخر، فسقط فى ايديهما، ومع ذلك فقد طمأنهما، وقال لهما: لا تنقطعا عنى وعن مائدتى فان أحوج ما يكون المرء الى مثلكما، لانكما رغم انكما لا تغنون شيئـــا، فانه لا يخشى منكما وحث عليهما أن يبيتا معه تلك الليلة، فبعدما مضى وقت من الليل، أمَر أحد خدامه بأن يطلق طلقة نارية فى الفضاء خـــارج الباب، وكان هو مع الشريفين فى بيت الضيوف، فلما سمع الطلقة تصنع

الفزع وكان للشريفين بندقية واحدة بينهما، فانتفض السيد عبد الكريم لاخذها، يتصنع رد عادية المغير، ولما بحثها وجدها خالية من القرطاس، فقال لهما أين القرطاس؟ فجعل الشريفان يبحث كل واحد فى زعبوله (محفظة يقلدها الرجال للقرطاس) ويقول للآخران لنا قرطاسا واحدا هو عندك، ويقول الآخر عندك، ولما أعياهما الامر ابتسم وقال اذا كان أمثالكما يأتمرون على فلا بكت على الباكيات .

خبرة كل واحد :

ان عمل المجاهدين الاولين سى محمد أمزيان وسى محمد العزوزى كان عملا مستوحى من الترغيب فى الجهاد، واكتساب الشهادة، وفى ضمنهما أن الخضوع لحكم الكفار هو طعن فى الدين وعقيدة المسلم الحنيف، فكيف للرجل أن تتقبل صلاته وهو تحت امرة الكافر، أو من يأتمر بأمره، وكان باب الجهاد فى كتب الفقه هو الباب المفضل عندهما، لتلاوة ما جاء فيه على مسامع المجاهدين فى القرية والقبيلة والاسواق ومجامع الصالحين من الزواوى وغيرها وهو القصد بذاته فى قرارة أنفسهما، لا تشوبه شائبة الاعمال السياسية، الا ما كان من الدفاع عن سيادة العرش المغربى، وهو نفسه جزء فى العقيدة الدينية التى لا تعوزها النصوص الكثيرة المتداولة التى كانا ومن معهما يتلونها بالحاح على المسامع لتحميس المقاتلين الصابرين الذين ضمئت أنفسهما الى التروى من دم الكفار ليعوض لهم فى الجنة من كأس كان مزاجها كافورا عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا .

أما المجاهد الثالث وهو السيد عبد الكريم الخطابى الاب، فلم يكن عمله على هذا النسق فقط، بل كان قصده أشمل وأعم .

ذلك أنه كان خبر الامور العصرية وأطلع على مجريات الاحداث السياسية، فمن جهة كانت الحرب العظمى الاولى قد اندلعت وتتبع مصائرها عن كثب، ثم تتبع انهزام المانيا وحليفتها تركيا وما خلفته هذه الانهزامات فى نفس فرنسا من الاستعلاء على الشعوب التى تتعثر فى تخلفها المزرى سياسيا واقتصاديا وفكريا، وبالاخص التى تجاورها فى

مستعمراتها، مثل المغرب الذى آوى يوما ماعدوها الذى ناجزها القتال بثبات وشجاعة نادرة، وهو الامير عبد القادر محيى الدين الجزائرى، الذى أعطى مثالا للبطولة العربية القحة، والذى غسل عار الاستسلام للقوى مهما كانت قوته، فابان للعالم أن المغرب العربى كما وقف منتصرا فى معارك القائد هنباك التى خاضها فى تونس الخضراء ضد المستعمرين القدماء الذين اكتسحوا أوربا وجزءا من آسيا وافريقيا بهمجيتهم الاستغلالية بوسائل الحراب والمنجنقات، فانه يستطيع أن يقف بكل مقدرة ووعى ضد المستعمرين المتحضرين بوسائلهم الحربية الجهنمية المخترعة من الانسان ضد الانسان، لابادة الانسان، لا لشىء الا للجشع الاستعمارى، الذى لا يحكم ولو لحظة العقل الذى منحه له الله، كما نتبع (عبد الكريم) التسلح بين تلك الدول الاوربية التى تتحاكك بينها فى ابتلاع المغرب لقمة سائغة، حفظا لمصالحها، وتسابقا للحصول على الاستراتجية المنقطعة النظير، والتى اكسبه اياها موقعه على بحرين اثنين، هما ممر العالم القديم والجديد، والذين يفصل بينهما برزخ مثلث سبتة وجبل طارق وطنجة، فسال لعاب الدول التى تأمل لنفسها خلود عظمتها لتقوم العالم بأسره، كأنها وكل اليها أمر البشر من عند خالقه القدير.

فمن جهة كانت انجلترا ترى أن امبراطوريتها التى لا تغيب عنها الشمس، والتى تضم بلاد التوابل التى طالما كانت هذه التوابل فى غابر الازمان، تحث الاساطيل التجارية البحرية لتقطع عباب مختلف البحار من أطلس وهادى وهندى، لتصل الى شبه جزيرة الهند، لترجع مثقلة بتجارة رابحة، وان المغرب بعد فتح قناة السويس أصبح أمره حيويا بالنسبة لجواره لجبل طارق، فلا يرتاح لها بال الا اذا كان مضموما الى التاج البريطانى، وطالما حاولت عمليا احتلال طنجة، وردت على الاعقاب، لتأمين سلامتها، وقلعتها المنيعة، التى تقبع على شرايين الممرين لتضرب عرض البحرين المتوسط والاطلسى.

ومن جهة ثانية فان فرنسا قد كسبت الجزء الاكبر من شمال افريقيا، وهى فى عظمتها لا تسمح لاحد أن ينازعها سلطتها فيما وراء البحار، فكل تدخل من غيرها يعتبر طعنا فى عظمتها، واحتقارا لها، فاذا كانت

انجلترا تحافظ على سمعتها الاستعمارية، وأساطيلها البحرية فان فرنسا كذلك أصبحت شريكتها فى نفس السبيل، فهى لا تقل عنها كبوليس عالمى يجب أن يهتم بشؤون البلدان والناس أجمعين، اينما كانوا، فى الهند او فى افريقيا السوداء أو افريقا البيضاء، فلا غرابة أن تتنافس على امتلاك المغرب، بل تزعم الاسبقية التى لا نزاع فيها .

ومن جهة ثالثة فان اسبانيا، هى بدورها تدعى اسبابا تاريخية وجغرافية، وبالاخص انها تعتبر نفسها موتورة من جانب المغرب، فطالما احتل هؤلاء أراضيها، ولم تنج من العثرات التى أصابتها من جراء ذلك، ألا بعدما انحص ذنبها، وان اكتساح العرب لبلدها لم تأت حملاتهم ألا من الشواطىء المصاقبة لها، وانها ان تلكأت عن احتلال المغرب وعلى الاقل تلك الشواطىء، فانها قد لا تنجو مرة أخرى من تلك الصدمات .

على أن الشواطىء التى احتلتها فى مليلية وسبتة وما بينهما لا يكفيها لضمان استقرارها فلابد من توسيع رقعة تلك الجيوب، وانها ان لم تسارع الى انتزاع حقها فانها قد لا تجد فرصة أخرى وخصوصا أنها رجعت بخفى حنين من مستعمراتها فى آسيا وأمريكا اللاتينية، وشيعت من معقلها الاخير فى كوبا بكثير من الشماتة .

وفى خضم هذه الاطماع والمصالح المتضاربة، حاولت المانيا قبل الحرب العظمى ان لا تترك منافسيها التقليديين يرجعون بالغنيمة الباردة بدون مقابل، فكان ماكان من تظاهر غليوم بطنجة ثم ارضائها بجزء من الكونغو .

كما اهتدى أخيرا المتنافسون المعنيون بالامر ممن أشرنا اليهم الى الاتفاقات الثنائية التى جرت فى سنة 1902 وسنة 1904 الى سنة 1912، وذلك لاقصاء المانيا عن المغرب، نظرا لعدم ارتياح كل من فرنسا وانكلترا لوجودها فى المغرب، ولو بتأثير غير مباشر، كما لا ترتاح انكلترا لوجود فرنسا على الشواطىء المقابلة لجبل طارق، ذلك ما دعاها لان تساهم لصالح اسبانيا، التى اختارتها لانها ضعفت لفقدان مستعمراتها، فهى لا يخشى بأسها، على أن لا غضاضة بأخذ فرنسا القسم الجنوبى، على أن لا تعكر على انكلترا عملها فى بلاد النيل.

وهكذا شاهد السيد عبد الكريم هذا الصراع، وكان يتفهمه جيدا كما شاهد تصارع الرأسماليين على شراء امتيازات مناجم الريف المعدنية، التى حسبوا أن جبال الريف ما هى الا بركان تتفاعل فى باطنها مختلف المعادن، لا تلبث أن تلفظها الى ظهرها، وان السعيد من حاز قصب السبق فى امتلاكها وقد دشنت اسبانيا هذه الحملة فى معدن الحديد بالناضور، ثم تبعتها اخوان منسمان الالمان الذين يعتبرون أول المكتشفين الاوربيين الذين وصلوا الى منطقة الريف، بحثا عن المعادن، وقد حاولوا اضفاء الشرعية على عملهم باستصدار اذن من طرف ملك المغرب لشرائهم الامتياز لكن مساعيهم باءت بالفشل، نظرا لعدم ارتياح فرنسا لوجود البعثة الالمانية تنقب على المعادن فى منطقة حساسة فأوعزوا الى السلطان باصدار ظهيرين اثنين بتاريخ يناير سنة 1914 بتأليف لجنة تحكيم للنظر فى وثائق الامتياز التى يدعيها الالمان، وبالطبع فقد أصدرت المحكمة قرارا بالغاء الامتياز وبالاخص ان المانيا كانت منيت بهزيمة الحرب العظمى، ثم جاء من بعدهم المثرى الاسبانى المدعو اتشافاريتا دى بلباو، فاتصل بالسيد ابن عبد الكريم الذى كان الرأس المدبر لحركات الريف، وبينما هو كذلك اذ زحف الجنرال سلبسترى فى الخط الشرقى الى تفرسيت، مما جعل كل المحاولات التى تتعلق بالاقتصاد فيما بين اسبانيا والريف تتوقف .

وفضلا عن ذلك، فان القضية التى أيقظت الوعى القومى بكل احاسيسه تجلت بكل مظاهرها فى النشاط الذى ابداه مع الزعيم السيد محمد العزوزى بعد وفاة سيدى محمد أمزيان لانماء الوعى الوطنى فى رجال تلك القبائل حيث قاما فى سبيل القضاء على الثائر بوحمارة، الذى جاء مناسبة لقدح زناد ذلك الوعى، فأتى الثمار المرتجى من حماسها المنقطع النظير، فتوحدت العزائم التى انبثق عنها دحر ذلك الماكر، حيث أعطى ذلك الحماس نتائج هامة بالنسبة لنسيان الضغائن الدموية بين العشائر من جهة وبالنسبة لايقاد شعلة النعرة الوطنية للذب عن الدولة ووحدتها من جهة ثانية .

ولاجل استقصاء البحث فى هذا المجال أعيد المقال الذى كنت نشرته فى مجلة الانيس والذى صدرت به بحثى «الثائر المهزوم» نظرا الى أن هذه القضية تعد مبدأ النهضة القتالية فى الريف ضد الخارجين وضد الغزاة معا .

يــوم أغر لنصر العرش العلوى فى الريــف (1)

«سنضرب الافعى الى رأسها، يــوم نستولى على هذا السهــل انوارف الظلال، ولا يبعد ذلك عن يومنا هذا» بهذه الجملة، استهل أســود قاتم على رأس حملة (برتبة قائد الرحى) فى جيش بوحمارة الزرهونى (2) قالها، وأنفه شامخ للسماء، وذلك عندما أطل بجيوشه، من ربــوة تمسامان بالمحل المعروف «بالقامت»، عند مطلع الشمس، كأنهم رؤوس الشياطين، وقد ترآى لهم سهل النكور ــ غيس، منبسطا مخضرا، قد التوى فى وسطه نهرا غيس ــ النكور، التواء الرتقاء قد انفصلت عنهما جــداول السواقى مخططا بذلك رقعا مختلف الحجم والاشكال .

من هذه الربوة وبعدما خامرته نشوة الطغيان، فركب رأســه فى الهواء، وقد أتى لتأديب قبائل بنى وريا غل، التى تسكن هذا الجنان وحدها، والتى ما فتئت تظهر العداء الكاشــف للسلطان الجديــد، مستعيرا اسم مولاى امحمد بن الحسن الناقم على أخيه ــ مولاى عبد العزيز عمــه ــ وقد تساءل أى باس عند هذه القبيلة؟ التى تمردت على هذا الفاتح العظيم؟ الذى اخضع قبائل ضفتى ملوية ــ كرت بعدما عبأ وزير الحربية العــربى المنبهى الجيوش الجرارة، فساق سبعين الفا أو يزيدون فى تعبئة عامــة، من أقصى سوس الى تافلالت، بمعونة قائد المشور، السيــد ادريس ابن يعيش، فكانت وقائع بوادى الدهر صفر عام 1322 (1904 م) (3) .

---

(1) نشر المؤلف هذا المقال بمجلة «الانيس» عدد 94 السنة التاسعــة ــ ربيع الاول 1374 نوفمر 1954 كما ضمنه كتابه «الثائر المهــزوم»

(2) أصله من جبل زرهون بدشرة أولاد يوسف ــ اتحاف اعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ج. أ. ص. 400 .

(3) اتحاف اعلام الناس ــ الجزء الاول ــ للبحاثة الشريف العلوى مولاى عبد الرحمن بن زيدان .

من هذه الربوة، ربوة تمسمان (1) وفى حالة هذه الخواطر أمر جنوده المطلة على ذلك السهل، أن تتسلل شعاب الجداول المنحدرة الى وادى النكور على ضفته الشرقية وأطلقت هذه (2) تجرف الاخضر واليابس وتتسلق الهضاب والمرتفعات الخلفة عن تلك الجداول، كأنها يا جوج وماجوج، فى زحفه اللانهائى، يحدوها الطغيان والفساد، منتهزة الفرصه لكى تشبع نهمها دما ومالا، وقد أباح لها رؤساؤها الاعراض والاموال، فهى مطلقة الاغلال، لكى ترغم أنف هذه القبيلة التى تمردت، والتى ما فتئت مصرة على تمردها، وقد علم ذلك من حوار وقع بين أحد قواد قبيلة تمسمان، المدعو عمر أفقير (3) رئيس فرقة تروكوت، وبين أحد قواد بنى وریاغل المدعو عمر بن طاهر (4) رئيس بنى عبد الله، قال الثانى للاول :

ـ انك تعد من حلفاء بنى وریاغل .

ـ نعم أنا أعد نفسى من القبيلة لا حليفا فقط .

ـ اننا نريد أن نتلاقى مع قائد بوحمارة عند قمة تمسمان بالقامات (5) لنقاتله ثمة قبل أن يصل الى الديار هنا .

ـ أنا لا أظهر العداء للمخزن، فلا أترككم تقاتلون فى بلدى .

ـ ان قائد بوحمارة هو عبد (وكان أسود اللون) ان لم نقبض عليه ونبيعه فى الاسواق، فان قبيلة بنى وریاغل لم تلد الاحرار .

---

(1) تمسمان قبيلة من قبائل الريف الوسطى الخالصة وفى أراضيها كانت وقعة دهار ابران المشهورة مع اسبانيا سنة 1921 التى دشنت بها الثورة التحريرية الريفية، تحت زعامة البطل المغربى الشهير محمد ابن عبد الكريم الخطابى فقد انكسر فيها الجيش الاسبانى انكسارا تلته انكسارات الى ضواحى مليلية .

(2) كانت هذه الحملة عام 1326 سنة 1908 .

(3) كان رئيسا للفرقة تروكوت شجاعا لا يشق له غبار .

(4) من فرقة بنى عبد الله احدى قبائل بنى وریاغل التى لها تاريخ .

(5) محل بقمة قبيلة تمسمان شهد ابان الحرب التحريرية بالريف مؤتمرات للمجاهدين وكان معسكر المجاهدين ومنه صبت الهجمات على العدو .

ـ افعلـــوا ما شئتم ، أما أنـــا فـــلا .

لهذا كان الشرر الذى يندفع من عينى القائد الاسود، يلقى درسا على جنوده ليجعلوا من أنفسهم جنودا مثل الا بالسة، فى صيحاتها وتسلقها الاشجار والهضاب، وقد اصطحب فى طريقه من قصبة سلوان ـ مقر عمل الثائر ـ بعدما طرد عامل الدولة وقائدها السيد محمد الامرانى، رعاعـــا من الناس لا يحملون فى أفئدتهم رحمة أو شفقة وهم فى صيحاتهم المفزعة ررعوا الفزع فى القلوب، وعلى رأسهم قائد مرعب أيضا، وحتى بصورته الفحمية، صورة طبق الاصل من صور أولئك الابالس، الذين تسرد أسماؤهم العجائب فى حكاياتها المفزعة عند مسامرتهن .

كان القوم يعلمون أن جيوشا جرارة تزحف من قصبة سلـــوان لتأديبهم، ويعلمون فوق ذلك أنها تجمعت من أصناف مختلفة من الخلـــق دوى طبقات متباينة، فمن رعاع جائعـــين، الى ذوى حيثيات ومقامـــات، ورؤساء قبائل كرت وملوية، ومن أبيض اللون الى أسمره، وان هذه الحملة التى سيقوم بها، تشمل الخط الممتد من بين سواحل تمسمان شمالا، الى كزناية ومرنيسة جنوبا ويكون الزحف متحدا وفى نفس الوقت .

وقد أطلق رؤساء القبائـــل منادين ينـــادون فى الاسواق لتقاطـــر السكان على حد الصائم الى مقر عقد المؤتمرات، بأربعاء أمزرون، وقـــد خف السكان قاطبة وعقد رؤساء القبائل مجمعا عامـــا لبحث الحالة عـــن كثب وكان هؤلاء الرؤساء أشبه ما يكونون بقواد عسكريين، لا يخالف لهم الامر، فاجتمع عن المرابطين الحاج عمـــر محمادى (1) وحمو بن الحـــاج عيسى (2) والسيد احمد بورجيله (3) وعن آيت على، الحاج حدو بـــن

---

(1) من قرية دردوشا وكان رئيسا مجربا فى الحروب وله كلمة مسموعة فى فرقة المرابطين توفى قبل الحرب الريفيـــة .

(2) كان رئيسا للمرابطين وهو من شرفاء زاوية سيدى عيسى توفى فى حادثة سوق احد تيسار، فى قضيـــة مشهورة .

(3) كان رئيسا داهية فى شؤون الريف وكان مسموع الكلمة يقطن قريـــة آل هشام، مات فى مبدأ الحرب الريفية اغتاله أحد السكان .

طاهر وحمو بن تقلعيت وحمو حميت (1) وعن آيت يوسف وعلى، السيد محمد شيدى، والحاج عمر بن حدو البهمى من الخطابيين (2) وعن بنى بوعياش السيد عبد السلام الحاج محمد البوعياشى (3) وأموح أمزيان (4) وعن بنى عبد الله، عمر بن طاهر والسيد عمر محمادى وامحند

---

(1) كلهم من فرقة آيت على كانوا رؤساء لقومهم، توفوا قبل الحرب الريفية بقليل واليهم يرجع الفضل فى تموين الحملة ضد بوحمارة.

(2) كان رئيسا لآل خطاب وهو من قرية أجدير والثانى من قرية بوهم وهما من الشجعان الكبار توفيا قبل الحرب الريفية .

(3) من المجاهدين الذين تولوا رئاسة الناظرة الحربية فى الحرب الريفية (أنظر كتاب «المغرى ومراحل التهدئة» للجنرال الاسبانى غوديد صحيفة 84) (MARUECOS Y LAS ETAPAS DE LA PACEFICACION) وتحت امرته انهزم الاسبان بموقعة هار ابران وأنوال، وبعد موقعة تفرسيت وتيزى عزا تولى قيادة الخط الغربى والجنوبى بشفشاون ضد اسبانيا وفرنسا وعلى يده استسلم الريسونى وانسحاب الجيوش الاسبانية من شفشاون وتلمبوط، وكانت موقعة السهل الاحمر ببنى حسان التى قتل فيها جنرالان ودمرت دبابتان وعدد لا يحصى من اللفيف الاجنبى، وفى الجبهة ضد فرنسا كانت انهزاماتها بالرهونة وغزاوة وعند نزول الاسبان بالحسيمة تولى قيادة الخط الشرقى الشمالى بالسوانى بأسفل أجدير وهو من رؤساء بنى بوعياش، وبيد عائلته ظهائر ثمانية من ملوك العلويين المنعمين، باحترام أجدادها احترام الشرفاء أولها ظهير بتاريخ 1149 هـ. للسلطان مولاى عبد الله بن مولاى اسماعيل، وآخرها ظهير لمولاى عبد العزيز بتاريخ 1320، بتجديد تلك الظهائر، وبناء على تلك الظهائر كانت كلمة تلك العائلة ثابتة الاعتبار وقد توفى رحمه الله فى 24 رمضان عام 1365 هـ. (1945) بعد أن أطلق سراحه من سجن مليلية على يد الاسبان الذى قضى به أربع سنوات بعد انتهاء الحرب الريفية وهو والد المؤلف .

(4) من قرية أغميرون توفى قبل الحرب الريفية ــ التحريرية ــ.

ابن على المساوى (1) وعن بنى حذيفة امحند بن سى عمر، وبوطاهـر مكوط، وعمر شكـوح (2) .

ومع هؤلاء الرؤساء المعاونون، فكانت الاسئلة التالية تتـردد على الالسنـة :

ـ نرى هل نصمد أمام هؤلاء الابالسة المرعبين؟ الى الفناء الاخير أم نذبح الذبائح قربانا لهم ؟

ـ ان الرعاع الذين أتوا لم يحضـروا الا لاشباع نهمهم مـالا ودما، فمهما كان الامر فانهم لا يكتفون منا بالذبائـح .

ـ الحل الوحيد اذا هو الموت وحده .

وأخيرا قر الرأى على الدفاع مهمـا كلف الامر، وكان الـرأى أن تكون الملاقة فى «القامت» عند قمة جبل تمسمان، قبل أن يصل الى الحدود، ولكن عمر أفقير شيخ فرقة تروكوت حاور عمر بن طاهر وكان بحضـور السيد احمد بورجيلة، وقـد تقدم ذكر ذلك، وفى هذه المحـاورة أخذ هـذا الاخير غبرة من الارض وذرها فى الهواء فى وجه شيخ تروكوت علامة على عدم الاهتمام به، وبالجيوش الزاحفة، وكان ـ أى بورجيلة ـ فيه نوع من الجذب فتوعده بان الرصاصة الاولى تصيب منه الدم، وقد استجاب الله دعاءه، فقد جاءت رصاصة فى الجولة الاولى وأصابت قريبا من أقرباء عمر أفقير الذى قاتل مع الحملة الزاحفة، واثر هـذه المحاورة انفصـل الجمع عن الجيشان والامتعاض .

---

(1) كانوا من رؤساء بنى عبد الله ومن الشجعان الكبار، توفـى الاول عند احتلال الاسبان للريف قتلوه رميا بالرصاص لما كانوا يخشون من بأسـه .

(2) كلهم من قبيلة بنى حذيفة كان الاول حكيما رزينا لا يتكلم أحد عن حضوره لما له من اصالة الرأى ولم يستعمل سلاحا بل كان سلاحه الكلام البليغ، والثانى والثالث كان لهما اقدام وشجاعة، الثالث توفى قبل الحرب التحريرية والثانى سجنه الاسبان بمليلية بعد الاحتلال واثر خروجـه توفـى .

(1) استيقظت القبيلة صبيحة ذلك اليوم لترى جنود قائد الرحى ينحدرون الى قرية بوزويقة (2) آخر قرية من تمسمان متآخمة لقبيلة بنى وریاغل عند مبدء سهول النكور، وكانت طليعة الجيش قد نصبت الاقبية منتشرة فى الفضاء، تظهر ناصعة البياض كالنجوم فى كبد السماء .

لقد خيم الوجوم على وجوه الوفود المتقاطرين الى أمزورن (3) والهلع يملاء أفئدتهم، والحملة بازائهم بطبولها وابواقها تنفخ فيها، ايذانا بشدة بأسها، ولزرع الفزع فى قلوب المتآمرين ضدها، وقد انتظرت الساعة الملائمة، لكى تنقض انقضاض الصاعقة، لتدكهم دكا، وتصيرهم قاعا صفصفا .

بينما الامر على أشده من الهلع، اذ يقدم الحاج حدو بن طاهر الموسى وعمارى على فرس انثى من داره بافتسا، على شفا نهر نكور حذاء مخيم العدو .

وقد أطلق عنان فرسه فى اختيال لكى يبلغ المؤتمر المنعقد، خبر محلة العدو، ولشدة الهلع لم يميزه أحد، بل كان الظن أنه من طلائع الحملة، فما لبث أن أمطروه بوابل من الرصاص، وكاد أن يردوه وبعد لأى تمكن بعض الحاضرين من اسكات الرصاص معلنا أنه من قوادهم، وانه أتى اليهم بأخبار المحلة، غير أن هذا الحدث كان مشجعا لهم لكى يمضوا فى خطة الدفاع والصمود، لكى يكيلوا لها بالمكيال الاوفى .

قام رئيس بنى عبد الله السيد عمر بن طاهر ليشد من عزم المؤتمر، ولينفث الروح المعنوية، فأمر المنادى ذا الصوت الجهور احمد لوليشكى (4) بأن ينادى باعلان الحرب، وان من ولى الادبار لا يتزوج

---

(1) نشر بمجلة «الانيس» عدد 95 السنة 9 نوفمبر 1954 .
(2) قرية للشرفاء البوزويقيين من تمسمان هناك عسكر جيش بوحمارة.
(3) قرية بسهول أجدير بين وادى غيس والنكور والآن فى عمارة مستمرة.
(4) عمر رحمه الله 135 سنة وكان مزواجا تزوج 24 امرأة ما بين مطلقة ومتوفاة وكان دائما يمسك أربعة، وهو من أصل قبيلة بنى وليشك وأبوه حدو محمادى أشرقى هو الذى استوطن بنى بوعياش حيث هاجر من قبيلته لقتله شخصا وهو كثير الاولاد تبلغ الآن ذريته حوالى 700 نسمة ما بين أولاد وأحفاد .

من القبيلة ولا يتزوج من عنده، ومعلنا تقسيم الدفاع تقسيما حربيا تقوم كل فرقة بالدفاع عن القسم المخصص لها، ففرقه بنى بوعياش بقيادة السيد عبد السلام بن الحاج محمد وأموح أمزيان، جهه مدينه النكور (1) وحوض حواء وقمة سيدى البرقى ويليهم شمالاً، فرقة بنى حذيفة برياسة امحند بن سى عمر، وفرقة بنى عبد الله برياسة عمر بن طاهر ثم فرقة آيت على وفرقة المرابطين وفرقة آيت يوسف وعلى متصله بالبحر شمالاً، فقامت حركة شعورية سادت أقسام القبيلة وتقوت فى النفوس المعنوية الحربية الى حد بعيد .

وقد وصلت الاقوات من القرى الى أمزورن مقر المؤتمر طيلة اجتماع الرؤساء فى الايام الثلاثة الاولى، ووضعت أكداس من الخبز تحت أشجار التين وقد وكل توزيعه الى ضمائر الاشخاص فكان كل من احتاج الى الخبز أخذ ما يكفيه كما أباح ملاك الجنات والفدادين ثمار أشجارهم للمدافعين يجنون ما لذ لهم .

نادى المنادى معلنا النفير العام الى حيث مقر دفاع كل ثغر معقبا على ذلك بأن المعركة تعد فاصلة فى حياة قبيلتهم، التى كانت الى دلك الوقت شامخة الانف، وانه ان قدر لها هزيمة فان اسمها سيمحى، وكان نظام الدفاع ان كل فرقة تتكمش جاثمة على الارض من دون حراك، وانهم يجعلون من السواقى المتسلسلة من الوادى خنادق حربية، لكى يخفوا أجسامهم ولكى لا يشعر العدو بوجودهم، حتى اذا أطلق لنفسه عنان الطغيان فى اكتساحه، وجاوز الخنادق الطبيعية، قام الجميع قومة رجل واحد، لقطع خط رجعة العدو، فيكون الثخن والقتل فى قفاهم فيضلون الطريق عند أوبتهم وان أية فرقة قامت وولت الادبار منهزمة، فان اللعنة تنزل عليها، ولا تبقى لها قيمة تذكر وتنعت بأوصاف الجبن والخذلان، وقد تفرقت الجموع الى أماكنها، وحرص كل عن الشجاعة اللازمة، فانكبوا

---

(1) المدينة التاريخية التى دار عليها بحث المؤلف، المعنون «بالريف بعد الفتح الاسلامى» .

على بطونهم جاثمين على التراب، حابسين أنفاسهم، مختبئين فى السواقى ومتسلقين الاشجـــار .

يـــوم المـــعـــركـــة :

فى الصباح الباكر بأحد الايام من خريف سنة 1326 هـ. موافق 1908 شوهدت حركة غير عادية فى المعسكر الثائـــر بقرية «بوزويقـــة»، وبدأت الخيل الجامحة من فوقها تلك الاشبـــاح المخيفة تتـــرآى غاديـــة وكانت الحملة فى غزوها تصحب معها مدفعا لم يكن يعرف عنه الا أنـــه يدك كل شىء يصيبه ويرمى الى بعيد وكان القصد من التسلح به زيادة الذعر، وأول ما بدىء به من الهجوم اطلاق قذيفة ترااأت للناظرين فى أفق السماء كحجر المقلاع، لا ينشأ عند اصابتها الهـــدف أى دوى، فانجلـــى عند ذاك الفزع عن القلوب، واستبشر المنكمشـــون فى تلك الســـواقى، والمتربصون تحت الاشجار ان لا خطر يهددهم من مفعول القذيفة، فانه قل أن تصيب الهدف، وانه فى استطاعة كل شخص أن يتجنب الوقوع عليـــه، لانها ترى فى السماء، وقد قهقه الجميع عندمـــا رأوا القذيفة فى السمـــاء كحجر المنجنيق .

فياما أشد ابتهاج المنبثين هنا وهناك، لانه لم يبق يفزعهم الا تلك الصور الخيالية لاولئك الجنود المرعبين الذين سيصطدمون معهم بعد حين، والذين نعتوا بكثير من الوحشية والصرامة والفتوة، ها قد انطلـــق أثـــر القذيفة الاولى سيل جارف من الخيالة تتجه صوب المناظلين وجهة «أمزورن» وقد لبس راكبوها السلاهيم السوداء التى أصبحت بعد عدو الخيـــول أجنحة لتلك الشياطين فيخيل للجاثمين أنه وان خانتهم خيولهم فارتـــدت بالرصاص، فان اصحابها تطير عند ذلك بأجنحتها وقـــد ترميهم بحجـــارة من سجين فتجعلهم كعصف ماكول، ومع ذلك فان هذا الوهم يتضاءل أمام العهد المأخود منهم أمام القبيلة، والسبيل الوحيـــد للنجاة هو الصمـــود والـــمـــوت .

ها هى الطلائع تقترب فى سرعة البرق، فتمر على الجاثمين وقد تملكوا أعصابهم، وحبسوا أنفاسهم، الا من وجبات قلوبهم التى أحدثهـــا

رهيب الموقف، وحتى أن الشجاع الصنديد الذى لا تفزعه الملمات فانه لا يتمالك أن تصيبه قشعريرة من مرور العدو بخيوله تقفز فوق السواقى، وقد مر الفوج الاول وتبعه الثانى وكان فى اثر ذلك فوج المشاة الذى سيعثر على الكمين بلا ريب، ولذا فان الوقت الموافق قد وصل واندلعت النيران من تحت الاشجار والسواقى، وكأن قضاء الله قد نزل، فلا ترى الا الخيول تلقى حتفها فتنكب على وجهوها انكبابا، وقد خانت راكبيها اجنحتيهم التى انغمست فى سيول من الدماء، والغبار والمنية تطوف أنصفوف، وتتخطف تلك الابالسة التى سلط عليها أبالسة أخرى أشد هولا منها .

ان الامر لمفزع حقا وموقع فى حيرة شديدة، فالمقاتلون تلدهم الارض وينبثقون من السواقى انبثاقا وقد أحس أولئك المختالون أنهم لا طاقة لهم بهؤلاء المغامرين الفتاكين المتولدين عن تلك السواقى والمتساقطين من فوق تلك الاشجار .

فى صيحات من نغمات زغاريد النساء اللائى شاركن المدافعين والتى انبعثت من الدور وحيطانها كالرعد القاصف، هنا بلمحة البصر كانت الخيالة قد انقرضت، بقضها وقضيضها ولم تبق الا الاشباح تتخبط فى دمائها، أما المشاة فلما رأت هول الموقف ارتدت على أعقابها وقد تبعها المقاتلون يثخنون فى قفاهم قتلا وسلبا، وبعد جهد جهيد وصل ما تبقى من مؤخرتها الى مركز القيادة، ويقع كل هذا والقائد الاسود يرى بعينى رأسه مصير جيوشه، وكانت شرارة عينيه التى يرسلها على أصحابه وذوى مشورته تلتهمهم التهاما، لما تملكه من الفزع الاكبر وكانت الاسئلة التالية ترد على شفتيه السوداويين ولا من مجيب .

ـ أين لنا قوة نصمد بها أمام هؤلاء الوحوش المتمردين؟

ـ بل أين لنا من ثبات نصعد به هذه العقبات التى انحدرنا منها فى مرح وخيلاء؟

ثم أين لنا الوقت الكافى لاستجماع بأسنا؟

ان المناظر لمؤلمة لمصرع جنده، الذى طالما دوخ به سيده قبائل التسول وغياثة وضفتى ملوية، ودخل بها تازة فاتحا، وخطب له به على

منبر وجدة (1)، ومع ذلك فان قبائل تمسمان، وبنى وليشك وبنى توزين ومطالسة، وبنى سعيد وبنى بويحيى، وكلعية، التى خلفها من ورائه لم تكن تدين لمولاه بالطاعة الا صوريا، لما تراه من بأسه وقد تنقلب عليه حينما تعلم مصير قوته، فكانت هذه الاسئلة كلها تدور على لسان القائد الاسود، ويتقلب بشرر عينيه فى تلك الوجوه التى يتكون منها أركان حربه، ولا يرى فيهم غناية، وها هى الجموع المعادية تقفو أثرا لهاربين من مشاتهم، أما خيالته فلم ينج الا واحد وصل اليه ليخبر عن مدى الكارثة (2) .

(3) لم يبق أمام القائد الاسود الا أن يتسلل تحت جناح الظلام لكى ينجو هاربا، فبعد بزوغ الفجر من اليوم التالى للهزيمة تسلل بما تبقى لديه من فلول جيشه، وتحين وقت غفلة القبيلة التى كانت فى نشوان الانتصار، الذى أحرزته حيث كانت منشغلة وسط أولئك الصرعى فى ساحة الوغى لتجمعهم أكداسا مكدسة، فى سوق أمزورن (مقر المؤتمر)، بينما هم كذلك اذ وصل رسول أعزل من عند قائد بوحمارة حاملا علما أبيض على عمود له يطلب من القبيلة السماح له للتعرف على جثة قائد من قواد الحملة سقط فى المعركة قتيلا، وانه ان سمحت بحمله فلها ألف ريال، ويدعى هذا الرسول الحاج عمر بن عبد الله من قرية «بوزويقة» فأذنت له فى البحثعنه وقد وجده صريعا فى أعلى أمزورن بسوق النساء (الجمعة)، ولما أعلم القبيلة بالعثور عليه استبقته لكى يرى بعينه جثته تحترق بعدما وضعت فوقه أكوام من الاحطاب، وعند انتهاء احتراقه البست الرسول قميصا أبيض قصيرا الى الركبتين وقلدته رأسه فى حبل من الالياف وأطلقته ليعلم القائد الاسود مصير جنده، بعدما طاف على تلك الاكداس من الجثث المجمعة (4) .

---

(1) اتحاف اعلام الناس الجزء الاول .
(2) عن شاهد عيان .
(3) نشر فى مجلة «الانيس» رقم 97 لشهر جمادى الثانية 1374 موافق فبراير 195- العدد العاشر .
(4) عن شاهد عيان .

وقد شيعه الفقيه القاضى المجاهد بل رئيس المجاهدين السيد محمد بن السيد احمد عزوز بقوله «وعند جهينة الخبز اليقين» وقد وصل الرسول اليه فى جوف الليل، ولم يكن الخبر الذى تلقاه منه بما رآه بعينه أقل وقعا فى نفسه، من أخبار الهزيمة نفسها، فلم يكن من سبيل لديه سوى الفرار ناجيا بنفسه ان أمكنت له النجاة بحمل ما خف من المعدات، وانقلب على أعقابه، ليقطع عقبة «القمث» فما أصبح الصباح حتى كان يتسلق وسط تلك العقبة فى اعياء، وقد ترك وراءه عمر أفقير فى جماعته ليحمى مؤخرته، وقد تصايح الناس من ورائه فى فرح بالغ الغاية، مقتفين أثره، فقد ناوشهم عمر أفقير بطلقات نارية من بناديق ربع تروكوت، ولكن سرعان ما أرسل رسولا، يجر وراءه ثورا لذبحه أمام القبيلة (1) مقدما لتوبة من عمله .

ومع استبقائه حيا فانه قد حرقت داره وديار أنصاره، وغنمت الأموال، وترك هو وافراد جماعته طلقاء، وقد اضرم النار فى صياح مروع، والهرج والمرج يبلغ عنان السماء، مختلطا مع طلقات البنادق.

أما القائد الاسود المنكود الحظ فانه تابع هروبه فى عدو بلغ به كل مبلغ، لكى ينجو، وبعد أن وصل قرية أجدير تمسمان (2) وبينما استراح قليلا، تابع فراره عن طريق بنى وليشك وبنى سعيد غير أن هذه القبيلة الاخيرة (3) منعته من المرور عليها فتجنب سالكا مفاوز أمطالسة، ولما وصل الى أربعاء تزمورت فى قلعية، حط الرحال خارج السوق .

وقد قيظ الله له هناك سببا لكى تنقض عليه قبيلة قلعية أيضا، وذلك أن أحد جنوده حاول الالتفات الى شابة كانت مع والدها الذى

---

(1) روهى عادة يقوم بها من يكون أتى اثما ازاء القبيلة فيذبح أمامها لتتجاوز الخطيئة .
(2) قرية بتمسمان على وادى بنى توزين وهى مشهورة بالعلماء والطلحاء.
(3) تدعى بنى سعيد الريفية، التى مركزها دار الكبدانى وهناك قبيلة بنى سعيد الجبلية ومركزها وادى لو .

يحمل كيسا فيه كمية من الشعير على أكتافه ليبيعها فى السوق فلما رآه يلتفت الى الشابة ويضحك أنزل من على كتفه الكيس الذى فيه الشعير، وكان معلقا فى رقبته بندقيتـــه، ففى طرفة عـــين كانت القذيفة تختـــرق دماغ الجندى الغاشم، وتصايح الناس، وكانت أخبار الهزيمة قد وصلـــت فى سرية، وتهامس الناس بها، فانقض القوم على تلك الفلول مثخنين القتل فيهم فما وصلوا الى سلوان الا بعد جهد جهيد (1) .

وقد تلقى بوحمارة الاخبار التى حملها اليه قائده المشؤوم بكثير من الهلع والفزع ورغم كونه مشعوذا من الدرجة الاولى، وانه عاش فى أطوار حياته فى كثير من المجازفات ومع ذلك فان هول الكارثة التى نزلت على هامة رأسه، قد دكت اخبولته، وشتت حياله، فأصبح حائرا، وكـــاد أن لا يعى شيئا من أمره وقد علم أنه فى آخر مرحلة حياته، أو على الاصح، فى آخر دور من أدوار روايتـــه التى كـــان حالفه النصـــر فى جميعهـــا (حسب زعمه) الا ما كان يترقب من نهاية الرواية، وها قد وصلت .

وعندما استرجع وعيه لم يكن أمامه الا سبيل الفرار، وبكثير من العجلة شد رحاله فارا سالكا مسلك وادى ورغة، الى بنى مسارة، فعندما علم السلطان مولاى عبد الحفيظ الذى خلف أخاه مولاى عبد العزيز فى الملك، عندما علم بطرده من الريف سير حملـــة وافته بنواحى مولاى بوشتـــى الخمار، واشتبكت معه فى القتال فذهب الى بنى مسارة محتميا بضريح سيدى عمران، ولكن لم ينفعه احتماؤه، فقد دخل عليه أحد القواد هـــو الناجم الدليمى (2) فقبض عليـــه .

انه عندما فكر أن يهجم على قبيلة بنى ورياغل، لم يكن يـــرى الا أنه يرسل احد قواده مع رعيل من الاوباش الهمج لتأديب احـــدى

---

(1) عـــن شاهـــد عيـــان .

(2) من المخطوط لكاتب يدعى السيد محمد عمر كـــان فى أيام تحركـــات بوحمارة كاتبا لقائد قصبة العيون سيدى ملوك وهذا المخطوط بخط يده وقد اشتمل على جميع مراحل ثورة بوحمارة بعبارة سلسة، يقع فى ثلاث ملازم الا أنه خال من تاريخ التحرير .

القبائل الخاضعة لنفوذه، وانه ما فتىء ان يرجع ذلك القائد منتصرا حاملا الاسلاب ومثقلا برؤوس من العصاة المقطوعة، لكى يستعرض تلك الجماجم على القبائل الاخرى، لتعتبر وتتعض ويدق الطبول احتفاء بالانتصار لتثبيت دعائم حكومته .

وقد كانت قبيلة بنى ورياغل قبل أن يغزوها تصانعه، وكان هو يتنكب ان يتحرش بها، ومع ذلك فانه كان يتصل ببعض الافراد أصحاب المطامع وذوى الضمائر الضعيفة، فربما أصدر الاوامر فى صورة ظهائر بتوليتهم المناصب أو باضفاء صفة الشرفاء بالاحتراب والتوقير ويظهر من قبوعه فى سلوان (1) أنه لم يكن على ثقة من تمكين أمره فى قبائل الريف الوسطى ، وكان يظهر له من هناك خشونة قبيلة بنى ورياغل (2) التى كانت تصانعه وتلتوى له وتعامله لا عن اعتقاد أحقيته فيما يعمله وانما كانت تدفعه بالتى هى أحسن، وهو من جهته كان يكتفى منها بذلك القدر من الطاعة المصطنعة، فقد سبق له ــ أى قبل الهزيمة بسنة ــ أن أرسل حملة لتأديب قبائل بنى وليشك وتفرسيت وتمسمان وبنى توزين، وعند انتهائه الى

---

(1) نشر بمجلة «الانيس» عدد 98 لشهر رجب 1374 مارس 1955 السنة العاشرة .

(2) تعتبر أمنع قبيلة فى الريف، وهى تنتمى الى صنهاجة المغرب، وكانت مقرا ولا زالت للشرفاء الحسنيين الذين آوتهم وأحبتهم، كما يوجد عنصر مهم للعرب، بسبب هجرتهم الى مدينة النكور والى هذه القبيلة ينسب البطل الشهير السيد محمد بن عبد الكريم الخطابى ، والخطابيون هؤلاء هم من أولاد عبد الله بن الخطاب الشريف الزيانى من ذرية ملوك تلمسان وتقدمت بالصحراء، ومن أحفاد عمران بن مولاى ادريس الاصغر الذى خص له بلاد الريف وبادس بعد موت أبيه كما ذكرت مبسطا قبل، وليسوا من خطابى صنهاجة الذين كانوا يقطنون أحواز فاس، والذين منهم ميمون الخطابى الذى ترجم له الاستاذ عبد الله كنون، فى سلسلة مشاهير رجال المغرب.

هذه الاخيرة المتآخمة لبنى ورياغل، رجع بعدما عاث فيها فسادا، وقتل وخرب وحرق ونهب، واكتفى من بنى ورياغل بستة آلاف ريال ذعيرة، حملها اليه خمس أفراد من القبيلة، وذهبوا بها اليه ومن بينهم الاشيب الوقور السيد عمر بن الحاج سعيد الورياغلى الكلتومى (1) وعندما وصلوا الى مخيمات بنى توزين أدخلهم الى خيمة، وأجلس بالقرب منها حارسا، بيد أنهم لم يدروا أهم ضيوف أم أسرى، فعمد أحدهم عجم عود الحارس وأمره بالرجوع، فعلموا أنهم مأسورون، فاحتاطوا للامر، وعندما وجدوا غرة اهتباوها، فقلعوا أوتاد الخيمة من الخلف ومع كل ذلك، فان قائد بوحمارة غض عنهم الطرف، واكتفى بالذعيرة فقفل راجعا الى سلوان .

وهكذا كان بوحمارة والقبيلة يتراوغان فى معاملتهم بينهم، فلا اخلاص ولا طاعة من جهة القبيلة، ولا ثقة ولا اطمئنان من جهته هو، وغاية ما يصل اليه نفوذه أنه يرسل ما يسميه بالظهائر بالتولية وربما ارسل رسائل التهديد (ففى محرم عام 1322 هـ. اشتكى اليه قائده المولى من قبله الذى أسلفنا ذكره) اشتكى من سوء معاملة القبيلة، فكتب اليهم كتابا .

وهكذا نراه يراوغ القبيلة ويتلون لها ولا يقدر ان يتحرش معها تقية لما عسى أن يحدثه اصطدامه بها .

وقد كانت هذه القبيلة فى ذلك التاريخ تحت رياسة العالم التحرير الشهم الهام الفقيه الشجاع، القاضى السيد محمد بن السيد حدو أو عزوز، من زاوية سيدى عيسى، وكانت له مكانة فى القبيلة لا تعادلها مكانة، وكان له عونا ما كان يمتاز به من ثبات الجنان، وصدق اللهجة واصالة الرأى ونبل المحتد، وكانت القبيلة عن أمره ونهيه تصدر وترد، وكان له القدح المعلى فى الذود عن العرش العلوى، عن اعتقاد دينى راسخ، فكانت همته النافذة وعزيمته الثابتة تقيم الثائر وتقعده وتقض مضجعه .

---

(1) من قرية اكلتوما، وهو شعلة من الحماس والذكاء والاقدام مع تدين ومروءة .

وأخذ الطريقة عن سيدى محمد العربى العلوى، وعن أبن عمه سيدى محمد بن احمد بعد وفاة الاول أيد الله الجميع، والكل فى ظل مولانا أمير المؤمنين الحسن (أى الحسن الاول) حسب قول المعرف به العلامة بودهور التوزانى .

وأيده فى ذلك سيدى احمد بن الخياط، بفتوى تؤيد المنظومة، التى تقدم نشرها .

ومن مناقبه رحمه الله أنه كان شعلة لايقاد نار الجهاد فى ابناء الريف، وله مواقف الابطال سواء ضد بوحمارة أو ضد الاسبان، وفى الواقع أنه أول من أسس نهضة الحرب التحريرية الريفية، وانه قام بتنظيمها مع المجاهد الشهيد سيدى محمد أمزيان الشريف الكلعى، وكان رحمه الله ينتقل بين القبائل والقرى بشكل عجيب لا لقاء ما ورد فى فضل الجهاد والشهادة، وكان يرأس قافلة تلو أخرى الى مواقع الجهاد ليؤازر سيدى محمد أمزيان، وكان يندد بالخونة الذين يعبرون الى جزيرة النكور حيث كانت مقرا للسياسة الاسبانية، وكان رحمه الله يتميز بحب الرسول صلى لاله عليه وسلم، وحب آله فى صورة عجيبة، يحكى أنه كان يبكى ليلا ويردد بعض الآيات الى الفجر، ولقيامه بالحث على الجهاد والدفاع عن كرامة المغرب فقد دبر له الاسبان من جزيرة النكور من اغتاله فقد بعثوا اليه بكمية هائلة من المال قائلين له اما أن تأخذ هذه الكمية وتسكت عن اثارة حماس الريف ضدنا، أو سنعطيها لمن يسكت لسانك نهائيا، فاختار الثانية وقال انى لا أبيع الشهادة بالثمن البخس، وشمر عن ساعد الجد فما كان من أحد الاشقياء من أبناء عمومته بزاوية سيدى عيسى يدعى أموح بن حدو بن الحاج عيسى الا أن اراده قتيلا شهيدا، ومما يلاحظ أن القاتل قتل على اثر ذلك برصاصة فى رأسه قتله المجاهد المدعو بوحتان، وأما أبناؤه فقد لزمتهم النعاسة الى يومنا هذا، تقدم الكلام عليه مستوفى.

وقد ورد المترجم له فى الرواية باسم قاضى الشباب، وهو الاسم الذى يطلقه عليه اخوانه المجاهدون، نظرا لحماسه وشدة بأسه ونشاطه المتزايد، ويلاحظ أيضا من الرواة ان الدفاع ضد بوحمارة يرجع اليه، ويستعمل كل أساليب التأثير لبلوغ الهدف .

وعندما رأى أن حملة الثائر رجعت من بنى توزين، واكتفت بالذعيرة، أراد عجم عوده ليصبر غور الضغينة التى يكنها للقبيلة، فكون وفدا من مائة من الشجعان تحت رياسة رئيس بنى حذيفة محمد بن سى عمر وموح أمزيان الاغميرى البوعياشى، وأوصى هذا الاخير بأن لا يقطع أمرا دون مشورة الاول، وكان رجلا أعزل تقوم فصاحة لسانه مقام الجحافل، وودعهم عند مرسى جزيرة النكور، فلما وصلوا تلقاهم رجل من قبيلة قلعية ممن كانوا يخالطون بوحمارة، فأعلمهم بأنه قد بيت لهم المكروه، وانهم ان استكانوا اليه قتلهم ليلا، وعند ذلك تقدم الرئيس محمد بن اسى عمر، وطلب من رفاقه أن لا ينبسوا ببنت شفة الا ما كان من تلبية اشارته عند اللزوم، وأمرهم أن تكون بنادقهم على استعداد لخوض المعركة ولو فى داخل القصبة، أما هو فقد قلد خنجرا من صنع محلى وتقدم القوم، فلما أشرفوا على القصبة تلقاهم القائد الاسود قائد الرحى، وكانوا يدعونه صاحب الوضوء، واستفهمهم عن رحلتهم، وما هو القصد من ذلك، فاجابه محمد بن اسى عمر (تعمية) بأن الوفد قدم ليتمثل أمام السلطان، لتقديم الطاعة ونفى ما يحاكيه الوشاة الحسدة من الاراجيف التى لا أصل لها، واختتم كلامه، بأن وفده لا يغادر القصبة حتى يصطحب معه السلطان، ليزور القبيلة ليقف بنفسه على مدى الطاعة، فانصاغ لذلك واظهر الرضى والقبول، ودخل على مولاه واعلمه بما سمع منه، فخرج الاذن الى الوفد بأن ينزل ضيفا على الحكومة (بزعمه) وحينئذ طلب محمد بن اسى اعمر الاذن لوفده بأن يذهب الى الوادى جنوب القصبة، ليتوضئوا ويصلوا، وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب، فاذن له فلما وصلوا الى الوادى أمرهم محمد بن السى اعمر بأن يجلسوا على الماء كهيئة شرب الحمام الذى يصطف ليشرب، ويكونوا صفا واحدا، وعلى مرأى من حراس القصبة كى لا يرتابوا ثم ان ادناهم ينتقل الى اعلاهم، ويتبعه الذى يليه، وهكذا الى أن يغيبوا عن الانظار، تدريجيا، وعندما يغيبون يطلقون العنان لأرجلهم تعدو فى فيافى «بوعاك» وأمرهم أن لا يبتعد بعضهم عن البعض، استعدادا للطوارىء، حتى اذا دهمهم الامر وطاردتهم القوة ناجزوها

فلم يتفطن الحراس الا عندما قطعوا مفازة بوعاك فى اتجاه معاكس، فلم تقف الكتائب المطاردة لهم على اثر، وبعد لاى وصلوا الى بنى ورياغل وقصدوا رئيس القبيلة ليجتمعوا بأربعاء أمزورن، وعندما اجتمعوا دخل عليهم شخص مجهول يحمل رسالة فيها طابع السلطان ملاى عبد الحفيظ كان القاضى المذكور يستعمل هذا الاسلوب وهو أنه كان يعد شخصا مجهولا لدى القبيلة ويزوده بكتاب ليدخل على المؤتمر كأنه رسول السلطان وكثيرا ما كان يعتمد على هذه الكيفية فى اثارة القبيلة لمصلحة العرش العلوى، فيتلقى هذا الكتاب ويقبله أمام أعين الناس ثم يقرؤه كأنه كتاب من عند السلطان، وهكذا كان مؤدى هذه الرسالة ان السلطان مولاى عبد الحفيظ يعلمه بتسيير حملة بقيادة أحد وزرائه، وانه يطلب من القبيلة معونة الحملة والدفاع معها وقيامها قيام رجل واحد لدفع الثائر.

وبينما كانت القبيلة تغلى غليان المرجل، بما بثه فيها من روح انتضال، انتصارا للسلطان الشرعى وكان هتافهم بنصره يعلو الى عنان السماء، كان قائد بوحمارة يستحث السير بحملته التى تتكون من طبقات مختلفة، ومن قبائل متجمعة من جبال غياثة جنوبا الى امطالسة وقلعية شمالا، لكى تؤدب الذين شقوا عصى الطاعة، فكانت النهاية المحتومة .

وهكذا انتهت (1) تلك الثورة التى طالت وكبدت الحكومة المغربية خسائر فى العدد والعتاد فكانت تلك الهزيمة الشنعاء فى وقعة عقدة الارانب فى رمضان عام 1320 هـ. وكان ابتداء القتال فيها بين الجيش الحكومى الذى يقود قسما منه مولاى عبد السلام الامرانى، ويقود القسم الآخر مولاى الكبير ابن مولاى الحسن (الاول)، وقد بدأت المناوشات بينهما فى قصبة بنى مطير، واعتصم الثائر بجبال غياثة، وقد عزز السلطان مولاى عبد العزيز هذين القائدين بقائدين آخرين هما السيد محمد الامرانى وعامله السيد عيسى بن عمر العبدى على رأس المتطوعة (المحلة)، وما كادت الشمس ان تغيب حتى انهزمت قوة الجيش الحكومى، هزمها الثائر

---

(1) قبض على بوحمارة يوم السبت 5 شعبان عام 1327 هـ. موافق 21 غشت 1909 ومات يوم الاثنين 13 شتمبر 1909 بفاس .

بمعونة قبائل الحياينة والتسول وغياثة، وغنم أموال الجيش والذخيرة، وكانت نكبة عظيمة لحقت بالجيش، ودخل الجنود فاسا حفاة عراة (1).

وفى صفر عام 1321 هـ. (193 م) عبأ وزير الحربية المهدى بن العربى المنبهى جيشا جرارا من قبائل أقصى سوس وتافلالت جنوبا الى فاس شمالا، بمعونة قائد المشور السيد ادريس بن يعيش ويمم الجيش مدينة تازة، وعسكر بوادى الخضر، وكاد الانتصار ان يتحقق للوزير بفضل شهامة ابى هاشم المدنى السملالى، لما له من الكلمة المسموعة فى القبائل المحيطة بتازة، ولكن أعمال الجيش الحكومى الوحشية أثارت الاهالى على الجنود، وانضموا الى الثائر، ولم يفك عنهم الحصار الا حضور مولاى عبد العزيز بنفسه، على رأس جيش، وقد ذاق الجنود المحاصرون الامرين (2) .

ولما استقر الثائر فى سلوان (3) قاد مولاى عرفة جيشا ضخما يعزز به عامل الحكومة على وجدة احمد بن كروم المكناسى، وقد حارب ثائرا آخر يدعى أبا حصيرة اليزناسنى الذى ثار تحت اسم مستعار، وهو مولاى عبد العزيز، وقد انهزم عامل وجدة المكناسى المذكور، وفر حاملا أمتعته ولوازم جيشه الى مدينة مغنية حيث عسكر بجنده، واهتبلها بوحمارة فرصة فقصد وجدة جاعلا اياها عاصمة عمله، وقد خطب له على

---

(1) اتحاف اعلام الناس ـ الجزء الاول، وخطوط السيد محمد بن عمر كاتب قائد العيون فى ذلك الوقت السيد العربى الشرادى .

(2) اتحاف أعلام الناس أيضا .

(3) قصبة تمر بها طريق الناضور ـ مليلية ـ وتبعد عن الاولى جنوبا بنحو 12 كيلمترات، وهى قصبة منيعة بناها مولاى اسماعيل من جملة ما بنى من القلاع على وادى ملوية والريف سنة 1090 هـ. (1680 م) وانزل بها 500 من خيل العبيد بعيالهم، وذلك عندما بنى قصبة العيون سيدى ملوك، وقصبة رقادة، ببنى يزناسن تحت امرة قائده أبى البقاء العياشى الزوارى، وقد اتخذها بوحمارة عاصمة له، ومنها كان يوجه هجماته .

منابرها ودقت الطبول، وعزفت الموسيقى بدخوله وخروجه، ولم ينجل عنها الا عندما عزز السلطان جيش مغنية ببعثة سياسية، أرسلها عن طريق طنجة، على رأسها السيد احمد الركينة، والسيد احمد عبد الصادق الريفى مستشارا، فنثروا الاموال الطائلة على قبائل انكاد، وعندئذ تخلى عن وجدة، فرجع قافلا الى قصبة سلوان، ومن هناك جعل تسيير أعماله الحربية عن خط ملوية مسون، وقد انضم اليه ثمه الطيب بن بوعمامة، وعبد الملك ابن عبد القادر بن محيى الدين الجزائرى ولكنهما انفصلا عنه بعد ذلك وانضما الى قائد بنى بوزكو السيد حمادة حيث شاركا فى مذبحة رجال الثائر بدار القائد حمادة، راجع كتابنا الثائر المهزوم .

وفى دخول سنة 1322 هـ. قاد المدنى بن محمد الكلاوى جيشا وتلاقى مع جيش الثائر بقيادته فى سهول مسون ووقعت بينهما معارك، جرح اثناءها الثائر، وبعد برئه دخل تازة من غير قتال يذكر أما قبائل انكاد فانه بعدما أعفى رئيس البعثة السيد احمد الركينة، وحلفه فى الريسة السيد احمد بن عبد الصادق الريفى، وتعزز جانبه بالمال والجيش تمكن من احتلال الغزوات وعجرود والسعدية .

وهذه هى الاعمال الحربية المهمة، التى ذاقت فيها قوة الحكومة وخزينتها الخسائر الجمة .

ومن هذا العرض المجز يتضح عمل قبائل الريف الوسطى فى سبيل النضال عن العرش العلوى وبالاخص قبيلة بنى وريا غل، اذ قضت فى مدة قصيرة وبقوة ضئيلة لا تتعدى قوة شجعان قبائل معدودة، فازالت تلك الغصة التى جعلها الاستعمار مطية لقضاء أغراضه، فكبدته هزيمة شنعاء لم تقم له قائمة بعدها .

انتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثانى ان شاء الله
مبدأه الصراع العنيف العام ضد الاحتلال الاجنبى فى الشمال

الجـــزء الاول

الخـــطـــا	الـــصـــواب	الصفحـــة	الســـطـــر
طفاحـــل	فطاحـــل	6	2
أصليـــة	أصيلـــة	6	8
العبـــار	الغـــبـــار	7	10
الســـداجـــة	الســـذاجـــة	18	5
يقبلـــه	يقلـــبـــه	21	15
قتيـــل	قتـــيـــلا	21	16
حتقهـــم	حتفهـــم	22	15
فانهـــو	فـــانهـــم	23	23
عليـــه	عـــنـــه	34	20
وتيكســـاص	وتيكســـاس	40	23
طريقـــة	طريـــفـــة	41	7
عبـــد اللـــه	عبد الرحمـــن	46	19
الـــوالى	الـــولـــى	52	13
لتـــأديهـــم	لتـــأدييهـــم	60	4
منهـــا	منـــهـــم	160	5
الخـــدابى	الخطـــابى	61	16
القضـــاء	القضـــاة	69	16
لمكهـــم	لملكهـــم	70	25
يظـــاهى	يضـــاهى	75	10
تظاهـــر	تضـــاهى	75	14
اختـــير	اختـــبـــر	77	15
يحصـــروا	يحضـــروا	79	22
عبـــد الله	عبد الرحمـــن	81	2
الســـدج	الســـذج	83	23
تحـــديـــر	تخـــديـــرا	84	5
الـــربـــة	الـــزيبـــة	86	4
الفـــار	الـــفـــاول	86	5
بصطفـــة	بصـــفـــة	87	9
الفـــار	الـــفـــاول	87	4
لبناذقهـــم	بنـــادقهـــم	90	16
تجـــرء	تجـــرأ	93	24
الجارجـــى	الخـــارجى	75	17
الخـــالـــل	الخـــالـــد	100	28
والتـــى	والـــــذى	107	8
مظهر الكـــل	مطهـــرا لكـــل	110	12

الجـزء الاول

الخـطـأ	الـصـواب	الصفحـة	السـطـر
التطبيـب	التطبيـب	112	18
كرطـط	كـرط	119	10
والـدى	ولاـذى	121	2
يدعوهـم	يتوعـدهـم	124	21
ذنيهمـا	ذنبـهـم	126	23
ياتـاهـب	يتـأهـب	128	24
ذرعـين	درعـين	129	10
فانتقضـوا	فانتقضـوا	132	7
رجـلال	رجـلاى	134	13
الفصـل	الفـضـل	146	3
وكـن	وكـان	153	1
نفـس	نفسـى	162	6
اقـرأ له	أقـرانـه	163	24
بالتعلـم	بالتعـاليـم	174	2

الفهرس

كلمة	الصفحة
	4
مناضل من بدى	13
الزعيم ابن عبد الكريم الخطابى	14
الوحدة الوطنية فى مظهرها العملى	26
من هم الخطابيون	48
أجدير وموقع القرية	53
قبيلة بنى وريا غل مسقط رأس الزعيم	55
البيئة التى نشأ فيها ابن عبد الكريم	60
اشعاع جامعة القرويين	64
قصة وجود ابن عبد الكريم فى مليلية	71
الاسباب الحقيقية لسجنه	86
احتجاج فرنسا على اسبانيا	93
الوسط التاريخى والطبيعى لارضية المعركة	107
هجرة قبائل زناتة للريف	108
اقليم الحسيمة وموضع المدينة	111
حضارة تاريخية عبر شواطىء الريف	116
الوسط الطبيعى لهذا البلد	118
العرب والنكور	119
الامير ادريس مؤسس مدينة النكور	120
مدينة بادس	135
أبو العباس احمد الخزرجى	141
تأسيس مدينة بادس	146
رباطات المجاهدين على شواطىء البحر الابيض	152

الـفـهـرس

	الصفحة
الانـدلس تحيى بـادس	157
ابن السبعـين الفيلسوف ببـادس	163
البورغواطيـون ببـادس	164
على بن العافية البورغواطى والشيخ الحاج حسون	165
تغلب العـرب على بـادس	168
تخريـب بـادس	170
مـدينـة المـزمـة	171
لجـوء الادارسـة الى الشمـال	173
المنطقـة الاولى لنفوذ الادارسـة	176
المنطقـة الثـالثـة	185
المرينيون فى الريف الامير عبد الحق	187
عين الصفـا ودولـة بنى مـرين	192
الوطاسيون فى قلعـة تزوضـا	196
ثورة عمـر بن يحيى الوطـاسى	197
ابن الاحمر ووساطته عند السلطـان	198
نكبـة أولاد الامـير أبى بكـر	200
الوسـط الاجتمـاعى للريـف	206
جماعة من علماء وصلحاء وشرفاء الريف	207 — 299
ترجمة أبى يعقـوب البـادسى	300 — 343
نضـال مستمـر	344
القـلاع الخمس أو الجيـوب المأسـورة	347
مـدينـة سبتـة	348
القاضى عيـاض والموحـدون	353
عبد المومن بن على فى الـريـف	357
نقـود موحديـة فى باطن الارض	360
جـزيـرة بـادس	365

الـفـهـرس

	الصفحة
وضعيـة احتـلالهـا	368
استغـاثة على لسـان الشعـراء	374
جـزيـر النـكـور	376
مـدينـة مليليـة	377
الجـزر الجعفـريـة	381
الحـدود المغربيـة التـاريخيـة	382
الصحراء المغربية، وادى الذهب والساقية	386
الطرق الحربية عند أهالى الشمـال	408
المجاهـد سيدى محمد أمزيـان	415
المجاهد سيدى محمد العـزوزى	417
المجاهد عبد الكريم الخطابى الاب	424
يوم أغر لنصر العرش العلوى فى الريـف	435

المـــراجـــع التـــاريخـــيـــــة

ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر، فى أيام العـــرب والعجم والبربـــر لعبد الرحمن بن خلدون ـ توفى سنة 808 هـ. (1405 م) .

ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار المغرب ودولة فاس، لأحمد ابن الزرع، توفى فى بضع عشر وسبعمائة .

ـ المسالك والممالك ـ للوزير عبد الله بن عبد العزيز البكـــرى ـ توفى عام 387 هـ. (1094 م) .

ـ كراريس خطية من نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق لمحمد الادريسى، توفى عام 370 هـ. (1164 م) .

ـ تقويـــم المنصـــــور ؟

ـ المقـــدمـــة لابن خلـــدون .

ـ المقصد الشريف والمنزع اللطيف فى التعريف بصلحاء الريف (مخطوط)

ـ المعجب فى أخبار المغرب ، لعبد الواحد المراكشى المتوفى عام 625 هـ. (227 م) .

ـ الاستقصاء فى أخبار المغرب الاقصى ، لابى العبـــاس احمد بن خالـــد النـــاصـــرى .

ـ سلوة الانفاس ، ومحادثة الاكياس ، لابى عبد الله محمد بن الشيـــخ جعفر الكتانى توفى عام 1345 هـ. (1926 م) .

ـ مناقب الحاج حســون البقيـــوى (مخطـــوطة) .

ـ الحلل السندسية للامير شكيب أرســـلان .

ـ ازهار الرياض فى أخبار القاضى عياض ـ لابى العباس احمد المقرى.

ـ نفح الطيب ، من غصن الاندلس الرطيب ـ وذكر وزيرها لسان الديـــن ابن الخطيب ، للمقرى التلمسانى .

ـ كتاب العلوم والآداب والفنون فى عهد الموحدين، للاستاذ المنونى .

ـ مناقب أبى يعقـــوب البـــادسى لابى محمد عبد الله الاوربـــى قاضى الجماعة بفاس (مخطـــوط) .

ـ بحث للمرحوم السيد احمد المكناسى مدير خزانة تطوان سابقا، ألقاه فى مؤتمر الآثار العربية بفـــاس .
ـ الدرر السنية فى أخبار السلالة الادريسيـــة للشريف سيدى محمـــد السنوسى المتوفى سنة 1272 بليبيـــا .
ـ البيان المعرب من أخبار المغرب لابى عبد الله محمد المراكشى المعروف بابن عذارى من رجال عام 660 هـ. (1270 م) .
ـ الدرر اللآلىء فى ثبوت الشرف البقالى لابى عبد الله محمـــد الحاج العياشى السكيـــرج .
ـ نيل الابتهاج بتطريز الديباج لابى العباس احمد بابا السودانى .
ـ جـــذوة الاقتبـــاس لابن القاضى .
ـ درة الحجال ، فى اسماء الرجـــال لابى العباس احمد المعروف بابـــن القاضى توفى عام 681 هـ. (1282 م) .
ـ روضة النسرين فى دولة بنى مـــرين لابى الوليـــد اسماعيل يوسف المعروف بالاحمـــر .
ـ اتحاف اعلام الناس ، فى أخبار جمال مكناس للنقيب عبد الرحمـــن ابن زيـــدان .
ـ التاريخ والعبر فى نسب آل النبى المختار لسيدى احمد الصـــديقى البكـــرى .
ـ الدوحـــة لابـــن عساكـــر .
ـ بطـــل الريـــف ، لعمرو أبى نصـــر
ـ الروكى لسنيور أنريكى أركيس باللغة الاسبانيـــة .
ـ تاريخ تطوان للاستـــاذ محمد داود .
ـ مذكرات تشرشيل عن الحرب العالمية الثانية .
ـ ترتيب المسالك لمعرفة أهل مذهب مالك للقاضى عياض .
ـ الحركة الاستقلالية للاستاذ علال الفاسى .
ـ قلادة العقيان ، فى انساب عرب الزمان للمقريزى .
ـ زعيم الريف محمد ابن عبد الكريم الخطابى ، للاستاذ محمد العلمى .
ـ المنجـــد الاسبـــانى .

المؤلف (14 دجنبر 1917)

فاذا كان تكلم الكاتـــب، أى كاتب كان عن نفسه ومراحـــل حياتـــه، يجعله فى حرج نفسانى، فانه من الاقرار بالفضـــل لشيوخه وأساتذته، ان لا يمر عليهم مر الكرام، ويغفل ذكرهم ولو فى قائمـــة .

ولذا عنى لى هنا ذكر أولئك الشيوخ الجهابذة، الذين قدموا لامتهم كل خير ابتغاء فضل الله، وبالاخص أولئك الذين لهـــم الفضل الاكبر وأنا أتابع تحصيلى فى كلية القـــرويين فى أول عهدها بتنظيم الدراسة فيها تنظيما عصريا .

شيـــوخ خـــارج التنظيـــم :

1 ــ الشيخ الامام، وزير العدل الشريف الحسنى سيـــدى عبد الرحمان بن القرشى الفلالى (كان فوق الانخراط فى التنظيم، ومع ذلك لم ينقطع درسه فى القرويين فى الحديث الشريف، ولى معه رحلة الى الديار المقدســـة على نفقة المغفور له جلالة الملك محمد الخامس قدس الله روحه، مع شرف المثول أمام ملك الحجاز جلالة عبد العزيز ءال سعود) .

2 ــ شيخ الجماعة ورئيس المجلس العلمى بفاس العلامة الاصولى مولاى عبد الله الفضيلى العلوى. (كان فوق الانخراط فى التنظيم، ومع ذلك فقد كانت له دروس فى الاصول والفقه تضرب اليها أكباد الابـــل) .

3 ــ العلامة البليغ سيدى محمد أقصبى، (لم ينخرط فى التنظيم وكانت دروســـه فى البيان والبلاغة فريدة فى تحقيقها) .

4 ــ العلامة القاضى المحقق سيدى السايح (كان قاضيا ومع ذلك فقد افتتن الطلبة والجمهور بدرسه الليلى لسعة اطلاعـــه) .

5 ــ العلامة سيدى محمد الصنهاجى (خارج التنظيم وكان له جولات وتحقيقـــات فى الاصـــول) .

شيـــوخ داخـــل التنظيـــم :

6 ــ العلامة الاصولى المحقق سيدى الطائع بن الحاج (الاصول فى التخريجى) .
7 ــ العلامة المحدث سيدى الحسن مزور (الحديث والتفسير فى التخريجى) .
8 ــ سيدى الحسين العراقى العلامة الفيلسوف (فى فقه الزرقانى فى التخريجى) .
9 ــ سيدى عبد الرحمن العراقى العلامة الاديب (فى الادب والفقه والتاريخ فى التخريجى)
10ــ العلامة اللغوى سيدى محمد بن الحاج المعروف بالاعـــرج (فى اللغـــة والادب والتـــاريخ فى التخريجى) .
11ــ العلامة المتفنن سيدى العباس بنانى (فى المنطق والبيان والجغرافية فى التخريجى)
12ــ العلامة الفقيه سيدى حسن الزرهونى (فى فقه الشيخ خليل فى التخريجى) .
13ــ العلامة الحافظ سيدى عبد العزيز بن الخياط (فى المنطق والتاريخ فى التخريجى).
14ــ العلامة النبيه سيدى محمد الطاهرى (فى البيان والبلاغة) .
15ــ العلامة الحيسولى الموقت سيدى امحمد العلمى (فى الحساب والتوقيت) .
16ــ العلامة النحوى سيدى ابو سعيد المكناسى (فى الصرف والحساب) .
17ــ العلامة المؤلف سيدى بوشتى الصنهاجى (فى فقه الشيخ خليل) .

وفى المرحلة الابتدائية فى الريف كان عمدتى :

18ــ الفقيه النحوى سيدى محمد بن محمادى التوزانى الحسانى (فى النحو والفقـــه والتـــوحيـــد) .
19ــ الفقيه الموقت سيدى بوشعيب التمسمانى (فى النحو والفقه والتوحيـــد) .

مطبعة دأر امـــل ـ طنجـة